سلسلة
نصوص ودروس
أبحاث إسلاميّة

السّفينة الجامعة لأنواع العلوم

الجزء الأوّل

تصنيف
الإمام شيخ الإسلام الحاكم
أبي سعد المحسن بن محمّد
بن كرامة الجشميّ البيهقيّ

تحقيق
عبد الرحمن بن سليمان السالميّ



دار المشرق



السّفينة الجامعة

لأنواع العلوم

الجزء الأوّل

السّفينة الجامعة لأنواع العلوم

الجزء الأوّل

تصنيف:
الإمام شيخ الإسلام الحاكم
أبي سعد المحسن بن محمّد
بن كرامة الجشميّ البيهقيّ

تحقيق:
عبد الرحمن بن سليمان السالميّ



دار المشرق

السفينة الجامعة لأنواع العلوم - الجزء الأوّل

طبعة أولى ٢٠٢٤



الأشرفيّة - بيروت، لبنان

هاتف: ٢٠٢٤٢٣-١-٩٦١+

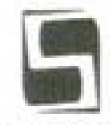
info@darelmachreq.com

www.darelmachreq.com

تصميم الغلاف، والإخراج: **فريق دار المشرق**

ISBN: 978-2-7214-8188-7

التوزيع:



فرن الشباك - بيروت، لبنان

هاتف: ٢٨٣٣٣٣-١-٩٦١+

info@librairiestephan.com

www.librairiestephan.com

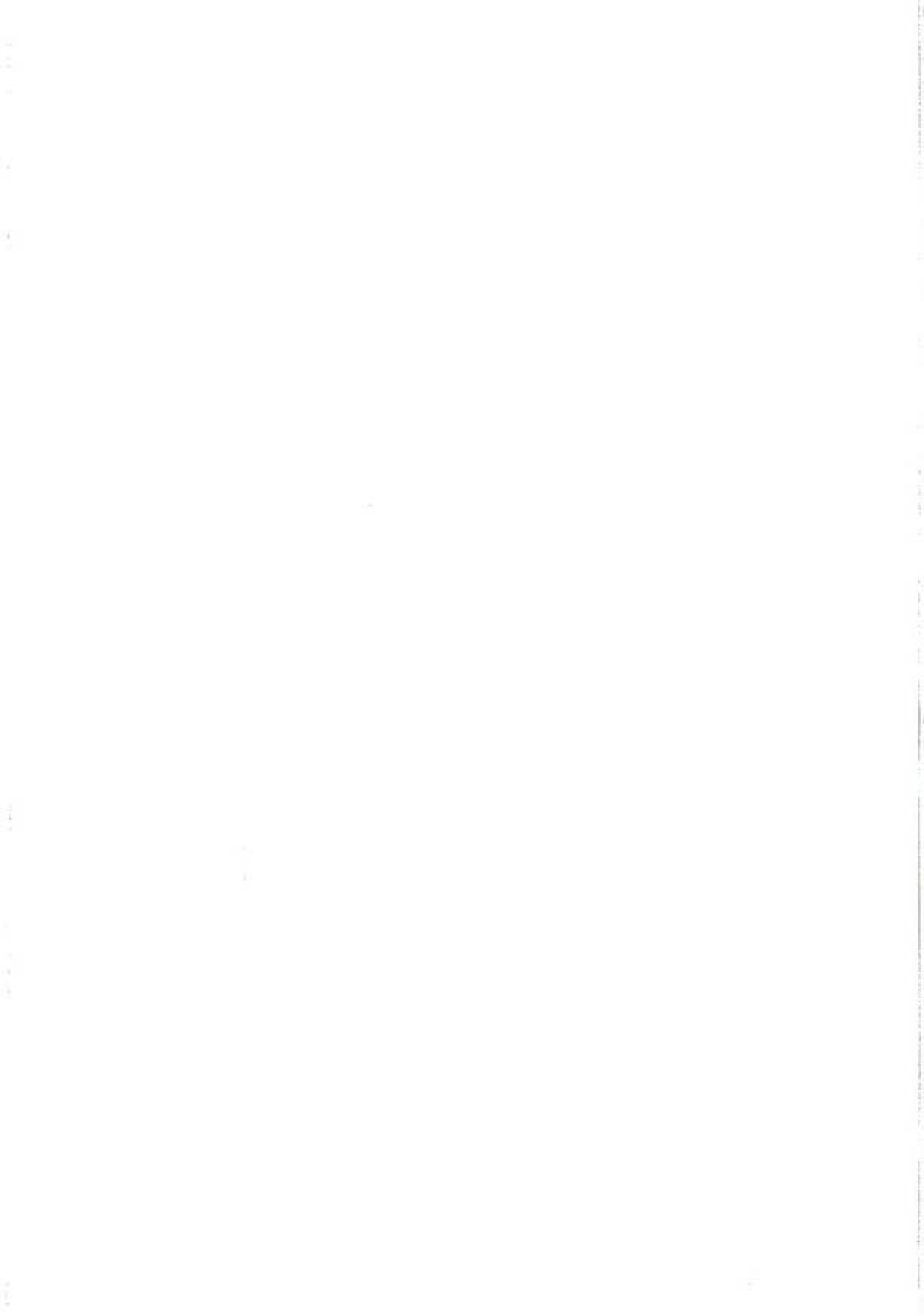
حقوق الطبع محفوظة © **دار المشرق ش.م.م**

جميع الحقوق محفوظة، لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أيّ جزءٍ منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأيّ شكلٍ من الأشكال، من دون إذنٍ خطّي مسبق من النّاشر.

إهـداء

إلى

داود وميـاء



شكر وتقدير

بدءًا، إنّ ما يجب علينا ونحن نستكمل إنجاز هذا التحقيق بتوفيق الله تعالى أن نستذكر الإمام المتوكّل على الله أحمد بن سليمان على ما أنجزه في حفظ تراث الإسلام. وما كان لنا نحن أن نستفيد من تراث المعتزلة ونوادر علوم الإسلام في العصور المبكرة لولا مشروعه الضخم في نقله مخطوطات المعتزلة من جبال طبرستان إلى اليمن، بل حتّى جلّ المخطوطات المعتزليّة حول مكتبات العالم هي في الأصل جُلبت من اليمن.

والشكر الجزيل للسيّد الجليل والعلّامة المحقّق عبد الله بن حمود العزي والذي واكب المشروع بالمساعدة بكلّ ما أمكن، والشكر موصول لمؤسسة المصطفى (صنعاء). و كذلك الشكر الجزيل للبروفسور السيّد العلّامة الجليل المحقّق حسين مدرسي الطبطبائي (برنستون). والشكر الجزيل والعرفان للجامعة الألمانيّة للتكنولوجيا - سلطنة عمان وكذلك الشكر للشيخ الدكتور حسين بن سليمان السالمي (مسقط).

وخالص الشكر للعلّامة الأستاذ الدكتور خالد عمر (الأزهر الشريف - القاهرة) الذي أسدى الكثير لإنجاز هذا المشروع. والشكر الجزيل للأستاذ الدكتور بلال الأورفه لي والأستاذ الدكتور ماهر جرّار (الجامعة الأمريكيّة - بيروت)، والأستاذ سليمان بابزيز والفاضل وليد بن محمّد العامري والفاضل محمّد بن خميس السناني والأستاذ محمّد بن سعيد بن علي الحجري بمساندتهم لإتمام هذا العمل. وكذلك جزيل شكري وتقديري للأختين العزيزتين رياء بنت سليمان السالمّية وعزاء بنت سليمان السالميّة وللأستاذة لمياء بنت سلطان السالميّة.

وخالص شكري وتقديري لدار المشرق - بيروت، وأخصّ بالشكر الجزيل الأب داني يونس اليسوعيّ والأستاذة آن - ماري شكّور والأستاذة تانيا زيدان.



المقدّمة

أ - أضواء وإشارات

بدءً في هذه المقدّمة، لن أتطرّق إلى الكتابة عن سيرة الإمام الحاكم (أبي سعد/ أبي سعيد) المحسّن بن محمّد بن كرّامة الجشمي/ الجِشمي (ولد في رمضان ٤١٣/ ديسمبر ١٠٢٢م) وتوفّي مقتولًا بمكّة المكرّمة (في شهر رجب ٤٩٤هـ/ مايو ١١٠١م)، نُسِبَ إلى بلدة جشم في خراسان، وجِشم بكسر الجيم وليس بضَمّها، وقد حدث تحريف في النسخ اليمنيّة، فقد عرف في اليمن بضمّ الجيم ممّا أحدث غلطًا في النسبة فجُشم بطون من قبائل عربيّة شتّى عرفت بهذه النسبة بعض منها في تغلب وبعض في هوازن، وأيضًا من ثقيف ومن الأوس ومن الخزرج. وهذا ما صحّحه، وأفاد به العلّامة السيّد حسين مدرسي. لكن للأسف لا يزال استخدام ضمّ الجيم بين الدارسين في الشرق أو البلدان الغربيّة ساريا.

ولذا فليس لديّ المزيد لأذكره عن سيرته عمّا كتبته في مقدّمة التهذيب في التفسير للجشمي وكذلك عمّا ذكره د. عدنان زرزور، والسيّد العلّامة المحقّق حسين المدرسي الطبطبائي، وقد أوضحت بعض النقاط في اختلاف الآراء بيننا[1].

ب - كتاب السفينة وثقافة الأقاليم

بعد مضيّ ما يقارب القرن على نشر التراث الاعتزاليّ في الأدبيّات الإسلاميّة الكلاسيكيّة يمكن للمتمعّن أن يعيد تقييم هذه المصادر، واتجاهات آراء مؤلفيها، والتحوّلات التي طرأت على هذه المدرسة الكلاميّة، والتي لا تزال تضخّ بفرائد من مكنون مخطوطاتها للباحثين. فالمراجع الببليوغرافيّة التي صدرت في القرن العشرين نحو تاريخ الأدب العربيّ لكارل بروكلمان، وكذلك لفؤاد سزكين تكاد تكون شحيحة بشأن المعتزلة، فبروكلمان لم يتجاوز

(١) الحاكم الجشمي، **التهذيب في التفسير**، تحقيق عبدالرحمن السالمي، ١/ ١٧-٥٦، دار الكتاب اللبنانيّ، ٢٠١٩؛ الحاكم الجشمي، **رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس**، تحقيق حسين المدرسي الطبطبائي، ٨-١٦، ١٩٨٦، بيروت؛ عدنان زرزور، **الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير**، مؤسّسة الرسالة بيروت.

القاضي عبد الجبّار كونه آخر المعتزلة، وبينما سزكين يقف مع ذكر الزمخشري. وقد توسّع اكتشاف مخطوطات المعتزلة في العقود الأربعة الماضية، ولا تزال هذه الاكتشافات تتدفّق، وذلك مردُّه إلى فهرسة الكثير من المكتبات الخاصّة في اليمن وغيرها من البلدان، وكذلك إلى قوائم فهارس المخطوطات للمكتبات العالميّة، حيث أعيد تقييم كثير من المخطوطات المتضمّنة نصوصًا اعتزاليّة، وهذه أحدثت شبكات واسعة للتعاون بين الباحثين وسهولة للحصول عليها وإخراجها. فالباحثون جلّ همّهم هو اكتشاف المعتزلة في دائرة علم الكلام؛ لكن إذا ما رغبنا تجاوز كتاباتهم خارج علم الكلام في الفنون العلميّة الأخرى في التاريخ والأدب واللغة وذلك للكشف عن تأثيرهم؛ فإنّ هذه المصادر المكتشفة بين أيدينا كلها أو في مجملها تتركّز على محيط أربعة رؤوس من زعماء هذه المدرسة، وهم الجاحظ عثمان بن بحر، وقاضي القضاة عماد الدين عبد الجبّار بن أحمد الهمداني، والحاكم المحسن بن محمّد بن كرامة الجشمي، وجار الله محمود بن عمر الزمخشري، ومن ثم فهم بهشميون باستثناء الجاحظ.

ولم يكن اختيار هذه النماذج اعتباطيًا أو إسقاطًا في الرأي، بل إنَّ هؤلاء الزعماء ينفردون في مصنّفاتهم وكتاباتهم المنشورة في تطرّقها وتجاوزها من محدوديّة علم الكلام إلى ثقافة المجتمع والإقليم وعصره، وتعكس أعمالهم ثقافة العصر آنذاك، فلم تكن تلك الشخصيّات محصورة في علم الكلام دون سائر العلوم. كما أنّ زعماء من هذه المدرسة ممّن ضاعت أعمالهم كأبي الهذيل العلّاف وإبراهيم النظّام والجبائيّين، أو ممّن عُثر على مخطوطات فريدة لهم نحو أبي القاسم البلخي وابن متويه وأبي سعيد النيسابوري، أو جزئيّات للأعمال نحو أبي الحسين البصريّ وابن خلّاد والصاحب بن عبّاد ونحوهم ما يمكن لنا أن نحصر مصاب جداولهم في هذه الأنهر والأبحر. في المقابل نرى التوزيع الإقليميّ للمعتزلة الممتدّ خلال القرن ٣هـ/ ٩هـ من المغرب حيث الأدارسة وحتّى خراسان، إلّا أنّنا مع انحسار هذه المدرسة لم نعثر على مؤلّفاتهم في كثير من هذه الأقاليم، وما عُثر عليه هو ضمن حيّز مجموعة الزعماء الأربعة. بطبيعة الأمر إذا رغبنا عمل مقاربة نحو تقسيم ابن خلدون لمتكلّمي الأشاعرة بين المتقدّمين والمتأخّرين يمثّل الجبائيان أبو عليّ (ت. ٣٠٣/ ٩١٥) وأبو هاشم (ت. ٣٢١/ ٩٣٣) حيّز الفاصل في هذا الشأن للمعتزلة، وبالأخصّ أبو عليّ الجبائي، فتأثير الجبائيّين أشبه بمحيطٍ تتمازج جوانبه مع أطراف متعدّدة، رغم فقدان جُلّ مصنّفاتهم خاصّة في علم الكلام وما فيها من محاورات أوسع مع الفلاسفة وفي علم أصول الفقه وعلم اللغة.

فالجاحظ كان يعكس ثقافة البصرة وبغداد حاضرة العالم آنذاك، بالرغم من أنّ جُلّ أعماله العلميّة التي عُثر عليها لم تكن في علم الكلام بل في الأدب واللغة، ولذا لا تزال كتبه حتّى الآن مداد نقد في اللغة والأدب، بل وفي مقدّمتها لدراسة الأدب العربيّ الكلاسيكيّ، وقد استطاع في أعماله أن يضمن كثيرًا من آرائه وآراء معاصريه الكلاميّة في أعماله الأدبيّة. وبدراسة الجاحظ نستطيع الكشف عن تجربة متنوّعة في الثقافة العربيّة - الإسلاميّة المبكرة في عموميّاتها، لكنّه يختصّ في ذكر نواحٍ شتّى منذ نشأة المعتزلة وامتدادها حتّى منتصف القرن ٣هـ/ ٩هـ. كما أن الجاحظ استطاع المقاربة مع السلطة العبّاسيّة بعلاقته مع الوزيرين أحمد بن أبي دؤاد ومحمّد بن عبد الملك الزيّات ومزج الآداب والتاريخ واللغة بالرؤى الكلاميّة وبثقافته المتعدّدة وإبداعاته.

أمّا مدرسة القاضي عبد الجبّار ونشأته في مدينة الريّ فهو امتداد للمدرسة البهشميّة، وفي أعماله استطاع أن يبرز وجهين: الأوّل: احتواؤها على جلّ آراء المدرسة الاعتزاليّة سواء بصريّة أم بغداديّة، وتطوير هذه الآراء وتنقيحها، ومن ثمّ كوّن جيلًا ممتدًّا له من تلامذته، وأعطى علم الكلام بُعدًا فلسفيًّا في نقاشاته، ومن تلامذته المعروفين النيسابوري والبستي وابن متويه وأبو الحسين البصري، و سحب البساط المعتزلي من مركزيّة بغداد إلى وسط إيران، بل يكاد يكون قد سحب نقاشات علم الكلام جلّه بعدما التحق بالبلاط البويهيّ العالم الأشعري أبو بكر الباقلاني ،والذي كان له أثر في تغيير مسار نقاشات علم الكلام فيما بعد، وهو ما يمكن تشبيهه بين الأشاعرة بأبي علي الجبائي في المعتزلة مثل الحلقة بين أجيال المتقدّمين والمتأخّرين، فأثر الباقلاني سرعان ما بان على الجيل النّد من المناظرين للمعتزلة من مدرسة علم الكلام الأشعري مع الجويني والغزالي وأبي بكر الرازي. لكن يبقى الأمر المهمّ أنّ القاضي عبد الجبّار كان يمثّل ثقافة مدينة الريّ، ونخبة المجتمع والدولة والوسط الإيراني مع الدولة البويهيّة الناهضة آنذاك، وعلاقته بالصاحب بن عبّاد، حيث استطاع أن يكوّن صورة مركزيّة للثقافة المستجدّة في وسط إيران من جهة، وتداخل علم الكلام بالفلسفة في محاورات مع كتابات فلسفة الفارابي وابن سينا وأبن مسكويه والتوحيدي، لتكون هذه النقاشات متداولة في الوسط الكلاميّ، بل أدخلت علوم الرياضيّات والحساب والميتافيزيقيا إلى نقاشات علم الكلام.

ويمثّل الحاكم الجشمي ثقافة نيسابور، فهو أحد شخصيّاتها الموسوعيّة الجامعة بين علم

الكلام والفقه والإخباريّين والمحدّثين والمفسّرين، حينها كانت الريّ قد فقدت مركزيّتها بعد دخول الغزنويّين ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. ولو تتبّعنا مصنّفات الجشمي فأعماله تكشف لنا تنوّعها بين علوم التفسير (ضمّت جلّ آراء التفاسير المعتزليّة)، وكذلك في علوم الحديث الذي قلّ الاهتمام به بين مصنّفات المعتزلة، وكذلك أحاديث الإخباريّين وقصص السير، وهذا كان الشاغل في حوزات نيسابور وجوامعها، وهو بذا في تصنيفه استطاع أن يبرز ثقافة نيسابور بكلّ أطيافها ومدارسها وأوضح من جهة أخرى الآراء الاعتزاليّة في قصص الأخبار والمحدّثين ونحوه. ولذا نستطيع المقارنة بينه وبين من جيله في هذا الإقليم نحو أبي المعالي الجويني والاسفرائيني وأبي حامد الغزالي.

أمّا الحلقة الأخيرة فهو الزمخشري الذي برّز في علوم اللغة، وحيث المشهد يكتمل في بلاد ما وراء النهر بين سمرقند وفرغانة ومرو. فالزمخشري في علوم اللغة مدّ يدًا أرحب لهذا المزج بين علم الكلام واللغة والبلاغة، وكتبه أصبحت متداولة بين علماء البلاغة، سواء في تفسير الكشّاف، وأثره على المفسّرين الذين جاءوا من بعده، أو في (أساس البلاغة). وكذلك في كتابه (ربيع الأبرار) في مزج المعارف الأدبيّة من الحديث والشعر والأدب والأخبار.

إنَّ بغيتي من هذا التقديم الموجز أن أبدي رؤية مختلفة عمّا كُتِبَ من تقديم الكتب السابقة في الحديث عن تأريخ نشأة المعتزلة وعن تسلسلها التاريخيّ، وحصرها في صورتها المنكفئة، أو لتأثيرها وتأثّرها مع الفرق والأديان، وبغيتي هو نقلها إلى محيط أوسع نحو حيّزها الثقافيّ في عصرها، بما هو مكتشف من نصوص من حيث العصر والإقليم والمقاربة الزمنيّة.

ج - موضوع الكتاب ورؤى المعتزلة وثقافة نيسابور

فرض تدوين الحديث النبويّ نفسه في أقاليم خراسان وحوزة نيسابور على طرائق التفكير وأساليب الكتابة، فمعظم صحاح الحديث النبويّ قد دُوِّنَ في هذه المنطقة، وجلّ جامعي الأحاديث النبويّة منها، لذلك نجد فنّ الرواية والأخبار والقصّاصين منبثّة في كتاباتهم بل ازدهرت وعمت على المصنّفات في المناطق الأخرى. فلم تكن رواية الحديث وتدوينه يمثّلان أهميّة لدى المعتزلة شأنهما في أهل السنّة، بيد أنّه من المعلوم الضوابط التي انتهجوها في قبول سند الأخبار بما يروى عن أبي الهذيل العلاف ومعاصريه، كما ناقش عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري آراء المعتزلة في الحديث «تأويل مختلف الحديث». وكذلك أورد

ابن الراوندي ضدّهم تهمة عدم الاكتراث بالحديث النبويّ. إلّا أنّ القرن ٤هـ/ ١٠م أحدث توسّعًا لرواية الحديث عند المعتزلة، ولعلّ مرد ذلك إلى التحوّل من مركزيّة بغداد نحو الوسط الإيرانيّ بعد ظهور الدولة البويهيّة، فقد عُرف أبو عبد الله البصري وقاضي القضاة عبد الجبّار ضمن رواة الإسناد للحديث النبويّ وبذا توسّعت فنون الكتابة لديهم في تجاوز الصرامة المثبتة في قبول الأخبار، وأحدثت كثيرًا من التساهل في قبول الأخبار التي تذكر في المواعظ ولا تمسّ العقائد والآراء الكلاميّة، وهذا يتّضح في المقارنة بين الأقدمين والمتأخّرين من المعتزلة، إذا ما اعتمدنا هذا التقسيم الخلدونيّ للأفكار، (فأبو علي الجبائي) هو الحدُّ الفاصل بين الطرفين.

لكن هل أراد الحاكم الجشمي في مسمّاه من كتابه هذا أن يكون بمثابة السفينة في حمولتها؛ أي ناقل المعرفة لكلّ ما هو لديه من أخبار وقصص ومعارف؟

يمكن جزم القول في ذلك (بنعم)، بالرغم من أنّ أقسام الكتاب واضحة في ذلك، فقد عُثِر لمؤلّفين ممّن نسبوا إلى الاعتزال نحو القاضي التنوخي في (نشوار المحاضرة) والراغب الاصفهاني والمؤرّخ المسعودي والزمخشري ممّن اهتمّ بالأخبار والقصص وفي مقدّمتهم الجاحظ في هذا الأمر، وكلٌّ له رؤى مختلفة في السرد ووجهات النظر. فالجشمي يبرز مراجعةً مهمّة وهو خارج مركز الخلافة في بغداد، حين اختطّ كتابه وموضوعه مشكلة كبرى لدى متكلّمي المعتزلة بالنظر إلى التاريخ، وهذه الرؤية تتلخّص في أنّهم يوافقون الرأي في تسلسل التأريخ النبويّ (أو ما يعرف بالمصطلح المتعارف بالتاريخ التوارتيّ) منذ بدء الخليقة بآدم (عليه السلام) وحتّى النبيّ محمّد ﷺ، إلّا أنّه يُبرز قضيّة كبرى وهي عصمة الأنبياء، عكس ما يذكره الإخباريّون والمحدّثون من أهل السنّة، والذين يأخذون بالروايات الإسرائيليّة وعدم قبول ذلك.

لا شكّ في أنّ الحاكم الجشمي أبدى بعض التساهل في ذكر الروايات بشأن قصص الأنبياء، خاصّةً في مسألة العصمة، عكس ما عثرنا عليه في تفسير المتشابه في القرآن للطريثيثي، الذي كان أكثر صرامةً، والذي كان يمثّل امتدادًا لمدرسةِ أبي القاسم البلخي، وبهذه القراءة من الجشمي تتكوّن لدينا رؤية مغايرة عمّا هو متداول في قصص الأنبياء. وشخصيًا لم أتمكّن من الأطّلاع على كتابه (تنزيه الأنبياء والأئمّة): ولكنّ موضوعه يظهر من عنوانه، وتوجد نسخة وحيدة فيما أعلم خطّت سنة ١٠٣٣هـ ضمن مجموع بمكتبة آل الهاشمي بـ(صعدة). فلذا

يناقش الجشمي الآراء المنسوبة بشأن خطيئة الأنبياء، ويردّ عليها، ويبيّن عصمتهم، وهذا موضحٌ في التهذيب في التفسير، فهو يتجاوز عن كثير من هذه القصص وعدم القبول بها، ولذا يعني هذا الأمر أهميّته في مفهوم حدود عصمة الأنبياء وأنّ الخطايا المنسوبة للأنبياء من الإسرائيليّات.

أما الجانب الإخباريّ في وجود النسل الإبراهيميّ في مكّة وحتّى مبعث النبيّ ﷺ، فلا يختلف كثيرًا عن غيره من الإخباريّين والمؤرّخين. فهو ملتزم بالسرد لتاريخ الإسلام من مبعث النبيّ ﷺ وحتّى الحسن بن علي، ولذا توجد إشكاليّة لديه في الاعتراف بخلافة بني أميّة والعبّاسيّين من بعدهم، لكنّه عكس ما عليه الفرق الأخرى، فالشيعةُ تتحفّظ على خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والمحكّمة تبدي تمايزًا في عصر الخليفتين عثمان بن عفّان في سنواته الستّ الأولى وعليّ بن أبي طالب حتّى تحكيم الحكمين، فقد أوجد الجشمي رؤية المعتزلة للتاريخ في حالة من الاعتراف الشامل للتاريخ لعصر الخلفاء الراشدين.

إنّما كانت ثمّة إشكاليّة كبرى في الكتابة التاريخيّة لدى المؤرّخين المسلمين وهي التسلسل الكرنولجيّ للتاريخ الإسلاميّ حتّى مجيء الطبري (ت. ٣١٠/ ٩٢٣) ومعاصره المسعودي (ت. ٣٤٦/ ٩٥٧)، إلّا أنّ الطبري أفرد محيطًا واسعًا للمؤرّخين المسلمين الذين نهجوا نهجه واتّبعوا أثره، بأن ضمّوا الدينيّ إلى السياسيّ، وأوجد لحمة في تسلسل التاريخ الإسلاميّ، بأن ضمّ كتب السير والمغازي والفتوحات والأنساب في سياق موحّد بحسب التاريخ الزمنيّ، وعليه بُنيت الكتابة التاريخيّة، حيث ظلّ المؤرّخون من بعده يتكون لديهم اتجاهان: الأوّل: صورة محصورة في نظرة الفرق الإسلاميّة إلى الدولة، والاعتراف بالدولة الأمويّة أو العباسيّة، والاتّجاه الثاني يمثّل نظرة إلى التاريخ من الواقع الإقليميّ، وعليه تكوّنت هويّات مختلفة، بها بعض الصرامة، قد تشكّلت بوعي لدى كلّ حاضرة في فهمها لتسلسل التاريخ الإسلاميّ منذ مبعث النبيّ وحتّى كتابة كلّ مصنّف على حدة. وفي عصرنا الحاضر كثر الدراسون لفكرة التدوين التاريخيّ لدى المسلمين أو الغربيّين أو العرب، سواء بدراسة المصنّفات التاريخيّة منفردة أو إجماليّة، للبحث عن كيفيّة فهم علم التأريخ عند العرب والمسلمين وكيف تمّ تدوينه، وبلا شكّ فإنّ فرانك روزنتال أحدث مؤلّفه نقلةً بُنيت عليها كثير من الدراسات التي جاءت من بعده عن فنّ كتابة التاريخ الكلاسيكيّ عند المسلمين، سواء عند العرب أو المستشرقين. لكنّ روزنتال نبّه إلى التأثير العقديّ في الكتابة التاريخيّة بصورة دقيقة.

إذًا كوّن الجشمي لدينا معرفة عن ثقافة نيسابور أو ثقافة الوسط الثقافيّ وليس النخبويّ، وأقصد بذلك ما هو متداول بين المثقّفين والعامّة، فكأنّه يحكي ثقافة شعبيّة عما هو متداول بين الرواة والأخباريّين وعن ذكر المواعظ والحكم والأمثال، وأراد هذا المنهج لكي يمكن استيعابه من الشريحة المبتغاة.

ففي كلّ مبحث يختم بشعر ونثر وأحيانًا بمواعظ بالفارسيّة، فهو كان يستهدف أن يصل إلى شريحة العامّة وفهمهم دروسه.

والحقُّ أنَّ الكتاب لم يكن قصصًا، بل لديه خطّة واضحة يتقارب مع معاصره الراغب الأصفهاني في كتابه (محاضرات الأدباء) ولذلك تمتزج هذه الأخبار بطرائف وحكم وآراء تحتاج إلى تدقيق.

ويمكن أن نجمل القول في كتاب (السفينة) بأنّه مصنّف الحاضرة أو الإقليم؛ ليعكس ثقافة الإقليم ونقاشاته وأفكاره، فهو يمثّل ثقافة الوسط الثقافيّ العامّ وليس النّخبويّ، ونحن نعلم بأن (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي كتبها للحديث عن مجالس وأحاديث النّخب في المجتمع البويهيّ آنذاك، وفي المقابل صنّف التوحيدي كتابه (الرسالة البغداديّة) للحديث عن ثقافة مدينة بغداد وكذلك (البصائر والذخائر) وهو أشبه بقصاصات للأحاديث الممتدّة بين مدينتي بغداد وشيراز. ولذا نحن نقدّم هذا الكتاب ليعبّر عن ثقافة حاضرة مدينة نيسابور، والتي كانت مفترق طرق القوافل وسط شمال إقليم خراسان.

د - الفقه السلوكيّ بين كتاب السفينة و إحياء علوم الدين

نحا الحاكم الجشمي في مصنّفه هذا إلى كتابة الفقه بأسلوب مغاير إذ يبدأ بذكر الآيات الدالّة والأحاديث والمواعظ في كلّ باب من أبواب الفقه و يختتمها بالشعر. وحين صنّف الجشمي كتابه هذا كان في مقتبل العمر، وهومن أوائل مصنّفاته، فهو قد كتبه قبل أن يشرع في تأليف كتاب (شرح عيون المسائل) أو (التهذيب في التفسير). كما أنّ هذا الكتاب يتشابه في بعض تصنيفه مع كتاب آخر للجشمي وهو «جلاء الأبصار» من الاهتمام بالحديث والشعر، وجلاء الأبصار من أواخر ما صنّفه الجشمي. والجشمي لا يخفي تحمّسه وولاءه للإمام أبي حنيفة ومدرسته الفقهيّة، فأفرد له مقالةً عنه وعن فقهه. وكان معاصراه في نيسابور الجويني (ت. ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) وأبا حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١م)، وقد كانا مرجع الفقه

الشافعي، بل إنّ مايكل كوك في كتابه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) حدّد بابًا في كتابه عن الغزالي كونه يمثّل حدًّا فاصلًا في الشافعيّة قبل وبعد الغزالي على غرار التقسيم الخلدونيّ للمتقدّمين والمتأخّرين من الأشاعرة، وعليه تكوّنت ملامح الشافعيّة واستمرارها الممتزج بين الفقه الشافعيّ والعقيدة الأشعريّة ومنهجها السلوكيّ المتقارب مع التصوّف، وكذلك الولاء لآل البيت.

وفي المقارنة بين كتاب (السفينة) وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي يكشف لنا عن أوجه التقارب في التبويب بين الكتابين، خاصّة المجلّدين الثالث والرابع من كتاب (السفينة)، كما أسلفنا القول بأنّ كتاب السفينة أُلّف في مقتبل عمر الجشمي وبداية تأليفه حوالي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، بينما كتاب (إحياء علوم الدين) من أواخر ما ألف الغزالي، فكأنّ الفارق الزمنيّ بين الكتابين ما يقارب نصف القرن. فالجشمي عُرف كمتكلّم قبل كونهِ فقيهًا، لكن استفتح المجلّد الثالث بالقول: إنّ الفقه هو فرضُ عينٍ، وعلمُ الكلام ليس كذلك، أي فرض كفاية. فيعطي الفقه أولويّة لكن لم يكن همّهُ جزئيّات القضايا الفقهيّة بقدرِ ما همّهُ سلوكيّات الفقه وأثرها. أمّا الغزالي فقد قسّم كتابه إلى أربعة أقسام: العبادات، والعادات والمهلكات والمنجيات. وكلّ قسم منها يتضمّن عشرة أقسام. ونحن إذا ما قارنّا كلّ قسم بحسب ما هو مذكور نجد الآتي:

١- قسم العبادات في (الإحياء) يتوافق مع القسم الأوّل من الجزء الثالث.
٢- قسم العادات في (الإحياء) يتوافق مع القسم الثاني من الجزء الثالث.
٣- قسم المهلكات في (الإحياء) يتوافق مع القسم الأوّل من الجزء الرابع في الحديث عن الكبائر.
٤- قسم المنجيات في (الإحياء) يتوافق مع القسم الثاني من الجزء الثالث في الحديث عن الأخلاق والزهد.
٥- الموت والحشر والنشور في (الإحياء) يتوافق ذكره مع القسم الثاني من الجزء الرابع.

لا شك في أنّ كتاب (إحياء علوم الدين) له منهجه في تنظيره وتنسيقه وتبويبه، لكن في ظنّي أنّ الغزالي قد اطّلع على كتاب (السفينة) وتأثّر بنهجه في تصنيف كتاب (الإحياء) خصوصًا من المجلّدين الثالث والرابع.

هـ - محتوى الكتاب

أوّلًا: الجزء الأوّل: يتناول الجزء الأوّل من الكتاب موضوعين رئيسين:

● **الموضوع الأوّل: ما يلزم المكلّف معرفته من أصول الدين**

واستهلّه بالحديث عمّا يلزم من معرفة أصول الدين، فذكر أربعة أشياء: التوحيد، والعدل، والنبوّات، والشرائع: وقد تحدّث عن العلم بالله ومعرفته، وتناول نفي الإثنيّة، ونفي المكان، ونفي الرؤية، كما تحدّث عن مجبرة أهل الشام، والقدريّة ومضاهاتهم للمجوس، ومصير أطفال المشركين، وأكّد أن لا عقوبة إلّا بجريمة. وتناول قضيّة المنزلة بين المنزلتين، كما تحدث عن شكرِ الله على نعمة الهداية والدين، وتناول كذلك الموضوعات الآتية: سعة رحمة الله، والإياس من رحمة الله، وحبّ الله وحبّ رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، الأنس بالله والشوق إليه، والتوكّل على الله، والانقطاع إلى الله والاستغفار، والحياء من الله، ومراقبة الله والمحافظة على حدوده، وحسن الظنّ بالله والرجاء لفضله، واليسر وانتظار الفرج من الله تعالى، والبكاء، والاغترار بالله، والخشية من الله، والحزن والقلب الحزين.

● **أمّا الموضوع الثاني فقد تناول المبتدأ وقصص الأنبياء عليهم السلام**، وشمل حديثه أمرين رئيسين:

- **الأمر الأوّل: قصّة بداية الخلق منذ خلق السماوات والأرض**، مرورًا بقصص الأنبياء حتّى نبيّنا محمّد، ويشمل الموضوعات التالية:

خلق السماوات والأرض، وخلق آدم، حديث إدريس عليه السلام، حديث نوح عليه السلام، حديث الابن الكافر لنوح عليه السلام، حديث هود عليه السلام، حديث صالح عليه السلام، أحاديث إبراهيم عليه السلام، ويشمل: مولد إسماعيل عليه السلام، ونزول الملائكة وبناء الكعبة، وحديث الذبح، ودعوات إبراهيم عليه السلام، والبشارة بإسحاق، وحديث قوم لوط ووفاة إبراهيم، وحديث يعقوب عليهما السلام، وحديث يوسف عليه السلام، وحديث موسى وهارون عليهما السلام ويشمل: مولد موسى عليه السلام، وقذفه في الماء، وردّه لأمّه، وفراقه لفرعون، وخروجه إلى مدين، وعودته إلى فرعون بالرسالة، وقصّة السحرة، وحديث الآيات التسع، ومسير موسى ببني إسرائيل، وهلاك فرعون وقارون، وحديث السامريّ، وسؤال الرؤية، ورفع الجبل فوقهم، وقصّة التيه ورجوع بني إسرائيل إلى الأرض المقدّسة، واختيار النقباء،

وحديث البقرة، وحديث موسى والخضر، ووفاة هارون وموسى، وحديث يوشع بن نون عليه السلام، وحديث شعيب عليه السلام، وحديث حزقيل عليه السلام، وحديث إلياس واليسع عليهما السلام، حديث شمويل وطالوت ويشمل: حديث التابوت ومسير طالوت إلى جالوت وقتل جالوت، وحديث داود عليه السلام وحديث الخصمين والمحراب والمرأة وحكومة داود وسليمان، واستخلاف سليمان، وبناء المسجد. وحديث سليمان عليه السلام ويشمل: تسخير الريح، وحديث النمل والهدهد، وبلقيس، ووفاة سليمان، وحديث أيّوب عليه السلام وسبب بلائه ومدّته، ودعاء أيّوب وكشف البلاء، وحديث إرميا وعزير ودانيال وخراب بيت المقدس، وحديث يونس عليه السلام، وحديث زكريّا ومريم ويحيى وعيسى عليهم السلام، وحديث زكريّا ومريم عليهما السلام والبشارة بيحيى ومولده عليه السلام، وحديث يحيى عليه السلام وزهده، ومقتل زكريا ويحيى عليهما السلام، وحديث عيسى عليه السلام، ورفعه للسماء واختلاف النصارى، وحديث ذي القرنين سلام الله عليه، وحديث أصحاب الكهف، وحديث لقمان، وحديث شمشون، وحديث جرجيس، وحديث العبد الأسود، وحديث جريج الراهب، وحديث أصحاب الأخدود، وفصل في فائدة ذكر القصص في القرآن.

- والأمر الثاني: الحديث عن أحوال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلم، ويشمل الآتي:

ذكر آبائه وأجداده، وحديث ولد إسماعيل عليه السلام، وحديث عدنان، وحديث إلياس وولده، وحديث النضر بن كنانة أبي قريش، وحديث ولد لؤي، وحديث كلاب بن مرة وقصي وزهرة وولاية البيت، وحديث عبد مناف بن قصي وولده بعده، وحديث عبد المطّلب بن هاشم، وحفر زمزم، ونذر عبد المطّلب، وحديث عبد الله بن عبد المطّلب، وباب في ذكر أمّهات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، حديث أمّهات آبائه، أعمامه وعمّاته، وابتداء خلقه وتنقّله في أصلاب آبائه، وحمل آمنة به صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومولده صلّى الله عليه وآله وسلّم، وباب رضاعه وحديث حليمة، حديث وشقّ بطنه، وحديث الفيل، وموت عبد المطّلب، وتكفّل أبي طالب برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتربيته، وما ظهر من الآيات، وحديث بحيرى الراهب، وحديث حلف المطيّبين أو حلف الفضول، وحديث الفِجَار، وحديث زواجه من خديجة، وحديث ورقة بن نوفل وأصحابه، وبنيان الكعبة، وما ظهر من الآيات من قبل المبعث ومن أهل الكتاب، وحديث الكهنة وما سُمع من جوف الأصنام وما يشبه ذلك، وحديث سطيح مع النعمان بن المنذر، وحديث سواد بن قارب، وحديث عبّاس بن

مرداس وسبب إسلامه، وحديث مازن أبي حيّان وغيره، وحديث الاستفتاح واليهود، وحديث أخذ الميثاق، وحديث وفد نجران، وحديث هرقل وأبي سفيان، والمبعث، وعصمته صلّى الله عليه وآله وسلّم، وصفاته وأخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وما روي عنه من الآداب، وما روي عنه من الأمثال وما قاله من الحكم والأمثال، وأسماء ومعاني أسمائه وكناه صلى الله عليه وآله وسلم، وما أقسم الله به في القرآن وذكر أعضائه في القرآن، والموازاة وتفضيله على سائر الأنبياء عليهم السلام.

***

ثانيًا: الجزء الثاني

استكمل الحاكم في الجزء الثاني حديثه عن رسول الله ﷺ وشرفه ممّا لم يذكر في الجزء الأوّل، وأتبعه بذكر القرآن وفضله، ثمّ فضائل الصحابة الكرام، ومنهم الخلفاء الأربعة والعشرة المبشّرون بالجنّة، ثمّ تحدّث عن فضائل أهل البيت باهتمام وتفصيل وكان جلّ تركيزه على الإمام علي والحسنين، ثمّ ختم الجزء بالتفريق بين الشيعة والنواصب والرافضة.

وأهمّ ما جاء فيه الحديث عن الآتي:

- **ما خصّ به النبيّ ﷺ** من الشريعة، والعلامات التي كانت في بعثة ﷺ، وما اختصّ به من المعجزات، وما يجري مجرى المعجزات من إجابة دعواته وظهور بركاته، وما جاء في ذكر الحرم والبيت ومعجزات مسجد المدينة، وفضل قريش وبني هاشم، وأزواج النبيّ ﷺ، وأمتعته ﷺ ودوابّه وسلاحه، ومن أسلم قبل البعث وبعده بما فيه حجّة لنبوّته، ومن أسلم له من الجنّ، وأحوال ومقامات له بمكّة بعد المبعث إلى أن هاجر، وكتابة الصحيفة وحديث حصار الشعب، وباب موت أبي طالب وخديجة وخروج رسول الله ﷺ إلى الطائف، وابتداء أمر الأنصار وبيعة العقبة الأولى والثانية، وباب مسرى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس والسموات، وبعض ما رأى رسول الله ﷺ في الملكوت في السموات، وحديث الكلام بين الله تعالى ورسوله، والهجرة وحديث الغار، وقدوم الرسول المدينة وبناء المسجد، والمؤاخاة، وتحويل القبلة، ومغازيه، والوفود القادمون عليه، وعمرته وحجّة الوداع، ومرضه وانتقاله إلى رضوان ربّه ﷺ، وزيارة قبره ﷺ، والصلاة عليه ورؤيته في المنام.
- **فضل القرآن**، ويشمل: أسماء القرآن، والاستغناء بالقرآن، والمحكم والمتشابه، وفضل تلاوة القرآن وحفظه ومدارسته وسوره.

- **فضائل الصحابة** رضي الله عنهم، والنهي عن سبّ الصحابة، وفضل الخلفاء الأربعة، وفضائل العشرة، وحديث طلحة والزبير ومحاربتهم وتوبتهم، وفضل العبّاس بن عبد المطّلب، وذكر سعد بن عبادة وأخباره، وفضائل سلمان رضي الله عنه.
- **أهل البيت وعلي عليهم السلام**، ويشمل: ابتداء خلق علي ومولده، وأسماءه وكناه، ونشأته وتربيته، وبعض ما نزل في علي من القرآن، وذكر أبويه وإخوته وأولاده، وجملة من الآثار الجامعة في فضائله ومناقبه، وجملة فيما روي في علي عن الصحابة والتابعين، وجملة ممّا جاء في بيعته ووقعة الجمل، وجملة ممّا جاء في حديث صفّين، وجملة من وقعة النهروان، وجملة من سيرته وعلمه، وجملة من مقاماته بالجمل وصفّين والنهروان، وآخر عمره ومقتله وموضع قبره، وزيارة قبره، ومنزلته يوم القيامة، وجملة من كلامه المستور، وجملة من أشعاره، وفضائل أهل البيت عليهم السلام، وذكر فاطمة عليها السلام، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام، وأخبار الحسن عليه السلام، وأخبار الحسين عليه السلام، وجملة من أخبار ما جرى بعد مقتل الحسين، وجملة من أخبار الإمام أبي الحسين وزينب بنت علي عليهم السلام.
- **الفرق بين الشيعة والنواصب والرافضة** وما جاء في كلّ واحد منهم، والمروانيّة والسفيانيّة وأشياعهم وأتباعهم.

ثالثًا: الجزء الثالث: أمّا الجزء الثالث فأهمّ ما تناوله الموضوعات التالية:

- **العلم والعلماء**، وتناول فيه: صفة العالم الحقيقيّ وآدابه، وموت العلماء، وعلماء السوء، والمتعلّم وآدابه، ومجالس العلم والذكر، وذمّ القُصّاص المرائين، والفتيا والتحديث للناس، وفضل رواية الحديث وذمّ من يكذب في الرواية، ومخالطة العلماء للأمراء، وكراهية القضاء، وأفضل الفقه، وفضل أبي حنيفة، ومن سئل فقال: لا أدري، وكتابة العلم، ومن يؤخذ منه العلم.
- **من العبادات الشرعيّة**، وتناول فيه: الطهارة والوضوء وشرائطها، والسواك، والأذان وما جاء فيه ومعناه والتثويب وفضل الأذان والمؤذّن، وما يقال عند سماع الأذان، وشرائط الصلاة المشترطة من القرآن، والزكاة، والحجّ، والصلاة ويشمل: فضائلها وما جاء في تارك الصلاة والخشوع فيها ومواقيتها والأوقات المكروهة والإمامة والصلاة الوسطى والوتر والضحى والاستسقاء والكسوف، وصلاة الليل، وصلاة الجمعة، وصلاة الجماعة وفضلها، والصوم

والتراويح والاعتكاف، والزكاة والصدقة والمنّ، والحجّ والعمرة ووجوب الحجّ وفضيلته وأركانه وسننه، وصدقة الفطر، والأضحية.

- **الجهاد** وتحدّث فيه عن: أنواع الجهاد، وفضل الجهاد وما يجب عليه من الثواب، وآداب الجهاد.
- **الحقوق**، ويشمل: حقّ الله على عباده، وحقّ الوالدين، وحقّ الرحم، وحقّ الجار، وحقّ العيال، وحقّ الزوج، وحقّ المسلمين. وأردفه بالحديث عن الرحمة على البهائم، والرحمة على الصبيان.
- **كتاب الأزمنة والأمكنة**، وفيه تناول فضل رجب وشعبان ورمضان وليلة القدر والأيّام الستّ والأيّام البيض وذي القعدة، والأيّام العشر، ويوم عرفة ويوم عاشوراء، ويوم الجمعة، والأعياد. كما تحدّث عن الكعبة ومسجد المدينة ومسجد قباء وبيت المقدس وسائر المساجد والأسواق.
- **أبواب الزهد**، وفيه تحدّث عن الدنيا وما جاء فيها وأسمائها وحبّها وذمّها، ومن باع دينه بدنياه، ومعرفة الشيطان ومكره، وآفة الدينار والدرهم، واتّخاذ البناء، والإزراء بالنفس وإهانتها، والقناعة وطلب المال الحلال... وغضّ البصر، وحبّ المساكين، والجوع وقلّة الأكل، والتقشّف في الثياب، و إصلاح السريرة، والحرص وقصر الأمل...
- **كتاب المقامات** وفيه تناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحقّ عند سلطان جائر، ثمّ ذكر مقام طاووس عند هشام بن عبد الملك، ومقام أبي حازم عند سليمان بن عبد الملك، ومقام عمر بن عبد العزيز مع سليمان، ومقام سليمان الدمشقيّ عند هشام بن عبد الملك، ومقام قتيبة بن مسلم، ومقام ابن أبي ذويب عند الرشيد، ومقام سفيان بن عيينة... إلى غيرها من المقامات.
- **كتب الصالحين**، وأورد فيه: رسالة أبي الدرداء إلى سلمان، وبعض كتب أمير المؤمنين عليه السلام.
- **الأخلاق** ومعالي الأمور، وتحدّث فيه عن جملة من الأخلاق كالصبر، والنصيحة، وحفظ اللسان، وحسن الخلق، والمروءة، والفتوّة، والسخاء، والمواساة، واصطناع المعروف، والحبّ في الله، وإجابة الدعوة، والتعفّف، وإدخال السرور على المؤمن، والشفاعة، والتواضع، والعدل، والعفو، والحلم، وكظم الغيظ، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيه، والحياء، وحفظ السرّ.

رابعًا: الجزء الرابع: يشتمل الجزء الرابع على ما يأتي

- **الحِكَم، ويشمل:** الحكمة، والأدب، والبلاغة، والخطب، و كلام الأنبياء، وحكمة آل داود وحكمة عيسى عليه السلام، وكلام الحكماء قبل الإسلام، وبعض كلام لقمان، وقس بن ساعدة، وبعض كلام الصحابة، وأهل البيت عليهم السلام، والأعراب، والفقهاء، والأنطاكي، وبعض كلام المتكلّمين والصوفيّة وعقلاء المجانين وأهل الجاهليّة. وما وجد مكتوبًا على الأحجار والمواضع، ونقوش الخواتيم، والتوقيعات، وأبيات في الحكم.
- **الكبائر ويشمل:** الفرق بين الصغير والكبير، وما روي في الكبائر، وما ذكر الله من الكبائر، والتوبة من الكبائر. كما يشمل: الكفر، والشرك، والنفاق، والمرتدّ، والظلم ومخالطة الظلمة، ومعاونة الظالم، ومدح الظلمة، وترك نصرة المظلوم، ومطل الدين، والقتل، واليمين، والرشوة، والخمر، والقذف، والزنا، واللواط، وإتيان الحائض، والربا، والغيبة، والنمام، والاحتكار، والتكبّر، والحسد، والملاهي، وشراء المغنيات، واستماع الغناء، وأنواع الغناء، واللعب بالنرد والشطرنج والحمام، والتصوير، ولبس الحرير والديباج واتّخاذ أواني الذهب والفضّة.
- **باقي الذنوب، ويشمل:** الكذب، وكتمان الشهادة، واستقبال القبلة عند البول، وأكل الثوم والبصل، والبول قائمًا، والشرب قائمًا، والشعر... واقتناء الكلب... والتكنّي بأبي القاسم، والسلام على أهل الكفر... إلخ
- **وتحدّث عن الموت وتناول فيه ما يأتي:** المشيب، والمرض، وكلام المحتضرين، والوصيّة، والموت الفجأة، والموت في الغربة، وملك الموت، وتمنّي الموت، والجنائز، والقبور وزيارتها وعذابها وسؤال القبر، والصبر على المصيبة وفضله، والجزع عند المصيبة، والمصيبة بموت النبيّ ﷺ وموت الأنبياء، وما نقش على القبور. ومن مات وعليه دين لا يجد ما يقضيه، وما يبقى لابن آدم بعد الموت، والتعازي، وتعازي أهل الذمّة.
- **الفتن ويشمل:** طلوع الشمس من المغرب، والدجّال، والمهدي، ونزول عيسى عليه السلام، ودابّة الأرض، وحديث يأجوج، وما روي من الفتن عن اقتراب الساعة.
- **الحشر والنشور، ويشمل:** النفخ في الصور، حديث القيامة وأهوالها وأحوالها، والكتب، والشهود في القيامة، والحفظة، والسؤال، والكوثر، والصراط، والموازين، والانتصاف والمقاصّة، والآثار الواردة في الخروج من النار، وأسماء النار، وشدّة عقوبات أهل النار، والخلود وما قيل فيه، والآثار الواردة في ذكر الجنّة، والحور العين، وطوبى.
- **جملة من أخبار الزُّهّاد وحكاياتهم،** جملة من أخبار النساء العابدات.

و - مصادر كتاب السفينة

في هذا السفر الجليل الكبير نلحظ الآتي: أنّ الحاكم الجشمي نادرًا ما يذكر اسم العالم أو المصادر التي يرجع إليها. بيد أنّا تمكّنا بعد التحقيق من أن نثبت مقولات الكتاب والاقتباسات من المصادر العربيّة الأخرى لتثبيت المعلومة، وكذلك تثبيت المراجع **التي رجع إليها وذكرها:**

١- كتاب (المعمّرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم) لأبي حاتم سهل بن محمّد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني ثمّ البصري المتوفّى ٢٥٠هـ/ ٨٦٤، ويذكره باسم (المعمّرين)، وقد رجع إليه مرّتين:

ومن ذلك قوله: «وأتي معاوية برجل من جرّهم يسمّى عبيدا، فقال له: ما أسكنك هذه البلدة؟ قال: خرج قومي من مكّة وتفرّقوا في البلاد، فخرج أبي نحو الشام فلم أزل بها، قال: كم أتى عليك؟ قال: أربعون ومائتا سنة، قال: فمّمن أنت؟ قال: من جرهم، قال: فكيف رأيت الدهر؟ قال: سنيات رجاء وسنيات رخاء، ويوم شبيه بيوم، وليلة شبيهة بليلة، يهلك والد ويخلف مولود، ولولا الهالك لامتلأت الدنيا، ولولا المولود باد الخلق. ذكره أبو حاتم في المعمرين». (٤/ ٢٢)

وقال في موضع آخر: (٤/ ٣٠٤) «وذكر أبو حاتم في كتاب (المعمرين) أنّ أبا وجدة الأودي عاش مائتين وثمانين سنة وأقعد فقال:

كبـرت وأبلتنـي الليالـي ومـن يعـش ... كمـا عشـت يصبـح ذا وسـاوس مقعدا»

ويمقارنة ما كتب بما في كتاب (المعمرين) **يغلب على ظنّنا أنّه نقل جلّ (باب المعمرين) في كتابه من كتاب (المعمرين) للسجستاني.** (انظر كتاب المعمرين ص ٨).

٢- كتاب (الفتوح) لأبي محمّد أحمد بن أعثم الكوفيّ المتوفّى سنة: ٣١٤/ ٩٢٦، وقد ذكره وأحال عليه في أكثر من موضع، وتبيّن لنا أنّه رجع إليه حقًا، ومن ذلك قوله: «وفي الفتوح لابن أعثم عن أمّ الفضل بنت الحارث بن المطلب امرأة العبّاس قالت: يا رسول الله رأيت رؤيا هالتني قال: وما هي؟ قالت: رأيت كأنّ قطعة من جسدك قد قطعت، فوضعت في حجري، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «خيرًا رأيت يا أمّ الفضل إن صدقت رؤياك، فإنّ فاطمة حامل، وستلد غلامًا، فأدفعه إليك فترضعيه»» (انظر السفينة ٢/ ٤٧٢، وقارن بالفتوح ٢/ ٣٢٦).

وقال في موضع آخر: «وفي الفتوح لابن أعثم أيضًا أنّ عليًا لمّا سار إلى صفّين نزل بكربلاء،

وقال لابن عبّاس: يا ابن عبّاس أتدري هذه البقعة؟ قال: لا، قال: لو عرفتها كمعرفتي لبكيت بكائي، ثمّ بكى بكاءً شديدًا، ثمّ جعل يقول: أوه مالي ولآل أبي سفيان، ثمّ التفت إلى الحسين وقال: صبرًا يا أبا عبد الله صبرًا، فلقد لقي أبوك منهم مثل الذي يلقى من بعدي، ثمّ جعل يجول في أرض كربلاء كأنّه يطلب شيئًا، ثمّ نزل وتوضّأ وصلّى ونام وانتبه فزعًا» (السفينة ٢/ ٤٧٢).

٣- كتاب (**الكامل في اللغة والأدب**) لأبي العبّاس محمّد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمُبرِّد المتوفّى سنة ٢٨٦ / ٨٩٩ فقد قال: «وكتب عمران بن حطان إلى روح بن زنباع وكان مستترًا عنده فعلم عبد الملك فأمره بأن يحضره مجلسه، فهرب وكتب إليه. ذكره المبرّد في الكامل: أمّا بعد فإنّك في دار تقلّب وزوال، وتغيّر وانتقال، وتصرّم واضمحلال، وتنقّل من حال إلى حال، قد تزخرفت بزينتها، وطوّحت بزيّها» (السفينة ٣/ ٥٥٠)

٤- كتاب (**الزهد والرقائق**) لعبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ التميميّ المتوفّى سنة ١٨١/ ٧٩٧، وكان يسمّيه كتاب (الرقاق)، وقد نقل عنه كثيرًا، ومن ذلك قوله: «وروى ابن المبارك في كتاب الرقاق أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لمعاذ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد»؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئًا. أتدري حقّ العباد على الله»؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: «إذا فعلوا ذلك أن يغفر لهم ويدخلهم الجنّة»». (السفينة ٣/ ١٦٧، وانظر ٣/ ٣٧٧ وغيرهما).

٥- وقد انجلى لنا تأثّره بكتاب (**المجالسة وجواهر العلم**) لأحمد بن مروان بن محمّد الدينوريّ أبي بكر القاضي المالكي المتوفّى سنة ٣٣٣/ ٩٤٥، فقد وجدت في (السفينة) بعض الآثار لم أقف عليها إلّا في هذا الكتاب، وراجع (باب من كلام الصحابة) في السفينة يتّضح لك ذلك ٤/ ٢٨.

٦- كما ظهر لنا نقله عن كتاب (**البيان والتبيين**) للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثيّ الكنانيّ البصريّ المتوفّى سنة: ٢٥٥/ ٨٦٩ وراجع (باب من كلام الفقهاء). ٤/ ٤١

٧- واتّضح كذلك نقله عن كتاب (**الرسائل**) **للجاحظ أيضًا**، تحت عنوان: (من أخبار الملوك والجبابرة) ووجدنا تتابع الأخبار في (السفينة) يشي بأنّه نقل عن رسائل الجاحظ. ٤/ ٤١٧

٨- وأغلب الظنّ أنّه نقل باب عقلاء المجانين من كتاب (عقلاء المجانين) لأبي حبيب الحسن بن محمّد بن حبيب بن أيّوب أبي القاسم النيسابوريّ المتوفّى سنة: ٤٠٦هـ/ ١٠١٥ م، فترتيب سرد القصص ومضمونها يؤكّد ذلك ٤/ ٥١.

٩- كما اتّضح لنا نقله عن كتاب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) لعبد الملك الثعالبي النيسابوري أبي منصور المتوفّى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م في (باب موت الملوك) ٤/ ٣٤٢، و(باب عيادة المريض)، ٤/ ٢١٣، و(باب التعازي) ٤/ ٣٤٣.

١٠- ومن الكتب التي لا شكّ لدينا في أنّه نقل عنها كتاب (شرف المصطفى) لعبدالملك بن محمّد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي أبي سعد المتوفى: ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م، فقد رأينا تشابهًا في النصّ يكاد يصل لحدّ التطابق بينهما (انظر السفينة ١/ ٥٠٦ وما بعدها، ٢/ ٣٠٣، ٢/ ١٧٠ وما قبلها وبعدها)، كما أورد نصوصًا كثيرة لم نعثر عليها إلّا في (شرف المصطفى) (انظر السفينة ٢/ ٤٩)، غير أنّه قد ذكر نصًّا مثيرًا للجدل بقوله: «ويقال: إنّه ﷺ فُضّل على سائر الأنبياء يوم القيامة بأشياء؛ منها: أنّه أوّل من تنشقّ عنه الأرض، وأوّل من يحيا، وأوّل من يدخل الجنّة، فهو أوّل شافع وهو خطيبهم إذا سكتوا، وإمامهم إذا سجدوا، وله الحوض حوض الكوثر، وبيده مفتاح الجنّة، وله لواء الحمد، وله نهر الكوثر، ويعطى درجة الوسيلة، وله شجرة طوبى. وقد روي في هذا أخبار كثيرة قد ذكرنا بعضها في جامع شرف النبيّ المصطفى ﷺ في أسنى فضائله فلذلك تركناها هنا» (انظر السفينة ٢/ ٢٥٦)، ولا ندري أله كتاب بهذا الاسم قريب في المحتوى من كتاب (شرف المصطفى) أم هذا الكتاب له؟ أو النصّ يكون على السياق: وقد روي في هذا أخبار كثيرة قد (ذُكر) (بدل ذكرنا) بعضها في جامع شرف النبيّ المصطفى ﷺ في أسنى فضائله فلذلك تركناها هنا، لكن كلتا المخطوطتين ذكرتا ذلك وأثبتنا مقولتهما في النصّ وإن كان في الأمر شكّ، فلم يذكر كتابًا للجشمي من قبل بهذا الاسم، وهذا أمر يحتاج لحفر وتنقيب ومقارنة ودراسة لا يسعه هذا المقام، نتركه للباحثين.

١١- ومن المؤكّد أنّه نقل عن كتاب (السيرة النبويّة) لأبي محمّد عبد الملك بن هشام بن أيّوب الحميري المتوفّى سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م. (انظر السفينة ١/ ٤٥٨ وما بعدها، ٢/ ٢١٦ وما بعدها وما قبلها).

١٢- وربّما نقل عن أحد وألقى بالعهدة عليه إذا لم يكن واثقًا فيما نقل، فقد نقل عن الشيخ أبي الحسن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه الصدوق القمّي المعروف بالصدوق الأوّل،

المتوفّى سنة ٣٢٩ / ٩٤١، وهو يحكي عن فاطمة بنت أسد لمّا حملت بعلي بن أبي طالب، قال: «قال أبو طالب: إن كان ذكرًا فهو لك عبد، وإن كانت أنثى فهي لك أمة، فلمّا وضعته جعلته في غشاوة، فقال أبو طالب: لا تفتحوه حتّى يجيء محمّد فيأخذ حقّه، فجاء محمّد ففتح الغشاوة، فأخرج منها غلامًا حسنًا فغسّله بيده، وسمّاه عليًا، وبزق في فيه، وأصلح أمره، ثمّ إنّه ألقمه لسانه، فما زال علي يمصّه حتّى نام، فلمّا كان من الغد طلبنا له طمرًا، فأبى أن يقبل ثديًا فألقمه لسانه فنام، فكذلك كان ما شاء الله. **وهذه الأخبار أكثرها نقلت من كتاب ابن بابويه والعهدة عليه**» (السفينة ٢/ ٣٥٧).

١٣ - هنالك مصنّفان أرجح أنّ هذا المصنّف تأثّر بهما وإن لم يشر إليهما الجشمي بالاسم، الأوّل: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران **الأصفهاني** (٣٣٦-٤٣٠هـ/ ٩٤٨-١٠٣٨م)، والثاني: عرائس المجالس لأبي إسحاق أحمد بن محمّد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري (ت. ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥).

ز - الكتب التي لاحظنا تأثّرها بكتاب (السفينة):

- كتاب (**إحياء علوم الدين**) لأبي حامد محمّد الغزّالي الطوسي النيسابوري الصوفيّ الشافعيّ الأشعريّ المتوفّى سنة ٥٠٥ هـ؛ (انظر السفينة ٣/ ٢٧٢، ٥١٢، ٤/ ٥٨٠).
- كتاب (**الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**) لحميد الشهيد بن أحمد بن محمّد المحلّي المتوفّى سنة٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م.
- كتاب (**تنبيه المغترّين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر**)، لعبدالوهاب بن أحمد بن علي الشافعي المصري المعروف بالشعراني (ت. ٩٣٧هـ/ ١٥٦٥) (انظر السفينة ٣/ ٣٧٣).
- كتاب (**ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة**) للحسين بن بدر الدين المتوفّى سنة:٦٦٣هـ/ ١٢٣٦، فقد وقفت على بعض الآثار في السفينة ولم أجدها إلّا في كتاب (ينابيع النصيحة) (انظر السفينة ٤/ ١٥٩)، وانظر التأثير الواضح لكتاب السفينة فيه، في (باب في الموازاة وتفضيله على سائر الأنبياء عليهم السلام) (انظر السفينة ١/ ٦٣٨، وما بعدها).

ح - الجشمي واتّجاهاته الفكريّة بين الأحناف - والزيديّة - والمعتزلة - والعلويّين:

الجشمي حنفيّ المذهب، ولكي ينجلي لنا بشكل قاطع هذا الأمر فقد رأى الحاكم أنّ

الله «خلق الفقهاء واختار لفتاوى أمّة محمّد وقضايا شريعته أربعة: أبا حنيفة، وأبا يوسف، ومحمّدًا، وزفر» (السفينة ٣/ ٢٥٧)، كما عقد بابًا في فضل أبي حنيفة دون غيره من أئمّة المذاهب الفقهيّة، فقال:

«باب في فضل أبي حنيفة»، وكذلك أورد رواية بالقول: وذكر عند الصادق أبو حنيفة فطعن فيه بعض المخالفين، فقال: مه فإنّه نشأ في حرم أبي، وأفتى في دين جدّي، وقتل في موالاة عمّي. وأمّا ما ذكر عنه بأنّه تحوّل في آخر عمره من المعتزلة - الحنفيّة إلى الزيديّة فهذا في ظنّي ليس بصحيح فهذا الكتاب الذي بين أيدينا «السفينة» من أوائل مصنّفاته، ونسعى لنشر كتاب «جلاء الأبصار» وهو من أواخر كتبه، ولم نعثر على ما يثبت هذا التحوّل، بيد أنّه يثبت ميوله العلويّة منذ سنّ مبكرة، ولا يخفى أنّ الجشمي لديه ميول علويّة كحال كثير من معتزلة الجبل نحو أبي القاسم البلخي، فلا يعني بالضرورة الميول لآل البيت التشيّع. وسأوضح هذا لاحقًا.

فقد كان الفكر الاعتزاليّ مترسّخًا بين الأحناف، والمطلّع على كتب التراجم يدرك أنّ علماء الأحناف كانوا في مساندة الاعتزال أو كان لديهم الازدواجيّة بين الاعتزال والمذهب الحنفيّ، بل يثبت البعض وجوده أو استمرار الاعتزال - الحنفيّ في أوساط آسيا بخوارزم إلى القرن ٩هـ/ ١٥م، وينسب بوسورث ذلك إلى تحدّي الأمراء السلجوقيّين للدولة العبّاسيّة بعد انهيار الدولة السلجوقيّة باحتضان بعضهم المعتزلة الأحناف.[٢] ويعزو مادلونج ذلك من وجهة نظره إلى كون العبّاسيّ المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٨٠م) منذ تولّيه الحكم قلّص القضاة الأحناف ذوي الميول الاعتزاليّة من مناصب القضاء، بينما دعم الأحناف ذوي العقيدة الماتريديّة المتقاربة مع أهل السنّة، وبهذا الدعم الرسميّ ازدادت تعاليم الماتريديّة في الانتشار والتوسّع، وتقلّصت تعاليم المعتزلة تدريجيًّا.[٣] ومن طرائف ما يذكره أبوبكر بن العربي (ت. ٥٤٣هـ/ ١١٤٨ م) في كتابه العواصم من القواصم بقوله: «ما رُئي بخراسان ولا بالعراق حنفيّ إلّا معتزليًّا أو كراميًّا»[٤].

لذا يبدو تمازج تعاليم المعتزلة والأحناف و الزيديّة واضحًا، وليس بالضرورة أن يلزم الميل

(٢) C. E. Bosworth, 'The Political and Dynastic History of the Iranian World', The Cambridge History of Iran' vol. 5, pp. 185–195, Cambridge University Press, 1968.

(٣) Wilferd Madelung, 'The Spread of Maturidism and the Turks' in *Actas IV congresso de estudos arabese islamicos*, 1968, pp. 109–68.

(٤) أبو بكر بن العربي، **العواصم من القواصم**، ص٢١٢.

لآل البيت أو العلويّين التشيّع، فقد عرف أبو القاسم البلخي (ت. ٣١٩/ ٩٣١م) شيخ المعتزلة البغداديّين وكان كاتبًا للإمام الزيديّ محمّد بن عليّ، حتّى حدث مزج لدى البروفيسور يوسف فان اس بأنّ البلخي زيديّ أو أقرب إلى الزيديّة. وهذا ممّا يثيره ابن تيميّة من جهة أخرى في ردوده ضدّ المعتزلة والشيعة بأن ذكر في كتابه (منهاج السنة) بقوله: «لهذا كانت الشيعة المتقدّمون الذين صحبوا عليًا، أو كانوا في ذلك الزمان، لم يتنازعوا في تفضيل أبي بكر وعمر، وإنّما كان نزاعهم في تفضيل علي وعثمان، وهذا ممّا يعترف به علماء الشيعة الأكابر من الأوائل والأواخر حتّى ذكر مثل ذلك أبو القاسم البلخي». وقد تبع أبو القاسم البلخي علماء الاعتزال في هذه التفضيل بين الصحابة منهم أبو عبد الله الحسين بن علي البصري (ت. ٣٦٩/ ١٠٧٧م) المعروف بالجُعل في كتاب الدرجات في تفضيل أمير المؤمنين علي عليه السلام أو من بعد تلامذة القاضي عبدالجبّار نحو أبي القاسم البستي وابن متوية في كتابه الكفاية ومصنّفات الجشمي، وكذلك أورد الطريثيثي في تفسيره المتشابه هذه المقالة. وكذلك أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمغاني (ت. ٦٠٦/ ١٢٠٩) وتلميذه عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد (ت. ٦٥٦/ ١٢٥٨)، والذي اعتنى بشرح نهج البلاغة. ويذكر الإمام أحمد بن الحسين بن أبي هاشم المعروف بمانكديم في شرحه للأصول الخمسة للقاضي عبدالجبّار (ص ٧٦٧) بأدقّ العبارة في هذا الشأن: توقّف أبو علي وأبو هاشم عن التفضيل بين الخلفاء، وقالا: ما من خصلة ومنقبة ذكرت في أحد هؤلاء الأربعة إلّا وذكرت لصاحبه. ويضيف بالقول (ص ٧٥٨): ذهب المتقدّمون من المعتزلة إلى أنّ أفضل الناس بعد الرسول أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ علي إلّا واصل بن عطاء فضّل عليًا على عثمان.

فمقالات التفضيل بين الصحابة أثارت جدلًا بين علماء الفرق لكنّها لا تعني أنّ تفضيل الإمام علي بن أبي طالب بمثابة تشيّع. بيد أنّه مع مدّيات الزمن أحدث الميول إلى حبّ العلويّين وآل البيت مدعاة إلى التشيّع وجلّ أهل السنّة أو المتصوّفة يعدّونها كشرعيّة للتفوّق العائليّ أو السلطويّ، حيث يبدو فيها أنّ الانتساب إلى العلويّين أشبه بالعائلة الاستقراطيّة للإسلام باستثناء الإباضيّة بين الفرق الإسلاميّة؛ فقد حسمتُ هذا الأمر كونه يعدّ يمسّ مبادئهم المبكرة وهي العدالة والمساواة.

فالبروفيسور مادلونج والعلّامة السيّد حسين مدرسي أبديا خطوطًا واضحة في تفنيد تطوّر علم الكلام الشيعيّ الاثني عشري واختلافهم مع المعتزلة فهنالك اختلاف مبدئيّ حول

الأصول الخمسة: فالشيعة يؤمنون بعصمة الأئمة، وهذا يظهر إشكالًا في قضيّتين: العصمة، وقضيّة الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر. وكذلك من القضايا الكلاميّة في هذا الاختلاف أنّ متكلّمي الشيعة رفضوا قول المعتزلة في قضيّة الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين. بيد أنّ الشيعة تأثّروا بكلّ تيّارات المعتزلة، سواء أكانت بغداديّة بتتلمذ ابن قبة عند أبي القاسم البلخي، أم بصريّة بهشميّة بتتلمذ الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسين بن موسى (ت.٤٣٦/ ١٠٤٤)، وأخيه الأصغر الشريف الرضيّ أبي الحسن محمّد بن الحسين (ت. ٤٠٦/ ١٠١٦)، واللذين تتلمذا عند قاضي القضاة عبدالجبّار بن أحمد.[٥] بل إنّ منهم مَن تأثّر بتعاليم الحسينيّة (نسبةً لأبي الحسين البصري) تلميذ القاضي عبدالجبّار الذي اختلف معه في بعض الآراء، نحو محمّد بن علي بن الحسن الحمصي الرازي (ت. بعد ٦٠٠/ ١٢٠٤). ومن ثمّ عمل تلامذتهم على إجراء تعديلات في الآراء الكلاميّة الإماميّة وتطويرها بحسب المنظومة الكلاميّة الشيعيّة الاثني عشريّة، وإن كان جلّهم ينسب الآراء الكلاميّة معهم للميراث العلميّ من علي بن أبي طالب والإمام جعفر بن محمّد، بيد أنّ ابن تيميّة (منهاج السنة ١/ ٧٠-٧٤) يثبت العكس كون متقدّمي المتكلّمين من الإماميّة ممّن يثبّت الصفات الإلهيّة والقدر نحو هِشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبدالرحمن القُمّيّ.

أمّا الجانب الشيعيّ الزيديّ - المعتزليّ فهنالك دراسات واسعة سواء كانت في اليمن أو طبرستان، يمكن الرجوع اليها.

أمّا الإشكاليّة الأخرى وعلى ما سبق من استنتاجات، فإنّه لا يمكن فهم الميول لآل البيت إلّا بالتعرّف على الأقسام المطالبة بالشرعيّة في حقّ وراثة الوصاية على الأمّة بين العلويّين والعبّاسيّين ما بعد مقتل الإمام الحسين بن علي. فقد عرف عبدالله بن العبّاس بن عبدالمطّلب (ت.٦٨/ ٦٨٧) الجدّ الأكبر للعبّاسيّين بـ«ترجمان القرآن» ولقّب بـ«حبر الأمّة» وكان عمره يقارب ١٢ سنة حين توفّي النبيّ ﷺ وروى عنه الأحاديث وباركه النبيّ وفي رواية باركه كذلك جبريل عليه السلام. وعرف فضله منذ صغره فالخليفة عمر بن الخطّاب كان يقدّمه على الكثير من أفاضل الصحابة، ورُوي عن الإمام علي بن أبي طالب أنّه كان لا يقرّ لأحد في أسبقيّته في العلم بين الصحابة إلّا لابن عبّاس.

(٥) Hussein Modarress, *Crisis and Consolidation in the Formative Period of Shiite Islam: Abu Ja'far ibn Qiba al-Razi and His Contribution to Imamite Shiite Thought*, Princeton, 1993; W. Madelung. 'Imamism and Mutazilite Theology, *Le Shiisme imamite*, ed. T. Fahd, Paris, 1970, pp. 13– 29.

بيد أنّ الأمر المهمّ هو تحديد موقف عبد الله بن العبّاس بعد معركة صفّين؛ كونه أحد أهمّ مستشاري الخليفة علي بن أبي طالب، ولكنّه بعد التحكيم اتّخذ موقفًا محايدًا خصوصًا بعد نقاشه مع المحكّمة/ الحروريّة، فلم يتّخذ موقفًا مضادًّا أو معاديًا بشأنهم، والذي لا زال يتجلّى للكثير من الشيعة بأنّ موقفه انقسام في مفهوم شرعيّة الإمامة ومنافسة لآل البيت في أحقّيّة الوراثة الشرعيّة له. واستخدم حنكته السياسيّة في تهدئة الأمور وعدم اتّخاذ المواقف المضادّة لأي طرف في الصراع ومقاربته للجميع، فموقفه السياسيّ بعد الإمام علي بن أبي طالب أن تخلى عن ولاية البصرة وغادرها إلى المدينة، وكان ناصحًا لأبناء عمّه الحسن والحسين، لكنّه لم يكن مساندًا في مطالبهم الشرعيّة. وكذلك كان حذرًا من الأمويّين، فلم يتّضح موقفه من بيعة معاوية بن أبي سفيان، بل عمل على تهدئة الأمر بالحكمة، وكان محبّذًا ومبجّلًا من كلا الطرفين، وقد امتنع عن البيعة ليزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم في ادّعائهم بالخلافة، ونأى بنفسه في آخر عمره عن الأحداث، وأقام في الطائف ومعه محمّد ابن الحنفيّة، وهذا الموقف نهجه أبناؤه وأحفاده مختطين المطالبة بالشرعيّة منفصلين عن العلويّين. وكانت مدرسة عبدالله بن العبّاس الأهمّ في التأثير العلميّ بين جيل الصحابة ما بعد مرحلة النبوّة، وهذه المدرسة تضمّ أطيافًا متعدّدة من المحكمة والخوارج وأهل الحديث والفقهاء، فجلّ العلماء الثائرين من التابعين من تلامذته، نحو الحسن البصريّ وجابر بن زيد الأزدي وسعيد بن جبير وعكرمة. ورويت عنه محاورات مع زعماء الخوارج نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق، وتعدّ هذه المحاورات من أولى دروس التأويل القرآنيّ، فكلّ الفرق من بعد الإباضيّة والمعتزلة والمحكمة والخوارج وأهل الحديث كلّهم ينسبون سلسلة سندهم العلميّ إلى ابن عبّاس، و لا يزال يمثّل حضور عبدالله بن العبّاس في كلّ الفرق الإسلاميّة بمرجعيّته العلميّة كلّ على حدة. لكنّ الإشكاليّة ظهرت بعد قيام الدولة العبّاسيّة، فعبدالله بن العبّاس هو الجدّ الأكبر للعبّاسيّين، وقد واجهت الخلافة العبّاسيّة ثلاث معضلات، تمثّلت الأولى: في شرعيّة السلطة في صدامهم مع أبناء عمّهم المنافسين لهم، وهم الشيعة أحفاد الإمام علي. والثانية في معضلتهم مع الثائرين من الخوارج والإباضيّة و نحوهم المنكرين أحقّيّة الإمامة للعلويّين والقرشيّين معًا والقائلين بأنّ الأمر والحكم مرجعه للأمّة، والثالثة في سدّ التأصّل الذهنيّ بالمقارنة بينهم وبين الخلفاء الراشدين، فكان لزامًا عليهم الاعتراف بالفترة الأمويّة، وهو العلقم الواجب عليهم تجرّعه، ومن ثمّ تمكينًا لتطويع وراثة مؤسّسات الخلافة آنذاك. لذا ما إن استتبّ الأمر بعد ثلاثة عقود وفي زمن المهدي والرشيد نشأت الأجناس الأدبيّة في

الحضارة الإسلاميّة، وساعدتها ثورة صناعة الورق، وذكر أحمد بن حنبل ثلاثة أشياء لا أصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي (ياقوت، معجم الأدب، ح٣/ ٢٢) فأدبيّاتها الكتابيّة اشتقّت في بروزها مع تطوّر الدولة الإسلاميّة وكلّ يدعي بأحقيتها فهي كالظاهرة الأدبيّة العامّة في الكتابة. وعليه تمّ ترتيب صياغة التاريخ الإسلاميّ المبكر بإشراف الدولة في التسلسل الزمنيّ وشرعيّة السلطة في الإسلام منذ قيام دولة الإسلام في عهد النبوّة. فلذا لا يزال الأمر شائكًا في تحديد وراثة آل البيت بين العبّاسيّين والعلويّين، وحاضرة في ذهنيّة الباحثين والمختصّين في تأريخ تطوّر دولة الإسلام، وهكذا سلك زعماء العبّاسيّين بعد أجيال وفي خلال منتصف القرن ٣/ ٩ بأن تكون المعادلة في هذا الصراع السياسيّ تقتضي الانفصال الكليّ عن ميراث الجدّ الأكبر، وتوجّب بتبنّي أيّ طرف من المذاهب في مقابل كسر مفهوم شرعيّة الشيعة والعلويّين؛ فأحدثت هذه السياسة تنكيلًا أشدّ بالعلويّين وهو ما أحدث تطوّرًا جديدًا في الاعتراف من قبل الهاشميّين وأحيانًا للقرشيّين في شرعيّة أحقيّتهم بالخلافة. وعليه حدث انقسام في الإدّعاء بالشرعيّة والإمامة بين العبّاسيّين والعلويّين في أحقيّة ميراث النبيّ المادّي. فاحتفظ العبّاسيّون بالبردة والعصاء والخاتم كدلالة على حقّهم الشرعيّ، وفي المقابل احتفظ العلويّون بالسيف والدرع والراية.

لقد مثّل الجاحظ في كتابه «العثمانيّة»، ومن ثمّ برسائله الأخرى نحو «مقالة الزيديّة والرافضة» التي تعيد تسوية قضيّة بين الخلاف على الشرعيّة بين العلويّين والعبّاسيّين، والذين يشير إليهم بالهاشميّين - خير تمثيل لهذه السياسة المستحدثة من العبّاسيّين وقد أنهت مشروع المعتزلة السياسيّ، فمنذ القرن ٣/ ٩ لم يوجد بينهم معارضون أو دعاة لإقامة كيانٍ سياسيّ مستقلّ يمثّلهم شبيه بتلامذة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد نحو أبي عثمان الطويل أو دعاتهم في شمال أفريقية، وما بقي من آرائهم تلاشى في تنظيرات كلاسيكيّة لم تستطع المواكبة بعد القرن ٤/ ١٠، حينها تغلّب الأشاعرة في إعادة التنظير على أدبيّات مرايا الأمراء، والتي لاقت قبولًا بين الساسة والمفكّرين. وأمّا رسائل الجاحظ الأخرى نحو «رسالة في علي بن أبي طالب وآله من بني هاشم» و«رسالة في الترجيح والتفضيل»، فقد شكّك الكثير في نسبتهما إليه.

ط - منهج الجشمي في هذا الكتاب

هنالك طرائف للجشمي في كتاب السفينة تختلف عن كتبه الأخرى فهو مبدع في التصنيف، فكلّ مصنّف يخطّه يختلف في أقسامه ومصادره وأسلوبه، وهو مجال لإنجاز أطروحة أسلوب

الكتابة لدى الجشمي. فهو كاتب مبدع ولديه القدرة في تجديد أساليب الكتابة أو خطّة تأليف كلّ كتاب، فمن هذه الطرائف في هذا المصنّف:

١- أنّنا نجده أحيانًا يستطرد في الموضوع الفقهيّ مبرزًا ثقافته الأدبيّة جامعًا بين الفقه والأدب:

فقد تحدّث عن فضل شهر رمضان، ثمّ عقب بقوله: «شهر رمضان ضيف ينزل كلّ سنة، وللضيف ثلاثة أحوال: حال نزوله، وحال مكثه، وحال ارتحاله.

أمّا حال نزوله فمن كرامته الفرح به، وروي عن الأصمعي قال: دخلت البادية، فبينا أنا أسير في ليلة مظلمة باردة إذا بخيمة فيها فتى على رأسه غلام، والفتى ينشد:

أوقد فإنّ الليل ليل قُرُّ والريح يا واقد ريحٌ صرُّ
عسى يرى ناري من يمر إن جاءنا الضيف فأنت حرُّ

فتقدّمت وسلّمت، فردّ عليّ وقال: ادخل يا مبارك، فأقمت ثلاثة، فقال: الضيافة ثلاث ثمّ الحاجة، فقلت: ديات لزمتني، فقال: يا غلام اجمع المواشي والأثاث، فجمع جميع ماله ثمّ أمر لي بنصف ما يملكه وقال: لا أدري كم عليك، ولكن جعلت لك نصف مالي.

وأمّا حال المكث: قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات:٢٤]، قيل: إكرامه لهم قيامه بنفسه عليهم، عن مجاهد. شعر:

وإنّي لعبد الضيف ما دام ثاويًا وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

وللبرقعي في إكرام الضيف:

الضيف أملك منا في منازلنا بالمال والنفس ثم المنّ للضيف
إنّي وقومي في أنساب قومهم كمسجد الخيف في بحبوحة الخيفِ

يوسف بن الحسن قال: كان بمصر ناسك لا يغلق بابه، وكلّ من أقبل وأدبر دخل، فإن وجد شيئًا أكله وإلّا انصرف، وكان مكتوبًا في زوايا بيته شعر:

مسكننا هذا لمن حله نحن سواء فيه والطارقُ
فمن أتانا فيه فليحتكم فإنه في حكمه صادقُ

فينبغي للمؤمن أن يستقبل رمضان بالسرور العظيم، ثمّ يقوم ويطوي فراشه، ويقوم ولا يقعد، ويسهر ولا ينام، ويتهجّد ويجتهد.

فأمّا الحالة الثالثة: حال ارتحاله، وهو حال الاستيحاش والاغتمام لمفارقته، حكي أنّ ضيفًا ارتحل من عند عبد الله بن عامر، فلم يعنه غلمانه على شد الرحال، فقال له: ما أبلك لو لا شدّ الرحال، فقال: إنّا لا نعين الضيف على الارتحال.

شعر:

ولا أقـول لضيفـي حيـن يطرقنـي — مـن أنـت أم كـم تريـد المكـث يـا رجلُ
أفديـه مالـي وبشـرى مـا ألـم بنـا — والدمـع يجـري إذا قامـت بـه الرحـل

فكذلك شهر رمضان إذا ارتحل يجب أن يكون الصائم بارتحاله باكيًا حزينًا؛ لأنّ من فارق حبيبه يجب أن يكون البكاء زينته، والنحيب حليته؛ لأنّه لا يخلو إمّا أن يكون قضى منه وطرًا فغمّه بفراقه بقدر سروره بمقامه، أو لم يقض منه وطرًا فتأسّفه على مضيّ الوقت مع الحبيب من غير حصول الأنس، ففي الوجهين يلزم قلبه القلق» (السفينة ٣/ ٢٣٤).

٢- ونراه أحيانًا يتكلّف السجع وينجلي أنّه لم يأتِ منه عفويًا:

فتحت عنوان «نثر في الاعتبار بالآفاق والأنفس» قال: «في الآفاق سحاب وغيوم، وفي الأنفس مصائب وهموم، وفي الآفاق أمطار وبروق، وفي الأنفس أعصاب وعروق، وفي الآفاق مطر ونبات، وآباء وأمّهات، وفي الأنفس حركات وسكنات، وحياة وممات، وفي الآفاق رياح، وفي الأنفس أرواح، وفي الآفاق أشجار، وفي الأنفس أشعار، وفي الآفاق دور وقصور، وفي الأنفس نحور وصدور، في الآفاق قرون خالية، وفي الأنفس سنون ماضية». (السفينة ١/ ٦٢).

٣- كثيرًا ما يأتي بتراكيب وأشعار فارسيّة. (انظر السفينة ٤/ ٢٢٢): من المعلوم القول في الفقه الحنفيّ بالسماح بقراءة الفاتحة بالفارسيّة ممّن هم حديثو العهد في اعتناق الإسلام ولا يستطيعون قراءة الفاتحة بالعربيّة، ولعل هذا الرأي مبكر؛ إذ ينسب لأبي حنيفة وتلاميذه، لكن لا ندري هل هو استثناء للغة الفارسيّة أم لكلّ اللغات.

إلّا أنّ تصنيف الشاهنامة للفردوسي أحدث دويًا في الثقافة الإسلاميّة الكلاسيكيّة؛ فقد كانت اللغة الموازية للغة العربيّة. فقد ألّف كثير من الفقهاء والمتكلّمين والفلاسفة والمفسّرين باللغتين العربيّة والفارسيّة، ويذكّرني هذا بالزمخشري الذي وضع كتابًا في مقدّمة الأدب للغتين العربيّة والفارسيّة، وكنت أرغب الحصول على دراسات غطّت هذا الجانب الخصب

في الثقافتين العربيّة والفارسيّة. وعسى أن يحدث ممّن يقيم مؤتمرات لإحياء هذا التمازج الثقافيّ والمعرفيّ في هذا الشأن.

ي - المخطوطات والتحقيق

أعتمد في تحقيق نصّ هذا الكتاب على مجموعتين: الأولى يمنيّة ومحفوظة بالجامع الكبير بصنعا، ورمز لها بـ(ي) والأخرى إيطاليّة مجموعة مكتبة الأمبروزيانا - ميلانو ورمز لها بـ(م). وأودّ أن أوضّح النقاط الآتية:

١- أنّ كلا المجموعتين أصلهما من نسخة مخطوطة يمنيّة وإن تعدّدت النسخ لكلّ جزء، فهي تتقارب في التصحيف والتحريف والأخطاء النحويّة، وإن تفاوتت في تأريخ استنساخها.

٢- تمّ اعتماد النسخ المخطوطة الكاملة فقط؛ فقد أعتمد على النسخة المحفوظة بمكتبة الجامع الكبير وتحتوي على الأجزاء (١، ٣، ٤) وفي المقابل نسخة بمكتبة الأمبروزيانا (١، ٢، ٣، ٤) بالرغم من وجود نسخ أخرى مخطوطة لهذا الكتاب كونها ضمن مجموعات أخرى وناقصة. ولذا تم تحقيق الجزء فقط من نسخة واحدة.

٣- استعنت بالنص القرآني برواية حفص عن عاصم لكونه مطبوعا وجلّ المصاحف المطبوعة حاليا تعتمد هذه القراءة. بيد أن جل المخطوطات اليمنية تستخدم رواية قالون عن نافع.

٤- كون هذا المصنف يحتوي على تنوعٍ في أقسامه ومصادره، بذلنا الجهد في توثيق نص الكتاب قدر المستطاع لأجل الضبط من جهة ولأجل الاستفادة في إيضاح طرق النقل في الكتابات الإسلامية الوسيطة.ومواضع السقط والإضافة من المحقق تتم في [ ].

اليمن

نسخة الجزء الأوّل: مخطوطة اعتمد الناسخ فيها على إظهار العناوين والعبارات المهمة بالخط الأحمر أو الأسود الكبير، إضافة إلى وضع فواصل بخط أحمر.

الغلاف الخارجي في الجزء الأوّل مرقم برقم: ٢٧١٥

المخطوطة تتبع لـ: مكتبة الجامع الكبير صنعاء.

الخط: نسخي جيد.

معدل الأسطر في الصفحة: ٣٠ سطرًا.

الناسخ: علي بن شمس الدين المؤيدي.

تاريخ النسخ: ١١٧٠هـ/ ١٧٥٧.
عدد الصفحات: ٣٧٨.

تبدأ المخطوطة لهذا الجزء بفهرس لهذا الجزء ويتكون الفهرس من خمس صفحات.

يلي ذلك صفحة العنوان وهي الصفحة السادسة، وقد اشتملت هذه الصفحة بالإضافة إلى عنوان الكتاب على توثيق ملكية هذه النسخة لمن انتقلت إليه، وهذه الصفحة تحتوي على التالي:

١- العنوان: (الجزء الأوّل من السفينة الجامعة لأنواع العلوم تصنيف الحاكم الإمام شيخ الإسلام أبي سعيد المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي رضي الله عنه).
٢- ختم مكتبة الجامع الكبير صنعاء.
٣- التصنيف والترقيم: **معارف عامة ٥** ٢٧١٤
٤- توثيقات من انتقلت إليه هذه النسخة:

- الحمد لله، من كتب الغني بالله الفقير إلى رحمة الله يحيى بن صالح بن يحيى السحولي وفقه الله وغفر له ولوالديه.
- الحمد لله تم في دول المفتقر إلى عفو الله تعالى حسن بن علي بن حسن حنش عمر الله قلبه بتقواه ولطف به في الدارين، شعبان سنة ١٢١٣/ يناير ١٧٩٩.
- الحمد لله وحده من كتب الغني بالله الفقير إلى رحمة الله الحسين بن إسماعيل بن صلاح الروى عفا الله عنهما بالشراء الصحيح من العزي محمد إسماعيل حنش بواسطة الصنو عبد الله الحصوري.... بتاريخ شهر رجب سنة ١٢٤٢/ يناير ١٨٢٧ والله حسبنا ونعم الوكيل.
- الحمد لله وحده، انتقل هذا الكتاب الجليل من ملك عبد الرحمن بن حسين الروى إلى ملك العلامة حسين بن إسماعيل جعمان بالشراء الصحيح وقبض الثمن بتاريخ شهر....... سنة ١٢٨٨/ ١٨٧١، وكفى بالله شهيدا.
- بسم الله من كتب الفقير إلى عفو ربه قاسم بن حسين بن محمد أبي طالب العزي غفر الله لهم، محرم سنة ١٣٣٥/ أكتوبر ١٩١٦.
- بسم الله شرعت في مطالعة هذا السفر الجليل من يوم الإثنين عاشر صفر سنة ١٣٤١/ سبتمبر ١٩٢٢ نفعنا الله بما فيه آمين.
- بسم الله، قد صار هذا الجزء الأوّل وما بعده الجزء الثالث والجزء الرابع من كتاب

السفينة للحاكم الجشمي من مشتريات رئيس مصلحة الآثار القاضي إسماعيل بن علي الأكوع لمكتبة الجامع الكبير بصنعاء بتاريخ ١٥ صفر سنة ١٣٩٤/ ٩ مارس ١٩٧٤.

نسخة الجزء الثالث من كتاب السفينة

نسخة الجزء الثالث: مخطوطة اعتمد الناسخ فيها على إظهار العناوين والعبارات المهمة بالخط الأحمر أو الأسود الكبير، إضافة إلى وضع فواصل بخط أحمر.

الغلاف الخارجي في الجزء الأوّل مرقم برقم: ٢٧١٦

المخطوطة تتبع لـ: مكتبة الجامع الكبير صنعاء.

الخط: نسخي جيد.

معدل الأسطر في الصفحة: ٢٩سطر.

الناسخ: لا يوجد اسم الناسخ عليها ولا تاريخ الانتهاء من نسخها، ولعل الناسخ لها هو نفس الناسخ للجزء الأوّل لتشابه الخط والتنسيق والتلوين والصفحات في هذه النسخة بنسخة الجزء الأول.

عدد الصفحات: ٢٨٦. تقريبًا

صفحة العنوان: تبدأ من الصفحة الرابعة من النسخة هذه، وهي صفحة منظمة مبروزة ومنقوشة وملونة، ومكتوب بأعلاها ما نصه: (من كتب الفقير إلى عفو الله وكرمه محمد بن قاسم بن حسن أبي طالب غفر الله له ولوالديه آمين).

أما عنوان الكتاب فقد جعله في داخل دائرة جميلة وسط الصفحة هكذا: (الجزء الثالث من كتاب السفينة للحاكم المحسن بن كرامة الجشمي البيهقي رحمه الله بواسع رحمته، وصار في ملك العبد الحقير إلى.... إسماعيل بن صلاح الروسي بشراء الصحيح منا تاريخ شهر رجب سنة ١٢٤٢/ فبراير ١٨٢٧ جعله الله لنا نافعًا وغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين والمؤمنات بحوله وقوته آمين آمين آمين). إضافة إلى ختم مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

وكذلك تصنيف وترقيم النسخة: **معارف عامة ٦** ٢٧١٥

ثمّ بعد هذه الصفحة: يبدأ فهرس الجزء الثالث هذا، ويتكون من ثلاث صفحات.

بعد صفحة الفهارس تبدأ صفحة: تضم ختم مكتبة الجامع الكبير إضافة إلى توثيقات من اقتنوا هذا النسخة، وهي كالتالي:

- الحمد لله من كتب أفقر عباد الله سبحانه إلى رحمته يحيى بن صالح السحولي غفر الله له ولوالديه والمؤمنين والمؤمنات، آمين.
- الحمد لله في دول المفتقر إلى عفو الله حسن علي حنش لطف الله به، شعبان سنة ١٢١٣/ يناير ١٧٩٩.
- الحمد لله من كتب العبد الحقير أفقر عباد الله سبحانه إلى رحمته الحسين بن إسماعيل بن صلاح الروى سامحه الله تعالى وغفر له ذنوبه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات آمين آمين بتاريخ شهر رجب الفرد من شهور سنة ١٢٤٢/ فبراير ١٨٢٧... إلخ.
- الحمد لله ثم من .... جل وعلا على الحقير المتكل عليه ليس إلا حسين بن....... حسين جعمان................ سنة ١٢٨٨/ ١٨٧١.
- بسم الله، ثم من كتب الفقير إلى عفو الله سبحانه قاسم بن حسين بن محمد أبي طالب غفر الله لهم وعفا عنهم، محرم سنة ١٣٣٥/ إبريل ١٩٣٦.
- ثم من كتب الفقير إلى عفو الله محمد بن قاسم بن حسين أبي طالب غفر الله له ولوالديه آمين، حرر ١١ القعدة ١٣٨٧/ ٩ فبراير ١٩٦٨.
- بسم الله الرحمن الرحيم، قد صار هذا الجزء الثالث من كتاب السفينة للحاكم الجشمي من مشتريات رئيس مصلحة الآثار القاضي إسماعيل بن علي الأكوع لمكتبة الجامع الكبير بصنعاء بتاريخ ١٥ صفر سنة ١٣٩٤/ ٩ مارس ١٩٧٤.

نسخة الجزء الرابع من كتاب السفينة

نسخة الجزء الرابع: مخطوطة اعتمد الناسخ فيها على إظهار العناوين والعبارات المهمة بالخط الأحمر أو الأسود الكبير، إضافة إلى وضع فواصل بخط أحمر.

المخطوطة تتبع لـ: مكتبة الجامع الكبير صنعاء.

الخط: نسخي جيد.

معدل الأسطر في الصفحة: ٢٩سطر.

الناسخ: لا يوجد ذكر اسم الناسخ عليها، ولعل الناسخ لها هو نفس الناسخ للجزء الأوّل والثالث لتشابه الخط والتنسيق والتلوين وتنسيق الصفحات.

تاريخ النسخ: ١١٧١هـ/ ١٧٥٨.

عدد الصفحات: ٢٩٤. تقريبًا

صفحة العنوان: هي صفحة منظمة مبروزة ومنقوشة وملونة، ومكتوب بأعلاها ما نصه: (وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم).

أما عنوان الكتاب فقد جعله في داخل دائرة جميلة وسط الصفحة هكذا: (بعناية سيدي القاضي العلامة والقدوة الفهامة عماد الإسلام وحسنة الأيام رب المكارم التي لا تجحد، محب محمد وآل محمد يحيى بن صالح بن يحيى السحولي حفظه الله وأطال بقاه في عز شامخ البناء سعد باذخ السنا، ونعمة مسرودة البقاء، العطاء أشجارها والإنجاز ثمرها، وأصدق الوفاء دررها، وسحائب الأفعال جناها، وقرن بالتوفيق عقده وحله، وأعان على الخير نيته وفعله بحق محمد وآله صلى الله عليه وعلى آله).

إضافة إلى ختم مكتبة الجامع الكبير بصنعاء.

وكذلك تصنيف وترقيم النسخة: **معارف عامة ٧** ٢٧١٦

يلي ذلك في الصفحة التالية: فهرس هذا النسخة، ويتكون من أربع صفحات.

بعد صفحة الفهارس صفحة فاضية ثم في الصفحة التي تليها احتوت على ختم مكتبة الجامع الكبير، ثم إلى توثيقات من اقتنوا هذه النسخة كما في النسخ السابقة، ونختصرها هنا بذكر اسم من اقتناها دون ذكر كامل النص كالتالي:

- يحيى بن صلاح السحولي.
- حسن بن علي بن حنش، شعبان سنة ١٢١٣/ يناير ١٧٩٩.
- حسين بن إسماعيل بن صلاح الروى، رجب سنة ١٢٤٢/ فبراير ١٨٢٧.
- ..... حسين جعمان سنة ١٢٨٨/ ١٨٧١.
- قاسم بن حسين بن محمد أبو طالب، محرم سنة ١٣٣٥/ نوفمبر ١٩١٦.
- محمد بن قاسم بن حسين بن محمد بن أحمد أبو طالب، ٩ محرم ١٣٨١/ يونيو ١٩٦١.
- بسم الله الرحمن الرحيم، قد صار هذا الجزء الرابع من كتاب السفينة للحاكم الجشمي من مشتريات القاضي إسماعيل بن علي الأكوع رئيس مصلحة الآثار ودور الكتب لمكتبة الجامع الكبير بصنعاء بنظر الحافظ العلامة محمد بن علي الأكوع بتاريخ ١٥ صفر سنة ١٣٩٤.

ميلانو - إيطاليا

- اسم المكتبة: ميلانو أمبروزيانا

- رقمه في المكتبة: BA, Arabic C 31
- رمز المخطوط: م
- الرقم التصويري: 24 × 16,5 cm
- عدد الأوراق: ٧-٢٤٢
- نوع الخط ولونه: النسخ أسود اللون
- عدد الأسطر: ١٩
- اسم الناسخ: قاسم بن عبدالله بن قاسم بن ماجد الضحاكي المعدّي
- تاريخ النسخ: ٢٨ ربيع الاخر ٦١٩/ ١١ يونيو ١٢٢٢
- ملاحظات: المجلد الأول

- اسم المكتبة: ميلانو أمبروزيانا
- رقمه في المكتبة: BA, Arabic C 32
- رمز المخطوط: م
- الرقم التصويري: 23,5 × 15,5 cm
- عدد الأوراق: ٤-١٩٠
- **نوع الخط ولونه: النسخ**
- عدد الأسطر: ٢٢
- اسم الناسخ: قاسم بن عبدالله بن قاسم بن ماجد الضحاكي المعدّي
- تاريخ النسخ: الجمعة ١٣ ربيع الأخر ٦٢٤/ ٢ إبريل ١٢٢٧
- اسم المكتبة: ميلانو أمبروزيانا
- رقمه في المكتبة: BA, Arabic C 33
- رمز المخطوط: م
- قياس المخطوط: 23,5 × 16 cm
- عدد الأوراق: ١٥٠/ يقع المخطوط في ٩٦ ورقة كون المخطوط به عدة مخطوطات.
- نوع الخط ولونه: النسخ أسود اللون
- عدد الأسطر: ٢٢
- اسم الناسخ: لم يذكر
- تاريخ النسخ: يخمن المفهرس بحسب ما ورد تأريخ إحدى المخطوطات في المجلد ب ٩١٥هـ/ ١٦٠٠ م.

- اسم المكتبة: ميلانو أمبروزيانا
- رقمه في المكتبة: BA, Arabic C 34
- رمز المخطوط: م
- قياس المخطوط: 29 × 20,5 cm
- عدد الأوراق: ٢-٩٨
- نوع الخط ولونه: النسخ أسود اللون
- عدد الأسطر: ٣٢
- اسم الناسخ: لم يذكر
- تاريخ النسخ: شوال ١٠٩١ / نوفمبر ١٦٨٠.

- اسم المكتبة: ميلانو أمبروزيانا
- رقمه في المكتبة: BA, Arabic C 48
- رمز المخطوط: م
- قياس المخطوط: 20 × 15 cm
- عدد الأوراق: ١٧٨
- نوع الخط ولونه: النسخ أسود اللون
- عدد الأسطر: ٢٥
- اسم الناسخ: عبدالله بن أحمد بن عبدالله الحجي
- تاريخ النسخ: ١٠٩٥ هـ/ ١٦٤٩م

تنبيه: أحدثنا تغيير في مسمّيات العناوين لأجل تناسق تركيبة الكتاب، وفي المجلّد الرابع في قسم الفهارس يوجد به قسم خاص عن قائمة التغيّرات بين الأصل وما تمّ تغييره.

عبد الرحمن بن سليمان السالمي
الجامعة الإلمانيّة للتكنولوجيا - مسقط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاته وسلامه على محمّد وآله

باب فيما يلزم المكلف معرفته من أصول الدين على مذهب العدل

قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فأوجب تعالى معرفة الله ووحدانيته.

وما يلزم من معرفة أصول الدين أربعة أشياء: التوحيد، والعدل، والنبوات، والشرائع:

فالتوحيد: يشتمل على أربعة فصول: إثبات الصانع، وما يجب له من الصفات، وما يجوز عليه، وما يستحيل عليه.

والعدل: يشتمل على أربعة فصول: نفي القبيح عنه، وفعل ما يجب، وأنه يقدر على القبيح، وإثبات الأفعال للعباد، ونفي ما يجب نفيه عنه.

والنبوات أربعة: إثبات البعث[1] ومتى يجب ومتى يحسن، وصفات الرسول، وبيان المعجزات، ونبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

والشرائع أربع: منها ما يجب العلم به فقط، ومنها ما يجب [فيه] العلم والعمل كأصول الشرائع، ومنها ما يجب [فيه] العلم ويجوز فيه التقليد، ومنها ما يجب الانتهاء [عنه].

فصل في المعرفة بالله وما يستلزمها

وإنما يعرف الله تعالى وصفاته وجميع مسائل الشرع بالأدلة؛ لأن ذلك لا يعرف مشاهدة وضرورة ويقبح الشك والتقليد، فلم يبق إلا النظر في الأدلة على ما يأتي مسألة مسألة بالإشارة إلى الدلائل على سبيل الإيجاز.

---

(١) لعله يقصد بالبعث هنا: بعث الأنبياء وإرسالهم.

يعلم أوّلًا أن العالَمَ مُحدَثٌ؛ لأنه يتغير من حال إلى حال شتاء وصيفًا، وبرد وحر، وليل ونهار، وتتغير حال الإنسان والقديم(٢) لا يتغير(٣).

شعر:

أصغ إلى وصفي حدوث العالم	بحجة كحد سيف صارم
كم أعجزت من فيلسوف عالمِ	فعاد للحق بأنفٍ راغم
جميع ما نشهده مؤلف	مركبٌ منوع مصنّفُ
وفيه للحق دليل يعرفُ	لأنه مدبر مصرّفُ

ويعلم أن لها محدثًا؛ لأن الإنسان مع عجيب صورته وتراكيبه يوجد، فلا بد من مركب ومصور، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم:٨]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

نثر: ثم في اختلاف الليل والنهار، ومهبط الثلوج والأمطار، وعجيب الأشجار والثمار؛ دليل على الصانع الجبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

شعر:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإلهُ	أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ	تدل على أنه الواحدُ

آخر:

والصنع لا بد له من صانع	لا سيما مع كثرة البدائع
وإنما تم بلا منازع	والملك لا يبقى على التمانع

ثم تعلم أنه واحدٌ، واختلفوا في معناه؛ قيل: المتفرد بصفات الكمال، وقيل: لا يتجزأ ولا

(٢) والقديم: بالقديم، م ي.

(٣) يتغير: تتغير، م ي.

يتبعض، وقيل: المتفرد بالإلهية، لأنه لو كان له صانع لصح التمانع، [فإن] أراد أحدهما حياة زيد والآخر موته، فإما أن يكون حيًّا ميتًا وهذا محال، أو لا يوجد مرادهما فلا يكونا إلهين[٤]، فلم يبق إلا أن يحصل مراد أحدهما، ومن حصل مراده فهو الإله، ولأنه لا بد من واحد، وما زاد يستغنى عنه، والإله لا يستغنى عنه؛ ولأن ما زاد على واحد لا دليل عليه، ولأنه لو كان ثانٍ[٥] لبعث رسولًا.

نثر: لا يوصف بالحدثان، ولا يشار إليه بالبنان، ولا يوصف بالمكان، وليس له في ملكه ثانٍ، هو الفرد المليك، ليس له في ملكه شريك.

شعر:

ولي قطب الزبرجد شاهداتٌ	بأن الله ليس له شريك

آخر:

الواحد الفرد القديم لم يزل	ولا يزال باقيًا بلا علل
لو كان للخلق سواه ربُّ	تنازعا الملك وجاء الحربُ

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١].

شعر:

ولو كان لله القديمِ مشارك	لما عدم الأفعال فاعلم تنافيا
وأبرز كل خلقه وفعاله	وأظهر بعض فوق بعض تعاليًا

ثم نعلم أنه لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولأنه لو أشبهه شيء من المحدثات لجرى عليه من النقص، والآفات، والحركات، والسكنات، والافتراقات ما[٦] يجري على سائر المحدثات، فكان محدثًا، تعالى عن ذلك، قيل: حيٌّ لا كالأحياء، وشيء لا كالأشياء، المتعالي عن الجوارح والأعضاء، والبعض والأجزاء، لا يبلغه وصف، ولا يلحظه طرف، ولا يتبعه كيف.

---

(٤) يكونا إلهين: يكونان إلهًا، م ي.

(٥) ثانٍ: ثاني، م ي.

(٦) ما : كما، م ي.

شعر:

منفـرد الأوصـاف بـاق حـي ... مـا مثلـه فـي كل وصـف شـي

آخر:

قـد رأينـا ومـا نـرى لـك شـبها ... وطلبنـا وكل ذاك بعيـد
قصـر المـدح فيـك وهـو طويـل ... فثنائـي عليـك غـضٌّ جديـد

آخر:

ومـا لـه مثـل مـن الأمثـال ... ولا لـه شـكل مـن الأشـكال
عـلا وجـلّ غايـة التعالـي ... دل عليـه متقـن الأفعـالِ

آخر:

تعالـى إلـه الخلـق لا شـيء مثلـه ... ومـا زال موجـودًا ولا زال باقيـا
وليـس بمولـود وليـس بوالـدٍ ... ولا معـه نـدٌّ لـه كان ثانيـا

آخر:

تعالـى الله ليـس لـه شـبيه ... وجـلّ فمـا يكـون لـه نظيـر

ويعلم أنه موجود؛ لأنه[٧] فاعل، والمعدوم لا يصح منه الفعل، ولأنه قادر عالم ويستحيل ذلك على المعدوم.

نثر: موجود دائم الوجود، موجود ليس بوالد ولا مولود، موجود لا يوصف بنوم ولا رقود، ولا قيام ولا قعود، موجود محمود معبود، موجود غير مفقود، موجود غير محدود.

شعر:

إن الإلـه دائـم الوجـود ... ليـس بمحـدود ولا مولـودِ

ويعلم أنه قديم، باقٍ، دائم الوجود، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وقال: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨]، ولأنه لو كان محدثًا لاحتاج إلى مُحْدِث، ولو جاز عليه العدم لاحتاج في وجوده إلى موجد.

نثر: جل عن الأشكال، ودام على كل حال، لم يزل ولا يزال، ليس لملكه زوال، ولا يجوز عليه الانتقال، لا يقطع وجوده فناء، ولا يلحقه في الفعل عناء، ولا يعترض كونه داء.

---

(٧) لأنه: لنه، ي.

شعر:

كل شـيء سـوف يفنـى غيـر محيـي الميتينـا

آخر:

مـا اختلـف الليـل والنهـار ولا دارت نجـوم السـماء فـي الفلـك
إلا لنقـل النعيـم مـن ملـكٍ قـد انقضـى ملكـه إلـى ملـكِ
وملـك ذي العـرش دائـم أبـدًا ليـس بفـانٍ ولا بمشـتركِ

آخر:

كانَ ولا عـرش ولا مـكان كان ولا حيـث ولا زمـانُ
كان ولا نطـق ولا لسـانُ ولا زبـور ولا فرقـان

ويعلم أنه ليس بجسم؛ لأنه لو كان كذلك لكان مُحدثًا مؤلفًا مركبًا لا مؤلِّفًا ولا مركِّبًا.

نثر: ليس كأسمائه اسم، ولا في أسمائه جسم، ليس بطويل ولا عريض، ولا يجوز عليه التجزُّؤ والتبعيض، ليس بجوهر ولا عرض، ولا يجوز عليه موت ولا مرض، له طَول وما له طُول، له حول وما له حلول، علي العوض وما له غرض، ليس بعرضٍ ولا جوهر، وليس بِخفي ولا يظهر، ولا يُغلب ولا يُقهر، ولا ينام ولا يسهر، يعلم السر وما يجهر.

شعر:

سبحان ربـي عـن صفـات الجوهرِ وعـن سـمات المحـدث المقـدر

ويعلم أنه ليس بعرض؛ لأنه لو كان عرضًا لكان محدثًا؛ ولأن العرض يحل غيرَه ولا يكون قائمًا بنفسه.

نثر: العرض لا يجوز بقاؤه، والقديم يستحيل فناؤه، ليس من قبيل الأعراض، وله في كل الأعراض أعراض.

شعر:

ليـس القديـم مـن قبيـل العـرض وليـس يخلـو فعلـه عـن عـرض

ويعلم أنه قادرٌ عالمٌ حيٌّ لم يزل ولا يزال، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ[8] ٱلْقَدِيرُ﴾

(٨) في الأصل: وهو العلي. وما أثبتناه من المصحف.

[الروم:٥٤]، وقال: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ولأنه فاعل وقادر وخالق، ويستحيل ذلك ممن لا يكون بهذه الصفات، ولأن من تدبر في هذه الأفعال العجيبة والتراكيب الغريبة علم أن ربنا قادر لا يحتاج إلى الأدوات، عليم لا يجوز عليه الغفلات، حي لا يجوز عليه الآفات، عليم ليس شيء عنه يفوت، وحي لا يموت.

شعر:

هو الإله القادر العليم   هو الإله الخالق العظيم

آخر:

لا بل هو الرب المليك الماجد   الصمد الفرد العزيز الواحد

ويعلم أنه سميع بصير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ولأنه حي لا آفة به فيجب أن يكون سميعًا بصيرًا.

نثر: سميع بلا آذان، بصير بالسر والإعلان، عليم بما كان وما يكون.

شعر:

بكل غيبٍ ربنا خبير   وهو عليم بالورى بصير

ويعلم أنه متكلم وأن القرآن كلامه محدث ليس بقديم، لأن المتكلم فاعل الكلام، وأجمعت الأمة أن القرآن كلام الله، وهو آيات وسور بعضها في أثر بعض، وذلك دليل على الحدث، ولأنه قال لموسى: ﴿أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف:١١٧]، ولما كان موسى والعصا.

نثر: متكلم لا باللسان واللهوات، بريء من العلل والآفات، وقال تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢].

شعر:

العالم الذات القدير الذاتِ   يرى بلا عين ولا آلاتِ
وهكذا السماع للأصواتِ   ليس كقول فرقة الصفاتِ

آخر:

قد جهلت في قدم القرآنِ   كمثل جهل عابد الأوثانِ
قالت قديم ليس بالرحمن   فصار هذا كمسيح ثان

ويعلم أنه قادرٌ عالمٌ حي سميع بصير لذاته لا لمعانٍ محدثة بخلاف قول اللعين هشام بن الحكم وقول الصفاتية: إنه كذلك لمعانٍ قديمة، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، ولأنه لو كان كقول هشام لكان قبل القدرة والعلم جاهلًا عاجزًا، ولو كان كما يقوله الأشعرية لكان معه ثان قديم، ولأن هذه صفات واجبة فيستغنى عن العلل كوجوده تعالى.

نثر: لو كان معه قديم لكان مثله حي عليم، عالم في الأزل، مستغنٍ[٩] عن العلل.

ويعلم أنه لا تجوز عليه الأعضاء والجوارح؛ نحو: العين، والأذن، والوجه ونحوه؛ لأنه لو كان كذلك لأشبه الأجسام.

نثر: سميع لا بآذان، متكلم لا بلسان، بصير لا بالأبصار، عليم لا بالأفكار.

و٣٣٣ عليه المكان، ولا كيف ولا أين، ولا الزوال ولا الانتقال؛ لأن هذه صفات الأجسام، خلق العرش لا للقرار، وخلاق الكرسي لا للاستقرار، النزول والجلوس من صفات الأجسام لا من صفات ذي الجلال والإكرام.

شعر:

عـزَّ فـلا تدركُـه الأبصـارُ ... كلا ولا تبلغـهُ الأفـكارُ
ولا لـه كيـفٌ ولا اسـتقرارٌ ... ولا لـه أيـنٌ ولا أقطـارُ

ويعلم أنه يريد من عباده الطاعات ولا يريد المعاصي والضلالات، لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:١٠٨]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، ولأنه لو أراد ذلك منهم لما عاقبهم على ذلك ولما نهاهم عنه، ولأن الحكيم لا يريد شتم نفسه، وقتل أوليائه وأنبيائه وأصفيائه.

نثر: يريد من العباد اتباع الرشاد، وفعل السداد، واجتناب الفساد، وترك الكفر والعناد. يريد من عباده الإيمان، ولا يريد الكفران. يريد عبادة الرحمن، ولا يريد عبادة الأوثان. يريد طاعة الديان، ولا يريد طاعة الشيطان، يريد العدل والإحسان، ولا يريد الجور والعدوان.

شعر:

فيـا سـائلًا عـن ديننـا ومقالِنـا ... أَفِـقْ واسـتمعْ إن كنـت فيـه مباليـا
نديـن بـأن اللهَ فـردٌ وأنـه ... هـو العـدلُ فـي أفعالِـه ليـس باغيـا

(٩) مستغنٍ: مستغني، ي.

آخر:

قـد خَلَـقَ العالَـم للعبـادةِ   وقـرن الأمـرَ إلـى الإرادةِ
ولـم يـرد مـن عبـدِه عنـادَهُ   ولـم يُحِـبَّ بَتّـةً فسـادَهُ

ويعلم أنه لا يخلق أفعال العباد، بل هي فِعْلُهم، لقوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، ولأنه لو خلقه لما صح الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ولكان العبد مجبورًا، ولكان فِعْلُه كلونه(١٠).

شعر:

أيَجبرُ ذو حُكـمٍ على الكفرِ عبدَه   ويُخلِـدَه فـي النـار لِـمْ كان عاديـا
يعذبُـه للكفـرِ والكفـرُ فعلُـه   ومنـه أتـى لـولاه قـد كان ناجيـا
فـإن جـاز هـذا لِـمْ أتيتـم عذابَـه   على لونِـه المسـود لِـمْ كان قاضيـا
ومـن جـار في الأفعـالِ سُـمِّيَ جائرًا   ومـن فعـلَ الطغيـانَ سُـمِّيَ طاغيـا

ويعلم أنه خلق الخلق للطاعة، ولم يضل أحدًا عن طاعته وعن الدين؛ لأنه لو أضلهم لما عاقبهم، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٥]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ﴾ [طه:٧٩].

نثر: تعالى رب العالمين عن إضلال الناس عن الدين.

شعر:

ومـا أن أضـلَّ اللهُ خلقًـا ولـم يكـنْ   ليضلـلَ عـن ديـن بـه كان هاديـا
بلـى قـد يُضِـلَّ الظالميـن عقوبـةً   لأنهـمُ ردوا هـداهُ تَنسـيا

آخر:

هَـدى ثمـودَ وهـي تختـارُ العمـى   أمـا قـرأتَ مُنـزَلًا هـذا أمـا

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. والكلام فيه تفصيل الإضلال والهدى ليس هذا موضعه.

ويعلم أنه كلف وأزاح العلة، وأن الكافر قادر على الإيمان؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان تكليفًا لما لا يطاق، قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢]، وقال: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢].

---

(١٠) لعله يقصد أن فِعْلَ الإنسان لو كان خلقًا لله لكان كلون جسده، فكما لا دَخْل له في اختيار لونه فكذلك لا دخل له في تصرفات جسده.

شعر:

أزاح كلَّ علةٍ للطاعة ... ولم يكلفك بلا استطاعة
قدّمها باللطف للجماعة ... وإنما الفائز من أطاعه

آخر:

تَفضّل بالتكليفِ[(١١)] كيما يثيبهم ... بما في سواه لا يكونُ مجازيا
فهم باختيار السوءِ ردوا امتنانَه ... وقَبحُهُمُ لا يجعلُ الحسنَ واهيا

ويعلم أنه لا يُرى بالأبصار، لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣].

نثر: لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، ولا يرى بالبصر، ولا يقاس بالبشر.

شعر:

ولم تره الأبصارُ جلَّ جلالُه ... ولن تَرهُ أيضًا وإن كان رائيا
وكيف تراه العينُ والعينُ لا ترى ... مَرِيًّا لها حتى يكونَ محاذيا

ويعلم أن الثواب للمؤمنين، وأن العقاب للعاصين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النساء:١٣]، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا﴾ [النساء:١٤].

نثر: يصدق الوعد والوعيد، وما هو بظلام للعبيد، يثيب المؤمنين، ويعاقب الكافرين، لا يعاقب بغير عصيان، ولا يعذب بغير كفران، هذا هو العدل مع التوحيد، ورأي كل عالم رشيد.

شعر:

وقد قال ربي كلُّ نفس رهينةٌ ... بما كسبت في سرِّها والعلانيا
وأن ليس للإنسان في كل حالةٍ ... وفي حشرِه إلا الذي كان ساعيا

نثر: لا يعاقب أحدًا بغير ذنب، ولا يعذبه بغير جرم، بل يعاقب بما جنت يداه، وفضح فوه.

ويعلم أن الجنة والنار حق؛ لأنه وعد بذلك في كتابه، وأخبر عنهما ووصفهما.

نثر: قد أعد الله الجنان لأهل الإيمان، والنيران لأهل الطغيان.

---

(١١) بالتكليف: والتكليف، ي.

شعر:

لقد فازَ عبدٌ كان لله طائعًا ... وحلَّ بدارِ الخلد أعلى المراتبِ

ويعلم أن مرتكب الكبيرة من أهل القبلة ليس بمؤمن حقًا ولا كافر، بل هو فاسق، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨]، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ[١٢] كَلِمَتُ[١٣] رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:٣٣].

نثر: من زنا وسرق فقد طغا وفسق، ليس بمؤمن حقا ولا كافر حقًا.

شعر:

وقاتلُ النفسِ لدينا فاسقُ ... لا مؤمنا حقًّا ولا منافقُ

والكل في تفسيقه موافقُ ... قوليَّ إجماعٌ وخصمِي خارقُ

ويعلم أنه لا يطلق بأن الله قضى الكفر وقدره؛ لأنه يُوهِمُ الخَلْقَ والأَمْرَ، تعالى عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، شعر:

اصفعوا المجبرَ الذي ... بقضا السوءِ قد رضي

فإذا قيل لِمْ فعلتَ ... فقلْ هكذا قُضِي

ويعلم أن التائب من أهل الجنة مع المؤمنين، لقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه:٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، ولا يجوز أن يدخل الكفار الجنة ولا المؤمنين النار.

نثر: ربنا أعدل من أن يجمع بين من قال: (سبحان ربي الأعلى)، وبين من قال: (أنا ربكم الأعلى)، وبين من وَحَّد وألحد، وبين من شكر وكفر.

شعر:

فمن كان بالخيراتِ لله طائعًا ... فسوف يبوءَ في الجنانِ العلاليا

ومن كان في الدنيا لعَمْرُك عاصيًا ... سَيصلى عذابًا في جهنمَ حاميا

ويعلم أن السؤال في القبر ومنكر ونكير حق؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ...﴾ الآية [غافر:١١].

---

(١٢) في الأصل: وكذلك تمت كلمات. وما أثبتناه من المصحف.

(١٣) في الأصل: وكذلك تمت كلمات. وما أثبتناه من المصحف.

نثر: من آمن بنكير ومنكر لا يرتكب الفحشاء والمنكر، فهما ملكان يلقيان العاصي بإنذار وتخويف ونكير، والمؤمن ببشارة وبشير.

شعر:

واعلـم بأنـك ميـتٌ ومُسَـاءَلُ ... يـا مـن علـى سـخطِ الجليـلِ أقاما

ويعلم أن الميزان حق، وستأتي كيفيته، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف:٨].

نثر: من آمن بالميزان جعل قلبه في الدنيا بيت الأحزان.

شعر:

تذكـر يـوم تأتـي الله فـردا ... وقـد نصبـت موازيـن القضـاءِ

وهتكـت السـتور عـن المعاصـي ... وجـاء الذنـب مكشـوف الغطـاء

آخر:

سـيعلمون إذا الميـزان شـال بهـم ... أهـم جنوهـا أم الرحمـن جانيهـا

ثم يعلم أن الصراط حق.

نثر: خوف الصراط يكسر النشاط، ومن تذكر الصراط طوى في الدنيا البساط.

شعر:

إذا مـد الصـراط علـى جحيـم ... يصـول علـى العصـاة ويسـتطيل

فقـوم فـي الجحيـم لهـم ثبـور ... وقـوم فـي الجنـان لهـم مقيـل

وبـان الحـق وانكشـف الغطـاء ... وطـال الويـل واتصـل العويـل

ثم يعلم أن الأنبياء كلهم حق، وسيدهم وخاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بعثه إلى الجن والإنس، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [البقرة:١١٩].

نثر: أيد الأنبياء بالمعجزات والدلائل الباهرات، وحملهم الرسالات، ثم ختم بمحمد باب النبوات، وأعطاه في جملة معجزاته القرآن، ووعده المنازل الشريفة، منها الشفاعة والرضوان.

شعر:

أرسـل بالحـق جميـع الرسـل ... مـن آخـر منهـم نعـم وأوّل

آخر:

أشرفهم في فضله محمد ... صلى عليه الأزلي الصمدُ

آخر:

معزة في صدقه القرآن ... ما مثله في نوره برهانُ

آخر:

قد عرفتنا المعجزات الموثره ... أن جميع الأنبياء بررة

آخر:

وخيرهم آخرهم محمدُ ... صلى عليه ربه الموحدُ

قامت دلالات له لا تجحد ... دل بها وحار فيها العندُ

آخر:

أوضحها القرآن فهو كافي ... صين عن التحريف والتنافي

وأعجز الخلق بلا خلاف ... فيه البيان والدليل الشافي

ثم يعلم أن الخليفة بعده أبو بكر[١٤]، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي؛ لإجماع الصحابة، قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ...﴾ الآية.

نثر: أبو بكر إمام الأئمة، عمر لسان الأمة، عثمان كاشف الغمة، علي سيد الأئمة.

شعر:

أصحابه في الفضل كالنجوم ... فانظر فما في القوم من دميم

ما نص في الأمر على الأئمة ... لكنه حكم فيها الأمة

فاجتمع الناس على الصديق ... وبعده أوصى إلى الفاروق

تخيروا من بعده عثمانا ... يختم في ركعته القرآنا

....

وقدموا من بعده عليا ... وكان حقا في الورى وصيّا

ثم أتت من بعده أمور ... وانتقض النظام والتدبير

خليفة الله هو الصديق ... صهر رسول الله والعتيق

(١٤) أبو بكر: أبي بكر، م ي.

آخر:

خليفة الله هو الصديق بعد النبي بعده الفاروقُ
من بعده عثمان ذو النورين ثم علي والد السبطين

آخر:

خليفة الله هو الصديق صهر رسول الله والعتيق
أنزل فيه الله آيا وسور أوجب فيه أينما رما أمر
في الفتح والليل وسورة الزمر وفي براءة ثاني اثنين اشتهر

ثم يعلم أن عليًّا عليه السلام أفضل الصحابة، لقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [النساء:٩٥]، وقال عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

شعر:

وخير هذا الخلق بعد المصطفى وصيه أزكى وصي عرفا
لم يعرف الأصنام والأوثان أسبق من قد قبل الإسلاما
صيّره هارونه في أهله وكان باب علمه لفضله
أبسط كما شئت غدير خم واقرأ على آذان قوم صُمّ

ويعلم أنه لم يكن هناك نص وكان الأمر شورى لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، ولإجماع الصحابة.

شعر:

يا مدعي النص أتيت هجرا سميت أصحاب النبي جهرا
لو كان تعيين ونص لنُقِل وكانت البيعة زورًا ما قبل

ويعلم أن العشرة هم البررة، لا يبغضهم إلا الكفرة الفجرة، ولا تحبهم إلا القلوب المطهرة.

شعر[15]:

خيار عباد الله بعد نبينا هم العشر طرًا بشروا بجنانِ
زبير وطلح وابن عوف وعامر وسعدان والصهران والختنان

---

(١٥) ينظر: المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ص٣٣.

ثم يعلم أن موالاة المهاجرين والأنصار واجبة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠].

نثر: المهاجرون والأنصار هم السابقون الأبرار، ولا يبغضهم إلا الكفار، ولا يحبهم إلا الأخيار. المهاجرون والأنصار، نصروا دين الله الجبار، ورسوله محمد المختار.

ثم يعلم أن موالاة العترة الحسن والحسين عليهما السلام واجبة وأولادهما، والاقتداء بهم، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

نثر: موالاة العترة من الطهرة، من دين الرسول موالاة البتول.

شعر:

إليكم كل مكرمة تؤول ... إذا ما قيل: جدكم الرسول
أليس أبوكم الهادي عليًّا ... وأمكم المطهرة البتول

ثم تبرأ من معاوية وعمرو بن العاص وجميع أعداء أهل البيت، ومن حارب عليًّا وأولاده.

شعر:

نبرأ من عمرو ومن معاويه ... ثم ابنه يزيد طعم الهاويه
نبرأ من جمع بني مروان ... عليهم لعائن الرحمن
نلعن عبد الله ذاك الأشعري ... ذاك الضعيف الدين ذاك المفتري
أليس قد خان عليًّا آخرا ... ولم يبايع أولًا مما جرا

آخر:

ويلعن الله أبا سفيانِ ... ونسله ثم بني مروانِ
أهل الشقاق فرقة الطغيانِ ... ذوي النفاق شيع الشيطانِ
والحكمين موضع الآثامِ ... إذ يخلعان صفوة الأنامِ
عليهما لعائن العلاّمِ ... تترى على التمام والدوامِ

فهذه الجملة اختيار أهل الحق في العدل والتوحيد والوعد والوعيد.

شعر:

فهذي أصول الحق بانت بحجة	فلا تك عنها آخر الدهر لاهيا
بذلك جاء الهاشمي محمدٌ	بشيرًا نذيرًا للمصالح هاديا
به أنقذ الله العباد من الردى	وأرشدهم حتى استبانوا المساعيا

مبحث في التفكر في معرفة لله تعالى

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم:٨].

التفكر على ضربين: واجب، وندب.

فالواجب: أن يتفكر في أدلة التوحيد والعدل ليعرف ربه؛ لأن معرفة الله واجبة، ولا يصل إلى ذلك إلا بالنظر. ومن الواجب حلّ الشّبه الواردة على أدلة التوحيد والعدل والنبوات.

والندب: كالتفكر في زيادة الأدلة، وفي فروع الدين. وقد مدح الله تعالى النظر والتفكر في مواضع من كتابه وحث عليه، فمنها ما هو للمعرفة كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق:٦]، ومنها: ما هو للعبرة كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:٩].

وذكر ابن يزداد بإسناده عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبصر قومًا فقال: «ما لكم»؟ فقالوا: نتفكر في الخالق، فقال لهم: «تفكروا في خلقه ولا تفكروا في الخالق فإنكم لن تقدروا قدره»[١٦].

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله».

ابن عباس قال: دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في المسجد فقال: «ما تصنعون»؟ قلنا: نتفكر في الشمس كيف إذا طلعت وكيف إذا غربت، فقال: «أحسنتم، كونوا هكذا، تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق».

وروى أبو رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررت بالواد ممحلًا ثم تمر به أخضرًا»؟ قلت: بلى، قال: «كذلك يحيي الله الموتى».

(١٦) الحديث ذكره أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب (العظمة) ص١٤٨٩ ج٤.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة».

وقد عاب الله تعالى المعرض عن النظر في كتابه بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]، كما مدح من تفكر ونظر بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]، فأوجب ما يجب على المرء النظر في الأدلة ليعلم الحق؛ لأن معرفة الله أول الواجبات ولا يتم شيء من الأصول والشرائع إلا بعد معرفة الله تعالى، وإنما يعرف بالنظر، فإذا النظر أول الواجبات.

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تتفكروا في الله» لأنه لا يعرف إلا بأفعاله فينظر فيها، ولا ينظر في ذاته حتى من أي شيء هو وكيف هو، هذا معناه.

شعر:

تفكـر فـي نبـات الأرض وانظـر ... إلـى آثـار مـا صنـع المليـكُ

آخر:

وإذا نظـرت إلـى السمـاء بعبـرةٍ ... دل السمـاء عليـك أنـك واحـدُ

وإذا نظـرت إلـى الكواكـب مـرةً ... فـإذا الكواكـب للمكوكـب شـاهدُ

مبحث في العلم بالله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، ومعرفة الله تعالى هي أول الواجبات؛ لأنه ما لم يعرف لا تصح معرفته أفعاله ورسله والشرائع، فجميع ذلك كالفرع عليه، وكذلك ما لم يعلم لا يصح أن يعبد ولا يصح أن تعرف أوامره ونواهيه.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا نبي الله علمني من غرائب العلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وما صنعت في رأس العلم حتى تسألني عن غرائبه»؟ فقال الرجل: يا رسول الله وما رأس العلم؟ قال: «معرفة الله حق معرفته»، فقال الرجل: وما معرفة الله حق معرفته؟ فقال عليه السلام: «أن تعرفه بلا مثل ولا شبيه، وتعرف إلهًا واحدًا، عالمًا قادرًا، أولًا آخرًا، ظاهرًا باطنًا، لا كفؤ له ولا مثل».

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس لا يعذر[١٧] بجهلهن أحد: أن تعرف

(١٧) يعذر: يعذران، م ي.

الله لا يشبه به شيئًا، ومن شبه الله بشيء أو زعم أن الله يشبه[١٨] شيئًا فهو من المشركين، والحب في الله، والبغض في الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الظلمة».

الضحاك عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: علمني، فقال: «هل عرفت ربك»؟ فقال: يا رسول الله وكيف أعرفه؟ قال: «اعرفه ولا تعرفه بالأعضاء».

أنس قال: إن رجلًا قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: «العلم بالله ثلاثًا»، قال: يا رسول الله إنما أسألك عن العمل وتخبر عن العلم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ويحك إن مع العلم ينفعك قليل العمل وكثيره، وإن مع الجهل لا ينفعك قليل العمل ولا كثيره».

وذكر أبو يحيى البزار بإسناده أن موسى بن عمران عليه السلام كان له صاحب فقال ذات يوم لموسى: ادع الله أن يعرفني نفسه حق معرفته، قال: فدعا موسى عليه السلام ربه فاستجيب له، فلحق صاحبه بالجبل مع الوحوش، قال: وعدا موسى إلى أخيه فلم يصبه، فقال: يا رب أخي وصاحبي كنت آنس به وقد فقدته، قال: يا موسى إنك سألتني أن أعرفه نفسي حق معرفتي، وإنه ليس ينبغي لأحد أن يعرفني حق معرفتي فيأنس بالناس.

وعن سفيان قال: كنت آتي الحجاج بن فرافصة قال: قال بديل: من عرف [ربه][١٩] أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإن تفكر حزن.

الثوري: العلماء ثلاثة: عالم بالله ليس بعالم[٢٠] بأمر الله يخشى الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله فذلك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله، فذلك العالم الفاجر.

سفيان بن عيينة: سمعت الصادق يقول: وجدت علم الناس في أربعة: أوله: أن تعرف ربك عز وجل، والثاني: أن تعرف ما صنع بك، والثالث: أن تعرف ما أراد منك، والرابع: ما يخرجك من دينك، وإياك أن تمر بالمثل من كتاب الله تعالى لا تعلم ما هو فتتحير، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

---

(١٨) يشبه: تشبه، م ي.

(١٩) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ١٢/ ٣٣٢.

(٢٠) سنن الدارمي حديث رقم ٣٦٣.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال وسطها، ودين الله بين [القاسي والغالي][٢١]» رواه أبو بردة بإسناده عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن عون بن عبد الله: رأس التقوى النظر، وحقيقته العمل، وتكملته الورع، والهدى من الله معروض لا يبصره[٢٢] إلا البصير، ولا يعمل به إلا اليسير، كنجوم السماء لا يهتدي بها إلا العلماء.

وعن عبد الله بن حراد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس الأعمى من عمي بصره، إنما الأعمى من تعمى بصيرته».

ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حذر الغفلة في الدين.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كيف أنتم إذا كنتم في دينكم في مثل القمر ليلة البدر لا يبصره منكم إلا البصير». شعر أنشدني الفقيه أبو سعد الإسترابادي:

تبارك الله وسبحانه ... من جهل الله فذاك الفقير
إن كنت ترجو الله فاقنع به ... فعنده الفضل الجزيل الكثير
من ذا الذي تلزمه فاقة ... فذخره الله العلي الكبير
كل امرءٍ طابت له عيشة ... لغافل عما تجر القبور
نحن بنو الأرض وسكانها ... منها خلقنا وإليها نصير

عن وهب المكي، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو عرفتم الله حق معرفته لعلمتم العلم الذي ليس بعده جهل، ولو علمتم الله حق معرفته لزالت الجبال بدعوتكم».

عن الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قسم الله العقل ثلاثة أجزاء، فمن كن فيه فهو العاقل، ومن لم يكنَّ فيه فلا عقل له: حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر لله». معنى الخبر أن من لم يعقل هذا فلم يستعمل عقله صار[٢٣] كمن لا عقل له، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩].

---

(٢١) شعب الإيمان حديث رقم ٣٨٨٧.

(٢٢) يبصره: ينصره، ي.

(٢٣) صار: فصار، م ي.

مبحث في المقايسة وما جاء فيه

قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١].

وعن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين».

أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «نضر الله عبدًا سمع كلامي ولم يزد فيه، فرب حامل كلمة إلى من هو أوعى لها منه، ثلاثة لا يغل عليها قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والمناصحة لولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»، رواه ابن مسعود أيضًا، وفيه دليل الإجماع.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بئس القوم قوم يقتلون الذين[٢٤] يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم يمشي فيهم المؤمن بالتقية، بئس القوم قومٌ يستحلون الشهوات بالشبهات، كل قوم على ريبة من أمرهم ومفلجة عند أنفسهم يردون على من سواهم، ويتبين الحق من ذلك بمقاييس العقل عند ذوي الألباب من الناس».

عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما اكتسب أحدٌ مثل فضل العقل يهدي صاحبه إلى هُدى ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبدٍ ولا استقام دينه حتى يكمل عقله».

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى فيما كتب إليه: مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك ما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والإشارة، ثم قس الأمور عند ذلك، فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى[٢٥].

البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لله خواص من خلقه يسكنهم الرفيع من الجنان، لأنهم كانوا أعقل الناس في الدنيا»، قالوا: وكيف كانوا أعقل الناس يا رسول الله في الدنيا: قال: «كانت نهمتهم المسارعة إلى ربهم فيما يرضيه فهانت الدنيا عليهم فلم يرغبوا فيها ولا في فضولها فصبروا قليلًا واستراحوا طويلًا».

---

(٢٤) انظر القرطبي ٤/ ٣٧.

(٢٥) ترى: يرى، م ي.

المغيرة: قيل لابن عباس: أنّى أُوتيت[٢٦] هذا العلم؟ قال: بقلب عقول ولسان سؤول.

ابن عباس قال: أسس الدين على العقل، وفرضت الفرائض على العقل، وما عبد الله إلا بالعقل، ألم تر إلى قوله تعالى وما أخبر عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا...﴾ إلى قوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ [الأنعام:٧٦-٧٩]، فعرف بعقله الذي آتاه الله أن للذي رأى مدبرًا وخالقًا وأنها تجري بأمره فأخلص العبادة له، وبذلك اتخذه خليلًا. فالعاقل عن ربه أقرب العباد إلى ربه زلفى، وأرفعهم عنده درجة من جميع المجتهدين بغير عقل، ومثقال ذرة من عمل العاقل أفضل من اجتهاد الجاهل عمر الدنيا.

ومن كلام الفضل الرقاشي: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارًا[٢٧] أجابتك اعتبارًا[٢٨].

مبحث في التقليد

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ..﴾ [الزخرف:٢٣] ونظائرها كثيرة في الكتاب.

التقليد: هو قبول قول الغير من غير حجة ولا دليل، وذلك على وجوه:

منها: في مسائل الاجتهاد، وذلك جائز لإجماع الصحابة والفقهاء.

ومنها: في مسائل الأصول واختلفوا في ذلك؛ فقال أبو القاسم البلخي من العدلية والقاسم بن إبراهيم عليه السلام من الزيدية: إن مقلد المحق ناجٍ، وقال أبو علي وأبو هاشم: إنه غير ناجٍ.

ولا بد أن يعرف ذلك بدليل، وفي الكتاب والآثار ما يستدل به كل واحد من الفريقين.

فمما استدل به من نهى عن التقليد وإن كان حقًا ما اعتقد قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، وقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، ونظير ذلك من الآيات والآثار ما روى حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه

---

(٢٦) أوتيت: أتيت، م ي.

(٢٧) البيان والتبيين ١/ ١٦٣.

(٢٨) البيان والتبيين ١/ ١٦٣.

وآله وسلم قال: «لا تكونوا إِمَّعَةً تقولون[٢٩]: إن أحسن الناس أحسنّا وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا».

ابن الأحوص عن عبد الله قال: كنا نقول في الجاهلية إذا ذهب الرجل مع الرجل أو القوم إلى طعامٍ لم يدع [إليه]: الإمعة، ألا وإن الإمعة فيكم المحقب دينه الرجال[٣٠].

أبو وائل عن ابن مسعود قال: إذا وقع الناس في الشر فقيل لك: إن لك بالناس أسوة، فقل: لا أسوة لي في الشر.

عمر: أخوف ما أخاف عليكم زلة عالم يأخذ الناس عنه وأئمة مضلون.

علي بن أبي طالب عليه السلام: إياكم والاستنان بالرجال، يقول الرجل: أصنع ما يصنع فلان وأنتهي عما ينتهي فلان.

وعنه: قال للحرث الأعور قال: يا حار، الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله.

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني أخاف عليكم ثلاثًا وهو كائن: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تفتح عليكم»[٣١].

ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أخوف ما أخاف على أمتي أئمة مضلون».

[وعن] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني لأخاف على أمتي من بعدي أعمالًا ثلاثة»، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «أخاف عليهم من زلة عالم، ومن حكم جائر، ومن هوىً[٣٢] متبع».

سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كيف أنتم وثلاث يكنّ فيكم: دنيا تقطع أعناقكم، وزلة عالم، ومجادلة منافق بالقرآن، أما مجادلة منافق فالقرآن لكم منار كمنار الطريق، فما عرفتم منه فخذوه، وما لم تعرفوا منه فكلوا إلى الله، وأما زلة عالم فإن هو اهتدى فلا تتبعوه دينكم تقولون: نصنع كما يصنع فلان ونتنهي عما ينتهي فلان عنه، وإن هو أخطأ فلا تقطعوا

(٢٩) الترمذي رقم ٢٠٠٧.

(٣٠) المستدرك للحاكم حديث رقم ٧١٨٧.

(٣١) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٢٨٢.

(٣٢) هوىً: هو، ي. مسند البزار (البحر الزخار) حديث رقم ٣٣٨٤.

[إياسكم منه فتعينوا][٣٣] عليه الشيطان، وأما دنيا فتقطع أعناقكم فإذا كان ذلك فلينظر الرجل إلى من هو أسفل منه ولا ينظر إلى من هو فوقه».

الفضيل: إنهما عالمان: عالم الدنيا، وعالم الآخرة، فلا تتبعوا عالم الدنيا لا يصدكم [بسكره][٣٤]، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ﴾ [التوبة:٣٤] فالأحبار العلماء، والرهبان العباد.

علي بن أبي طالب: سيأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، من عندهم نتجت الفتنة وفيهم تعود.

حذيفة في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة:٣١]، قال: أما إنهم لم يصلُّوا لهم، ولكنهم ما أحلوا لهم من حرام استحلوه وما حرموا عليهم من حلال حرموه، فتلك ربوبيتهم.

وعن أبي العالية في ذلك: إنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا ائتمرنا وما نهونا انتهينا، فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ..﴾ الآية [التوبة:٣١] حتى فرغ منها، قلت: إنا ليس نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمون، ويحلون ما حرم الله فتستحلون»؟ قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».

الفضيل قال: لن تهلك أمة قط إلا من طريق علماء السوء، جلسوا على طريق الآخرة فقطعوا العباد عن الله جل ذكره.

قالوا: ولأنه يسبق إلى اعتقاد لا يأمن كونه قبيحًا فيقبح منهم، كمن يخبر بخبر لا يأمن كونه كذبًا فإنه يقبح كذلك.

هذا ولأنه لو جاز التقليد لما حسن إيجاب النظر وتحمل المشاق فيه، ولكان المخطئ معذورًا كالتقليد في الشرعيات.

(٣٣) إعلام الموقعين ٢/ ٢١٥.

(٣٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨/ ٩٢.

فأما من قال بأن مقلد الحق ناجٍ: فإنه حمل هذه الآيات والأخبار على تقليد الباطل، وفيها دليل على ذلك، واحتجوا بأشياء:

منها: قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٧، ١٨] ولم يشترط الاستدلال.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

قالوا: ولأن المقصود بالنظر والاستدلال اعتقاد الحق، فإذا حصل المقصود جاز من غير السبب الذي هو النظر، ولأن العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به، فإذا حصل صح سواء سبقه النظر أو لم يسبقه، فإن قالوا: هو غير ساكن النفس، قلنا: هو ساكن النفس، ونحن نرى عاميا اعتقد الحق فلو قُطِّعَ إربًا إربًا لما ترك اعتقاده.

ومنها: أنا نعلم أن في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه كان مقلدون[٣٥] كالأعراب، وأنهم كانوا يفتحون البلاد ويعرضون الإسلام على أهلها، ويحكمون بإسلامهم من غير أن اشترطوا فيها استدلالًا ونظرًا.

ومنها: أنه لا يخلو أن يكون الواجب هو العلم وحده والنظر سبب أو عيان، ولا خلاف أن من تيقظ وتذكر مسائل التوحيد وقد سبق منه النظر أنه يجوز أن يعتقد من غير نظر، فعلم أن المقصود هو الاعتقاد وقد حصل.

ومنها: قال أبو القاسم: ما تقولون فيمن اعتقد الحق بدليل ثم نظر فعرف أن ذلك الدليل غير صحيح وأن دليل المسألة غيره، فما يكون حاله وهو معتقدٌ للحق؟ فكل ما تقولونه هاهنا نقوله في المقلد للحق.

ومنها: أن المقلد للباطل هالك بلا شك، فلو كان مقلد الحق مثله لاستوى الاعتقادان، وهذا لا يصح.

ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاةوصوم رمضان[٣٦]، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا» فلم يشترط الاستدلال.

(٣٥) كان مقلدون : كانوا مقلدين، م ي.

(٣٦) وصوم رمضان: م، ي.

فإن قالوا: فالنظر ليس بواجب؟

قلنا: واجب، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين، وواجب فإذا اعتقد الحق سقط عنه.

فإن قيل: فإذا كان واجبًا عليه وتركه استحق الذم؟

قلنا: هو واجب ولكن تركه إلى بدل واجب آخر وهو اعتقاد الحق قبحا وهو مسيء.

مسألة في بيان الأدلة

الحجة في أصول الدين أربعة أشياء: العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع.

أما العقل: فلقوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج:٤٦]، وعن ابن عباس: أسس الدين على العقل، وفرض الفرائض على العقل.

وأما الكتاب: فلقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٠٣] يعني كتاب الله، ولأنه خبر صادق.

وأما السنة: فلقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٨٧].

وأما الإجماع: فلقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء:١١٥]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:٥٩].

وقال مالك: إجماع أهل المدينة حجة، ومن أصحابه من ينكر ذلك، وليس بشيء، لأنهم بعض الأمة ولأنها أحد الحرمين كمكة.

قالت الزيدية: إجماع أهل البيت حجة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن[٣٧] تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

(٣٧) مسند البزار حديث رقم ٨٦٤.

فأما الفروع فللكتاب والسنة وأخبار الآحاد والقياس لإجماع الصحابة على قبول أخبار الآحاد ومقايستهم.

قيس بن طَلْقٍ عن أبيه طلق بن علي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن مس الذكر فقال: «هل هو إلا بضعة منك»، وعن علي نحوه.

وعن عمر أنه قبّل جارية وهو صائم، فسأل عن ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أرأيت لو تمضمضت، فقال: لا بأس، قال: ففيم إذًا»[٣٨].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسوله، قال: فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيي، فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسوله».

ولا خلاف أن الاجتهاد في القِبْلة جائز وهو من أركان الدين، وفي هذا كلام كثير.

مبحث في التوحيد ونفي التشبيه والتجسيم

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ..﴾السورة، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

أبي بن كعب: إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن لكل شيء نسبة، ونسبة الله: (قل هو الله أحد)».

أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال الناس يسألون حتى يقولوا... هذا الله خَلَقَنا فمن خَلَقَ الله، فإذا سألوكم فقولوا: الله الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»، فقال أبو هريرة: فسألني رجل عن ذلك فجعلت أصبعي في أذني ثم صرخت: صدق الله ورسوله، الله الواحد الأحد الأصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

---

(٣٨) مصنف أبي شيبه حديث رقم ٩٤٠٦ ومسند أحمد رقم ١٣٨.

وعن علي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سألته اليهود تعنتًا له عن صفة الله فلم يجر إليهم شيئًا انتظار عذاب الله لهم، فأوحى الله إليه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرالسورة، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كفى لأولي الألباب بآيات الرب المسخر الأشياء وجلال[٣٩] الرب الظاهر آية بينة ودلائل على وحدانيته أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[٤٠].

وهب بن منبه وعكرمة قالا: جاء نجدة الحروري إلى ابن عباس فقال: يا ابن عباس كيف معرفتك بربك فإن من قبلنا اختلفوا علينا؟ فقال: أعرفه بما عرف به نفسه من غير رؤية، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، متدان في بعده بلا نظير، لا تدرك [ديمومته][٤١] ، ولا يمثل بخليقته، ولا يجور في قضيته، فالخلق إلى ما قد علم منقادون، وإلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون، لا يعلمون بخلاف ما علم منهم[٤٢] ولا غيره يريدون، فهو قريب غير ملتصق، وبعيد غير متقص يحقق ولا يمثل، يوحد ولا يبعض، يعرف بالآيات، ويثبت بالعلامات، فلا إله غيره، الكبير المتعال.[٤٣]

عطاء عن ابن عباس قال: أيقنوا أنه لا إله غير الله، ولا شيء يعدل الله، ولا شيء مع الله.

وعن معروف الكرخي أن عليًا سُئل عن التوحيد فقال: استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل وإنكار التشبيه، فإذا أومت إلى التعطيل أثبت وإذا أومت إلى التشبيه أنكرت.

وعنه عن علي عليه السلام: اللهم إني أوحدك ولا أحدك، وأعبدك ولا أمثلك، وأعرفك ولا أصورك، وأعبدك ولا أكيفك، وأشاهدك ولا أشبهك.

وعن علي قال: جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تعجبًا مما سألوه وانتظارًا لأمر الله تعالى فيهم، فقالوا: لكنا نصف من تعظيم ربنا أن الله تعالى يضع السماوات يوم القيامة على إصبع، والبحار على إصبع، وسائر الأشياء على إصبع، ويده الأخرى فارغة. فأنزل الله تعالى قبل أن يقوموا

---

(٣٩) جلال : الجلال، م ي. انظر مرآة العقول في طرح أخبار آل الرسول ١/ ٢٧٧.

(٤٠) مرآة العقول في طرح أخبار آل الرسول ١/ ٢٧٧.

(٤١) ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة ص٨٤.

(٤٢) ما علم منهم : ما منهم علم، م ي. موسوعة الإمام الجواد ٢/ ٦٤٣.

(٤٣) موسوعة الإمام الجواد ٢/ ٦٤٣.

تكذيبًا لهم وردًا عليهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه حق عظمته ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ يعني في ملكوته ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] أي في ملكه سبحانه وتعالى عما يقولون حيث وصفوا ربهم بالصور والأعضاء والأنامل، قل لهؤلاء الذين يسألونك عني ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا الصمد الذي يصمد إليه في الحوائج»، قال الشاعر:

تـالله لا نرضـى بحكمهـمُ ... حتـى [...ـد] منهـم صمـدا

آخر:

ألا بكـرُ الناعـي بخيـرِ بنـي أسـدِ ... بعمرو بـنِ مسـعودٍ وبالسـيدِ[٤٤] الصمدِ

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يوشك الشرك أن ينتقل من ربعٍ إلى ربع، ومن قبيلة إلى قبيلة»، قيل: يا رسول الله وما ذاك الشرك؟ قال: «قومٌ يأتون بعدكم يحدون الله حدًا بالصفة».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: رجل قتل نبيًا أو قتله نبي، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين» وروي: «المصورين»، قال الحسن: هم الذين يصورون الله بقلوبهم.

علي بن أبي طالب: اتقوا أن تمثلوا بالرب الذي لا مثل له أو تشبهوه بشيء من خلقه، فإن من فعل ذلك نارًا لا تُطفأ أبدًا.

ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعلوا لله ندًا وهو خلقكم». قال لبيد:

احمـدوا الله فـلا نـدَّ لـه ... بيديـه الخيـرُ مـا شـاء فعـلْ

ابن العرابي قال: قال بقال لعمرو بن عبيد: علمني مسألة من التوحيد، فتناول من بين يديه بيضة فوضعها على راحته فقال: هذا [حصن مغلق] لا صدع فيه ولا خدع، ثم من وراء ذلك غرقيء يستشفّ[٤٥]، ثم من وراء ذلك ذهب مائع، ثم لا تنفك الأيام والليالي حتى ينفلق عن طاوس [ملمع] فأي شيء في العالم إلا وهو دليل على أنه ليس كمثله شيء.[٤٦]

---

(٤٤) فتح الباري ٩/ ٦٤٢.

(٤٥) الغِرْقيء: قشر البيضة الداخلي. معجم العين (خرش).

(٤٦) ربيع الأبرار ٩/ ٤١١، والتذكرة الحمدونية ٩/ ١٩١.

عمران بن الحصين: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «أن تجعلوا لله ندًا، وعقوق الوالدين - وكان متكئًا فجلس وقال: ألا وقول الزور»[٤٧].

ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال: شبهوا الله بخلقه وأشركوا من حيث لا يعلمون.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «أن قومًا من الأمم الخالية أتوا نبيًا من الأنبياء ليعنتوه، فسألوه عن ربه ما هو؟ ومن أي شيء هو؟ نور أم جوهر؟ أم ذهب أم فضة؟ فسكت، فأرسل الله تعالى صاعقة من السماء فأهلكتهم، فذلك قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]».

وعن أبي أيوب قال: عرض للنبي[٤٨] صلى الله عليه وآله وسلم أعرابي قال: يا رسول الله أخبرني ما يقربني إلى الجنة ويباعدني من النار، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يخرج عنق من النار له عينان يبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق، وهو يقول: إني وكلت بثلاثة[٤٩]: بكل جبار عنيد، ومن ادعى مع الله إلهًا لآخر، وبالمصورين».

شعر:

تعالى الواحد الصمد القدير ... وجل بأن يكون له نظيرُ
هو الملك الغني وكل شيء ... سواه فهو محتاجٌ فقيرُ
وأيامي وإن كثرت وجمت ... فذلك عند رحمته يسيرُ

الصاحب:

إذا بعثت لقيت الله مبتهلًا ... معي أمانان من عدل وتوحيدِ
هذان أصلان ضل الناس بينهما ... إلا المجرد فيه أي تجريدِ

---

(٤٧) البخاري حديث رقم ٢٦٥٤.

(٤٨) مسند أحمد حديث رقم ٢٣٥٣٨.

(٤٩) مسند أحمد رقم ٨٤٣٠.

الحسن بن عبد الرحمن الحمائي قلت لعلي بن موسى الرضا: إن هشام بن الحكم يزعم أن الله جسم لا كالأجسام، فقال: قاتله الله أما علم أن الجسم محدود، أبرأ إلى الله من هذا القول.

وعن يونس بن ظبيان قال: دخلت على الصادق عليه السلام فقلت: إن هشام بن الحكم يقول عظيمًا إلا أني اختصرت منه حرفًا يزعم أن الله سبحانه جسم، لأن الأشياء شيئان: جسم، وفعل، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل فيجب أن يكون معنى الفاعل، فقال أبو عبد الله: ويله أما علم أن الجسم محدود متناه، وأن المحدود المتناهي يحتمل الزيادة والنقصان، وما احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقًا. ذكر الخبر أبو[٥٠] ناجية الأصفهاني في كتابه.

مطلب في فصل في نفي الاثنين

قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وقال: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٤٢] اختلفوا في معناه؛ قيل: طلبوا سبيلًا لمخالفته، وقيل: طلبوا سبيلًا في التقرب إليه.

أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويكره لكم: القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك».

أبو الدرداء: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال لا إله إلا الله خالصًا مخلصًا دخل الجنة»، وعنه: «مفاتيح الجنة لا إله إلا الله»، وعنه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

ولأنه لو كان إلهان لكان يجوز أن يريد أحدهما حياة زيد والآخر موته، ويريد أحدهما الليل

(٥٠) أبو: أبي، م ي.

والآخر النهار، وكلما أراد أحدهما شيئًا أراد الآخر ضده، فلا يستقيم أمر العالم، ولأنه لا بد من واحد ويستغنى عن الآخر، ولأنه لا دليل على الثاني، ولأنه لم يبعث رسولًا ولا كتابًا.

شعر:

ما نطق الناطقون إن نطقوا ... أحسن من قول لا إله إلا هو
من لذنوبي ومن يمحصها ... غيرك يا لا إله إلا هو
من لهمومي ومن يفرجها ... غيرك يا لا إله إلا هو
ويل لحزب اليهود إذ جحدوا ... أمرك يا لا إله إلا هو
ويل لحزب المجوس إذ عبدوا ... شمسك يا لا إله إلا هو
ويل النصارى إذ هم عبدوا ... الصلبان يا لا إله إلا هو
أقول حقًا بالصدق مجتهدًا ... أشهد أن لا إله إلا هو
قد شهد الله عند ذكراه ... بأنه لا إله إلا هو
الشمس والنجم يسجدون له ... لأنه لا إله إلا هو
خليل ربي لما استغاث به ... نادى بأن لا إله إلا هو
موسى على الطور حيث كلمه ... نادى بأن لا إله إلا هو
يوسف بالجب حيث ناداه ... أخرجه لا إله إلا هو
أقولها مخلصًا بلا كسلٍ ... أشهد أن لا إله إلا هو

مطلب في نفي المكان

قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:٧]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤]، ولو كان جسمًا في مكان لكان الأماكن الآخرة خالية منه، تعالى عن ذلك.

وذكر أبو القاسم البلخي في كتاب السنة عن أبي نصرة عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كثف الأرض مسيرة خمسمائة عام، وبين الأرض العليا والتي تليها مثل ذلك، وكثفها مثل ذلك، وبين كل أرضين مثل ذلك، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مثل ذلك، وكثف كل سماء مثل ذلك، وبين كل سماء مثل ذلك، وبين السماء السابعة وبين العرش مثل

ذلك كله، وأيم الله لو حفرتم لصاحبكم فيها فدليتموه في الأرض السابعة لهجم على ربه».

أبو موسى قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفرٍ فهبطنا وهادة من الأرض فرفعنا أصواتنا بالتكبير، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعا قريبًا وهو معكم»[٥١].

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، لينتهن أو لتخطفن أبصارهم».

عمرو بن ذر عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله عند لسان كل قائل».

محمد بن يزيد المبرد قال: قال رجل لعلي: أين كان ربنا قبل خلق السماوات والأرض؟ فقال علي: أين سؤال عن مكان[٥٢] وكان الله ولا مكان.

وسمع علي رجلًا يقول: والذي احتجب بسبع، فعلاه بالدرة، وقال: ويحك إن الله لا يحتجب بشيء، فقال الرجل: أأكفر عن يميني؟ قال: لا لأنك حلفت بغير الله.

أبو مسلم بن عبد الرحمن قال: مر ابن عمر بقاصٍّ يَقُصُّ وقد رفعوا أيديهم، فقال: قطع الله هذه الأيدي، ويلكم إن ربكم أقرب مما ترفعون، إن ربكم أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد.

وذكر ابن ناجية بإسناده عن سفيان بن عيينة عن زرارة بن أعين قال: سئل أبو جعفر الباقر رضوان الله عليه: أين كان ربنا؟ فقال: أحلت في الولد، كان الله ولا مكان، وهو خالق المكان، مستغن عن المكان.

وذكر أبو القاسم بإسناده في كتاب السنة عن أنس قال: كان جبريل عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتاه ملك فقال: أين تركت ربنا؟ قال: في سبع سماوات، ثم أتاه آخر فقال: أين تركت ربنا؟ فقال: في المشرق، ثم أتاه آخر فقال: أين تركت ربنا؟ قال: في المغرب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣].

علي في بعض خطبه: بَعُد في العلو فلا شيء أعلا منه، وقرب في الدنو فلا شيء أدنى منه.

ومن كلامه: من وصف الله فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد

(٥١) وهو معكم: قتاداه، ي. كذا في جملة من كتب الأحاديث منها البخاري حديث رقم ٤٢٠٥، ومسلم حديث رقم ٢٧٠٤.

(٥٢) ينظر: المنح القدسية على الحكم العطائية ص٥٦.

جهله، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده، ومن قال: فيم، فقد ضمَّنه[٥٣]، ومن قال: علام، فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة.

وعنه: ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال.

طاهر بن إسماعيل الرازي: قيل ليحيى بن معاذ: أخبرني عن الله ما هو؟ فقال: إله واحد، فقال: كيف هو؟ قال: ملك قادر، قال: أين هو؟ قال: بالمرصاد، قال: ليس عن هذا أسألك، قال يحيى: فذلك صفة المخلوقين فأما صفة الخالق فقد أخبرتك.

لذي النون المصري:

الحمد لله حمدًا لا نفادَ له — حمدًا يفوت مدى الإحصاء والعددِ
ربٌّ تعالى فلا شيءٌ يحيطُ به — وهو المحيطُ بنا في كل مرتصدِ
لا الأَيْنُ والحَيْثُ والتكييفُ يدركُه — ولا يُحَدُّ بمقدارٍ ولا أمدِ
وكيف[٥٤] يدركُه حد ولم تره — عينٌ وليس له في المثلِ من أحدِ
أم كيف يبلغهُ وَهْمٌ بلا شبهٍ — وقد تعالى عن الأشباه والولدِ

آخر:

فلو كان يحويه المكان لما استوى — على الملك والتدبير بل كان هافيا
ولو جاز في المعقول والاعتبار أن — يكون مكان للمهيمن حاويا

مطلب في العرش

قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، العرش في القرآن على وجوه:

منها: العرش المعروف فوق السماوات، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦].

ومنها: عرش بلقيس، قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النمل:٢٣].

ومنها: البناء، قال تعالى: ﴿وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

(٥٣) بحار الأنوار للمجلسي ٤/ ٢٤٧.
(٥٤) حلية الأولياء ٩/ ٣٨٨.

ومنها: عرش الكرم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل:٦٨].

وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، قيل: بناؤه، وقيل: هو العرش المعروف.

فأما قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قيل: معناه: استولى، من القدرة، قال الشاعر:

قد استوى بِشْرٌ على العراقِ ... من غير سيف ودم مهراقِ

وقال أيضًا:

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسرٍ وكاسرِ

وقيل: قصد إلى العرش فخلقه، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت:١١] أي قصد، و(على) بمعنى (إلى) وحروف الصفات يبدل بعضها من بعض، وكره أبو عبيد.

وقيل: العرش الملك، قال الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم ... وأودوا كما أودت إياد وحميرُ

والمعنى أنه لما خلق الخلق استولى على ملكه وخلقه بالقدرة، خلاف ما يقوله المجوس أنه لما خلق الخلق أعجبه حسنه فحدث الشيطان فضاده في ملكه.

وقيل: استولى على بناء الأشياء، ولا يجوز أن يقال: استوى: استقر، لأنه من صفات الأجسام، تعالى عن ذلك. خلق العرش لا للقرار، وخلق الكرسي لا للاستقرار، وخلق الخلق لا للافتقار.

الحسن البصري: من زعم أنه استوى على العرش كاستواء الخالق على المخلوق فهو مؤمن، ومن زعم أنه استوى على العرش كاستواء المخلوق على المخلوق فهو كافر.

وسئل مالك بن أنس عنه فقال: الاستواء معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الاستواء فإنه في القرآن على وجوه:

منها: الركوب، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]، وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ [الزخرف:١٣].

ومنها: الاستقرار؛ ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤].

ومنها: انتصاب الساق ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح:٢٩].

ومنها: القصد ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت:١١] يعني قصد إلى خلقه، عن ابن عباس.

ومنها: كمال العقل والقوة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤].

ومنها: الاستيلاء والقدرة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤].

ويسأل: لم خص بالذكر العرش وهو قادر على كل شيء؟

قلنا: خصه، لأنه أعظم خلق الله كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦].

وفائدة العرش وجوه خلقها لذلك:

منها: أنه سقف الجنة.

ومنها: قبلة دعاء المؤمنين كما أن الكعبة قبلة الدعوة.

[و]منها: أنه مطاف الملائكة ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥].

ومنها: ليجعل ظله يوم القيامة لعباده المؤمنين.

ومنها: أنه سقف الجنة.

ومنها: قبلة دعاء المؤمنين كما أن الكعبة قبلة الدعوة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظل عرشه: رجل قلبه معلق بالمسجد، وسلطان عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلان تحابا في الله، ورجل غضّ عينه عن محارم الله، ورجل أينما توجه علم أن الله معه.

ومنها: الشفاعة للمؤمنين. روي أنه يهتز لشهادة أن لا إله إلا الله فيقول الله: اسكن، فيقول: كيف أسكن ولم يغفر لقائلها، فيقول: أشهدك أني قد غفرت له.

ومنها: أنه كتب على ساقه اسم محمد، روي أن آدم رأى اسمه فقال: بحقه أن تغفر لي، فغفر له.

ومنها: ليقف الرسول في ظله يوم القيامة المقام المحمود الذي وعده الله.

ومن الدلائل على أنه لا يجوز أن يكون الله على العرش قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] فلو كان هو على العرش لكان محمولًا، ولأنه لا يخلو إما أن يكون مثل العرش فيكون محدودًا، أو أصغر منه فهو أولى بالحد، أو أكبر فبعضه على العرش، ولأن من بالمشرق يدعون ومن بالمغرب يدعوه فلو كان على العرش لكان كل واحد يدعو بعضه، ولأن المكان لا يجوز عليه.

ويقال: فلم يرفع الأيدي عند الدعاء؟

قلنا: لوجهين:

منها: أن العرش قبلة الدعاء كما تستقبل الكعبة للصلاة.

ومنها: أن العادة جرت بأن الرحمة تنزل من جهة السماء.

ولأنه يجوز أن ينقلب العرش حمارًا، والله قادر على ذلك، فيصير الله على حمار، ولأنه لم يكن على العرش ثم صار على العرش، فلا بد أن يكون بمعنى، وذلك يدل على حدثه.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لجبريل: «أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء، قال: لن تقوى على ذلك، قال: بلى، قال: فأين يسعني أن أتمثل لك، قال: بالأبطح، قال: لا يسعني، قال: فمنى، قال: لا تسعني، قال: بعرفات، قال: ذلك بالحري[55] أن يسعني، فوعده، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإذا هو بجبريل قد أقبل من عرفات بخشخشة[56] وكلكلة قد ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم خر مغشيًا عليه، فضمه إلى صدره وقال: يا محمد لا تخف أنا أخوك جبريل، فقال: يا جبريل هل خلق الله خلقًا يشبهك؟ قال: يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل ورأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل مخافة من الله حتى يصير مثل العصفور ما يحمل عرش ربك إلا عظمته».

شعر:

وقول إلهي في الكتابِ قد استوى ... على العرشِ ربٌّ كان للعرشِ بانيا

(٥٥) بالحري: بالحرا، م ي.

(٥٦) بخشخشة: بحشحشة، م ي.

فـذاك كقولـي[٥٧] للأميـرِ قـد استوى على المـدنِ والأمصـارِ قدر صـار واليا
يريـدُ بــه سلطانَه واعتــلاءَه وذلـك شـيءٌ ليس فـي القـولِ خافيـا

مطلب فيما يتعلق به المشبهة من ذكر الأعضاء

اليد: لليد معانٍ:

منها: النعمة كقولهم: له يد بيضاء عندي.

واليد: القوة، لقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] يعني بقوتي، وقيل: بنعمتي نعمة الدنيا والآخرة، وقيل: خلقت أنا (واليدين) صلة.

مجاهد في قوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥] أي قبلة الله.

ابن عباس في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود:٣٧] يعني بمنظر منا، وقيل: بعلْمنا، عن السدي.

الأعمش: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] قال: بأمري.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] يقول: الإمساك من الرزق، ﴿مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] قال: في ملكه وقدرته، عن أبي عبيدة.

الحسن في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧] قال: قبضته إياها بنفسها كقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦].

قوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة:٤٥] قيل: بالحق على الحكم، وقيل: بالقوة.

قوله: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم:٤٢] عن شدة من الأمر، عن مجاهد، قال ابن عباس: هي أشد ساعة يوم القيامة.

﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] في ذاته، عن ابن عباس.

قوله: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] في أمره، عن مجاهد.

قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] يعني عِلْمُهُ.

قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ [النور:٣٥] يعني هادٍ، عن ابن عباس.

---

(٥٧) كقولي: قولي، ي.

قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨] يعني جبريل، عن ابن مسعود قال: رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل له ستمائة جناح.

عن سفيان: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ﴾ [الفرقان:٢٣] يعني: عمدنا.

السدي في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت:١١] قال: قصد وعمد.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ومن مشى إلي أهرول إليه»، قال أبو هريرة: تأتيه رحمته.

وفي كتاب أبي القاسم البلخي عن ابن عليّة قال: كنت عند سفيان بن عيينة وهو يحدث بحديث أبي هريرة وأبي سعيد: «أن الله ينزل إلى السماء الدنيا» فقال رجل: يا أبا محمد إن بشر المريسي يكذب به، فقال سفيان: ويحه لم يكذب به؟ فقال رجل: لا يكذب به ولكن يقول: له تأويل، فقال: وما يزعم؟ قال: يقول: إن الله لا يحور ولا يزول ولا يتغير ولا يتنقل، ولكنه ينزل إلى السماء بفضله وإحسانه ونعمه إلى خلقه، فقال سفيان: هذا هو الصواب.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] يعني هو، وقيل: يعني ما يتقرب به إليه.

مطلب في نفي الرؤية

قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، الله تعالى نفى الرؤية عن نفسه في آي من القرآن:

منها: قوله لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] فنفى نفيًا عامًا.

ومنها: قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣] ولو كان الرؤية في الجواز بمنزلة الكتاب لما صح نظم الكلام.

ومنها: قوله: ﴿[وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ](٥٨) لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

ومنها: قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١].

---

(٥٨) ما بين المعكوفين في الأصل: وقالوا.

ومنها: قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] والإدراك يحتمل في اللغة معاني، ولكن إذا قرن بالبصر اختص بالرؤية يقال: أدرك قتادة الحسن؛ يعني لحقه، ويقال: أدرك الغلامُ، يعني بلوغ الحلم، وأدرك الطعامُ والتمر؛ يعني نضج، ويقال: أدركت ببصري زيدًا فيحتمل على الرؤية لا يحتمل غير ذلك، فالله تعالى تمدح بشيئين: أنه يَرى ولا يُرَى، وهذه صفة انفرد بها تعالى لا يشاركه فيها غيره؛ لأن الأشياء على وجوه:

منها: ما يُدْرَك ويُدْرِك كالأحياء.

ومنها: وما يُدرَك ولا يدرِك كالجمادات وبعض الأعراض.

ومنها: ما لا يدرَك ولا يدرِك كالاعتقادات والعلوم.

ومنها: ما يدرِك ولا يدرَك وهو القديم سبحانه، فقد انفرد بهذه الصفة، وباين خلقه بها، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، لأن الأشياء على ضروب: منها: ما يُطعم ويطعَم كسائر الحيوانات، ومنها ما يطعَم ولا يُطعِم كالجمادات، ومنها ما يُطعِم ولا يُطعَم وهو الله تعالى فانفرد الله تعالى بكونه مُطعِمًا دون كونه مطعَمًا، فالمدح يقع بمجموعهما[٥٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة:٢٥٥] فهو حي لا يأخذه النوم، فتفرد بذلك وتمدح بمجموع الصفتين؛ لأن نفي النوم وحده لا يكون صفة مدح.

وكذلك قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ [الذاريات:٥٧]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وكذلك في الآية تمدح بالصفتين معًا، وإذا تمدح بهما - وذلك مما يرجع إلى ذاته - فإثباته في الدنيا والآخرة يكون نـقصا[٦٠] كآية السِّنَة والإطعام.

وأيضًا فإن التمدح إما يقع بصفة واحدة وهو إثبات، أو مما يرجع إلى فعله فإثباته أو نفيه لا يكون نقصًا كغافر وغفور ومدرك، وأما صفة النفي إذا رجع إلى الذات فإثباته بكل حال نقص.

ومن الآثار في ذلك ما رواه الشيخ أبو القاسم في كتاب السنة وابن ناجية الأصفهاني وابن برذاذ، فمن ذلك: ما رواه أبو الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أحدًا لا يرى الله في الدنيا ولا في الآخرة».

---

(٥٩) بمجموعهما : مجموعها، م ي.

(٦٠) نقصا : قصا، ي.

عطاء بن ذكوان مولى عائشة عن عائشة في حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «وأما المؤمن فيجلس في قبره فيقال له: من هذا الرجل؟ فيقول: محمد جاء بالبينات من عند الله، فيقال له: فهل رأيت الله؟ فيقول: وهل ينبغي لأحد أن يرى الله».

وعن الشعبي عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال: كان كعب الأحبار يقول: إن الله قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد عليهما السلام، فكلمه موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، فأتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين أرأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله العظيم، لقد قَفَّ شعري مما قلت، ثم قالت ثلاثًا: من حدثك بهن فقد كذبك، من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم تلت: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد كذب، ثم تلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ..﴾ الآية [لقمان:٣٤]، ومن حدثك أن محمدًا كتم شيئًا من الوحي فقد كذب.

وعن مسروق عن عائشة: ثلاث من قال واحدة منهن فقد أعظم الفرية على الله: من زعم أن محمدًا رأى ربه، فقال: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم:١٣]، قالت: ذلك جبريل لم يره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صورته التي خُلق فيها إلا مرتين: مرة منهبطًا من السماء إلى الأرض، ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من القرآن والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ..﴾ الآية [المائدة:٦٧]، ومن زعم أن محمدًا يعلم الغيب والله يقول: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وعن إبراهيم قال: رأى رسول الله جبريل في صورته مرتين في الأفق المبين، ونزلة أخرى.

وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت جبريل عند السدرة وعليه ستمائة جناح ينثر[٦١] من ريشه الدر والياقوت».

سئل أبو العالية: هل رأى محمد ربه؟ قال: لا.

وذكر أبو محمد عبد الله بن عباس الرامهرمزي بإسناده عن سمرة بن جندب قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل يُرى ربنا في الآخرة؟ قال: فانتفض ثم سقط فلصق بالأرض وقال: «لا يراه أحد ولا ينبغي لأحد أن يراه».

---

(٦١) صحيح ابن حبان حديث رقم ٤٦٢٨ وفيه: (ينثر من ريشه تهاويل الدر..).

وروي عن طاوس عن ابن عمر قال: لو رأيت من يزعم أنه يرى الله في الآخرة لاستعديت عليه.

وروى بإسناده عن ابن عباس أن عليًا مر برجل وهو رافع يديه إلى السماء شاخصٌ بصره فقال: يا عبد الله اكفف من يدك، وغض من بصرك، فإنك لن تراه ولن تناله، فقال: يا أمير المؤمنين إن لم أره في الدنيا فسأراه في الآخرة، فقال: كذبت، بل لا تراه في الدنيا ولا في الآخرة، أوما سمعت الله تعالى يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، إن أهل الجنة ينظرون إلى الله تعالى كما ينظرون إليه أهل الدنيا فينظرون ما يأتيهم من خيره وإحسانه.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في دعاء الوتر: «اللهم إنك رب عظيم، لا يسعك[٦٢] شيء مما خلقت، وإنك ترى ولن تُرى، وإنك بالمنظر الأعلى».

جابر: لن ترى الله عين ولن تراه عيون، رواه أبو الزبير عنه.

عن علي في بعض خطبه: الحمد لله الذي يعلم خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عيون الأبصار، فلا عين من أثبته تبصره، ولا قلب من لم يره ينكره.

علي بن الحسين: قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين.

يوسف عن الحسن قال: لا يرى اللهَ أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة.

وعن ابن عباس في جواب نجدة الحروري: لا يدرَك بالحواس ولا يقاس بالناس.

وعن علي عليه السلام وقد سئل: كيف عرفت ربك؟ فقال: أعرفه بما عرف به نفسه من غير رؤية؛ نور الظلام، وأنس الأنام، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، متدانٍ[٦٣] في علوه، عالٍ في دنوه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة:٧]، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منتقص[٦٤]، يعرف بالعلامات، ويثبت بالآيات، يوحد ولا يبعض، يحقق ولا يمثل، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

---

(٦٢) كنز العمال حديث رقم ٣٧٧٩.

(٦٣) متدانٍ: متداني، م ي.

(٦٤) تاريخ دمشق ١٤/ ١٨٤.

عكرمة قال: بينما ابن عباس يحدث الناس إذ قام إليه نافع الأزرق فقال: يا ابن عباس [تفتي الناس][٦٥] في النملة والقملة صف لي إلهك الذي تعبده؟ فأطرق ابن عباس إعظامًا لقوله، وكان الحسن بن علي عليهما السلام جالسًا في ناحية فقال: إليّ يا ابن الأزرق، فقال: لست إياك أسأل، قال ابن عباس: يا ابن الأزرق إنه من أهل بيت النبوة وهم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسن، فقال له الحسن: يا نافع إنه من وضع دينه عن القياس لم يزل الدهر في التباس مائلًا عن المنهج، ضائعًا في الاعوجاج، ضالًا عن السبيل، قائلًا غير الجميل، يابن الأزرق صِفْ إلهي بما وصف به نفسه، وأعرفه بما عرف به نفسه؛ لا يدرَك بالحواس، ولا يقاس بالناس، فهو قريب غير ملتصق، وبعيد غير منتقص[٦٦]، يوحد ولا يبعض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا الله الكبير المتعالي، قال: فبكى ابن الأزرق وقال: يا حسن ما أحسن كلامك، أما والله يا حسن لئن كان ذلك لقد كنتم منار الإسلام، ونجوم الأحكام حتى بدلتم فاستبدلنا بكم، فقال له الحسن: إني سائلك عن مسألة، قال: سل، فسأله عن هذه الآية: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الكهف:٨٢]، يابن الأزرق من حفظ الغلامين؟ قال: أبوهما، قال الحسن: فأبوهما خير أم رسول الله؟ قال ابن الأزرق: قد أنبأنا الله أنكم قومٌ خصمون.

علي بن الحسين سئل: أرأيت ربك؟ فقال: ما كنت لأعبد شيئًا لم أره، قيل: كيف رأيته؟ قال: لن تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجور في قضيته، هو الله الذي لا إله إلا هو.

ومما يقال في ذلك أنه لو كان مرئيًا بالأبصار لكان مقابلًا للأبصار، والتقابل من صفة الأجسام، ولأنه لو كان مرئيًا لرُئي الآن لأنه لا يتغير، ونحن على الصفة التي عليها نرى الأشياء.

فأما قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] قال: معناه تنظر ما يأتيها من ثواب ربها، فأما الله تعالى فلم يره أحد ولا يراه أحد.

عن ابن عباس وقال مجاهد: تنتظر الثواب من ربها.

وقال الحسن: لخير ربها منتظرة، لا يرى اللهَ أحدٌ في الدنيا ولا في الآخرة، والنظر يكون

---

(٦٥) تاريخ دمشق لابن عساكر ١٤/ ١٨٣.

(٦٦) تاريخ دمشق ١٤/ ١٨٤.

بمعنى الانتظار، قال الشاعر:

إنـي إليـك لمـا وعـدت لناظـر نظـر الفقيـر إلـى الغنـي الموسـر

وقيل: إلى ثواب ربها ناظرة، عن السدي.

قال أبو هاشم: والمعنيان مراد، كأنه قال: تنظر إلى ثواب وتنتظر ثوابًا فتكون فيه زيادة النعمة والرحمة. وقيل: هو العطاء، فكأنه قال: لنعم[٦٧] ربنا ناظرة؛ يعني منتظرة.

فأما قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، هو ألّا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، عن قتادة.

قوله: ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨] قيل: جبريل، عن عائشة وابن مسعود.

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: هي غرفة من لؤلؤة لها أربعة أبواب، عن علي عليه السلام، وقيل: زيادة للدرجات، نظيره: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠].

فأما قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ [الكهف:١١٠] فليس اللقاء من الرؤية في شيء.

أبو الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئًا دخل النار».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من حلف على يمين كاذبة ليقتطع مال أخيه لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان»، ومعنى اللقاء: الرجوع إلى الموضع الذي الحكم فيه له ولقاء جزائه.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم سترون ربكم» يعني ستعلمون، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥] ونظيره.

وروي عن ابن عمر في حديث طويل: «إن أفضلكم منزلة من ينظر[٦٨] إلى وجه الله»، فكلام منكر لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان له تأويل وهو: أن ينظر إلى ثوابه وما فعل لوجهه تعالى.

---

(٦٧) لنعم: نعم، م ي.

(٦٨) مسند أحمد رقم ٥٣١٧.

نثر: هو الملك الجبار، العزيز الغفار، لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفكار، ولا تحويه الأقطار، ولا يغيره الليل والنهار.

شعر:

عز فلا تدركه الأبصار كلا ولا تبلغه الأفكار
لو كان محسوسًا بعين ناظره لكان ملموسًا بكف زائره

آخر:

قالت فهل هو بالأبصار ندركه فقلت أخبرت عن شخص وعن ظلل

مطلب في التوحيد

عن ابن المسيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى وعدني في أهل بيتي خاصة من أقر منهم بالتوحيد فله الجنة».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «كفى بالتوحيد عبادة، وكفى بالجنة ثوابًا».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد إلا الجنة».

ابن عباس في قوله: ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ(٦٩) وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤١]، قال: يعني أدعوكم إلى التوحيد وتدعونني إلى الشرك.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] قيل: ليوحدوا.

يحيى بن معاذ: إلهي بالتوحيد أرجو عفوك، وبكرمك أرجو رضاك.

ذا النون: إذا وجدت في العبد خمس خصال رجوت له السعادة: صفاء التوحيد، وغزارة العقل، وخفة الروح، وطيب المولد، واستواء الخلقة.

شقيق: من لم يعرف أربع خصال وعبد ربه ألف عامٍ مات كافرًا: معرفة الرب بالوحدانية، ومعرفة النفس بالعبودية، ومعرفة عدوه، ومعرفة ما أوجب الله عليه من معرفته.

علي بن موسى الرضا عليه السلام: إلهي إن لم أطعك في أكثر الأشياء فقد أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، وإن عصيتك في أكثر الأشياء فلم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، إلهي فاغفر لي ما بينهما.

---

(٦٩) في الأصل: الجنة. وما أثبتناه من المصحف.

مجلس في قوله تعالى:
﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]

بين الله تعالى أنه يُري عباده أدلته وحجته ليتفكروا فيه، فيعلموا توحيده وصفاته، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ..﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [٦٠-٦٤]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ..﴾ [الروم:٢٠] الآيات، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣] وأمثال ذلك.

وقد اختلف العقلاء المفسرون في قوله ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، قيل: الآيات في الآفاق: منازل الأمم الخالية، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:٩]، ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ..﴾ الآية [إبراهيم:٤٥]، وفي الأنفس البلايا والأمراض كقوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ..﴾ الآية [التوبة:١٢٦]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ..﴾ الآية [البقرة:١٥٥]، عن ابن عباس.

وقيل: ﴿ٱلْءَافَاقِ﴾ منازل القرون، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يوم بدر، وذلك حين أرى النبي وأصحابه مصارع القوم فكان كما ذكر، عن قتادة.

وقيل: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾: ما يفتح من القرى، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: فتح مكة، عن مجاهد، ونظيره: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ [الرعد: ٤١] من الفتح.

وقيل: بالخراب، وقيل: موت العلماء، وقيل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١].

وقيل: الآيات في الآفاق: ما خلق الله من العجائب، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: ما يأكل الرجل ويشرب في مكان واحد ويخرج من مكانين، ويأكل ألوانًا مختلفة من الطعام والشراب ويخرج لونًا واحدًا، عن عطاء، قال تعالى في نظير ذلك: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١].

وقيل: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ هو ظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكة، عن المنهال.

وقيل: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ﴾: الدراهم والدنانير الصحاح المنقوش فيها اسم الله تعالى واسم نبيه

صلى الله عليه وآله وسلم واسم السلطان، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: الاعتبار بالسلطان المكتوب فيها اسم لم يبق له، فلا ينبغي للعاقل أن يسكن إليها، عن محمد بن كعب.

وقيل: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: كسوف الشمس والقمر، وفي الأنفس: كسوف القلب، عن أبي العالية.

وقيل: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: إحياء الأرض بالنبات، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: إحياؤهم بالانتباه بعد نومهم، عن سعيد بن المسيب، ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٥٠]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ..﴾ الآية [الزمر:٤٢].

وقيل: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: فتح البلاد ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾، وفي الأنفس: فتح القلوب، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ﴾ [الزمر:٢٢].

وقيل: ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: تكوير الليل على النهار؛ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: تبديل العز بالذل والذل بالعز.

هذا ما قيل في معنى الآية، وعلى تأويل ابن عباس ما روي أن عليًا لما خرج إلى صفين بلغ المدائن فإذا أعرابي ينشد:

عفت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال: هلا قرأت: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ الآية [الدخان:٢٥]، وأول هذه الأبيات:

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد أياد

نثر في الاعتبار بالآفاق والأنفس: في الآفاق سحاب وغيوم، وفي الأنفس مصائب وهموم، وفي الآفاق أمطار وبروق، وفي الأنفس أعصاب وعروق، وفي الآفاق مطر ونبات، وآباء وأمهات، وفي الأنفس حركات وسكنات، وحياة وممات، وفي الآفاق رياح، وفي الأنفس أرواح، وفي الآفاق أشجار، وفي الأنفس أشعار، وفي الآفاق دور وقصور، وفي الأنفس نحور وصدور، في الآفاق قرون خالية، وفي الأنفس سنون ماضية.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

نثر: من عرف نفسه أنه محدث عرف أن له محدثًا، من عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء.

أوحى الله إلى داود أن اعرفني واعرف نفسك، فتفكر داود ثم قال: عرفتك بالوحدانية والقدرة والبقاء، وعرفت نفسي بالعجز والضعف والفناء، فقال: قد صرت شاكرًا لي بمعرفتي.

وقيل لبعضهم: بم عرفت ربك؟ قال: بفسخ[٧٠] العزائم، ونقض التدابير.

وقيل: في الآفاق أربعة فصول: شتاء، وصيف، وربيع، وخريف، وفي النفوس طبائع أربع: الصفراء، والسوداء، والبلغم، والدم.

وقيل: في الآفاق عيون ماء مالح وعذب، ورعاق[٧١]، وميتين، وفي الأنفس المالح في العين، والعذب في الفم، والرعاق في الآذان، والميتان في الأنف. وفي الآفاق أشجار مختلفة ألوانها، وفي الأنفس شعور مختلفة هيئاتها، في الآفاق قطع متجاورات، منها ما فيه نبات، ومنها ما ليس فيه نبات، وفي الأنفس شعور منها ما فيه نبات، ومنها ما ليس فيه نبات، في الآفاق اختلاف العباد والبلاد، وفي الأنفس جميع الأضداد.

شعر:

الخلـق مجتمـع طـورًا ومفتـرق	والحادثـات فنـون ذات أطـوار
لا تعجبـن إلـى الأضـداد إن جمعت	فـالله يجمـع بيـن المـاء والنـار

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى خلق ملكًا نصفه من ثلج ونصفه من نار، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفئ النار، وهو يقول: سبحان من ألف بين الثلج والنار»، اللهم فكما ألفت بينهما فألف بين قلوب عبادك، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣] يعني الأوس والخزرج بعد طول العدواة.

وقيل: إن الله تعالى أمر بالمعرفة ولا يُعرف[٧٢] بالمشاهدة، فالضرورة[٧٣] نصْب الأدلة الظاهرة والبراهين القاهرة والحجج الباهرة، وأمر بأن يستدل على ربوبيته فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الآية [الغاشية:١٧]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ..﴾ الآيات [البقرة، آل عمران:١٦٤،١٩٠] ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠] إلى نظائرها، وفي كل ذلك دليل قاطع على وحدانيته.

شعر:

وفـي كل شـيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه واحـدُ

(٧٠) بفسخ: بفسيح، ي.

(٧١) الرُّعَاق: صوت بطن الفرس إذا جرى.

(٧٢) يُعرف: يعرفه، م ي.

(٧٣) فالضرورة: والضروة، م ي.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] اختلفوا في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، قيل: الكتاب، وقيل: الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقيل: محمد ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقيل: القرآن ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ(٧٤) ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:٤١]، وقيل: إنه تعالى حق ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج:٦].

نثر: سبحان من دل على نفسه بفعله، وعلى وحدانيته بآيات قدرته، وعلى ربوبيته ببينات ملكه.

شعر:

سبحان من لم يزل له حجج ... قامت على خلقه بمعرفته
قد علموا أنه الإله وقد ... عجز الواصفون عن صفته

شعر:

ذكّر القلب من حواه ادّكار ... وليالٍ خلالهن نهارُ
وسحاب هواطل من غمامٍ ... مزن ماء وفي جواهن نار
ضوؤها يطمس العيون وإرعا ... دٌ شديد في الخافقين قطارُ
وقصور مشيدات حوت الخيـ ... ـر وأخرى خلت فهن قفار
ونجوم تلوح في ظلم الليل ... نراها في كل يوم تدارُ
ثم شمس عقيبها قمر الليل ... وكل متابع مدرار
وجبال شوامخٌ راسياتٌ ... وبحور مياههن غزارُ
وصغير وأشمط ورضيع ... كلهم في الصعيد يومًا يُزارُ
فالذي قد ذكرت دل على اللـ ... ـه نفوسًا لها هدى واعتبارُ

قوله: ﴿يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، قيل: نظر في آياته بالتحقيق فبانت لهم سواء الطريق، وتدبروا في ترتيبه فاستدلوا على وحدانيته، وتفكروا في عظمته فتمسكوا بطاعته، رأوا وحدانيته فالتزموا(٧٥) عبادته.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ الآية [فصلت:٥٣]، قيل: من لا يستحي من الخالق في خلوته لا

(٧٤) في م ي: إليك. وما أثبتناه من المصحف.
(٧٥) فالتزموا: والتزموا، م ي.

يستحي من الخالق في معاملته، من لا يبالي بأنه يراه على المخالفة لا يبالي بموقف الحساب والمكاشفة، وعن بعضهم: حسبك من التوكل ألاَّ تطلب لنفسك ناصرًا غير الله، ولا لعملك شاهدًا غير الله، ولا لرزقك جاريًا غير الله.

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: لئن كنت عصيت الله خاليًا وظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمرٍ عظيم، وإن كنت تظن أنه لا يراك لقد كفرت.

وعن حاتم الأصم: تعاهد نفسك بثلاثة أشياء في ثلاثة أوقات: إذا كنت عاملًا بالجوارح فانظر نظر الله إليك، وإذا كنت قائلًا فاذكر سمع الله إياك، وإن كنت ساكتًا فاذكر علم الله فيك؛ لأنه يقول: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وسئل بعضهم عن قوله: ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨] قال: معناه لمن راقب ربه وحاسب نفسه وتزود لمعاده.

شعر:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيبُ
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تُخْفي[٧٦] عليه يغيبُ
ألم تر أن الله أسرع حاسبٍ ... وأن غدًا للناظرين قريبُ

آخر:

إن من يركب الفواحش جهلًا ... حين يخلو بسره غير خالي
كيف يخلو وعنده شاهداه ... كاتباه وربه ذو الجلال

آخر:

كأن رقيبًا منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما عاينت عيناي بعدك منظرًا ... يَسُوؤُك إلا قلت قد رمقاني
ولا خطرت في ذكر غيرك خطرة ... على القلب إلا عرّجا بعناني[٧٧]
وفتيان[٧٨] صدق قد سئمت ... وعففتُ[٧٩] عنهم ناظري ولساني
فما الزهد أسلى عنهم غير أنني ... أراك على كل الجهات تراني

---

(٧٦) تُخْفي: يخفى، م ي. كذا في ديوان أبي نواس.

(٧٧) عرّجا بعناني: الأعوجا بعياني، م ي.

(٧٨) وفتيان: رقيبان، م ي.

(٧٩) وعففتُ: وعفيت، م ي.

فصل في التعديل والتجوير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ..﴾ الآية [النحل:٩٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، فالله تعالى قادر على الحسن والقبيح، وإنما يفعل الحسن لمنفعة عباده، ولا يفعل القبيح، لأنه عالم بقبحه، وأنه غني عنه، ولأن فاعل الظلم يسمى ظالمًا، فلو[80] كان الظلم من فعل الله تعالى لسمي ظالمًا، تعالى عن ذلك، ولأن الحكيم لا يخلق سَبَّ نفسه وقَتْل أنبيائه، ولأنه لو خلق أفعال العباد لكانت الحركات فينا واحدة، فلما كانت مختلفة، منها ما يقف وجوده على اختيارنا، ومنها ما لا يقف، علم أن الجميع ليس بفعل الله، ولأن أفعال العباد تقع[81] بحسب قصورهم ودواعيهم فدل أنه فعلهم.

ومن الآثار أنه تعالى لا يفعل القبيح والظلم ما رواه عبد الرحمن الأعرج عن عبد الله بن أبي رافع، عن علي عليه السلام: أن النبي صلوات الله عليه وسلامه كان يستفتح الصلاة بذكر التوحيد والعدل، كان إذا قام كبر ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي محياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك الحق لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب [إلا أنت]، واهدني لأحسن الأخلاق إنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها إنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله بيديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك».

صلة بن زفر، عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيد واحد فلا يتكلم أحد، فيكون أول من يُدعى محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: لبيك وسعديك والخير بيديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديتَ، عبدك بين يديك، أنا بك وإليك، لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت فسبحانك رب البيت، فذلك قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

---

(٨٠) فلو: لو، م ي.

(٨١) تقع: يقع، م ي.

أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم حرامًا فلا تظالموا، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت كل إنسان ما سألني ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا ما ينقص البحر أن يغمس فيه المخيط غمسة واحدة، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أنقى قلب رجل منكم لم يزد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي إنما أعمالكم أحفظها عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» يعني الخير بتوفيقه وهدايته، وأن الشر يوجد من جهة العبد من غير تأثير من جهة الله تعالى.

عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سبق العلم وجف القلم وتم القضاء بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسول، والسعادة من الله لمن آمن به، وبالشقاء لمن كذب وكفر، وبالولاية من الله للمؤمنين، والبراءة منه للمشركين، وبالتوبة لهم إن تابوا وآمنوا كما أمرهم الله، وقد قال عز وجل: يا بني آدم بمشيئتي كنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء[٨٢]، وبإرادتي كنت الذي تريد لنفسك ما تريد، وبنعمتي قويت على طاعتي، وبعزتي وعظمتي أديت إليّ فريضتي، فأنا أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، فالخير مني إليك بما أوليت، والشر إلي منك بما جنيت وتلبيس الشيطان عليك، انطويت عن طاعتي، وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي، فلي بذلك الحمد، والحجة عليك بالبيان، والسبيل عليك بالعصيان، ولك الجزاء الحسن علي، بالإحسان لم أدع تحذيرك[٨٣] بربك، ولم آخذك عند[٨٤] غرتك، ولم أكلفك فوق طاقتك، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت به على نفسك، ورضيت منك لنفسي ما رضيت به لنفسك مني».

عكرمة عن ابن عباس قال: من أضاف إلى الله ما تبرأ منه وتنزه عنه فقد افترى على الله إثمًا عظيمًا.

---

(٨٢) تشاء: يشاء، ي.

(٨٣) بحار الأنوار للمجلس ٥/ ٩٤.

(٨٤) كتب فوقها في ي: على. نخ.

عن أبي الشعثاء أن سارقًا مر على ابن عباس فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قدر علي، فقال ابن عباس: كلمته أشد من سرقته، يحمل ذنبه على الله.

وعن عائشة قالت: كنت أصب الماء على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسقط الإناء من يدي فتكسر، فقلت: الأمر مفروغ منه، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «إن كان الأمر مفروغًا منه فلأي شيء بعثت، ولأي شيء بعث الأنبياء قبلي».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم يرويه عن ربه: «يا ابن آدم بفضل نعمتي قويت على معصيتي، وبعظمتي وعزتي أديت إلي فريضتي، وأنا أولى بإحسانك منك، وأنت أولى بذنوبك مني، فالخير مني إليك بما أوليتك أبدًا، والشر منك إليّ بما جنيت، فلي الحمد بذلك ولي الحجة عليك».

أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الشقي من شقي بعمله، والسعيد من سعد بعمله».

أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هلكت أمة قط حتى يكون الجبر قولهم».

وعن ابن عمر أن رجلًا قام إليه فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قومًا يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التي حرم الله ويقولون: كان ذلك في علم الله فلم نجد بُدًا منه، فغضب ثم قال: سبحان الله العظيم، قد كان ذلك في علمه أنهم يفعلونها، ولم يحملهم علم الله على فِعْلها، حدثني أبي عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض فكذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله عليها».

قال ابن عمر: لَعبد يعمل المعصية ثم يقر بذنبه على نفسه أَحَبُّ إلي من عبد يصوم النهار ويقوم الليل، ويقول: إن الله أولى بالخطيئة منه.

وروى الشيخ أبو الحسين الخياط رحمه الله بإسناده عن زيد بن علي عليهما السلام أنه لما خرج جاءه ابن الخطاب فقال له: عَرِّفنا ما تذهب إليه؟ فقال: إني أتبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله مع الإصرار، ومن الرافضة الذين رفضوا أبا بكر وعمر، ومن المرقة الذين كفروا أمير المؤمنين، فقال: لست بصاحبنا.

وسئل الصادق عليه السلام عن القدر فقال: ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو فِعْلُه، وما لم تستطع فهو فِعْلُ الله، يقول الله للعبد: لم عصيت؟ ولا يقول: لم مرضت؟

وسأل[٨٥] أبو حنيفة موسى بن جعفر عليه السلام عن القدر فقال: لا بد أن تكون[٨٦] المعاصي من الله أو من العبد أو منهما جميعًا، فإن كانت من الله فهو أعدل أن يؤاخذ عبده بشيء فَعَلَهُ هو، وإن كانت منهما فهو شريكه والقوي أقوى لإنصاف عبده الضعيف، وإن كانت من العبد وحده فعليه وقع الأمر. قال أبو حنيفة رحمه الله: فقلت: ذرية بعضها من بعض، وفي هذا المعنى شعر:

لم تخل أفعالنا اللاتي نُذم بها	إحدى ثلاث خصال حين نأتيها
إما تفرد مولانا بصنعتها	فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه	ما سوف يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لإلهي في جنايتها	ذنب فما الذنب إلا ذنب جانيها

وعن أبي أمامة الباهلي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا كان يوم الجمعة جمع الله الخلائق في صعيد واحد فينادى من بَطْنَانِ[٨٧] العرش: ألا كل من بَرّأ الله من ذنبه وألزمه نفسه فليدخل الجنة آمنًا غير خائف».

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اضمنوا لي ستة أضمن لكم الجنة: لا تظلموا عند قسمة مواريثكم، ولا تغلوا في غنائمكم، ولا تجبنوا عن قتال عدوكم، وامنعوا ظالمكم من مظلومكم، وأنصفوا الناس من أنفسكم، ولا تحملوا على الله ذنوبكم».

أيوب السختياني: عجبت من الرجل يعمل بالخطيئة ثم يقول: هي من الله، لَكِذْبُهُ أعظم من خطيئته.

الصولي بإسناده أن عبيد الله بن زياد لعنه الله قال لعلي بن الحسين عليه السلام: ألم يقتل الله علي بن الحسين؟ قال: وقد كان لي أخ يسمى عليًا وكان أكبر مني، وإنما قتله الناس لا الله. قال: بل الله قتله، قال: والله إذا قتل عثمان بن عفان.

وعن أبي هريرة: أن رجلًا من خثعم قال: يا رسول الله متى يرحم الله عباده؟ قال: «ما لم

(٨٥) في م ي: وسل. ولعل الصواب: ما أثبتناه.

(٨٦) تكون: يكون، ي.

(٨٧) في الصحاح: بَطْنان الجنة: وسطها. مادة: (ب ط ن).

يعملوا بالمعاصي ثم يزعموا أنها من الله، فإذا فعلوا ذلك انتزعت منهم الرحمة انتزاعًا»، قال الخثعمي: يا رسول الله أيضل الرجل وهو يقرأ القرآن؟ قال: نعم، إذا قال هذا طبع على قلبه».

ودعا بعض عمال البصرة عمرو بن فايد فدخل عليه وإنما هو على سرير وبين يديه سيف مسلول فقال: إني أسألك عن مسألة إن أخبرتني وإلا ضربت عنقك، قال: هات، فقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٤٥]، وأنت تقول: إن العبد يفعله شاء الله أو لم يشأ، فقال عمرو: أيها الأمير الأبتر الأضل إن الله قد أذن للناس فقال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النساء:١٣٦]، ثم قام وهو ينشد شعرًا:

سيعلمون إذا الميزان مال بهم ... أهم جنوها أم الرحمن جانيها

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يعتذر الله تعالى إلى آدم عليه السلام يوم القيامة ثلاثة معاذير، يقول: يا آدم لولا أني لعنت الكذابين وأبغض الكذب وأعذب عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت[٨٨] لهم من العذاب، ولكن حق القول مني لمن كَذَّب رسلي وعصى أمري لأملأن جهنم منهم أجمعين، ويقول الله تعالى: يا آدم إني لا أدخل من ذريتك النار أحدًا ولا أعذب منهم في النار أحدًا إلا من قد علمت أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه ولم يرجع ولا يعتب[٨٩]، ويقول الله: يا آدم قد جعلتك حكمًا بيني وبين ذريتك قم عند الميزان فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة حتى تعلم أني لا أدخل النار إلا كل ظالم».

وسئل أبو بكر عن الكلالة فقال: ما سمعت فيها شيئًا ولكن أقول فيها برأيي، فإن كان صوابًا فمن الله وهو وفقني، وإن أخطأت فالخطأ مني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريان، أراه ما خلا الولد والوالد، فلما ولي عمر بن الخطاب ﷺ قال: إني لأستحيي من الله أن أرد قضاءً قضى به أبو بكر، وكُتِبَ كتابٌ عند عمر: هذا ما أَرَى اللهُ عمرَ، وقال عمر: امحوه واكتبوا: هذا ما رأى عمر، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر.

وعن علي قال في بعض خطبه: لم يعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا في الإمارة شيئًا، وإنما هو رأي رأيناه، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنا، ولي أبو بكر فاستقام

(٨٨) أعددت: أعتدت، م ي.
(٨٩) كنز العمال حديث رقم ٣٩٧٦٨.

وأقام، ثم ولي عمر فاستقام وأقام، ثم ضرب الدين بِجِرَانِهِ[٩٠] فطلب[٩١] قوم الدنيا، يعفو الله عمن يشاء ويعذب من يشاء.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «التأني من الله والعجلة من الشيطان».

ابن مسعود سئل عن امرأة مات عنها زوجها ولم يفرض لها مهرها، قال: أقول فيها برأيي. فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، أرى لها مهر نسائها ولا وكس ولا شطط، ولها الميراث وعليها العدة.

ذكر ابن يزداد خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العدل وفيها يحكي عن ربه: «إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم، وحرمت ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا.

ومن خطبة لأبي بكر في العدل رواه صالح بن كيسان بعد حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركب الشيطان منهم مركبه الذي أنزله الله عنه، فأخذ بحبل رقابهم ورجا هلكتهم.

ومن خطبة علي في العدل التي تسمى الغراء بعد ذكر الخلق وبيان التوحيد: ثم أمر بتربيته إلى كمال[٩٢] تقويته، وأسبغ عليه النعم، ووضع عليه القلم عند حال البلوغ، فلم يكلفه ما لا يطيق، أنظره بالأمر، ومد له في العمر، ثم كلفه دون الجهد، ووضع عنه دون العمل، وقد أطلقه للفكر، وحثه على النظر بعد وصفه له الأدلة وإزاحته له كل علة.

رسالة ابن عباس إلى مجبرة أهل الشام

عن مجاهد عن ابن عباس كتب إلى قراء المجبرة بالشام: أما بعد أتأمرون الناس بالتقوى وبكم قُتل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصون، يا سلف القاتلين، وأعوان الظالمين، وخزان مساجد الفاسقين، وعُمّار سبل الشياطين، هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبها علانية إليه، وهل فيكم إلا من السيف تلاوته، والزور على الله

(٩٠) أي: استقر. اللسان (ج ر ن).

(٩١) فطلب: فقلب، م ي.

(٩٢) كمال: كما، ي.

شهادته، على هذا تواليتم، أم عليه تمالأتم[٩٣]، حظكم منه الأوفر، ونصيبكم منه الأكثر، عمدتم إلى موالاة[٩٤] من لم يدع لله مالًا إلا أخذه، ولا منارًا إلا هدمه، ولا مالًا ليتيم إلا سرقه أو خانه فأوجبتم لأخبث خلق الله أعظم حق الله، وخاذلتم[٩٥] أهل الحق حتى ذلوا وقلّوا[٩٦]، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا، فأنيبوا إلى الله وتوبوا فإن الله يتوب على من تاب، ويقبل[٩٧] من أناب.

سليمان بن أرقم قال: شهدت الحسن إذا جاءه كتاب عمر بن عبد العزيز: أما بعد فقد بلغني أنك تقول في القدر قولًا فاكتب إليّ برأيك فيه، فقال لابنه عبد الله: اكتب: من الحسن بن أبي الحسن إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد، فإنه من كذب بالقدر فقد فجر، ومن حمل ذنوبه على الله فقد كفر، فقال له ابنه: أتبدأ باسمك قبل اسمه؟ فقال: إنه من السنة، كذلك كانت السنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي وعمر في المكاتبات.

مبحث في القضاء والقدر

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، القضاء في القرآن على ثلاثة أوجه:

بمعنى الخلق، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢].

وبمعنى العلم، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء:٤].

وبمعنى الإلزام، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، ويقال: قضى القاضي [بالأمر] أي ألزم، وأفعال العباد كلها بقضاء الله بمعنى أنها بِعِلْم الله وليس شيء منها بقضائه بمعنى الخلق، والطاعات بقضائه، بمعنى الأمر.

والقدر على وجوه:

منها: بمعنى الخلق، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت:١٠].

(٩٣) انظر طبقات المعتزلة ص١٣.
(٩٤) موالاة: مولاه، ي.
(٩٥) وخاذلتم: وتخاذلتم، م ي.
(٩٦) وقلّوا: وقتلوا، ي.
(٩٧) ويقبل: وقبل، ي.

ومنها: بمعنى العلم، ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]، يعني علمنا[٩٨].

والتقدير ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويقال: قدرت أمر كذا؛ يعني علمت ما يجيء منه، ففعال العباد ليس مقدّرة بمعنى الخلق، ومقدرة بمعنى العلم والتقدير وما يشبهه، وقد وردت آثار في القضاء والقدر تدل على ما يذهب إليه، وروت المجبرة أخبارًا لاحتمال التأويل، ونحن نذكر طرفًا منها:

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكي عن ربه: «من لم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي[٩٩] فليطلب ربًا سواي»، ومن رضي بالكفر كفر بالاتفاق.

أبو الدرداء: إن الله إذا قضى قضاءً أحب أن يُرضى بقضائه.

علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سبق العلم وجف القلم، وقضي القضاء، وقدر القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرسول بالسعادة من الله لمن آمن واتقى، والشقاء لمن كذب وكفر».

ابن مسعود: لَأَنْ أعضّ[١٠٠] على جمرة حتى تبرد أحب إليّ من أن أقول لشيء قضاه الله ليته[١٠١] لم يكن.

الحسن وقرأ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، فقال: هم المجوس واليهود والنصارى وناس من هذه الأمة زعموا أن الله قدر عليهم المعاصي وعذبهم عليها، وكذبوا على الله، والله يسود وجوههم بذلك.

وعن الحسن أنه مر بفضل بن برجان وهو يصلب فقال: ما حملك[١٠٢] على سرقتك؟ فقال: قضاء الله وقدره، فقال: كذبت يا عدو الله، أيقضي عليك بأن تسرق ثم يقضي عليك بأن تصلب.

الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لن يلقى الله العبد بذنب أعظم من الإشراك بالله وأن يعمل معصية ثم يزعم أنها من الله. وهذا الخبر يجمع التوحيد والعدل.

---

(٩٨) علمنا: إعلامنا، م ي.

(٩٩) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٨٠٧.

(١٠٠) أعضّ: أعرض، ي.

(١٠١) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٩١٧١، والزهد لأبي داود حديث رقم ١٢٨.

(١٠٢) حملك: حملتك، ي.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يحمل على الله كل ذنب عصي به».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سيأتي أقوامٌ يعملون المعاصي ويقولون هي من الله، فإذا رأيتموهم فكذبوهم - ثلاث مرات».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر ما في آخر الزمان من الشدة والظلم: «فإذا كان ذلك نشأ نَشْأٌ يعملون بالمعاصي ثم يزعمون أنها من الله، عليهم تحق اللعنة، وعليهم تقوم الساعة».

جعفر بن محمد، عن أبيه أن عليًا قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر؟ قال: بحرٌ عميق فلا تلجه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر؟ قال: بيت مظلم فلا تدخله، قال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر؟ فقال: أما إذا أبيت فإنه أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض[١٠٣].

وعن ابن الصامت قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أي الأعمال أفضل؟ فقال عليه السلام: «إيمان بالله، وتصديق برسوله، وجهاد في سبيله»، قال: أريد أهون من هذا؟ قال: «لا تتهمه في شيء قضى به عليك».

محمد بن كعب قال: قال موسى: أي رب أي خلقك أعظم ذنبًا؟ قال: الذي يتهمني، قال: أي رب وهل يتهمك أحد؟ قال: نعم الذي يستجبرني[١٠٤] ولا يرضى بقضائي.

جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يكون في آخر الزمان قوم يعملون بالمعاصي ثم يقولون هذا بقضاء الله وقدره، الراد عليهم كالمشهر سيفه في سبيل الله».

جابر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيًا»، قيل: يا رسول الله ومن القدرية؟ قال: قوم يعملون بالمعاصي ثم يقولون: إن الله هو قدرها عليهم»، قيل: ومن المرجئة؟ قال: «قوم يقولون: الإيمان قولٌ[١٠٥] بلا عمل».

وعن الحسن قال: قدم من فارس رجل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

---

(١٠٣) تاريخ دمشق ٥١/ ١٨٢.

(١٠٤) تاريخ دمشق ٦١/ ١٤٢.

(١٠٥) قولٌ: قولًا، ي.

رأيتهم ينكحون أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم، فإذا قيل: لم تفعلون هذا: قالوا: قضاء الله وقدره، فقال عليه السلام: «أما إنه سيكون في أمتي قوم يقولون مثله، أولئك مجوس هذه الأمة».

عن صهيب قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحد الصلاتين إما الظهر وإما العصر، فلما سلم التفت إلينا ضاحكًا بوجهه فقال: «ألا تسألوني لم[١٠٦] ضحكت» فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «عجبت من قضاء الله للعبد المسلم، إن كل قضاء الله له خير، وليس كل أحد قضاء الله له خيرٌ إلا العبد المسلم».

وروى أبو مخنف والأصبع بن نباته أن عليًا عليه السلام لما انصرف من صفين قام إليه شيخ فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديًا ولا علونا تلعة[١٠٧] ولا وطئنا موطئًا إلا بقضاء من الله وقدره، فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي في مسيري، والله ما أرى لي من الأجر شيئًا، فقال: بلى قد عظم الله أجرك، لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين، فقال الشيخ: وكيف يكون ذلك كذلك والقضاء والقدر ساقنا وعنه كان مسيرنا؟ قال أمير المؤمنين: لعلك تظن قضاء لازمًا وقدرًا حتمًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، وما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن، ولا المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، ولا المذنب أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة إخوان الشياطين، وعبدة الأوثان، وخصماء الرحمن، وشهود الزور، وأهل العمى والفجور، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله تعالى أمر تخييرًا، ونهى تحذيرًا، وكلف يسيرًا، ولم يكلف مجبورًا، ولا بعث الأنبياء عبثًا، ولا أرى عجائب الآيات باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]، فقال الشيخ: وما ذلك القضاء الذي به سرنا؟ فقال: أَمْرُ الله وإرادته، ثم تلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فنهض الشيخ مسرورًا وأنشأ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته	يوم الحساب من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسًا	جازاك ربك عنا فيه إحسانا
نفسي فداء لخير الناس كلهم	بعد النبي عليّ الخير مولانا

(١٠٦) مسند أحمد رقم ٣٧١٤ ومسند أبي يعلى رقم ٥٢٩٠.

(١٠٧) التَّلْعَةُ: أرض مرتفعة غليظة يتردد فيها السيل ثم يدفع منها إلى أخرى أسفل منها. اللسان (ت ل ع)

أخي النبي ومولى المؤمنين[١٠٨] معًا وأول الناس تصديقًا وإيمانا
وبعل بنت رسول الله فاطمة أكرم بها شرفًا سرًا وإعلانا

علي بن عبد الله بن عباس قال: كنت جالسًا عند أبي فقال له رجل: إن هاهنا قومًا يزعمون أنهم أُتوا مِنْ قِبَل الله وأن الله جبرهم على المعاصي، فقال: لو أعلم أن هاهنا أحدًا منهم لقبضت على حلقه.

مطلب في الرضا بالقضاء

أبو يحيى البزار بإسناده عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارته لله وسخطه بما قضى الله».

عبد الله بن عمرو قال: كنت كثيرًا ما أسمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اللهم إني أسألك الصحة، والعافية، والأمن، وحسن الخلق، والرضى بالقدر».

غيلان عن مطرف قال: اللهم ارضني بما قسمت لي، فإن هذا السارق لم يرض بما قسم الله له فسرق فقطعت يمينه.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من مرض ليلة فصبر ورضي عن الله خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه».

عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس من الإيمان بالله: التوكل على الله، والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله، والصبر عند الصدمة الأولى».

ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم إنه من استسلم لقضائي ورضي بحكمي وصبر على بلائي كتبته صديقًا، وبعثته مع الصديقين».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب، ولولا ثلاث خصال صلح الناس: شح مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

(١٠٨) كشف الغمة لابن أبي الفتح ١/ ٨٤.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رزق كل امرئ من الدنيا بنيته لا محالة، فمن رضيه بورك له فيه فوسعه، ومن لم يرض به لم يبارك له فيه فلم يسعه».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عجبًا للمؤمن والله وما يقضى له قضاء إلا كان خيرًا له».

خلف بن موسى قال: سمعت رجلًا من الزَّمْنَى كان الجذام قطع يده ورجله وهو يقول: وعزتك لو أمرت الهوام فتقسمتني بضعًا بضعًا ما ازددت بذلك بتوفيقك إلا صبرًا، وعنك بِمَنِّكَ إلا رضًا.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى: «وعزتي لأقبضن كريمتي عبدي حبيبتي عبدي فيصبر ويرضى[١٠٩] بقضائي فلن أرضى[١١٠] له بثواب دون الجنة».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، من رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من رضي عن الله باليسير من الرزق رضي الله منه باليسير من العمل».

الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا، وجبت له الجنة».

العباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، ومحمد نبيًا».

سئل الفضل عن التوكل فقال: هو الرضا بالقضاء، فقال: وكيف الرضا بقضاء الله؟ قال: الرضى ألا تمنى فوق منزلتك. شعر يروى لعلي عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي ... وفوضت أمري إلى خالقي
لقد أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقي

---

(١٠٩) فيصبر ويرضى: فصبر ورضي، م ي.

(١١٠) فلن أرضى: فأرضى، م ي.

مطلب في ذم القدرية ومن هم والمضاهاة بينهم وبين المجوس

القدرية اسم ذم يجب إثباته لمن أثبت المعاصي بقضاء الله وقدره دون من ينفيها عنه تعالى؛ لأن الاسم يشتق من الإثبات لا من النفي الموجب لمن يوجب دون من ينفي، وكذلك جميع الأشياء المشتقة.

ومن الآثار في ذلك: ما رواه أبو هريرة وابن عمر وجابر كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم ولا تصلوا عليهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، فإنهم شيعة الدجال، وحق على الله تعالى أن يلحقهم به».

وروى أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وأنس وحذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لعنت القدرية على لسان سبعين نبيًّا»، قيل: يا رسول الله ومن القدرية؟ قال: «الذين يعملون المعاصي ويزعمون أنها من الله».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام سهم: المرجئة، والقدرية».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لكل أمة مجوسًا، وإن هؤلاء القدرية مجوس أمتي، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مجوس العرب وإن صاموا وصلوا القدرية».

حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الذين يكذبون بالقدر مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشاهدوهم، فإنهم شيعة الدجال».

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا هذه القدرية فإنها شعبة من النصرانية».

عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم الكلام».

ابن عباس: لَأَنْ يمتلئ بيتي[111] قردة وخنازير أحب إلي من أن يمتلئ قدرية.

(١١١) بيتي: داره، م ي.

ابن عمر: القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، قيل: من هم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: الذين يعملون المعاصي ثم يزعمون أنها من الله كتبها عليهم.

في هذه الأخبار [بيان] ذم القدرية ومن هم، ويجب هاهنا شيئان يجب بيانهما:

أحدهما: بيان القدرية.

والثاني: ذكر المضاهاة بينهم وبين المجوس.

أما الأول: فقد روي عن أنس أنه قال: كانت القدرية أسماء لنا، فنبزنا بها المعتزلة وعابنا السلطان على ذلك فسمونا باسم شيء من ذلك وهم المجبرة، والآن الاسم يؤخذ من الإثبات وهم يثبتون القدر ونحن ننفيه، لا يقال لنا في الصانع موحد ولا لنا في الجبر جبري.

وأيضًا فإن أهل اللغة يسمون من لهج بشيء بذلك الشيء، وينسبون إليه، يقال: تمري ولبني، والمجبرة قد لهجوا بذلك القدر فينسبون ما يوجد في العلم من الخير والشر إلى القدر فيسمون القدرية.

وأيضًا فإنه اسم[١١٢] ذم، وقد ثبت أنهم المذمومون ومذهبهم المذموم فيكونون أولى به.

وأيضًا فإنهم شبهوهم بالمجوس ومذهبهم يقرب من مذهب المجوس فيكونون أولى بهذا الاسم.

وأما ذكر المضاهاة: فقد صُنِّفَ في ذلك كتب وذكر جمعه يطول، فمنها: قولهم: إن المطيع لا يقدر على الشر والعاصي على الخير، وكذلك المؤمن والكافر، وهذا بعينه مذهب المجوس يقولون: النور[١١٣] لا يقدر على الشر وهو خير، والظلمة لا تقدر على الخير وهي شر[١١٤].

ومنها: قولهم: إنه مع الظلمة لا يقدر على الشر، والنور على الخير ويحسن الأمر والنهي والثواب والعقاب، ومذهب المجبرة أنه مع عدم قدرة الإيمان للكافر[١١٥]، وعدم قدرة الكفر للمؤمن يحسن الأمر والنهي والثواب والعقاب.

---

(١١٢) اسم : أقسم، ي.

(١١٣) النور : المنور، م ي. انظر تلبيس إبليس ص٦١.

(١١٤) شر : شرير، م ي.

(١١٥) للكافر : للكفر، م ي.

ومنها: أنهم يقولون: إن الذنب فعل الله تعالى خلقه فيه وهو مأمور بالتوبة مأخوذ بها، والمجوس تقول: فعل الظلمة والنور يتوب.

ومنها: أنهم يقولون: إن الله لا يقدر على الشر، والشيطان لا يقدر على الخير. وهذا بعينه مذهب المجوس في النور والظلمة والشيطان لا يقدر على الخير وهذا بعينه مذهب المجوس بالنور والظلمة والباري والشيطان.

ومنها: أن المجبرة تقول: شرب الخمر والزنا ونكاح الأمهات والبنات بقضاء الله وقدره، والمجوس تزعم ذلك.

وروي أن بعض أهل العدل ناظر في هذه المسألة المجبرة بالقدرية، فقال العدلي سائلًا مجوسيًا: أنت تعبد النار، وتنكح الأخت، وتشرب الخمر، وتضرب العود، هذا بقضاء الله وقدره ومشيئته أم لا؟ فإن قال: نعم، فأنت رفيقه وموافقه، وإن قال: لا وأبي، فلا مجوس في العالم إلا ويقول: إن ذلك بقضاء الله وقدره، والمجبرة كذلك تقول، فصاروا مضاهين لهم في المعنى.

مطلب في المشيئة والإرادة

قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر:٣١]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وذم من قال بخلاق الحق فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ..﴾ الآية [الأنعام:١٤٨]، وفيه دليل من خمسة أوجه على أن المعاصي بغير إرادة، ونظيره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ..﴾ الآية [النحل:٣٥].

ومن الآثار في ذلك: ما روي عن ابن سيرين[١١٦] أنه سأل رجلًا عن جار له يهودي فقيل: هو كما شاء الله، فقال: فإن الله تعالى لا يشاء اليهودية.

عبد الله بن دينار أن ابن عمر كان معه[١١٧] فأتي بقدح من لبن فأراد أن يشرب، فقلت: أولست صائمًا، فقال: أراد الله أن يسقيني فمنعتني.

(١١٦) طبقات المعتزلة، المرتضى، ص٩٢.

(١١٧) معه: معبا، ي.

جابر أن رجلًا قال: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: «أن تهجر ما كره ربك».

أبو صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]، قال: أيفعل ذلك بهم قسرًا؟ قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣] على القدرة لو لم يكونوا مأمورين ولا منهيين كما قال تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] فكانوا.

أحمد بن عيسى بن زيد، عن عمه الحسن بن زيد، عن أبيه زيد، عن أبيه علي عليه السلام، عن أبيه، عن علي عليه السلام في قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، قال: يريد أن يهلككم.

عن السدي في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩] والله لا يشاء ولكن إلا أن يكون الله تعالى قد علم شيئًا فإنه وسع كل شيء علمًا.

ثم يقال: أليس الله أمر الكافر بالإيمان؟ فلا بد من نَعَم، فيقال: أراد خلاف ما أمر أم لا؟ فإن قالوا: أراد خلاف ما أمر، فهذا لا يفعله الحاكم.

فيقال لهم: ما تريدون من الكفرة؟ قالوا: الإيمان، قلنا: فما أراد الله منهم؟ قالوا: الكفر، قلنا: فأيهما خير لهم؟ فإن قالوا: الإيمان، قلنا: فأنتم لهم خير من الله وأرحم بهم، وإن قالوا: الكفر، قلنا: فالكفر خير من الإيمان.

فيقال: ما أراد الله من الكفرة[١١٨]؟ قالوا: الكفر، قلنا: فما أراد النبي؟ قالوا: الإيمان، قلنا: فما أراد إبليس؟ قالوا: الكفر، قلنا: فإذا [أراد] الله وإبليس وخالف الرسول الله، فنقول لهم: أيها أحق بالكون ما أراد الله أو ما يأمر به؟ فإن قالوا: ما أراد، زعموا الكفر أولى وأحق أن يكون من الإيمان، وإن قالوا: ما أمر أولى، قلنا: ألستم تزعمون أن في وجود ذلك تعجيزه وتضعيفه فقد قلتم ما فيه تعجيزه وأولى.

ويقال لهم: ما تقولون في رجلين أحدهما عَبَدَ الله مائة سنة، والآخر كفر بالله مائة سنة، ثم أسلم الكافر، فارتد المؤمن، أليس كان ذلك بإرادته؟ قالوا: بلى، قلنا: فهل[١١٩] أراد أن يخُرج وليه إلى النار وعدوه إلى الجنة وهذا خلاف الحكمة ويكون أنصر لأعدائه منه لأوليائه.

---

(١١٨) الكفرة: الكفر، م ي.

(١١٩) فهل: فهو، م ي.

ويقال: إن الحكيم[١٢٠] لا يريد أن يسب ويقتل أولياءه ولا يطاع بل يكره [على] طاعته، فلما كان الله حكيمًا [تعالى أن] يكون بهذه الصفة.

ويقال لهم: هو أراد من العصاة العصيان، فهل هو أهل أن يؤخذ مراده أم لا؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: قد زعمتم أنه أهل [لأن] يعصى، وإن قالوا: لا، زعموا أنه ليس بأهل أن يؤخذ مراده.

ويقال لهم: هل له على عباده حق أم لا؟ ويعنى به الكفر، فإن قالوا: لا[١٢١] حق، خرجوا من دين الرسول، وإن قالوا: نعم، قلنا: فما حقه على عباده، قالوا: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، قلنا: فأراد حقه منهم أم لا؟ فإن قالوا: لا، قلنا: اتركوه، فإن قالوا: نعم، بان فساد مذهبهم وما يفعلون به من الآي في المشيئة قد ذكرنا تأويله في الكتب.

مطلب فيما يتعلق بالعدل في الآي المتشابه

المأثور عن السلف:

الحسن في قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ [أَن تَهْدُوا] مَنْ أَضَلَّ﴾ [النساء:٨٨] يعني تريدون أن تسموهم بهذا وهم عند الله ضُلاَّل.

وعنه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ[١٢٢]﴾ [النحل:٣٧] أي: لا يضيفه إلى هدي.

ابن عباس في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [الحج:٤]، قال: حُكِم عليه.

قتادة في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: السنون ﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [الحديد:٢٢] الأمراض والأوجاع.

ابن جريج في قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨] عَلَّمها سبيل الخير والشر.

مجاهد في قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال: بينه وبين أمله.

ابن عباس في قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥]، قال: عذابك.

(١٢٠) الحكيم: الحاكم، م ي.
(١٢١) لا: إلا، ي.
(١٢٢) في م ي: إن. وما أثبتناه من المصحف.

مبحث في الاستطاعة

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقال: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢]، فكذبوهم في نفي الاستطاعة فدل أنهم مستطيعون، ونظير ذلك كثير.

ومن الآثار: ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه عن الله تعالى: «يا ابن آدم وأنا أولى بإحسانك منك، فأنت أولى بذنوبك مني، لم أدع تحذيرك، ولم آخذك على غرتك، ولم أكلفك فوق طاقتك، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت به على نفسك»[١٢٣].

ابن عباس في قوله: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا..﴾ الآية [التوبة:٤٢]، قال ابن عباس: صدق الله والله يعلم إنهم لكاذبون، يستطيعون الخروج ولكن لم يخرجوا.

الحسن عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيعجز أحدكم أن يعمل كل يوم عملًا مثل أحد»؟ قالوا: ومن يستطيع ذلك يا رسول الله؟ قال: «كلكم يستطيعه»، قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال: «سبحان الله: أعظم من أُحدٍ، لا إله إلا الله والحمد لله: أعظم من أحد، والله أكبر: أعظم من أحد».

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخير في أي الحور شاء، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله تعالى برد الإيمان يوم القيامة».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سأل موسى ربه: أي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر غفر».

زيد بن علي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أكثركم إيمانًا أحسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الموصلون لأرحامهم، الباذلون لمعروفهم، الكافون لأذاهم، العافون بعد قدرة».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نهاكم عنه فانتهوا، وما أمركم فافعلوا ما استطعتم».

---

(١٢٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ص٣٢٣.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أيها الناس عليكم ما تطيقون من الأعمال».

إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، عن مالك بن مغول، عن الشعبي قال: قلت لعمر بن هبيرة: عليك بالتؤدة فإنك على فعل ما لم يُفعل أقدر منك على رد ما فعلت.

ابن عباس في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:١٠١]، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا[١٢٤]﴾ [الإسراء:٤٨] أي ضلت حيلتهم فلم يقدروا أن يحتالوا له حيلة إلا قولهم: إنه ساحر أو مجنون.

هذه الأخبار تدل على أن الاستطاعة قبل الفعل، وأن الكافر قادر على الإيمان.

ويقال لهم: أليس الكافر أُمر بالإيمان؟ قالوا: بلى، قلنا لهم: [أله] الاستطاعة؟ قالوا: لا، قلنا: فقد كلفوا ما لا يطيقون[١٢٥]، تعالى الله عن ذلك.

ويقال لهم: ألستم تزعمون أن كل مَنْ قدر على فعل شيء فعله؟ قالوا: نعم، قلنا: فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقدر على معصية قط فتركها لله؟ قالوا: لا، قلنا: فترك ما لا يقدر عليه؟ قالوا: بلى، وهذا أسوأ الثناء على رسول الله.

ويقال لهم: ما تقولون لو قدر النبي عليه السلام على الكفر والزنا والسرقة والقتل وما لا ينطلق به اللسان إعظامًا أكان[١٢٦] يفعله كله ولا يمنعه من ذلك خوف الله ولا رجاء ثواب ولا خوف عقاب؟ قالوا: بلى، قلنا: ليس[١٢٧] أحد في الدنيا أسوأ ثناء على رسول الله منكم، وكيف يوصف[١٢٨] رسول الله بصفة لو وصف بها شر خلق الله ما زيد على ذلك.

ويقال لهم: ما تقولون لو أن إبليس قدر على أن يكون أعبد الخلق وأطوعهم وأخيرهم، أليس كان كذلك؟ قالوا: بلى، قلنا: ولو قدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون شر الخلق أليس كان كذلك؟ [قالوا: بلى]. قلنا: فأنتم أحسن ثناء على إبليس منكم على رسول الله.

ويقال لهم: ما تقولون في أنفسكم لو قدرتم على قتل الأنبياء وتحريق[١٢٩] المصاحف وهدم

(١٢٤) في م ي: لا. وما أثبتناه من المصحف.
(١٢٥) يطيقون: يطيقوا، م ي.
(١٢٦) أكان: لكان، م ي.
(١٢٧) ليس: أليس، م ي.
(١٢٨) يوصف: يوسف، ي.
(١٢٩) وتحريق: وحريق، ي.

الكعبة وانتهاك الحريم وذبح الأطفال أفعلتم ذلك؟ قالوا: بلى، قلنا: فمن شر ممن هذا عقيدته.

ويقال لهم: هل عفا أحد عما قدر؟ فإن قالوا: نعم، تركوا قولهم، وإن قالوا: لا، قلنا: فقولوا: إنكم عفوتم عن الملوك، وهذا اختلاف العقول.

ويقال لهم: ما تقولون في ذرة حملت حنطة(١٣٠) أتقدر(١٣١) عليه؟ قالوا: بلى، قلنا: فجبريل هل يقدر عليه؟ قالوا: لا، قلنا: فجبريل(١٣٢) مع ما حكى الله عنه من قوته أضعف من الذرة وهذا محال.

مطلب في اللطف والتوفيق

قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] يعني حبب بالألطاف والوعد والأمر، وكره بالصوارف والوعيد(١٣٣) والنهي، وهذا ما نقوله في اللطف أنه تعالى إذا كلف وأزاح العلة، وأعطى الآلة والقدرة، ثم علم أن عبدًا لا يكون أقرب إلى الطاعات عند فعل من الأفعال، وكذلك في النهايات. ونظير ذلك: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ الآية [الأنعام:١٢٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] يعني بالألطاف، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] يعني ثبتنا(١٣٤) على الطريق، ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:٨٠] الآية ونظيرها يكثر.

والتوفيق هو اللطف إذا وجد الطاعة عنده، والخذلان هو التخلية.

ابن بردة عن أبيه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أرأيت ما نعمل أفي كتاب الله قد خلا أو في ما يستأنف، قال: «بل في كتاب الله قد خلا»، قال: فما معنى العمل؟ قال: «اعملوا فإن الله يوفق المحسنين للإحسان».

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾

(١٣٠) حنطة: حبطة، م ي.

(١٣١) أتقدر: بقدرة، م ي.

(١٣٢) فجبريل: وجبريل، م ي.

(١٣٣) والوعيد: والوعد، م ي.

(١٣٤) تفسير الإبجي ١/ ٢٤.

الآية [الزمر:٢٢]، سئل: هل يشرح الله الصدر؟ قال: «نعم إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح»، قالوا: يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: «بلى التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل حلول الموت» رواه ابن مسعود.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من فتح له بابًا، من الخير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق»، رواه ابن عمر.

والشرائع كلها ألطاف، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قوله تعالى: ﴿حَبَّبَ[١٣٥] إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧].

نثر: حبب إليكم الإيمان، وأنزل عليكم الفرقان، وكرَّه إليكم العصيان، وصرف عنكم الشيطان، وخلق لكم الجنان، وضمن لكم الغفران، ووعد لكم بالرضوان، وجعل لكم الإيمان.

آخر: حبب إليكم التوحيد، ووعدكم التأييد، وأعلمكم الوعد والوعيد، إنه فعال لما يريد، حبب إليكم الإسلام، ودعاكم إلى دار السلام، وحياكم بالسلام، وحبب إليكم الطاعات، وكره إليكم الخطيئات، وحفظ عليكم الساعات، وكتب عليكم الزلات، وحبب إليكم إخلاص العبادة، وجعلكم في الأمم وسط القلادة[١٣٦]، وحثكم في الدنيا على الزهادة[١٣٧]، ووعدكم في العقبى الخير مع الزيادة.

حبب إليكم التصديق، وأيدكم بحسن التوفيق، ودعاكم إلى الإخلاص والتحقيق، وأقامكم على سواء الطريق، وأكرمكم بحب الفاروق والعتيق[١٣٨] والوصي والرفيق.

شعر:

وحبب الله لنا الإيمانا	وكره الفسوق والعصيانا
ولم يرد من عبده الكفرانا	بمثل هذا أنزل الفرقانا

وقيل: لما حبب الله الإيمان صار أحب إليكم من أهلكم وأموالكم ودوركم وقصوركم وأشباحكم وأزواجكم. عن بعضهم: الإيمان أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وإخوته.

(١٣٥) في م ي: وحبب. وما أثبتناه من المصحف.

(١٣٦) وسط القلادة: واسط الولادة، م ي.

(١٣٧) الزهادة: الزيادة، م ي.

(١٣٨) يقصد أبا بكر الصديق.

ابن السمّاك: اللهم إنا نحب طاعتك وإن قصرنا فيها، ونكره معصيتك وإن ركبناها، اللهم فتفضل علينا بالجنة وإن لم نكن من أهلها، وخلصنا من النار وإن كنا قد استوجبناها.

حبيب العجمي: إلهي إذا ذكرت أنك مولاي كدت أطير فرحًا.

ويقال: إن الله قد يزين قلب المؤمن بأشياء:

منها: الشرح ﴿أَفَمَن(١٣٩) شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ [الزمر:٢٢].

ومنها: الهداية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، والتقى ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣]، والألفة ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٣]، والعصمة ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤]، حبّ الإيمان: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ(١٤٠)﴾ [الحجرات:٧]، والشفاء ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٤]، والطمأنة ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ [الرعد:٢٨]، والسكون ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ(١٤١)﴾ [الفتح:٤]، وفي الآية دليل على العدل، لأنه قال حبّب الإيمان وكره الكفر، وفيه دليل على أنه فعلهم، لقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧].

قوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]:

الخليقة من فضله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فاطر:١١].

والصورة من فضله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

والرزق من فضله: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل:٢٠].

والإسلام من فضله، لأنه هو الذي قوى وهدى وأرشد وسدد وعلم ووفق.

ونعيم الجنة من فضله ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران:١٧١].

والجنة من فضله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا﴾ [الأحزاب:٤٧].

والنبوة من فضله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

---

(١٣٩) في م ي: فمن. وما أثبتناه من المصحف.

(١٤٠) في م ي: وحبب. وما أثبتناه من المصحف.

(١٤١) في م ي: وأنزل. وما أثبتناه من المصحف.

والخلف من الزكاة من فضله: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة:٢٦٣].

والتوفيق من فضله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ..﴾ الآية [النور:٢١].

ومرافقة النبيين من فضله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم..﴾ [النساء:٦٩] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٠].

والخلود من فضله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١]، فضل من ربك.

ويقال: [مَنْ] نظر في فضل الله انبسط[١٤٢] في الحاجات، ومن نظر في عدله يقصر على طلب النجاة.

وقيل: إذا نظرت إلى فضله قلت: قد ملكت، وإذا نظرت إلى عدله قلت: قد هلكت.

شعر:

إذا ذكـرتُ أياديـك التـي سـلفت	مـع سـوء فعلـي وزلاتـي ومُجترمي
أكاد أهْلَـك يأسًـا ثـم يُدركنـي	علمـي بأنـك ذو فضـلٍ وذو كـرمِ

آخر:

كفـى حَزَنًـا أنـي أناديـك دائمًـا	كأنـي بعيـدٌ أو كأنـك غائـبُ
وأسـأل منـك الفضـلَ من غيـرِ رغبةٍ	فلـم أر مثلـي زهـدا فيـك راغـبُ

يحيى بن معاذ: إذا نظرت إلى فضلك فالعجب ممن هلك كيف هلك، وإذا نظرت إلى عدلك فالعجب ممن نجا كيف نجا.

وعنه: إلهي فراري من عذابك لأنك[١٤٣] مألوف، وطلبي لفضلك لأنك رؤوف، فهبني لرأفتك فقد اشتدت الحاجة إليك.

وعنه: إلهي إن حاسبتني بعدلك لم أستوجب غفرانك فكيف رضوانك، وإن حاسبتني بفضلك نلت رضوانك فكيف غفرانك.

---

(١٤٢) انبسط: انبساط، ي.

(١٤٣) لأنك: فإني، م ي.

مطلب في أطفال المشركين

قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥] بيان أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد ولا يعاقب بغير ذنب.

فعندنا أطفال المشركين في الجنة، وعند قوم في النار لكفر آبائهم، وقيل: يعمل معهم على ما علم منهم.

ومن الآثار في ذلك: ما روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن أولاد المشركين فقال: «لم يكن لهم حسنات فيجازوا[١٤٤] بها فيكونوا من ملوك الجنة ولم يكن لهم ذنوب فيعاقبوا بها فيكونوا من أهل النار، فهم خدم أهل الجنة».

الأسود بن زيد قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم سرية فأسرعوا في القتل حتى أصابوا الولدان فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم أنهكم عن قتل الولدان»؟ قالوا: إنما هم من أولاد المشركين يا رسول الله، قال: «أوليس خياركم أولاد المشركين، ثم أمر مناديه فنادى: ألا إن كل مولود يولد على الفطرة».

عكرمة عن ابن عباس قال: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه حتى يعرب عنه لسانه إما شاكرًا وإما كفورًا»، واختلف في تفسيره قيل: إنه كان في ابتداء[١٤٥] الإسلام ثم نسخ.

محمد بن الحسن وقيل: يولد للفطرة، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقيل: يولد وهو مسلم ثم يلحق بأبويه بعد الولادة إلى أن يبلغ ويعرب عنه لسانه.

وسئل محمد بن الحسن رحمه الله عن أطفال المشركين فقال: أنا أقف عند الأطفال، إلا أني

---

(١٤٤) انظر مسند أبي داود الطيالسي حديث رقم ٢٢٢٥.

(١٤٥) ابتداء: الابتداء، م ي.

أعلم أن الله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بذنبه. وقوله: أقف، يعني لا يقول[١٤٦] كما تقوله المجبرة.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أتدرون من اللأهون[١٤٧] من أمتي»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «نعم أولاد المشركين لم يذنبوا فيعذبوا، ولم يعملوا حسنةً فيثابوا، فهم خدم الجنة».

وعن عائشة أنها مرت بجنازة طفل فقالت[١٤٨]: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وما تدرين لو كبر ماذا يكون»، والمراد بذلك أنه يدخل الجنة كما قالت[١٤٩]، ولعله لو بلغ أدخل النار[١٥٠].

وعن خديجة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أولادها الأطفال فقال: «إن شئت أسمعتك صواعهم في النار» فكانوا بالغين، وقوله: أطفالًا؛ يعني قريبي[١٥١] العهد بالطفولية.

مطلب في الوعد والوعيد

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]، وقال عقيب آية المواريث ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء:١٤]، وقال: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣] ونظائرها.

والاختلاف بين الأمة أن الأنبياء والمؤمنين مخلدون[١٥٢] في الجنة وثوابها، وأن الكفار والمنافقين والمبتدعة في النار مخلدين فيها.

واختلفوا في مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة نحو شارب الخمر والزاني، فقالت الزيدية وأكثر المعتزلة والخوارج والنجارية ومن ذهب مذهبهم: إنهم يخلدون في النار، واختلفوا

(١٤٦) لا يقول: ليقول، م ي.
(١٤٧) اللأهون: الأهون، ي. انظر سنان العارفين للسمرقندي.
(١٤٨) فقال: فقالت، م ي.
(١٤٩) قالت: قلت، م ي.
(١٥٠) النار: النور، م ي.
(١٥١) قريبي: قريب، ي.
(١٥٢) مخلدون: مخلدين، م ي.

فمنهم من قال: لا يجوز العفو عنهم ولا إخراجهم من النار عقلًا، وهو مذهب أبي القاسم وأكثر البغدادية، و [منهم] من قال: يجوز عقلًا العفو عنه إلا أن السمع ورد بأنه لا يعفو ويخلدهم، وهو مذهب أبي علي وأبي هاشم وجماعة البصرية، وقالت المرجئة وكثير من الإمامية بأنه يجوز أن يعفو ويجوز أن يعاقب، فإذا عاقب فيجوز أن يخرج ويجوز[١٥٣] التأبيد، وإلى ذلك ذهب كثير من المعتزلة، وإن كان لكل فرقة أصل[١٥٤] في ذلك يفارق أصل صاحبه، والآيات التي ذكرناها تدل على الوعد.

ومن الآثار في ذلك: ما روى ابن شريح الخزاعي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أصيب بدم أو خبل[١٥٥] فهو بين إحدى[١٥٦] ثلاث، فإن أراد الرابعة فخذوا على يده: بين أن يَقْتُلَ[١٥٧]، أو يعفو، أو يأخذ العقل، فإن أخذ واحدة ثم تعدّى بعد[١٥٨] ذلك فله النار خالدًا فيها مخلدًا فيها أبدًا». الخَبَلُ[١٥٩]: الجراحة، وقوله: «يأخذ العقل» أن يرضى بذلك العامل، ولا يجوز على خلاف ما قاله الشافعي.

زيدان عن ابن مسعود قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة فتمثل أمانته - وإن كان قد قتل في سبيل الله - فيضعها على عاتقه فتزل[١٦٠] منه فتهوي في جهنم أبدًا، قال: فلقيت البراء بن عازب فذكرت ذلك له فقال: صدق أخي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

وعن ابن مسعود قال: يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال له: أدِّ أمانتك، فيقول: يا رب لا أقدر عليها قد ذهبت الدنيا، قال: فيقول: انطلقوا به إلى الهاوية، فيلقى فيها فيهوي حتى يبلغ قعرها [فقعر جهنم اسمه الهاوية] وتمثل أمانته فيحملها ثم يضعها حتى إذا رأى أنه ناج زلت منها فهوت[١٦١] وهوى معها أبدًا. قالوا: الأمانة في كل شيء، في الوضوء، والصلاة، والصيام، والغسل من الجنابة، وأشد من ذلك الودايع. قال زيدان: فلقيت البراء بن

---

(١٥٣) ويجوز: ولا يجوز، ي.
(١٥٤) أصلًا: أصل، م ي.
(١٥٥) خبل: بختل، ي.
(١٥٦) إحدى: أحد، م ي.
(١٥٧) يَقْتُلَ: يقبض، م ي.
(١٥٨) ثم تعدّى بعد: فإن بعد أبعد، ي. المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٤٩٧.
(١٥٩) الخَبَلُ: الختل، م ي.
(١٦٠) فتزل: وتزل، م ي. انظر مكارم الأخلاق للخرائطي حديث رقم ١٦٠.
(١٦١) فهوت: فوت، ي. انظر مكارم الأخلاق للخرائطي حديث رقم ١٦٠.

عازب فقلت له: ألا تسمع ما قال أخوك عبد الله بن مسعود، فأخبرته بقوله فقال: صدق، ألا تسمع قوله الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة خمسة: مؤمن بسحرٍ[١٦٢]، ومدمن خمر، وقاطع رحم، والكاهن، والمنان[١٦٣]».

عبد الله بن حنظلة قال: مر عبد الله بن سلام بالسوق وعلى رأسه حزمة من حطب، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن أدفع الكبر، وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال حبة من كبر».

أبو هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا كان يوم القيامة فأول من يدعى رجل جمع القرآن، فيقول الله له: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي، فيقول: بلى يا رب، فيقول: ماذا عملت فيما علمت، فيقول: يا رب كنت أقوم به الليل والنهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ وقد قيل ذلك، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء»، ثم يدعى بصاحب المال فيقول له: عبدي ألم أنعم عليك، ألم أفضل عليك، ألم أوسع عليك، فيقول: بلى يا رب، فيقول: فماذا عملت فيما أتيتك، فيقول: يا رب كنت أصل الرحم، وأتصدق، وأفعل وأفعل، فيقول له: كذبت، بل أردت أن يقال: فلان جواد وقد قيل، اذهب فليس لك اليوم عندنا شيء»، ثم يدعى بالمقتول فيقول الله له: عبدي فيم قتلت، فيقول: يا رب فيك وفي سبيلك، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جريء وقد قيل، اذهب فليس اليوم عندنا شيء»، قال أبو هريرة: ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليظهرن هذا الدين حتى يجاوز البحار[١٦٤] وحتى تخاض[١٦٥] البحار بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي قوم يقرؤون القرآن يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا وأعلم منا، ثم التفت إلى[١٦٦] أصحابه فقال: هل

---

(١٦٢) بسحرٍ : بسحر، ي. انظر: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث رقم ٣١.

(١٦٣) والمنان : ولامنان، م ي.

(١٦٤) يجاوز البحار : يجوز البخار، م ي.

(١٦٥) تخاض : يخوض، م ي.

(١٦٦) راجع مسند البزار : البحر الزخار حديث رقم ١٣٢٣.

في أولئك من خير»؟ قالوا: لا، قال: «أولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عرض علي أول ثلاثة من أمتي يدخلون النار، وأول ثلاثة من أمتي يدخلون الجنة، فأول من يدخل من الثلاثة الجنة: الشهيد، وعبد مملوك لم يشغله رزق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال[١٦٧]، وأول ثلاثة يدخلون النار: أمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله من ماله، وفقير فجور»[١٦٨].

أبو برزة الأسلمي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن من أمتي من يشفع لأكثر من ربيعة ومضر، وإن من أمتي لمن يعظم للنار[١٦٩] حتى يكون زاوية من زواياها».

زيد بن أسلم عن أبيه قال: دخلت على عمر وهو يبكي فسألته عن ذلك فقال: ذكرت قومًا من هذه الأمة يتشبهون بالعلماء وقد وعوا ما قالته الأنبياء عليهم السلام ضحاكين لا لعانين، لا لله يخشون، ولا للناس يستحيون، هم وأشياعهم أول خلق الله يشد بهم أركان جهنم فينادون: وا صلاتاه، وا صياماه وا زكاتها، وا حجاه، فما يجابون ولا يغاثون».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يَجَأُ بها بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا».

سالم بن أبي الجعد قال: كنت جالسًا عند ابن عباس بالمدينة إذ أتاه رجل فقال: يابن عباس ما ترى في رجل قتل رجلًا متعمدًا؟ قال: جزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا، والذي نفسي بيده لقد نزلت فما نسختها آية حتى قبض الله نبيكم.

أبو الزبير عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إياكم والزنا فإن في الزنا ست خصال: ثلاث في عاجل الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما الثلاث اللواتي في الدنيا: فإنه يذهب بالبهاء، ويقطع الرزق من السماء، ويعجل الفناء، وأما الثلاث اللواتي في الآخرة: فسوء الحساب، وسخط الرحمن، وخلود النيران».

---

(١٦٧) مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٣٥٩٦٩.

(١٦٨) كذا في سنن البيهقي الكبرى حديث رقم ٧٢٢٧، وفي مصنف ابن أبي شيبة [فخور] حديث رقم ٣٥٩٦٩.

(١٦٩) كنز العمال حديث رقم ٣٤٤٧١.

وروى حذيفة أقرب[١٧٠] من ذلك وزاد: ثم تلا: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠].

واصل عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك»، قال: فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۞ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩].

وعن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ من اليمن وقد بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إني رسول رسول الله إليكم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تطيعوني ولا آلوكم[١٧١] خيرًا، وأن المصير إلى الله وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعنٌ، وخلود فلا[١٧٢] موت.

أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فينادي منادٍ[١٧٣]: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرفون وينظرون وكلهم قد رآه فيقولون: نعم هذا الموت، ثم يؤخذ فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، وذلك قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ[١٧٤] إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ [مريم:٣٩]»، قال: أهل الدنيا في غفلة.

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يؤتى بالموت يوم القيامة فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة أيقنوا بالخلود، ويا أهل النار أيقنوا بالخلود، فيزداد أهل النار حزنًا وأهل الجنة سرورًا».

معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، ويباهي به المجالس، لم يرح رائحة الجنة».

---

(١٧٠) أقرب: أهون، م ي.

(١٧١) آلوكم: آليكم، م ي.

(١٧٢) انظر الزهد والرقائق لابن المبارك حديث رقم ١٥٦٦.

(١٧٣) منادٍ: منادي، م ي.

(١٧٤) في م ي: يوم يحشرون. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

ابن مسعود [أسند][١٧٥] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [ظهره] بمنى إلى قبة[١٧٦] من أدم[١٧٧] ثم قال لأصحابه: «أترضوا أن تكونوا ثلث أهل الجنة»؟ قالوا: بلى، قال: «والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وسأحدثكم بقلة المسلمين في الكفار يوم القيامة، مثل شعرة سوداء في جلد ثور أبيض، أو شعرة بيضاء في جلد ثور أسود، ولن يدخل الجنة إلا نفس مسلمة».

وعن يزيد الرقاشي قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠]، فقال: «غل والله ابن آدم فليس بمفكوك حتى يرضى الله، والله لا يرضى الله حتى يطاع، والله ما الطاعة إلا في الدنيا».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة حسود»، عدي بن حرام رواه أبو بكر الصديق.

ابن عباس عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني ممسك[١٧٨] بحجزكم: هلموا عن النار وتغلبوني، تقاحمون[١٧٩] فيها تقاحم الفراش[١٨٠] وأوشك أن أرسل حجزكم وأفرط لكم على الحوض وتردون علي معافا ومبتلى، فأعرفكم بأسمائكم وسماتكم كما يعرف الرجل الغريبة من الإبل في إبله، ويُذهب بكم ذات الشمال وأناشِدُ فيكم رب العالمين فأقول: أي رب رهطي، أي رب أمتي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثُغاء[١٨١] ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك شيئًا قد بلغت، قد بلّغت، ولأعرفن[١٨٢] أحدكم يوم القيامة يحمل بعيرًا له رغاء ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لكم من الله شيئًا، قد بلّغت، ولأعرفن أحدكم يحمل فرسًا له حمحمة ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا

---

(١٧٥) راجع التصويبات في مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٢٩٩.

(١٧٦) قبة : قبلة، م ي.

(١٧٧) أدم : أديم، ي.

(١٧٨) ممسك : أمسككم، م ي.

(١٧٩) تقاحمون : فيتقاحمون، م ي.

(١٨٠) تقاحم الفراش : اقتحام الفراس، ي.

(١٨١) ثُغاء : يغاء، ي.

(١٨٢) ولأعرفن : ولا أعرفن، م ي.

أملك لك من الله شيئًا قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يوم القيامة يحمل قَشْعًا[١٨٣] من أدم ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا، قد بلّغت».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يبعث مناديًا يوم القيامة فينادي: يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثًا من ذريتك إلى النار، فيقول: آدم كم وكم؟ فيقول: من كل مائة تسعة وتسعين، فيقول له رجل من القوم: فمن الناجي منا بعد ذلك؟ فأقول: ما أنتم في الناس إلا[١٨٤] كالشامة في صدر البعير».

شعر:

يقـول النـاس لـي رجـل شـديد ... ومـا فعلـي بفعـل فتًـى سـديدِ
إذا مـا كنـت لا أخشـى وعيـدًا ... فمـا يغنـي مقالـي بالوعيـدِ

أنشد أبو عمرو الباهلي[١٨٥]:

نعيـب القـول بالإرجـاء حتـى ... نـرى بعـض الرجـاء مـن الجرائـر
وأعظـمُ مـن أخـي الإرجـاء عيبًـا ... وعيـدِيٌّ يُصِرُّ علـى الكبائـر

مبحث في أن استحقاق الوعيد بالذنب وأنه لا عقوبة إلّا بجريمة

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]، وقال: ﴿فَكُلاًّ[١٨٦] أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت:٤٠] ونظائرها يكثر في الكتاب.

ومن الآثار في ذلك: ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، لا يؤاخذ الرجل بجريمة أبيه ولا بجريمة أخيه».

---

(١٨٣) القَشْعُ: القِرْبة اليابسة. الصحاح (ق ش ع).
(١٨٤) إلا : إلى، ي.
(١٨٥) راجع العواصم والقواصم ٢/ ٢٧٤، وربيع الأبرار ونصوص الأخيار ١/ ٢٤٧.
(١٨٦) في م ي: وكل. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

أبو رمثة التيمي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعي ابن لي فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ابنك هذا»؟ قلت: نعم، فقال: «إما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه».

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أراد أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه[١٨٧] منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

المغيرة عن عبد الله بن أبيه قال: قلت: يا رسول الله نبئني بعمل يدخلني الجنة وينحيني من النار، قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وتأتي الناس بما تحب أن يؤتى إليك، وتكره أن يؤتى إلى الناس ما تكره أن يؤتى إليك».

أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تراحموا[١٨٨]»، قالوا: كلنا رحيم، قال: «إنه ليس رحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة».

عكرمة عن ابن عباس قال: القدر بحر عميق فقفوا[١٨٩] عند أدناه لا تقولوا: إن الله جبر العباد على المعاصي فتظلموه، ولا تقولوا: إن الله لم يعلم ما العباد عالمون، فتجهِّلوه، ولكن رجل امتحن الله قلبه للتقوى قال: إن عذَّبَ فبذنب، وإن عفا فبفضل، فذلك الذي امتحن الله قلبه للتقوى، لم يجهِّل الله في علمه، ولم يظلمه في خلقه.

الحسن قال: خطب أبو هريرة على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يعتذر الله تعالى إلى آدم يوم القيامة ثلاث معذرات: يقول: يا آدم لولا أني لعنت الكاذبين وأبغض الكذب وأعذب عليه لرحمت اليوم ذريتك أجمعين من شدة ما أعددت[١٩٠] لهم من العذاب، ولكن حق القول مني لأملأن جهنم ممن كذب رسلي وعصى أمري، ويقول الله: يا آدم إني لا أدخل من ذريتك النار أحدًا ولا أعذب منهم في النار إلا من قد علمت أني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه ولم يرجع ولم يعتب، ويقول الله: يا آدم قد جعلتم حكمًا بيني وبين ذريتك، قم عند الميزان فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم، فمن رجح منهم خيره على شره مثقال ذرة فله الجنة حتى تعلم[١٩١] أني لا أدخل إلا كل ظالم».

---

(١٨٧) كذا في مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٣٧١١٠ ومسند أحمد حديث رقم ٦٨٠٧.

(١٨٨) المستدرك للحاكم حديث رقم ٧٣١٠.

(١٨٩) انظر المطالب العالية من العلم الإلهي ٩/ ٣٧٢.

(١٩٠) ينظر تاريخ دمشق ٧/ ٤٥٤.

(١٩١) تعلم: يعلم، م ي.

عن الحسن قال: يعذب الله العباد بذنوبهم ثم يعتذر إليهم فيقول: ما ظلمنا ولكن كانوا هم الظالمين.

الحسن: يا ابن آدم لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فالذي عن يمينك يكتب حسناتك، والذي عن شمالك يكتب سيئاتك فأعمل يا ابن آدم [بما شئت] أقلل أو أكثر، فإذا مت طويت صحيفتك ثم قلدتها في عنقك، وقرأ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا..﴾ الآية إلى ﴿حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]، ثم قال الحسن: يا ابن آدم لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك، إن أقوامًا باتوا وأقلامهم تجري في دماء المسلمين وأموالهم، ثم قالوا: إنما جرت أقلامنا على أقلام الله، وكذبوا، والله إن أقلام الله تجري بالبر والتقوى ولا تجري بالإثم والعدوان، أفأكون على الله جهلة(١٩٢) بالله، كذبة على الله، زعموا أن الله أسر عندهم(١٩٣) ما نهاهم عنه في العلانية، لقد اغتشوا(١٩٤) ربهم واتهموه وقالوا قولًا عظيمًا، والله لو أن العباد عملوا بما أمرهم به الله لأدخلهم الله الجنة، ولكن عملوا بما نهاهم عنه فأدخلهم جهنم.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن ملكًا موكلًا بالميزان، فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإذا ثقل ميزانه نادى الملك: سعد فلان سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، وإن خف ميزانه نادى الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا».

قالت العدلية: إن الله تعالى لا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يعاقب أحدًا بذنب غيره عقلًا وشرعًا.

وقالت الأشعرية: يجوز أن يعاقب من غير ذنب، ويجوز أن يعاقب النبيين ويثيب الفراعنة والكفار، وهذا جهل بالله وافتراء عليه، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

مطلب في ذم المرجئة

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤]، حكى الله تعالى عن اليهود الإرجاء على

(١٩٢) جهلة : جهالة، م ي.

(١٩٣) أسر عندهم : يسر عنهم، م ي.

(١٩٤) انظر محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ٢/ ٤٤١.

ما بين في كتابه، وقيل: إنهم كانوا يقولون: يعاقب على قدر سني الدنيا ثم يخرج، وقيل: كانوا يقولون: يعاقب على قدر سني المعاصي، فذمهم الله تعالى، وبيّن أن الوعيد[١٩٥] جاء بخلاف ذلك، وأن العذاب يزيد، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١] ونظيرها.

من الآثار: ما روى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل أمة يهود، ويهود هذه الأمة المرجئة».

ابن عباس ومعاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صنفان من أمتي لا سهم لهما في الإسلام: أهل القدر، وأهل الإرجاء».

ابن عباس: اتقوا هذه الإرجاء فإنها شعبة من النصرانية.

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لم يبعث نبيًا قبلي فأجمع له أمر أمته إلا كان فيهم قدرية ومرجئة يفسدون ويشوشون عليه أمر أمته من بعده، ألا وإن الله تعالى قد لعن القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيًّا» في الخبر إشارة إلى أنهما يفسدان أمر الناس؛ لأن القدرية تقول: ليس إلينا شيء، فما يجري على أيدينا فهو قضاء الله وقدره، فيتكل الناس على ذلك، والمرجئة تقول: الذنوب كلها مغفورة فيغرون بالمعاصي.

حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيًا»، قيل: يا رسول الله ومن القدرية؟ قال: «قومٌ يعملون بالمعاصي ويقولون: إن الله قدرها عليهم»، قيل: ومن المرجئة؟ قال: «قوم يقولون: الإيمان قول[١٩٦] بلا عمل».

مجاهد قال: يكونون مرجئة، ثم يكونون قدرية، ثم يكونون مجوسًا.

المغيرة عن إبراهيم قال: ذكروا عنده الإرجاء قال: هو الرأي المحدث.

عطاء عن ابن عباس قال: كلام القدرية كفر، وكلام الرافضة هلكة، وكلام المرجئة ضلالة. ولا أعلم الحق إلا في قوم أرجأوا[١٩٧] ما غاب عنهم إلى الله وفوضوا أمرهم إلى الله.

عطاء بن السائب قال: ما رأيت إبراهيم على أحد من أصحاب الأهواء أشد منه على أصحاب الإرجاء.

---

(١٩٥) الوعيد: الوعد، ي.
(١٩٦) قول: قولا، ي.
(١٩٧) أرجأوا: أرجوا، ي.

طلحة بن عمرو قال: رأيت عطاء بن أبي رباح قال لرجل: قم عني، فقلت: ما هذا؟ قال: أفرط في الإرجاء.

إبراهيم قال: المرجئة أخوف عندي على أهل الإسلام من الأزارقة.

سعيد بن جبير: المجبرة يهود القبلة.

وروى أبو حامد الأسفراييني بإسناده عن عمرو بن عبيد، عن أبي[١٩٨] حمزة الأعور قال: أتيت إبراهيم فقلت: إن ناسًا يقولون: قد تابعت إبراهيم التيمي على رأيه، قال: فضحك، وقال: تراني مرجئًا سبابًا، وما من أهل القبلة أحد عندي أضل من المرجئة.

وسئل أحمد بن حنبل عن الإرجاء فقال: من قال: الإيمان قول.

وقيل: أصل الإرجاء خرج من اليهود حيث قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠].

وناظر عمرو بن عبيد أبا عمرو بن العلاء بمكة في الإرجاء، فقال أبو عمرو: لا أقول: إنك أعجمي القلب ولكن أعجمي اللسان، أما تعلم أن العرب تمدح بخلف الوعيد حيث تقول:

وإني إن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فقال عمرو: يا أبا عمرو قد شغلك الإعراب عن معرفة الصواب، إن الشاعر قد يكذب والله أصدق القائلين، وقد قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقد قال شاعرهم:

إن أبا ثابت لمجتمع الرأ ... ي شريف الآباء والبيت
لا يخلف الوعد والوعيد ولا ... يبيت من ناره على فوتِ

أيوب السختياني: أنا أكثر من الإرجاء.

وقيل: أول من وضع الإرجاء الحسن بن محمد بن علي.

وروى حماد بن سلمة بإسناده عن زيدان وميسرة قالا: أتينا الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب وقلنا: ما هذا الكتاب الذي وضعت؛ يعني كتاب المرجئة؟ قال زيدان: فقال الحسن: لوددت أني كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب.

---

(١٩٨) أبي: أبو، ي.

وعن أبي حازم الأعرج: لعن الله دينًا أنا أكبر[١٩٩] منه؛ يعني الإرجاء.

وعن أيوب قال لي سعيد بن جبير: لم أرك مع طَلْقٍ[٢٠٠]؟ قال: [قلت]: بلى فما له؟ قال: لا تجالسه[٢٠١] فإنه مرجئ، قال أيوب: وما شاورته في ذلك ولكن يحق للمسلم[٢٠٢] إذا رأى من صاحبه ما يكره أن يأمره وينهاه.

وعن المغيرة قال: سلم التيمي على إبراهيم النخعي فلم يرد عليه. وسلم ذر على سعيد بن جبير فلم يرد عليه، فقيل له: ولم؟ قال: لأنهما كانا يريان الإرجاء، زعموا أن الصلاة ليست من الإيمان، إنما الإيمان قول.

مطلب في ذم المبتدع

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ [البقرة:٢٠٤].

حميد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من وقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

وعن الحسن بن إبراهيم بن ميسرة: ومن وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام.

أيوب السختياني قال: قال لي قلابة: يا أيوب احفظ عني ثلاث خصال: إياك وأبواب السلاطين، وإياك ومجالسة أصحاب الأهواء، والزم سوقك[٢٠٣] فإن الغنى من العافية.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة».

عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعائشة: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:١٥٩] إنهم أصحاب البدع وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، يا عائشة إن لصاحب كل ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع، فإنهم ليست لهم توبة، أنا منهم بريء، وهم مني أبرياء».

---

(١٩٩) انظر مسند أحمد حديث رقم ٦٧٠٣.

(٢٠٠) طَلْقٍ: طالق، ي.

(٢٠١) انظر كتاب السنة لأبي بكر بن الخلال حديث رقم ١٣٤٧.

(٢٠٢) يحق للمسلم: لحق الإسلام، م ي.

(٢٠٣) انظر شعب الإيمان حديث رقم ١٢٠٤.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله لن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته».

ابن مسعود قال: إن الله تعالى قال لا يقبل من صاحب بدعة صومًا ولا صلاة ولا حجًا ولا عمرة، إنه رد على الله سنته فرد الله عليه بدعته.

الحسن قال: لا يقبل الله من صاحب بدعة شيئًا.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الأمر المفْظِع[٢٠٤]، والحمل المضلع، والشر الذي لا ينقطع: إظهار البدع».

أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في أهل البدع: «شر الخلق والخليقة».

أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كلاب أهل النار أهل البدع».

الحسن: ليس في أهل البدع غيبة.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان له من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

ابن أبي فديك بإسناده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من ابتدع بدعة لا يرضاها الله تعالى ورسوله كان عليه مآثم من عمل بها من الناس لا ينقصهم ذلك شيئًا».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سيأتي بعدي رجال يطفئون السنة ويحيون البدعة».

جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الناس داخلون في دين الله أفواجًا، وسيخرجون من دين الله أفواجًا».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عمل قليل في سُنَّةٍ خير من كثير في بدعة».

وقال عليه السلام: «إياكم ومحادث الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

---

(٢٠٤) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٣١٩٤.

قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فخشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب، وثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب الله تعالى، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت ليذل من أعزه الله ويعز من أذله الله، والمستحل لما حرم الله، والمستحل [من عترتي][٢٠٥] ما حرم الله، والتارك لسنتي» روته عائشة عنه.

مطلب في فضل الاعتزال

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ [مريم:٤٨]، ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ [الكهف:١٦]. فلم يذكر هذه اللفظة إلا لمن اعتزل [المنكر]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، أبرها وأتقاها الفئة المعتزلة».

وعن سفيان بن عيينة قال: قدم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام علينا مكة، وقدم في تلك السنة عمر بن عبيد وجمع بينهما، فقال جعفر لعمر: اعرض عليّ مقالتك، قال: فعرض عليه مقالته، قال: هذا ديني ودين آبائي فتمسك به.

مطلب في الإحباط والتكفير

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ[٢٠٦]﴾ [الحجرات:٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في حديثة: «وإنَّ قذف المحصنة ليهدم عمل مائة سنة».

---

(٢٠٥) سنن الترمذي حديث رقم ٢١٥٤.

(٢٠٦) في م ي: أعمالهم. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

وعن سهل بن عبد الله قال: إن الأمراض(٢٠٧) والأسقام والأحزان والمصائب إنما هي كفارات الصغائر، فأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة، ومثله مثل حبر يصيب الثوب ولا يقطعه إلا الصابون الحاد والمعالجات بالخل والأُشْنَان(٢٠٨) وغير ذلك، ومثل الصغائر كمثل قليل دَبْس يصيب(٢٠٩) الثوب فيذهب بالريق وقليل الماء، فقيل: يا أبا محمد أليس قد روي أن المصائب كفارات وأجر، فضحك وقال: إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب تكون كفارة وأجرًا كليهما.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من مشى مع ظالم يعينه وهو يعلم أنه ظالم قد خرج من الإسلام» يعني بالفسق.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» يعني دخل في حد الفسق.

واختلفوا في الموازنة والإحباط، فقال أبو علي: بالإحباط والتكفير، وقال أبو هاشم: بالموازنة.

واختلف فيما يقع فيه التقابل قيل: في الثواب والعقاب، وهو مذهب أكثر أصحابنا وأبي هاشم، وقيل: في الأعمال وهو مذهب الإخشيدية، والله أعلم.

مبحث في الإيمان والكلام في المنزلة بين المنزلتين

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١] الآيات، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقد اختلف الناس في الإيمان؛ فقيل: هو الإقرار باللسان فقط، وقيل: هو الإقرار والمعرفة، وقيل: هو المعرفة، وقيل: الإقرار والتصديق، وقيل: الإيمان الإقرار والمعرفة وعمل الفرائض والانتهاء عن المنهي، وهو مذهب أصحابنا، ومنهم من قال: النوافل من الإيمان، ومنهم من لا يعد ذلك فيه، والأول هو الصحيح، والآيات دالة على أن الأعمال من الإيمان.

(٢٠٧) الأمراض: الأمر امن، م ي. انظر حلية الأولياء ١٠/ ١٥٤.

(٢٠٨) الأُشْنَان: شيء يغسل به اليد حمضي اللسان (أشن).

(٢٠٩) دَبْس يصيب: دنس يصير، م ي. انظر حلية الأولياء ١٠/ ١٥٤.

ومن الآثار: ما روى أبو بكر الأصم في تفسيره في قوله في المجادلة: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ [المجادلة:٤] أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ثم قال: «والذي نفسي بيده لا تؤمنوا حتى تؤمنوا بالكفارة، وتلا هذه الآية وقال: الإيمان قول وعمل».

وحدثنا أبو حامد النجار بإسناده عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، ومعرفة بالقلب».

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا أبا هريرة، كن ورعًا تكن[٢١٠] أعبد الناس، وكن قنعًا تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنًا، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا».

والإيمان والإسلام وإن اختلف اللفظ في اللغة؛ فالمعنيّ في الشرع بهما شيء واحد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، والإيمان مقبول، وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦].

وعن علقمة بن الحرث قال: قدمت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنا سابع سبعة من قومي، فسلمنا عليه فرد علينا، فكلمناه فأعجبه كلامنا، فقال: «ما أنتم»؟ قلنا: نحن مؤمنون، قال: «فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانكم»؟ قلنا: خمس عشرة خصلة: خمس أمرتنا بها، وخمس أمرنا بها رسلك، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية ونحن عليها إلى الآن إلا أن ينهانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «وما الخمس اللاتي أمرتكم بها»؟ قالوا: أمرتنا أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، قال: «وما الخمس التي أمرتكم بها رسلي»؟ قلنا: أمرتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، ونقيم الصلاة المكتوبة، ونؤدي الزكاة المفروضة، ونصوم شهر رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلًا، قال: «وما الخصال التي تخلقتم بها في الجاهلية»؟ قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والصدق في مواطن اللقاء، والرضى بمر القضاء، وترك الشماتة إذا حلت بالأعداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فقهاء أدباء كادوا يكونون أنبياء من خصال ما أشرفها»، وتبسم إلينا ثم قال: «وأنا أوصيكم بخمس خصال لتتكامل لكم خصال الخير: لا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا فيما أنتم فيه تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تقدمون، وارغبوا فيما إليه تصيرون وفيه تخلدون».

---

(٢١٠) انظر مسند الشاميين للطبراني حديث رقم ٣٨٥.

وعن محمد بن كعب قال لعمر بن العزيز: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله: من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له».

وحدثنا قاضي القضاة بإسناده عن جابر قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أي الإسلام أفضل؟ قال: «أن يسلم المسلمون من يدك ولسانك»، قال: وأي الجهاد أفضل؟ قال: «أن يهراق[٢١١] دمك ويعقر جوادك»، قال: فأي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن، الإيمان أكرم على[٢١٢] الله من ذلك».

وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سباب المؤمن فسق وقتله كفر»، وفي الخبر دليل على المنزلة.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه، والمهاجر من هجر السوء».

قتادة عن أنس: لا يؤمن عبد بالله ورسوله حتى يرضى لأخيه المسلم ما يرضاه لنفسه.

المقبري[٢١٣] عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «رجل لا يأمن جاره بوائقه» قال: شره.

أوس بن شرحبيل[٢١٤] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من مشى مع ظالم وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام».

علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان والعمل أخوان شريكان في قرب، لا يقبل الله أحدهما إلا بالآخر».

---

(٢١١) انظر المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ١٤٤٤٣.

(٢١٢) كنز العمال حديث رقم ١٣٢٥.

(٢١٣) انظر مسند أحمد حديث رقم ٧٨٧٨.

(٢١٤) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم ٦١٩.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان يزيد وينقص».

وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه، عن جده عبيد وكانت له صحبة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة، ومن وافى(٢١٥) الله منها بشريعة(٢١٦) دخل الجنة».

ابن مسعود: يخرج في آخر الزمان أحداث الأسنان سفهاء الأحلام يقرؤون القرآن لا يجاوز(٢١٧) تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

عمار: لا تقولوا: كفر أهل الشام، ولكن قولوا: ظلموا وفسقوا.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، وذلك دأب الأشقياء الفجار».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «التجار هم الفجار»، قيل: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع؟ قال: «بلى، ولكنهم يتحدثون ويكذبون ويحلفون ويأثمون».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي(٢١٨) إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يسمى عند الله كاذبًا».

أبو بكر الصديق: إياكم والكذب فإنه مجانب الإيمان.

ابن مسعود: أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين(٢١٩) أقوام لا دين لهم.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن للإسلام ضوءًا ومنارًا كمنار الطريق، من

---

(٢١٥) وافى: أوفى، م ي.
(٢١٦) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة حديث رقم ١٦٣٤.
(٢١٧) مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ١٧٥.
(٢١٨) انظر موطأ مالك ٢/ ٩٨٩.
(٢١٩) الكشاف ١/ ٧٤٣.

ذلك أن تعبدَ الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت، والسمع والطاعة، والجماعة، والحكم بالكتاب، وإقامة الحدود، والجهاد في سبيل الله، وحسن الوضوء إذا توضيت، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتسلم على أهلك إذا دخلت عليهم، وتسلم على القوم إذا مررت بهم، وإن ردوا عليك ردت الملائكة عليهم، وإن لم يردوا ردت الملائكة عليك ولعنتهم أو سكتت[٢٢٠] عنهم، فمن ترك شيئًا من ذلك فقد ترك سهمًا من سهام الإسلام، ومن ينبذ ذلك كله فقد ولى الإسلام وراء ظهره».

واثلة بن الأسقع قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون»، قال: قلت: يا رسول الله كيف لي أن أعلم ذلك؟ قال: «ضع يدك على قلبك فإن القلبَ يسكن للحلال ولا يسكن للحرام»، قال: قلت: يا رسول الله فمن المؤمن؟ قال: «الذي يأمنه الناس على أموالهم»، قال: قلت: يا رسول الله فمن الحريص؟ قال: «الذي يطلب المعيشة من غير حلها»، قال: قلت: يا رسول الله فمن المسلم؟ قال: «من سلم المسلمون من يده ولسانه»، قال: قلت: يا رسول الله أي الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جبار».

أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مثل هذا الدين كمثل شجرة نابتة، الإيمان أصلها، والزكاة فرعها، والصلاة ماؤها[٢٢١]، والتآخي عروقها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله ثمرتها، فكما[٢٢٢] لا يكمل هذه الشجرة إلا بثمر طيب، فكذلك لا يكمل الإيمان إلا بالكف عن محارم الله».

وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا».

عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام نظيف، فتنظفوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف».

وروى أبو عبد الله المكي عن جابر، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث

(٢٢٠) ينظر مسند الشاميين للطبراني حديث رقم ٤٢٩.

(٢٢١) انظر جامع أحاديث الشيعة ١٣/ ٣٢٢.

(٢٢٢) فكما: فكلما، م ي.

من كن فيه فليس مني ولست منه: نصب[٢٢٣] وبغض أهل بيتي[٢٢٤]، ومن قال: الإيمان كلام».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان سربال يسربله الله من شاء، فإذا زنى العبد نزع منه سربال الإيمان وإن تاب رد عليه.

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «خمس من الإيمان بالله، من لا يكون فيه واحدة منهن فلا إيمان له: الرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله، والتفويض إلى الله، والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى، وإن للإسلام ضياء وعلامات كمنار الطرق، فرأسها وجماعها[٢٢٥] ونظامها لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحكم بالكتاب، وطاعة أولي الأمر منكم، وتسليمكم على نفوسكم، وتسليمكم على بيوتكم إذا دخلتموها، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتموهم».

وروى العباس بن عبد المطلب، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا».

وروى أبو يحيى البزار بإسناده عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب».

سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ست من خصال الإيمان، وست من خصال السحت، فالست التي من خصال الإيمان: قتال أعداء الله قدمًا بالسيف، والصوم في شدة أيام الصيف، وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي، وتعجيل صلاة العصر في يوم الغيوم، وترك المراء وأنت محق، والصبر عند المصيبة. والست من خصال السحت: رشوة الإمام وهو أخبث من ذلك كله، وثمن الكلب، وعسب[٢٢٦] الفرس، وثمن البغي، وكسب الحجام، وحلوان الكاهن».

وفي وصيته صلى الله عليه وآله وسلم: «يا علي للمؤمن ثلاث علامات: الصلاة، والزكاة، والصيام، وللمتكلف ثلاث علامات: يتملق إذا حضر، ويغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة، وللظالم ثلاث علامات: يقهر من دونه بالغلبة، ومن فوقه بالمعصية، ويظاهر الظلمة، وللمرائي

---

(٢٢٣) انظر شرح إحقاق الحق ٢١/ ٦٥٠.

(٢٢٤) بيتي: بيته، م ي.

(٢٢٥) الدر المنثور ٦/ ١٦٧.

(٢٢٦) عسب: كسب، ي. انظر سنن ابن ماجة حديث رقم ٢١٦٠.

ثلاث علامات: ينشط[٢٢٧] إذا كان عند الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في جميع أموره، وللمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، يا علي من منع قيراطًا من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا مسلم[٢٢٨] ولا كرامة».

سليمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تبغضني فتفارق دينك»، قلت: كيف أبغضك وبك هدانا الله؟ قال: «تبغض العرب فتبغضني[٢٢٩]».

أنس بن مالك قال: قال: ما خطبنا نبينا عليه السلام إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانه[٢٣٠] له، ولا دين لمن لا عهد له».

أبو هريرة وعبد الله بن أبي أوفى، وعائشة، وابن مسعود، وأبو سعيد الخدري، وابن عباس، كلهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، قيل: يا رسول الله كيف نصنع إذا وقع شيء من ذلك؟ قال: «إن ترجع التوبة رجع الإيمان، وإن لم يتب لم يكن مؤمنًا».

أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في قوم يخرجون من هذه الأمة، فذكر صلاتهم وصومهم وزكاتهم: «يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

وعن مصعب بن سعد: سألت أبي عن هذه الآية ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤] الحرورية؟ قال: لا ولكنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى، ولكن الحرورية ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧]، وكان سعد يسميهم الفاسقين.

جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي عليه السلام أنه سمع يوم صفين رجلًا يغلو ويكفّر، فقال علي: لا تقل ذلك، إنما هم قومٌ بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم.

أبو وائل قال: قال رجل يوم النهروان: من دلنا على البغلة الشهباء يوم قاتلنا المشركين؟ فقال علي: من الشرك فروا[٢٣١] قال: فمنافقون هم؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلًا، قال: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلونا فقاتلناهم فنصرنا عليهم.

---

(٢٢٧) ينشط: يبسط، م ي.

(٢٢٨) مسلم: مسلام، ي. انظر الحدائق الناضرة للمحقق البحراني ١٢/ ٨.

(٢٢٩) انظر سنن الترمذي حديث رقم ٣٩٢٧.

(٢٣٠) انظر مسند أحمد حديث رقم ١٣٦٣٧.

(٢٣١) الشرك فروا: المشرك فروى، ي.

ثور بن زيد عن عبد الرحمن الشامي أن عمي قال يومًا لأصحابه: ما يقيم لنا وجوهنا عند ربنا ويبلغنا رضوانه؟ قالوا: الصلاة، قال: قد يصلي البر والفاجر، قالوا: فالجهاد، قال: قد يجاهد البر والفاجر، فلما رآهم لا يصيبون ما يريد قال: إنما يقيم لنا وجوهنا عند ربنا ويبلغنا رضوانه أداء ما افترض علينا والورع عما حرم الله علينا، وصدق النيّة، فذلك الذي يقيمنا عند ربنا.

عبد الله بن عمرو قال: يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد ويصلون ما فيهم مؤمن.

عمر بن الخطاب قال: تزعمون أنكم مؤمنون وفيكم مؤمن جائع.

وعن قتادة أنه تلا: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، قال: قاتل الله أقوامًا يزعمون أن المؤمن يكون خاسرًا أو يكون ضالًا أو يكون فاسقًا، المؤمن ولي الله.

علي بن أبي طالب: إن أفضل ما توسل به المتوسلون: الإيمان بالله وبرسوله، والجهاد في سبيل الله، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وتمام الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها من فرائض الله، وصوم رمضان فإنه جُنَّةٌ[٢٣٢] من عذابه، وحج البيت فإنه منفية للفقر مدحضة للذنوب، وصلة الرحم فإنها مثراة للمال منسأة للأجل، وصدقة السر فإنها تكفِّر الخطيئة وتُطفئ غضب الرب، وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء، وجانب الكذب فإنه مجانب للإيمان.

يحيى بن معاذ: الإيمان نقي فلا تدنسوه بآثامكم، والليل طويل فلا تقصروه بمنامكم، والأيام قصيرة فلا تخلوها من صيامكم.

وسئل إبراهيم بن السري عن محض الإيمان فقال: هجرة الذنوب.

الفضيل قال: الخير كله من الإيمان.

الحسن قال: الإيمان من خشي الله بالغيب، ورغب فيما رغبه الله، وزهد فيما زهده الله، ثم تلا: ﴿كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

شعر:

يا مؤمنًا بالله لا يتقي	آمنت في قولك لا فعلكا
كم ميت مات وأورثته	فانظر إلى نفسك من مثلكا

---

(٢٣٢) جُنَّةٌ: الجنة، ي.

شعر:

وإيمـانُ الموحـدِ ذو شـروطٍ فـإن لـم يرعهـا أمسـى خِداجـا
وليـس بمؤمـنٍ مـن لـم يُظاهـر سـريرتَه إذا مـا الله ناجـا

تمت أبواب الأصول، فلله الحمد والمنة.

فصل في الإلهيات

مبحث في الافتخار بالله

قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف:٣٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت:٣٠]، ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر:١٤].

ومما علقته على الفقيه أبي سعيد الفضل بن محمد رحمه الله تعالى قال: المفتخرون سبعة[٢٣٣]: مفتخر بالنار، ومفتخر بالأنهار، ومفتخر بالدار، ومفتخر بالدرهم والدينار، ومفتخر بالبساتين والأشجار، ومفتخر بالأحجار، ومفتخر بالملك الجبار، فكل من افتخر بغير الله صار ذلك وبالًا عليه.

أما المفتخر بالنار: فإبليس، قال: ﴿خَلَقۡتَنِى مِن نَّارٖ﴾ [الأعراف:١٢]، فعوقب بالنار، قال تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص:٨٥]، فخلق من النار ومرجعه إلى النار.

وأما المفتخر بالأنهار: ففرعون، قال: ﴿أَلَيۡسَ لِى مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِى مِن تَحۡتِىٓ﴾ [الزخرف:٥١]، فأغرق في تلك الأنهار، قال: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡيَمِّ﴾ [الأعراف:١٣٦].

وأما المفتخر بالدار: فقارون ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، قال تعالى: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص:٨١].

وأما المفتخر بالدرهم والدينار: فهم البخلاء، فيكون ذلك عذابهم، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ..﴾ الآية إلى قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:٣٥].

---

(٢٣٣) سبعة: شبعة، ي.

وأما المفتخر بالبساتين والأشجار: فقطروس[٢٣٤] مع أخيه المسلم يهوذا[٢٣٥]، قص الله تعالى نبأهما في الكهف: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ..﴾ [الكهف:٣٢] الآيات، ونظيره في سورة نون: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ..﴾ [القلم:١٧] الآيات، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢].

وأما المفتخر بالأحجار: فعبدة الأصنام: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف:٥٨]، ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص:٥]، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨].

وأما المفتخر بالملك الجبار: فهم المؤمنون، قوله: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ [رَبِّي]﴾ [الكهف:٣٨]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت:٣٠]، فجزاهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤].

ومن كلام يحيى بن معاذ: إلهي كل فرح لنا دونك منقطعة أفراحه، وكل شغل بسواك دائمة أتراحه، السرور بك السرور، والسرور بغيرك الغرور، أنت راحة الأرواح، وفي ذكرك ولائم الأفراح، ارحمني برحمتك وتجاوز عني بمغفرتك.

علي بن أبي طالب عليه السلام في مناجاته: كفى لي عزًا بأن أكون لك عبدًا، وكفى لي فخرًا بأن تكون لي ربًا، إلهي أنت لي كما أحب فاجعلني لك كما تحب.

وعن بعضهم: أهيم إذا طالعت إحسانك مرحًا، وأتيه إذا ذكرتك فرحًا، إحسانك لا يبلغه إحسان، وفعلك لا يبلغ وصفه إنسان.

شعر:

وسروري بك يا رب مقيم أبدا
فدعوني لست أبغي غير ربي أحدا

آخر:

إن عرفان ذي الجلال لفخرٌ وضياءٌ وبهجةٌ وسرورُ
وعلى العارفين أيضًا بهاءٌ وعليهم من المهابة نورُ
فهنيئًا لمن يحبك ربي أنت يا ربُّ للذنوبِ غفورُ

(٢٣٤) انظر الكشاف ٢/ ٧٢٠.

(٢٣٥) يهوذا: يهوداء م ي.

وعن وهب بن منبه قال: رأيت ستة نفرٍ من الصبيان افتخروا وتكلموا بكلمة حكمة، قال أحدهم: الله ربي فمن أعز مني، وقال الثاني: الإسلام ديني فمن أكرم مني، وقال الثالث: محمد نبيي فمن أشرف مني، وقال الرابع: القبلة كعبتي فمن أهدى مني، وقال الخامس: القرآن بضاعتي فمن أغنى مني، وقال السدِّي: المؤمنون إخواني فمن أقوى مني.

يحيى بن معاذ: إلهي عجبًا للعارف كيف ينظر إلى غيرك على ما يرى من نعمك، أو يكره الموت على ما يعرف من كرمك.

مبحث في ذكر الله تعالى وثواب الذاكرين

قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، الذِّكر في القرآن على وجوه:

منها: المراد به الصلاة، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران:١٩١]، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٢٠].

ومنها: الصلاة بالمزدلفة ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:١٩٨].

ومنها: التكبير في أيام التشريق ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣].

ومنها: التذكر بالقلب: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥]، قيل: يذكرون عقابه، وقيل: ذكروه بألسنتهم واستغفروا.

ومنها: الذكر باللسان: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

ومنها: التسمية ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٨]، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:١٢١]، وأعظم الأشياء: ذكر الله، قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وروى أبو يحيى البزار بإسناده عن ابن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: الصلاة والصيام، ذلك ذكر الله، فقال السائل: إني تركت رجلًا يقول غير هذا، قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله للعباد أكبر من ذكر العباد إياه، فقال: صدق والله صاحبك.

عطاء، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ(٢٣٦) أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢]، قال: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر، فأعاد عليه السائل فقال: أما تقرأ في القرآن ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منهم».

أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بذكري».

أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكيه عن ربه: «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأٍ ذكرتك في ملأٍ خير منهم، فإن دنوت مني شبرًا دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعًا، وإن مشيت إليّ هرولت إليك، وإن هرولت إلي سعيت إليك، وإن سألتني أعطيتك، وإن لم تسألني غضبت عليك».

وروى علي بن أبي طالب عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا بكر، إذا رأيت الناس تسارعوا في الدنيا فعليك بالآخرة، واذكر الله عند كل حجر ومدر يذكرك إذا ذكرته، ولا تحقرن أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير».

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من سره أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله».

وذكر أبو يحيى بإسناده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي المجاهدين أعظم أجرًا؟ قال: «أكثرهم ذكرًا لله»، قيل: فأي الصائمين أعظم أجرًا؟ قال: «أكثرهم لله ذكرًا»، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول: «أكثرهم لله ذكرًا» فقال أبو بكر: نعم يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أجل».

الخدري: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي العباد أفضل يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا»، قال: قلت: يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويخضب دمًا لكان الذاكرون الله كثيرًا أفضل منه درجة».

(٢٣٦) في م ي: اذكروني. وما أثبتناه من المصحف.

أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يرد الله دعاءهم[٢٣٧]: الذاكر الله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط».

جابر بن عبد الله قال: كان رجل يرفع صوته بالذكر، فقال رجل: لو أن هذا خفض من صوته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دعه فإنه أواه».

ابن مسعود قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أي أعمال أحب إليك أن أعمل؟ قال: تذكرني ولا تنساني.

كعب قال: قال موسى: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني، قال: فأنا أكون على حال أجلك أن أذكرك عليها من جنابة وغائط، قال: اذكرني على كل حال، والمراد قرب المنزلة، كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

عن مكحول عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تنسوا ربكم فينساكم، واذكروه على كل حال، فإن بنسيانه تقسوا القلوب، ولا تمنوا كثرة المال، فإن كثرة المال كثرة للذنوب».

الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: من شغله ذكري وقراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب ومن أن تلقوا غدًا عدوكم تضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم»؟ قالوا: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله».

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس بشيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله».

ابن عباس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة.

سلمان: إذا كان العبد يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فدعا الله قالت الملائكة: صوت معروف من آدمي ضعيف كان يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء، فيشفعون له، فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فدعا، قالت الملائكة: صوت منكر من آدمي ضعيف لم يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء، فأمسكوا.

(٢٣٧) انظر شعب الإيمان حديث رقم ٥٨٢.

عطاء، عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ[٢٣٦] أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، قال: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي.

وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر، فأعاد عليه السائل فقال: أما تقرأ في القرآن ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خير منهم».

أبو هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بذكري».

أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكيه عن ربه: «يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأٍ ذكرتك في ملأٍ خير منهم، فإن دنوت مني شبرًا دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعًا، وإن مشيت إليّ هرولت إليك، وإن هرولت إلي سعيت إليك، وإن سألتني أعطيتك، وإن لم تسألني غضبت عليك».

وروى علي بن أبي طالب عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا بكر، إذا رأيت الناس تسارعوا في الدنيا فعليك بالآخرة، واذكر الله عند كل حجر ومدر يذكرك إذا ذكرته، ولا تحقرن أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير».

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من سره أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله».

وذكر أبو يحيى بإسناده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل: أي المجاهدين أعظم أجرًا؟ قال: «أكثرهم ذكرًا لله»، قيل: فأي الصائمين أعظم أجرًا؟ قال: «أكثرهم لله ذكرًا»، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول: «أكثرهم لله ذكرًا» فقال أبو بكر: نعم يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أجل».

الخدري: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي العباد أفضل يوم القيامة؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا»، قال: قلت: يا رسول الله ومن الغازين في سبيل الله؟ قال: «لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويخضب دمًا لكان الذاكرون الله كثيرًا أفضل منه درجة».

---

(٢٣٦) في م ي: اذكروني. وما أثبتناه من المصحف.

أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة لا يرد الله دعاءهم[٢٣٧]: الذاكر الله كثيرًا، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط».

جابر بن عبد الله قال: كان رجل يرفع صوته بالذكر، فقال رجل: لو أن هذا خفض من صوته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دعه فإنه أواه».

ابن مسعود قال: قال موسى عليه السلام: يا رب أي أعمال أحب إليك أن أعمل؟ قال: تذكرني ولا تنساني.

كعب قال: قال موسى: يا رب أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى أنا جليس من ذكرني، قال: فأنا أكون على حال أجلك أن أذكرك عليها من جنابة وغائط، قال: اذكرني على كل حال، والمراد قرب المنزلة، كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

عن مكحول عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تنسوا ربكم فينساكم، واذكروه على كل حال، فإن بنسيانه تقسوا القلوب، ولا تمنوا كثرة المال، فإن كثرة المال كثرة للذنوب».

الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: من شغله ذكري وقراءة القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب ومن أن تلقوا غدًا عدوكم تضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم»؟ قالوا: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله».

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس بشيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله».

ابن عباس: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة.

سلمان: إذا كان العبد يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فدعا الله قالت الملائكة: صوت معروف من آدمي ضعيف كان يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء، فيشفعون له، فإذا كان لا يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء فدعا، قالت الملائكة: صوت منكر من آدمي ضعيف لم يذكر الله في السراء فنزلت به الضراء، فأمسكوا.

---

(٢٣٧) انظر شعب الإيمان حديث رقم ٥٨٢.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الشيطان واضع خرطومه في قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس، وإن نسي الله التقم قلبه».

ابن عباس: ما من مولود إلا وعلى قلبه الوسواس الخناس، فإذا غفل وسوس.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي»، قيل: معناه خير ذكر الله ما يخفى نحو قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، وقيل: المراد ذكر الرجل وصيته.

عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الذكر الذي لا يسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي يسمعه الحفظة بسبعين ضعفًا».

الحسن قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي العمل أفضل؟ قال: «أن تموت حين تموت ولسانك وشفتك رطبان من ذكر الله».

وعن معاذ أنه سأله عليه السلام فذكر نحوه.

وروي أن أعرابيين جاءا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أحدهما: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله»، وقال الآخر: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله».

جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله».

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالذكر حتى ظننت أنه لا ينفع قول إلا به».

علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أكثر ذكر الله أحبه الله».

أبو ذر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من يوم وليلة ولا ساعة إلا وفيها لله صدقة، وما تصدق على عبد بمثل ما يلهمه ذكره».

معاذ قال: أخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيدي يومًا وقال: «يا معاذ إني لأحبك»، فقال معاذ: وأنا والله أحبك، فقال: «لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

ومما حدثنا الشيخ الإمام بإسناده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَأَنْ أجلس مع قومٍ يذكرون الله من غدوة إلى طلوع الشمس أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس، ومن العصر إلى غروبها أحب إلي من كذا وكذا».

ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في دعائه: «اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا، لك رهابًا، لك مطيعًا، لك مخبتًا، إليك أواهًا منيبا»، ومعنى الخبر: وفقني لأن أكون كذلك.

ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، ففي غير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

عمرو بن عَنبسة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا آوى الرجل إلى فراشه طاهرًا على ذكر الله ثم توسد يمينه ثم تَعَارَّ من الليل لم يسأل الله شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله».

وعن معاذ عنه صلى الله عليه وآله وسلم نحوه.

الحكم بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من نام على تسبيح أو تهليل أو تكبير أو تحميد بعث عليه يوم القيامة، ومن نام على غفلة بعث بها يوم القيامة، فعودوا أنفسكم الذكر عند النوم وعند الموت».

شعر:

سرور القلب حب الله ... ونور القلب ذكر الله
وهمُّ الناس دنياهم ... وهمي في رضاء الله
وأُنسُ الناس دنياهم ... وأنسي خلوتي بالله
فلو عاينت مشتاقًا ... جفا لَيْلًا[٢٣٨] يناجي الله
لقلت العيش كل العيش ... ما فيه وليّ الله

معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى لمن أكثر في الجهاد[٢٣٩] من ذكر الله، له بكل كلمة سبعون ألف حسنة منها عشرة أضعاف، [مع] ما له عند الله من المزيد».

---

(٢٣٨) جفا لَيْلًا : وجاليل، ي.

(٢٣٩) انظر المعجم الكبير للطبراني ٢٠/ ٧٧.

عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل بسم الله في أوله وآخره».

علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من ذكر الله وهو طاهر كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ومن ذكر الله على غير طهارة كتب الله له حسنة واحدة».

أم أنس قالت: قلت: يا رسول الله علمني عملًا صالحًا أعمله، قال: «أقيمي الصلاة فإنها[٢٤٠] أفضل الجهاد، واهجري[٢٤١] المعاصي فإنها أفضل الهجرة، واذكري الله كثيرًا فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقينه به».

عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخل المسلم السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له بها ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، وبنى له بيتًا في الجنة» وهذا الخبر وأمثاله تحمل على من اجتنب الكبائر.

الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من ذكر الله في الغافلين جعل الله غفلة الناس له ذكرًا، ومن ذكر الله في الذاكرين جعل الله ذكر الناس له شكرًا».

ودخل أبو هريرة السوق فقال: أراكم هاهنا ميراث محمد يقسم[٢٤٢] في المسجد، فذهب الناس إلى المسجد فلم يروا ميراثه يقسم، فجاءوا أبا هريرة فقالوا: ما رأينا ميراثًا يقسم، قال: فما رأيتم؟ قالوا: رأينا قومًا يذكرون الله، وقومًا يقرؤون القرآن، قال أبو هريرة: فذلك ميراث محمد.

وروى أبو يحيى بإسناده عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلَّت صلاته وصيامه وتلاوة القرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوة القرآن» الخبر يدل على أن الذكر إنما يقع مع الطاعة واجتناب المعاصي على ما قلنا.

قيل لبعضهم: كيف ذكرك الله، فأنشد:

الله يعلـم أنـي لسـت أذكـره وكيـف أذكـره مـن لسـت أنسـاه

(٢٤٠) انظر المعجم الكبير للطبراني ٢٥/١٤٩.

(٢٤١) واهجري: واهجر، م ي.

(٢٤٢) يقسم: يقسك، ي.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «علامة حب الله ذكر الله، وعلامة بغض الله بغض ذكر الله»، وكان بعض العارفين كثيرًا ما ينشد:

وذكـري لكـم بالخيـر والله دائـمٌ وشـوقي إليكـم لا يـزال جديـد
وإنـي لأرجـو قربكـم ووصالكـم ولكننـي عمـا أريـد بعيـد

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ذكر الله شفاء القلوب، وذكر الناس داء».

ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده، فليكثر ذكر الله».

مبحث في شكر الله على نعمه السابغة

قال تعالى: ﴿ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان:١٤]، والشكر على أنواع:

شكر باللسان، وهو ثناء على المنعم وإظهار النعمة كقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أُولي معروفًا فليكافئه[٢٤٣]، فإن لم يقدر فليظهره، فإن لم يظهره فقد كفره».

شعر:

حَـلَّ إحسـانُه عِقَـالَ مقالـي فانظـرِ الآن كيـفَ نَظمـي ونثـري

ومنها: طاعة المنعم بالعمل كقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ:١٣]، يعني أطيعوني.

شعر:

سأشـكر مـا أوليتنـي وأذيعُـه وأنشـره فـي كل نـادٍ ومَحفـلِ
فإنـي وإن لـم آت مـا أسـتحقه فإنـي لعَمري جاهـدٌ غيرُ مُؤْتَـلِ[٢٤٤]

(٢٤٣) شعب الإيمان حديث رقم ٨٦٩٠.
(٢٤٤) مُؤْتَل: مؤتلي، ي.

ومنها: إظهار العجز عن الشكر، كقول داود: يا رب إني عجزت عن شكرك، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت[٢٤٥] على نفسك».

شعر:

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةً ... علي له في مِثلها يجبُ الشكرُ
فكيف بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِه ... وإن طالتِ الأيامُ واتصل العمرُ

ومنها وهو الأصل: تعظيم المنعم، وقد روى ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه».

وعنه عليه السلام: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أن تلك النعمة من عند الله إلا قبل الله شكره قبل أن يحمده» روته عائشة.

وعنه عليه السلام: «أول ما يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء»، رواه ابن عباس.

عن ابن عمر في قوله: ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، قال: كان إذا أكل حمد الله، وإذا لبس ثوبًا حمد الله.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم الصابر المخبت، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر أجره كأجر المحروم القانع».

شعر:

لئن كان شكري دونَ ما تستحقُّه ... لقد جلَّ ما أوليتنيه عن الشكرِ
فأنت الذي بلغتني كلّ مُنيَةٍ ... وأوطأتني خدَّ الزمانِ على قسرِ

صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عجبًا[٢٤٦] لأمر المؤمن، إن أمر المؤمن كلَّه خير وليس ذلك إلا لمؤمن، إن أصابته سراء شكر الله فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له».

---

(٢٤٥) أثنيت : أثنت، م ي.
(٢٤٦) صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٩٦.

أبو أمامة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوما وأجوع ثلاثًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

عبد الله بن بريدة، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه: «اللهم اجعلني صبورًا، واجعلني شكورًا، واجعلني في عيني صغيرًا، وفي أعين الناس كبيرًا».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان نصفان: نصف في الصبر، ونصف في الشكر».

عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله أحد إلا حمده ذكره».

جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما أنعم الله على عبد من نعمة صغرت أو عظمت، قَلَّتْ أو كثرت فقال: الحمد لله، إلا كان قد أدى شكرها، فإن قالها ثانية جدد الله له ثوابه، فإن قالها ثالثة غفر الله له ذنوبه».

شعر:

شكرُكَ معقودٌ بإيماني حُكِّمَ في سري وإعلاني
عَقْدُ ضميرٍ وفمٌ ناطقٌ وفعلُ أعضاءٍ وأركانِ

آخر:

وكيف جحودُ الناسِ نعماءَ منعمٍ تناغى بها أطفالُهم في مهودِها

المغيرة قال: قال داود: أي رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرًا مني؟ فأوحى الله إليه: نعم الضفدع، فأنزل الله ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ [سبأ:١٣]، قال: أي رب كيف أطيق شكرك وأنت منعم علي وترزقني للنعمة الشكر، ثم تزيدني نعمة بعد نعمة، فالنعمة منك[٢٤٧] أي رب والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ فقال: يا داود الآن عرفتني حق معرفتي.

كعب قال: قال موسى: أي رب كيف أؤدي شكر ما أنعمت به علي وإنما شكري نعمة منك عليّ، فكلما ازددت شكرًا ازدادت نعمتك عليّ كثرة؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى الآن عرفت شكري.

---

(٢٤٧) شعب الإيمان حديث رقم ٤١٠٠.

الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال موسى: يا رب كيف استطاع آدم أن يؤدي شكر ما أجريت عليه من نعمك، خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ قال: يا موسى عَلِمَ آدمُ أن ذلك مني فحمدني عليه».

أنس قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «يا جبريل من يستطيع شكر ما أنعم الله عليه؟ فقال: يا محمد من علم أن تلك النعمة التي أنعم الله عليه من قبل الله فقد أدى شكرها». قال أنس: ذلك مما قد [رواه] النبي عن جبريل عن ربه.

أنس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا تتابعت النعم على أحدكم فليستكثر من الحمد، والذي نفسي بيده ما أنعم الله على عبد نعمة إلا والحمد لله أكثر منها وإن كانت تلك النعمة الجنة، اقرأوا إن شئتم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر:٧٤]».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله يوم القيامة: يا ابن آدم ألم أحملك على الخيل والإبل، وفعلت كذا وكذا، فيقول: يا رب بلى، فيقول: فأين شكر ذلك».

أنشدني الفقيه أبو سعد الإسترابادي:

يَكِلُّ لساني عن مديحك بالشعرِ وأعْجَزُ أن أجزيْ صنيعَك بالشكرِ
فإن رُمْتُ شكرًا كنتُ فيه مقصرًا وإن رمتُ شعرًا تِهتُ فيه فلا أدري
على أن ما تُولي وتَبلي وتَبتلي بقدرِك والتقصيرُ فيه على قدري

أبو هريرة والنعمان بن بشير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شُكرٌ».

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدني[٢٤٨] عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

أنس قال: انتهى رجل إلى المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة، فقال

(٢٤٨) صحيح مسلم ١/ ٢٩٦.

الرجل: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما قضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاته قال: «أيكم المتكلم»؟ فسكت القوم، ثم قال: «أيكم المتكلم فإنه لم يقل إلا خيرًا»؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: «لقد رأيت اثنى عشر ملكًا يبتدرونها أيهم يرفعها».

جابر وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال: الحمد لله رب العالمين ملأ نورها الأرض، فإذا قالها الثانية الحمد لله رب العالمين ملأ نورها ما بين السماء والأرض، فإذا قالها الثالثة الحمد لله رب العالمين نظر الله إليه، وما نظر الله إلى أحد إلا رحمه».

عبد الله بن عمرو: أربع من كن فيه بنى الله له بيتا في الجنة: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإذا أصاب ذنبًا استغفر الله، وإذا جرت عليه النعم قال: الحمد لله، وإذا أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

أبو الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: إني من الجن والإنس لفي نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري».

عن أبي العفيف رجل من أصحاب معاذ قال: يدخل أهل الجنة على أربعة أصناف: المتقين، ثم الشاكرين، ثم الخائفين، ثم أصحاب اليمين، قال: قلت: لم سموا الشاكرين؟ قال: لأنهم شكروا الله في الرخاء، ووطنوا أنفسهم على الصبر عند البلاء.

محمد بن كعب قال: كان نوح عليه السلام إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله، فسماه الله شكورًا.

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال بعدما فرغ من طعام الأنصاري وغسل يده: «الحمد لله الذي يطعِم ولا يطعَم، مَنَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلال، وبصر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلًا، الحمد لله رب العالمين».

عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله أحد إلا حمده».

شعر:

إلهي لك الحمد الذي أنت أهله ... على نعم ما كنت منك لها أهلا

متى ازددت تقصيرًا تزدني تفضلًا ... كأني بالتقصير أستوجب الفضلا

مبحث في شكر الله على نعمه بالهداية والدين

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا﴾ [الأعراف:٤٣]، فنعم الله على ضربين: دينية، ودنيوية، فالدنيوية تبع للدينية، ونعم الله في التمكين والألطاف، فأما نفس الإيمان والطاعات فهي فعل العبد.

وعن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلًا يقول: الحمد لله على الإسلام، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة».

وعن سلام بن[٢٤٩] مطيع: كن لنعمة الله عليك في دينك أشكَرَ منك على نعمته عليك في دنياك.

ابن عباس في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، أما الظاهرة فالإسلام وما حسّن من خلقك وأفضل عليك من الرزق، وأما الباطنة فما ستر من العيوب، وغفر من الذنوب، وفي الخبر: «لما قدم البشير على يعقوب ببشارة يوسف عليهما السلام قال: على أي دين تركته؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة».

سفيان الثوري قال: زرت رابعة العدوية فرأيتها رثة الحال، فقلت: لو أعلمت بعض أصحابك ليعودوا عليك فإني أرى في حالك رثة؟ قالت: يا سفيان، وما ترى من رثة حالي، ألست على الإسلام وهو العز الذي لا ذل معه، والأنس الذي لا وحشة معه، والغنى الذي لا فقر معه، والله يا سفيان إني أستحيي أن أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها.

ولما قتل عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر أنشد عند موته:

فـإن قطعـوا رجلـي فإنـي مسـلم	وأرجـو بـه[٢٥٠] عيشًـا مـن الله عاليـا
وألبسـني الرحمـن مـن فضـل منـة	بثوب مـن الإسـلام غطى المسـاويا

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله عرض على آدم ذريته فجعل يرى الأبيض والأسود والأحمر ودون ذلك، والقصير والطويل، والجميل والذميم، فقال آدم: أي رب لو

(٢٤٩) كتب على قوله: (بن) في ي كلمة: أبي ظ.
(٢٥٠) كتب على قوله: (به) في ي كلمة: غدًا نخ.

كنت سويت بين عبادك، فقال له ربه: يا آدم إني أردت أن أُشكر»، والخبر يدل على العدل؛ لأنهم خلقوا بحسب المصلحة لكي يشكروا.

النعمان بن بشير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا علي أخبرني بأول نعمة أنعمها الله عليك»؟ قال: خلقني ذكرًا ولم يخلقني أنثى، قال: «هذا واحدة، فما الثانية»؟ قال: عرفني نفسه وهداني لدينه، قال: «هذه الثانية فما الثالثة»؟ قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، قال: فضرب بيده على كتفه ثم قال: «ملئت علمًا وحكمًا يا أبا الحسن» يعني عرفني بالدلالات التي نصبها، وهداني بالألطاف التي أعطاها، وأزاح العلة بها.

أبو العالية: ما أدري أي النعمتين علي أفضل: الجاهلية استنقذني الله منها، أو هذه البدع التي عافاني الله عنها.

جويبر بن الضحاك قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، فقال: هذا من مخزوني الذي سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه، قلت: ما هذه النعمة الظاهرة والباطنة؟ قال: «أما الظاهرة فالإسلام وما حسن من خلقك وما أفضل عليك من الرزق، وأما الباطنة فما ستر من سوء عملك، يابن عباس يقول الله: إني جعلت للمؤمن ثلاثًا لم يكن له: صلاة المؤمن بعد انقطاع عمله، وثلث ماله يكفر به عن خطاياها، وسترت عنه سوء عمله الذي لو أبديته للناس لنبذه أهله فمن سواهم[٢٥١]».

نثر: الحمد لله الذي هدانا، وأوضح الرشد إلى هدانا، أقام الحجة لما أنار سبل المحجة، حمدًا لرب هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا بمحمد عليه السلام، ودعانا إلى دار السلام، هدانا للإيمان، ونجانا من النيران، وبعَّدنا من عبادة الأوثان، وأعطانا الأمان في الجنان، علَّم بعد الجهالة، وهدى بعد الضلالة.

عن بعضهم: الحمد لله على طاعات وفقنا لها ففعلناها، ومعاصٍ[٢٥٢] صرفنا عنها فتركناها،

(٢٥١) انظر الجليس الصالح الكافي ص٤٨٠.
(٢٥٢) ومعاصٍ: ومعاصي، ي.

وذنوب غفرها قد اجترحناها، وخطايا سترها قد اقترفناها، فكم من نعم أسدى إلينا فضلًا، وكم من عيوب سترها منًّا وطولًا، حمدًا لرب قد هدى للدين، وأوضح الحق للعالمين.

ابن المعتز: الشكر قيد النعمة، وثمن الجنة.

الصادق عليه السلام: من اتقى الله وقاه، ومن شكره زاده[٢٥٣]، ومن أقرضه جزاه.

مبحث في بركة الله

قال الله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات:١١٣]، ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣]، والبركة في القرآن وجوه:

منها: في أهل بيت إبراهيم: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ [هود:٧٣]، ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات:١١٣]، فكان أثرها بقاء النبوة في عقبه إلى يوم القيامة، ومن نسله: الذبيح، والكليم، والحبيب، وحصلت الخلة[٢٥٤] والولد بعد الكبر.

ومنها: في قصة نوح ﴿اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود:٤٨]، فظهرت آثاره عليه.

ومنها: بركة علقها بالتقوى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٩٦]،

ومنها: بيت المقدس ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١].

ومنها: الأرض ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت:١٠].

ومنها: في أسمائه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

ومنها: في الشجرة ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [النور:٣٥].

ومنها: ماء المطر ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق:٩].

ومنها: عيسى عليه السلام ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١].

وقوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم:٢٤]، قيل: لا إله إلا الله، عن ابن عباس، وقيل: التوحيد، وقيل: القرآن، وقيل: المؤمن.

---

(٢٥٣) زاده: زادهن، ي.

(٢٥٤) لعله يقصد اتخاذ الله إبراهيم خليلا.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه نظر إلى جمار[٢٥٥] فقال: «إن من الشجرة شجرة بركتها بركة الرجل المسلم وهي النخلة».

وقيل: الطيبة: الطاعات، والخبيثة: المعاصي، عن أبي علي، وقيل: دعوة الإسلام.

ومنها: القرآن ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:٥٠].

ومنها: ليلة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

وروى عبد الله بن أبي الجعد عن جعيل[٢٥٦] الأشجعي قال: غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض غزواته وأنا على فرس لي عجفاء ضعيفة، فكنت في أخريات الناس، فلحقني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «سر يا صاحب الفرس»، فقلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِخْفَقَةً[٢٥٧] كانت معه فضربها بها وقال: «اللهم بارك له فيها»، ولقد رأيتني ما أمسك رأسها أن تقدم الناس، ولقد بعت من بطنها باثني عشر ألفًا.

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أغنك عن هذا، قال: بلى ولكني لا غنى لي عن بركتك».

وقال عليه السلام: «البركة في ثلاث: في الجماعة، والثريد، والسحور».

وقال عليه السلام: «ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن من الخير والبركة ما أخذن إلا بسهم حرصًا على ما فيهن من الخير والبركة: التأذين بالصلاة، والتهجير بالجمعات، والصلاة في أول وقتها».

مبحث في نعم الله على عباده

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ [البقرة:٤٠]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

(٢٥٥) الجُمَّار: شحم النخل، الصحاح (ج م ر).

(٢٥٦) انظر السنن الكبرى للنسائي حديث رقم ٨٧٦٧.

(٢٥٧) مِخْفَقَةً: محفقة، ي.

ومن المروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم غذوتك في ظلمات البطن، ثم استخرجتك منها، وعطفت قلوب أبويك وأنت لا تحرك يدًا ولا تسعى برجل، ثم ربيتك صغيرًا أحسن التربية، وأطبت [لك] الغذاء، فحين كبرت لم تشكر نعمتي، ولم تذكر إحساني، عصيتني ولم تستحي مني، ثم سألتني فلم أحرمك معروفي، لم تنصفني يا ابن آدم أما إني لا أكون لك كما كنت لي»، ونظير الخبر قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا..﴾ [يس:٧٧، ٧٨].

عون بن عبد الله: الخير من الله كثير، ولكن لا يبصره من الناس إلا اليسير.

صالح بن سليمان[٢٥٨]: ما أدري[٢٥٩] أنعمة الله فيما بسط لي أفضل أم نعمته فيما زوى عني.

محمد بن القاسم: سمعت أعرابيًا يقول: إلهي تتحبب إليّ وأنت غني عني، وأتبغض إليك وأنا إليك فقير، سبحان من إذا وعد[٢٦٠] وفّى، وإذا أوعد عفا.

وتعلق أعرابي بأستار الكعبة وقال: من مثل إلهي إذا أذنبت عفاني، وإذا تبت رجاني، وإن أقبلت أدناني، وإن أدبرت ناداني، إن ربنا لغفور شكور، غفور للذنب العظيم، شكور للعمل اليسير.

ابن السماك: سبحان من جعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتتكلم بلحم.

ودعا أعرابي فقال: اللهم أنا نبات نعمتك فلا تجعلني حصاد نقمتك.

أبو يحيى البزار بإسناده عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ..﴾ الآية [الإسراء:٧٠]، قال: من كان في هذه النعم أعمى فهو فيما وعد الله من أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلا، وسئل عن هذه الآية محمد بن أبي موسى فقال: من عمى عن شكر[٢٦١] هذه النعم في الدنيا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا.

أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥]، قال: «أيام الله: نعمه وبلاؤه»، مجاهد: أيامه: نعمه بنا.

---

(٢٥٨) كتب فوقها في ي كلمة: سمار.

(٢٥٩) أدري: أوري، م ي. انظر الامتاع والمؤانسة ص٢٣٥.

(٢٦٠) وعد: وعدى، ي.

(٢٦١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٤.

أسعد بن زرارة قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يومًا وهو يحدثهم عن الله فقال: «ما أحبَّ اللهُ مِنْ عباده ذِكْر شيء من النعم أفضل مما أحب أن يذكره[٢٦٢] عبده بما هداه له من الإيمان بالله وملائكته ورسله والإيمان بقدره خيره وشره، وإن جبريل يوصيني بذلك أكثر ما أوصاني بشيء من الطاعة».

الحسن عن أبي الدرداء قال: كم من نعمةٍ لله في عرق ساكن.

الحسن: أكثروا ذكر هذه النعم فإن كثرة ذكرها شكر، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٦٣-٧٣]، تذكرة للنار الكبرى، ومتاعًا للمستمتعين، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٦].

وسئل الحسن عن أكل الفالوذج، فقال: لا بأس به، ثم قال: لنعمة الله علينا في الماء البارد أعظم منها في الفالوذج.

أبو حازم الأعرج: من استطاع ألا يرى أن نعمة الله عند أحد هي أسبغ مما عنده فليفعل. الحسن يا لها من نعمة تأكل لذّةً وتُخرج سرحًا[٢٦٣].

عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أنعم الله على عبد فعلم أن تلك النعمة التي أنعم الله عليه من قِبل الله فقد أدى شكرها من قبل أن يحمده».

عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مؤنة الناس عليه، فمن لم يحتمل مؤنة الناس عليه عرض تلك النعمة لزوالها، فاستعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

جابر قال: جاءنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطبًا وأسقيناهم من الماء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا من النعيم الذي تسألون عنه» وهذا يخالف ما رواه جابر الجعفي قال: دخلت على الباقر فقال: ما يقول هؤلاء الذين يتأولون القرآن في هذه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قلت: يقولون: الماء البارد، والطعام الطيب، والظل البارد، فقال: يا جابر لو أنك أدخلت رجلًا بيتك فأقعدته في ظل وأطعمته طعامًا طيبًا وسقيته شرابًا طيبًا أكنت [تَمُنُّ] عليه أو تسأله عنه؟ قلت: لا، قال: فالله أكرم من أن يطعم

---

(٢٦٢) أسد الغابة ٢/١٩٨.

(٢٦٣) انظر شعب الإيمان حديث رقم ٤١٥٩.

عبده طعامًا أو يسقيه شرابًا باردًا ثم يسأل عنه، قلت: فما تأويله؟ قال: النعيم[٢٦٤] هو رسول الله الذي أنعم الله على العالم به فاستنقذهم به من الضلالة والعمى، فهو النعيم الذي يسألون عنه، أما سمعت قول الله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ..﴾ الآية [آل عمران:١٦٤]، غير أن جابر الجعفي لا يعتمد، ولو صح يجب أن يتأول على وجه يوافق الكتاب والخبر الصحيح الذي تلقته الأمة بالقبول.

ابن عمر: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك».

داود عليه السلام: إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار ما قضينا نعمة من نعمك.

عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى [ما] يكره قال: «الحمد لله على كل حالٍ».

ميمون بن مهران في قوله: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤]، قال: نعماؤه وبلاؤه.

ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال عند حلول كل نعمةٍ: الحمد لله رب العالمين، أعطاه الله خيرًا مما أخذ منه».

زيد بن أسلم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة:٢٠]: «من كانت له زوجة وخادم ومسكن فهو ملك».

جويبر عن الضحاك قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، فقال: هو من مخزوني الذي سألت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أما الظاهرة: فالإسلام وما حسن من خلقك وما أفضل عليك من الرزق، وأما الباطنة: فما ستر من سوء عملك، يابن عباس يقول الله: إني جعلت للمؤمن ثلاثًا ولم تكن له: صلاة المؤمن عليه بعد انقطاع عمله، وثلث ماله يكفر عنه من خطاياها، وسترت عنه سوء عمله الذي لو أبديته للناس لنبذه أهله فمن سواهم»[٢٦٥].

أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقول الله: إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري».

---

(٢٦٤) النعيم: النعيد، ي.

(٢٦٥) انظر الجليس الصالح الكافي ص٤٨٠.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الفراغ، والصحة».

عياض بن غنم، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتسألن يومئذ عن النعيم بين يدي ربك، بارد الشراب، وظلال المساكن، وشبع البطون، واعتدال الخلق، ولذاذة النوم»، وهذا أيضًا يدل على وهن حديث جابر الجعفي.

ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «النعيم: الأمن والصحة».

وعن قتادة: النعيم: الأمن والصحة. قال القاضي: المراد به النعم كلها، ونبه بذكر بعضه على الباقي.

معاذ قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رجل وهو يصلي وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام نعمتك، فقال عليه السلام: «وهل تدري ما تمام النعمة»؟ قال: يا رسول الله دعوة دعوت بها أرجو بها الخير، قال: «فإن تمام النعمة فوز من النار ودخول الجنة».

وكان مطرف يقول: اللهم منك تكون النعمة وعليك يكون تمامها، وأنت تعين على شكرها، وعليك يكون ثوابها.

أنس عن النبي عليه السلام: «يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات، فيقول الله تعالى لنعمة من نعمه خذ حقك من حسناته، فما يترك حسنة إلا ذهبت» وهذا على طريق التمثيل أنه بمنزلة ذلك من عظم نعم الله.

سليمان التيمي قال: إن الله تعالى أنعم على العباد على قدره، وطلب منهم الشكر على قدرهم.

الحسن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦]، فقال: هو الكفور الذي يعد المصائب وينسى النعم.

شعر:

سبحان من لو سجدنا بالجباه له	على شبا الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته	ولا عشيرًا ولا عشرًا من العشر

مبحث في إظهار النعمة والتحدث بها

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، عن مجاهد قال: المراد به القرآن؛ أي: فحدِّث به وبما فيه.

الحسن بن علي عليه السلام: إذا عملت خيرًا فحدث به إخوان ثقتك.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يختم مجالسه فيقول: «كنت يتيمًا فآواني الله، وكنت ضالًا فهداني الله، وكنت عائلًا فأغناني الله» وتأول على ذلك قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، ذكره الأصم في تفسيره، والقاضي في الأدلة، وقال الأصم: المراد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: الإسلام. قال القاضي: هذا أمر بإظهار النعمة قولًا وفعلًا.

أبو رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف من خز لم ير عليه قبل ولا بعد، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب إذا أنعم على عبد نعمة أن يرى أثر نعمه عليه».

عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته عليه»

ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أعطاه الله خيرًا فليثن عليه».

عوف بن مالك بن نصله قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرآني سيئ الهيئة فقال: «هل لك من مالٍ»؟ قلت: نعم من كل المال قد أتاني الله، من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «فإذا آتاك الله خيرًا فلير عليك نعمته وكرامته».

ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب إذا أنعم على عبد نعمة أن يرى أثره عليه، والله يحب الجمال».

ويمكن في هذه الأخبار وجهٌ ليس يقصر عما تأولوا عليه وهو أن يكون إظهار النعمة الوارد في[٢٦٦] الأثر: إنفاقه في سبيل الله والقرب.

عطاء عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما من عبد أنعم الله عليه فأسبغها عليه إلا جعل إليه شيئًا من حوائج الناس، فإن تبرم بهم فقد عرض تلك النعمة للزوال».

---

(٢٦٦) الوارد في: وارا، م ي.

شعر:

لم أكفر الله ولكنه قصر عن معروفه شكري
فنعمة الله على قدره وشكري الله على قدري

ابن الرومي:

سأثني بنُعماك التي لو جحدتها لأثنت بها[٢٦٧] منها شواهد لا تَخْفَى
هبِ الأرض لا تثني على الغيث نشره أمنظره يخفي مآثره الحسنى[٢٦٨]

آخر:

بدأت بمعروف وثنيت بالرضا وثلثت بالحسنى وربعت بالكرم
وباشرت أمري واعتنيت بحاجتي وأخرت لا عني وقدمت لي نعم
وصدقت لي ظني وأنجزت موعدي وطبت به نفسًا ولم تتبع الندم
وأوليتني خيرًا وأبليتني يدًا وتابعت بالنعمى وما زلت ذا كرم[٢٦٩]
فإن نحن كافأنا فأهلٌ لشكرنا وإن نحن قصَّرنا فما الوُد متهم

مبحث في سعة رحمة الله تعالى

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]، ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩].

وحدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رحمه الله بإسناده عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قومًا يعودهم، وإذا امرأة تنسج بردًا وعندها صبي لها، فأحيانًا تضرب بحقها[٢٧٠] وأحيانًا تقبل على صبيها، ففعلت ذلك مرارًا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ترون هذه ترحم صبيها»؟ قال: نعم، قال: «الله أرحم بعباده من هذه بصبيها».

أبو يحيى بإسناده عن عطاء، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله

(٢٦٧) انظر الدر الفريد وبيت القصيد ١١/ ١٠.

(٢٦٨) الحسنى: انحنى، م ي.

(٢٦٩) كرم: نعم، م ي.

(٢٧٠) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ٥/ ٢٧١.

مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها، وأخر لنفسه تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

وبإسناده قال: جاء أعرابي على قعود له فشدها ثم دخل المسجد فصلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما سلم أتى راحلته فأطلق عقالها ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا تشركن في رحمتنا أحدًا، فقال عليه السلام: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا إلى ما قال»؟ قالوا: بلى، قال: «لقد حظر رحمة واسعة، إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة بطباق السماوات والأرض، فجعل في الأرض منها رحمة بها تعطف[٢٧١] الوالدة على ولدها والوحش والطير، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها مائة رحمة».

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي».

ابن مسعود: لا تزال الرحمة بالناس يوم القيامة حتى أن إبليس ليهتز صدره مما يرى من رحمة الله وشفاعة الشافعين.

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٦]، قال: «كتب الله كتابًا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورقة آس، ثم نادى: يا أمة النبي محمد إن رحمتي سبقت غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني، من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله صادقًا من قلبه وأن محمدًا عبدي ورسولي أدخلته الجنة».

يونس بن ميسرة قال: مكتوب في اللوح: أنا الله الذي لا إله إلا أنا الرحمن الرحيم، أرحم وأَتَرَحَّمُ، سبقت رحمتي غضبي، وعفوي عقوبتي.

أبو رجاء العطاردي يروي عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه قال: «إن ربكم رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة[٢٧٢] إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن

(٢٧١) المستدرك للحاكم حديث رقم ٧٦٣٠.

(٢٧٢) سنن النسائي الكبرى حديث رقم ٧٦٢٣.

عملها كتبت سيئة واحدة يمحوها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك»، وهذا إذا هم ولم يعزم على ذلك فإن عزم المعصية معصية في نفسه.

ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أرحم ما يكون الرب بعبده[٢٧٣] إذا أدخل حفرته وتفرق عنه الناس وأهله»

أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو يعلم الناس قدر رحمة الله لاتكلوا حتى لم يعملوا شيئًا، ولو يعلموا قدر غضب الله أو قدر شدة عذاب الله لظننتم أن لن تنجوا ولم ينفعكم شيء».

زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب[٢٧٤] ثديها [تستقي] إذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أترون المرأة طارحة ولدها في النار»؟ قلنا: لا والله وهي تقدر على ألاّ تطرحه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها»[٢٧٥].

محمد بن المنكدر، عن جابر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلينا فقال: «خرج من عندى خليلي جبريل آنفًا فقال: يا محمد والذي بعثك[٢٧٦] بالحق إن لله عبدًا من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل عرضه وطوله ثلاثون ذراعًا في ثلاثين ذراعًا، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ في كل ناحية، وأخرج الله عينًا عذبة بعرض الأصبع تبض بماء عذب فتستنقع في[٢٧٧] أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة، فيصوم يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته، فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجدًا وألا يجعل للأرض عليه سبيلًا حتى يبعثه وهو ساجد، ففعل، قال: فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجده في العلم يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله، فيقول له الرب: ادخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب بعملي، فيقول الرب: ادخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: بل بعملي، فيقول الله للملائكة: قايسوا عبدي بنعمتي عليه

(٢٧٣) بعبده: بعذبه، ي.
(٢٧٤) صحيح البخاري حديث رقم ٥٩٩٩.
(٢٧٥) صحيح البخاري حديث رقم ٥٩٩٩.
(٢٧٦) بعثك: بعثني، م ي.
(٢٧٧) فتستنقع في: فيستنقع من، ي.

وبعمله، فتؤخذ نعمة البصر قد أحاطت بعبادته خمسمائة سنة، وبقيت نعم الجسد فضلًا عليه، فيقول: أدخلوا عبدي النار، قال: فيجر إلى النار، فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه، فيوقف بين يديه فيقول: يا عبدي من خلقك ولم تك شيئًا، فيقول: أنت يا رب، فيقول: أكان ذلك مِنْ قِبلك أم برحمتي، فيقول: [بل] برحمتك، فيقول: من قواك لعبادة خمسمائة عام؟ فيقول: أنت، فيقول: من بوأ لك في جبل في وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج في السنة مرة، وسألتني أن أقبضك ساجدًا ففعلت ذلك بك، فيقول: يا رب أنت، فيقول: فذاك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، فأدخلوا عبدي الجنة برحمتي فنعم العبد كنت يا عبدي، فأدخله الله الجنة، قال جبريل: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد»[٢٧٨].

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أبو بكر وعمر قعود، وصبي صغير يبكي، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر: «ضم إليك الصبي فإنه ضال» فضمه عمر فإذا أم له تولول كاشفة عن رأسها ليس على رأسها خمار جزعًا على ابنها وهي تقول: وا بنياه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الحق المرأة فإنها أم الصبي» فجاءت فأخذت الصبي من حجر عمر فجعلت تبكي والصبي في حجرها، فالتفتت فرأت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: واخزياه ألا أرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاعدًا وأنا كاشفة عن رأسي، فعمدت إلى كمها فوضعتها على رأسها، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أترون هذه رحيمة بولدها»؟ قالوا: يا رسول الله كفى بهذه رحمة، فقال: «والذي نفسي بيده لله أرحم بالمؤمن من هذه بولدها».

شعر:

إن أكـن مذنبًـا فعفـو إلهـي ... لذنـوب العبـاد بالمرصـادِ
واعتقـادي بأنـه الواحـد العـدل ... شـفيعي إليـه يـوم المعـادِ
وبحـب النبـي والآل والأصحا ... ب أرجـو ملـكًا رفيـع العمـادِ

آخر:

ولمـا قسى قلبـي وضاقـت مذاهبي ... جعلـت الرجـا مني لعفـوك سـلما
تعاظمنـي ذنبـي فلمـا قرنتـه ... بعفـوك ربـي كان عفـوك أعظمـا

(٢٧٨) المستدرك للحاكم حديث رقم ٧٦٣٧ وشعب الإيمان للبيهقي حديث رقم ٤٣٠٠.

آخر:

تعالى الواحد الباري تعالى	وجل فما يكون له نظيرُ
هو الملك الغني وكل شيء	سواه فهو محتاج فقيرُ
وأيامي وإن كثرت وجمّت	فذلك عند رحمته يسير

أبو ذر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يمسح الحصا».

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليضع رحمته على كل رحيم»، فقالوا: يا رسول الله كلنا يرحم نفسه، قال: «ليس برحمة أحدكم نفسه خاصة حتى يرحم الناس».

بكر بن عبد الله، عن أبيه، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اطلبوا الحوائج إلى الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوا إلى القاسية قلوبهم فإن عليهم تنزل اللعنة[٢٧٩]».

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوي، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموهابفضائل أعمالكم»[٢٨٠].

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الرحمة للراحمين، والمغفرة للغافرين، والتوبة للتائبين، وأشد الناس عذابًا في الدنيا أشد الناس عذابًا في الآخرة».

داود عليه السلام: إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووني فكلهم عليك دلوني، فبؤسًا للقانطين من رحمتك.

وأوحى الله إلى داود أن بشر المذنبين إذا تابوا وأنذر الصديقين إذا أعجبوا.[٢٨١]

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يد الله مبسوطة يعطي من يسأل، يقول: يا عبادي هَلُمَّ من يقدم لنفسه من سلف لآخرته فأجزيه، من يذكرني فأذكره، من يقرضني شيئًا فأضاعف له أضعافًا كثيرة، من يتوب إلي فأتوب عليه، من يستغفرني فأغفر له، من يسألني فأعطيه».

---

(٢٧٩) المجالسة وجواهر العلم للدينوري رقم ٢٩٢٢.

(٢٨٠) النهاية في الفتن والملاحم ٢/ ١٢١.

(٢٨١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٨٢؛ جامع أحاديث الشيعة ١/ ٣٨٨.

شعر:

يـا راكـبَ الذنـبِ لا تَقْنَطَـنْ	فـإن الإلـهَ رؤوفٌ رؤوفْ
ولا تَرحَلَـنَّ بـلا عُـدة	فـإن الطريـقَ مخـوفٌ مخـوفْ

عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الآية [غافر:٣]، قال: غافر الذنب لمن قال: لا إله إلا الله، قابل التوب لمن قال: لا إله إلا الله، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن لم يقل: لا إله إلا [الله]، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [على] كل من قال: لا إله إلا الله. ثم وحد نفسه فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصير من قال: لا إله إلا الله: الجنة، ومصير من لم يقل لا إله إلا الله: النار.

عبد الله بن سلام: لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل، أو كتاب منزل: إن العبد إذا عمل كل ذنب في الدنيا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

وسمع أعرابي ابن عباس يقرأ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران:١٠٣]، فقال: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس: خذوها من غير فقيه.

شعر:

أدعـوك ربِّ كمـا أمـرتَ تضرعًـا	فـإذا رددتَ يـدي فمـن ذا يرحـمُ
يـا ربِّ إن عظمـت ذنوبي كثـرةً[٢٨٢]	فلقـد علمـتُ بـأن عفـوك أعظـمُ
إن كان لا يرجـوك إلا محسـنٌ	فبمـن يلـوذُ ويسـتجيرُ المجـرمُ
مـا لـي إليـك وسيلةٌ إلا الرجـا	وعظيـمُ عفـوك ثـم أنـي مسـلمُ

مبحث في الإياس من رحمة الله

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وحكى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، قيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة.

وعن ثوبان، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣]».

---

(٢٨٢) كثرةً: جهرة، ي.

وعن ابن سيرين قال: قال علي: أي آية في القرآن أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيًا من القرآن كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١١٠] ونحوها، فقال علي: أوسع آية ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:٥٣].

جبير بن مطعم، عن أبي قتادة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «قال الله تعالى للملائكة: ألا أحدثكم عن رجلين من[٢٨٣] بني إسرائيل: أما أحدهما فيرى بنو إسرائيل أنه أفضلهما في الدين والعلم والخلق، والآخر يرى أنه مسرف على نفسه، فذُكِرَ عنده، فقال: لن يغفر له، فقال الله: أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت لهذا العذاب، قال رسول الله: فلا تَألّوا على الله»،

عن عبد الله بن عمر قال: «تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول إبراهيم ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦]، وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ..﴾ الآية [المائدة:١١٨]، قال: فرفع يديه وبكى، ثم قال: اللهم أمتي أمتي، وبكى، فقال الله لجبريل: اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيك، فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال وهو أعلم، فقال[٢٨٤] الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك» وفي غير هذا الحديث: «إن تحب أن نجعل أمر أمتك إليك، قال: لا يا رب أنت خير لهم مني، فأوحى الله إليه: إذًا لا أخزيك فيهم».

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من باب بني شيبة وهم يضحكون، فقال: «ما لي أراكم تضحكون ولا أراكم تبكون»؟ ثم أدبر ثم رجع فقال: «جاءني جبريل فقال لي: يا محمد إن الله تعالى يقول لك: لم تقنط عبادي مني ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]».

أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لعنة الله على المنفرين - ثلاثًا»، قلنا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يقنطون عباد الله من رحمة الله، ورحمة الله على المتكلفين[٢٨٥]» قال: «الذين يخبرون عباد الله بسعة مغفرته ويدخلهم الله الجنة، ألا إني بعثت ميسرًا ولم أبعث مقنطًا[٢٨٦]».

---

(٢٨٣) مسند الشاميين للطبراني حديث رقم ٢٨١، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨/ ٢٧٥.

(٢٨٤) صحيح مسلم ١/ ١٩١.

(٢٨٥) تذكرة الموضوعات ص٢٢٨.

(٢٨٦) تذكرة الموضوعات ص٢٢٨.

أبو يعقوب القارئ: رأيت في منامي رجلًا آدم طوالًا والناس يتبعونه، فقلت: من هذا؟ قيل: أويس القرني، فاتبعته فقلت: أوصني، قال: فكلح في وجهي، قلت: مسترشد فأرشدني، فأقبل علي وقال: اتبع رحمة الله عند محبته، واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى.(٢٨٧)

ولقي مالك بن دينار أبان بن [أبي] عياش فقال له: إلى كم تحدِّث [الناس] بالرُّخص، فقال أبان: يا أبا يحيى إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما [تخرق له] كساءك هذا من الفرح.(٢٨٨)

ونظر فضيل بن عياض إلى بكاء الناس يوم عرفة قال: أرأيتم هؤلاء لو صاروا إلى رجل فسألوه دانقًا أكان يردهم؟ قيل: لا، قال: المغفرة عند الله أهون من إجابة رجل لهم بدانق.

مبحث في حب الله
وحب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم

قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

وروى قتادة عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه».

أبو قراد السلمي قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعى بطهور، فغمس يده فتوضأ، فتبعناه [فحسوناه] ، فلما فرغ قال: «ما حملكم على ما صنعتم»؟ قلنا: حب الله ورسوله، قال: «فإن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا اؤتمنتم، واصدقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جواركم من جاوركم»(٢٨٩).

أبو بكر الصديق: من ذاق خالص حب الله شغله عن طلب الدنيا واستوحش عن جميع البشر.

---

(٢٨٧) انظر المنامات لابن أبي الدنيا ص٥١.

(٢٨٨) انظر حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ص٩٦.

(٢٨٩) انظر المعجم الأوسط حديث رقم ٦٥١٧.

مبحث في الأنس بالله والشوق إليه

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات، ومن راقب الموت ترك اللذات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات».

أبو الدرداء: أُحبُّ الفقراء تواضعًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي، وأحب الموت اشتياقًا إلى ربي؛ يعني إلى رحمته وكرامته.

الحسين بن جعفر قال: سمعت أبي يقول: مررت بدار وإذا عجوز مكفوفة تنوح على نفسها وتقول: يا حليم تقرب الناس إليك بالأعمال فدعوك بها، فكيف أدعوك بالذنوب ولا عمل لي أرضاه، يا رب هب لي من حلمك ما يكفيني، ونجني من عذابك، فوقفت عليها وذكرتها الله وقلت: هل لك ولد؟ قالت: لا والحمد لله، فقلت لها: ما معك في دارك؟ فقالت: سبحان الله معي من أناجيه فهل علي وحشة بعد وهو أنيسي يا عبد الله؟ فأبكتني[٢٩٠] والله فقلت لها: ما معاشك؟ فقالت: دع عنك ما لا يحتاج إليه، بلغت هذا المبلغ من السن وما أحوجني إليك ولا إلى غيرك، أما تقرأ القرآن: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء:٧٩، ٨٠]، أما في حكاية خليل الرحمن واعظ، قلت: هذه أفقه الناس، فقلت: ائذني لي في زيارتك، فقالت: اعزم[٢٩١] عليك إن فعلت وإن ذكرت لي اسمًا، وأنشأت تقول:

أنا الذي ألبسني سيدي ... كما تعرفت لباس الوداد
فصرت لا آوي إلى مؤنس ... إلا إلى مالك رزق العباد

وكانت امرأة من التابعين تقول: سبحانك ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وما أوحش الطريق على من لم تكن أنيسه.

مبحث في التوكل على الله

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وروى عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»

(٢٩٠) صفة الصفقه ٢/ ٥٣٢.

(٢٩١) اعزم: اخرج، م ي.

ابن عباس عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما يد الله أوثق[٢٩٢] منه بما في يده».

ورئي سلمان في المنام فقيل له: أي العمل وجدت خيرًا؟ قال: وجدت التوكل على الله شيئًا عجيبًا.

سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان.

الحسن: التوكل على الله الثقة به.

مبحث في الانقطاع إلى الله والاستغفار

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:١٠١].

وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكري، عشقني وعشقته، رفعت الحجاب بيني وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقًا، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابًا ذكرتهم فصرفته عنهم».

وهب: ثلاث من مناقب الإيمان: الرضى بالكفاف، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت، والتفويض إلى الله في حالات الدنيا.

داود الطائي: من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن طال أمله ضعفه عمله، وكل ما هو آت قريب، وكل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤوم، واعلم أن أهل الدنيا جميعًا من أهل القبور، إنما يندمون على ما يخلفون، ويفرحون بما يقدمون.[٢٩٣]

أبو عثمان عن بعض العباد قال: قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل [أمل] غيري بالإياس، ولألبسنه ثوب المذلة بين الناس، ولأنحينه من قربي، ولأبعدنه[٢٩٤] من وصلي، ولأجعلنه مفكرًا حيرانًا، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد

---

(٢٩٢) تنبيه الغافلين ص٢٠٨.

(٢٩٣) إحياء علوم الدين ٤/٤٥٦.

(٢٩٤) ولأبعدنه: ولأباعدنه، ي.

بيدي؟ وأنا الحي ويرى غيري، وبابي مفتوح لمن دعاني، من الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها، ومن الذي أملني لعظيم جرمه فقطعت رجاه، ومن الذي قرع بابي فلم أفتح له، جعلت آمال خلقي بي متصلة، وجعلت رجاء عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وأمرت ملائكتي ألا تغلق الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقه بأس من بأسي أنه لا يملك كشفه إلا من بعد إذني، فما لي أراه معرضًا بالمسألة عني، وما لي أراه لاهيًا عني، أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته عنه منه فلم يسألني رده وسأل غيري، أفيراني أبتدئ[٢٩٥] بالعطاء قبل المسألة ثم أُسأل فلا أجيب سائلي، أنا محل الآمال فكيف تقطع الآمال دوني، أليس الدنيا والآخرة لي، والتفضل والرحمة بيدي، فبؤسًا للقانطين من رحمتي.

وقال قائلٌ:

تقول سل المعروف يحيى بن أكثمِ فقلت سليه رب يحيى بن أكثما

مبحث في الحياء من الله

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أوصني، فقال: «استحي[٢٩٦] من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من فوقك».

ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء»، قالوا: إنا نستحي من الله والحمد لله، قال: «ليس[٢٩٧] ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلى[٢٩٨]، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

عامر بن عبد قيس: إني لأستحيي أن يعلم الله أني أخاف أحدًا.

الشافعي رضي الله عنه قال: اجتمع ثلاثة نفر فقيل لأحدهم: لم تعمل؟ فقال: رغبة في الثواب، وقيل للآخر: لم تعمل؟ فقال: فرارًا من العقاب، فقيل للثالث: لما تعمل؟ فقال: حياء من الله.

---

(٢٩٥) أفيراني أبتدئ: أفتراني أبتدي، م ي.
(٢٩٦) مسند الفاروق لابن كثير ٢/ ٦٠٩.
(٢٩٧) مسند ابن أبن شيبه ١/ ٢٣١.
(٢٩٨) مسند ابن أبن شيبه ١/ ٢٣١.

الفضيل بن عياض: تغلق بابك وترخي سترك وتستحي من الناس ولا تستحي من القرآن في صدرك وهو شافع مشفع، وماحِلٌ مُصَدَّق[٢٩٩]، ولا تستحيي من الملكين اللذين معك لا يفارقانك آناء الليل والنهار، ولا تستحيي من الله.

مبحث في مراقبة الله والمحافظة لحدوده

قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

وروى أبو يحيى البزار بإسناده عن عمر أن رجلًا قال: يا رسول الله أخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

عبادة بن الصامت، عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «راقبوا الله الذي إليه تصيرون، وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون».

أبو الدرداء: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم من الموتى، واعلموا أن قليلًا يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر لا يبلى، والإثم[٣٠٠] لا ينسى.

مبحث في حسن الظن بالله والرجاء لفضله

معمر قال: تلا الحسن قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ[٣٠١] ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت:٢٣]، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله تعالى: عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني[٣٠٢]»، ثم قال الحسن: ألا وإنما الأعمال على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فقد أحسن بالله الظن فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء بالله الظن وأساء العمل، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ [وَلَا جُلُودُكُمْ] وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢].

يحيى بن أبي كثير، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ظنوا بربكم أن سيغفر[٣٠٣]

(٢٩٩) الماحل: الخصم المجادل.

(٣٠٠) جامع معمر بن راشد حديث رقم ٢٠٢٦٢.

(٣٠١) في م ي: ذلك. وما أثبتناه من المصحف.

(٣٠٢) صحيح ابن حبان ٢/ ٩٥.

(٣٠٣) سيغفر: يستغفر، م ي.

لكم، ظنوا بربكم أن سيتوب عليكم، فإن الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي أتركه إذا تركني».

الحسن: إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول: إني أحسن[٣٠٤] الظن بربي، وكذب، لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل.

اجتمع مالك بن دينار ومحمد بن واسع، فقال مالك: ما أحوجني إلى معلم مثلك.

كتب أبو فراس إلى أمه وهو أسير بالروم:

يا أمتا لا تجزعي	وثقي بفضل الله فيّهْ
يا أمتا لا تيأسي	لله ألطاف خفيّهْ
أوصيك بالصبر الجميـ	ـل فإنه خير الوصيّهْ

ولأبي العتاهية:

ليس يرجو الله إلا خائف	من رجا خاف ومن خاف رجا
قل ما ينجو امرؤٌ من فتنة	عجبًا ممن نجا كيف نجا
ترغب النفس إذا رغبتها	وإذا أرجيتها شيئًا رجا

قيل وأظنه لأبي محمد:

لنار الهم في قلبي لهيب	فعفوا أيها الملك المهيبُ
تجاوزت العقوبة منتهاها	فهب ذنبي لعفوك يا وهوبُ
صبيت علي سوطا من عذابٍ	يذل لبأسه الأسد الغلوب
وأحسب أنني أحسنت ظني	وأرجو أن ظنك لا يخيب
عليك نيخ آمالي فرحب	بها وإليك من ذنبي أتوب
فإن تعطف على رجل غريبٍ	فإني ذلك الرجل الغريبُ
وما عوني على بلواي إلا	رجائي فيك والدمع السكوب
فلذت ببابك المعمور علمًا	بأن ذراك لي مرعى خصيب
فجد لي بالرضى واقبل متابي	وعذري إنني أسف كئيب

(٣٠٤) أحسن: بحسن، م ي.

مبحث في اليسر وانتظار الفرج من الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦]، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو دخل العسر كوة لدخل اليسر عليه حتى يخرجه، لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن».

سئل أبو الدرداء عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، فقال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنها فقال: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين».

مجاهد عن عبيد بن عمر في قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، فقال: يجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويفك عانيًا، ويتوب على قوم، ويغفر لآخرين.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

مبحث البكاء

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة أعين لا تمسها النار: عين فقئت في سبيل الله، وعين حرست في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله».

ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من عبد بكى من خشية الله فتخرج من عينه قطرة ولو مثل رأس الذباب فتصيب شيئًا من حر وجهه إلا حرم الله عليه النار».

الحسن: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قطرة دم في سبيل الله، وقطرة دمع في جوف الليل من خشيته.

وعنه أنه قرأ ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم:٥٩، ٦٠]، فقال: والله إن أكيس الناس في هذا الأمر لَمَنْ بكى، وإنا لنرى أقوامًا تبكي أعينهم وقلوبهم قاسية، ألا فابكوا هذه القلوب وابكوا هذه الأعمال.

بكى عمرو بن قيس في السوق، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: نظرت إلى هؤلاء المساكين يذهبون ويجيئون ولا يعلمون لما خُلقوا له.

مبحث في الاغترار بالله

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أني وعيسى أُوخذنا بما كسبت هاتان – وأشار بأصبعيه – لعُذبنا عذابًا لم يعذبه أحد».

لقمان: يا بني كيف يأمن النار من هو واردها[٣٠٥]، وكيف يطمئن إلى الدنيا[٣٠٦] من هو مفارقها، وكيف يغفل من لا يغفل عنه.

فضيل قال لسفيان بن عيينة: ويل لي وويل لك إن لم يعف الله عنا إذا كنا نزعم أنا نعرفه ونعمل لغيره.

جعفر الضبعي: رأيت أبا ميسرة العابد قد بدت أضلاعه من الاجتهاد، فقلت: يرحمك الله، إن رحمة الله واسعة، فغضب وقال: هل رأيت مني ما[٣٠٧] يدل على قنوط، ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، قال جعفر: فأبكاني قوله.

الأنطاكي: الرجاء ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول: أرجو، ومن عُرِف بالإساءة ينبغي أن يكون خوفه راجحًا على رجائه.

ولما طُعن عمر رضي الله عنه فقال له رجل: أرجو ألا تمس جلدك النار، فنظر إليه فقال: إن من غررتموه لمغرور، والله لو أن لي ما على ظهر الأرض لافتديت به من هول المطلع.

وكتب أبو عمر الصبوري إلى بعض إخوانه: أما بعد فقد أصبحت تأمل الدنيا بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك، فإنما تضرب في حديد بارد، والسلام.

أبو عبدالله محمد بن كرام: الاغترار في ثلاث: في جمع مال يخلفه[٣٠٨]، وزيادة ذنوب تهلكه، وترك عمل ينجيه.

---

(٣٠٥) انظر التخويف من النار لزين الدين السلامي ص٢٤٦.

(٣٠٦) إلى الدنيا: إليها، م ي.

(٣٠٧) الخيرات للجيطالي ٣/ ٣١٤.

(٣٠٨) يخلفه: تخلفه، م ي. انظر تنبيه الغافلين ٥٩٣.

وقيل [شعر]:

عجبًا [لـي] ولاغـترارى بـدارٍ لسـت أبقـى لهـا ولا تبقـى لـي
مـا تصافى قـومٌ على غير ذات اللـ ـهِ إلّا تفرقـوا عـن تَقـالِ[٣٠٩]

مبحث في الخوف والخشية من الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يكاد يقوم من مجلسه حتى يدعو الله بهذه الكلمات: اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن التقى ما تهون به علينا مصائب الدنيا وشدائد الآخرة»، وفي رواية: «ومن اليقين» بدل: «ومن التقى».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما تحات عن الشجر البالية ورقُها».

عيسى بن مريم صلوات الله عليه: حُبُّ الجنة وخشية جهنم يورثان الصبر على المشقة ويباعدان العبد من راحة الدنيا.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رأس الحكمة مخافة الله».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ترك العبد شيئًا مخافة الله إلا أعقبه الله فرحة يجد لذتها في قلبه، وأبدله بذلك خير الدنيا والآخرة».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الموت من دار إلا الجنة أو النار».

إسحاق بن خلف: ليس الخائف الذي يبكي ثم يمسح عينيه، ولكن الخائف من يترك ما يخاف أن يعذَّب عليه.

---

(٣٠٩) ديوان أبي العتاهية ص٣٥٣.

اجتمع[٣١٠] الحسن والفرزدق على جنازة نوار امرأة الفرزدق، فقيل: اجتمع خير الناس وشرهم، فسمع إلى كلامهما، فقال الحسن له: ما أعددت لمثل هذا المقام، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ خمسين سنة، فقال: هذا العمود فأين الطنب[٣١١]، فبكى الفرزدق وقال:

أخافُ وراءَ القبرِ إن لم تُعافني ... أشدَّ من القبرِ التهابًا وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامة قائدٌ ... عنيفٌ وسوَّاق يسوقُ الفرزدقا
لقد خابَ مِن أولادِ آدم من مشى ... إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا

جنبي تجافى عن الوساد ... مخافةَ الموتِ والمعادِ
من خاف من سكرة المنايا ... لم يدر ما لذةُ الرقادِ
قد بلغَ الزرعَ منتهاهُ ... لا بد للزرع من حصادِ

عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، هو الذي يسرق ويشرب ويزني؟ قال: «لا يا بنت أبي بكر، ولكن الذي يصوم ويصلي ويتصدق ومع ذلك يخاف الله».

أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى خف من يعلم السر والعلانية، وارج من يملك الدنيا والآخرة، واحذر من يأخذ حيث يشاء.

مبحث في الحزن والقلب الحزين

قال الله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ [مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ][٣١٢]﴾ [المائدة:٨٣].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب كل قلب حزين». وقال عليه السلام: «إن لكلّ شيء لقاحًا ولقاح العمل الصالح الحزن».

الحسن بن علي عليهما السلام: سألت خالي هند بن أبي هالة - وكان وصافًا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقلت: صف لي منطقه؟ فقال: كان صلى الله عليه وآله وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة.

---

(٣١٠) اجتمع: اتمع، م ي.

(٣١١) الأمالي للسيد المرتضى ١/٤٦.

(٣١٢) ما بين المعكوفين في الأصل: حزنًا. ولعل الصواب ما أثبتناه. ولفظ: (حزنًا) ورد في سورة التوبة آية (٩٢)= =قوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾.

أبو ذر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أهل الحزن في أمر الله في علو من الله»[٣١٣].

معاذ بن جبل، عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يبغض الفرحين المرحين البذخين، ويحب كل قلب حزين».

ابن عباس في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر:٣٤]، قال: هم قوم كانوا في الدنيا يخافون الله، ويجتهدون له في العبادة سرًا وعلانية خوفًا من الله، وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم، خائفون لئلا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من أجل الذنوب التي قد سلفت، فعندها قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ شكر لنا القليل من أعمالنا وغفر لنا العظيم.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل: من أول من يرد عليه الحوض؟ قال: «الذابلون الناحلون السائحون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن».

الحسن: ما أصبح المؤمن إلا مهمومًا محزونًا، ففرُّوا وافزعوا إلى ربكم فإنه ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله[٣١٤].

(٣١٣) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري ٢/ ٤١٠.

(٣١٤) انظر الهمّ والحزن لابن أبي الدنيا ص٥٠.

باب في المبتدأ
وقصص الأنبياء عليهم السلام

فصل في خلق السماوات والأرض وما فيهما

أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال: جاءت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الستة الأيام؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «خلق الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات وخرابها وعمرانها يوم الأربعاء، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات بقيت في يوم الجمعة، وخلق في أول ساعة من هذه الثلاث ساعات الآجال، والثانية الأوقات، وفي الثالثة آدم»[1]، قالوا: صدقت إن أتممت، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يريدون فغضب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۞ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ..﴾ الآيات [ق:٣٨، ٣٩].

عبيد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر فيها يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، وبث الدواب فيها يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة بعد العصر إلى غروب الشمس»، ورواه أبو هريرة أيضًا «وأول شيء خلقه قبل النور والظلمة، ثم ميز بينهما فجعل من الظلمة الليل، ومن النور النهار»، عن محمد بن إسحاق، وقيل: القلم كتب ما يكون إلى يوم القيامة.

عن ابن عباس: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، فرفع بخار الماء ففتقت منهاالسماوات، ثم خلق منه النون فبسط الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال، وإنها تفخر على الأرض[2].

---

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٢٠٢.

(٢) انظر القدر للفِرْيابي ص٨٢.

وقيل: أول ما خلق الله العرش والكرسي، وقيل: أول ما خلق الله العقل على ما جاء في الأثر، والصحيح أن أول ما خلق حيوان عاقل ينظر فيما خلق فيستدل به على الصانع على ما ذهب إليه مشايخنا رحمهم الله.

وفي بعض الأخبار أن السماء خلقت[٣] أوّلًا من الأرض، وفي أكثرها أن الأرض خلقت قبل السماء.

قال الشيخ رحمه الله: والأقرب أنه خلق الماء، ثم ارتفع منه دخان خلقه قبل الأرض، ثم خلق الأرض من زبد الماء وطحاها على الماء، ثم خلق السماوات وفتقها بعد ذلك، ليكون جمعًا بين الأخبار وموافقًا لظاهر الكتاب حيث يقول سبحانه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ [فصلت:٩] إلى آخر الآيات.

وفائدة خلقها في الأيام الستة وإن كان قادرًا عليها في طرفة عين: قيل: للمصلحة، وقيل: ليعلم أن التأني خير من العجلة، والصحيح أن المصلحة فيها كونها صالحة للاستدلال بها على الصانع المختار، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَمَسَّحُوا بالأرض فإنها بكم بَرَّةٌ»، فمن الأرض خلقنا، وإليها نعود، قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

وقيل: أول شيء خلقه الله بعد آدم الجراد، بقي من طينته شيء فخلق منه الجراد، عن سعيد بن المسيب، وعن عطاء ومكحول قال: كنا جلوسًا بالطائف مع ابن عباس وعنده محمد بن علي، فوقعت جرادة على المائدة فاضطربت، فأخذها عن كمه، قال عبد الله: ما هذه؟ قالوا: جرادة، قال: انشر جناحها، فإذا فيها سود، فالتفت إلى محمد بن علي فقال: يا ابن أخي هل عندك في هذا شيء؟ قال: نعم حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «هذه النقط السود مكتوب بالسريانية مقطع: أنا الله إله العالمين، قاصم الجبارين، خلقت الجراد وجعلته جندًا من جندي أهلك به من شئت من خلقي».

وقيل: إن الله تعالى خلق ستة أشياء من ستة، وأهلك بها ستة، وحفظ بها ستة، وأهلك بها ستة نفر، وحفظ بها ستة أقوام:

أولها: التراب؛ خلق آدم منه، وحفظ يوسف فيها، وأهلك قارون به قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص:٨١].

---

(٣) خلقت: خلق، م ي.

وثانيها: الحيوان، خلق حواء من آدم، وحفظ يونس في السمكة، وأهلك قوم نمرود بالبرغوث، وأصحاب الفيل بطير أبابيل.

وثالثها: الريح، خلق منها عيسى، وحفظ بها سليمان، وأهلك بها عادًا.

ورابعها: الحجر، خلق منه ناقة صالح، وحفظ في الغار محمدًا وأبا بكر، وأهلك بها أصحاب الفيل وقوم لوط.

وخامسها: النار، خلق منها الجان، وحفظ فيها إبراهيم، وأهلك بها قوم شعيب.

وسادسها: الماء، خلق منه بني آدم، وحفظ فيه موسى، وأهلك فيه فرعون، وأهلك به الفراعنة.

فصل في قصة آدم عليه السلام

يقال: إنه تعالى خلق الأشياء من ستة أشياء جمعها مما لا يمكن للأبدان أن تجعل سببًا بل هو مفسد: من التراب آدم، ومن الماء بنيه، ومن الريح عيسى، ومن النار الجان، ومن الدخان السماء، ومن الزبد الأرض، وبدأ بالسقف قبل الأساس، ووضع الأساس على الماء؛ ليعلم أن قدرته كاملة، وأنه أقدر القادرين تعالى الله علوًا كبيرا.

مبحث في خلق آدم

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤].

اعلم أن الخلق على أوجه:

الدين ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ﴾ [النساء:١١٩].

الثاني: الكذب ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧].

الثالث: الجعل، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة:١١٠].

الرابع: الإنشاء، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [فصلت:٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ﴾ [المؤمنون:١٢]، أراد به آدم عليه السلام.

قيل: استل آدم من طين، عن قتادة، وقيل: آدم سلالة، لأنه سل من كل تربة.

وعن الزهري: خمر طينة آدم أربعين صباحًا، وقيل: أربعين سنة، ثم نفخ فيه الروح، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون:١٣] يعني ولده، والعلق الدم، والمضغة قطعة من اللحم قليلة مقدار ما يمضغ، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤] قيل: ذكرًا وأنثى، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأبي العالية. وقيل: خروج الأسنان والشعر، عن الضحاك، وفي الآية تنبيه على التواضع وترك الكبر؛ لأن من كان أوله ترابًا فآخره يصير إلى التراب، وأوله مهين وآخره موت وأنين، فحقيق أن يتواضع لرب العالمين.

ومر مطرف بن عبد الله على المهلب وهو يتبختر فقال: يا عبد الله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال المهلب: أما تعرفني؟ قال: من أنت؟ قال: أنا المهلب، قال: بلى أعرفك أفٍّ لك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وتحمل ما بين ذلك عذرة، فترك المهلب تلك المشية.

أنس قال: خطبنا أبو بكر فذكر بدء خلقنا من نطفة تخرج من مخرج [البول] ثم يرتفع إلى رحم المرأة ثم من علقة [فما زال] يذكرنا حتى يقذر أحدنا نفسه، ثم قال: إياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب ثم إلى التراب يعود تأكله الدود، ثم هو اليوم حي وغدًا ميت.(٤)

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وأذل نفسه من غير مسكنة، وأنفق مالًا جمعه من غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»، وتفاخرت قريش عند سلمان فقال سلمان: لكني خلقت من نطفة مذرة، ثم أعود جيفة قذرة، ثم إلى الميزان، فإن ثقل فأنا كريم، وإن خف فأنا لئيم.

شعر:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلا تواضعًا	فكم تحتَها قومٌ هـمُ منك أرفعُ
فإن كنتَ في عزٍّ وحزبٍ ومَنَعَةٍ	فكم مات من قومٍ هـمُ منك أمنعُ

ولبعضهم: أتتصلف يا حنش مشفق. وفائدةُ الآية إعلام الله تعالى إيانا نعمته علينا حيث خلقنا، ومن أي شيء صيرنا، وبين قدرته لتعظيمه حق عظمته، ونشكره كما يستحق لنعمته.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية فلما بلغ قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا

---

(٤) الإنابة عن طرق القاصدين ص١٠٠.

ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤]، قال عمر: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كذلك أنزلت يا ابن الخطاب»، ثم قال: «إنكم بعد ذلك لميتون».

الخدري: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى ناسًا يضحكون فقال: «أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات لشغلكم عما أرى، أكثروا ذكر هادم اللذات الموت».

مبحث

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]

سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض.

وهب: كانت الأرض تسكنها الجن فقسدوا فيها، فبعث الله ملائكة فأخرجوهم عنها، وسكنتها الملائكة فعبدوا الله إلى أن قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ﴾ [البقرة:٣٠]، واختلفوا بماذا علموا أنهم يفسدون؟ قيل: أَعْلَمَهُم اللهُ، وقيل: وجدوا ذلك في اللوح، وقيل: قالوا يكون كذلك كما كانت الجن، فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أن فيهم المطيع وأن فيهم الأنبياء والمؤمنين، ثم بعث الله جبريل ليأخذ من وجه الأرض قبضة من التراب من جميع ألوانها، فقالت الأرض: أعوذ بعز الله أن يقبض مني من يعصي فيدخل النار، فإذا كانت الأرض تخاف النار فما بالك ألا تخاف فقد استوجبت، وكان بعضهم يقول: أللنّار ربتني أمي، يا ليتني لم تربني، أم للشقاوة ولدتني يا ليتها لم تلدني.

يحيى بن معاذ: لا أدري أي المصيبتين أعظم: فوت الجنان، أم دخول النيران.

يزيد الرقاشي: ذكر النار شديد فكيف دخولها، ودخولها شديد فكيف الخلود فيها، كم من وجه صبيح وبدن صحيح غدا بين أطباق النيران يصيح.

واختلفوا في أي موضع خلق آدم: قيل: من وجه جميع الأرض، عن ابن عباس، وقيل: من سبع أرضين، عن وهب.

ثم بعث ملك الموت فأتاه بقبضة من تراب فجعلها طينًا أربعين سنة، ثم قال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص:٧١]، ثم صار حمأ مسنونًا أربعين سنة، قال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ

﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ [الحجر:٢٧]، ثم عاد صلصالا[٥] كالفخار أربعين سنة ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، ثم صور آدم فبقيت صورته كذلك أربعين سنة ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان:١] يعني أربعين سنة، ثم نفخ فيه ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، فأول النفخ الروح في دماغه، ثم نزل إلى عينيه فنظر، ثم نزل إلى خياشيمه فعطس، ثم نزل إلى فمه فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله: رحمك ربك ولهذا خلقك، فصار [تشميت] العاطس سُنَّة، وقد ذكرنا فيه بابًا بعد هذا في أنباء الكتاب، ثم علم آدم الأسماء كلها؛ يعني أسماء كل شيء، وعرضها على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] في الأخبار ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، قال: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة:٣٣]، علموا فضله ونبوّته[٦]، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ بالمصالح منكم، ثم أمر الله الملائكة بالسجود ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ [الحجر:٢٩-٣١] ولم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن لما حاربت الملائكة الجن في الأرض بقي إبليس بين الملائكة فعبد كعبادتهم، وتخلَّق بأخلاقهم، وكان صغيرًا فكبر بينهم، فلما أمر الملائكة بالسجود أُمر به معهم، فسجد الملائكة إلا إبليس لما أمره الله بالسجود داخله العجبُ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص:٧٦]، ثم حسده فقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء:٦١]، وتفسير العجب: أن ترى لنفسك الفضل على غيرك من غير حقيقة، وتستطيل بعملك مَنْ دونك وتحقر من دونك، ويقال: إن من صالح عملك أن ترفض عجبك، ومن صالح شكرك أن تعرف تقصيره، وقال: للحسود ستة أشياء قبل أن تصل إلى المحسود: غم لا ينقطع، ومصيبة لا تؤخر، ومذمة لا تحمد، وسخط للرب، والبغضة عند أهل الخير، وإغلاق باب التوبة عليه.

ويقال: إن الحاسد بارز ربه من ستة أوجه: [أنه أبغض][٧] نعم الله على غيره، وسخط بقسمه، ولم يرضَ بقضائه، وكابر مقدوره، وخذل وليه، وأعان عدوه.

فلما حسد وأبى السجود لآدم قال: كيف لا تسجد؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦]، فأخطأ من وجوه:

---

(٥) صلصالا: صلصال، م ي.

(٦) ونبوّته: وثبوته، م ي.

(٧) انظر السراج المنير ٤/ ٧٣٠.

منها: أن منافع الأرض أكثر.

ومنها: أنه لا ضرر في الأرض.

ومنها: أنها حافظة لما يودع فيها والنار محرقة.

ومنها: أن الأرض تقوم بغير النار، والنار لا تقوم بغير الأرض.

ومنها: أنها موضع العبادة.

ومنها: أنها منصرف الخلق بخلاف النار، إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكروها، والأصل فيه أن الفضل بخصال معلومة دون الأصل الذي خلق فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، ولأنه لا تأثير له في الأصل فلا يكون له به فضل.

شعر:

فقد رفع الإسلام سُلمانَ فارس ... وقد وضع الشِّركُ الشريفَ أبا لهب

آخر:

ألا الزهد في الدنيا هو العز والكرم ... وحرصك في الدنيا هو الذل والعدم

وليس على عبد عليم نقيصة ... إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

وقال تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ[٨] مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [الحجر:٣٤]، ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣]، فطردته الملائكة من السماوات فقال: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الأعراف:١٤] يعني يوم القيامة، فقال: ﴿فَإِنَّكَ[٩] مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ [الحجر:٣٧، ٣٨]، قيل: وقت موته، وقيل: النفخة الأولى، وقيل: يوم القيامة، واختلفوا: هل أجاب دعوته؟ قيل: لا؛ لأنه ثواب [عن أبي] علي، وقيل: نعم للمصلحة، عن أبي بكر الإخشيدي ولو تاب واستغفر لغفر له فلم يفعل ولكن زاد في العصيان فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ..﴾ الآية [الأعراف:١٧]،

(٨) في م ي: اخرج. وما أثبتناه من المصحف.

(٩) في م ي: إنك. وما أثبتناه من المصحف.

وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ [الإسراء:٦٣]، وقال: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ..﴾ الآية [الإسراء:٦٤]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء:٦٥] يعني المؤمنين.

رجعنا إلى حديث آدم: قال: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥].

روي أنه تعالى أمر الملائكة بأن يطوفوا بآدم على أعناقهم ليرى عجائب بها، ففعلت ذلك مائة عام، والله أعلم.

وسئل كعب: كم طافت الملائكة بآدم في السماوات؟ قال: ثلاث مرات: مرة على أعناقهم، ومرة على سرير الكرم، ومرةعلى فرسه الميمون.

وروي أن أول من سلم على آدم الملائكة فكانت سنتهم في ذريته، وقد ذكرنا بعد هذا بابًا في السلام، وفيه ثلاث إشارات، وثلاثة أشياء كراهية، أما الأول[١٠]: فسلام الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير. والثاني: رفع الصوت. والثالث: السلام على أهله. ويكره: السلام على الكفرة والفسقة، ويكره إخفاء السلام والجواب تكبرًا.

رجع حديث آدم: إن الله تعالى ألقى النعاس على آدم، فلما قام خلق من جانبه الأيسر من ضلعته القصرى حواء، وسميت حواء لأنها خلقت من شيء حي، فانتبه وهي جالسة عند رأسه، فقال: من هذه يا رب؟ قال: أمتي، قال: زوجني إياها، قال: نعم، فوضع كرسي من جوهر واجتمعت الملائكة، وخطب جبريل، وزوجها الله تعالى من آدم، ونثرت الملائكة فصار النثر سنة، وكذلك الخطبة، والولي[١١] والشهود.

وعن ابن عباس: اعلنوا النكاح فإنه سنّة أبيكم آدم، وليس شيء أحب إلى الله من النكاح، وليس شيء أبغض إلى الله من الطلاق، ومجلس النكاح بحضرة الملائكة، ومجلس الطلاق بحضرة الشياطين[١٢].

وقال عليه السلام: «من رغب في ملتي فليستن بسنتي ألا وهو النكاح»، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور:٣٢].

---

(١٠) الأول: الأدب، م ي.

(١١) والولي: والأولى، م ي.

(١٢) انظر قصص وموالد الأنبياء ص٣٠.

فسكن آدم إليها فأحبها، قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١]، وكان يحسن معاشرتها وكذلك ينبغي، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان».

الفضيل: لأن يلاطف الرجل مع عياله خير من قيام ليلة، وقيل: من ساء خُلُقه عذَّبَ نَفْسه، وقد ذكرنا في معاشرة العيال بابًا في أثناء هذه السفينة.

واختلفوا فيما روي من إخراج الذرية من صلب آدم وأخذ الميثاق: قيل: إنه رواية باطلة وإنه لا يجوز، عن آل علي وآل هاشم وجماعة أصحابنا. وقيل: إنه يجوز لضرب من المصلحة، عن أبي بكر الإخشيدي.

وروي أن الملائكة قالت: يا رب، بنو آدم مع كثرة ما ينسلون كيف تتسع الأرض لهم؟ قال: أجعل بينهم موتى، يجيء قرن ويذهب قرن، قالوا: وكيف يهنأ لهم[١٣] العيش؟ قال: أجعل بينهم غفلة بها يعيشون.

رجع إلى حديث آدم: قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]. فألبسه لباس الجنة، وتُوِّجا وسُوِّرا، وخُتِما وهما على سرير من سرر الجنة، فأوحى الله إليهما ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف:١٩]، فاختلفوا فيها، قيل: السنبلة، وقيل: شجرة الخمر، وقيل: شجرة الكرم، وقيل: شجرة التين، والشجرة كل نبت له ساق، فكانا في الجنة مع الملائكة، وأكلا من نعيم الجنة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أول شيء أكلا العنب، وتينها ونخلها من كل لون، ونهيا عن تلك الشجرة، فكانا لا يأكلان منها، فاستطار إبليس لما علم بالنهي فرحًا، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ[١٤] ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ..﴾ [الأعراف:٢٠] الآيات.

واختلفوا كيف وسوس؟ قيل: كان يعبد في السماء، وكان يخرج آدم إلى باب الجنة، فوسوس، وقيل: إنه دخلها في فم حية وكان ملكًا، وهذا غير صحيح، ورووا أن الحية قالت: إني أخاف إن أدخلتك الجنة، فقال إبليس: أنت في ذمتي إلى يوم القيامة، قال ابن عباس: اقتلوا الحية حيث وجدتموها واخفروا ذمة إبليس، والله أعلم.

---

(١٣) يهنأ لهم: يهناهم، م ي.

(١٤) في م ي: إليهما. وما أثبتناه من المصحف.

وروي أنه كان يبكي وينوح فقالت حواء: ما لك؟ قال: أنوح شفقة عليكما، قالت: ولم؟ قال: نهاكما ربكما عن شيء؟ قالت: بلى عن هذه الشجرة، قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢٠، ٢١] إن هذه الشجرة شجرة الخلد، فبادرت حواء وداخلها الحرص وذكرت ذلك لآدم، ويقال: إن الحريص محروم.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا زعيم ثلاثة من البشر بثلاث: للحريص على الدنيا الشحيح بها المكب عليها بفقر لا غنى، وبشغل لا فراغ، وهم لا فرح، خاتم الحريص لا يخرج من الدنيا إلا خائفًا عطشان».

ثم طافت حول السنبلة فأخذت واحدة فأكلتها وادخرت واحدة، وهي شيء عجيب عظيم، وحملت خمسًا إلى آدم، وهي سنابل أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل. ويقال: إنه كان بين أكلها وأكل آدم سنة.

واختلفوا كيف كان أكل آدم؟ قيل: نهي عن شجرة وأريد الجنس فأكل من جنسها لا من عينها وترك الاستدلال، عن أبي علي. وقيل: نسي النهي، عن البغدادية. وقيل: تعمد إلا أنها وقعت صغيرة، عن أبي هاشم.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٢٢] فناداهما ربهما: أفرارًا مني يا آدم، قال: بل حياء منك ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢]، يعني لما أسكنهما الجنة قال لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة، واعلما ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني إبليس ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧]، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

يقال: سعد آدم بخمسة: أقر على نفسه، وندم عليه، ولام نفسه، وأسرع في التوبة، ولم يقنط من رحمة الله.

وشقي إبليس بخمسة: لم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، ولم يتب، وقنط من رحمة الله.

وكان أحمد بن حرب يقول: يا صاحب الذنوب أنت بها يوم القيامة مكروب، أما [آن] لك

أن تتوب، يا صاحب الذنوب، ذنبك[١٥] في الديوان مكتوب، يا صاحب الذنوب أنت بها يوم القيامة مكروب، يا صاحب الذنوب أنت غدًا بالذنب مطلوب، يا صاحب الذنوب أنت بها إلى النار مسحوب.

كهمس بن الحسن قال: أذنبت ذنبًا فأنا أبكي عليه مدة أربعين سنة، قيل: وما هو؟ قال: زارني أخ لي فاشتريت سمكًا فأكلنا، فعمدت إلى حائط جار لي فأخذت قطعة من طين فغسلت بها يدي.

شعر:

يـا صاحـبَ الذنـبِ لا تَقْنَطَـنْ ... فـإن الإلـهَ رؤوفٌ رؤوفْ

ولا تَرحَلَـنَّ بـلا عُـدة ... فـإن الطريـق مخـوفٌ مخـوفْ

ويقال: أذنب آدم مرة فقال مائتي سنة: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ربنا ظلمنا أنفسنا، أفلا تقولها [المرء] كذا كذا في السنة.

﴿قَالَ[١٦] ٱهْبِطُواْ﴾ [الأعراف:٢٤]، قيل: آدم وحواء وإبليس، يقال: لما أذنب آدم وحواء وصارا عريانين وناداهم ربهما: ألم أنهكما، قال آدم: الأمان الأمان يا رباه، قال: أين أنت يا آدم، قال: هأنذا عريان، فنودي يا جبريل قف به على باب الجنة حتى يخرج أعداؤه الذين حملوه على الذنب، ثم قال: يا حواء، قالت بصوت ضعيف: هأنا عريانة، قال صوت كذا من خطيئتك ما حملك على إغراء عبدي فأنت تحملينه على أكل الشجرة، قالت: يا رب ما ظننت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا.

وقيل: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ يعني آدم وحواء والحية ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف:٢٤] يعني آدم وذريته عدو إبليس وهو عدوهم والحية بعضكم لبعض عدو وهم عدوها ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأعراف:٢٤] يعني موضع قرار، وقيل: القبور ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة، فأول من هبط من السماء آدم بالهند على جبل واشم، ثم حواء بجدة، وآخر من هبط إبليس بأصفهان ملعونًا رجيمًا.

وعن وهب: قال إبليس: يا رب لعنتني وأخرجتني من الجنة وجعلتني شيطانًا رجيمًا، فمن

---

(١٥) ذنبك: ذنوبك، ي.

(١٦) في م ي: قيل. وما أثبتناه من المصحف من سورة الأعراف.

رسلي[١٧]؟ قال: الكهنة، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: فما حديثي؟ قال: الكذب، قال: فما قراءتي؟ قال: الشعر، قال: فما أداتي: قال: المزامير، قال: فأين مسجدي؟ قال: السوق، قال: فما بيتي؟ قال: الحمام، قال: فما طعامي؟ قال: ما لم يذكر اسمي عليه، قال: فما شرابي؟ قال: المسكر، قال: فما مصايدي؟ قال: النساء، قال: وعزتك لا أفارق بني آدم حتى يموتوا، قال: وعزتي لا أنزع التوبة عنه حتى أنزع الروح، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [يس:٦٠].

رجع إلى حديث آدم: فأنزل الله الضأن فجزّ الصوف وغزلته حواء ونسجته هي وآدم، فجعل آدم لنفسه جبة ولحواء درعًا وخمارًا، وقال الله: يا آدم لا تأكل خبزًا إلا بعرق الجبين وكد اليمين، فذلك قوله: ﴿فَلَا[١٨] يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ • إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه:١١٧، ١١٨]، قال: وبكى آدم على الجنة مائتي عام. شعر:

تصل الذنوبَ إلى الذنوبِ وترتجي	دَرَكَ النجاةِ بها وفوزَ الفائزِ
ونسيت أن الله أخرجَ آدمًا	منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

قيل: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ[١٩] ءَادَمُ﴾ [البقرة:٣٧]، قيل: اختلفوا فيه، قيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، وقيل: قوله: لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي ذنبي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، وقيل: قال: يا رب أسألك بحق من وهبت له الشرف والفضيلة والحوض والشفاعة والدرجة الوسيلة إلا غفرت لي، قال الله: يا آدم من هذا الذي سألتني بحقه، قال: يا رب محمد بن عبد الله صفيك وحبيبك، قال: ومن أين علمته، قال: رأيت على سرادق العرش: لا إله إلا الله محمد عبدي ورسولي، فغفر له، عن كعب.

وكان آدم بمنى فقال جبريل: يا آدم تمنّ، فقال: أتمنى الجنة، فسمي الموضع منى.

وأمر آدم ببناء الكعبة، فلما فرغ من بنائها رجع إلى الهند ومات بها، وقد كثرت أولاده، قيل: ولدت حواء مائة وعشرين بطنًا، كل بطن ذكر وأنثى، عن وهب. وقيل: خمسمائة بطن ألف شخص، عن جماعة من أهل العلم.

---

(١٧) فمن رسلي: فما رسالتي، م ي.

(١٨) في م ي: لا. وما أثبتناه من المصحف.

(١٩) في م ي: وتلقا. وما أثبتناه من المصحف.

وكان مكث آدم فيما روي في الدنيا خمسمائة عام، وفرض عليه الصلاة.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو جمع بكاء أهل الأرض [إلى] بكاء [لكان بكاء[٢٠]] نوح أكثر، وسمي نوحٌ نوحًا، لأنه كان ينوح على نفسه، ولو جمع بكاء أهل الأرض وبكاء نوح إلى بكاء آدم لكن بكاؤه أكثر».

ودخل الحسن على مريض يعوده فقال: كيف أنت؟ وقل شيئًا، فقال: إني أرى نفسًا ضعيفة بلا حيلة، ونفسًا مريضة بلا دواء، وأرى ملك الموت بلا رحمة[٢١]، وطريقًا طويلًا بلا زاد، وأرى رحمة واسعة بلا طاعة، وأرى ربًا عادلًا بلا حجة.

مبحث آية ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ..﴾

﴿فَتُقُبِّلَ[٢٢] مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ [المائدة:٢٧] يعني هابيل ﴿وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ يعني قابيل ﴿مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يعني الراكنة قلوبهم يتجنبون المعاصي ويبادرون في الطاعة.

قال: وأمر آدم قابيل أن يتزوج أخت هابيل، وأمر هابيل أن يتزوج أخت قابيل، فأبى قابيل وقال: أنا أحق بأختي، فأمرهما أن يقرّبا قربانًا، فمن تقبل منه وتحرقه النار زوج منه أخت قابيل، فقرب هابيل كبشًا من أعظم غنمه وخيارها، وقرب قابيل من شر زرعه، ثم أخبر[٢٣] آدم بهما، فأضمر قابيل أنه لا يبالي أقبل منه أم لا، وأضمر هابيل الرضى، ثم دعا اللهَ آدمُ، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، فغضب قابيل وقال لهابيل: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾، قيل: سبب الحرب كان هذا، ﴿قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ﴾، ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ..﴾ الآية [المائدة:٢٨]، قال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ [المائدة:٢٩] أي إثم قتلي مع سائر الآثام التي سبقت منك، فقتله بحجر فسقط في يده، وندم ساعتئذ فأصبح من النادمين، وكان أول من عصى من ولد آدم، ثم رجع إلى أهله، فلما أبطأ هابيل قيل له: هل رأيت هابيل؟ قال: لا، ثم أتى الموضع الذي قتل أخاه فيه ولم يدر ما يصنع ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا﴾ احتمل أخاه فواراه، فمكث زمانًا وبلغ آدم ذلك، فأتى الموضع

(٢٠) انظر تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/ ٢٦٤.

(٢١) رحمة: محيا، م ي.

(٢٢) في م ي: تقبل. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٣) أخبر: أنطلق، م ي.

فوجده قتيلًا، فحزن على ذلك، واحتمله على عنقه قتيلًا، ويدور به في البلاد ويبكي، وهو يقول:

تغيـرتِ البـلادُ ومـن عليهـا ... فوجـهُ الأرضِ مغبـرٌ قبيـحُ
تغيـر كلُ ذي طعـمٍ ولـونٍ ... وقـلَّ بشاشـةُ الوجـهِ المليـحُ
فيـا أسـفا علـى هابيـلَ ابنـي ... قتيـلًا قـد تضمنـه الضريـحُ

ثم دفنه، وكان أول دفين.

وقوله: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [فصلت:٢٩] قيل: شيطان الإنس والجن، وقيل: إبليس وقابيل لما سن العصيان.

وعلَّم الله آدم حروف المقطعات واللغات على ما يتكلم به، فلما حضرته الوفاة عهد إلى ابنه شيث - وكان خيرهم - وقال: يا بني قل لأولادك [لا] تطمئن قلوبهم بهذه الدنيا الفانية، فإني اطمأن قلبي بالجنة الباقية فلم يرض الله ذلك مني، وقل لهم: لا تعملوا بهوى النساء فإني عملت بهوى حواء فوقعت فيما وقعت فيه، والثالث: قل لهم: كل عمل يريدون أن يعملوا فيقفوا سويعة، فإني لو وقفت سويعة ما أصابني ما أصابني، والرابع: قل لهم: إذا اضطربت قلوبُهم في شيء فدعوه، فإن قلبي كان يضطرب عند أكْلِ الشجرة[٢٤].

وتوفي آدم عليه السلام، ونزل جبريل في كبكبة من الملائكة وقال: إنما نزلنا للصلاة عليه، ونزلنا بحنوطه وكفنه من الجنة، أمرنا أن نغسله بالماء والسدر ثلاثًا، وأن نجعل في الثالثة الكافور، وأن نكفنه في وتر من الثياب، ونحفر له ونلحد له في غار لأبي قبيس، وصلى عليه شيث وكبَّر أربعًا، وقيل: ثلاثين، ولم يزل في ذلك الغار، فاستخرجه نوح وجعله في تابوت السفينة ثم رده إلى ذلك الموضع، فإذا كان آدم - فيما أكرمه الله - لا بد له من الموت فبنوه أحق.

شعر:

ومـا أنـت إلا هالـكٌ وابـنُ هالـكٍ ... وذو نسـب فـي الهالكيـن عريـقِ
متـى اختبـر الدنيـا لبيـبٌ تكشَّـفتْ ... لـه عـن عـدوٍّ فـي ثيـابِ صديـقِ

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في مرضه: «يا أبا بكر قل لأمتي: كونوا على أثري وأثر أصحابي، واعلموا أني لم أبعث تاجرًا وزارعًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة، وإني

(٢٤) تنبيه الغافلين ص١٢٦.

أوصيكم أن تبغضوا ما يبغض الله وهو الدنيا، فازهدوا في الدنيا، فإن من زهد في الدنيا لحق بي في الآخرة».

وروي أنه قال: «لم أومر بجمع الدينار والدرهم، ولكن قيل لي: ﴿وَٱعْبُدْ[٢٥] رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، يعني الموت».

فصل في حديث إدريس عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٦، ٥٧]، واسمه خَنُوخ، وسمي إدريس لكثرة ما كان يدرس من كتاب الله تعالى وسنن أنبيائه، وأوحى الله إلى إدريس وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وكان أول مَنْ خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبسها، وأول من تعلم في علم النجوم والحساب، ويقال: إن قصة هاروت وماروت في زمانه، واختلفوا في هاروت وماروت، فقيل: ملكان، وعليه أكثر أهل العلم، وأنزل الله على الملكين يعني الذي أنزل عليهما التبيين للناس ليقولا[٢٦]: لا تفعل هذا السحر، وقيل: ما أنزل عليهما السحر، ولكن كذب اليهود والشياطين عليهما، كما كذبوا على ملك سليمان، وقيل: هاروت وماروت رجلان. والله أعلم.

قال: وقام إدريس لعبادة الله جُهْدَهُ حتى أحبته أهل السماوات، وكان إدريس يسبح النهار كله صائمًا، ثم يحيي الليل كله، ثم رجع إلى السماء وأدخل الجنة.

وقد روي في ذلك قصة، وهي أن ملك الموت اتخذه خليلًا، ثم سأله أن يذيقه الموت فأذاقه الموت، ثم حمله إلى السماء وأراه النار، ثم أدخله الجنة فأبى أن يخرج، في حديث طويل. والله أعلم بما يصح منه وما لا يصح.

ويروى أن أكثر عبادته تسبيح: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

---

(٢٥) في م ي: اعبد. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٦) ليقولا: ويقولا، ي.

فصل في حديث نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك، قال ابن عباس: لما مات إدريس ومضى زمانه اندرس الإسلام وشرائعه، فبعث الله نوحًا وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة، فدعا قومه مائة وعشرين سنة، وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة، ومكث بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقال وهب: بعث نوح وهو ابن خمسين سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وكان في ذلك الألف إلا الخمسين ثلاث قرون من قومه، وكان مع القرن الأول حتى انقرضوا ثلاثمائة سنة، ثم مع أولادهم وهم القرن الثاني ثلاثمائة سنة، ثم مع الثالث ثلاثمائة سنة أخرى، في كل ذلك يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، ويأمرهم بالتوحيد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ [أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ] قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [نوح:١، ٢] الآيات ﴿نَذِيرٞ﴾: مخوّف ﴿مُّبِينٌ﴾: مبين لكم الحق، وهو تبليغكم حتى تعرفوها إلى قوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح:٤]، فما آمن معه إلا قليل وجحدوا الأكثر، ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ[٢٧]﴾ [المؤمنون:٣٣] يعني الرؤساء، استهزاءً به ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ [وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ] بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧]، وفي الآية تنبيه في أن الفقراء أفضل من الأغنياء؛ لأنهم اتبعوا الرسول.

ويحكى عن بعضهم أنه قال: حسبك من فضل الفقراء أنه لم يكفر بسببه أحد ولم يشرك بالله الفقراء بخلاف الأغنياء ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧]، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ..﴾ إلى قوله: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا..﴾ [سبأ:٣٤، ٣٥] إلى قوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ [سبأ:٣٨] الآيات.

وقيل: مسكين ابن آدم لو رغب في الجنة كما رغب في الغنى لنالهما، ولو خاف النار كما خاف الفقر لنجا منهما.

وعن بكر بن عبد الله: [أنه كان] يعيش عيش الأغنياء ويموت موت الفقراء، وكان يلبس الجبة، ويتطيب، ويتصدق، فلما مات خلف أربعمائة درهم دينًا فما دفن حتى قضي عنه.

(٢٧) هكذا أورد الآية في م ي. ولعل الصواب أن تكون بداية الآية رقم (٢٧) التي في سورة هود حيث أكملها فيما يأتي وهي هكذا: فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ.

وعن أبي الدرداء: نحن نأكل كما يأكل الأغنياء، ونلبس كما يلبسون، ولهم فضول مال ينظرون إليه وننظر[٢٨] إليه، ويحاسبون غدًا عليه ونحن منه أبرياء.

رجع إلى حديث نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ...﴾ إلى قوله: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨]، وكان نوحًا حليمًا صبورًا، فكان يدعوهم ليلًا ونهارًا، وهم يؤذونه ويبطشون به، ويخيفونه حتى غشي عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وكانوا يتواصون بالكفر به، فإذا رأى الرجل منهم نوحًا قال: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا فلم يتبعوه، وإنه لمجنون، فلا تقبلوا منه شيئًا، وكان الواحد منهم يأتي بالصغير فيقيمه على نوح، ويقول: يا بني لا تطع هذا فإنه مجنون.

وحُكي أن رجلًا جاء بابنه على عاتقه، فلما رآه قال: يا أبت ضعني، فلما وضعه أخذ حجرًا فرمى به نوحًا وشجه، فلما طال ذلك قال: ﴿فَلَمْ[٢٩] يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٦] إلى قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ [نوح:٧]، وحبس الله عنهم المطر أربعين سنة فهلكت المواشي، وأصابهم الجهد، فاحتفروا الآبار، وقطع الله نسل ذراريهم ونسائهم أربعين سنة، فلما رأوا ذلك ورأى ما هم فيه من الجهد طمع فيهم فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [نوح:١٠]، فوعظهم ووعدهم بنعم الله تعالى، ثم حذرهم ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، ثم نبههم على توحيد الله ودلالته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ فبدأ أولًا بالسماء والكواكب والأرض، ثم بأنفسهم على ما قص الله تعالى في كتابه، ثم نبههم على الموت لقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ [نوح:١٨]، وعلى القيامة لقوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٨] إلى قوله: ﴿فِجَاجًا﴾ [نوح:٢٠]، فلم يجيبوه، فلما أيس منهم دعا عليهم ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ..﴾ [نوح:٢٦] الآيات، ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ﴾ يعني الرؤساء ﴿وَمَكَرُواْ﴾ يعني قالوا عظيمًا في الفراية على الله، ﴿وَقَالُواْ﴾ يعني الرؤساء للسفلة لا بد من أمر يأتيكم على ما ذكرتم، قالوا: يجب أن تطرد هؤلاء السفلة الذين آمنوا معك، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ [إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ] وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [هود:٢٩]، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود:٣١]، ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا [فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا] فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢]، ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [هود:٣٣]،

(٢٨) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٠.

(٢٩) في م ي: لم. وما أثبتناه من المصحف.

وأوحى الله إليه ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمنظرنا ﴿وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٦، ٣٧]، ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ..﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨، ٢٩]، فأخذ نوح في علاج السفينة فكلما مر به ملأ من قومه سخروا منه[٣٠]، ويقولون: صرت نجارًا بعدما كنت نبيًّا، ويقال: إنه كان نجارًا في الأصل، فيقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:٣٨، ٣٩]، فعمل السفينة ثلاثمائة ذراع في خمسين ذراعًا بذراع نوح، وقيل غير ذلك، وعمقها ثلاثون ذراعًا ثلاث طبقات، الأسفل للدواب والوحوش والطير، والوسط للطعام والشراب والأمتعة، والعليا للناس، وناس من قومه من وهب وكان من الناس ثلاثة وسبعون نفرًا، وفيهم نوح وبنوه ثلاثة: سام وحام ويافث ونساؤهم، وحمل معهم تابوت آدم، وجعله حاجزًا بين الرجال والنساء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ[٣١]﴾ [المؤمنون:٢٧] قيل: ظهور الماء على وجه الأرض، وقيل: من التنور المعروف ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ [المؤمنون:٢٩]، فقال نوح: يا رب كيف أحمل جميع الأشياء؟ [قال]: إني أمرت رياح الجنوب والشمال والقبول والدبور أن تجمع إليك الأشياء، فقال نوح لامرأته: إذا رأيت التنور ينبع بالماء فأخبريني، وقيل: إنه تنور آدم، وقيل: كان بالجزيرة، وقيل: بالكوفة، فذهبت المرأة لتكنس التنور للخبز فنبع الماء، فأخبرت نوحًا، وحشر الله لنوح الطير والدواب وكل شيء، فأخذ من كل جنس ذكرًا وأنثى، فحملهم في السفينة، وركب نوح، وتخلفت امرأته وَالهةٌ[٣٢] لقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ وابنه كنعان، وروي أن اسمه يام، عن محمد بن إسحاق، وكان كافرًا.

وفي هذه القصة التي مرت تنبيه على أن طاعة أحدٍ لا تنفعُ أحدًا، لأن نوحًا كان نبيًا فلم ينفع ذلك امرأته وابنه، وتنبيه على حسن الاحتمال والصبر على الأذى كما فعل نوح، فيجب على المؤمن أيضًا أن يكون في أمر الله صبورًا محتملًا.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي هريرة: «احتمل الأذى ممن هو أكبر

(٣٠) هكذا في م ي. ونص الآية في المصحف: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود:٣٨].

(٣١) هكذا وردت في م ي. ولعل الصواب أن تكون بداية الآية التي في هود بدليل إيراد بقيتها وهي: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

(٣٢) وَالهةٌ: رابع، م ي.

منك وأصغر منك، وخير منك وشر منك[٣٣]، فإنك إن كنت كذلك باهى الله بك الملائكة» تنبيه أن العاقبة للمتقين، وأن الظالم وإن عَمَّر وأُجِّل فهو إلى خسار، فينبغي للعاقل أن يتقي الله.

رجع إلى حديث نوح: فلما ظهر الماء وركب نوح السفينة وقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِنهَا وَمُرْسَنهَآ﴾ [هود:٤١]، فتحركت ينابيع الأرض بالماء، وانفتح أبواب السماء، قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ[٣٤] أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا..﴾ الآية [القمر:١١، ١٢]، وبعث الله إلى البيت المعمور وهو موضع الكعبة فحمل إلى السماء، فانصب الماء من السماء صبًّا، وانفجرت الأرض عيونًا أربعين يومًا وليلة، وذهب ضوء الشمس والقمر من شدة الظلمة فلا يعرفون الليل والنهار إلا بخرزتين مضيئتين[٣٥] كانتا مع نوح إذا جاء النهار لمعت[٣٦] إحداهما لضوء الشمس، وإذا جاء الليل لمعت الأخرى للقمر، فبها معرفة الأوقاف ومواقيت الصلاة، وملئت الدنيا ماء، وكانت السفينة تطوف في الآفاق مائة وخمسين يوما[٣٧] ولياليهن، وارتفع الماء فوق الجبال كلها ثلاثين ذراعًا، ولم تدع السفينة جبلًا ولا شجرًا إلا مرت به، ثم إن الله أمر السماء بالإقلاع والأرض بالابتلاع ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ..﴾ الآية [هود:٤٤]، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل في الجزيرة، فسكن الماء، فهذه البحار[٣٨] من ماء السماء، وابتلعتِ الأرض ماءها و﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا [وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ][٣٩] مِّمَّن مَّعَكَ﴾ في السفينة، ولم يبق أحد بعده من ولد نوح إلا: سام، ومنه الروم والعرب والعجم، وحام منه الزنج والهند والسودان، ويافث منه الترك ويأجوج ومأجوج.

وعاش نوح بعد خروجه من السفينة خمس سنين، عن وهب، وقيل: ثلاثمائة وأربعين سنة، عن ابن إسحاق، وأوحى الله إلى نوح: أني لا أغرق بعده جميع خلقي بالماء أبدًا، وقيل: بنوا

(٣٣) الفتوحات المكية ٤/ ٥١٤.

(٣٤) في م ي: وفتحنا. وما أثبتناه من المصحف.

(٣٥) انظر الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ٥/ ٢٧.

(٣٦) لمعت: صرصرت، م ي.

(٣٧) يوما: ويمًا، م ي.

(٣٨) تفسير القرطبي ٥/ ٢٨.

(٣٩) في م ي: وأمم. وما أثبتناه من المصحف.

قرية [بالموصل] سموها ثمانين[٤٠]، لكل مؤمن، والآن تسمى [سوق] ثمانين كناية عن عددهم المعروف[٤١].

مبحث في حديث الابن الكافر لنوح عليه السلام

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ [هود:٤٢]، قيل: ابنه نسبًا، عن ابن عباس وجماعة، وقيل: لم يكن ابنه ولم يكن راشدًا[٤٢]، عن الحسن، واستدل بقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود:٤٦]، والأول قول ابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك، وأبي علي، قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وقال عكرمة: إن شئت حلفت لك أنه ابنه. والثاني قول الحسن ومجاهد، والأول هو الصحيح.

قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتهم النجاة، وقيل: من أهلك المؤمنين، وقيل: ليس ابنك، واختلفوا في اسمه، قيل: كنعان، وقيل: يام، ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ قيل: اعتزل أباه، عن الأصم، وقيل: اعتزل دين الله، وقيل: اعتزل السفينة، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ ولم يعلم أن الجبل لا يعصم من أمر الله، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ المعصوم من عصمه الله، والناجي من نجاه الله، والقريب من قربه مولاه، والبعيد من باعده مولاه، والعزيز من أعزه الله، والذليل من أذله الله، والمهين من أهانه الله، والكريم من أكرمه الله، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

قوله: ﴿وَحَالَ[٤٣] بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ قيل: بينه وبين ابنه، وقيل: بينه وبين الجبل فغرق، فكذلك رَبُّ عاصٍ يسوّف التوبة يحول الموت بينه وبين ما يؤمل، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤].

شعر:

المرء مرتهن بسوف وليتني ... وهلاكه في السوف والليتِ

لله در فتى يدبر أمره ... فغدا وراح مبادرا للموت

(٤٠) انظر تفسير القرطبي ٥/ ٢٥.

(٤١) كناية: كنية، ي. فقد كانوا ثمانين كما جاء في حاشية الصاوي ٣/ ٩١٥؛ المعارف، ٢٤.

(٤٢) راشدًا: لرشدة، م ي.

(٤٣) في م ي: بينهم. وما أثبتناه من المصحف.

الحسن: المبادرةَ عبادَ الله المبادرةَ عبادَ الله المبادرةَ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم، ثم بكى، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك، الْوَحَا الْوَحَا[٤٤].

مالك بن دينار يقول لنفسه: بادري ويحك قبل أن تأتيك الآخرة.

شعر:

فاغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتةْ

كم صحيح رأيت من غير سقمٍ ذهبت نفسه الصحيحة فلتةْ

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قد ذكرنا معناه.

قيل: رُبَّ مودة أصدق من أخوة، ورب صداقة أبلغ من قرابة، ورب سبب أنفع من نسبٍ، أخرج ابنه من جملة أهله لأنه لم يكن على دينه كما فعل بأبي لهب، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلمان من أهل بيته، وقصته معروفة.

﴿[إِنَّهُۥ] عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ يعني ابنه ذو عمل غير صالح، وقيل: سُوِّل له عملٌ غير صالح، عن قتادة قرأ ﴿عَمِلَ﴾ يعني ابنه رد [الله] دعاء نوح في ابنه، ودعاء إبراهيم في أبيه، ودعاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عمه أبي طالب، ثم ذكر استثناءه للمؤمنين، فقال عن إبراهيم: ﴿[٤٥]رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم:٤١]، وعن نوح: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح:٢٨]، وقال لنبينا عليه السلام: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد:١٩].

وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ[٤٦] عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود:٤٤] قد ذكرنا أنه جبل في الجزيرة، قيل: إنه من الجنة فلذلك استوت عليه، وقيل: ثلاثة جبال أكرمت بثلاثة رجال: الجودي بنوح ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، وطور سيناء بموسى ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص:٤٦]، وحراء بمحمد كان عليه فتحرك[٤٧] فقال: «اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو شهيد أو صِدِّيق»، وكان هو وأبو بكر وعمر وجماعة من الصحابة. وبالله التوفيق.

---

(٤٤) يعني: المسارعة المسارعة.

(٤٥) في م ي: ربي. وما أثبتناه من المصحف.

(٤٦) في م ي: استوت. وما أثبتناه من المصحف.

(٤٧) فتحرك: فتحر، ي.

فصل في حديث هود عليه السلام

هو هود بن عبد الله، من ولد سام بن نوح، وكان أشبه الناس بآدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]، وكان عاد لما كثرت أولاده نزل برمل حضرموت باليمن كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١] وهي الرمال، وأعطاهم الله القوة في النفس، وطولًا في الأعمار، وقهروا الناس بقوتهم، وعتوا على الله، وعبدوا الأصنام، ومضى على ذلك زمان، وبعث الله إليهم هودًا، وهو من أوسطهم نسبًا، وأفضلهم منصبًا، فدعاهم إلى الله فأبوا.

قوله: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ يعني أخاهم في النسب ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ..﴾ [الأعراف:٦٦] إلى قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ [الأعراف:٦٩]، على ما قص الله في سورة الأعراف وغيره ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]، قيل: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعا، عن ابن عباس.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ..﴾ [الأعراف:٧٠] إلى آخر الآيات، فلبث زمانًا يدعوهم ويأمرهم، وينهاهم عن الشرك والمعاصي فلم يؤمنوا، وعتوا على الله، واشتغلوا بعمارة الدنيا، وابتنوا دورًا وقصورًا، قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨] الآيات، بالناس، وتجلسون في الأسواق، وفي الآية تنبيه على أن عمارة الدنيا مكروهة، واتخاذ البناء غير محمود إلا ما لا بد منه، وقد ذكرنا بابًا في أبواب الزهد في ذلك.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يعني تكبرا[٤٨] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الذي أنعم عليكم ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ الآيات، ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣]، ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤] يعني بخبلٍ [لأنك] سببتها[٤٩]، ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ وإياكم ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ منكم ومن آلهتكم ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا[٥٠] تُنظِرُونِ • إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ..﴾ الآية [هود:٥٥،٥٦].

فلما لم يؤمنوا أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى بلغهم الجهد، وكانوا في ذلك الزمان إذا جهدهم جهد بلاء طلبوا الفرج عند بيت الله الحرام.

---

(٤٨) تكبرا: تكبارًا، م ي.

(٤٩) انظر تفسير الخازن ٢/٤٨٩.

(٥٠) في م ي: فكيدون ولا تنظرون. وما أثبتناه من المصحف.

قال محمد بن إسحاق: إن أول بيت وضع الكعبة، فطاف بها آدم وطاف نوح، ثم بعث هود فاشتغل بقومه ولم يحج، وكذلك صالح، ثم حج إبراهيم والأنبياء بعده، وكان قومه تسمى العماليق، لأن أباهم عمليق من ولد سام بن نوح، ولم يؤمن بهود إلا شرذمة قليلة، ويقال: إنه آمن به رجل يقال مُرثد بن سعد و[قيل هو] لقمان بن عاد، ويروى شعرًا قيل في عاد:

أبـا سـعد فإنـك مـن قبيـلٍ	ذوي كـرم وأمـك مـن ثمـود
فإنـا لـن نطيعـك مـا بقينـا	ولسـنا فاعليـن كمـا تريـد
أتأمرنـا لنتـركَ ديـنَ رِفْـدٍ	وزمـل وآل صُـدٍّ[٥١] والعبـود
ونتـركَ ديـنَ آبـاءٍ كـرامٍ	ذوي رأيٍ ونتبـعَ ديـنَ هـودِ

رفد، وزمل، وآل صد، والعبود: قبائل من عاد.

فبعث عاد وفدًا إلى الحرم للاستسقاء والدعاء وقالوا: لا يتبعنا مرثد بن سعد، لأنه قد تبع هودًا وترك ديننا، وخرجوا إلى مكة، وخرج من بعدهم مرثد بن سعد حتى بلغوا مكة، وبلغ هو بعدهم، وتخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد.

فلما بلغوا مكة ابتدر الوفد بالدعاء، وقام مرثد بن سعد وحده وقال: اللهم اعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوك وفد عاد، وكان قيل بن عنز[٥٢] رأس وفد عاد، وكان به أنس وفد وعاد، وقيل من غير، وكان في أثر وفد، فأقبلوا على الدعاء والاستسقاء، فأقبلت سحب ثلاث، وقيل: سمع مناديًا ينادي: اختاروا من السحب ما شئتم، فاختاروا سحابًا أسود، وظنوا أنه أكثر ماء، فبعث الله ذلك إلى عاد، ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٢٤] يعني قولهم لهود: ائتنا بما تعدنا، فاستقبلهم[٥٣] ريح فيه عذاب أليم.

يروى أن أهل البصرة خرجوا للاستسقاء، فقام بعض الزهاد، ويقال: إنه الحسن فقال: أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر. وعاد تستبطئ المطر وتنتظر المطر، وهود ينتظر العذاب بهم، خرجت عليهم ريح صرصر باردة عاتية ﴿سَبۡعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، دائمًا، ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ [الأحقاف:٢٥]، فيقال: إن أول من أبصر ذلك امرأة عجوز صاحت وصعقت، فلما

(٥١) انظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٦٩ وتفسير القاسمي ٥/ ١٢٢.
(٥٢) انظر الطبري ١٢/ ٥١١.
(٥٣) كتب في هامش ي: فاستقبلهم. ظ.

أفاقت قالوا: ما هذا؟ قالت: رأيت ريحًا فيها نار ومعها رجال يقودهم[٥٤] فيها قائد، واسمها مهدد، صاحت[٥٥] مهدد، قالوا بعدما سكنت: ماذا ترين؟ فقالت: أبصر العجب، أرى ريحًا كأمثال الجبال لها لجم بأيدي رجال تشبه الشهب[٥٦]، فطحنت الريح تلك القصور والحصون والمدائن، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١، ٤٢]، وكانت ترفع الرجال والنساء فتصعد بهم ثم ترمي بهم من الجو فيقعون على وجوههم منكبين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧،٨].

وروي لما هاجت الريح قام نفر من عاد فأدخلوا أموالهم وأولادهم بين جبلين ثم اصطفوا على باب الشعب ليردوا الريح، فدخلت الريح من تحت أرجلهم فأهلكتهم.

وهذه تنبيه على [أن] من أراد الله به سوءًا فلا مرد له، فينبغي للعاقل أن يتقي الله سبحانه لينجيه من كل بلية.

فصل في حديث صالح عليه السلام

هو صالح بن عبيد[٥٧]، من ولد إرم بن سام بن نوح، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود:٦١].

روي أنه لما أهلك الله عادًا عمرت ثمود وكثرت، واستخلفوا في الأرض وانتشروا فيها، ونزلوا بالحجر[٥٨] ما بين الحجاز والشام، فعتوا على الله وأظهروا الفساد في الأرض، فبعث الله إليهم صالحًا أخاهم؛ يعني منهم بالنسب، فوعظهم ودعاهم وقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني أسكنكم فيها ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ..﴾ إلى قوله: ﴿مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١].

وروي أن صالحًا كان أحمر سبط الشعر، وكان يشبه عيسى، لا يتخذ مسكنًا ولا بيتًا،

(٥٤) يقودهم: يقودون، م ي.
(٥٥) انظر الطبري ١٢/ ٥١٢.
(٥٦) الشهب: الشهبا، ي.
(٥٧) انظر تاريخ الطبري ١/ ٢٢٦.
(٥٨) تاريخ الطبري ١/ ٢٠٤.

وكان[٥٩] يعظ قومه، ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا..﴾ إلى قوله: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً[٦٠]﴾ يعني النبوة والإسلام، إلى قوله: ﴿تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣].

قال وهب: لبث فيهم أربعين سنة يدعوهم من لدن كان غلامًا إلى [أن] شَمِطَ فيهم، فلا يزدادون إلا طغيانًا.

وروي أن صالحًا كان في ثمود من أعز قومه، وكان له منعة، وكان يدخل عليهم في بيوتهم ويجالسهم ويقعد على طرقهم، ويهجم عليهم في أعيادهم، ويدعوهم فلا يجيبون، وما تبعه إلا قليل مستضعفون، فعند ذلك ابتلاهم الله بالجوع حتى بلغ فيهم كل مبلغ، فقيل: هو من شؤم صالح وأصحابه، وذلك قولهم: ﴿ٱطَّيَّرْنَا[٦١] بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧]، ﴿قَالَ[٦٢] ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]، قالوا: بماذا علمتم؟ قالوا: لأنه لا يأمر إلا بحسن، ولا ينهى إلا عن قبيح، ولا يسأل عليه أجرًا، وقد بين لنا [الحق] ظاهرا، فقالوا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ من أمر صالح ﴿كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]، وهكذا حال كل نبي.

روي أن بعض كفار قريش جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: بما تأمر؟ فبين له شرائع الإسلام، وتلا عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ..﴾ الآية [النحل:٩٠]، فقال: إنه يأمر بمكارم الأخلاق.

رجع إلى حديث صالح: فتنازع قومه المؤمنون والكافرون، قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥] يعني مصدق ومكذب.

وفيه مستند على أن الجدال في الدين غير مكروه، بل هو واجب عند ورود الشبهة من المبطل، وقد قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، فأما القبيح فمجادلة مبطل، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

(٥٩) وكان: واكن، م ي.

(٦٠) في م ي: (وآتاني رحمة من عنده) وهذه الآية وردة في سورة هود آية (٢٨) في قصة نوح وعلى لسانه. والصواب ما أثبتناه من المصحف من سورة هود آية٦٣.

(٦١) في م ي: تطيرنا. وما أثبتناه من المصحف.

(٦٢) في م ي: فقال. وما أثبتناه من المصحف.

[الشورى:١٦] دليل أن المراد به المبطل؛ لأن حجة المبطل لا تكون إلا داحضة، وقد يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المجادلة في الدين، وحكى الله عن الأنبياء ذلك.

رجع حديث صالح: فلما رأوا أن صالحًا قد أجابه بعض الناس، وأن حجته ظهرت ولم يكن لهم في مقابلته حجة، استعجلوا العذاب عند العجز عن حجة وردت، قال صالح: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجرًا﴾ [هود:٥١]، ﴿وَقَالُواْ[٦٣] يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ[٦٤]﴾ [الأعراف:٧٧]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

وهكذا أحوال الكفار، كانوا عند العجز يستعجلون بالعذاب، قال قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود:٣٢]، وقوم هود كذلك، وقوم نبينا صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ..﴾ الآية [الأنفال:٣٢].

رجعنا إلى حديث صالح: ثم قالوا: يا صالح إنما أنت ساحر، فإن كنت محقًا فاخرج معنا إلى العيد فندعوا بالهلاك للمبطل، فمن أجيب دعاؤه اتبعه الباقون، فقال صالح: نعم نخرج، ثم أبوا ذلك لما علموا أنه نبي مرسل.

وهكذا كان حال بني نجران مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تلا عليهم حديث عيسى وكذبوه، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ..﴾ الآية إلى آخرها [آل عمران:٦١]، فأبوا، فروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو فعلوا لما بقي في العالم نصراني»، وروي أنهم قالوا: نرى وجوهًا لا ترد لهم دعوة، وكان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: علي، والحسن، والحسين، وفاطمة، عليهم السلام.

ثم إن رجلًا منهم يسمى [جندع][٦٥] بن عمرو قال لصالح: فأت بآية[٦٦] إن كنت من الصادقين، قال: أي آية تريدون؟ قالوا: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة نراها، فإن فعلت آمنا بك وشهدنا أن ما جئت به حق، وإن عجزت كففت عنا، فإنا نكره شتمك وأذاك، فتعاهدوا وأخذوا المواثيق، فدعا اللهَ صالحٌ وهم ينظرون إلى الصخرة، فتزلزلت وتحركت وخرج من

(٦٣) في م ي: قالوا. وما أثبتناه من المصحف.

(٦٤) في م ي: الصادقين. وما أثبتناه من المصحف.

(٦٥) الطبري ١٢/ ٥٢٩.

(٦٦) بآية: به، م ي.

الموضع الذي عينوه، وسألوا ناقة سوداء جوفاء وبْراء ذات عرف وناصية وشعر عظيم ما بين جنبيها مائة واثنان وعشرون ذراعا، ثم أقبلت تمشي حتى توسطتهم وبركت للنتاج[٦٧] فلم تقم حتى وضعت سقبًا قريبًا منها، ثم انبعثت تطلب الكلأ والماء، فقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ..﴾ الآية [هود:٦٤]، قال: فشاركتهم في الماء والمرعى، ورعت السهل والجبل، وكان ماؤهم من جب، فكان لهم يوم وللناقة يوم، وكان يوم ورودها يرتفع الماء حتى تشرب وتصدر رواء وأخلافها تشخب لبنًا، فتعطيهم من اللبن مثل ما تشرب من الماء، فآمن جندع[٦٨] بن عمرو ورهطه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا، فنهاهم ذؤاب بن عمرو[٦٩] والحباب صاحب أوثانهم ورباب[٧٠] كاهنهم، فردوا ثمود عن الإسلام، وبقيت الناقة ترعى، وقال لهم صالح: ﴿وَلَا[٧١] تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤]، وجعلوا الماء قسمة بينهم، لها يوم، ولهم يوم، وكانت مياههم في رؤوس الجبال والمغارات والآبار، فكانت الناقة في يومها تشرب حتى لا تبقي قطرة، فشق ذلك على ثمود.

وكان في ثمود مرأتان موسرتان ذواتا[٧٢] جمال، يقال لأحدهما: صدوف، والأخرى: عنيزة، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح، وقد شق عليهما خاصة أمر الناقة لكثرة مواشيهما، وكان لهما خطاب كثير، منهم: قدار بن سالف، ومصدع بن مهرج، ثم إن قدارًا كان عندهما يومًا إذ قالت صدوف: لو كان لنا مروح[٧٣] لأوسعنا خمرًا، ولكن هذا يوم وِرْد الناقة فلا سبيل إلى الماء، فقالت: عنيزة: بلى والله إلى الماء سبيل، رجالنا رجال، وهل هي إلا ناقة تضرب وتطرد كالغريبة، ولكن رجالنا ليسوا برجال، فقال قدار: فما لي عليك يا صدوف إن أنا فعلت ما قالت عنيزة وكفيتك أمر الناقة وخلا[٧٤] لك الشرب وأصبت حاجتك من الماء؟ قالت: نعم أجبتك إلى ما تريد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٤٨] يعني عقر الناقة، ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ أي: لنقتلنه ليلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

(٦٧) وبركت للنتاج: وتركت النتاج، م ي.
(٦٨) فآمن جندع: فأمر حندع، ي.
(٦٩) ذؤاب بن عمرو: و... بن عملاو، م ي.
(٧٠) ورباب: ودباب، ي.
(٧١) في م ي: لا. وما أثبتناه من المصحف.
(٧٢) ذواتا: ذاتا، م ي.
(٧٣) مروح: مراح، م ي.
(٧٤) وخلا: وجلا، ي.

لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٩]، فمنعهم الله من ذلك وأهلكهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا..﴾ الآية [النمل:٥٠]، فاجتمع تسعة نفر وشربوا الخمر، ثم اتخذوا النبال والسيوف ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ [القمر:٢٩] يعني قدار بن سالف، فقدم فعدوا على طريقها، فلما رأتهم حملت عليهم وردتهم وصالت، فهربوا، وأتى قدار من خلفها فعقرها بالسيف ثم نحرها، فلما رأى السقب ما فعل بأمه ولى هاربًا حتى صعد الجبل ورغا رغاء تقطعت منه قلوب القوم، وتبادرها[٧٥] الناس واقتسموا لحمها لما سمعوا بذلك، فيقال: إنه أكل منها أهل القرية ألف وخمسمائة دار، وقيل لصالح: هل علمت أن ناقتك عقرت وقسمت، فخرج نحوها مغضبًا، وإذا قد فرغ منها، فقال: التمسوا الفصيل فإن وجدتموه وإلا فالعذاب نازل بكم، وطلبوه فلم يجدوه، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، وذلك من مساء يوم الأربعاء، فقالوا: ما آية عذابنا؟ فقال: تصبحون يوم الخميس ووجوهكم مصفرة، ويوم الجمعة وهي محمرة، ويوم السبت ووجوهكم مسودة، ويصبحكم العذاب يوم الأحد، فقال التسعة: هلموا لنقتل صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾، فأتوه ليلًا فدفعتهم الملائكة بالحجارة، ومنعهم الله تعالى من ذلك، فلما أصبح وجدوا قتلى قد رضحوا بالحجارة، فخرجوا في جمع كثير يريدون صالحًا، فقال قوم صالح: ما تريدون؟ قالوا: نقتل صالحًا وثمانية من قومه برجالنا، فقالوا: لا تعجلوا وانتظروا الوعد الموعود، فإن كان حقًا فلا[٧٦] تزيدوا ظلمًا وعتوًا، وإن كان غير حق فشأنكم وإياه، فانصرفوا وأصبحوا يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ووجوههم على ما قال صالح، فأيقنوا بالعذاب، فدخلوا ليلة الأحد بيوتهم وسدوا الأبواب، وخرج صالح ومن معه من المؤمنين إلى الشام، فنزلوا رملة فلسطين.

فلما كان يوم الرابع يوم الأحد أخذتهم الصيحة فماتوا جميعًا ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود:٦٧]، فلم يبق منهم أحد إلا امرأة كافرة شديدة العداوة لصالح مقعدة، فكانت تنظر إلى مهلك ثمود، ثم إنه تعالى أطلقها لتحدث الناس بحديث ثمود، فجاءت إلى وادي القرى وأخبرتهم، واستسقت، فلما سقيت ماتت.

وقد ذكر وهب أن صالحًا ومن معه لما خرجوا من ديار ثمود قال لهم صالح: إن هذه دار

(٧٥) وتبادرها: وتبادروا، م ي.

(٧٦) فلا: في، م ي.

قد سخط الله عليها وعلى أهلها، فاظعنوا منها، فوردوا مكة، وبها قبورهم في غربي الكعبة بين دار الندوة والحجر.

فصل في أحاديث إبراهيم عليه السلام

وهو إبراهيم بن تَارَخ وهو آزر، ويقال: إنه لقب له، والله تعالى أعلم بنسبه إلى آزر، ولم يذكر لأبيه اسم آخر.

واختلف الناس، فمن قال: آزر أبوه وهو كافر، وهو قول أصحابنا وأكثر الأمة، وآيات القرآن كلها دالة على ذلك.

ومنهم - وهم شرذمة - [من] قالوا: آزر عمه، وأبوه كان مسلمًا، وهذا خلاف القرآن والآثار المروية، وإذا جاز أن يكون نبيٌّ أبوه كافر وعمه كافر فلِمَ لا يجوز أن يكون نبيٌّ أبوه كافر، وما يضره كفر أبيه، وأي نفرة في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام:٧٥].

ويقال: إن آزر كان من قرية من سواد الكوفة يقال لها: كوثا، وكان ملك المشرق يومئذ نمرود الخاطئ، من ولد سام بن نوح.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان، وكافران، فالمؤمنان: سليمان، وذو[٧٧] القرنين، والكافران: نمرود، وبخت نصر».

ولما قربت ولادة إبراهيم وحمله، وكان قومه عبادًا للنجوم وعباد أصنام، [أعلمت] الكهنة[٧٨] نمرودًا وقالوا: إنه ولد في هذه السنة غلام يفسد عليك دينك وعلى أهل الأرض دينهم، ويدعو إلى دين آخر، فوكل نمرود بكل امرأة حامل رجلًا، وفرق بين النساء والرجال، ومنعهم من وطئهن، وكان متى ولدت امرأة ابنةً تركها، وإذا ولدت ابنًا قتله.

وحملت أم إبراهيم بإبراهيم، ولم يعلم هو ولا أحد بحملها، وكانت امرأة حدثة إلى أن قربت الولادة وأخذها الطلق، خرجت هاربة مخافة أن يعلم بها، حتى أتت مغارة قريبة منها،

(٧٧) وذو: وذي، م ي.
(٧٨) الكهنة: الكهانة، م ي.

فولدت فيها إبراهيم، ثم سدت باب المغارفة مخافة السباع، فكانت تأتيه أحيانًا وترضعه، وجعل الله رزقه في إبهامه، فكان يمصها[٧٩]، فمن ثم كل صبي يمص[٨٠] أصبعه، وفي إلهام الله الصبي وكل مولود بأمها، وكيف شرب اللبن دليل على قدرة، وقد حمل بعض المفسرين قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] يعني طريق الثديين، وقيل: طريق الخير وطريق الشر، والدليل قريب بقوله ذلك عقيب: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا..﴾ الآية [البلد:٨، ٩].

كان الله يربي إبراهيم، وأمه تأتيه أحيانًا، إلى أن كبر وتكلم وعقل، فدخلت عليه يومًا أمه فقال: يا أمه من ربي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت: اسكت، ثم رجعت إلى زوجها فأخبرته بالقصة، فأتى أبوه آزر فألقى الله في نفسه الرحمة والشفقة وزينه في عينه، فكان لا يعدل به أحدًا، فقال إبراهيم: يا أبت[٨١] من ربي؟ قال: أمك، قال: فمن رب أمي؟ قال: أنا، قال: فمن ربك؟ قال: اسكت، فسكت.

وروي أن أمه قالت لأبيه: إن الذي يقال: إنه يدين بغير دين أهل الأرض ابنك؛ لأنني سمعت منه كذا، فأتاه آزر.

واختلفوا في مكثه في الغار، فقيل: ثلاث عشرة سنة، عن وهب، وقيل: خمسة عشر شهرًا، عن محمد بن إسحاق، وقيل: سبع عشرة سنة، عن الكلبي.

وخرج عشية فنظر إلى السماء والأرض، ومقالة محمد بن إسحاق جائزة معجزة له، كما كان أمر عيسى إرهاصًا ومعجزة، وإن لم تجر العادة بأن يعقل من كان سنه هذا القدر، والعقل والنطق من الله عز وجل يعطيه من يشاء، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، ألا ترى حديث النمل، وحديث عيسى في المهد، وحديث الحية التي تكلمت مع نبينا عليه السلام، أولا ترى كيف تنظر الجوارح في القيامة حتى يقولوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١]. وقيل: إن الله يخلق في الأعضاء الكلام، وقيل: يعطيه آلة الكلام والحياة فينطق، والوجهان جائزان.

رجع حديث إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٧٥]، فخرج إبراهيم من السرب فنظر في السماوات والأرض فقال: لا بد لها من خالق، فرأى

(٧٩) انظر تفسير الطبري ١١/ ٤٨١.

(٨٠) يمص: يمض، ي.

(٨١) يا أبت: يابه، م ي.

كوكبًا، قيل: هو الزهرة، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، اختلفوا في تفسيره، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ على طريق الاستدلال، وقيل: إنه قال ذلك استهزاء بقومه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]، وكذلك القمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ يعني غاب قال: لا يكون ربًا يغيب ويجوز عليه الانتقال والزوال ﴿لَئِن[82] لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام]، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً..﴾ [الأنعام:٧٨] إلى آخره، استدل، وجاء إلى قومه قيل: وهو ابن سبع عشرة سنة، وقيل غير ذلك، والله أعلم ما ذكرنا، فرأى قومه منهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد الكوكب، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٨٧]، فقالوا: ما تعبد أنت؟ قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ..﴾ الآية [الأنعام:٦٩].

ثم كان يناظرهم في مواطن، فسأل: ماذا تعبدون؟ وقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء:٧٢] الآيات.

وفيها: روي أن أباه كان يصنع الأصنام ويدفعها إليه ليبيعها، فيقول: من يشتري ما لا يضر ولا ينفع، استهزاءً بهم، فإذا لم يشترها أحد ألقاها في بئر، وكان يعيبها[83]، وفشا عيبه إياها في قومه ولم يبلغ نمرودًا، كما أنه كان يناظر قومه وكان يناظر أباه إذ قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢] الآيات في سورة مريم.

ثم تصدى لخلاف قومه وأراد أن يخلق خلافهم له فقال لأبيه وقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۞ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٧]، فيقال: إنهم أرادوا الخروج إلى عيد لهم، فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا، فقال: إني نظرت البارحة إلى الزهرة، وكانوا يتشاءمون بها ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [السفات:٨٩]، فظنوا أنه مطعون، وكانوا يهربون من الطاعون إذا سمعوا به.

وقد اختلفوا في معنى الآية في النجوم، قال: أراد علمت من طريق النجوم أني سقيم، وقيل: نظر فيها فقال: إني مريض مما أجد من عبادة هذه النجوم، ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات:٩٠]، فدخل إلى آلهتهم وهي أصنامهم، وكانت ثلاثة وسبعين صنمًا، وكان واحد

---

(٨٢) في م ي: إن. وما أثبتناه من المصحف.

(٨٣) يعيبها: يبيعها، ي.

وهو عظيمها في وسطها عن يمينه ستة[٨٤] وثلاثون وعن يساره كذلك، وكانت الأصنام من كل جنس، من ذهب، وفضة، وحديد، ونحاس، وخشب، وحجر، وكان العظيم من ذهب على سرير من ذهب مكلل بالجواهر، فقال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات:٩١-٩٣] بالفأس، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الأنبياء:٥٨] وجعل الفأس في يده، فلما دخلوا على الأصنام قالوا: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالعيب والشتم، قالوا: من هذا الفتى؟ قالوا: ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، فرفعوا هذا الأمر إلى نمرود فقال: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه لئلا يُظن بي الظلم، فهذا كافر يحتاط في أمره، لئلا يُظن به أنه يظلم، فما بال المسلم يظلم ويجور، وهكذا خالق السماوات والأرض يوم القيامة يجيء بالشهود ﴿[فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا][٨٥] مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء:٤١]، لئلا يُظن أن يظلم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]، ألا ترى إلى يوسف كيف قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف:٧٩].

رجع إلى حديث إبراهيم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣] الآيات إلى آخرها، فأتوا به، فقال نمرود: أرأيت إلهك الذي تعبده وتدعو له، من هو؟ صفه لنا؟ فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فنبهه عليه بفعله، ليعلم أنه لا يُدرَك إلا من طريق الاستدلال، وهكذا فعل موسى لما قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]، ولم يشر إليه ببنان، ولم يصفه بمكان، تعالىٰ عن ذلك.

قال نمرود: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فجيء برجلين، قتل أحدهما وترك الآخر، قال إبراهيم: ليس هذا ولكن أحْيِ الذي قتلته وأخرج روح الآخر من نفسه، فلم يرد عليه شيئًا، فقال إبراهيم: ربي الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر، قال الله: وعزتي لا تقوم الساعة حتى نأتي بها من المغرب، ثم قال إبراهيم عند ذلك: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، قيل: ليعرف الناس قدرتك، وعجز نمرود فيطمئن قلبي بأنهم علموا ذلك عيانًا، وقيل: لا علم ضرورة ومشاهدة ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ ديكًا وغرابًا وبطًا وطاووسًا ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يعني قطعهن ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ

(٨٤) ستة: ست، م ي.

(٨٥) في م ي: وجئنا. وما أثبتناه من المصحف.

يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩٠] قادر على ما يشاء، يفعل ما يوجبه بحكمة، فلما رأوا ذلك آمن به بعض، فدعا نمرود بأبويه وقال: ما حملكما على أن كتمتماني أمر هذا الغلام حتى بلغ ما بلغ؟ فقال آزر: حسن النظر لك؛ لأنك[86] تقتل الولدان منذ أربعين سنة، قلنا: إن كان هذا عدوك بقتله تستريح أنت وأهل مملكتك من البلاء.

ويقال: إنه قتل بسبب إبراهيم عشرة آلاف صبي، وهكذا فعل فرعون ببني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فحفظ الله إبراهيم وموسى وإن كان هما المقصود، ليعلم أن من حفظ الله لا يضره أحد.

ثم اجتمعوا على تحريق[87] إبراهيم، ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨] أي ملككم، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت:٢٤]، فعند ذلك بنوا بناءً عظيمًا إلى سفح جبل، ونادى منادي نمرود: أيها الناس أن احتطبوا لنار إبراهيم ولا يتخلفن ذكر ولا أنثى ولا صغير ولا كبير، ولا حر ولا عبد، ولا شريف ولا وضيع، فمن تخلف ألقي في النار، فعملوا في ذلك أربعين ليلة، فيؤتى بالحطب فيلقى في ذلك الموضع، حتى كان الواحد من آل نمرود يقول: لئن ظفرت بكذا لأحتطبن لنار إبراهيم، حتى ملأوا ذلك المكان بالحطب وسدوا الأبواب، وأوقدوا فيه النار، فارتفع لهبها وصدع دخانها حتى غشي مدينتهم وما حولها، وكان لهبها كالجبال، ودخانها كالسحاب، ثم أتي بمنجنيق قد أعد لذلك الأمر، وشد إبراهيم ووضع في المنجنيق، ومدت له رجال فرموا به في النار.

قال سليمان التيمي: فاستقبله جبريل في الهواء، قال: هل من حاجة؟ قال: أما إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروي أن الملائكة ضجت وقال: يا ربنا خليلك ونبيك، فقال: يا جبريل افعل ما تشاء، فعند ذلك اعترضه جبريل فقال: هل من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: سل ربك، فقال: حسبي من سؤالي معرفته بحالي. وهكذا يكون حال من يتوكل على الله فهو حسبه.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [عن رب العزة]: «ما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بي دون خلقي إلا أعطيته قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعوني، وما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بمخلوق إلا قطعت أسباب السماء بين يديه ووكلته إلى نفسه».

---

(٨٦) انظر تاريخ الأنبياء للخطيب البغدادي ص٧٣.

(٨٧) تحريق: حريق، م ي.

وأوحى الله إلى داود: لو رجع العبد إلي في أول المصائب لأبرزت له من لطفي العجائب، ولكن رجع إلى أمثاله فزدت انشغاله.

وعن السري السقطي قال: الانقطاع إلى الله ألاّ يكون لك إلى غير الله حاجة. وقد ذكرنا بابًا في هذا قبل هذا.

رجع إلى حديث إبراهيم: ولما ضج أهل السماء والأرض قالوا: ليس في الدنيا أحد يعبدك غيره، فقال: إن استعان بكم فانصروه، وإلا فأنا وليه وناصره.

وكان إبراهيم يدعو الله ويقول: يا أحد يا صمد، بك أستغيث وبك أستعين، وعليك أتوكل، حسبي الله ونعم الوكيل ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، لا يؤذيه حرها ولا بردها.

ويقال: إنهم ألقوه في النار في أشد ما يكون التهابًا وحرًا، فبعث الله إليه ملكًا يؤنسه، وجعل له ما حوله روضة خضراء، وجعل بينه وبين النار حجابًا لا يصل إليه حرها وهم يوقدون النار.

ويقال: لما قال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ لم ينتفع أهل الدنيا بنارهم سبعة أيام. والله أعلم، فقال يوم السابع نمرود لعنه الله لوزرائه: انظروا ما فعل إبراهيم أحرق أم لا؟ قالوا: لو ألقي في هذه النار الجبال الرواسي لاحترقت، فقال: إني رأيت الليلة في المنام أنه رفع هذا الجدار، وأن إبراهيم خرج حيًا سليمًا وأنه شبه علي، ابنوا لي صرحًا حتى أنظر، فبنوا له صرحًا، فاطلع على النار فرأى إبراهيم وملكًا إلى جنبه في مثل صورته، قال نمرود: إن إلهك كبير إذ يقدر أن يحول بينك وبين هذه النار، هل تقدر أن تخرج؟ قال: نعم، قال: فخرج إبراهيم، فقال: من القاعد إلى جنبك؟ قال: ملك أرسله ربي ليؤنسني، قال نمرود: يا إبراهيم إني أتقرب إلى ربك لما رأيت من قدرته وعزه قربانًا أذبح أربعة آلاف بقرة، قال: إذن لا يقبل منك حتى تفارق دينك إلى ديني، قال: لا أستطيع ترك ملكي ولكن أذبحها، فذبحها، ثم كف عن إبراهيم ومنعه الله عنه.

واستجاب لإبراهيم رجال من قومه على خوف من نمرود، وعلموا نبوته.

وتزوج بسارة بنت هاران بعد أن آمنت، وكانت ابنة عم إبراهيم، ولبث فيهم إبراهيم داعيًا ومذكرًا مما حكى في مناظرته إياهم في سورة الشعراء ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الشعراء:٧١]، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ [الشعراء:٧٢].

رجع إلى آخر الآيات: ثم دعا أباه ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ..﴾ في سورة مريم إلى آخر الآيات، ثم أجمع هو ومن آمن به لفراق قومهم والبراءة منهم، وقالوا: إنا بُرَآء منكم حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، وكان ذلك عن موعدة وعدها إياه أنه يؤمن، فلما مات وتبين لإبراهيم أنه عدو لله تبرأ منه.

ثم علمهم الدعاء فقال: قولوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا..﴾ [الممتحنة:٤]، وكان قد أوحى الله إليه وجعله نبيًا، وآمن به لوط في قوم من رهطه.

ثم عزم إبراهيم على الهجرة وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦] سيهدين.

قال وهب: فاشترى حمارًا حمل سارة عليه، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، فخرجوا من أرض بابل حتى وردوا حران، ثم قدموا مصر وبها فرعون يقال له: أبو صاروف، وكان من القبط، فدخلها إبراهيم، واشتهر من سارة بالحسن والجمال، ويقال: إنها كانت مثل الحور العين، وصفت للملك، فبعث إليه وقال: ما هذه المرأة منك؟ فقال: أختي، وهو يعني في الدين؛ لأن الكذب لا يجوز على الأنبياء، فخطبها إليه، فقال: هي أولى بنفسها، فأدخلت قصر الملك، فلما قعدت أرادها بيده فيبست يده وتزلزل القصر، فقال: ادعي الله ليطلق يدي ولا أوذيك، فدعت سارة فأطلق يده، وردها إلى إبراهيم، ووهب لها هاجر أم إسماعيل جارية قبطية، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لها ذمة».

وروي أن زيد بن علي عليهما السلام دخل على هشام بن عبد الملك فخطب خطبة بليغة وقال هشام: أتطمع في الخلافة ولست لها بأهل؟ قال: ولم؟ قال: لأنك ابن أمة، قال: أوليس إسماعيل نبي الله ابن أمة، فسكت هشام.

وأقام إبراهيم بها، ووسع عليه حتى صار ذا مال كثير من أنواع الأموال والمواشي وغير ذلك، وكان لوط معه ولم يكن نبيًا بعد، ثم بعثه الله إلى أهل المؤتفكات.

وأنزل الله على إبراهيم عشرين صحيفة فيها أمثال وعبر، ووهبت سارة هاجر لإبراهيم، فوطئها فحملت بإسماعيل بعد الكبر على ما بشره الله به وقص في كتابه.

مبحث في مولد إسماعيل عليه السلام ونزول الملائكة وبناء الكعبة

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم:٣٧]، قال ابن عباس: إن الله تعالى حرم موضع البيت مذ خلق السماوات والأرض.

قال وهب: لما حملت هاجر بإسماعيل حزنت سارة حزنًا شديدًا لما فاتها من الولد وأخذتها الغيرة، فلما ولدت أوحى الله إلى إبراهيم وأمره بحملها إلى مكة، وأخبره أنه بوأه البيت الحرام، وأنه يعمر على يديه، فأتاه جبريل بالبراق فحمله عليها وهو يومئذ بالشام، حمل إسماعيل بين يديه، وأمه هاجر خلفه حتى أتى بهما مكة، فأنزلهما تحت شجرة كانت يومئذ بموضع زمزم، وقال لهاجر: إن الله أمرني أن أنزلكما بهذا المكان، فأقيما حتى يقيض الله من أمركما ما يشاء، فأبصرت إبراهيم وقالت: إلى من تكلني وابني؟ قال: إلى الله تعالى، قالت: فحسبي الله، عليه توكلت، ومضى إبراهيم حتى إذا كان بأعلى مكة التفت إليهما، فجزع جزعًا شديدًا ولم ير إنسانًا ولا عمرانًا ولا ماء، فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة، فكان كلما مضى ساعة يلتفت إليهما رحمة لهما، ويبكي شفقة عليهما، وهكذا يكون الوالد.

وقيل لزين العابدين: لماذا أوصى الله الأبناء ولم يوص الآباء؟ قال: لما علم من شفقة الآباء على الأولاد؛ لأنهم لا يحتاجون إلى وصية.

ثم دعا إبراهيم فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] الآيات.

ثم رجع إبراهيم إلى الشام، فضربت هاجر عباءة، وجعلت لها ظلالًا من تلك الشجرة، ومكثا هنالك ومعها شيء من الماء إلى أن نفد الماء وعطشت، وانقطع لبنها، وأخذها كهيئة الموت، فجزعت جزعًا شديدًا وظنت أنه الموت نزل بها وبه، فسمعت صوتًا من عند الصفا، فأقبلت حتى صعدت الصفا ودعت الله لابنها، ثم سمعت صوتًا من عند المروة، فعمدت إليها ودعت الله، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادي نحو إسماعيل، فأقبلت إليه.

وقيل: سمعت صوتًا يقول: لا تحزني، لئن نفد الماء فإن الله جاعل ابنك من المرسلين،

فاطمأنت وأقبلت نحوه فوجدته يفحص بيده من الماء من عين انفجرت من تحت خده، فشرب[٨٨] منها وشربت وجعلتها حسيًا وأسقت منها في قربة وادخرت.

وعن مجاهد قال: لم يزل يُسمع أن زمزم هزمة جبريل بعقبه لإسماعيل حين ظمئ. وفي ذلك تقول صفية بنت عبد المطلب:

نحن حفرنا للحجيج زمزم ... شفاء سقم وطعام مطعم
سقيا نبي الله في المحرم ... ابن خليل ربنا المكرم
ركضه جبريل ولما يفطم

وقيل: كانت تدعو وتقول: إسما إيل[٨٩]، فسمي الابن إسماعيل.

وعن وهب: كان طريق جرهم على مكة، فرأوا الطير تهوي نحوها، فأقبل بعضهم حتى جاء إلى مكة فرأى هاجر، فسألها عن حالها ولم يكن قبل ذلك شوهد هناك مثله، فرأى عجبًا، امرأة وصبيًا، فقال لهما: إنس أم جن؟ فقالت: إنس، وأخبرت بخبرهما وخبر الماء، فقالا: فاسقينا، فسقتهما، وكانا راجلين، فإذا ماء عذب، فقالا: هل أحد يخاصمكم في هذا الماء؟ فقالت: لا هذا لي ولولدي رزق ساقه الله إلينا، ثم استأذنوها في النزول فأذنت، وكانت بلادهم اليمن، فاحتملوا أهاليهم وجاءوا إلى شعب مكة، فأقاموا بها، وكان إبراهيم يزورهما يعدي إليهما من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت بأهله بالشام، ويزور على البراق إلى أن كبر إسماعيل ورزقه الله غنمًا ومالًا كثيرًا، وتزوج امرأة يقال لها: عصارة بنت سعد من العماليق، فجاء إبراهيم وإسماعيل غائب، فسلم عليها فسكتت، فقال: أما من منزل؟ قالت: لا، قال: أين رب البيت؟ قالت: غائب، قال: إذا جاء فأقرئيه السلام وقولي له: غيِّر عتبة بابك، وانصرف وراح إسماعيل فحدثته بالحديث، فطلقها إسماعيل وردها إلى أهلها، ثم تزوج بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ملك جرهم، وجاء إبراهيم الثانية وإذا إسماعيل غائب، فسلم عليها فردت السلام، فقال: هل من منزل؟ قال: نعم بحمد الله، ثم قالت: ألا تنزل؟ قال: لا أستطيع النزول، فجاءته بلبن فشربه، فقالت: أتغسل رأسك؟ قال: بلى، فجاءته بالمقام فوضعت عليه قدمه اليمنى وغسلت شق رأسه، ثم حولت المقام فغسلت شقه الآخر، فذلك مقام إبراهيم الذي أمر الله أن يتخذ مصلًا، وفرح إبراهيم بسكنان مكة وقال لها: إذا جاء زوجك فقولي: نِعْمَ العتبة عتبة

---

(٨٨) فشرب: فضرب، ي.
(٨٩) يعني: أنت ربي.

بيتك وقد رضيتها لك، ثم انصرف، فمكث إبراهيم بالشام إلى أن صار إسماعيل ابن ثلاثين سنة، فأمر الله ببناء البيت.

مبحث في بناء البيت

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧] الآيات، يعني أساس الكعبة.

قال ابن عباس: لما أوحى الله إلى إبراهيم أن يبني أساس البيت الذي كان على عهد آدم ورفع زمان الطوفان أشكل عليه مكان البيت، فبعث الله سحابًا فأقامت حيالها وفيها رأس وقال: يا إبراهيم، ابنِ بحيالي، فلم يزل يحفر وهي ربوة حمراء مدرة – فيما يقول محمد بن إسحاق – حتى وصل إلى الأساس الأول الذي أسس آدم، فبنى البيت بحياله، وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجر، فبنيا من خمسة أجبل: طور سيناء، وطور زيتا[٩٠]، ولبنان، والجودي، وقواعده من حراء، واستخرج الحجر الأسود من أبي قبيس وكان مستودعًا فيه، وكانا يبنيان كل يوم قائمة، فلما انتهيا إلى موضع الركن قال إبراهيم: يا بني اطلب حجرًا أجعله علمًا للناس، فجاءه بحجر فلم يرضه، وقال: اطلب غيره، فذهب إسماعيل فجاء، وإذا بالركن قد أتى ووضع بموضعه، فقال: يا أبت من جاءك بهذا الحجر الركن؟ قال: من لم يكلني إليك يا بني.

عن علي عليه السلام وعن وهب: الركن عين الله في الأرض، يبعث يوم القيامة وله لسان وشفتان وعينان، يشهد لمن استلمه بحق.

وذكر وهب أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، نُزِّلا[٩١] فوضعا على الصفا فأضاء نورهما لأهل المشرق والمغرب، فرفع الله نورهما ووضعهما حيث هما، وهما يشهدان يوم القيامة.

وعن وهب في كتاب من الكتب الأولى: ليس من ملك يبعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت، فينهض من عند العرش محرمًا، فيستلم الركن ثم يطوف ويصلي ركعتين.

---

(٩٠) جبل بالقدس. تاج العروس (ط و ر).

(٩١) انظر أخبار مكة للفاكهي ١/ ٩٣.

فلما فرغا من بناء البيت أقبلا على الدعاء وقالا: ﴿رَبَّنَا [تَقَبَّلْ مِنَّآ] إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ.﴾ [البقرة:١٢٧، ١٢٨] الآيات.

مبحث في الذبيح

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢]، اختلفوا في الذبيح.

قيل: إسماعيل، وكان قصة الذبح قبل ولادة إسحاق، عن ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب، وهو اختيار القاضي أبي الحسن.

وقيل: إسحاق، عن كعب، وأهل الكتاب، وهو اختيار أبي علي. والصحيح هو الأول.

والدليل عليه هو قوله تعالى بعد ذكر الذبيح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ.﴾ الآية [الصافات:١١٢]، وقوله: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود:٨١] كيف يُؤمر بذبح مَنْ بُشِّر بولادته.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا ابن الذبيحين» يعني إسماعيل وعبد الله.

فلما قربا من بناء البيت أتاه جبريل فأراه المناسك، فباتا بمنى وصليا بها الظهر والعصر والعشاء، وسمي منى لأن جبريل قال له: تمنَّ، فقال: أتمنى الجنة، وغدوا إلى عرفات وجمعا بين الظهر والعصر، ثم أفاضا إلى مزدلفة، ثم أصبحا إلى منى، ثم عمدا إلى جمرة العقبة، وعرض له إبليس فقال: يا إبراهيم ما بهذا أمرت، فرمى بسبع حصيات كبر مع كل حصاة، فساخ في الأرض، ثم فعل أركان الحج وفعاله إلى أن رمى الجمار، فرأى في المنام أن يذبح ابنه، قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ..﴾ [الصافات:١٠٢]، وكانت الرؤيا بمكة، فقال: لعل إبليس يريني، فرأى في الليلة الثانية والثالثة، فناداه في الليلة الثالثة: يا إبراهيم ما كان إبليس يأمرك بطاعة ربك، قم فامض لما أمرت، فلما أصبح أخذ الشفرة والحبل وآلات القربان، وذهب بابنه، فقال إبليس: يا إسماعيل إنه يذهب بك إلى الذبح، فقال: ويلك هل رأيت والدًا يقتل ولده، فقال: يا أبت هل تسمع ما قال؟ قال: امض يا بني، فانطلقا حتى انتهيا إلى الشعب من منى.

وروي أن إبليس اعترض إبراهيم وقال: إن الشيطان يأمرك بذبح ولدك، فقال: يا عدو الله لا، ولكن أمرني ربي ولأمضين أمره، فاعترض[٩٢] إسماعيلَ وقال: إنه يذبحك، قال: ولم؟ [قال]: يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فأسلم الأمر إلى الله، فلما أيس منهما أتى إلى أم إسماعيل قال:

---

(٩٢) فاعترض: فاعتر من، ي.

إن إبراهيم يريد ذبح ولدك، قالت: هو أرحم به مني، لم ذلك؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، قالت: إذًا أسلم لأمر الله، فيئس عدو الله منها أيضًا.

فلما خلا في الشعب قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات:١٠٢]، قال: فتهلل وجهه واضطربت مفاصله، وقال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ قال: فلماذا تهلل وجهك واضطربت مفاصلك ولم يداخلك شيء؟ قال: يا أبت ربي عوَّض لي منك، والجنة عوض لي من الدنيا، وما أمرك ربك إلا بما رضي لي، وإن ما عنده هو خير لي، فامض لأمر ربك، وشد وثاق رجلي لئلا اجتذب[٩٣] من حزِّ المدية فينضح دمي ثوبك، ورد ثوبي إلى أمي تستنشق من ريحي فيكون أسلى لها.

شعر:

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد

نظيره: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٩٤].

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبِّل فاطمة ويقول: «هي حورية إنسية، أجد منها ريح الجنة» الخبر.

وكُبَّني على وجهي فإني أخشى أنك إذا نظرت إلى وجهي يدركك رقة الآباء فتحول بينك وبين أمر الله فيّ، قال إبراهيم: يا بني نعم العون أنت على طاعة الله.

قال: فشد يده ورجله، وأخذ مدية وجلس عند رأسه قال: إلهي لك الحمد في الدهر الماضي، ولك الحمد في الدهر الباقي، اللهم رزقتني[٩٤] ولدًا على كبر السن، ووعدتني وأنت لا تخلف الميعاد، فابتليتني بهذا البلاء، فإن كان ذلك رضًى لك فسلمت لأمرك، وإن كان من غضب منك فأستغفرك وأتوب إليك.

ويقال: كيف أمر في النوم؟

قيل: ينام عينه ولا ينام قلبه كما كان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، فكان يوحى إليه في نومه.

وقيل: كان [قد] أمر به فنسي، فذكر في النوم.

---

(٩٣) انظر الرقة والبكاء لابن قدامة ص٨٥.

(٩٤) انظر الرقة والبكاء لابن قدامة ص٨٥.

وقيل: علم أن ما أمر به في النوم حق.

فلما فرغ من دعائه بكت الملائكة وقالوا: ربنا نبي يُكَبُّ على وجهه ونبي آخر يريد أن يذبحه.

قال: فدنا لأمر الله، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣]، ثم أدخل شفرته تحت حنكه ثم أمرّها فكلت الشفرة وقلبها الله بيده، وقيل: أمر بمقدمات الذبح، وقيل: كان يقطع فيلتحم، ونودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، دونك الذي خلفك فاذبحه، فإذا بكبش أقرن أملح رعى في الجنة أربعين خريفًا، فذبحه، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٧].

تفسير الآية: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ قيل: شب، وقيل: بلغ ثلاث عشرة سنة، ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ أي ماذا تشير، ﴿أَسْلَمَا﴾ أي سلما لأمر الله، ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ صرعه، وقيل: قال له: ماذا ترى بطلب القتل وليعلم أنه من الله، وقيل: ليسلم فيكون له الثواب، وقيل: ليعلم ما في المشاورة من البركة، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿لِلْجَبِينِ﴾ موضع السجود، وقيل: لما وضع موضع السجود على الأرض حرمت السكين عليه، كذلك من يخشى الله حرمت النار على وجهه، وفي الخبر: «لما دخل في النار أهل النار دخلها طائفة من هذه الأمة، فينادي الله النار فيقول: لا تقربي مواضع سجودهم، فلا تحرق النار مواضع السجود»، والله اعلم بصحته، وفيه دليل للمرجئة.

قال: فلما كشف الله كرب إبراهيم دعا، وقال: الحمد لله الذي أتم لي قرة عيني، وبلغت رضى ربي، وأبقى الله لي خليلي يعبده ويعظم[٩٥] أمره.

مبحث في دعوات إبراهيم عليه السلام

عن وهب قال: وأوحى الله إلى إبراهيم: اسمع مني، إني ابتليتك ببلاء عظيم لم أبتلِ به أحدًا من خلقي، بالحريق فصبرت، وبالجهاد فجاهدت، وبذبح ابنك ففعلت، ورأيت ذلك صغيرًا في الله، لما ترجوه من ثوابه، فقد أوجبت لك الخلة، فأنت خليلي من بين أهل الأرض. فخر إبراهيم ساجدًا، قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة:١٢٤]، قيل: الكلمات عشر: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، أما التي في الرأس: فالسواك، والمضمضة، والاستنشاق، وقص الشارب، وحلق الرأس، والذي في الجسد: الختان، وقلم الأظافير، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء.

---

(٩٥) ويعظم: وتعظيم، ي.

وقيل: الكلمات هي: الذبح.

وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٢٤].

وقيل: بذل ماله للضيفان، ونفسه للنيران، وولده للقربان، وقلبه للرحمن، فاتخذه الله خليلًا، وكان يكرم ضيفه على ما يذكره.

مبحث في البشارة بإسحاق وحديث قوم لوط

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ..﴾ [الأعراف:٨٠].

وهو لوط بن هازر بن آزر، عن ابن عباس.

قال وهب: لما رجع إبراهيم إلى الشام كان لوط معه وهو ابن عمه، فأرسله الله إلى المؤتفكات رسولًا، وهي خمس قريات: قرية سدوم، وعامورا، ودُوما، وصَعْبة، وصَعْدَة[٩٦]، وفي كل مدينة مائة ألف مقاتل، وهي بالأردن، وسدوم أعظمها، فنزلها لوط ولبث فيها بضعًا وعشرين سنة، يأمرهم وينهاهم، ويدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه من الخبائث، وكانوا يفعلون ما حكى الله عنهم، قال لوط: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦٥].

قال ابن عباس: وكان الذي حملهم على إتيان الرجال أنه كان لهم بساتين وثمار، فأخصبت بلادهم، وأصاب الناس قحط شديد، فقصدها[٩٧] أهل البلدان، فقالوا: إنكم إن منعتم ثماركم أبناء السبيل كان لكم فيها معايش، ولم يدروا كيف يمنعون، فقيل: تصور لهم إبليس، وقيل: كان بعض الناس، والله أعلم، فتصور في صورة شاب أمرد، فدعاهم إلى دبره، فعمدوا إليه ونكحوه، وأقبل بعضهم على [بعض] وقالوا: اجعلوا سنتكم في بلادكم إن وجدتم فيها غريبًا فاسلبوه وانكحوه في دبره فلا يأتي أحد بلادكم، فكان لا يأتيهم غريب إلا فعلوا به كذلك، فنهاهم لوط عن ذلك وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ يعني تعرضون لأبناء السبيل ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩] يعني اللواط في المجلس،

(٩٦) انظر تاج العروس (أفك).

(٩٧) فقصدها: فا...حصها، ي.

والخذف بالحصا، ورمي البندق، والصفير[98]، والسكينة[99]، وحل إزار القباء، وإسبال السراويل على ظهر القدم مثل النساء، وتنقيض[100] الأصابع، وتطريف الأصابع بالحناء، ومضغ العلك والسواك في المجلس، وطول الشارب، ويشدون عمائمهم حول رؤوسهم ويتركون وسط رؤوسهم تمام ثلاث عشرة خصلة كانوا يعملون بها، فكان من ردهم على لوط: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ استهزاء منهم، وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ[101]﴾ [الشعراء:١٦٧]، فقال عند ذلك: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۞ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨-١٦٩]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠]، فبعث الله جبريل واثني عشر ملكًا معه فيهم ميكائيل وإسرافيل، وأمرهم أن يجعلوا طريقهم على إبراهيم، لأنه كان حزينًا مهتمًا لأجل لوط، ويخبروه بهلاك قوم لوط ويبشروه بالولد، فذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت:٣١]، ﴿فَقَالُوا۟[102] سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]، لم يعرفهم ولم يعرف سلامهم؛ لأنهم كانوا لا يسلم بعضهم على بعض ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ فقال: قومي واصنعي طعامًا، وأخذت عجلًا سمينًا فذبحته، فجاء ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ نضيج، فقربه إليهم فلم يأكلوا، فقال: ألا تأكلون؟ فأوجس منهم خيفة، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود:٧٠]، وظن أنهم لصوص؛ لأن في ذلك الزمان من أكل طعام غيره أمنهم، فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارة ﴿قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ من خوف إبراهيم من أضيافه، وقيل: حاضت، وقيل: ضحكت لما قالوا: لا تخف، فقالوا: إنا رسل ربك، قال: بم جئتم؟ قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، ولنبشرك بالولد ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ فـ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود]، قيل: كانت بنت ثمان وتسعين سنة وهو ابن تسع وسبعين سنة، عن ابن عباس ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ..﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ﴾ البشارة بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود]، وجداله لما أخبروه بهلاكهم وإرسالهم الحجارة عليهم ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن

(٩٨) والصفير: والعصير، ي.

(٩٩) يقصد ترطيل الشعر على الجباه. الدر الفريد وبيت القصيد ٢/ ١٢٦.

(١٠٠) الصحاح (فرقع).

(١٠١) في م ي: المرجومين. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

(١٠٢) في م ي: قالوا. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢]، قالوا: يا إبراهيم هل نخبر بمن فيها من المؤمنين، لوط وبناته فقط، فاستحيا إبراهيم أن يجادل عن قوم ليس فيهم مؤمنون غير أهل بيت، فقال لهم: امضوا بما أمرتم، فالله أعلم بخلقه، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ.﴾ الآية [إبراهيم:٣٩]، فخرجت الرسل من عند إبراهيم، فانطلقت حتى دخلت على لوط ستة أضياف، فحزن، لِمَا علم من خبث قومه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا(١٠٣) جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا(١٠٤) وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد شره، وقال لامرأته: قومي واخبزي ولا تخبري بهم أحدًا، فانطلقت لبعض حوائجها فجعلت تدخل بيتًا بيتًا وتقول: عندنا قوم من هيئتهم كذا وكذا أحسن الناس وجوهًا، وأطيبهم رائحة، فأقبلت الفساق إلى داره فملؤوا داره ﴿وَجَآءَهُۥ(١٠٥) قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون، وقيل: يهرولون(١٠٦)، ﴿وَ[مِن قَبْلُ] كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قيل: اللياط، فلما أرادوا الدخول على الملائكة قام إليهم لوط وقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فأنا أنكحكموهن، وكان له اثنتي عشرة بنتا(١٠٧)، وقيل: كان له ابنتان، عن ابن عباس، اسمهما: زعورا وزنتا(١٠٨)، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾، ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ قيل: حق النكاح ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً..﴾ الآية [هود:٨٠]، فأرادوا الدخول فوضع(١٠٩) جبريل يده على الباب فلم يمكنهم فتحه، فكسروه، فمسح جبريل أعينهم بيده فعميت أبصارهم وانطمست آثارها من وجوههم، فقالوا: هذا عملك يا لوط تدخل علينا السحرة حتى يعموا أبصارنا، لنهلكنك غدًا وأهلك، فلما سمع لوط ساءه صنيع القوم وخاف، فقال له جبريل: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ لأنا نهلكهم.

قال ابن عباس: لما كثر ذلك العمل فيهم عجت الأرض إلى ربها، والسماء والعرش، وقال جبريل للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ يعني السحر، واجمع أموالك وأبناءك فأخرجهم من المدينة، وخلف امرأتك، قال: يا جبريل قد أغلق باب المدينة، قال: اجمعهم

(١٠٣) في م ي: فلما. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

(١٠٤) في م ي: وقالوا. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

(١٠٥) في م ي: وجاء. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

(١٠٦) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٤١٣.

(١٠٧) بنتا: بنيًا، م ي.

(١٠٨) كذا في تفسير الرازي ١٨/ ٣٧٩.

(١٠٩) انظر تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٤.

لي، فجمعهم ثم احتملهم جبريل فانطلق بهم متوجهًا نحو صعر وهي إحدى مدائنهم غير أنهم لم يعملوا عملهم، فنجت وحدها على أربع فراسخ من سدوم، فلما خرج لوط من المدينة قال: يا جبريل، متى بها تهلكهم؟ قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، قال: الآن يا جبريل ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

قال: فساروا حتى انتهوا إلى صعر، فلما كان وقت الصبح أدخل جبريل جناحه تحت المدائن الأربع، فقلعها من الماء الأسود، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلب وصياح الديك، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها، ثم أرسلها فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض، فذلك قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم:٥٣]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ [الأعراف:٨٤] يعني الحجارة، قيل: أتاهم الحجارة ثم قلب، وقيل: كل من كان خارج المدينة وغائبًا أصابه حجر فقتله، فذلك قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا[110] حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ يعني الطين يطبخ ﴿مَّنضُودٍ﴾ يتبع بعضها في أثر بعض ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ قيل: مُعَلَّمَة باسم كل واحد، يعني المخططة بالسواد والحمرة والبياض ﴿عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود]، فهلكت المدائن الأربع وهم في غفلة كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف:٩٧] الآيات.

ولحق لوط بإبراهيم، فلم يزل[111] معهم حتى مات، وأوصى ببناته إلى إبراهيم، ولتتقوا الله في اللياط، وقد ذكرنا فيها بابًا في أبواب المعاصي.

مبحث في وفاة إبراهيم وحديث يعقوب عليهما السلام

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [البقرة:١٣٢] يعني بعبادة الله والدين ﴿بَنِيهِ﴾ يعني أولاده، فلما أتاه الملك لقبض روحه بأمر الله قال: اقبضها وأنا ساجد، فقبض وهو ساجد.

ويقال: لما أتى ملك الموت إبراهيم قال: يا ملك الموت؛ أي خليل يقبض روح خليله؟ قال: يا إبراهيم أفرأيت خليلًا يكره لقاء خليله، فقال: اقبضها الساعة.

---

(١١٠) في م ي: فأمطرنا عليهم. وما أثبتناه من المصحف من سورة هود. وقد ورد في سورة الحجر آية ٧٤ قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلا أنه لم يذكر (منضود) بعد قوله: (سجيل).

(١١١) يزل. أثبتناها من هامش الأصل. ظ.

فينبغي للعاقل ألاّ يكره الموت، فإنه تحفة[١١٢] المؤمن. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله».

ولما توفي إبراهيم أوصى إلى إسماعيل، وكان [له] ابنان: إسماعيل، وإسحاق، فالعرب من ولد إسماعيل، تزوج من جرهم، وتزوج إسحاق فولد[١١٣] له عيص، ويعقوب، وكانا توأمين، فخرج عيص قبل يعقوب، وجاء يعقوب متعلقًا بعقب عيص، فمن أجل ذلك سمي يعقوب، ثم وُلد ليعقوب اثنا عشر ابنًا وبنات، فخطب إليه ملك عمان وهو كافر فرده لكفره، فجمع جنوده وقصدهم، فانطلق إليه ابن ليعقوب يسمى يهودا، وكان ذا رأي[١١٤] ومكيدة، فقال: إن لنا سنة سنها الله إن فعلتها زوجناك، قال: ما هي؟ قال: الختان، قال: هين، قال: فمر به قومك أيضًا، فأمر الملك بالختان، ونادى: إنا أخذنا بسنة يعقوب فاختتنوا، فمن لم يفعل حل ماله ودمه، فاختتنوا جميعًا، فلما أخذهم وجع الختان، وكان يهودا قد دس إخوته وهم تسعة رهط، فخرجوا بالسلاح فقتلوهم عن آخرهم إلا الطفل والرضيع والزمنى والنسوان، فأصبحوا ظاهرين، عن وهب.

وقيل: إن يعقوب دعا الله عليهم فخسف بهم الأرض، عن محمد بن إسحاق.

ثم لما قرب يعقوب الوفاة قال لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي..﴾ [البقرة:١٣٣] الآيات، وقال: يا بني احفظوا عني خصلتين: ما انتصرت من ظالم بقول ولا فعل، ولا رأيت من أحدٍ حسنة إلا أفشيتها ولا سيئة إلا كتمتها. وبالله التوفيق.

فصل في يوسف عليه السلام

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١].

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

---

(١١٢) المستدرك للحاكم حديث رقم ٧٩٠٠.

(١١٣) فولد: فلود، ي.

(١١٤) ذا رأي: إذا رأى، م ي.

ابن مسعود: كان يوسف إذا انتسب قال: أنا يوسف حبيب الله، ابن يعقوب صفي الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

قوله: ﴿الٓر﴾ قيل: اسم السورة، وقيل: أنا الله أعلم وأدبر، ويقال: قسم أقسم الله به، ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بين الحلال والحرام، والأمر والنهي، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ يعني بلغة العرب، فيه دليل على حدث القرآن لأنه منزل، ولأنه بلغة العرب، ولما يتضمنه من قصة يوسف ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ قيل: تعلمون أخبار القرون، وقيل: تعقلون أن رسول الله صادق من حيث أخبر عن هذه القصة وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ لما فيه من الابتلاء والنجاة وإيتاء الملك، وقيل: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ يعني قصص الأنبياء، وقيل: قصة يوسف لما فيها من العجائب.

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾، عن وهب: رأى يوسف قبل هذا رؤيا وهو صبي، وكان لكل رجل من إخوته عصا يتوكأ عليها ويقاتل بها، وليوسف قضيب صغير، فرأى كأن قضيبه غرز في أرض ثم أتى بعصي إخوته فغرسهن حوله، وكان قضيبه أقصرها[١١٥]، فما زال يرتفع حتى طال على عصي إخوته فغرزت حوله، وتفرقت عروقه من حولها حتى انقلع عصي إخوته وتكسرت، وقص عليهم، فقالوا: يوشك ابن راحيل أن يقول لنا: أنتم عبيدي وأنا سيدكم، ثم بعد سبع سنين رأى ما قص الله في كتابه ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ نزلا من مكانهما ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ فعرف يعقوب تأويل الرؤيا لما قص على أبيه، وأن الأحد عشر كوكبًا إخوته، والشمس أمه راحيل، والقمر أبوه يعقوب، فخشي عليه وقال: ﴿لَا تَقۡصُصۡ..﴾ الآية، يعني إن رأيت بعد هذا رؤيا فلا تقصصها على إخوتك، وقيل: لا تقصص هذه الرؤيا ﴿فَيَكِيدُواْ..﴾ الآيات إلى قوله: ﴿مُّبِينٞ﴾، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، فلما سمعوا الرؤيا مع ما عاينوا من حب يعقوب ليوسف حسدوه، وقيل: كانوا صغارًا غير بالغين[١١٦]، وقيل: كانوا بالغين، والأول أصح لأنه لا يجوز على الأنبياء الكبائر[١١٧]، فأتمروا بقتله وأمروه، قيل: قاله رجلٌ شاوروه في أمر يوسف، وقيل: قاله بعض إخوته ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي بعده ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ أي تائبين، ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ وهو يهودا سيدهم ومدبرهم وقد أشرف بنفسه أن يخدعهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ في أسفل ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾ يرفعه، فعزموا على ذلك.

---

(١١٥) تفسير الأحلام لابن سيرين ص٢٢.

(١١٦) انظر تفسير الخازن ٢/ ٥١٤.

(١١٧) الكبائر: الكبر، م ي.

ثم جاءوا إلى أبيهم فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا..﴾ الآيات ﴿يَرْتَعْ﴾ يجيء ويذهب ويلعب، ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾، ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، لأنه كان [قد] رأى في منامه أن ذئبًا يشتد عليه، فمن أجل ذلك خاف، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي عشرة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لعاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، فلما أرادوا أن يجعلوه في الجب تعلق برأس الجب وتعلق قميصه بحجر، فخلعوا قميصه وتركوه عريانًا، وأوثقوا يده ثم ألقوه في الجب، فقال: يا إخوتي ردوا علي قميصي أستتر به، فلم يفعلوا، والجب بالأردن من فلسطين في واد من أوديتها يقال له إدنان[118] على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وكان ماؤه كدر غير عذب، فلما ألقوا فيه يوسف عذب ماؤه وصفا، ووكل الله به ملكًا فوضع يوسف على صخرة يابسة في الجب، فسبحان من حفظ إبراهيم في النار، ويوسف في الجب، وموسى في التابوت، ويونس في بطن الحوت، وعيسى في المهد، ومحمدًا صلى الله عليه وآله وسلم في الغار.

وكان من دعاء يوسف في الجب: يا شاهدًا غير غائب، يا قريبًا غير بعيد، يا غالبًا غير مغلوب، اجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا، فأجابه الله بذلك، من كان الله حافظه لا يضره شيء، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

قالوا: بكى يوسف وبكى من سمع بكاءه من أهل الجب وكل حجر ومدر.

ثم قال يهودا: ألطخوا هذا القميص بدم طري[119] من بعض ذبائحكم، ثم أخبروا أباكم أنه أكله الذئب وهذا دمه في قميصه، وأنا أقيم يومي هذا لا يؤمن أن يَرِدَ واردٌ الجب فيستغيث بهم فيرحموه فيخرجوه ويبطل عملنا، وأخبروا أبي أني ذهبت أطلب الذئب، آليت ألا أرجع حتى أقتله، وإنما أراد يهودا بتخلفه عنهم أن يخرجه فيرده على أبيه، فلما ولوا عنه التفت واحد فإذا يهودا يدلي ثوب يوسف إليه ليلبسه، فانصرفوا، فقال يهودا: ما ردكم؟ قالوا: رأيناك تفعل كذا فاتهمناك، فقال: ما تعمدت ولكني أصغيت إليه سمعي أحي أم ميت فوقع عني ثوبه، فرجعوا إلى أبيهم.

---

(١١٨) إدنان: أدا، م ي. كذا في تفسير مقاتل ٢/ ٣٢٥.

(١١٩) كذا في القرطبي ٩/ ١٤٩.

ويقال: إن أباهم لما بعثه معهم على كره منه ضمه إلى نفسه ودعا له وقال: رب اجعل دعائي له جُنَّة.

وقيل: لما أرادوا أن يلقوه في الجب ناشدهم الله والرحم وعهد أبيهم، فلم يعطفهم عليه عاطف، وقذفوه في الجب بغلظة وفظاظة، وهو فعل معهم بخلاف ذلك لما قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢]، هكذا ينبغي أن يُفعل، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١]، ويقال: الرحم متعلق بالعرش تقول: يا رب قُطعت، ويقال: إن صلة الرحم تزيد في العمل.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة التجأوا إلى البيت فجاء وأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون؟ قالوا: نقول: أخ كريم، فقال [كما قال] يوسف: لا تثريب عليكم»، فهكذا ينبغي أن يراعى أمر الرحم.

عاد حديث يوسف: واختلفوا في ورود السيارة، فقيل: لما ألقوه في الجب قعدوا بقية يومهم [لينظروا] ما هو صانع إذ أقبلت سيارة، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: رجعوا إلى أبيهم، ثم بعد ثلاثة أيام جاءت سيارة فأرسلوا فأخرجوه، فعلموا بذلك فاعترضوا السيارة. والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ وقيل: بعد الظهر، وقيل: بعد غروب الشمس، ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نتصيد[١٢٠]، وقيل: ننتضل، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي مصدق، ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب فيه، قال: لقد كان هذا الذئب رفيقًا حيث أكل ابني ولم يخزق قميصه وما أراه إلا أبر بأخيكم منكم، هذا ذئب يخبر بأن ابن يعقوب مظلوم، قالوا: قتله اللصوص، فقال: كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منهم إلى قتله.

وقيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حيث قُدَّ من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه، وحين جاءوا عليه بدم كذب.

فبكى[١٢١] يعقوب واتهمهم، فعندها قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾

(١٢٠) زاد المسير ٢/ ٤٢٠.

(١٢١) فبكى: قبل، ي.

سولت: زينت لكم أمرًا في أمر يوسف، فبقي بغير حيلة فصبر جميل؛ يعني أراد به [لا شكوى إلا] لله، وقيل: لا جزع معه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ في هذا إذ قد بقيت في غم.

فينبغي للعاقل إذا اتاه غم أن يفزع إلى الصبر والاستعانة بالله كما فعله يعقوب.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من صبر صبّره الله، وما أعطي أحد من عطاء أوسع من الصبر».

وعن علي عليه السلام قاله للأشعث يعزيه عن ابن له: إن كان صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأثوم[١٢٢]. قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص:٤٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، فينبغي للعاقل إن ناله غم أن يصبر، ويعتقد أنه لا يدوم، فهو بمنزلة ضيف[١٢٣]، فيجب أن يصاحبه فيحسن صحبته، ويعتقد أنه لا بد منه في الدنيا، لأنها دار بلاء وفناء، فأما الجنة فدار الرحمة.

شعر:

اصبر لدهر نال منك ... فهكذا مضت الدهور
فرحًا وحزنًا تارة ... لا الحزن دام ولا السرور

وحبس إنسان فكتب إلى ذلك الحابس شعر:

كلما مر من سرورك يوم ... مر في الحبس من بلائي يوم
ما لنُعمى ولا لبؤسى دوام ... لم يدم في النعيم والبؤس قومُ

رجع حديث يوسف: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قافلة يريدون مصر فضلوا الطريق، فداروا حتى وقعوا إلى الأرض التي فيها الجب، ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ كل قوم بعثوا واردًا للماء، فوقف على جب يوسف مالك بن داعر، من ولد مديان بن إبراهيم من أهل مدين ابن أخي شعيب، ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ فتعلق به يوسف فلم يقدر على نزعه من البئر، فنظر فرأى غلامًا لم ير مثله، فنادى ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ كأحسن ما يكون، فاجتمعوا وأخرجوه من الجب ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي كتموه وقالوا للقافلة: هذه بضاعة استبضعناها لأهل الماء نبيعه بمصر لهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ إخوة يوسف، فعرضوا للقافلة، وقيل: كان هذا قبل الرجوع إلى يعقوب، والله أعلم،

(١٢٢) كنز العمال ١٥/٧٤٥.
(١٢٣) ضيف: ضعيف، م ي.

قالوا: هذا مملوك لأبينا فهل لكم أن تشتروه؟ قالوا: نعم، فباعوه منهم، [﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾] أي في ثمنه، وقيل: في يوسف ﴿مِن وَشَرَوْهُ﴾، ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ باعوه يعني إخوة يوسف، وقيل: الذين أخرجوه، والله أعلم، وقيل: بيع من مالك بن داعر ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ زيف[١٢٤]، وقيل: حرام؛ لأن ثمن الحر حرام.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة أنا خصمهم، ومن كنت خصمه خصمته[١٢٥]: من أعطى ذمة ثم غدر، ومن باع حرًا وأكل ثمنه، ومن استأجر أجيرًا ولم يعطه أجرته».

وقيل: يتقسطون بالوزن ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ محسوبة، وقيل: عشرين درهمًا وهم عشرة لكل واحد درهمين، وقيل: أقل من عشرين، وكره يهودا أن يأخذ من ثمنه، ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، قال تعالى: لم يحتاجوا إليه.

قال محمد بن إسحاق: الله أعلم أي إخوته باعه أم السيارة من الذين قدموا به مصر، وقد ذكرنا الاختلاف فيه، فانطلقت به السيارة حتى وردوا به مصر فوقفوه في سوقها لمن يزيد[١٢٦]، فباعه مالك بن دعر بعشرين درهمًا ونعلين وحلة وهو ثوبان أبيضان.[١٢٧]

قال وهب: فتزايدوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكًا ووزنه ورقًا ووزنه حريرًا، وهو يومئذ غلام ابن ثلاث عشرة سنة، وقال ابن عباس: وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة.

قال محمد بن إسحاق: ويغير الله ذلك، ولو شاء لغير، ولكن أراد أن يبتلي كلا [من] يوسف ويعقوب لينظر كيف يكون عزمهما.

فلما باعه مالك بن داعر اشتراه منه بذلك الثمن رجل من أهل القبط يقال له إطفير؛ وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق، فلما وجب البيع قال مالك بن داعر: من أنت يا غلام؟ قال: أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، إنك لابن من ولد إسحاق أهل بيت من الله بمكان، وإني سمعت آبائي يزعمون أن إبراهيم خص بدعوته[١٢٨] إسحاق، وأنت قد عرفت أن تلك الدعوة تزيد في

(١٢٤) الكشاف ٢/ ٤٥٢.

(١٢٥) مسند الإمام أحمد حديث رقم ٨٦٩٢.

(١٢٦) لمن يزيد: فيمن يريد، م ي.

(١٢٧) تفسير السمرقندي ٢/ ١٨٤.

(١٢٨) بدعوته: بدعوة، ي.

الصالحين، وإني أخبرك خبري وأهل بيتي، وإن قومًا قد كثروا وأثروا وليس لي مال، فادع الله أن يهب لي مالًا وولدًا، فقال يوسف: أكثر الله لك المال والولد في غير الفتنة ورزقك(١٢٩) العزة والمنعة، فرجع مالك بن دعر فولدت له امرأته أربعة وعشرين رجلًا في اثني عشر بطنًا بدعوة يوسف. وهكذا يكون دعوة الصالحين، فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن الدعاء.

فلما قبضه العزيز دفعه إلى امرأته ووصاها به ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ منزله وقدره ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهم لا يشعرون ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ [فِى ٱلْأَرْضِ] وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قيل: علم الدين، وقيل: علم الرؤيا ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ قيل: مقدوره لا يمنع منه، وقيل: غالب قادر، وقيل: أمره يعني أمر يوسف.

وفي هذه القصة [دليل] على صحة الرؤيا، وهي على ثلاثة أوجه:

منها: من الله وملائكته؛ فهو للغير كضرب الأمثال.

ومنها: ومنها الشياطين للتخويف؛ لا أصل له.

ومنها: من الرأي لكل له كبير وبقية فكر، أو غلة سوداء، أو من شهوة، ولا تأويل له.

وقيل: إن كل من رأى شيئًا فإنه يفعله في الحقيقة، روي ذلك عن صالح بن فند، وهذا مما يعلم فساده ضرورة.

عاد حديث يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ قيل: من ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني حكمًا وفيهما نبوة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وقيل: اسمها راعيل.

قال محمد بن إسحاق: كان العزيز لا يأتي النساء، وراعيل امرأة ناعمة من أحسن النسوان، وكان يوسف قد أعطي من الحسن ما لم يعطه أحد، ذكره يونس، عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قسم الحسن ثلاثة أجزاء: جزءًا ليوسف، وجزءين للناس، أو جزءين ليوسف وجزءًا للناس».

أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية قال: «رأيت رجلًا صورته كصورة القمر ليلة البدر، قلت: من هذا؟ قيل: هذا أخوك يوسف» ذكره محمد بن إسحاق.

---

(١٢٩) ورزقك: وقل، م ي.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ عليها وعليه، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هاكم أنا لك، ويقال: (هِيتُ لك)، القراءة بضم التاء وكسر الهاء، وقرئ بنصب الهاء وضم التاء: أنا لك، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يعني خالقي ورازقي، ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أعطاني النبوة وسائر النعم، وقيل: ربي العزيز، ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي قدري ومنزلتي، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الخائنون الزانون، وكل من عصى ربه فهو ظالم، وفيه دليل للوعيد به، قالت: ما أحسن عينيك تنظر إلي بهما، قال: أخاف العمى في الآخرة، قالت: أدنو منك وتباعد مني؟ قال: إني أريد بذلك قرب ربي، قالت: ادخل معي في القيطون[١٣٠]، قال: ذلك لا يسترني عن ربي، قالت: الفراش فاقض حاجتي، قال: إذًا يذهب نصيبي من الجنة، قالت: إنك لتجترني على سخطي، قال: أريد به رضا ربي، قالت: ضع يدك على صدري، قال: إنه لا طاقة لي على احتراق جسدي، فلم تزل تطمعه مرة وتهدده مرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ قيل: همت به عمدًا وقصدت القبيح، وهم بها أي ليدافعها عن نفسه، وقيل: همه شهوة الطباع، وقيل: هم[١٣١] بها لولا أن رأى البرهان.

فأما ما يقولونه أنه قعد منها مقعد الرجال من النساء فلا يصح على رسل الله ذلك، والله ينزههم عن مثل هذه الأفاعيل.

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ اختلفوا في البرهان، قيل: ما علم من عذاب الله ووعيده ونهيه، وقيل: خاطر صرفه عن فعل القبيح، وهذان الوجهان مما يجوز.

ثم قيل فيه أقوال لا تجوز:

قيل: رأى يعقوب عاضًا على إبهامه.

وقيل: رأى خيال العزيز حتى دنا من الباب.

وقيل: نادى منادٍ من السماء: مهلًا يا يوسف فإنك إن فعلت محيت من ديوان النبوة، فولى يوسف هاربًا.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الزنا والقصد إليه والهم به، ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

(١٣٠) تفسير القرطبي ٩/ ١٦٥.

(١٣١) هم: لهم، م ي.

﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ المعصومين، وقصد الباب واتبعته ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أي أراد الخروج وأرادت أخذه، فأخذته ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِ﴾ وهما يتنازعان زوج المرأة مع أخيها، وقيل: مع ابن عمها، فقال: ما شأنكما؟ وفيم تنازعكما؟ قالت: أدخلت بيتك لصًا عاديًا وأمنته على أهلك، قد أغلق الباب وأنا نائمة وقصدني ليدخل معي في فرشي، فوثبت إليه من نومي لآخذه فبادرني إلى الباب ليأبق خوفًا منك مما فعل، ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، قال العزيز: يا يوسف خنتني وغدرت بي، [على] ما كنت أرى من صلاحك؟ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِي﴾ وهربتُ فأخذتني وشقت قميصي، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ قيل: أخوها، وقيل: ابن عمها، وكان رجلًا حليمًا، وقيل: صبي رضيع في المهد ﴿إِن [كَانَ] قَمِيصُهُۥ..﴾ الآية، ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ يعني الأخ أو ابن العم، وقيل: العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ﴾ للمرأة ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، وفيه تنبيه على عظم كيد النساء، ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ قيل: قاله العزيز، وقيل: قاله أخو زليخا، قال لها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾.

وفشا أمرهما في المدينة ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ..﴾ الآية، ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق شغاف قلبها حب يوسف، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ﴾ ضيافة، وأعدت لهن لتعتذر من صنيعها، ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ وسائد يتكأ عليها، ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ليقطعن اللحم؛ لأنهن لا يأكلن إلا كذلك، ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ فدهشن، ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾، ثم قلن: أنت يا زليخا معذورة في أمره، ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ..﴾ إلى قوله: ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الذليلين، فأكثرن القول عليه لأجلها ولحبهن إياها، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ..﴾ الآية، قوله: ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ أميل.

فلما يئست منه قالت لزوجها: قد شاع أمر هذا وقد فضحني، فائذن لي بسجنه فأسجنه فيكون أقطع للمقالة، فأذن لها.

قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، شق القميص ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ خمس سنين، وقيل: إلى أن تقطع القالة، فسجن وفتح الله عليه العبارة، كان يعبرُ لأهل السجن.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ غلامان للملك، أحدهما طباخه، والآخر ساقيه واسمه

[نبو][١٣٢]، واسم الآخر مجلث[١٣٣]، عن محمد بن إسحاق. وقيل: اسم الساقي شرهاشكم[١٣٤]، واسم الآخر شرهابقم[١٣٥]، عن ابن عباس، فلما دخلاه أحباه حبًا شديدًا، وقالا: يا فتى أحببناك حين رأيناك، فقال: أنشدكما الله لا تحباني، فوالله ما أحبني عبد قط إلا دخل من حبه عليّ بلاء، أحبتني عمتي في صغري فدخل علي من ذلك بلاء، ولقد أحبني أبي فدخل علي بلاء، ثم أحبتني زوجة صاحبي فدخل علي منها بلاء، فلا تحباني، فأبيا إلا حبه، وجعلا يعجبان مما يريان من فهمه وعقله.

مبحث في عمة يوسف

محمد بن إسحاق: أول ما دخل على يوسف من البلاء ما روي أن عمته ابنة إسحاق، أظنها كانت أكبر وُلد إسحاق، كانت إليها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان يوسف لما وُلد حَضَنَتْه عمته فلم تحب أحدًا شيئًا كحبها إياه، فحين ترعرع أتاها يعقوب وقال: سلمي إلي ابني يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب مني ساعة حبًا مني له، فأبت، وأبى، فقالت: دعه أيامًا حتى أنظر إليه وأسكن، فأجابها، فلما خرج عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها، فطلبوها ثم قالوا: اكشفوا من في البيت، فكشفوهم فإذا هي مع يوسف، وأتاها يعقوب فأخبرته الخبر، وقالت: أنت وذاك، إن فعل ما فعل ما يستطيع غير ذلك، وكان في ذلك الزمان من سرق سرقة يأخذ صاحبها السارق ولا ينازع فيه يصنع به ما يشاء، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، وهذا قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:٧٧].

عاد حديث يوسف وصاحبيه: ثم إن يوسف رآهما حزينين فقال: ما لكما؟ قالا: رأينا رؤيا، قال: فقصاها علي، فقال الساقي: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، وقيل: قال: رأيت ثلاثة قضبان، أو رأيت [شجرة] أورقت، وخرجت ثمرتها ونضجت فأخذت كأس الملك فعصرت[١٣٦] فيه وناولته، فقال يوسف: نعم ما رأيت، ثلاثة أيام تبقى في السجن ثم ترد إلى الملك، وأوراقها

(١٣٢) كذا في تفسير الطبري ١٣/ ١٥١.
(١٣٣) مجلث: محلب، ي.
(١٣٤) وفي القرطبي ٩/ ١٨٩. شرهم
(١٣٥) كذا في القرطبي ٩/ ١٨٩. سرهم
(١٣٦) فعصرت: فصرت، ي.

عزك وكرامتك في ذلك العمل، ﴿وَقَالَ [ٱلْآخَرُ] إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا..﴾ الآية، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عالمًا رفيقًا بأهل السجن، قال: أما أنت فتصلب فتأكل الطير من رأسك، ففزع وقال: لم أر شيئًا، فقال يوسف: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وقيل: ما رَأَيا[١٣٧] ولكن أحدثا رؤيا، قال: ما رأيت شيئًا، فقال قضي الأمر.

سبب حبسهما: أن الناس هموا بقتل الملك، وأعطوا رشوة للطباخ ليجعل السم في الطعام، ففعل، وأهدوا رشوة إلى الساقي ليجعل في الشراب، فلم يفعل، فلما قدم الطعام والشراب قال الساقي: لا تأكل الطعام فإنه مسموم، وقال الطباخ: لا تشرب فإنه مسموم، فقال للساقي: اشرب من الشراب، فشرب، وقال للخباز: كُلْ من الطعام، فأبى، فأعطي دابة فماتت، فحبسهما، ثم أخرجهما وأكرم الساقي وصلب الطباخ.

ومن كرم يوسف اهتمامه بأمر الدين لما سألاه عن الرؤيا، أقبل على النصيحة قبل الكلام رجاء منه فيهما ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ يعني في النوم، وقيل: في اليقظة، وكلاهما معجز، إلى قوله: ﴿يَشْكُرُونَ﴾، ثم دعاهما إلى التوحيد والدين: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ آلهة لا تغني عنكم شيئًا، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾، ثم قال ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يعني علم ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني الملك الأعظم، اذكرني ومظلمتي وحبسي بغير شيء، واذكر عنده أني من باعني أهلي بغير ذنب، وقد سجنت بغير ذنب، فلما خرج من السجن أنساه الشيطان ذكر يوسف عند الملك، وقيل: أنسى الشيطان يوسف ذكر الله حتى ذكر مخلوقًا ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى السبع، فأما هاهنا فإنه سبع، عن ابن عباس، وكان قبله خمس سنين، فجميع لبوثه في السجن اثنتي عشرة سنة. وقيل: لبث قبله سبعًا، ثم بعد أن قال: ﴿ٱذْكُرْنِى﴾ ثلاثا، فذلك عشر، عن وهب.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لولا الكلمة التي قالها ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لم يمكث في السجن، ولأخرج من يومه».

قال وهب: وجاء ملك تلك الليلة فقال: إن الله يقول: ما الذي أنساك ذكري حتى طلبت إلى غيري، فلبث ثلاث سنين في السجن.

---

(١٣٧) رَأَيا: رأينا، م ي.

سئل الضحاك عن قوله: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا[١٣٨] مرض أحد في السجن قام عليه، وإذا ضاق المكان أوسع عليه، وإذا سأل جمع[١٣٩] له.

وعن عبد العزيز بن عمر الكندي قال: دخل جبريل على يوسف في السجن فعرفه فقال: يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين؟ قال جبريل: الله يقرئك السلام، أما استحييت إذ استعنت بالآدمي، فوعزتي لألبثك في السجن بضع سنين، قال: يا جبريل أهو علي راضٍ؟ قال: بلى، قال: لا أبالي.

ثبات البناني: دخل جبريل على يوسف فقال: أيها الملك الطيب رائحة، الكريم على ربك، هل لك علم بيعقوب؟ قال: نعم ابيضت عيناه، قال: لم ذا؟ قال: من الحزن عليك، قال: ما بلغ حزنه؟ قال: حزن سبعين مثكلة، قال: فهل له على ذلك من أجر؟ قال: نعم أجر مائة شهيد.

وفيه دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يتكل على ربه فقط، ولا يتكل على آدمي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ابن عباس: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من توكل على الله كفاه»، وقال: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا».

وقال أبو مطاع لحاتم الأصم: بلغني أنك تجوز الفلاة بالتوكل من غير زاد؟ قال: بل أجوزها بالزاد، وزادي أربعة أشياء، قال: وما هي؟ قال: أعلم أن الدنيا كلها مملوكة لله، وأرى الخلق كلهم عباد الله، وأرى الأسباب والأرزاق بيد الله، وأرى قضاء الله نافذًا، قال أبو مطيع: نعم الزاد زادك، ولتجوزن بها مفازة الآخرة فكيف مفازة الدنيا.

عاد حديث يوسف: قال وهب: فلما لبث عشر سنين في السجن جاءه جبريل بالبشارة من الله في النجاة وملك مصر، فلبث يومه ذلك، ورأى الملك في تلك الليلة رؤيا، فأصبح وجمع علماء مملكته، فقال: أرى سبع بقرات سمان، قالوا: أضغاث أحلام هي أحلام باطلة، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ حين وسنين وهو الساقي: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى السجن، فإن فيه رجلًا حكيمًا من آل يعقوب عليمًا، فإن كان هذا عند أحد

(١٣٨) إذا: ذا، ي.

(١٣٩) جمع: له وقام، م ي.

فعنده قصته، وقص عليه رؤياه، وصاح به في السجن، فأذن له في دخول السجن، فجاء وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ فدخلن بطونهن ولم يُر منهن شيء[١٤٠]، ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فالتوت اليابسات على الخضر فغلبن خضرتهن، ولم [يبق] عليهن شيء ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، قال: أما السبع البقرات سبعٌ خصبة، والسنبلات الخضر السبعة: الخصب والرخص، وأما سبع بقرات عجاف فهي سبع سنين جدبية، والسبع السنبلات: القحط والغلاء في سنين الجدب، فقال: كيف نصنع في هذا القحط؟ قال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا [فَمَا حَصَدتُّمْ] فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لئلا يفسد، لا تأكلوا إلا ما احتجتم إليه، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿ثُمَّ يَأْتِي [مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ] عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ بالطعام والمطر ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الكروم والدهان، فرجع الساقي إلى الملك فأخبره، فأعجب به، فانكشف عنه الهم وقال: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وهو الساقي، فقال: الملك يدعوك ليكرمك ويقربك، فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾ الآية.

أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رحم الله أخي يوسف، إذ كان ذا أناة بقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾».

عمرو بن دينار عن عكرمة، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، سئل عن البقرات، ولو كنت أنا مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط عليهم أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له، ولو كنت مكانه حيث أتاه الرسول لبادرتهم الباب، ولكن أراد الله أن يكون له العذر، ولولا الكلمة التي قالها ما لبث في السجن طول ما لبث».

عاد إلى حديث يوسف: فلما جاء رسول الملك إليه وأخبره به، أرسل إلى النسوة فجمعن، وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ..﴾ الآية، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني تبين ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ [عَن نَّفْسِهِۦ] وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

واختلفوا في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾، فقيل: هو من قول زليخا، وقيل: من قول يوسف، فإنه رجع إليه الساقي بخبر النسوة قال يوسف عند ذلك: [ذلك] ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب وما أبرئ نفسي لولا برهان الله لهممت.

---

(١٤٠) تفسير الخازن ٢/ ٣١.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ دون العزيز، فجاءه الرسول وقال له: إن الملك يدعوك، فقام يوسف واغتسل ولبس ثيابًا حسنة، ثم أتى الملك وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة، قال ابن عباس: فأقعده قدامه وقال: لا تخف فإنما أنا بشر مثلك، وإنك اليوم لدينا مكين أمين، وقيل: كان الملك يتكلم بسبعين لغة، فأجابه يوسف بكل لسان كلمه به، فلما فرغ دعا له يوسف بالعبرانية فلم يعرفها وقال: ما هذه اللسان؟ قال: لسان آبائي، فلما أراد الخروج سلم بالعربية فلم يعرفها الملك، فقال: ما هذه اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل عليه السلام، فازداد به تعجبًا فقال: يا يوسف قص علي رؤياي، فقص عليه وقال: رأيت كذا وكذا، فقال: أيها [الصدِّيق] ما ترى في أمر هذه الرؤيا؟ قال: أرى أن تجمع الطعام في سنين الخصب وتبني الخزائن، ثم تدخره بقصبه وسنبله، فيكون قصبه علفًا للدواب في سنين الجدب، وسنبله للناس، فإن الجدب يعم الأرض والناس كلهم يحتاجون إليك، ويجتمع لك [ما] لم يجتمع لملك قبلك، قال: كيف يكون لي بهذا، ومن القائم عليه؟ قال يوسف: إن الله قضى ذلك على يدي فأنا صاحبه ومدبره ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر، وهي أربعون[141] فرسخًا في أربعين فرسخًا، ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ له مدبر لما وليتني عليه من الأمور قبل كتابته بالحساب، فقال الملك: صدقت، ما أحد يطيقها غيرك فدونك الخاتم والتاج والسرير فالبسها حتى يرتفع قدرك عند أهل مصر، فقال يوسف: أما السرير فأشد به سلطانك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من ثيابي ولا ثياب أبي، قال: إن لم تلبسه وضعته حتى يعلم الناس أني قد فضلتك على نفسي، فوضع ريان التاج وسلم الأمور كلها إلى يوسف، وأقبل يوسف على بناء الخزائن والأهرام، ووكل بذلك الأمناء، وانتظر دخول سنة الخصب، فلما دخلت أتت بشيء من الغلات عجيبة، فادخر جميع ذلك بسنبله وقصبه، واتخذ للزيت والجواني والأعناب المعاصر، ومُلك على مدائن مصر كلها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بنعمتنا النبوة والإسلام.

فلما ولي مصر مات العزيز في تلك الليالي، فزوج[142] الملك الريان بن الوليد امرأته زليخا من يوسف، فدخل عليها فوجدها عذراء، فقال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين، قالت: أيها الصديق لا تلمني فإن الله كساك من الحسن والبهاء ما لا يصبر عليه أحد، وكان صاحبي لا

---

(١٤١) أربعون: أربعين، م ي.

(١٤٢) فزوّج: فتزوج، م ي.

يمس النساء، فغلبتني الشهوة فلا تلمني يا يوسف فإن الحرص والشهوة تصير الملوك عبيدًا، وإن الصبر والتقى صير العبيد ملوكًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف:٩٠]، فيا هذا احذر الشهوة وحبها لكثرة آفات الدنيا والآخرة، فولدت له رجلين: أفرايم، وميشا.

وجمع يوسف في سنين الخصب من الطعام ما يكفي الناس في سنين الجدب، ومضت أيام الخصب، ووقع في مصر من القحط والبؤس شيء لم يقع في أرض مثله، وشمل الجوع الأرض كلها حتى كان الناس يمتارون من مصر، فكان يكيل لكل رجل حمل بعير، فباعهم الطعام في السنة الأولى بالدنانير والدراهم حتى لم يبق في مصر دينار ولا درهم إلا صار في خزائنه، ثم باعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى صار جميعًا في خزائنه، وباعهم في السنة الثالثة الدواب والمواشي فلم يبق بمصر دابة من شاة وغيرها إلا احتوى عليها، ثم باعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء، فلم يبق شيء إلا احتوى عليها وصار جميعها ملكه، ثم باعهم في السنة الخامسة بالقصور والمنازل، ثم باعهم في السنة السادسة بالمزارع والأنهار حتى احتوى عليها، ثم باعهم في السنة السابعة برقابهم، فلم يبق بمصر أحد إلا وهو مملوكه، ثم جاء الخصب وانقضى سنين القحط.

وجاء العام الخصيب ومصر وجميع ما فيها ليوسف أحرارهم عبيدهم خولًا له، ثم قال يوسف للملك: لم أُصلِح أهل مصر لأفسدهم، ولم أنجِّهم من البلاء لأكون بلاء عليهم، أشهد الله وأشهدك أني قد أعتقتهم جميعًا وتصدقت عليهم بجميع أموالهم، ورددت عليك ملكك وسريرك وتاجك، فقال الملك: هنيئًا لك، بارك الله لك في عملك.

وروي أن يوسف كان في هذه السنين لا يشبع من الطعام، وكان يجوع أبدًا، فقيل: أتجوع وخزائن الأرض بيدك؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع، عن الحسن. وهذا يدل على وجوب الشفقة على المسلم، وفيه حكاية ذكرناها في باب حق المسلم.

مبحث في قدوم إخوة يوسف

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ الآية، لما اطمأن يوسف في ملكه وقحط الناس، عم يعقوبَ وقومَه القحطُ، فقال يعقوب لأولاده: إن بمصر رجلًا صالحًا فيما يزعمون يبيع الطعام، فقالوا: ومن يكن بمصر صالحًا وهم عُبّاد الأوثان؟ قال: إنما تبتاعون شيئًا وترجعون، فخرجوا وهم عشرة حتى دخلوا عليه، فرأوا يوسف عليه السلام عليه ثياب حرير وطوق من ذهب

وعنده دابة مسرجة بزينة كأحسن الزينة، فعرفهم وهم له من منكرون، فمكث ثلاثًا لا يكلمهم، ثم قال: من أنتم؟ قالوا: أولاد يعقوب، [قال] اعتزلوا حتى أفرغ لكم، فلما اعتزلوا أمرهم يوسف فأنزلوا دار ضيافة، وأوصى بهم خيرًا، وأكرمهم كرامة لم يكرم أحدًا مثله، فلبثوا حينًا ثم دخلوا عليه، فقال: من أنتم؟ قالوا: قد أخبرناك أول يوم سألتنا، نحن من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال يوسف: آباؤكم ثلاثة أنبياء: الخليل، والذبيح، والصديق، قالوا: نعم، قال: ما أنتم به أشباه، لأنتم باللصوص أشبه بالأنبياء، فأنتم لصوص أو جواسيس دسكم بعض الملوك، فلا تنفكون من حبسي حتى أعلم حالكم، فقالوا: إنا نسألك أيها الملك أن تجعل سراحنا إلى أبانا فإنه أعظم أهل الأرض حقًا عليك من جميع الخلق، لأنه نبي الله بن ذبيحه بن خليله، ولو علمت كبره وضعفه وحزنه وغمه لاشتدت له رحمتك، قال: وما الذي أحزنه هذا الحزن؟ قالوا: كان له ابن أصغرنا وأحبنا إليه فُقِدَ، فلم يزل باكيًا حزينًا، قال: أوكلكم لأم واحدة؟ قالوا: نعم، قال: ما الذي حمل أباكم أن بعث كلكم؟ قالوا: احتبس غلامًا منا هو أحبنا إليه بعد ولده الأول، قال: إن كنتم صادقين فارجعوا إلى أبيكم وأقرئوه مني السلام، وقولوا: إنه ليحزنني بحزنه وبالذي أبكاه وأوهى عظامه وأهرمه وشيبه، ويبعث بجوابي مع ابنه الأصغر الذي احتبسه عنده، وكان عادته ألاّ يحمل للرجل إلا بعيرًا واحدًا لا يحمل لواحد بعيرين، فحمل لكل واحد منهم بعيرًا، وسألهم ما قَدَّمْنا، قالوا: سنراود عنه أباه ونبلغه سلامك، فإنما[١٤٣] أردنا بالميرة فإن الجوع أضر بمن وراءنا فإن أبانا يعول سبعين عيلًا، ولئن منعت ميرتنا مات بعض عيالنا، فأحسن جهازهم وخاف ألا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يأمر به ثانيًا، فأمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم، فتيانه يعني غلمانه، بضاعتهم يعني دراهمهم[١٤٤].

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا جئنا من عند أعظم ملك على وجه الأرض، ولقد نظرنا في حكمته ما شبهنا حكمه إلا بحكمك[١٤٥]، ووقاره إلا بوقارك، وإن كان [لك] نظير فهو نظيرك وشبيهك، ولكنا أهل بيت خلقنا للبلاء فبلينا، واتهمنا وكُذِّبنا[١٤٦]، وسيمنع منا الكيل، وزعم أنه لا يصدقنا حتى ترسل معنا أخانا برسالة تخبره فيها عن حزنك، وما الذي أحزنك وأبكاك وأوهن عظامك وأضعفك وأشيبك قبل أوانه، فحزن يعقوب حين اتهمهم

(١٤٣) فإنما: فما، م ي.

(١٤٤) دراهم: دراهمهم، م ي.

(١٤٥) حكمه إلا بحكمك: حكمك إلا بحكمه، م ي.

(١٤٦) وكُذِّبنا: وكف بنا، ي.

وكذبهم، وظن أنه مكر منهم ليفعلوا بأخيهم ما فعلوا بيوسف، فلما قالوا: أرسل معنا أخانا يعني بنيامين[١٤٧] ﴿نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ حتى نرده عليك، ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ..﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ [مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ] بِضَٰعَتَهُمْ..﴾ الآية، قالوا: هذا من عدل الملك ورأفته ورحمته دس بضاعتنا في رحالنا، مخافة ألا نرجع إليه[١٤٨] لما رأى من خوفنا له وهيبتنا منه فأبقى بضاعتنا في يدنا[١٤٩] بغير حق، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا..﴾ إلى قوله: ﴿وَنَزْدَادُ[١٥٠] كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حمل بعير إذا كان معنا أخونا، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أنزل بكم أمر من السماء والأرض، ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهودهم، ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، فإنما بعثه يعقوب لما رأى أن لا بد من الميرة، فأخذ الموثق فضمنه يهودا، عن وهب وكان أرجاهم عنده وأوثقهم في نفسه، وقيل: ضمنه روايل، عن ابن عباس.

وقال يعقوب: يا بني قد شهرتم بأرض مصر بالقوة والعدد، واتهمتم، ولست آمن عليكم، فلا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وكان بمصر أربعة أبواب ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم..﴾ إلى قوله: ﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يعني خوفه عليهم من القتل وأعين الناس ولما هم عليه من القوة والعدد.

مبحث في القدوم الثاني

ولما دخلوا على يوسف قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به فاسأل عما بدا لك، قال: يا غلام أرسلك أبوك؟ قال: نعم وهو يقرئك السلام ويقول: سألتني عما أحزنني وأوهن عظامي وشيبني فإنه، أحزنني ذكر المعاد، وإن أطول الناس حزنًا أخوفهم من الله[١٥١] وأذكرهم لمعاده، وأنكاني حزني على يوسف حتى أعمى بصري، وأوهن عظمي ذكر الموت وأهواله، وشيبني قبل أوانه ذكر النار، وكبرني قبل أوانه ذكر يوم القيامة، وإنا أهل بيت أكرمنا الله بالبلاء فلا تصفو لنا الدنيا.

---

(١٤٧) بنيامين: ابن يامين، ي.

(١٤٨) نرجع إليه: يرجع إليهم، م ي.

(١٤٩) يدنا: يده، م ي.

(١٥٠) في الأصل: ولنزداد. وما أثبتناه من المصحف.

(١٥١) من الله: ما لديه، ي.

فلما فرغ قال لهم: أراكم رجالًا وقد أردت أن أكرمكم، ودعا صاحب ضيافته وقال: أنزل كل رجلين على حدة، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما، ثم قال: إني أرى هذا الرجل الذي جئتم به ليس معه ثانٍ فأضمه إلي ويكون معي، فأنزلهم رجلين رجلين لينزل أخاه معه، فلما خلا به قال: إني أنا أخوك.

وروي أنه أمر أن يؤتى بست موائد في ست بيوت، لكل رجلين أخوين من أب وأم مائدة، فبقي بنيامين وحده، فقال: أنا آكل معك، فدخل البيت ورفع البرقع فغشي عليه، فلما أفاق قال: ما أشبهك بأخي يوسف، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، ونظيره ما روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم آخى بين أصحابه فبقي علي وحده، فشكى فقال: «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

فلما خلا يوسف بأخيه قال: إني أنا أخوك يوسف فلا تحزن بشيء كانوا يفعلونه بنا فيما مضى، ولا تعلمهم ما أعلمتك، ثم كال لهم الميرة، وحمل لهم بعيرًا بعيرًا، وحمل لأخيه بعيرًا باسمه، ثم أمر بسقاية الملك وهو الصاع، وكان يشرب منه، وكانت فضة فجُعل في رحل أخيه بينامين.

فلما ارتحلوا وخرجوا من البلد فأدركوا وحوسبوا، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ قط، ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥ..﴾ إلى قوله: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أن يؤخذ عبدًا يصير فيه ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي من وجد عليه سرقة يستعبد ويستخدم ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ فتشها، ثم فتش وعاء بنيامين، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ يعني الصواع ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، فلما رأى إخوته ذلك نكسوا على رؤوسهم، وقالوا له: ويل أمك يا بنيامين، ولدت ولدين لصين، وأقبلوا يعيرونه، فأقبل عليهم، وقال: استمعوا أليست بضاعتكم دست في رحالكم يوم صدرتم؟ يعني إنكم إن كنتم سرقتموها فقد سرقت، وإن كنتم لا تدرون من دسها فكذلك الصواع في رحلي، ولعل هذا الملك يتعنتكم، فرجعوا إلى يوسف ودخلوا عليه، فعرفهم يوسف [أنه] لا يشك تعريضًا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ.﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يوسف، فإلى ذلك أشاروا، وكان صنمًا ذهبًا، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ يعني هذه الكلمة وقال: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ صدع بها[١٥٢] في نفسه ولم يظهر ذلك جوابًا، ثم قال فيما روي: إن هذا الصواع يخبرني بخبركم، وقال: لأمينه الذي

(١٥٢) صدع بها: صعا، ي.

بعثه خلفهم لأجلها سل الصواع[١٥٣] عنهم، فنقره فنطق[١٥٤]، وقال: أيها الملك إنه يقول: إن هذا ليس صنيعهم، إنهم ذهبوا [بأخيهم] فباعوه، قال: زدني، فنقره فطن، فقال: إنه يقول: إن أخاكم الذي تقولون إنه مات حي سالم، ولكنه بأرض بعيدة، قال: زدني، فنقره فطن وهو مصغ إليه أذنه وقال: أيها الملك إنه يقول: ما دخل على أبيهم هم وحزن إلا مِنْ قبلهم وبسببهم، فلما خافوا أن يبلغ بهم الخبر فسألوا يوسف أن يخبرهم فقاموا وقبلوا رأسه وقالوا: نسألك بالذي فضلك على العالمين إلا سترت العورة، وأقلت العثرة، وحفظت رسالة يعقوب فينا، فرق حين ذكروا أباهم وقال: والله لولا حرمة يعقوب لنكلت بكم من خلفكم، فانطلقوا فقد عفوت عنكم، فعند ذلك قالوا: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ في أخذ البريء وترك المذنب فيما روي أن يهودا غضب وقال لإخوته: اكفوني السوق وهي عشرة وأكفيكم الملك، وقال ليوسف: لترسلن أخي أو لأصيحن صيحة لا تبقى حبلى في بلدك إلا وضعت ما في بطنها. وكان غضبه لا يذهب إلا إذا مسه ولد يعقوب، وقال يوسف لابنه: خذ بيده وائتني به، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه فذهب غضبه وقال: والله لقد مسني كف وإنها لمن ولد يعقوب، من هو؟ قيل: كف ابن الملك، فهم أن يصيح ثانية، فقام إليه يوسف وركض برجله رحى عنده ليريه شدته، ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ ليس معهم غيرهم، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني يهودا وهو كبيرهم في العقل والرئاسة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا [مِّنَ ٱللَّهِ]﴾ في أمر الغلام ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ برد أخي، ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ۞ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ قرية من قرى مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ قوم من صحبائهم من كنعان، فرجعوا إلى يعقوب فلذلك اتهمهم وظن أنه كفعالهم بيوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يوسف وبنيامين ويهودا، هو العالم بمكانهم[١٥٥] الحكيم فيما حكم عليَّ من أمركم، فأحب الله أن يبتلي يعقوب فوجده شاكرًا صابرًا، قال لهم: أوكلما ذهبتم مرة

---

(١٥٣) سل الصواع: سأل الصاع، ي.

(١٥٤) فنطق: فطن، م ي.

(١٥٥) العالم بمكانهم: العلم بمكانتكم، م ي.

نقصتموني[١٥٦] واحدًا، فصبر جميل.

وفي دعاء داود: اللهم إني أسألك خصالًا أربعًا: بدنًا صابرًا، وقلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة تعينني على أموري، وأعوذ بك من خصال أربع: من ولد يكون عليَّ ربًّا[١٥٧]، ومن مال يكون عليَّ عذابًا، ومن امرأة تشيبني قبل الشيب، ومن جار السوء إن رأى حسنة دفنها وإن رأى سيئة أذاعها.

عاد حديث يوسف: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض ﴿وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يا حزنًا عليه، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني مغموم يتردد حزنه في جوفه، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يحب[١٥٨] كل قلب حزين».

حبيب العجمي: إلهي في الدنيا الهموم والغموم، وفي الآخرة الحساب والعقاب، فأين الراحة إلا في الجنة.

عادت القصة: ﴿قَالُواْ﴾ يعني ولد ولده الذين[١٥٩] عنده ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ﴾ لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي فاسدًا لا عقل لك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من كرمه ورحمته وجميل نظره.

واعلم أن الشكاية إلى الله محمودة، من اشتكى إليه أعانه، وإلى غيره مذمومة، فمنهم آدم شكى ذنبه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، فوجد الرحمة والهداية ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه:١٢٢].

ومنهم نوح، شكى قومه ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح:٥]، فأهلكهم الله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء:١٢٠].

ومنهم يعقوب، شكى حزنه ﴿أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، فأقر الله عينه ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف:٩٦].

---

(١٥٦) نقصتموني: عصتموني، م ي.

(١٥٧) تنبيه الغافلين ص٤٤٥.

(١٥٨) مسند البزار حديث رقم ٤١٥٠.

(١٥٩) الذين: الذي، م ي.

ومنهم من شكى نفسه ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣]، فأمن نفسه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٥٤].

ومنهم من شكى فقره، موسى ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فوجد الغنى.

شعر:

ولا خير في الشكوى إلى غير مشتكى ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبرُ

والذي أخرج يعقوب إلى الشكوى أنه لما حبس بنيامين وأقام يهودا علم أن المصائب تناهت، وأنها إذا تناهت انتهت، وإذا توالت تولت، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

شعر:

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمرُ

آخر:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله صانعُ

وقيل: قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ على ما فاتني من أيامي على ذكر يوسف، وقيل: يا أسفا على فقد يوسف، وقيل: على فراق يوسف، وقيل في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ[١٦٠] عَنْهُمْ﴾ يعني لما لم يجد عندهم فرجًا ولا لشكواه مشتكى أعرض عنهم.

وقيل: إن يعقوب إنما حزن على فرقته فقال: هذا فراق الولد، فكيف فراق الصمد، هذا فراق الخلق، فكيف فراق الحق، أشكو بثي وحزني في فراقي حبيبيَ وريحانتي.

ذو النون: رأيت شابًا متعلقًا بأستار الكعبة ويقول ببكاء وحزن: وا ذلاّه بعد عِزّاه، وا فقراه بعد يسراه، وا وحشتاه بعد أنساه، فقلت: ما لك؟ فقال: كان لي قلب فقدته، وكان لي إلف فقدته.

شعر:

كان لي قلبٌ أعيشُ به ضاع عني في تقلبِهِ
ربِّ فارْدُده عليَّ فقد عيل صبري في تطلبِهِ
وأغِثْ ما دامَ بي رمَقٌ يا غياثَ المستغيثِ به

(١٦٠) في الأصل: فتولى. وما أثبتناه من المصحف.

ولما ترادفت المحن على يعقوب لجأ إلى الله وقال: ﴿أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦]، فينبغي للعاقل أن يرجع إليه في المصائب والمحن وإن كثرت وترادفت، فإن ذلك عليه يسير.

شعر:

في ترادف المحن شبيه	ما كان بيعقوبِ
أحاطت بي الأحزانُ من كل جانبٍ	لفقدِ أصيحابي وبعد المذاهبِ
وتفزعني في كل يوم مصيبةٌ	فقد صرت ذا حزنٍ بفزعِ المصائبِ

آخر مثله:

رماني الدهرُ بالأرزاءِ حتى	فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهامٌ	تكسرت النصالُ على النصالِ

آخر:

رُوِّعْتُ بالبين حتى ما أراعُ به	وبالمصائبِ في أهلي وجيراني
لم يتركِ الدهرُ لي علقا أضِنُّ[١٦١] به	إلا اصطفاه بنأيٍ أو بهجرانِ[١٦٢]

وهب بن منبه: أربعة أسطر في التوراة متوالية:

من قرأ كتاب الله فظن أن لن يغفر الله له فهو من المستهزئين بآيات الله.

الثاني: من شكى مصيبة فإنما يشكو ربه.

الثالث: من حزن على ما في يد غيره فقد سخط رضا ربه.

الرابع: من تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه.

وشكا ابن أخي الأحنف إليه فأعرض عنه، وقال: إذا نزلت بك مصيبة فاشك إلى الله الذي يملك كشفها ولا تشكها إلى غيره، فإن الناس فيك رجلان: صديق أحزنته، أو عدو أشمته، يابن أخي إحدى عيني لا أبصر بها سهلًا ولا جبلًا منذ أربعين سنة ما أعلمت زوجتي بذلك ولا أحدًا من أهلي.

---

(١٦١) أضِنُّ: أظن، م ي.

(١٦٢) بهجراني: بهجرانِ، م ي.

شعر:

بنفسي نفسٌ من نفسي لديهِ ومن قلبي يسيرُ في يديهِ
ولست بمشتكٍ بثي وحزني وطولَ صبابتي إلا إليهِ

آخر:

إلى الله أشكو ما لقيتُ من الهجر ومن كثرةِ البلوى ومن قلةِ الصبرِ
ومن حِرَقٍ بين الجوانح والحشا كجمرِ الغضى لا بل أحرُّ من الجمرِ

وروي أن الأكلة وقعت في رِجْل عروة بن الزبير، فأشير عليه بالقطع فأبى، فارتفعت إلى الساق، فقيل: إن بلغت الركبة قتلتك، فطابت نفسه، فأرادوا أن يسقوه كيلا يحس بقطعها. فقال: ما كنت لأمنع نفسي أجرًا قد سيق إليها، فما زال يهلل ويكبر ويذكر الله حتى قطعت، ثم أمسى له ابن على سطح بيته فانكسرت خشبته فوقع منه فمات، فانتهى رجل إلى عروة فقال: آجرك الله، فقال: إن كنت تعزيني في رجلي فقد احتسبتها، قال: بلى أعزيك في ابنك فلان. فقال: ما شأنه؟ فأخبره بخبره، فقال عروة: وعزتك لئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت، أخذت عضوًا وتركت أعضاء، وأخذت ابنًا وتركت أبناء.

هشام الرازي بإسناده عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان ليعقوب أخ، فقال ليعقوب: ما الذي أذهب بصرك، وقوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين، فأوحى الله إليه: يا يعقوب أما تستحي أن تشكوني إلى غيري، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم قال: أي رب أما ترحم الشيخ الكبير، قوست ظهره، وأذهبت بصره، فاردد علي ريحانتي يوسف وبنيامين، فأتاه جبريل وقال: الله يقرئك السلام ويقول: أبشر فوعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك، فاصنع طعامًا للمساكين فإن أحب عبادي إلي الأنبياء والمساكين، والذي قوس ظهرك أنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئًا، فكان يعقوب إذا أراد الغداء نادى منادٍ: من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب، وإن كان صائمًا نادى: من كان صائمًا فليفطر مع يعقوب».

عادت القصة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن يوسف حي لم يمت، وذلك أن ملك الموت دخل على يعقوب فقال: هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا فاطلب ابنك فإنه حي، فقال يعقوب لبنيه على حسن الظن بربه مع الذي فيه من الحزن: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فرجعوا إلى مصر.

مبحث في القدوم الثالث

فرجعوا إلى مصر مع بضاعة مزجاة، فدخلوا على يوسف وقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ دراهم نفاية[١٦٣] لا تنفق في الطعام، ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ كيل الطعام كما تبيع بالدراهم الجياد ولا تنقصها[١٦٤] بسود دراهمنا، ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ وتفضل علينا ما بين الجياد والرديئة، وكره أخوه أن يذكروا له شأن أخيهم، فقال لهم يوسف: كيف تركتم يعقوب؟ قالوا: تركناه محزونًا، قال: على أي ابنيه حزنه، ابنه الأول، أم الثاني؟ قالوا: أما الأول فقد يئس عنه وذهب حزنه، ولكن أبكاه هذا المحبوس عندك، وقد أرسلنا إليك فيه بالرسالة ولولا مهابتك لنقلنا رسالته، قال: فأخبروني وإنكم آمنون، فأخرجوا كتابًا فإذا فيه: من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنا أهل بيت مولع بنا أسباب البلايا، وكان إبراهيم جدي ألقي في النار، فجعله الله عليه بردًا وسلامًا، ثم أمر الله إبراهيم بذبح ابنه إسحاق، ثم فداه بما فداه، وكان لي ابن من أحب الناس فقدته، فمن حزني عليه ذهب نور بصري، والتصق جلدي بعظمي، وكان له أخ لأمه، فكنت إذا ذكرته ضممته إلى صدري فيذهب عني بعض وجدي، وهو المحبوس قبلك بالسرقة، وإن يعقوب نبي الله ليخبرك أنه لم يسرق قط، ولم يلد سارقًا قط.

فلما قرأ يوسف الكتاب بكى وصرخ وقال: صدق، ثم نادى بأعلى صوته: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ فعرفوه، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ قالوا: ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ فضلك وكنا خاطئين فيما صنعنا، ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أشار إلى الوقت الذي كشف أمر نفسه لهم وهو وقت الانتقام فقال: لا تثريب عليكم فيه، وقيل: كان قبل ذلك يوبخهم فقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ وقد انقطع توبيخي، وقيل: أراد به الزمان، وقيل: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ومعناه: لا تغيير عليكم، وقد ذكرنا أنه نظيره ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأهل مكة: «لا تثريب عليكم».

ثم كسا إخوته وجهزهم، وبعث إلى أبيه بجائزة وكسوة ومائتي راحلة وجهازه لينقل أهله إليه، وقال لإخوته: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾، يقال: إن الله تعالى أزال

(١٦٣) كذا في تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٨.

(١٦٤) تنقصها: تنقسها م ي.

الهم عن قلب الملك ببركة صحبة يوسف، ورد البصر على يعقوب ببركة قميص يوسف، وفي قميصه ثلاث آيات، وإنما ذكرنا القميص لما ذكرنا.

وقيل: إن القميص كان من الجنة كساه الله[١٦٥] إبراهيم يوم ألقي في النار، فأعطي إسحاق، ثم يعقوب، فلما ولد يوسف خيف عليه العين فجعل القميص في عوذة[١٦٦] وأدخل في قصبة وجعل في عنقه، فقال جبريل يومئذ: أرسل القميص فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى إلا عوفي، فلهذا بعث به.

وقيل: كان القميص الممزّق فبعث به ليشهد على براءته.

وقيل: لأن القميص كان سبب الغم فبعثه ليكون سبب الفرح، والنياحة من وجه الراحة، والترح من وجه الفرح، والنعماء من منبع البلوى، كان عز فرعون بالماء وهلاكه به، وعز قارون بالمال وهلاكه به.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهودا ابنه مسرعًا بالقميص حافيًا راجلًا شكرًا لله.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ من قرى مصر إلى كنعان، وبينها وبين يعقوب ثمانية أيام، وقيل أكثر، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تضعفوني، وجد ريح يوسف من ثمانين فرسخًا، عن مقاتل. ويقال: إن الريح رسول العشاق، وفي ذلك أشعار كثيرة، منها شعر:

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيا رب قرب دار كل غريبِ
وإني لأستهدي الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوبِ
وأسألها رد السلام إليكمُ ... فإن هي يومًا بلغت فأجيبي

آخر:

لي إلى الريح حاجة إن قضتها ... أنا للريح ما حييت غُلام
أيها الريح بلغي الحب عني ... شدة الشوق والهوى والسلامُ

وقيل: كان القميص مع يهودا على ثمانين فرسخًا، وكان يعقوب بكنعان مع حفدته وهم حوله، فحجب الريح عنهم ووجدها يعقوب.

---

(١٦٥) الله: اله، م ي.

(١٦٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٠٩.

وقيل: إنما وجدها لأنه كان به عليلًا، وبذكره مشغولًا، وروي أن مجنون بني عامر كان لا يعقل ولا يسمع، فإذا سمع حديث ليلى ثاب إليه عقله، فإذا قطع ذكره رجع إلى هذيانه، ومن شعر المجنون:

أيا جبلي نعمان بالله خليا ... نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها
أجد بردها أو تشف مني حرارة ... على كبد لم يبق إلا صميمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت[١٦٧] ... على نفس مغموم تجلت غمومها

عادت القصة: ﴿قَالُواْ﴾ يعني ولد ولده: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ خطابك الأول في ذكر يوسف كما كنت، ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يعني يهودا مع القميص.

شعر:

جاء البشير مبشرًا بقدومه ... فملئت من قول البشير سرورا
وكأنني يعقوب من فرحي به ... إذا عاد من شم القميص بصيرا
والله لو قنع الرسول بمهجتي ... أعطيته ورأيت ذاك يسيرا

ويقال: لما قال ﴿رِيحَ يُوسُفَ﴾ ولم يقل: ريح قميص يوسف، فقيل لأنه الحبيب والمقصود، ولأن الشوق كان إليه، والحزن عليه.

ويقال: [إذا] كان يعقوب ارتد بصيرًا بالقميص فكيف بالوصلة، والمؤمن يبشر عند الموت فكيف ما يعطى في الجنة.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من كرمه ولطفه، ثم قال: على أي دين تركته؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، ثم قال: لا أدري يا يهودا بما أكافئك ولكن هون الله[١٦٨] عليك سكرة الموت.

فلما قدم ولده قالوا: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ يعني ليلة الجمعة وقت السحر عقيب صلاة التطوع، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

قال وهب: فدعا لهم بعد قدومه على يوسف وأجيب له فيهم، فتجهز يعقوب وعياله وكانوا سبعين، عن ابن عباس، تجهز يعقوب ودخل مصر وولده وولد ولده ونساؤهم وأهلهم وهم

(١٦٧) تنسمت: تبسمت، ي.
(١٦٨) تفسير القرطبي ٩/ ٢٦١.

ثلاثة وسبعون نفسًا، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا، وهم الشرذمة التي قال الله تعالى حاكيًا عن فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤].

قتادة: كان مع موسى حين خرج من مصر ستمائة ألف رجل بين[169] عشرين سنة فصاعدًا، وأتبعهم فرعون على ألفي ألف ومائتي ألف حصان[170].

ويقال: لم استزار يوسف أباه ولم يزره؟ فقيل: لفوائد:

منها: ليراه وولده في مقر عزّه ومواضع أمره ونهيه.

ومنها: لو غاب عن مصر لاختل الأمر.

ومنها: أنه كان يخبر بأن له آباء خير منه فأراد أن يريهم ذلك، فخرجوا حتى دنوا من مصر، ثم بعث يهودا لتبشير يوسف بقدومهم، فخرج يوسف للقائهم، فلما لقيهم قال ليوسف: كيف كان أمرك؟ قال: أحمد الله على ما قضى، ولا أذكر ما قد مضى.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ دخلوا يوم عاشوراء، ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ راحيل ويعقوب، وراحيل أمه، وقيل: خالته، وكانت أمه ماتت قبل ذلك بمدة، ﴿وَقَالَ﴾ لإخوته: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ [عَلَى ٱلۡعَرۡشِ]﴾ يعني أجلسهما على السرير ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ فكانت تحية الناس في ذلك الزمان، وقيل: حيوه بما يقارب السجود من الخضوع، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يقل من الجب؛ لأنه لم يرد مواجهة إخوته أن يذكرهم بما فعلوه من الخيانة، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ ولم يقل: أوقع الرحمن.

فلبث معه أبوه وإخوته في غبطة وسرور إلى أن حضر يعقوب الموت، وكان من وروده[171] مصر إلى أن توفي أربع وعشرون سنة.

فلما حضر يعقوب الموت قال لبنيه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي..﴾ الآية [البقرة:١٣٣]، وقال: احفظوا عني خصلتين، وقد ذكرنا الخبر بعد هذا.

وقال إخوة يوسف ليعقوب: اسأله أن يهب لنا ذنوبنا، فقال يعقوب: يا بني هب لي ما فعلوه،

---

(١٦٩) يعني: لا يعدون من هو دون العشرين من العمر.

(١٧٠) تفسير عبدالرازق ١/ ٢٧٠.

(١٧١) وروده: ورد، ي.

قال: يا أبت قد عفوت عنهم، وأوصى إذا مات أن يحمل جسده حتى يقبر مع أبويه إسحاق وإبراهيم بالأرض المقدسة، فحمل إلى ذلك المكان.

قال وهب: مات هو وعيص في يوم واحد، وقبرا في قبر واحد، وكان عمرهما مائة سنة وسبعًا وأربعين سنة.

فلما أقر الله عين يوسف تمنى الموت، ودعا فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ ملك مصر، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ حافظي في الغربة والسجن والجب، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تمنى أحد الموت من الأنبياء إلا يوسف».

فلما حضرته الوفاة أوصى إخوته بوصية يعقوب أن يحملوه إلى بيت المقدس فيدفنوه مع آبائه، ففعل ذلك أيام موسى بن عمران عليه السلام، لأنه لما مات دفن جانب النيل.

وعاش يوسف بعد يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة وهو ابن عشرين ومائة سنة، وكان أول أنبياء بني إسرائيل.

قال وهب: ثم استخلف يهودا، ثم روبيل، ثم لاوي، ثم سمعان، ويقال: شمعون، وولد ليوسف ابنان: إفراييم، وميشا، فولد لإفراييم نون، وولد ليوشع وهو فتى موسى وكان نبيًا، وولد لميشا بن يوسف موسى بن ميشا فتنبأ في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران، وأهل التوراة يزعمون أنه صاحب العالم الذي قص الله خبره في الكهف، وأما أهل الإسلام فيقولون: إنه موسى بن عمران صاحب التوصرة، ولتلك القصة باب.

فصل في موسى وهارون عليهما السلام

هو موسى بن عمران، من ولد لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

مبحث في موسى جملةً سمعته من بعض المذكرين

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم:٥١]، قال: إن الله تعالى أعطى موسى عشرًا من المعجزات، ومنَّ على قومه بعشرة أشياء، وشكا عنهم عشرة أشياء، وعاقبهم بعشرة أشياء.

أما المعجزات العشر:

اليد البيضاء، ﴿وَأَدْخِلْ(١٧٢) يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾.

والثاني: قلب العصا حية، ﴿فَأَلْقَىٰ(١٧٣) عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧، ١٠٨، الشعراء:٣٢، ٣٣].

والثالث: فرق البحر ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة:٥٠].

والحجر التي انفجر بالماء ﴿ٱضْرِب(١٧٤) بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:٦٠].

ومنها: الطوفان والمطر المتصل، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة:٦٣].

وأما العشر التي منَّ بها عليهم:

غرق فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَآ(١٧٥) ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠].

نجاهم من البحر، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء:٦٥]،.

نجاهم من فرعون ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:١٤١].

إيراث أموال القبطية ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

المن والسلوى، والغمامة، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ [وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ]﴾ [الأعراف:١٦٠].

والتوراة ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:٥٣].

البعث بعد الموت ﴿ثُمَّ(١٧٦) بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة:٥٦].

تفضيلهم على العالمين ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ(١٧٧) عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية:١٦].

---

(١٧٢) في م ي: أدخل. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٣) في م ي: وألقى. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٤) في م ي: فاضرب. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٥) في م ي: فاغرقنا. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٦) في م ي: وإذ. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٧) في م ي: فضلناهم. وما أثبتناه من المصحف.

وأما العشر التي شكى عنهم:

عبادة العجل ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه:٩١].

وسؤالهم أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه، ﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

الثالث: سؤال الرؤية ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

الرابع: تبديل القول ﴿وَإِذْ(١٧٨) قُلْنَا..﴾ إلى قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة:٥٨، ٥٩].

الخامس: قوله: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة:٦١].

السادس: إذ آذوا موسى، قيل في موت هارون، وقيل: كانوا يعيبونه.

السابع: ترك القتال قالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤].

الثامن: اعتداؤهم في السبت ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف:١٦٣].

التاسع: عصيانهم بعد رفع الطور ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٨٣].

العاشر: تحريفهم الكتاب ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦].

وأما العشر العقوبات:

فمنها: القتل ﴿فَٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤].

الثاني: المسخ ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥].

الثالث: العداوة ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة:٦٤].

الذلة والمسكنة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة:٦١].

والغضب ﴿وَبَآءُو(١٧٩) بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١].

---

(١٧٨) في م ي: وإن. وما أثبتناه من المصحف.

(١٧٩) في م ي: فباءوا. وما أثبتناه من المصحف.

التيه ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦].

الصاعقة ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥].

السنين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

خراب بيت المقدس ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥].

والعاشر: الطمسة ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس:٨٨].

مبحث في مقدمات مولد موسى عليه السلام

ولما هلك يوسف والملك الذي كان في عصره الريان بن الوليد، توارثت الفراعنة والعمالقة ملك مصر، ودفن يوسف في صندوق من مرمر في ناحية من النيل خوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة وهم على بقايا من دينهم حتى كان فرعون موسى، ولم يكن أحد أغنى منه، ولا أعظم قولًا، ولا أطول عمرًا، واسمه الوليد بن مصعب، فتعبد بني إسرائيل خدمًا وخولًا، وصنفهم في أعماله، فصنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يخدمون، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليه الجزية وفيهم بقايا دينهم.

قال الله تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ ط طَوْله[١٨٠]، سين سناؤه، ميم ملكه، وقيل: اسم السورة، ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ وخبره ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تكبرًا؛ يعني في أرض مصر؛ واسمه الوليد بن مصعب، وقيل: اسمه قابوس، وكان من القبط، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فرقًا، فمنهم من ينقل الحجارة، ومنهم من يبني، ومنهم من يضرب اللبن ويعمل الآجر، ومنهم من يزرع، وطائفة تعمل عمل الخشب، وطائفة عمل الحديد، وطائفة عليهم الجزية، كل يوم درهم[١٨١] قبل غروب الشمس، فمتى غربت الشمس ولم يؤده علقت يمينه إلى عنقه شهرًا عقوبة له.

قوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ سبب ذلك أنه بقي بنو إسرائيل تحت يده أعوامًا، قيل: مائة وخمسين سنة وهم يتوقعون زمان موسى وخروجه، فرأى فرعون رؤيا هالته، رأى نارًا خرجت من الشام ثم أقبلت حتى انتهت إلى مصر، فما مرت بشيء

---

(١٨٠) تفسير السمرقندي ٢/ ٥٤٩.

(١٨١) كذا في تفسير السمرقندي ٢/ ٥٩٧.

إلا أحرقته، وأحرقت بيوت مصر ومدائنها وحصونها وقراها، فاستيقظ فزعًا، فجمع ملأ قومه وقص عليهم رؤياه، وقال: أشيروا علي، قالوا: لئن صدق رؤياك ليخرجن من الشام رجل من ولد يعقوب يكون هلاكك وهلاك مصر وأهلها على يده، وقال المنجمون والكهنة: إنا نجد في علم النجوم أن مولودًا من بني إسرائيل قد أظلك زمانه يولد فيما بينك وبين ثلاث سنين لا يجاوزها، يسلبك ملكك وسلطانك، وليبدلن دينك، وقيل: قالوا: يولد منهم مولود قد أظلك زمانه، ولم يبينوا في أي سنة يكون. والله أعلم.

فعند ذلك أمر بذبح الولدان، وجعل على كل عشر نسوة من بني إسرائيل امرأة من القبط قابلة لهن، فكان يذبح الابن ويترك الابنة، حتى قالوا: أيها الملك إذا دام هذا الأمر لم يبق أحد يعمل لنا، فأمر بذبح الولد عامًا واستحيائهم عاما، واستنكح من بني إسرائيل آسية بنت مزاحم من خير النساء المعدودات.

بقي بنو إسرائيل على هذا زمانًا يتوقعون الفرج وهم على بقايا من دينهم، وينتظرون خروج موسى عليه السلام.

مبحث في مولد موسى وهارون وقذفه في الماء

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٥]، فلما قربت أيام الفرج ولدت أم موسى هارون في السنة التي يستحيا فيها الأبناء، وولد موسى في السنة التي يذبح فيها الأبناء، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بأكثر، الأول أصح، والله أعلم، ذكره محمد بن إسحاق.

وكان لهما أخت أكبر منهما تسمى مريم، وكانت تحت كالوب من ولد يهودا بن يعقوب.

قال: وكان فرعون يتفحص نساء بني إسرائيل ويواكل بهن، فإذا ولدت ابنًا ذبحه، فلما أراد الله هلاكه ونجاتهم حملت أم موسى بموسى، فكتمت أمرها، فلم تطلع أحدًا على ذلك، وبعث فرعون القوابل ففتشن النساء تفتيشًا لم يفتش قبله، ولم يعلم حال أم موسى، لأنه لم يرم بطنها، ولم يتغير لونها ولم يفسد لبنها، فلم يعترض لها القوابل، والله تعالى يحفظها ويحفظه.

ويقال: الصدق يكرم لذويه والدود يتعاهد لقزّه، والنافجة[١٨٢] تشترى لِمِسْكِها ورائحتها، والنحل تمسك لعسلها، كذلك أم موسى حفظت من الأعداء لحملها بموسى كليم الله.

وقيل: عز الحوت بما فيها وهو يونس، وعز أم موسى بما في بطنها وهو موسى، وعز الغار بمن فيه وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعز السفينة [بمن فيها] وهو نوح.

عادت القصة: واسم أم موسى يوخايد[١٨٣] من ولد لاوي بن يعقوب، عن ابن عباس، وقيل: أفاحية[١٨٤]، عن وهب.

فلما كانت الليلة التي ولدته فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة عندها، ولم يعلم بها أحد إلا أخت موسى مريم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧] وقيل: رؤيا رأتها، وقيل: ألهمناها، وقيل: أمرناها على لسان بعض الأنبياء.

ويقال: إنه تعالى أخذ نفسين من نفسين على سبيل الخوف وردهما على بساط العز، نفسين من مكانين، ووعدهما الرجوع: آدم من الجنة، ومحمد من مكة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

عادت القصة: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ..﴾ إلى آخر الآية [القصص:٧]، يقال: في الآية ستة أشياء: أمران، ونهيان، وبشارتان، الأمران: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، و(ألقيه)، والنهيان: ﴿وَلَا[١٨٥] تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، والبشارتان: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ويقال: إن الله تعالى قضى لموسى النبوة ولكن من بعد كربة وغربة، وقضى ليوسف الملك ولكن بعد سجن وجُبٍّ، وقضى للمؤمن بالجنة ولكن بعد الحساب والقبر، وجعل طريقه على النار ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، ولكن موسى لم يلبث في اليم إلا يومًا وليلة، ويوسف في الجب إلا ثلاثة أيام، والمؤمن إلا وقت الورود.

نكتة: كان يوسف في السجن مكرمًا، وموسى في اليم منعمًا، ومحمد في الغار معظمًا،

(١٨٢) النافجة: وعاء المسك.

(١٨٣) وفي حسن المحاضرة ١/ ٥٦.يذكر اسمها يوكابد.

(١٨٤) انظر معجم أعلام النساء لعماد الهلالي ص٧٤.

(١٨٥) في م ي: لا. وما أثبتناه من المصحف.

وكذلك المؤمن يمر فيها يصان وجهه من اللفحات وقلبه من النكبات، ولسانه من الزفرات، ثم يخرج منها إلى الجنات.

قوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ إنما أمر بإرضاعه ليذوق لبنها ولا يشرب لبن غيرها فيرُد عليها فتقر عينها، وقيل: من شرب العذب لا يشرب الزعاف، ومن ألف المحب لا يصبر على الفراق.

قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ فكتمت أمره ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يتحرك ولا يبكي، فلما خافت عملت تابوتًا مضيقًا ومهدت وجعلته فيه، ثم ألقته في اليم، فأقبل التابوت يطفو في الماء، وألقى البحر التابوت بالساحل ليلًا، فلما أصبح فرعون جلس مجلسه على شط النيل وآسية إلى جنبه فبصرت بالتابوت، فقال لمن حوله: ائتوني به، فأتوه به، فلما وضعوه بين يديه وفتحوا التابوت وجدوا فيه موسى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بشارة من الله تعالى لها، ويقال: قال لها: يا أم موسى ادفعيه إلينا صبيًا صغيرًا نرده بشيرًا ونذيرًا، وقيل ليعقوب: سلمه إلينا صبيًا نرده ملكًا كبيرًا، يا محمد سلم إلينا مكة نرد إليك الأرض قاطبة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها بأمرين، سلم إلي نفسي أسلم إليك الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ..﴾ الآية [التوبة:١١١]».

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: لما وضعوه بين يديه لم يقدروا على فتحه فهموا بكسره فلم يقدروا، ففتحته آسية، فإذا فيه صبي بين عينيه نور يتلألأ.

قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ يعني عاقبة أمره كذلك، وإنما التقطوه ليكون قرة عين لهم، هكذا فسره محمد بن إسحاق، والحسن، وقطرب والأخفش، وجماعة، وذكروا أنه لام العاقبة كقوله:

لِدُوا للموت وابنوا للخراب

وقال:

فللموت تغذو الوالدات سخالها[١٨٦] كما لخراب الدهر تبنى المساكن

فيا عجبًا كان نجاته من حيث انتظر هلاكه، وكرامته من حيث انتظر إهانته، وتربيته على يدي من قصد قتله.

---

(١٨٦) سخالها: سجالها، م ي.

شعر:

كم فرحة مطوية لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد أقبلت من حيث تنتظر المصائب

وفيه دليل على لطف الله سبحانه، قتل فرعون سبعين ألفًا من أولاد بني إسرائيل ليصير موسى مقتولًا، ثم رباه بيده.

وقيل في قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ..﴾ الآية أنه يقول: بعزتي وجلالي إنك لا تقدر عليه ولا يربيه أحد غيرك، لتعلم أن الملك ملكي والحكم حكمي، فهمَّ فرعون بقتله، فقالت آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [لَا تَقْتُلُوهُ] عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، فأحبه فرعون وآسية حتى قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾.

ويقال: أربع من النساء تكلمن بأربع كلمات رضي الله بذلك:

زليخا؛ قولها: الصبر والتقى يصير العبيد ملوكًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ..﴾ [يوسف:٩٠].

بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

آسية: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩].

عائشة: لما خيرت وقيل لها: شاوري أباك، فقالت: أفي هذا نشاور، أختار الله ورسوله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية [الأحزاب:٣١].

فوجدت زليخا يوسف وصحبته، وبلقيس سليمان وملكه، وآسية هداية الله وجنته، وعائشة النبي وصحبته. قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة»، قيل: من الرجال؟ قال: أبوها.

عادت القصة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ قرة عين آسية بموسى، وجدت به الجنة، وقرة عين قارون بكنوزه، وقرة عين النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة «وجعل قرة عيني في الصلاة»، وقرة عين المؤمن رضا الله ﴿فَلَا[187] تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، يعني رضاه.

(١٨٧) في م ي: ولا. وما أثبتناه من المصحف.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ لتتخذه ولدًا، وهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه.

قال: فأخذوه، وهيئوا له ما يهيأ للصبيان، وكانت أم موسى تتحسس الأخبار، فبلغها أن فرعون أصاب الغداة صبيًا على شط النيل وتابوتًا، فعرفت بالصفة.

قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يعني من كل شيء سوى موسى، وقيل: من أمر البحر، وكذلك المؤمن العارف ينبغي أن يكون قلبه فارغًا من كل شيء سوى المولى.

قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ فحزنت حزنًا شديدًا وبكت بكاءً عظيمًا، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، وقالت لأخته مريم: اتبعي أثره فانظري ما يفعلون به، فذهبت ونظرت متنكرة، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ بعيد ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته.

قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ فلم يشرب ثمانية أيام ولياليهن، كلما أتي بمرضعة لم يقبل ثديها، فرق له فرعون ورحمه لما ألقى الله عليه من محبته، فطلب له المراضع، فلم يقبل ثدي واحدة وهو يبكي، وأخته تنظر إليه من بعيد.

مبحث في رد موسى على أمه

﴿فَقَالَتْ﴾ يعني أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ..﴾ الآية، لما كان لا يقبل ثدي امرأة طلب فرعون المراضع، فأتي بهن، فلما لم يقبل قالت: هل أدلكم، وقيل: آسية أرسلت إلى نساء بني إسرائيل اللاتي قتل أولادهن، وعرض موسى على امرأة امرأة فلم يقبل ثديهن، قالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾، قيل: لموسى. وقيل لها: وما نصحهم له؟ قالت: لمكانه منكم، وقيل: ظن فرعون أنها تريد: وهم له، يعني لفرعون، وقيل: أرادت وهم للصبي ناصحون فصرفها الله عن ذلك فعرضت ولم تصرح.

قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ قالوا: من هيه؟ قالت: امرأة عمران ولدت غلامًا فذبحه الملك، فهي حزينة مثكلة طيبة النفس بأن ترضع هذا الغلام لحزنها على ابنها، فبعث فرعون إليها وجيء بها وناولها الابن، فوضعته في حجرها، فلما شم ريح أمه عرفها فوثب على صدرها ومص حتى روي وسكن بكاؤه ونام، فلم يزل عند أمه حتى فطمته، ثم ردته عليه بعد الفطام،

وسموه موشى(١٨٨)؛ لأن مو(١٨٩) بلغتهم: الماء، وشا: الشجر، فلما وجدوه بين الماء والشجر سموه موشى، ثم عرب فصار موسى.

فلما ردته عليه نشأ في حجر فرعون وآسية يربيانه بأيديهما، واتخذاه ولدًا، وجعل الله تربيته على يديه ليعلم أنه لا يمكن الهرب مما قضى الله تعالى من مقاديره، فجعل يربيه كما يربى الولد ثلاثين سنة.

يقال: إن موسى لبث في دار فرعون ثلاثين سنة، والناس يظنونه في داره، وفرعون في الحقيقة في دار موسى، وظنت الملائكة أن آدم وبنيه في منازلهم لما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠] وهم في دارهم في الحقيقة الفردوس ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:١١].

ومما يشبه هذه الحكاية ما حكي عن بعضهم: لا يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فقيرًا، لأن أهل الدنيا كلهم بين كافر ومؤمن، فالكافر غنيمته، والمؤمن مولاه، فهو أولى بهم منهم.

عادت القصة: فبينا يوم من الأيام فرعون قاعد مع آسية وموسى يلعب وهو صغير بقضيب في يده فضربه على رأس فرعون، فغضب وهَمَّ بقتله، فقالت: إنه صبي لا يعقل ولا يميز، وإن شئت فجربه، فقرب منه طشت تمر وطشت جمر فانظر على أيهما يقبض، ففعل ذلك، ومد موسى يده إلى التمر فقبض ملك موكل به يده وردها إلى الجمرة، فقبض عليها موسى وألقاها في فمه فوجد حرارتها، فقالت: ألم أقل لك إنه صبي لا يعقل، فكف فرعون، ويقال: إن العقدة التي كانت في لسانه من ذلك.

مبحث في فراق موسى لقوم فرعون

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ..﴾ الآية، فلما بلغ موسى ثلاثين سنة دعا إلى دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحدث نفسه بفراق فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وكانت له شيعة بين بني إسرائيل يسمعون منه ويجتمعون إليه، فتكلم وعاب ما عليه فرعون وأنكر حتى ذكر ذلك منه، حتى خافوه وخافهم، فكان لا يدخل قرية من قراهم إلا خائفًا مستخفيًا.

(١٨٨) موشى: موسى، م ي.
(١٨٩) مو: موسى، م ي.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قيل: ثلاثين سنة، وقيل: بلغ تمام عقله وكماله.

قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ يعني مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ بين المغرب والعشاء، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ إسرائيلي على دينه، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ على دين فرعون، وقيل: كان خباز فرعون اشترى حطبًا للمطبخ، فقال للإسرائيلي: احمله، فأبى، فتشاجرا، فمر بهما موسى، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى [ٱلَّذِى] مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فمات وهو لا يريد قتله، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتلي القبطي بغير إذن، ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ عونًا لمجرم، ثم خرج يلحق بمنزله من مصر ويحدث بشأنه، وقيل: قتل موسى رجلًا حتى انتهى ذلك إلى فرعون، ﴿فَأَصْبَحَ[190] فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ بسبب قتله القبطي ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يتحذر ويستمع ماذا يقال، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ ذلك الإسرائيلي ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثه على رجل آخر يقاتله وهو معانق له فـ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أمس رجل واليوم آخر، وكان هذا الرجل رأس الخبازين يضع بين يديه الطعام، فقال موسى: خل عنه فلما حسر[191] عن ذراعيه، خاف الإسرائيلي أن يبطشه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ القبطي، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ قيل: قاله الإسرائيلي، وقيل: قاله القبطي ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا﴾ قتالًا في أرض مصر، ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بيني وبين القبطي، فترك الخباز الإسرائيلي، واشتد حتى دخل على فرعون فأخبره بصنيع موسى، فغضب فرعون وأجمع رأيه ورأي ملئه على قتل موسى، فبعث في طلبه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يشتد، يقال له: حزقيل[192] ابن عم فرعون، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ يأتمرون: يتشاورون، ويقال: النصيحة أفضل شيء، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدين النصيحة».

---

(١٩٠) في م ي: وأصبح. وما أثبتناه من المصحف.

(١٩١) فلما حسر: فاما، فحشر، م ي.

(١٩٢) تفسير الماوردي ٤/ ٢٤٤.

مبحث في خروج موسى عليه السلام إلى مدين

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من مصر ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يتلفت وينتظر هل يطلبه أحد، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقيل: ﴿خَآئِفًا﴾ خاف أن يضل الطريق ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ينتظر أي طريق يسلك، وكان حافيًا راجلًا ليس معه زاد ولا راحلة ولا صاحب، فتوجه إلى مدين وقال: ﴿عَسَىٰ [رَبِّيٓ] أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسطه، فسار موسى من مصر لثمان ليال، عن وهب، وقيل: بقي في الطريق شهرًا، فتفطرت قدماه دمًا، وقرح شدقاه من أكل الشيح حتى ورد ماء مدين.

فلما ورده ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ الأمة في القرآن على وجوه: جماعة، قيل: أربعون رجلًا يسقون مواشيهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تطردان على الماء، فَرَقَّ لهما فـ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يقدر على سقي مواشيهم لضعفه وكبر سنه، فَرَقَّ لهما، فأخذ دلوهما ثم تقدم فزاحم القوم، وكان قويًا كأقوى الرجال، وقيل: كان على رأس البئر حجر لا يزيله إلا ثلاثون، فأزاله موسى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ ظل شجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: لم يسأل سوى الخبز.

قال وهب: اشتهى يومئذ شبعًا من طعام، فانصرفتا في وقت إلى أبيهما لم يكونا ينصرفان فيه، فسألهما، فأخبرتاه الخبر، فقال شعيب لصفورا وهي أصغرهما: انطلقي فأتيني به، فجاءته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وقامت على استحياء معترضة يدها على[١٩٣] وجهها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق وأنا أمشي أمامك، فإنا لا ننظر إلى أدبار النساء، فنعتت له الطريق ومشت خلفه، فلما دخل على شعيب وقص عليه القصص، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ صفورا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، قال: وما تدرين أنه الأمين؟ فأخبرته بقوله: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فـ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الوافين أحسن الصحبة والوفاء، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ عملت إما الثماني وإما العشر، ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شهيد، وكان له ابنتان صفورا أحبهما إليه،

(١٩٣) على: علة، ي.

وأختها حنونا، وقيل: شَرْفَا[١٩٤]، وكانت صفورا بنت أبيها وقيمة دارهم[١٩٥]، ولا يكل شيئًا إلا إليها، فزوجها منه.

ورعى موسى لشعيب ثماني حجج ثم أدخله على ابنته وفوض إليه أمره، ثم رعا بعد ذلك سنتين تمام العشر، وولدت لموسى الأولاد، وصلح حاله، فأراد الرجوع إلى مصر لطلب أخيه هارون وأخته مريم.

سعيد بن جبير قال: أردت الحج وكنت أتجهز، فجاءني يهودي وقال: يا سعيد أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم ولكني أسأل عنه حبر الأمة ابن عباس، قال: فلما قدمت مكة سألت ابن عباس، قال: قضى أكثرهما، إن النبي إذا وعد لم يخلف، فلما قدمت العراق وأخبرت اليهودي فقال: صدق هو والله العالم.

وأذن لموسى شعيب في الانصراف.

مبحث في انصراف موسى والنبوة

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ عشر حجج، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ يؤم مصر[١٩٦] ومعه امرأته وولده وغنمه ومعه زند له وعصاه في يده يهش بها على غنمه، فإذا أمسى اقتدح بزنده نارًا فبات[١٩٧] عليها، وإذا أصبح يتوكأ على عصاه، وكانت عصا ذات شعبتين في رأسها ومحجن في طرفها، وقيل: كانت من الجنة، وكان أكثر همه طلب هارون ومريم وهما بمصر في ملك فرعون، فسار في البرية غير عارف بالطريق غير أنه يؤم الغرب ويدع الشرق، فلم يزل كذلك حتى ألجأه المسير إلى جانب الطور، وجن عليه الليل، واشتد البرد والظلام، وهاجت الريح، وامرأته في شهرها فأخذها الطلق، فعمد إلى الزند فقدحه فلم يور شيئًا، فألقى الزند وجعل ينظر يمينًا وشمالًا، ويصغي أذنه هل يرى شيئًا أو يسمع حسًا، فبينا هو كذلك إذ رأى نارًا غير بعيد، فـ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] من خير.

(١٩٤) تفسير الطبري ١٨/ ٢٢١.
(١٩٥) في م ي: دراهم. ولعل الصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى.
(١٩٦) القرطبي ١١/ ١٧١.
(١٩٧) تفسير الطبري ١٨/ ٢٧٦.

فانطلق يؤم النار، فتباعدت منه مرة، وتقرب أخرى، فلم يزل كذلك يمشي مع عصاه حتى دفع إليها، فإذا بنار عظيمة ليس لها حر ولا دخان وهي توقد وتلتهب في جوف شجرة خضراء شديدة الخضرة، قيل: إنها العوسجة. ولما نظر إليها أعجبته، فوقف يطمع أن يقع منها شيء يقتبسه، فلما طال عليه ولم يقع، وخاف على أهله الضيعة أخذ ضغثًا من دقيق الحطب ثم أهوى به عليها يقتبس شيئًا منها، فمالت النار إليه كأنها تريده، فأهابها واستأخر ثم عاد فطاف حولها، كلما أهوى إليها بيده أقبلت عليه كأنها تريد أن تأخذه، فبقي متعجبًا لا يدري أيرجع أم يكمل[١٩٨]، وقيل: كان كلما قرب من النار ليأخذ شيئًا استأخرت، فبقي متحيرًا وأوجس في نفسه خيفة، ثم عزم على الرجوع، فنودي: يا موسى، فأسرع الإجابة فقال: لبيك لبيك، فارتعدت فرائصه وانقطع لسانه، ثم نودي: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١١، ١٢]، وإنما نودي ليأنس ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من في النار: آياته، وقيل غير ذلك، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ معبودك وسيدك، ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ وكان من جلد حمار، وقيل: بل ليصل إليه بركة الأرض المقدسة ﴿إِنَّكَ[١٩٩] بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، وطوى اسم الوادي، وقيل: طوي بالبركة ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ للرسالة، ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٣-١٧]، قيل: سأل عن ذلك وهو به أعلم ليأنس، وقيل: لئلا يظن أنه حية حملها، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه:١٨].

ابن عباس: طولها عشرة أذرع على طول موسى، وقيل: كانت من أَعْصِي[٢٠٠] الجنة، وقيل: من العوسجة.

قال: وما تصنع بها، قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]، فمن مآرب العصا أنه يختبط بها الورق على غنمه، فإذا طالت الشجرة حناها بالمحجن، وإذا مشى وضعها على عاتقه ويعلق بها جهازه، وهو قوسه وكنانته ومخلاته وكساه ومقلاعه وطعامه وشرابه، وكان إذا نزل ألقى عليها كساءه واستظل بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه، ويستقي بها الماء فيصير حبلًا، قال بعضهم: كانت تذب الذباب عن موسى إذا نام، وتحفظ غنمه، وتحدث معه إذا خلا، ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تشتد، فتحت فاهه وتحركت كأعظم ما يكون من الثعبان قد صار شعبتاها فمها، وصار محجانها عرفها

---

(١٩٨) يكمل: يقم، م ي.

(١٩٩) في م ي: أني. ولعل الصواب ما أثبتناه من المصحف.

(٢٠٠) جاء في لسان العرب: «والجمع أعصٍ وأعصاء وعُصِيّ وعِصِيّ» مادة (عصا).

في ظهرها يهتز، لها أنياب تمر بالحجارة فتقطعها، وبالشجر تقلعها، فلما عاين موسى ذلك خاف وولى هاربًا، ﴿قَالَ﴾ ربه: يا موسى لا تخف أقبل ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾، فلما أراد أخذها لف يده بثوبه، قال: يا موسى لو أذن لها لما تحاذر أكانت المدرعة تغني عنك شيئًا؟ قال: لا ولكني ضعيف، قال: اكشف عن يدك فأدخلها بين أنيابها، ففعل حتى وجد حر أنيابها، فلما قبضها تحولت عصا كما كانت، فقيل له: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أدخل يدك في إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ برص ولا عيب ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ عجيبة، فأدخلها وأخرجها فإذا عليها نور يلهب يأكل عين المبصر، تغلب شعاع الشمس، فأنس موسى وسكن وذهب منه الخوف، فقال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٢٤]، ذلك ﴿بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص:٣٢]، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ ورسالتي، ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ قوِّ[٢٠١] به ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي النبوة، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾، ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ نصلي، قال: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقال: ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أخرج هيبته من قلبي فلا أخاف منه ومن حشمه، ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ دخولي عليه؛ لأن له حجابًا صعبة.

فتوجه برسالة ربه إلى فرعون بمصر، فشيعته الملائكة وصافحته ودعوا له.

مبحث في أهل موسى

اختلفوا متى رجع إليهم؟

قيل: إنه خلفهم بالموضع الذي كلم الله فيه.

وقيل: لم يرجع إليهم أربعين سنة في موضعهم الذي خلفهم أولًا، وبعث إليهم بالملائكة والحور العين ليعينوها على وضع الحمل.

وقيل: رجع إليهم في الليلة وحملهم مع نفسه.

ويقال: كان له ابنان، فلم يزالوا مقيمين هنالك، لا يدرون ما صنع موسى حتى مر بهم

(٢٠١) قوِّ: قوي، ي.

أربعون من أهل مدين فعرفوهم وردوهم إلى مدين، فمكثوا عند شعيب حينًا حتى بلغهم خبر موسى بعد فلق البحر ومجاوزته ببني إسرائيل وفرعون وقومه، فبعث بهم شعيب إلى موسى بمصر، والله أعلم.

مبحث في قدوم موسى مصر والتقاؤه مع هارون وقدومهما على فرعون

فانطلق موسى وعليه جبة من صوف ومدرعة وقلنسوة ونعلان ومعه عصاه، وليس معه زاد ولا حمولة ولا صاحب ولا سلاح، فكان يصل صائمًا، ويبيت وليس له إلا شيء يصيده يعيش به حتى ورد أرض مصر، فأوحى الله إلى هارون وجعله نبيًا ورسولًا، وبشره بأن موسى قادم عليه، فإذا كان يوم السبت غرة ذي الحجة قبل طلوع الشمس فبكر إلى شط النيل فيه تلتقيا أنت وأخوك، فأقبل موسى في ذلك الوقت، وخرج هارون حتى التقيا هو وموسى على شاطئ النيل، وفرعون في مدينة حصينة عليها سور كبير[٢٠٢] وفيها ألوف مقاتلة، وقد ربط فيها الآساد، فذهب موسى وهارون حتى انتهيا إلى باب المدينة، بابها الأعظم الأقرب من منزل فرعون، ومنه يدخل ويخرج، وهناك آساد، وهناك حراس كثيرة، وذلك ليلة الإثنين بعد هلال ذي الحجة بيومين، فمكثا على بابه، قيل: تسعة أشهر، عن وهب، وقيل: سنتين، عن محمد بن إسحاق، يغدوان على بابه ويروحان لا يجترئ أحد أن يخبر فرعون بشأنهما، فقال لهما يومًا بعض الحراس: هل تدريان لمن هذا الباب الذي أنتما عاكفان عليه منذ كذا يوم؟ قال موسى: بلى أعلم، فقال: أخبرني، فقال: إن هذا الباب وما دونه وأنا وأنت وفرعون وجميع أهل الأرض وأهل السماء لرب العالمين، فسمع الرجل قولًا لم يسمع مثله قط، فأخبر الكبير الذي فوقه بذلك، فما لبثوا أن بلغ فرعون يومه ذلك، فملئ من ذلك غيظًا، فدعا بهما، فلما وقفا بين يديه قال موسى: يا فرعون إني رسول رب العالمين، فعرفه فرعون فـ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بقتلم القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لإحساني إليك، فـ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يعني عن النبوة[٢٠٣]، وقيل: فعلها خطأ لا عمدًا، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ تذكر منتك ولا تذكر منتنا، أخذت بني إسرائيل عبيدًا،

---

(٢٠٢) سور كبير: سرر كثير، ي.

(٢٠٣) تفسير الماوردي ٤/ ١٦٧.

قال: الآن ما شأنك؟ قال: أرسلني رب العالمين إليك لتعبده وتترك بني إسرائيل وترسلهم معي وأهديك إلى ربك فتخشى، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إنكارًا لما قال، فـ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ يزعم أن لكم إلهًا غيري، ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾، ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ تعرف فيه صدقي؟ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ في مثل بدن البختي العظيم إلا أنه أهول منه، له عينان تلتهبان نارًا أسود، وصار لحياها[٢٠٤] اثني عشر ذراعًا، قال ابن عباس: بين شدقيه ثمانون[٢٠٥] ذراعًا فيه أضراس لها صرير يفزع من يسمعه، يَتَزَبَّد[٢٠٦] شدقاه ويتطاير لعابه لا يقع منه قطرة[٢٠٧] على أحد إلا اشتعل نارًا، فجعلت تعلو على جدر قصر فرعون حتى أشرف من فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله، فانهزم الناس هاربين، ونزل فرعون عن سريره ووطئ الناس بعضهم بعضًا حتى مات يومئذ في الزحام خلق كثير، وخاف فرعون حتى مشى بطنه أربعين مرة، وكان قبل ذلك لا يقوم لحاجة إلا في أيام كثيرة، قيل: في أربعين، وفي أسبوع، اعتاد ذلك، فضجوا إليه حتى أخذها، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ لها شعاع كالشمس تكل عنه الأبصار.

فلما عاين فرعون ذلك خاف أن يؤمن قومه لموسى، فوضع أمره على السحرة، فـ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ والملأ بعضهم لبعض: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾، ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ احبسه وأخاه، ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ[٢٠٨] حَٰشِرِينَ﴾، ثم قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۞ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قيل: العيد، وقيل: يوم النيروز، وقيل: يوم السدف، ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾، ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۞ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لاتباع السحرة، فجمع سبعين ألفًا من

---

(٢٠٤) الألوسي تفسير روح المعاني ٩/ ٢٠.

(٢٠٥) تفسير السمعاني ٢/ ٢٠٢.

(٢٠٦) تاريخ ابن عساكر ٦١/ ٦٣.

(٢٠٧) تاريخ ابن عساكر ٦١/ ٦٣.

(٢٠٨) في م ي: حاشرة. وما أثبتناه من المصحف.

السحرة، ثم اختار منهم مرة بعد أخرى حتى وقع الاختيار على سبعين لم يكن مثلهم لذلك الموعد.

مبحث في مقابلة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة

فلما جاء الموعد والسحرة جاءت إلى فرعون، قال لهم فرعون: قد جاءنا ساحر لم ير مثله قط، إنكم إن غلبتموه قربتكم وفضلتكم على أهل مملكتي، قالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وكان رئيس السحرة أربعة، وهم الذين آمنوا وقالوا لفرعون: فاقض ما أنت قاض، وهم: سابور، وعاذور، وحطحط، ومصفى[٢٠٩]، ثم جمع كل السحرة ومن كان عنده شيء من ذلك، فلم يدع أحدًا في مملكته إلا جمعهم، وأعد السحرة الحبال والعصي لذلك اليوم، ثم حضروا وقالوا: قد أفلح اليوم من استعلى فأجمعوا كيدكم، فصف السحرة خمسة عشر ألف ساحر، وقيل: سبعين ألفًا، مع كل واحد منهم حبالهم وعصيهم ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ وكان تلك الحبال والعصي شبيهة بالحيات والثعابين والأسد وأشباه ذلك، وجعل فيها الزئبق، ثم السيميا، وكلما وقعت عليها الشمس تحركت.

وخرج موسى وهارون ليس معهما غيرهما، ومع موسى عصاه، و﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٩]، فأتيا المجمع وفرعون على سرير له مع أشراف مملكته، فقال موسى للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾. فقال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر، ثم قال: ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ..﴾ الآية. فقالوا لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾، قال: ألقوا، فألقى [كل] رجل ما في يده من العصي والحبال فإذا هي حبال أمثال الحيات يركب بعضها بعضًا، ﴿فَأَوْجَسَ[٢١٠] فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، قيل: خيفة لئلا يغتر به الناس، وقيل: خيفة ألا يعود عصاه حية، فأوحى الله إليه: ألق ما في يمينك و﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، ففرج عن موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده فصارت حية عظيمة تلقف

---

(٢٠٩) الدر المنثور ٣/ ٥١٥.

(٢١٠) في م ي: وأوجس. وما أثبتناه من المصحف.

حبالهم وعصيهم وتبلعها حية حية حتى لم تُبق[٢١١] في الوادي شيئًا من ذلك، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا كما كانت لم تزد ولم تنقص، فعلم السحرة أنها ليس بسحر، ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ۝ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف:١١٩-١٢١]، لو كان ذا سحرًا ما غلبنا، ﴿قَالَ﴾ ورأى الغلبة البينة ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف:١٢٣]، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ﴾ [الأعراف:١٢٤]، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:٧٢، ٧٣]، فرجع عدو الله مغلوبًا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر فبطش بالسحرة، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جذوع النخل كل جذع أربعون ذراعًا.

ابن عباس: كانوا أول النهار أعداء يريدون إطفاء نور الله، وفي آخره شهداء.

ثم شاور فرعون قومه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ عبادتكم إياي ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]، وخاف فرعون أن يؤمن به مملكته.

مبحث في حزقيل[٢١٢] ومناظرته مع فرعون وحديث امرأته آسية

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧]، لما أيس فرعون من القتال والغلبة أخذ في الحيل ومخادعة الناس.

قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ فأجابه موسى بقوله: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى..﴾ الآية، واتفق هو وملأه على قتله، فقام حزقيل وهو ابن عمه [وكان] مؤمنًا من آل فرعون، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ [يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ] أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا..﴾ الآيات، فلما سمع فرعون مقالته غضب ولم يقدر على قتله، فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلا ما أعلم أنه صواب، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ

(٢١١) تُبق: يبق، م ي.
(٢١٢) تفسير الرازي ٢٢/٤٧.

ءَامَنَ﴾ [غافر:٣٠] اختلفوا فيه، قيل: إنه حزقيل، إلى آخر الآيات وهو قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر:٤٤]، وعليه جماعة من المفسرين، وقيل: إنه موسى؛ لأنه أظهر إيمانه والأول كتم إيمانه، عن أبي علي.

﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الأمم الخالية وعذابهم، و﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ عذابهم، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾.

قوله: ﴿مُّرْتَابٌ[٢١٣]﴾ شاك، ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾، ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ الجنة، ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا، ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يعني لا ينفع ولا يضر إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٤٥].

وهب: كان حزقيل مؤمنًا وامرأته مؤمنة وهي مشاطة بنات فرعون، وآسية امرأته، وكانت إسرائيلية، فبينما ذات يوم المشاطة تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط من يدها فقالت: تعس من كفر بالله، فقالت ابنة فرعون: أولك إله غير أبي؟ قالت: نعم خالقي وخالق أبيك والسماء والأرض، فلطمت وجهها وغضبت وانطلقت فأخبرت أباها، وكانت زوجة خازن فرعون وحزقيل صاحب العهد بعده، وخزن له مائة سنة، فدعا فرعون بها وسألها عن قولها، فأقرت، فمدت بين أربعة أوتاد فما زال يعذبها ويقول: هذا دأبك حتى تكفري بإله موسى، فقالت: لا أكفر وإن عذبتني مائة سنة، فلما رأى أنها أبت إلا الإيمان أمر بأكبر ولدها فذبح على وجهها، فتكلمت أوداجه وقال: يا أمه ابشري بالجنة فإنك على الحق واصبري، ثم قال لها فرعون: إما أن تكفري بالله وإلا ذبحت ولدك الآخر، فقالت: لو ذبحت الناس كلهم ما كفرت، فأمر بابنها الثاني فذبح على وجهها، فبشرتها أوداجه بالجنة، وقالت: يا أمه أنا وأخي وأنت في الجنة فاصبري، ثم قال فرعون: إما أن تكفري وإما أن أذبح ابنك الرضيع، فجزعت، فقال[٢١٤] الرضيع - أنطقه الله -: لا تحزني يا أماه وابشري وانظري فوقك، فنظرت إلى السماء فإذا باب السماء مفتوح ورأت الجنة وفيها ولداها، ففرحت، فذبح ابنها الآخر وقتلها، فأرسل الله إليهم الملائكة فذهبوا بأرواحهم إلى الجنة.

وهب: وكانت امرأة فرعون آسية نظرت إليها من كوة قصر فرعون، ورأت ما يصنع بها، وكانت مؤمنة، فدخل عليها فرعون فقال: كيف رأيت المشاطة؟ فقالت: ويح لك يا فرعون ما

---

(٢١٣) في م ي: من تاب. والصواب ما أثبتناه من المصحف.

(٢١٤) فقال: فقالت، م ي.

أجراك على الله، فقال: قد اعتراك الجنون الذي اعترى[٢١٥] المشاطة؟ فقالت: لا ولكني آمنت بالله رب العالمين، فدعا بأمها وقال: ابنتك جنت، فعلمت بها أمها ، وأراد بها الرجوع عن دينها فأبت، وأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد فعذبها حتى ماتت، وأوحى الله إلى موسى أن ائت آسية فبشرها، وقيل لها: انظري فوقك، فنظرت الجنة فضحكت وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ..﴾ الآية [التحريم:١١].

مبحث في عمل الصرح

فلما رأى فرعون إيمان من آمن وثباتهم في ذلك، وغلبة موسى، خاف وحزن، فأخذ في المكايدة، فأول مكيدة أمر بها بنيان الصرح قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر:٣٦]، فجمع العمال خمسين ألف بناء سوى من يطبخ الآجر ويعمل سائر الأعمال، فأخذوا في العمل حتى ارتفعوا ارتفاعًا شديدًا، كان إذا طلعت الشمس ضرب ظل الصرح ميلًا نحو المغرب، وكذلك نحو المشرق، وجعله ثلاثة أطباق، والناس في أعلاه وأسفله وأوسطه، قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل:٢٦]، فانهدم فلم يبق فيه أحد إلا هلك ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ولم يعتبروا بها وأبوا إلا الإقامة على الكفر.

مبحث في الآيات التسع

فلما لم ينته فرعون دعا موسى عليهم، فاستجيب له، فأرسل الله عليهم الطوفان؛ المطر بالليل والنهار لا يرون شمسًا ولا يمكنهم الخروج، فخافوا الغرق، وقيل: الطوفان هو الطاعون، وبعث في قوم فرعون في أبكارهم فمات من ليلته من الناس سوى الدواب ثمانون ألفًا، عن وهب، وقيل: بلغة[٢١٦] اليمن الطاعون يسمى الطوفان. والله أعلم.

فاستغاثوا بموسى وقالوا: يا موسى مصر قد صار بحرًا فاكشف عنا العذاب نؤمن، فدعا موسى، فكشف المطر، وأرسل الله ريحًا طيبة فجفت الأرض، فخرج النبات لم ير بمصر مثله، فقالوا: هذا الذي جزعنا منه كان خيرًا لنا ولكنا لم نشعر، ولكننا لا نؤمن لك، ولا نرسل معك بني إسرائيل، ونكثوا وعصوا.

---

(٢١٥) اعترى: العترى، م ي.

(٢١٦) بلغة: بلغ، م ي.

فأرسل الله عليهم الجراد، فجاء منه مثل الغمام الأسود، وذلك في زمان الحصاد، فأكل كل نبت وشجر، حتى أكل خشب البيوت وأبواب الدور، ولم ينتقل من مكان حتى يخربه ويستأصله، فاستغاثوا به، وقالوا مثل مقالتهم الأولى: لنرسلن معك بني إسرائيل، ولبث الجراد سبعًا لا يرون الأرض من كثرته، وكان موسى قد أوحى الله إليه أن انطلق إلى ناحية من الأرض وأشر بالعصا، فأشار فجاء الجراد، فلما دعا أرسل الله ريحًا فألقت الجراد في البحر فلم يبق ثَمَّ جرادة، فقالوا: قد بقي لنا من طعامنا بقية تكفينا سنتنا[٢١٧] هذه، لا نؤمن لك ولا نرسل معك بني إسرائيل.

فمكثوا شهرًا، فأرسل الله عليهم القمل؛ وهي الجراد الصغار، قيل ذلك عن بعضهم، وقيل: القمل المعروف، عن بعضهم.

قال محمد بن إسحاق: فأمر الله موسى فصار إلى كثيب رمل فضرب بعصاه فسال عليهم قملًا، فمنعهم الأطعمة والأشربة والنوم والقرار، وقيل: إنه الجراد الصغار، فلم يُبق بأرضهم شيئًا، فقالوا لموسى مثل مقالتهم الأولى، فدعا فكشف عنهم، وقيل: أرسل الله ريحًا حارة فأحرقت الجراد فلم تُبق منه شيئًا، [ثم نكثوا].

فأدركهم القحط، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، فجاعوا وجردوا، فاستغاثوا به، فكشف عنهم، فلم يبق له شيء.

فمكثوا شهرًا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فخرجن من البحر مثل الليل، فغشى أهل مصر فدخلن بيوتهم وثيابهم وفراشهم وطعامهم، وكان الرجل يستيقظ وعلى فراشه ذراع من الضفادع، فاستغاثوا بموسى وقالوا: نحلف لك بإلهك لئن كشفت عنا هذا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى، فأمات الله الضفادع، وأرسل مطرًا احتملها فنبذها في البحر، فقالوا: أخرج بني إسرائيل ولا تخرج معهم شيئًا من أموالهم، فقال: إنما أمرني ربي أن أخرج بهم وأخرج أموالهم معهم، قالوا: إذن لا نرسل معك بني إسرائيل ولا نؤمن لك.

فمكثوا شهرًا، فأرسل الله عليهم الدم، فجرت أنهارهم دمًا، فلم يقدروا على الماء العذب، وبنو إسرائيل يشربون الماء العذب، فاستقوا من أنهار بني إسرائيل الماء فصار دمًا، فشربوا من آنيتهم فصار دمًا حتى إنه ليجعل الإسرائيلي من فيه في فم القبطي فيصير في فيه دمًا عبيطًا،

(٢١٧) سنتنا: سنينا، م ي.

فبلغهم الجهد، فمكثوا كذلك سبعة أيام، وقيل: أربعين يومًا، عن وهب، فتفرق عن فرعون جموعه، فاستغاث فرعون بموسى فقال: أقسم لك لئن كشفت عنا هذا لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فعذب ماؤه، فعادوا لكفرهم ولم يوفوا بذلك.

قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ..﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۞ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٣-١٣٦]، فلما رأى ذلك دعا موسى عليهم وقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ..﴾ الآية [يونس:٨٨]، فطمس الله أموالهم حجارة فلم يبق لهم شيء مما خلقه الله لا حنطة ولا شعير ولا ثوب ولا سلاح ولا شيء إلا صار حجرًا، فذلك تسع آيات.

محمد بن كعب القرظي: سألت عمر بن عبد العزيز عن التسع الآيات في قوله: ﴿وَلَقَدْ[٢١٨] ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ [الإسراء:١٠١]، فقال: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ويده، والطمسة، والبحر.

ويقال: دعا موسى، وأمَّن هارون، فقال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩].

وروي أن عمر بن عبدالعزيز[٢١٩] دعا بخريطة فأخرج منها أشياء من بقايا أموال، وإذا البيضة مشقوقة[٢٢٠] نصفين وإنها لحجرة، وإذا الجوزة[٢٢١] حجرٌ والحمصة[٢٢٢].

وروي عن بعضهم: رأيت إنسانًا لو رأيتموه ما شككتم أنه إنسان وإنه لحجر، فقال فرعون: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ.﴾ الآية [الإسراء:١٠١، ١٠٢].

مبحث في مسير موسى ببني إسرائيل وعظام يوسف عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء:٥٢].

فلما أبى فرعون إلا الكفر وقرب هلاكه أراد الله ليهلكه بالذي افتخر به؛ إذ كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى [مِن تَحْتِىٓ]﴾ [الزخرف:٥١]، فأسر موسى بالمسير،

(٢١٨) في م ي: لقد. وما أثبتناه من المصحف.
(٢١٩) تفسير الخازن ٢/ ٤٥٨.
(٢٢٠) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧.
(٢٢١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٣٠٠.
(٢٢٢) تاريخ الطبري ١/ ٤١٩.

وكان مقاتلة بني إسرائيل يومئذ ستمائة ألف وشيء، وأمره أن يحمل معه عظام يوسف ويضعه بالأرض المقدسة، فسأل موسى من يعرف قبره، فما وجد إلا عجوزًا من بني إسرائيل، فقالت: أنا أعرف مكانه إن أنت خرجت بي معك أدلك عليه، قال: أفعل، وكان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر، فدعا ربه أن يؤخر طلوع القمر حتى يفرغ من أمر يوسف، ففعل، فخرجت العجوز فأرته قبره في ناحية من النيل، فاستخرج موسى صندوقًا من مرمر وحمله معه، فمن ذلك تحمل اليهود موتاها من كل أرض إلى الأرض المقدسة، وأمر موسى بني إسرائيل أن يحملوا معهم الأمتعة والحلي والثياب، ثم أسرى بهم ليلًا متوجهًا إلى البحر، وأتى أهل مصر فرعون، وقيل له: إن موسى سار ببني إسرائيل مع أموال القبط، فأرسل في المدائن حاشرين.

وروي أن موسى أمرهم أن يستعيروا من القبط أموالهم، فيذهبوا بها، وذكر أنه قيل لهم: فلما اجتمع الناس بفرعون أخبرهم بالخبر وقال: خرجوا وذهبوا بأموالنا ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤].

قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ﴾ الآية [الشعراء:٥٧]، ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء:٦٠]، فخرج فرعون في جيش عظيم في أثر موسى، ويقال: إن مقدمته ألف ألف وستمائة ألف مقدم.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ ويمنعني منهم، ورأوا أمامهم البحر وخلفهم فرعون فجزعوا، فلما تقاربوا وكادوا يختلطون أرسل الله على فرعون سحابة وضبابة[٢٢٣]، فكانوا في شبه الليل وموسى في نهار مشرقين، فوقفوا[٢٢٤] مكانهم، وقالوا: علينا ليل بعد فنصبح وندركهم، فلما بلغ موسى البحر وقد حمل جميع بني إسرائيل ولم يتخلف منهم أحد قال: خوضوا البحر؛ وهو أربعة فراسخ عرضًا، فقالوا: يا موسى كيف نستطيع أن نخوض هذا البحر، فقال فتاه يوشع: أأُمرت بذلك يا موسى وتأمرني بذلك؟ قال: نعم، فضرب دابته فخاض البحر حتى عبر عليه ما يواري الماءُ حوافر دابته، ثم رجع إليهم وهم ينظرون إليه، فأبوا أن يخوضوا، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ[٢٢٥] إِلَىٰ مُوسَىٰٓ

(٢٢٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/ ٢٠٤.

(٢٢٤) فوقفوا: فوقوا، م ي.

(٢٢٥) في م ي: وأوحينا. وما أثبتناه من المصحف.

أن ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه ضربة ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] الجبل، فصار فيه اثنا عشر طريقًا لكل سبط منهم طريق، فقال: ادخلوا، فقالوا: الطريق رطب، فأرسل الله ريحًا حارة فجففت الطريق، قال تعالى: ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧]، وجعل لهم كوات في كل طريق ينظر كل سبط إلى صاحبه، فعبروا، ثم أراد موسى أن يعيد البحر كما كان لئلا يمر فيه فرعون، فأوحى الله إلى موسى: أن اترك البحر رهوًا إنهم جند مغرقون.

مبحث في غرق فرعون

قال: ثم رفعت [الغمامة] من فرعون فصاروا في نهار، فأقبلوا يسير بهم، فقال الدليل: بلغوا البحر فإذا فيه طرق يابسة، وكان معهم دليل يسير بهم، فقال الدليل: إن هذا الشيء ما رأيته قط، وإني لخائف منه، فقال فرعون: ألا ترون البحر انفرق لي وييس فرقًا مني وأنا ربكم الأعلى، قالها يومئذ، فقال الدليل: لا تعبره حتى آخذ بك طريق البر فتلقاهم إلى ثلاثة أيام، قال فرعون: نعم، فتوجه الدليل نحو البرية وهم يسيرون معه، فجاءت الملائكة وفيهم جبريل وكانوا ثلاثة وثلاثين ملكًا، وجبريل على فرس أنثى، فتقدم جبريل فاتبعهم فرعون وكان على حصان فلم يملكه حتى أدخله البحر في بعض تلك الطرق، وضربت الملائكة الناس فقالوا: انطلقوا وأدركوا الملك، فاتبعوا فرعون حتى دخلوا جميعًا فلم يبق منهم أحد، فضربهم البحر ضربة فغرقوا فيه جميعا، وجرى البحر كما كان.

ولما أدركه الغرق ورأى سلطان الله قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١]، وما يروى أن جبريل كان يحشو الحال[٢٢٦] في فيه غير صحيح، وكلام الله أصح، قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩١، ٩٢] أي: نلقيك على نجوة[٢٢٧]، وقيل: سويًا[٢٢٨] لا يتغير شيء منك لتكون آية وعبرة، قال: فسمع قوم موسى خفقة البحر قالوا: يا موسى ما هذا؟ قال: أغرق الله فرعون وقومه، قال: فأخرجهم لنا ننظر إليهم، فدعا موسى فلفظهم البحر، فنظروا إليهم وأخذوا أموالهم ومتاعهم ما شاءوا، قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا

(٢٢٦) والحال: الطين الأسود. الصحاح (حول).
(٢٢٧) تفسير الطبري ١٥/ ١٩٤.
(٢٢٨) تفسير النسفي ٢/ ٣٩.

ثُمَّ ٱلۡأَخَرِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ [الشعرا:٦٤-٦٧] عبرة.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] إلى قوله: ﴿بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [الأعراف:١٤١]، وبعث موسى[٢٢٩] جُنْدَيْن إلى مدائن فرعون وهي خلو من المقاتلة، وعلى الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوفَنَّا[٢٣٠] فدخلا بلاد فرعون وقومه فغنموا ما كان فيها من الأموال، قال تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ..﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨].

مبحث في هلاك قارون

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ [القصص:٧٦]، قيل: كان في أيامه، وقيل غير ذلك.

ويقال: إن فرعون ملَّك قارون على بني إسرائيل بمصر، فلما أعطي موسى وهارون الرسالة وهلك فرعون ولم يكن لقارون أمر وجد في نفسه شيئًا فقال: لموسى ولهارون النبوة والرئاسة وليس لي شيء؟ لا أصبر على هذا، وجرى بينهما كلام، واعتزل قارون عمن معه فلم يكن يأتي موسى ولا يجالسه، وكان ابن عمه، فتجبر وتكبر، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ..﴾ [القصص:٧٦] الآيات، قال موسى: يا رب إن قارون يفسد علي أمر بني إسرائيل فمر الأرض تطيعني فيه وفيمن معه، ففعل الله ذلك، فأقبل موسى إلى قارون ومن معه فقال: يا بني إسرائيل من كان معي فليعتزل، ومن كان مع قارون فليلبث مكانه، فلما سمعوا ذلك عرفوا أنه صادق فاعتزلوا كلهم إلا رجلين من بني لاوي[٢٣١] بن يعقوب، فقال: يا أرض خذيهم إلى أقدامهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم إلى أوساطهم، ثم إلى صدورهم، قال قارون: يا موسى أنشدك الله والرحم، فلم يرق له، قال الله: ألا رحمته، وعزتي لو دعاني لرحمته، فقالت بنو إسرائيل: إنما دعا موسى على قارون ليأخذ ماله، فدعا موسى فخسف بماله، ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص:٨١]، فهو يتجلجل كل يوم قامة إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى:

(٢٢٩) الكامل في التاريخ ١/ ١٦٤.
(٢٣٠) الكامل في التاريخ ١/ ١٦٤.
(٢٣١) لاوي: وونيل، ي.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص:٧٦] لم يرض بقضاء الله ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ تثقل، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ [القصص:٧٦]، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨] وهو الكيمياء، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [القصص:٧٨] يعني فرعون وقومه وهو ينظر إليهم، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ ثوب أخضر أنزله الله إلى موسى فسرقه قارون إلى قومه، ﴿فَخَسَفْنَا﴾، ﴿فِئَةٍ﴾: جماعة ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ يمنعونه من عذاب الله، ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ..﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢]، ثم وعظ عباده: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ..﴾ الآيات.

مبحث في مواعدة موسى وحديث السامري
وهو من أهل باجرما والعجل

قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:١٤٢]، فقال: إن موسى كان قال لبني إسرائيل: إن خرجنا لآتينكم بكتاب، فلما خرجوا وأغرق الله فرعون قال: يا موسى ائتنا بكتاب من عند ربنا كما وعدتنا، فأوحى الله إليه أن عدهم أربعين ليلة، واختر منهم سبعين رجلًا شيوخًا، فاختار سبعين منهم الخير فالخير، واستخلف عليهم هارون وأوصاه بهم، فخرجوا حتى انتهى إلى الجبل وأمرهم أن ينتظروه أسفل الجبل، وصعد موسى الجبل، فقال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ..﴾ إلى قوله: ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٣، ٨٤]، فكلمه ربه فأمره ونهاه وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، وقرب موسى من ذلك المكان كما قال: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، لا قرب المسافة لكن قرب المنزلة، وكان موسى يصوم في تلك الأيام، وكانت الألواح عشرة، كل لوح عشرة أذرع على طول موسى من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وكتب في أول يوم من ذي القعدة، فأول الكتاب: هذا كتاب كتبه الله لعبده موسى يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني لا تشرك بي شيئًا. إلى غير ذلك من الأحكام.

فلما تناول موسى الألواح قال: يا رب أوصني، قال: أوصيك بدينك، قال: ثم بماذا؟ قال: بأهل ملتك، قال: إلهي تباعدوا في الأرض، قال: أحب لهم ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك، قال: وعدت بني إسرائيل عشرين يومًا وعشرين ليلة، ثم قالوا: إن موسى أخلف الوعد، وكان السامري فيما بينهم، وكان من قرية يعبدون البقر وحب البقر في نفسه، وكان

صائغًا، وقيل: قال: هاتوا الحلي التي استعرتم من أهل مصر، فصاغ عجلًا وجعل فيه خروقًا إذا هبت الريح صوت، وقيل: إنه قبض من أثر حافر فرس جبريل ترابًا وجعل في العجل فصار لحمًا ودمًا، والله أعلم. ثم قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى قد جاء، وأخطأ موسى الطريق، وجعل له خوارًا، فعبدوه وأحبوه، وأشربوا في قلوبهم حب العجل، واعتزل هارون في اثني عشر ألفًا، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۞ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩٠، ٩١]، فعند ذلك قال الله لموسى: إن قومك اتخذوا العجل، فقال: يا رب ومن جعل لهم العجل؟ قال: السامري، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا﴾ [طه:٨٥] يعني شددنا عليهم التكليف حتى يظهر لك المهتدي منهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥] امتحانك إياهم.

مبحث في سؤال الرؤية

اختلفوا متى سؤال الرؤية، قيل: إنه في المرة الأولى عن نفسه، وفي المرة الثانية عن قومه لما خرج ثانيًا إلى الميقات.

وقيل: إنه سأله مرة واحدة عن قومه، ويجوز أن يكون في المرة الأولى.

وقيل: لما سمعوا كلام الله سألوا موسى أن يريهم الله نفسه.

واختلفوا كيف سؤال الرؤية، وكيف كان ذلك، فقيل: عن قومه، وقيل: كان لا يعرف أنه لا تجوز عليه الرؤية ثم عرف بالسمع، فعلى هذا يجوز ما يروى في القصة أنه سأل أول مرة لنفسه وفي الثانية لقومه، والله أعلم.

مبحث في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٤٣].

يقال: كان لموسى سبعة أسفار: سَفَرُ العطب في اليم فنجاه الله، وسفر الهرب إلى مدين فوجد الصهر والسكن[٢٣٢]، وسفر الطلب وجد النبوة، وسفر السبب وجد الراحة من العدو[٢٣٣] وهلاك فرعون، وسفر العجب حديث المن والسلوى أربعين سنة، وسفر الأدب وجد عبدًا، وسفر الطرب وجد الكلام والمناجاة.

(٢٣٢) انظر معترك الأقران ٢/ ٣٩٠ والمنتخب في النوب ص٢٠٨ ومرآة الزمان ٢/ ١٠١.

(٢٣٣) انظر معترك الأقران ٢/ ٣٩٠ والمنتخب في النوب ص٢٠٨ ومرآة الزمان ٢/ ١٠١.

ويقال: إن مسرى موسى بموعد ومسرى محمد ليلة المعراج بغير موعد، فذلك أهنأ، ويقال: إن الانتظار موت أحمر.

شعر:

أتى زائرًا من غير وعد وقال لي ... أصونك من تعليق قلبك بالوعدِ

آخر:

وليلة ما مثلها ليلة ... صباحها بالهجر مفجوع

ليلة جئناه بلا موعد ... نسري وداعي الحب متبوعِ

وكلمه ربه بلا واسطة، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فبين أنه مع قربه بعيد، ومع بعده قريب، علا بحوله، ودنا بطوله، سالك قريب المزار، بعيد المرام على طالبيه بعيد الطلب، فحسبك منه آثاره، وحسبك من الربيع أزهاره، ومن الربيع ثماره، لا تطلب رؤيته فإنه محال. شعر:

إن يمنعوني ممري نحو داركم ... فسوف أنظر من بعد إلى الدار

عادت القصة: قال: ولما كلم موسى ربه سأل ربه الرؤية، قيل: عن نفسه، وقيل: عن قومه على ما بينا، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] فنظر فإذا هو تقطع فلقًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ قَالَ﴾، ﴿صَعِقٗاۚ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ ﴿فَخُذۡ..﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤]، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا.

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ليس الخبر كالمعاينة»، فلما رأى ما هم عليه من عبادة العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه مثل ما يفعل القادم بأخيه، وما روي أنه أخذ لحيته غضبًا عليه ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۞ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ﴾ [طه:٩٢-٩٤]، ولم يأخذ، وإنما هي كعادة الناس أن يقولوا لمن يعاتبه: دعني ودع رأسي ولحيتي، إلى قوله: ﴿خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [طه:٩٤]، وقوله: ﴿فَلَا[٢٣٤] تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، فأقبل على السامري وقال: ما خطبك يا سامري؟ قال: بصرت بما لم يبصروا به، فقبضت قبضة من أثر الرسول وكذلك

(٢٣٤) في م ي: لا. وما أثبتناه من المصحف.

سولت لي نفسي: زينت، فغضب موسى، وأخرجه وقال: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه:٩٧] ولا تُخالِط[٢٣٥] ولا تُخَالط، ثم أخذ العجل وأحرقه ونسفه بقوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه:٩٧]، قال مجاهد: جعله بعد ذلك بعد ما أحرقه في ماء وأعطاهم فشربوا، فمن كان عبده اسود وجهه، ثم أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون، وقيل: أحرقه وذراه في اليم.

مبحث في رفع الجبل فوقهم

فلما أتاهم بالكتاب وفيه الأمر والنهي قالوا: يا موسى لن نقبل ذلك، والعجل الذي أحرقته كان أحب إلينا فلن[٢٣٦] نأخذ بما فيه، فقال موسى: يا رب إنهم لم يقبلوا كتابك، فأمر الله الملائكة فرفعوا جبلًا على عسكرهم كأنه الظلة، فقال: خذوا ما آتيناكم وإلا ألقي عليكم، وقد كان ذلك بقي أيامًا، ثم خوطبوا لئلا يكون إلجاء، فسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل، فمن ثم تسجد اليهود على شق الوجوه، فقبلوا الكتاب.

مبحث في التوبة والقتل

وقال موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم، قالوا: وما توبتنا؟ قال: فاقتلوا أنفسكم، يقتل الذي لم يعبد العجل الذي عَبَدَ، قالوا: نفعل، فأخذ العهد عليهم، وأتاهم هارون ومن معه وهم اثنا عشر ألفًا لم يعبدوا العجل بأيديهم السيوف، وقعدوا بأفنية بيوتهم وإن القائل يقول: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوا شاهرين السيوف فاتقوا الله واصبروا، فلعن الله رجلًا حل حبوته أو قام من مجلسه أو مد طرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو رجل، فيقولون: آمين، فجعلوا يقتلونهم إلى المساء وموسى يدعو ربه لما رأى من كثرة الدماء، حتى أوحى الله إليه: ارفع السيوف فقد قبلت توبتهم: من لم يقتل ومَنْ قُتل، فأمر موسى المنادي: ارفعوا السلاح عن أخوانكم فقد نزلت الرحمة، فكان القتلى سبعين ألفًا، قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٥٤].

وقيل: إنهم أرادوا من موسى التوبة، وأنه اختار منهم سبعين وخرج إلى الميقات، وكلم ربه،

---

(٢٣٥) تُخالِط: يخالِط، ي.

(٢٣٦) فلن: فلا، ي.

وقالوا لما سمعوا كلام الله: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، ثم أحياهم، ورجع موسى إلى قومه وقال: لا تقبل توبتكم إلا أن تقتلوا أنفسكم، عن محمد بن إسحاق.

مبحث في خروج موسى ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة واختيار النقباء

ثم قال موسى لبني إسرائيل: اذهبوا إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لكم فهي ميراث أبيكم إبراهيم، قالوا: وكيف نذهب ومعنا الذرية والنساء، وليس لنا حمولة ولا زاد ولا طعام ولا شراب، وبيننا وبين الشام المفاوز، فقال موسى: إن ربكم أرحم بكم، يطعمكم ويسقيكم، فساروا يؤمون الشام، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ نمنعهم حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف:١٦٠] المن يشبه الصمغ[٢٣٧] [حلو المذاق]، والسلوى طائر مشوي يسقط عليهم كل غداة، فيأخذ كل واحد ما يكفيه ليومه ولا يزيد، فإذا زاد فسد عليه.

﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت[٢٣٨]﴾ وكان حجرًا خفيفًا مثل رأس الإنسان يضعه موسى في المخلاة ثم يضربه بالعصا فتنفجر ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين تسيل[٢٣٩]، كل أناس مشربهم قد علم، فإذا ارتحلوا وضعوه في مخلاة، وسخر لهم ثيابهم فلا تخلق ولا تتسخ، وكان يزداد مع طول[٢٤٠] صغارهم فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ..﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ..﴾ الآية [البقرة:٦١]، ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ من أمصار الشام، فكرهوا ذلك.

واتخذ موسى [اثني] عشر نقيبًا من بني إسرائيل حين أراد المسير إلى الشام، من كل سبط نقيبًا حتى إذا نزلوا التيه بين مصر والشام، فبعث الله المن والسلوى كما ذكرنا، ففي مسير بني إسرائيل وقع حديث البقرة.

---

(٢٣٧) تفسير اللغوي ١/ ١١٩.

(٢٣٨) هكذا في م ي. وقد وردت الآية في سورة الشعراء آية رقم (٦٤) هكذا: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾، ووردت في سورة البقرة آية ٦٠ هكذا: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾، وهو هنا أخذ بداية الآية التي أوردها من سورة الشعراء وبقيتها من سورة البقرة، فينظر.

(٢٣٩) تسيل: موسى، م ي.

(٢٤٠) مع طول: طبع، م ي.

مبحث في حديث البقرة

وكان مما أمر به موسى أنه كان إذا وُجد قتيل لا يدرى من قتله يقاس من قتله أقرب الأماكن إليه، فإن علم قاتله قتلوه، وإلا استحلف خمسون منهم ويَدُهُم[٢٤١] على بقرة مذبوحة، فعمد رجلان إلى ابن عم لهما فقتلاه لكي يرثاه، وكان ذا مال، ثم ألقياه إلى جنب سبط آخر، فأصبحوا لا يدرون من قتله، فقال موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧] إلى آخر الآيات، وقيل: إن كل واحد منهما بيان للبقرة الأولى، وقيل: إنه ناسخ للأول، وهو الصحيح؛ لأن تأخير البيان عن وقت الخطاب لا يجوز، فطلبوا صفة البقرة، فوجدوها عند شاب بار بأمه، فإنه كان في بني إسرائيل شاب بار بأمه قسم ليله ثلاثة أثلاث: ثلث يصلي، وثلث ينام، وثلث يجلس عند رأس و[ا]لدته، وفي نهاره يحتطب على ظهره ويبيعه ويقسم ثمنه على ثلاثة: يتصدق بثلثه، ويأكل ثلثًا، ويعطي أمه ثلثًا، وأمه تأكل نصف نصيبها وتتصدق بنصفه، فكان ذلك دأبهما زمانًا، فقالت: يا بني إني ورثت من أبيك بقرة، وإني كنت حسمت عنقها وسيبتها ترعى واستودعتها الله، وأخبرته بصفتها ولونها، فانطلق فاطلبها في البرية وادع الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وذكرت من صفة البقرة ما ذكر الله من صفة بقرة بني إسرائيل، فانطلق الفتى، فسار يومين وليلتين حتى إذا أصبح يوم الثالث فإذا بها ترعى، فصاح بها فأقبلت حتى قامت بين يديه، فأتى بها فكلمته وقالت: اركبني، قال: أمي لم تأمرني بذلك، فقالت: أما إنك إن ركبتني لم تقدر علي أبدًا، فدخل بها على والدته، فقالت: يا بني بعها بثلاثة دنانير واشترط رضاي، فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق، فبعث الله ملكًا فساومه، فقال الفتى: بثلاثة دنانير وأشترط رضى والدتي، قال: لك ستة دنانير ولا تشترط رضاها، قال: لو أعطيتني وزنها ذهبًا لا أبيعها إلا برضاها، فردها إلى أمه وأخبرها، فقالت: انطلق وبعها بستة دنانير واشترط رضاي، ففعل، فجاء الملك وقال: بعها بستة دنانير من غير رضى والدتك، قال: إنها أمرتني ألا تنقص عن ستة دنانير وأشترط أن أستأمرها، قال: فأنا أعطيك اثني عشر ولا تستأمرها، فأبى الفتى وجاء إلى أمه فأخبرها، فقالت: إنه ملك يختبر كيف برك بوالدتك، قل له: هل نبيعها اليوم أم لا؟ فأخبر الملك بقول الأم، فقال: إن البقرة يشتريها موسى بن عمران [فأبقها] حتى يملأ لك جلدها دنانير.

وطلب بنو إسرائيل البقرة، فوجدوها عند الفتى، فما زال يراجع موسى وأمه حتى باعها

(٢٤١) ويَدُهُم: ويدلهم، م ي.

بملء جلدها ذهبًا، فذبحوها، فضربوا بها الفتى فأحياه الله وقال: ابن عمي فلان قتلني، فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا..﴾ الآية [البقرة:٧٢].

عادت القصة: وساروا متوجهين إلى الشام، فأرسل النقباء الاثني عشر إلى الأرض المقدسة جواسيس، وفيهم يوشع بن نون بقية سبط يوسف بن يعقوب ليأتوا بخبرها وخبر أهلها، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: جمعهم وبعثهم وقال لهم: ائتوني بخبرها ومن أين الماء يأتي، واكتموا ذلك حتى تخبروني، عن وهب. قال لهم: انظروا الأرض وما حالهم وكثرتهم وقلتهم وائتوني بجميع أخبارهم.

مبحث في خروج الجواسيس ورجوعهم وحديث التيه

فانطلقوا يسيرون على دوابهم نحو أريحا، فلما انتهوا إليها لقوا رجلا من الجبارين، فساقهم حتى انتهى بهم إلى أهله وقال لأهله: هؤلاء الذين هم يزعمون أنهم يخرجوننا من مدينتنا، وأراد قتلهم، فقالوا: دعهم حتى يكونوا عبيدًا، فتركهم، فلما جن عليهم الليل ركبوا دوابهم وخرجوا هاربين، ولم يكن لدورهم أبواب وأغلاق، ولا للمدينة باب، فجاسوا المدينة ليلهم كله، وعلموا بابها، وخرجوا وقت السحر قد عاينوا من أهلها من القوة والبطش ما لا قبل لهم به، ومروا على أثمارهم وزروعهم فأعجبهم ما رأوا من كثرتها وعظمها، فقطعوا عنقود عنب يحمله اثنا عشر رجلًا، ورمانة يحملها ستة، فسموا ذلك الوادي الذي وجد فيه ذلك وادي العنقود، وقرّوا[٢٤٢] راجعين، فلما دنوا من عسكر موسى قال بعضهم لبعض: إنكم [إن] أخبرتم بني إسرائيل بما رأيتم ارتدوا على نبي الله، ولكن اكتموه وأخبروا موسى وهارون، فقالوا: نعم، فتعاهدوا على ذلك، فلما دخلوا العسكر وضعوا العنقود فيما بينهم، وقالوا: إنا جئناكم من أخصب[٢٤٣] بلاد الله وأكثرها عنبًا وثمارًا، ولكن فيها قومًا جبارين طولهم كذا وعرضهم كذا، يدخل الرجل منهم المائة منا في كمه، وما نحن في أعينهم إلا كأمثال الجراد، فخوفوهم وخذّلوهم[٢٤٤]، فلما قالوا ذلك أماتهم الله ولم يبق من الاثني عشر إلا اثنان: يوشع بن نون، وكالوب بن نونيا؛ لأنهما لم يخوفا بني إسرائيل.

(٢٤٢) وقرّوا: فركوا، م ي.
(٢٤٣) أخصب: أخص، ي.
(٢٤٤) وخذّلوهم: وأحربوهم، م ي.

فلما سمعوا ذلك ضجوا وقالوا لموسى: إن كنت إنما أخرجتنا من مصر لتجعلنا نهبة للجبارين فملك فرعون كان أهون علينا وخدمته، وتشاروا في أن يؤمروا عليهم أميرًا فينصرفوا إلى مصر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة:٢٠] لا تحتاجون إلى أحد، ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ [ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ] وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ [المائدة:٢١]، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ..﴾ الآية [المائدة:٢٢]، ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ يوشع بن نون وكالوب ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان وثبات القلب، قالا: نحن أعلم بالقوم منهم ليس لهم حديث في مجالسهم غيرنا، قد ملئوا منا رعبًا ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٢٣]، قالوا يا موسى: أنكذّب عشرة ونصدق اثنين، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، قال موسى: ﴿إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ [المائدة:٢٥]، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦] ضالين متحيرين، فبقيوا في التيه أربعين سنة، فغم عليهم السبيل فلم يستطيعوا أن يخرجوا من التيه فتاهوا أربعين سنة في ستة فراسخ، وقيل: في اثني عشر فرسخًا، يسيرون يومًا وليلة فيصبحون في مكانهم، وما يروى[٢٤٥] أنهم احتبسوا بدعاء بلعم بن باعوراء غير صحيح؛ لأنه تعالى لا يستجيب دعاء أحد على أنبيائه خصوصًا إذا أمرهم بأمر فدعا كافر بضد ذلك فأنّى يستجاب له، وهذا محال.

ومن العجيب أنهم يروون أن موسى لما أخبره الله بقصته دعا عليه فصيّره الله زنديقًا كافرًا، وهذا كله مما أوقعه الملحدة فيما بين المسلمين لا يجيزه[٢٤٦] أهل التوحيد والعدل، ولا يرويه إلا ملحد أو مستضعف لا يدري ما يروي.

مبحث في وفاة هارون عليه السلام في ذلك التيه

قال: وكان هارون يغدو إلى موسى حتى كان قرب أجله، فعمد موسى إلى هارون وانطلقا العازر بن هارون فصعدوا جبلًا فرأوا فيه أزهارًا وأشجارًا وثمارًا وأنهارًا وعيونًا، وإذا سرير قد فرش في قصر عجيب، فقال هارون: ما أحسن اليوم على هذا السرير، قال موسى: قم عليه، ففعل هارون، فقبض الله روحه، فرجع موسى إلى العسكر وقال: قد توفي هارون، قالوا: فأين

---

(٢٤٥) يروى: يرون، م ي.

(٢٤٦) يجيزه: يخبره، ي.

قبره؟ فقال: كيف لكم بذلك وأنتم في التيه، فاتهموا موسى وقالوا: قد حسدته، لأنه كان أحب إلينا وقتلته، لنقتلنك والعازر ابنه أو لتأتنا به، فدعا موسى ربه فأرسل الله ملكين فحملا بسريره فوضعه بين أظهرهم، وكلمهم وقال: إن موسى لم يقتلني ولكن الله قبض روحي، ومات، فأيقنوا بموته وبكوا، قال علي عليه السلام: هذا معنى قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب:٦٩]، وقيل في ذلك معنى آخر: أنهم اتهموه بأنه آدر؛ لأنه كان لا يغتسل عريانًا، ثم إنه وضع ثوبه على حجر فذهبت بثوبه الريح وهو عريان حتى رآه بنو إسرائيل، والأول هو المعنى الصحيح.

مبحث في موسى والخضر عليهما السلام

ويقال: لما آتى الله موسى التوراة والعلم قال: هل أحد في الدنيا أعلم مني؟ فقال الله: بلى، فذهب في طلبه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ يوشع، سماه فتاه، لأنه لزمه يتعلم منه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال أمشي ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحر الروم وبحر فارس؛ لأن الله قال لموسى: إنه في جزيرة يعبدني، وقيل: هو الموضع الذي وعد لقاء الخضر، ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠] قيل: سنة، عن ابن عباس، وقيل: ثمانون سنة، عن الكلبي وابن عباس، وقيل: سبعون خريفًا، عن مجاهد، وقيل: زمان، عن قتادة. وهكذا يجب أن يكون طالب أمر، إما الظفر والغنيمة وإما القتل والشهادة.

شعر:

أروم من المعالي منتهاها	ولا أرضى بمنزلة دنية
فإما نلت غاية ما أرجي	وإما أن توسدني المنية

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه تعالى: «يا ابن آدم أحدث لي [سَفَرًا][٢٤٧] أحدث لك رزقًا».

شعر:

فسِرْ في بلادِ اللهِ والتمسِ الغنى	تعشْ ذا يسارٍ أو تموتُ فتعذرا
ولا ترضَ من عيشٍ بدونٍ ولا تَنَمْ	وكيف ينامُ الليلَ من كان معسرا

(٢٤٧) تفسير القرطبي ٥/ ١٥١.

فإذا كان هذا في أمر الدنيا فكيف طالب الجنة.

عن النبي عليه السلام: «لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها».

وقيل: اتعب يومك لراحة غدك.

عبد الله بن طاهر: من سعى رعى، ومن لزم المنام رأى الأحلام.

ويقال: إن موسى قاسى الشدائد حتى وجد الخضر، ووجد عبدًا، كيف من يطلب الجنة ورضى مولاه.

وقيل: هذا كان زمان التيه، فقال: يا رب أين ألقاه؟ وكيف ألقاه؟ قال: خذ حوتًا مالحًا، فإذا حيي فعنده تلقاه، فانطلق موسى ويوشع يمشيان على شاطئ البحر حتى [استلقيا] إلى صخرة على ساحل البر، فأويا إليها وعندها عين تسمى الحياة، والمكتل فيه الحوت مع يوشع، فوضعه عندها وتوضأ[٢٤٨] يوشع فانتضح[٢٤٩] على الحوت من ذلك الماء، فعاش ثم وثب في الماء، فجعل يضرب بيده في الماء وبقي أثره كالسراب فذلك قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ[٢٥٠] سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:٦١]، فقام يوشع حين رأى ذلك ليخبر موسى يغدو خلفه، فنسي، فمضيا حتى نصب موسى ولم ينصب فتاه، فقال ليوشع: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، فذكر يوشع أمر الحوت الذي نسيه، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ[٢٥١] ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف:٦٣]، وقيل: ذلك الماء كان من الجنة، وقيل: كان من البحر، فميت ضُرب بلحم بقرة فحيي، وحوت أصابه قطرة[٢٥٢] من الماء فحيي، فقلت: أصاب ببصره ربه فأحياه الله أسرع، وقيل: إنما حيي بتلك القطرة من وجه متوضئ وللعبادات تأثيرها في حياة القلوب.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته[٢٥٣] كنت له سمعه وبصره».

---

(٢٤٨) وتوضأ: وتوضع، ي.

(٢٤٩) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٤.

(٢٥٠) في م ي: واتخذ. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٥١) في م ي: نسوت. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٥٢) قطرة: فنظره، م ي.

(٢٥٣) أحببته: أحباته، م ي.

قوله: ﴿لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ وشدة، وقيل: دخول البحر وتحول المشقة، عن ابن عباس، وكانا متعلمين، فينبغي للطالب أن يتحمل المشقة، وقيل: من عرف قدر ما يطلب هان عليه ما يبذل[٢٥٤]، وقيل: من طلب العظيم خاطر بعظيم، ومن ينكح العذراء[٢٥٥] لم يغله [المهر]، ومن ينكح الحسناء لم يغله المهر.

شعر:

اشتر العزَّ بما شئتَ فما العزُّ بغالِ
بقصار الصُّفْر[٢٥٦] إن شئـ ـت وبالسُّمْرِ الطِوالِ

عادت القصة: قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا﴾ رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤] يطلبان أثرهما، فلما انتهيا إلى الصخرة أراه يوشع موضع الحوت وأثره في الماء، فعجب موسى ورأى رجلًا في روضة خضراء عليه ثياب خضر يصلي، قيل: جاء الخضر إلى البقعة فاخضرت لقيامه، لأنه كان عالمًا، وهكذا كل موضع يحسن فيه عالم بذكر الله يصير روضة يدل عليه قوله عليه السلام: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر» فذلك قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ[٢٥٧] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، قيل: بلا تعليم وسؤال وتذكير مع الرجال، وقيل: علم الكون والغيب، وقيل: علم الدراية لا علم الرواية، وقيل: هي خواطر تجري لا معجز.

عن الزهري: علم الأحوال لا علم الأموال، علم عن الغيب مقتبس لا عن كائن.

عن أنس: فدنا موسى منه وقال: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، قال: فكيف عرفتني؟ قال: أخبرني بك الذي أخبرك بي، فعرف موسى أنه الخضر، فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ..﴾ الآية [الكهف:٦٦] تواضعًا منه له، وكذلك يجب أن يكون المتعلم، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا..﴾ الآية، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فيه دلائل على أن العالم لا يكون أفضل، لأن الخضر علم ما لم يعلمه موسى وموسى أفضل منه لا شك، ولهذا قال يحيى بن زيد لما سئل عنهم وبني عمهم جعفر فقال: لنا السيف والعلم ولبني عمنا العلم وحده، غير أنهم يعلمون ما لم نعلم.

---

(٢٥٤) كذا في حياة الحيوان الكبرى ١/ ٢٨١.
(٢٥٥) العذراء: العذر، م ي.
(٢٥٦) كذا في (المحمدون من الشعراء) لجمال الدين القفطي ص٢٤٤.
(٢٥٧) في م ي: علمناه. وما أثبتناه من المصحف.

عادت القصة: فانطلقا وركبا السفينة، فلما مخرت في اللجج أخذ فأسًا فخرقها، ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ عجبًا، فتعجب من ذلك موسى، فنودي: أليس ألقتك أمك في اليم فكيف حفظتك، فكذلك أحفظ السفينة، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ ..﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ في قرية أيلة ﴿فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[٢٥٨]﴾ ورأى أمرًا منكرًا عنده، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ..﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهي أنطاكية ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ لم يجدوا مأوى وكانت ليلة باردة، ﴿فَوَجَدَا [فِيهَا] جِدَارًا﴾ مائلًا ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ..﴾ الآية، ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ عشرة زمنى[٢٥٩] خمسة في السفينة وخمسة لا يطيقون العمل، فأما الذين يعملون: فالأول مجذوم، والثاني أعور، والثالث أعرج، الرابع آدر[٢٦٠]، والخامس محموم الدهر كله، والخمسة الأخر: مقعد، وأصم، وأعمى، وأخرس، ومجنون، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ في قرية [تسمى] بينون ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ إذا كانت صحيحة، ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ كان ابنًا لصًا سارقًا يجيء بالسرقة إلى بيت أبيه سرًا، فإذا جاء الطالب يحلفون أنهم لا يدرون، وفيه دليل في اللطف وأن المعاصي ليس من خلق الله، وأن الاستطاعة قبل الفعل، ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا﴾ ولدت جارية فولدت سبعين نبيًا، ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ يسميان أصرم وصارم ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الكنز الذي في الجدار لوح من ذهب، مكتوب عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن أيقن بالنار كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

ثم قال موسى للخضر لما أراد فراقه: أوصني، قال: يابن عمران إياك واللجاجة، ولا تمشِ لغير حاجة، ولا تضحك لغير عجب، ولا تعير الخاطئين بخطاياهم، وابك على خطاياك».

فانصرف موسى وبنو إسرائيل في التيه فلم يتيه موسى وهارون ولا خيار بني إسرائيل.

---

(٢٥٨) في م ي: زاكية. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٥٩) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤.

(٢٦٠) تفسير القرطبي ١١/ ٣٤.

مبحث في وفاة موسى عليه السلام

محمد بن إسحاق: أن موسى أرسل يوشع إلى أريحا وفتحها ثم دخلها موسى، وكان حبس الشمس في أيام موسى، ثم توفي بعد ذلك.

وقيل: توفي موسى وبنو إسرائيل في التيه حتى انقرضوا وماتوا على رأس أربعين سنة وماتوا كلهم، ولم يبق ممن قال: (اذهب أنت وربك فقاتلا) أحد.

ثم بعد وفاة موسى خرج يوشع من التيه ببني إسرائيل، وكان فتح أريحا، وردت الشمس على يوشع، وهذا أصح، والله أعلم.

ثم توفي موسى عليه السلام ولم يعلم بوفاته أحد، عن محمد بن إسحاق، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وما روي أنه كره الموت حتى حول عنه النبوة إلى يوشع خطأ عظيم، وكيف ولا خلاف بين الأمة أنه أوحي إلى يوشع بن نون، وكذلك ما روي من مناظرة موسى مع ملك الموت وأنه صكه ففقأ عينه.

وهب بن منبه قال: كان من أمر وفاته [أن] خرج من عريشه يومًا فمر برهط من الملائكة يحفرون قبرًا لم ير أحسن منه لما فيه من الخضرة، فقال: لمن تحفرون؟ فقالوا: لعبد كريم، قال: إن هذا العبد لمن الله بمنزل ما رأيت كاليوم مضجعًا، قالوا: أتحب أن يكون لك؟ قال: نعم، قالوا: فانزل فاضطجع وتوجه إلى ربك، ففعل فقبض روحه وسوى الملائكة على القبر.

وقيل له: لو ادخرت لأولادك مالًا، قال: يكفيهم لقط السنبل كما يكفي غيرهم من المساكين.

فصل في يوشع بن نون عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة:٥٨]، قال: فلما توفي موسى أوصى إلى يوشع بن نون بن أفرائيم بن موسى، واستخلف على بني إسرائيل بعد موسى، ومضى ثلاث سنين ولم يبق [أحد] من القوم الذين قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤]، وماتوا كلهم، وأدركت أبناؤهم، فأخرجهم يوشع من التيه بعد موسى بثلاث سنين، وأمرهم بالجهاد.

قال وهب: فلم يعلم أحد في بني إسرائيل بعد موسى جاهد كجهاد يوشع بن نون، ففتح الله

له ثماني وثلاثين مدينة محصنة من الشام والجزيرة، فلما انتهى إلى أريحا حاصر أهلها وكان يوم الجمعة، فجاء بعض علمائهم وقال: ألست تعلم أن الله جعل السبت عيدًا قد أمرهم الله تعالى أن يخلوا فيه لعبادة ربهم ولا يعملوا عملًا؟ فقال يوشع: فإذا كان عند غروب الشمس فجهزوا فيه واغتسلوا وطهروا وأحيوا ليلتكم، وأصبحوا مسبتين، فلما علم أهل أريحا ذلك منهم فعند غروب الشمس - وليس بين الشمس وغروبها إلا قدر رمح - برزوا مع الأسلحة للحرب، فلما نظرت بنو إسرائيل إليهم قد برزوا للحرب في وقت لا يحل فيه قتالهم ضاقوا ذرعًا، فقام عند ذلك يوشع بن نون داعيًا وقال: اللهم إن بني إسرائيل ولد إبراهيم خليلك، وإسحاق ذبيحك، ويعقوب نجيّك، وولد يوسف صفيّك، وأمة موسى كليمك، وأعوان[٢٦١] يوشع على طاعتك، اللهم احبس الشمس بقية يومنا على مكانها فإنها مسخرة بأمرك، وعظم علينا النعمة. وكان يوشع نبيًا يوحى إليه، فأوحي إليه: إني قد حبست لك الشمس والقمر قدر يوم وليلة، وذلك قدر فراغك من عدوك، فإذا فرغت فأمر بني إسرائيل أن يدخلوا القرية ركعًا ويقولوا حطة؛ يعني حط عنا خطايانا، ورفعت الشمس، وقاتلوا حتى فتحوا المدينة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم أمرهم بالدخول ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ[٢٦٢] لَهُمْ﴾ [البقرة:٥٩] قالوا: هطا سمهاثا[٢٦٣] بمعنى حنطة حمراء، استهزاء منهم، وسجدوا على شق وجوههم، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا﴾ يعني بدلوا ﴿رِجْزًا﴾ عذابًا، وهو الطاعون، فمات منهم في ساعة أربعة وعشرون ألفًا، وهلك منهم سبعون ألفًا عقوبة.

وبقي يوشع زمانًا، ثم توفي، واستخلف على بني إسرائيل كالوب بن يوفنة[٢٦٤]، وقد ولت بنو إسرائيل أمرهم كلما توفي واحد قام بأمرهم آخر إلى أن كان شمويل، وحديث طالوت على ما قصه الله في كتابه، وحديث حزقيل[٢٦٥] على ما نبينه من بعد حديث [شعيب].

---

(٢٦١) وأعوان: وأوارر، ي.

(٢٦٢) في م ي: الذين. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٦٣) تفسير القرطبي ١/ ٤١١.

(٢٦٤) تفسير الطبري ٨/ ٢٩٦.

(٢٦٥) حزقيل: حزراقيل، ي.

فصل في شعيب عليه السلام

وهو شعيب بن نويب(٢٦٦)، من ولد مدين(٢٦٧) بن إبراهيم، وكان زمان موسى، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥] فكان الله بعثه إلى مدين وأصحاب الأيكة، قيل: كانوا قومين، قيل: وكان أهل مدين لأنهم خرجوا إلى الأيكة على ما نبين فهلكوا.

وعن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا ذكر شعيبا [قال:] ذاك خطيب(٢٦٨) الأنبياء لحسن مراعاته لقومه وحرصه على نجاتهم وصلاحهم، وكان قوم شعيب يفعلون أشياء فنهاهم عن ذلك، وهي خمس خصال: نقص المكيال والميزان، وبخس حقوق الناس، وسلب ثياب الغرباء بكل صراط، والعثو(٢٦٩) في الأرض، واحتكار الطعام.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس»، ورواه عمر.

وقال: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» رواه ابن عمر.

وقال: «من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله، والله بريء منه»، رواه ابن عمر، ونقصان الوزن قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ..﴾ الآية [المطففين:١].

وهب: كان على قوم شعيب ملك جبار أمرهم باحتكار الطعام وهذه الخصال، فأرسل الله إليهم شعيب، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا(٢٧٠) قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ يعني سعة وخصب ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود:٨٤] [إن] تنتهوا عما أنتم فيه ﴿مُّحِيطٍ﴾: يحيط بكم ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ [بِٱلْقِسْطِ] ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾ حقوق الناس ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ثواب الله على إبقاء الكيل أخير من البخس في الكيل وما يحصل منه، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ

(٢٦٦) كذا في تفسير الرازي ١٤/ ٣١٣.

(٢٦٧) مدين: مديان، ي.

(٢٦٨) كذا في تفسير الطبري ١٢/ ٥٦٧.

(٢٦٩) العثو: العق، م ي.

(٢٧٠) في م ي: شعيب. وما أثبتناه من المصحف.

﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود] السفيه الضال، وقالوا ذلك استهزاء به، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي أعطاني النبوة ومالًا حلالًا ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ يريد لا أنهى عن شيء وأفعله، أو لا أفعل ما أنهى عنه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾، ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ[(٢٧١)] شِقَاقِىٓ﴾ بغضي وعداوتي على ألَّا تقبلوا مني فيأخذكم يصيبكم ﴿مَآ أَصَابَ﴾ هؤلاء المذكورين ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق، وقوم[(٢٧٢)] هود من الريح، وقوم[(٢٧٣)] صالح من الصيحة، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي خبرهم، وقيل: هلاكهم، إلى قوله: {رحيم ودود}[(٢٧٤)]. وقيل: مجالسهم، ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وإنك لضعيف فينا ولولا رهطك لقتلناك، ﴿إِنَّ رَبِّى [بِمَا تَعْمَلُونَ] مُحِيطٌ﴾ عالم، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟...﴾ إلى قوله: ﴿رَقِيبٌ﴾ ينظر، فرجع إلى الملك فدعاه وسأله عن أمره فقال: إن الملك إذا فعل شيئًا فعلته قومه، فقال له ملك ملعون فاجر، فغضب وقال: أخرجوه، وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٨، ٨٩].

فأما قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [إلى] ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقيل: فيه وجوه:

منها: أنها العبادات الشرعية التي يجوز فيها التغيير والتبديل.

ومنها: أنه بين أن لا يكون ذلك أبدًا؛ لأنه علقه بالمشيئة التي لا تكون أبدًا.

ومنها: حكي عن قطرب أنه من كلام الكافر: لنخرجنك من قريتنا إلا أن يشاء الله أن تعود في ملتنا، ثم قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ إليها، رجع إلى القرية، ويكون تقدير الكلام: نخرج من قريتكم ولا نعود فيها إلا أن يشاء الله من أنجى والواعد بالظفر عليكم فيعود فيها.

ومنها: إلا أن يشاء الله أن يردكم إلى الحق فنصير جميعًا على ملة واحدة.

ثم قال شعيب: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا..﴾ الآية [الأعراف:٨٩]، وقال لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ

(٢٧١) في م ي: لا يحملكم. وما أثبتناه من المصحف.

(٢٧٢) وقوم: أو قوم، ي.

(٢٧٣) وقوم: أو قوم، م ي.

(٢٧٤) رحيم ودود: وداوى موده، م ي.

﴿صِرَٰطٍ﴾ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تخوفون؛ وكانوا يأخذون ثياب من مر بهم ﴿وَتَصُدُّونَ(٢٧٥) عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ بشعيب، قالوا: إنا لنظنك كاذبا فأتنا بما تعدنا، فسلط الله عليهم الحر حتى أنضجهم، فلبثوا سبعة أيام، فبلغ الغم بهم كل مبلغ، فساقوا دوابهم وذراريهم إلى غيضة لهم وهي الأيكة، وهي ملتفة كثيرة الشجر، فلما اجتمعوا فيها وجميع دوابهم وذراريهم يتفيئون بظلالها رفع الله لهم سحابة سوداء، فبادروا يتفيأون بظلها، فلما اجتمعوا في ظلالها أطبقت عليهم، فأرسل الله عليهم نارًا من تلك السحابة فأحرقتهم جميعًا، ولم ينج منهم أحد، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩] ونجّى الله شعيبًا، قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣].

مجاهد عن ابن عباس: قال: فجاءت شعلة من نار جهنم سوداء مظلمة وفيها سموم، فأحاطت بهم، فحميت منازلهم، وغلت مياههم في أنهارهم حتى لم يستطع أحد أن يستقي أو يمشي، فإذا مشى تساقط [لحم] قدمه من الحر، فاجتمعوا وخرجوا ولم يتوبوا، فبعث الله غمامة سوداء تظلهم فبادروا إلى ظل الغمامة، فلما اجتمعوا حولها نارًا فأحرقوا فأصبحوا رماما ﴿فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١].

فصل في حزقيل عليه السلام

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ(٢٧٦) خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البقرة:٢٤٣]، فلما توفي يوشع قام مِلكٌ بعده مَلَكَ بني إسرائيل، فممن قام بأمر الناس حزقيل، ويسمى ابن العجوز؛ لأن أمه كبرت فسألت الولد فرزقها حزقيل، وهو الذي دعا بالقوم الذين أحياهم الله، وذلك أنه وقع في قومهم وباء أو طاعون فخرجوا من ديارهم حذر ذلك وهم ألوف، فنزلوا بصعيد، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا، وجعل حولهم حظيرة حتى مر عليهم دهور طويلة(٢٧٧)، فمر حزقيل بهم، فوقف عليهم يتعجب من أمرهم وكان نبيًا، فقيل: أتحب أن يحييهم الله؟ قال: نعم، قيل: فنادهم، فناداهم فأحياهم الله، فقعدوا يقولون: سبحان الله سبحان الله.

---

(٢٧٥) في م ي: ويصدون. وما أثبتناه من المصحف.
(٢٧٦) في م ي: الذي. وما أثبتناه من المصحف.
(٢٧٧) البداية والنهاية ٢/ ٣.

وبقي حزقيل زمانًا ثم توفي، وعظمت في بني إسرائيل الأحاديث، ونسوا ما كان من عبادة الله إليهم حتى عبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم إلياس.

فصل في إلياس واليسع عليهما السلام

هو إلياس بن ياسين[٢٧٨]، من ولد لاوي بن يعقوب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٢٣].

وعن وهب: أن يوشع بوّأ بني إسرائيل بالشام وقسمه بينهم بعد موسى عليه السلام، فصار منهم سبط ببعلبك[٢٧٩]، فكان إلياس[٢٨٠] فيهم ومنهم، فبعثه الله إليهم، وعليهم يومئذ ملك قد أضلهم وحملهم على عبادة الأوثان، وكانوا يعبدون صنمًا يقال [له: بعلٌ]، فقال لهم: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ [الصافات:١٢٥]، وكان للملك امرأة تسمى [أزبيل] واسم الملك آجب[٢٨١]. وكانت تستخلف إذا غاب الزوج، وكانت زانية لا يعلم أزنى منها، وكان للملك ابن، فمرض وأدنف، وكان إلياس لما كذبوه ولم يقبلوا منه لزم الجبال والبراري، فدعا الملك الصنم يسمى بعلًا، وكان شيطانًا عنده يجيب كل من كلمه، فأخرسه الله، فلما لم يجب قالوا له: إن الصنم غضبان عليك من أجل أنك لم تقتل إلياس وهو كافر به، فبعث في طلب إلياس إلى الجبل الذي كان فيه، وأوحى الله إليه أن يكلمهم، فخرج من الجبل وقال: إن الله أرسلني إليكم فاسمعوا وارجعوا إلى الملك وقولوا له: ألست تعلم إن الله تعالى [يقول لك]:[٢٨٢] لا إله إلا أنا، إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم، فما حملك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء من غيري، فرجعوا وقالوا: إنا طلبنا الرجل فلما بلغنا جبل كذا طلع علينا رجل وقال كذا، وقصوا كلام إلياس، فقال الملك: لا تنفعنا الحياة ما دام إلياس حيًا، هلا قتلتموه وأنتم في طلبه؟ قالوا: خفنا منه وهبنا، قال: فندب له خمسين رجلًا من أشد قومه حتى انتهوا إلى الجبل الذي فيه إلياس، ثم تفرقوا ونادوا: يا نبي الله انزل إلينا وأنت آمن، آمنا بك وبإلهك، وآمن الملك، فاخرج وقم

(٢٧٨) تاريخ ابن عساكر ٩/ ٢٠٥.
(٢٧٩) تفسير البغوي ٤/ ٤٠.
(٢٨٠) إلياس: الناس، م ي.
(٢٨١) آجب: احب، ي.
(٢٨٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٢.

بين أظهرنا يخادعونه ـ، فقال إلياس لما سمع هذه المقالة: اللهم [إن كانوا صادقين][٢٨٣] فخل سبيلي إليهم، وإن كانوا كاذبين فأمطر عليهم النار، فبعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم جميعًا.

فبلغ الملك الخبر فندبوا له خمسين رجلًا آخرين فخادعوه، فدعا عليهم[٢٨٤] إلياس فاحترقوا، وفي كل ذلك ابن الملك في المرض الشديد والبلاء، وكان له كاتب مؤمن يكتم إيمانه والملك يعلم به ولا يكاشفه لعظم أمانته، فبعثه إلى إلياس مع رجال وقال لهم: أخبروه أنا قد آمنا فيرجع إلينا، فانطلق الكاتب ونادى إلياس، فعرف إلياس صوته، فخرج إليه وحياه وصافحه، فقال: بعثني هذا الطاغي إليك ليكيدوا لك وأنا معك، مرني بما شئت، فإن شئت كنت معك، وإن شئت جاهدته، فأوحى الله إلى إلياس أن انطلق معه إلى قومك وادعهم، فانطلق معهم ونزل بامرأة من بني إسرائيل واستخفا عندها ستة أشهر، ولها ابن يقال اليسع، فآمن بإلياس وصدقه واتبعه، وكان يذهب معه، ولم يتبعه أحد من قومه غيره، فضاق بهم[٢٨٥] ذرعًا، وقال: يا رب أعطني منهم ثأري، قال: وبأي شيء تريد أن أعطيك ثأرك، قال: تمكني من خزائن الأرض سبع سنين لا ينشأ لهم سحاب إلا بدعوتي، ولا تمطر عليهم مطرًا إلا بشفاعتي، قال الله: أنا أرحم بعبادي من ذلك وإن ظلموا، قال: فأربع سنين، قال: لا، قال: فثلاث، قال: لا، ولكن سنتين، قال إلياس: يا رب فبأي شيء أعيش؟ قال: أسخر لك جنسًا من الطير تنقل إليك طعامك وشرابك، قال: رضيت. فسخر الله له الغربان السود، فكانت تأتيه برزقه من مصر الرطب والتين والزيتون وسائر الأشياء.

وقحط بنو إسرائيل وماتوا كثيرًا، فعرفوا أن ذلك بدعوة إلياس، فطلبوه فوجدوه بعد سنتين، فسألوه أن يرحمهم فهبط إليهم ومعه إليسع تلميذه حتى نزل فيهم، وأحيا ليلته، فلما كان وجه الصبح دعا الله بالسقا ومعه إليسع، فأرسل الله المطر وفرج عنهم.

وروي أنه قال لهم: أخرجوا الأوثان واستسقوا بها، فإن سقيتم، وإلا أدعوا، فإن سقيتم فآمنوا بي واعلموا أن ما أنتم عليه باطل، فقالوا: أنصفت، فخرجوا بالأوثان ودعوا، فما سقوا، ثم دعا إلياس فسقوا، فلما رأوا ذلك عادوا إلى أخبث ما كانوا عليه، ودعا ربه أن يقبضه إليه ويريحه منهم، فقيل له: انظر يوم كذا فاخرج إلى موضع كذا، فإذا جاءك فرس فاركبه ولا تهبه، فخرج إلياس وأقبل فرس نحوه، فوثب عليه، فانطلق به وكان آخر عهد اليسع به.

---

(٢٨٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٢.

(٢٨٤) عليهم: لهم، م ي.

(٢٨٥) بهم: منهم، ي.

وهب بن منبه: قال الله تعالى: سل تعط، فقال: ترفعني إليك وتؤخر عني مذاقة الموت إلى يوم القيامة.

محمد بن إسحاق: وكساه الله الريش وقطع عنه الشهوة، وطار مع الملائكة.

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: إلياس والخضر يأتيان في كل موسم، ويشربان شربة من زمزم، ويأخذ كل واحد من شعر صاحبه ويتفرقان ولا يجتمعان إلا ببيت المقدس، ويصومان بها رمضان.

محمد بن إسحاق: وإلياس أرضي سماوي، ملكي إنسي.

ثم نشأ فيهم اليسع وقام فيهم ما شاء الله وفارقهم، وعظمت فيهم الخطايا حتى ذهب التابوت إلى أن رد زمن شمويل وطالوت.

فصل في شمويل وطالوت بن هلفا

هو إسماعيل بالعربية، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة:٢٤٦].

قال محمد بن إسحاق: [قوام][٢٨٦] أمر بني إسرائيل الاجتماع على الملوك، [وكان الملك][٢٨٧] هو الذي يسير الجموع ويقاتل، والنبي [يقوِّم][٢٨٨] أمره ويأتيه [بالخبر][٢٨٩] من ربه، وإذا فعلوا ذلك صلح أمرهم، فإذا [عتت][٢٩٠] ملوكهم وتركوا أمر أنبيائهم [فسدت][٢٩١] أمورهم، وكان أمر بني إسرائيل على استقامة فكفاهم الله أمر العدو، فطغوا وتجبروا.

قال مقاتل: تسلط كفار بني إسرائيل على مؤمنيهم وقتلوهم وسبوهم وأخرجوهم من

(٢٨٦) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.
(٢٨٧) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.
(٢٨٨) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.
(٢٨٩) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.
(٢٩٠) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.
(٢٩١) تفسير الطبري ٥/ ٢٩٥.

ديارهم، وكان نبيهم في ذلك الزمان شمويل بن بالي[٢٩٢] من ولد لاوي بن يعقوب، فقالوا النبي لهم؛ يعني شمويل، فإذا عُرِّب فهو إسماعيل: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يقيم أمرنا ونقاتل في سبيل الله، قال: وعدوُّهم بين مصر وفلسطين، ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ يعني قوم جالوت، وكانوا يسكنون ساحل البحر من مصر وفلسطين، فلقيت بنو إسرائيل منهم بلاءً عظيمًا، حتى غلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرًا من ذراريهم، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهو طالوت بن [صارو][٢٩٣] من سبط بنيامين[٢٩٤]، وكان راعيًا، قيل: راعي حمر، وقيل: كان دباغًا، وقيل: إنه أضل دابة فذهب في طلبها، فلما انتهى إلى بيت أشمويل قال: لو دخلت عليه فسألته عن أمر دابتي، فدخل ومعه غلام له، وقد كان أوحى الله إلى النبي لما سألوه الملك، وسأل هو ربه انظر إلى القرن[٢٩٥] الذي في بيتك فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل فَنَشَّ[٢٩٦] الدهن فهو الملك فأدهن رأسه منه، فلما دخل طالوت وسأله أن يدعو له في أمر دابته، نَشَّ[٢٩٧] الدهن، فقام إليه وقال: قرب رأسك، فدهنه وقال: أنت ملك بني إسرائيل، فخرج الناس يقولون: ملك طالوت، وأتت عظماء بني إسرائيل نبيهم وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وهو من سبط بنيامين لم يكن فيهم نبي ولا ملك ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾، لأن بيت النبوة والملك سبط لاوي وسبط يهودا؟ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ ليس إليكم ذلك، قالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ لينفق علينا فكيف يكون ملكنا وأنت ملكته علينا، لا والله، فأتنا بآية إن[٢٩٨] كان كما تقول، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾.

---

(٢٩٢) تفسير الطبري ٥/ ٢٩١.

(٢٩٣) كذا في البداية والنهاية ٢/ ٢٩٣.

(٢٩٤) تارخ ابن الوردي ١/ ٢٣.

(٢٩٥) تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٥.

(٢٩٦) تفسير القرطبي ٣/ ٢٤٥.

(٢٩٧) نَشَّ: فش، م ي.

(٢٩٨) إن: إم، م ي.

مبحث في التابوت

وكان من حديث التابوت أنه كان تابوتًا من عود السمشاذ[٢٩٩]، عليه صفائح من ذهب، فكان بين أيديهم مع الأنبياء إن حضروا القتال يتوارثونه كابرًا عن كابر آل موسى وآل هارون وجماعة بني إسرائيل، وكانوا يرمونه بين أيديهم إلى العدو ويستنصرون به على عدوهم، وفيه السكينة كرأس هرة لها جناحان، فإذا صوتت[٣٠٠] علموا النصر إذا كان مثل صوت الهر، وإذا أنّت في التابوت وهم معه تنحو عن عدوهم، فإذا مضى مضوا معه، وإذا استقر ثبتوا خلفه، و﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ رضاض الألواح[٣٠١]، وعصا موسى من آس الجنة، والعمامة[٣٠٢]، وثياب بني هارون وحليهم، وشيء[٣٠٣] من لحم السلوى، وقفيز من المن الذي كان يأتيهم أيام التيه.

فلما عصت بنو إسرائيل الأنبياء نزل بهم عدو فقاتلوهم فغلبوهم على التابوت، وقيل: ذلك العدو من أهل بابل، فحملوا التابوت إلى بابل، وقيل: كان العدو أسفل من جبل إيليا بينه وبين مصر، صاحب أوثان، وكان فيهم جالوت، وجعل التابوت في قرية من قرى فلسطين في كنيسة فيها أصنامهم.

عادت قصة طالوت: فقالوا: إن أتانا التابوت رضينا بملكه، فلما وعد النبي بني إسرائيل بالتابوت أن يأتيهم تحمله الملائكة جعلت أصنامهم كل يوم في الكنيسة منكسة رؤوسها، وبعث الله على أهل تلك القرية الفأر[٣٠٤] فهلك الناس والدواب أيضًا، فقالوا: قد أصابكم بلاء ما أصاب مثله أمة، وما هي إلا من التابوت، مع أنكم قد رأيتم أصنامكم تصبح كل يوم منكسة، فحملوه على عجلة [تجرها الثيران] وضربوها، فذهبت الملائكة بها، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: نصبوا الصنم فوق التابوت فأصبحوا إذا التابوت فوقه والصنم منكوس، فألقوه في مخراة يتبرزون عليها، فمن فعل ذلك أخذته البواسير، فقالوا: إنما أصابنا هذا من هذا التابوت،

(٢٩٩) كذا في تفسير اللغوي ١/ ٣٣٤ وأنظر تاج العروس (بقس).

(٣٠٠) صوتت: صرت، م ي.

(٣٠١) كذا في زاد المسير ١/ ٢٢٤.

(٣٠٢) العمامة: الغمامة، ي.

(٣٠٣) وشيء: وشيئًا، ي.

(٣٠٤) الفأر: العار، ي.

فطرحوه برًا، فأخذه أهل قرية أخرى فأخذهم بلاء وهلكوا، ثم أخذه أهل مدينة ثالثة فهلكوا، ثم رابعة فهلكوا، ثم خامسة فقالوا: لا يصيبنا هذا إلا من هذا التابوت، لعل إله بني إسرائيل يفعل ذلك لأجل التابوت، فربطوه على عجلة ووجهوها نحو أرض بني إسرائيل، فجاءت الملائكة فساقوها حتى هجموا به [على] أرض بني إسرائيل، فسمعوا مع طلوع الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، فحمدوا الله وكبروه وأقروا لطالوت بن قيس.

مبحث في مسير طالوت إلى جالوت

وأوحى الله إلى أشمويل أن تأمر طالوت بالمسير إلى جالوت، وألاّ تخلف من بني إسرائيل قويًا ولا مقاتلًا، وكان جالوت رجلًا قد أعطي [بسطة] في الجسم، وقوة في البطش، وشدة في الحرب، مذكور بذلك بين الناس.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ فخرجوا من المدينة، قال ابن عباس: كانوا سبعين ألفًا، فصار بهم في حر شديد، وأخذ بهم في قفر من الأرض، فأصابهم عطش شديد فسألوا طالوت الماء، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ بين الأردن وفلسطين ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ على عدوي، ومن لم يشربه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ والغرفة مقدار ما يشرب بكف اليد، وعرض لهم النهر وقد أجهدهم العطش، فابتدره الناس ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا كعدة أهل بدر، فرد طالوت العصاة فلم يقطعوا معه النهر وقطع معه المؤمنون.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وقيل: كانوا سبعين ألفًا، وقال وهب: ستمائة ألف، وقيل: مائة ألف وأكثر، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ونصره، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

مبحث في مبارزة داود عليه السلام وقتل جالوت

وكان داود له أبٌ شيخ كبير، وله أربعة إخوة، وقيل: سبعة إخوة، فجلس هو وأبوه وإخوته مع طالوت وهو يرعى غنمًا لأبيه وهو أصغر الإخوة، وكان قليل الشعر، قصيرًا، طاهر القلب نقيه، فدعاه أبوه وقال: إنا صنعنا زادنا لإخوتك يتقوون به على عدوهم فاخرج به إليهم وعد

سريعًا إلينا وإلى ماشيتك، فخرج داود ومعه ما حمل لإخوته ومخلاة له يحمل فيها الحجارة، ومقلاع، فمر بحجر فقال: يا داود خذني فاجعلني في مخلاتك تقتل بي جالوت فإني حجر يعقوب، فأخذه، ثم مر بآخر فقال: خذني فاجعلني في مخلاتك تقتل بي جالوت فإني حجر إبراهيم، فأخذه وجعل في مخلاته، ومضى حتى أتى العسكر، وبرز إلى مبارزة جالوت، فرأى ذلك في الطريق، والأول أصح.

وقال مقاتل: ومر على حجر وقال: خذني فإني حجر هارون، ومر على آخر فقال: خذني فإني حجر موسى، ومر بآخر فقال: خذني فاقتل بي جالوت، فأخذه، وقيل: مر بثلاثة أحجار فقلن: خذنا فاقتل بنا جالوت، فأخذها ومضى.

فلما بلغ العسكر وسمع خوض الناس يذكرون جالوت وعظم شأنه وهيبة الناس إياه، فقال: إنكم لتعظمون أمره ما أدري ما هو، والله لو أراه لأقتلنه فأدخلوني على الملك، فأدخلوه عليه فقال: أيها الملك، إنكم تعظمون أمر هذا العدو، والله لو أراه لأقتلنه، قال: وماذا عندك من القوة؟ وفيم جربت نفسك؟ قال: لقد كان الذئب يعدو على غنمي فأظفر به وأقطع رأسه من بدنه، فقال طالوت: إن الذئب ضعيف، فقال: كان الأسد يعدو على غنمي فأظفر به فأقطع رأسه من بدنه، وسأل دروعًا فألبسه، وملأوا أعينهم منه، فقال طالوت: عسى أن يهلك غدا العدو على يديك، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: لما دخل المعسكر وبرز جالوت وهو من قوم عاد مقنعًا بالحديد وقال: من يبارز. فهابه الناس ولم يخرج إليه أحد، فقال داود لإخوته: أما أحد يخرج إلى هذا الأقلف فيقتله؟ فقالوا: اسكت، فخرج إلى ناحية فإذا طالوت يحرض الناس ويقول: من يخرج إلى هذا العلج؟ فقال داود: ما تصنع لمن يقتل هذا الأقلف؟ قال: أزوجه ابنتي وأعطيه نصف ملكي. فخرج داود وأخذ المقلاع فطرح.

مبحث في قتل جالوت

فلما أراد أخذ الحجر ناداه كل حجر: خذني، فأخذ واحدًا ورمى به جالوت فقتله، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١].

وأقبل الناس على داود حتى نسوا طالوت، فذكر أهل الكتاب أنه هم أن يغتال داود فصرفه الله عن ذلك، وقيل: زوج ابنته منه.

ويزعم أهل الكتاب أن طالوت أتى عجوزًا عالمة فقال: إني أخطأت خطيئة، وذكر قصته وأنها ذكرت أن توبته أن يجاهد بنفسه حتى يقتل أو يفتح مدينة كذا، وأنه جاهد حتى قتل.

وقيل: إنه أتى قبر إليسع وبعثه الله وسأله عن توبته فذكر أنه يجب أن يجاهد بنفسه وأهل بيته حتى يقتلوا عن آخرهم، ففعل وفعلوا، فلما هلك طالوت اجتمعوا على داود وملكوه عليهم.

فصل في داود عليه السلام

هو داود بن إيشا، من ولد يهودا بن يعقوب، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ يعني ملك الأسباط، قال الكلبي: فلم يجتمع بنو إسرائيل جميع الأسباط لملك قط غير داود، وكانوا اثني عشر سبطًا، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة، وقيل: الزبور، ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ صنعه الدروع وكلام الطير وتسبيح الجبال معه، فحكم فيهم وعبد الله بعبادة لم يبلغها أحد قبله ولا بعده، وكان يأكل خبز الشعير ويطعم أبناء السبيل والمساكين شكرًا لما صنع الله به وائتمارًا لأمر الله، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

وكان داود إذا قرأ الزبور تأتيه الوحوش والطيور والدواب والإنس يسمعون صوته، وما وضعت المزامير والصنوج[٣٠٥] والعود إلا على أصوات داود.

فلبث في بني إسرائيل أربعين سنة يعبد الله ويحكم بينهم، وفيما يروى في حديث داود حديث السلسلة، والله أعلم بصحته.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا قوة أواب مقبل على الطاعة ﴿سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ غدوًا وعشيًا ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ ويأتيه الطير يسبح معه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾، قال الكلبي: كان يحرس محراب داود كل ليلة ثلاثة وستون ألفًا، وكان أشد ملوك الأرض سلطانًا، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ القضاء بين العباد لا يجور في قضائه، وقيل: فصل الخطاب: البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه.

(٣٠٥) الصنوج: الصوج، م ي. انظر تفسير الطبري ٢١/ ١٨٥.

مبحث في الخصمين والمحراب والمرأة

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١].

اختلفوا في تفسير هذه الآيات:

أما الكلبي ومحمد بن إسحاق وجماعة فذكروا أن داود كان [في] محرابه يقرأ الزبور، وكان فيه كوة، فإذا طائر وقع في الكوة، فاستحسنه وأنه نكس رأسه فوقع الطائر بين يديه، فأراد أخذه فاستأخر، ثم لم يزل كذلك حتى وقع [على] سطح، فأراد أخذه فوقعت عينه على امرأة لم ير مثلها في الجمال، ثم سأل عنها فقيل: امرأة أوريا بن حيان، وأنه قَدَّم أوريا للقتال بعد ما علق قلبه بها، فقتل أوريا وتزوجها، وكان له تسع وتسعون امرأة، فبعث الله الملك لينبهه على أمره وخطئه، فلما تنبه استغفر وبكى، فتاب الله عليه.

وقيل: إنه خرج إلى قبر أوريا فأحياه الله ثم استحله فجعله في حل.

وقيل: قال: خصصت إبراهيم بالخلة، وموسى بالكلام، ولم تخصني بشيء، قال: ابتليتهما وعافيتك، فقال: ابتلني، فعرضه للبلاء، فإذا طائر وقع من الجنة بين يديه ملأ محرابه نورًا وطيبًا، وأراد أخذه فلم يزل يتأخر وهو في أخذه حتى بصروا بالمرأة، فسأل عنها، فقيل: هي امرأة أوريا وهو بالبلقاء يحارب، فبعث من قدمه أمام التابوت حتى قتل، وتزوج بها، وكان من حديث الملكين ما كان، وهذا لا يجوز على الأنبياء لأنهم معصومون.

فأما أبو علي الجبائي فإنه ذكر زمن بني إسرائيل كان الرجل منهم يموت فيكون أقاربه أولى بامرأته أن يتزوجها، فإن لم تتزوج تزوجها الأجانب، وأن أوريا مات فتزوج داود بامرأته، وقيل له: إن أقاربه أولى بامرأته وهم يرغبون فيها، ولم يعلم داود، فجاء الملك ونبهه على ذلك، فاستغفر وكان ذلك صغيرة.

فأما أبو مسلم محمد بن بحر فإنه أنكر قصة المرأة، وذكر أنهما خصمان دخلا عليه في قصة الغنم، وأن خطأه أنه لما سمع الدعوى لم يسأل المدعى عليه، ولكن قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فنبهه، فاستغفر، وهذا أحسن الوجوه، والله أعلم.

قوله: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾، ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ يعني ضم غنمك إلى غنمي ﴿وَعَزَّنِى﴾ غلبني ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ فضحك أحد

الرجلين إلى صاحبه، فنظر داود لتغير صورتهما إلى ما كانا فعرف أنهما ملكان، فلبس المسوح وافترش الرماد وعلم خطيئته واستغفر.

قال الكلبي: سجد أربعين يومًا حتى سقط جلدة وجهه لا يقوم إلا لصلاة أو قضاء حاجة.

وقيل: لما أصاب الخطيئة كان يقول: اللهم اغفر للخاطئين وتغفر لي معهم، ولم يشرب شرابًا إلا اختلط بدمعه وبكى دمًا، فقال: يا رب إن لم ترحم داود فارحم دمعه، فقال: يا داود تذكر دمعك ولا تذكر ذنبك.

مبحث في حكومة داود وسليمان عليهما السلام للمرأتين والحرث الأعرج

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما امرأتان معهما ابناهم جاء الذئب فذهب بابن إحديهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: بل ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين لأشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل فهو ابنها، فقضى به للصغرى»، قال أبو هريرة: والله إنْ سمعت بالسكين قط كنا نقول المدية.[٣٠٦]

وأما حكومتهما في الحرث ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ رجلان أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب زرع، فنفشت الغنم فأفسدت الزرع، فتحاكما إلى داود أن يحكم، فدفع الغنم إلى صاحب الأرض بما فسد من زرعه، فمرا على سليمان فسأل عن ذلك، فقصّا عليه، فدخل على داود وقال: إن الحق أن يسلم الغنم إلى صاحب الزرع ليأكل من نسلها ويشرب من لبنها ويأمر لصاحب الغنم أن يزرع لصاحب الزرع حتى إذا استوى على حاله التي كان قبض منه غنمه، قال: لا ينزع الله فهمك[٣٠٧] يا بني، فقضا بذلك بينهما.

وقيل: إن هذا [غير] ثابت في شريعتنا وليس بشيء، فإن عندنا لا تلزم النفس بشيء، وعند الشافعي تجب القيمة، فأما دفع الغنم فإنه منسوخ.

(٣٠٦) القرطبي ١١/ ٣١٣.

(٣٠٧) فهمك: لك، م ي، القرطبي ١١/ ٢٠٨.

وقيل: قضى بالاجتهاد، لأنه لو كان الأول وحيًا لما اعترض عليه سليمان، ويجوز أن يجتهد الرسول.

وقيل: إن الثاني وحي وهو ناسخ للأول. والله أعلم.

مبحث في المسخ في زمن داود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف:١٦٣].

قال وهب: وكان في زمن داود عليه السلام مسخ لم يكن مثله في زمن من الأزمان، وذلك أن جماعة من بني إسرائيل كانوا يسكنون أيلة على ساحل البحر، وقد حرم عليهم الصيد يوم السبت وأحل في غيره، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت ولا تأتيهم في غيره، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، قال: فحفروا حيث يدخل السمك حفائر، فحبس السمك ليلة السبت ويوم السبت، وأخرجوها يوم الأحد وباعوها واتخذوا منها أموالًا، وكانوا يتخوفون أن ينزل بهم عقوبة، فلما لم ينزل استبشروا وقالوا: إنا نرى أن السبت لم يحرم علينا، وإنما حرم على آبائنا لما كان من زلاتهم وخطاياهم، ففعلوا ذلك سنين، فلما رأى ذلك علماؤهم وأهل الصلاح منهم انطلقوا إليهم وهم نحو اثني عشر ألفًا، وأهل القرية نحو من سبعين ألفًا، فقالوا: يا قوم إنكم إن هتكتم وتركتم[٣٠٨] سنة نبيكم وعصيتم ربكم فلم لا تنتهون عن هذا العمل الردي قبل أن ينزل بكم العذاب، فقالت طائفة: قد عملنا هذا من سنين فما ازددنا إلا خيرًا، وإن أطعتمونا لتفعلن كما نفعل، فقالت الأحبار: لا تغتروا فكأن العذاب قد نزل بكم، فلم ينتهوا كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً﴾ فمكثوا كذلك ما شاء الله وظنوا الأمن، وفرحوا بما أوتوا فأخذهم[٣٠٩] بغتة، فلما جنهم الليل وأخذوا مضاجعهم وغلقوا أبوابهم وناموا مسخهم الله قردةً، وأصبح المؤمنون لا يسمعون لهم حسًا، فأرسلوا إلى باب مدينتهم من ينظر، فإذا [هي] لم تفتح، وتعالى النهار فتسوروا الحيطان بالسلاليم وفيها الآباء والأبناء والأعمام والأقارب، فصعد رجل لينظر حالهم، فرآهم قردة يثب بعضهم على بعض فصاح بأعلى صوته: إنا لله وإنا إليه راجعون، مسخوا والله قردة، فكسروا الباب فإذا

(٣٠٨) وتركتم: ورفعتم، م ي.

(٣٠٩) فأخذهم: أخذناهم، م ي.

هم قردة يتبادرون خارج المدينة، وكان القرد منهم يعرف أقرباءه يُبَصْبِصُ لهم ويسيل دمعه ويضرب بنفسه الأرض، فلم يمكثوا إلا ثلاثة أيام ثم ماتوا، وكذلك كل مسخ لا يبقى أكثر من ثلاثة أيام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ إلى قوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة:٦٥].

مبحث في بقية حديث داود واستخلاف سليمان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ نبوة، وقيل: المملكة، ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ يعني مسبحي معه ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ سخرنا الطير تأتيه تسبح معه، والثالثة الحديد ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعًا تامات.

قال وهب: وكان داود يخرج متنكرًا يسأل الناس يقول: كيف داود؟ فيقولون: ما نعلم عنه إلا خيرًا، فخرج يومًا ورأى إنسانًا فسأله عن دود، فقال: هو بخير إلا أن فيه خصلة يأكل ويطعم عياله من بيت مال المسلمين، فعند ذلك اجتهد في الدعاء وسأل الله أن يعلمه عملًا يستغني به، فعلمه صنعة الدروع، وألان له الحديد، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠].

قال: ولبث داود فيهم ثلاثين سنة، وكانوا بخير، وكثر عددهم، وضاقت بهم الأرض فلسطين، وفشت فيهم السلامة والعافية.

فلما عجب داود من كثرتهم أوحي إلى داود أن خيرهم بين الجوع والقحط ثلاث سنين، وبين عدو أخلي بينهم وبينه، وبين الطاعون ثلاثة أيام، فجمعهم وأخبرهم بذلك، قالوا: أنت نبينا فاختر لنا، فقال: أما الجوع فبلاء فاضح لا يصبر عليه حر، وأما العدو فلا نفضلهم، وأما الموت بيد الله، فاختاروا الطاعون، فأمرهم [أن] يتجهزوا للموت بالغسل والحنوط وأن يبرزوا إلى صعيد من الأرض بأنفسهم ونسائهم وأولادهم، فضجوا وتضرعوا إلى الله لعله يرحمهم فإنه [إن] أتم عليهم غضبه ثلاثة أيام بالوباء لم يبق منهم أحد، فبرزوا إلى صعيد بيت المقدس ولم يكن يومئذ مسجد، فقعدوا حتى أصبحوا وسجدوا مع داود يتضرعون حتى شفع فيهم وزال النهار وقد مات منهم عدد كثير، ثم إن الله تاب عليهم ورفع عنهم الوباء، فقالوا: ما تأمرنا؟ فقال: إن الله رحمكم فاشكروا، قالوا: ما تأمرنا به؟ قال: اتخذوا هذا الصعيد مسجدًا تذكرون الله فيه ومن بعدكم، فأقبلوا على ذلك.(٣١٠)

(٣١٠) تفسير الثعلبي ٨/ ٧٥.

مبحث في بناء المسجد

قال: فأقبلوا على بناء بيت المقدس، وباشر داود ذلك بنفسه ينقل الصخر على عاتقه ويضعها بيده، وفعلت بنو إسرائيل مثل ذلك حتى بلغ الجدار قامة وبسطة، فأوحى الله إلى داود أني قد رضيت عنكم وقبلت توبتكم فارفعوا أيديكم عن هذا المسجد فإني أريد أن أتممه برجل اسمه سليمان وهو من[٣١١] صلبك، فرفع داود يده حتى ولد سليمان وداود يومئذ ابن سبع وعشرين ومائة سنة.

فلما كان سليمان ابن ثلاث عشرة سنة وتمت لداود مائة وأربعين سنة قبض الله داود واستخلف على بني إسرائيل سليمان بن داود عليهما السلام.

قال وهب: أول حكم حكم سليمان في الحرث وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

قال: وبعث الله ملك الموت إلى داود فجمع بني إسرائيل واستخلف عليهم سليمان، ثم قبض روحه.

فصل في سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ وكان لداود سبعة عشر ابنًا، فورث سليمان ملكه وعلمه من بينهم، وفهمه الله كلام الطيور والدواب، ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦] من علم.

قال وهب: لما استخلف الله سليمان وجعله نبيًا كان أول شيء أمره به إتمام بيت المقدس، وسخر له عفاريت الجن وعظماء الشياطين، فجعل سليمان نقباء على الشياطين، ثم جعل الشياطين فرقًا، فريقًا منهم يقطع الصخر والعمد من الصخر والرخام، وفريقًا يبنون، وفريقًا يغوصون كما قال تعالى: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧] فيستخرجون منه الدر والمرجان زينة للمسجد، أما الدرة فقيل: مثل بيضة النعامة، ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ، هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٨،٣٩].

قال وهب: لما استخلف سليمان فسلم داود الخاتم إليه ودفع جبريل القضيب إليه وجلس على سرير داود، ودخل عليه الطير والوحوش والسباع والبهائم والريح، وقالوا: إنما جئنا مسخرين إليك فأمرنا بما شئت، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء:٨١].

---

(٣١١) وهو من: وفي، ي.

ودخل يومًا المسجد فصلى ركعتين فإذا مسكين يصلي، فلما فرغ سليمان قال: مسكين دخل بين ظهراني المساكين، ونظيره ما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين».

مبحث في حديث تسخير الريح

قال محمد بن إسحاق ووهب: كان سليمان أبيض جسيمًا وضيًا، كثير الشعر، يلبس البياض، وكان يغزو، قل ما يسمع بملك في ناحية إلا غزاه، وكان يجلس على سريره فتعكف عليه الطير، ويقوم له الإنس والجن، وكان إذا غزا أمر بعسكره فيُضرب، وكان من خشب، ثم يحمل عليه الناس والدواب وآلات الحرب، ثم يأمر بالعاصف فتدخل تحت ذلك العسكر وهو من الخشب فاحتملته فقذفت به شهرًا في روحته وشهرًا في غدوته، قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:١٢].

ووجد كتاب كتبه بعض أصحاب سليمان بناحية دجلة نحن نزلناه وما بنيناه[٣١٢]، ومبنيا وجدناه، غدونا من إصطخر فقلناه، ونحن رائحون إن شاء الله فبائتون بالشام[٣١٣].

قال: وكان الريح تحملهم، فتمر بالزرع فما تحركه.

مبحث في النمل

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل:١٧]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل:١٨]، فسمعها سليمان فضحك من قولها ثم وقف ووقف جنوده حتى دخلت النمل مساكنها، فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل:١٩].

وكان يخرج إلى غزاة وكان مسيره في قفر من الأرض، فعطش الناس فتفقد الطير.

---

(٣١٢) بنيناه: بيناه، ي. تفسير الكشاف ٣/ ٧٣.

(٣١٣) فبائتون بالشام: فباتون الشام، ي. تفسير الكشاف ٣/ ٧٣.

مبحث في الهدهد

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ [النمل:٢٠] ويقال: إن تفقد الأكابر الأصاغر من سياسة الملك.

واختلفوا ما كان سبب تفقده من بين الطيور؟ قيل: كانوا إذا نزلوا أرضًا ليس فيها ماء دلهم الهدهد على الماء، فإنه كان يبصر من تحت الأرض كما يبصر في زجاجة صافية، عن ابن عباس. ولهذا قيل: حاجة الرئيس إلى الخدم كحاجة الرأس إلى القدم.

وقيل: تفقد الطيور كلها ليعطي أرزاقها فتفقد الطير، وهكذا ينبغي أن يفعل بالملوك، قال صلى الله عليه وآله وسلم عند النزع[٣١٤]: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»، وقال تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾.

وقيل: وجد موضع الهدهد خاليًا من الصف فتفقده وقال: أين هو؟

وروي أن الهدهد ذهب مع هدهد اليمن وترك مركزه من الصف فوق سليمان، فوقعت الشمس على صدر سليمان فتفقده سليمان.

نكتة: يقول الله: يا مؤمن ما عذرك وأنت في أوقات الصلاة تغيب عن الجماعات بغير عذر.

وروي عن عمر: من لم يتأهب للصلاة قبل حضورها [لم] تقر عيناه بها.

ابن المسيب: ما أذن المؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد. ويقال: من عكف على الباب للخدمة فاز بالنعمة، وقيل: من لزم الباب سمع الجواب.

شعر:

الزموا الباب واقرعوه وارجوا ... أنه لا يردنا خائبينا
أي شيء يكون أحسن منا ... أن يرانا ببابه واثقينا

آخر:

أنخنا في فنائك يا إلهي ... إليك معرضين بلا اعتلال
فسسنا كيف شئت ولا تكلنا ... إلى تدبيرنا ياذا المعالي

وقيل: دعا أمير الطير فسأله عنه فقال: غاب ولا أدري أين هو، وما أرسلته أنا.

---

(٣١٤) النزع: النزاع، ي.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ قيل: أخطأه بصري أم غاب.

ويقال: لم قال: (ما لي) ولم يقل: ما لهم؟

فيقال: إن من آداب السريانية إذا انقطع عنهم خادم أن يجلوا الذنب لأنفسهم يقولون: لعلنا لم نتعاهدهم[٣١٥] ولم نقض حقهم، كذلك قال، وكذلك ينبغي للواعظ إذا لم ير في قلوب المستمعين أثرًا أن يلوم نفسه دون غيره، ويقول لنفسه:

تدل على التقوى كأنك ذو تقى ... وريح الخطايا من ثيابك تسطع

وقيل:

[لن تصلح] الناس وأنت فاسد ... هيهات ما أبعد ما تكابد

وهكذا المستمع يجب أن يلوم نفسه ويقول: أتيت من قبل قسوة قلبي.

وقيل: الكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وقيل: العلماء كانوا أيقاظًا والعوام نياما[٣١٦]، والآن العلماء نوّام والعوام موتى، فكيف يوقظونهم[٣١٧]، ويقول القائل: إن الأطباء خونة لا يعطون مكان الترياق إلا سمّا، ويقول المستمع لنفسه: لو كان فيك حياة سمعت ولكنك ميت القلب.

شعر:

لعمري لقد نبهتِ من كان نائمًا ... وأسمعتِ من كان ذا آذان[٣١٨]

آخر:

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيًا ... ولكن لا حياةَ لمن تنادي

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الروم:٥٢]، ﴿فَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ [الزخرف:٤٠].

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ [النمل:٢١]، فلما علم سليمان أنه غاب من غير عذر قال:

---

(٣١٥) نتعاهدهم: نعاهدهم، ي.

(٣١٦) نياما: نوام، م ي.

(٣١٧) يوقظونهم: يوقظهم، م ي.

(٣١٨) كتب فوق في الأصل فوق قوله: (من كان ذا أذنين) ما لفظه: قولي كل من كان ذاذنين. ظ.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل:٢١]، قيل: لأنتفن ريشه وذنبه، عن الحسن، وقيل: يترك في الشمس بعد أن ينتف.

ويقال: أوعد سليمان طيرًا غاب عن نوبته، فويل لعبد يراه الله وقد غاب عن خدمته بغير عذر، وعن الصلوات بغير حجة، وقيل: لأفرقن بينه وبين قرينه، وهو عذاب شديد.

شعر:

لا قضى اللهُ بيننا بفراقِ ... إن طعمَ[٣١٩] الفراقِ مُرُّ المذاقِ
لو وجدنا إلى الفراقِ سبيلًا ... لأذقنا الفراقَ[٣٢٠] طعَمَ الفراقِ

شعر:

شيئان لو بكتِ الدماءَ عليهما ... عيناي حتى يؤذنا بذهابِ
لم يقضيا المعشارَ من حقيهما ... فقْدُ[٣٢١] الشبابِ وفُرقةُ الأحبابِ

آخر:

يوم الفراق لقد خلقت طويلا ... لم تبق لي عزمًا ولا معقولا
قالوا الرحيل فما شككت بأنها ... نفسي عن الدنيا تريد رحيلا

وأنشدني الحاكم أبو الفضل الكرابيسي رحمه الله:

إني لأعجب من قوم أودعهم ... ويستطيعون للتوديع مَدَّ يَدِ
هلا يكونون مثلي في فراقهم ... يد على القلب والأخرى على الكبدِ

وأنشدنا:

لم أنس يوم الفراق وقفتنا ... وجفنها من دموعها[٣٢٢] شَرِقُ
وقولها والركاب واقفةٌ ... تتركني هكذا وتنطلقُ

آخر أنشدنا بعضهم:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا

(٣١٩) طعم: يوم، م ي.
(٣٢٠) الفراق: الفرقا، م ي.
(٣٢١) فقْد: شرخ، م ي.
(٣٢٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٩٦.

وذاك لأن النوم يغشى جفونهم سراعًا ولا يغشى لنا النوم أعينا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

آخر:

ولما نأوا عني جعلت فداهمُ بكيت على آثارهم فعميتُ
فلا مدمعي أدى حقوق ودادهم ولا أنا عن عين بذاك رضيتُ

وقيل: لأزعجنه من وطنه، وهذا عذاب شديد.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء:٦٦]، ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ [الممتحنة:٩]، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤]، وقيل: الغربة ذلة فإن أعقبتها قلة وأردفتها علة فهي نفس مضمحلة، وقيل: الغربة كربة.

شعر:

حسب الفتى ذلًا وإن أدرك المنى ونال ثراءً أن يقال غريبُ

وفي هذه السفينة قد كتبنا بابًا في الغربة عن الوطن.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل:٢٢].

وروي أن سليمان قال للهدهد: أين كنت حيث غبت عن النوبة؟ قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ قيل: أعلم ما لم تعلمه، وقيل: بلغت ما لم تبلغه وجئتك من سبأ، وقيل: أحطتك بما لم تحط به أنت يا سليمان، وقيل: بما لم تحط به الطيور.

ويقال: طولب الهدهد بالبرهان لينجو من عذاب سليمان، كذلك المكلف يطلب بالبرهان لينجو من النيران.

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ أرض اليمن ﴿بِنَبَإٍ﴾ خبر ﴿يَقِينٍ﴾، قال: وما هو؟ قال: إني وجدت امرأة اسمها بلقيس تملكهم، فقال سليمان: يؤتي الله الملك من يشاء، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]، ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦]، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أفلح قوم ولوا أمرهم إلى امرأة» لما سمع أن العجم ملكوا عليهم بوران[٣٢٣] بنت كسرى.

قال وهب: وكان لها نسب في الجن، وكان أخوالها من الجن.

قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، قال سليمان: وأوتينا من كل شيء؟

قال وهب: كان لها اثنا عشر ألف قيلٍ[٣٢٤]، تحت كل قيلٍ ألف مقاتل[٣٢٥]، ويقال: لم يجتمع لملك بعد سليمان وذي القرنين وفرعون أكثر منها جنودًا.

قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سرير عظيم، قال سليمان: وما دينهم؟ قال: ﴿يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فعند ذلك غضب سليمان وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل:٢٥]، قيل: هو من قول سليمان، وقيل: من قول الهدهد لهم، وقيل: من قول الله تعالى، والكل محتمل، الخبء: ما غاب، وقيل: المطر في السماء وفي الأرض النبات، ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾، يقال: لا تقبل دعوى بغير بينة، ولا عمل بغير نية، قال تعالى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ليعلم الذين صدقوا، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو ترك الناس ودعواهم لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، لكن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه».

شعر:

أيا مدعي الحب لمولاه … من ادعى[٣٢٦] صحح دعواه
من ادعى[٣٢٧] دعوى بلا شاهد … لا بد أن تبطل دعواه

فكتب كتابًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من سليمان بن داود إلى بلقيس، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين، أما بعد فإن كنت من الإنس فقد أمرت بالطاعة لي، وإن كنت من الجن فقد سخرت لي، فأقبلي إلي وقومك ولا[٣٢٨] تطاولوا وأتوني مسلمين مستسلمين، ثم قال للهدهد: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾، فذهب الهدهد بالكتاب حتى دخل عليها من كوة البيت.

---

(٣٢٣) بوران: من را، م ي. مرآة الجنان ١/ ١٨.

(٣٢٤) القيل: الملك بلغة أهل اليمن، التفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٣٧٥.

(٣٢٥) تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٦.

(٣٢٦) الضوء اللامع ١/ ١٠٦.

(٣٢٧) الضوء اللامع ١/ ١٠٦.

(٣٢٨) ولا: ألا، ي.

فوضع الكتاب في يمينها وهي قاعدة في فراشها، فتعجبت، ثم ارتفع الهدهد إلى الحائط، وكان لها بيت مفصص مرصع بالجواهر تجلس فيه، فقرأت الكتاب وكانت قارئة، فلما رأت اسم سليمان قالت للهدهد: من أرسلك؟ قال: ملك الجن والإنس والطير والريح والشياطين، فجمعت قومها ثم قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ تعني رؤساء القوم ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ﴾، قيل: مختوم، وقيل: لأنه كان سبب إسلامها، والكتاب الكريم ما يلقي إليك الفرح والسرور.

شعر:

أتانـي منـك يـا روحـي كتـابٌ ... فكـدت أهيـم مـن فـرح الكتـابِ
يخبـر عنـك شـوقًا ثـم وجـدًا ... فبـت كمفـرح بعـد اكتئـابِ

آخر:

بنفسـي مـن أهـدى إلـي كتابـه ... فأهـدى لـي الدنيـا مع الديـن في درج
كتـاب معانيـه خـلال سـطوره[٣٢٩] ... لآلـئ فـي درج[٣٣٠] كواكـب فـي برج

آخر:

ورد الكتـاب مبشـرًا ... نفسـي بـأوراد السـرورِ
وفضضتـه فوجدتـه ... ليـلًا علـى صفحـات نـورِ
أنزلتـه منـي بمنـز ... لـة القلـوب مـن الصـدور

آخر:

لمـا وضعـت علـى عيني وقـد رمدت ... مـن البـكاء كتابًـا منـك أبراهـا
فكانـت النفـس قـد ماتـت بغصتهـا ... فخـط كفـك بعـد الله أحياهـا

آخر:

فقلـت لـه أهـلًا وسـهلًا ومرحبًـا ... بخيـر كتـابٍ جـاء مـن خيـر كاتـبِ

ويقال: كتاب مرسله سليمان، ورسوله الهدهد، والمرسل إليه كافرة، فكان من بركاته حي[٣٣١] قرب بعد البعد، وآمن بعد الكفر، وسعد بعد الشقاء، فما ظنك بكتاب كريم القرآن،

---

(٣٢٩) سطوره: صدوره، م ي. يتيمة المهر ٤/ ٣٥٣.

(٣٣٠) درج: درج، ي. يتيمة الدهر ٤/ ٣٥٣.

(٣٣١) حي: حتى، ي.

إنه لقرآن كريم، من سيد كريم، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، على رسول كريم ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠]، إلى رسول كريم، فهل يورث هذا الكتاب إلا السلامة والكرامة.

قوله: ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل:٣٢]، ثم استشارتهم بلقيس في ذلك، فقالوا: نحن أولو قوة ولن يغلبنا عدو قط، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، فنطقت بالحكمة: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

مبحث في ذم عمل السلطان

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، في هذه الآية فوائد:

منها: حسن المشاورة، واتخاذ الوزراء.

ومنها: أن الملوك يغيرون أحوال الناس.

ومنها: أن الملك يثبت بالتدبير.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يجوز أن يكون من كلامها، والأصح أن يكون من كلام الله تعالى.

ويقال: أربعة لا يزول معها ملك: حسن الترتيب، واستكفاء الأمير، وتقدير الحرم، وإمضاء العزم، وأربعة لا يثبت معها ملك: غش الوزير، وسوء التدبير، وخبث النية، وظلم الرعية.

قيل: الملك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم.

ميمون بن ميمون: السلطان خطر، إن أطعته خاطرت بدينك، وإن عصيته خاطرت بنفسك، والسلامة ألآ تعرفه ولا يعرفك.

شعر:

إذا أدناك سلطان فزده ... من التعظيم[٣٣٢] وانصحه وراقب
فما السلطان إلا البحر عظمًا ... وقرب البحر محذور[٣٣٣] العواقب

ابن مسعود: إن الرجل ليدخل على سلطانه ومعه دينه، ويخرج وليس معه دينه.

---

(٣٣٢) التعظيم: التقريب، م ي. يتيمة الدهر ٣/ ٣٢٢.

(٣٣٣) محذور: مكروه، م ي. يتيمة الدهر ٣/ ٣٢٢.

ويقال: إن الإيمان ملك إذا دخل القلب خرب الكفران، والتوبة ملك تخرب العصيان.

شعر:

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام يجب ما قبله»، قال: «من قال لا إله إلا الله خالصًا مخلصًا دخل الجنة»، وقال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». وفي الآية دليل على ذم عمل السلطان.

أبو علي الصنعاني: من والانا أخذنا ماله، ومن عادانا أخذنا رأسه.

قوله: ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾ أخربوها وجعلوا العزيز ذليلًا والذليل عزيزًا، والغني فقيرًا والفقير غنيًا، والقوي ضعيفًا والضعيف قويًا، والوالي معزولًا والمعزول واليًا.

وقيل: ثلاثة لا أمان لهم: البحر، والسلطان، والنار.

ويقال: خاطر من لـجّ البحر، وأشد منه مخاطرة خادم السلطان.

حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، يعني أبواب السلاطين، ولقي عيسى بن موسى أبا شيبة[٣٣٤] فقال: ما مالك[٣٣٥] لا تأتيني؟ قال: وما أصنع بإتيانك، إن أدنيتني[٣٣٦] فتنتني، وإن أقصيتني أحزنتني.

الضحاك: إني لأسهر عامة ليلي مفكرًا ألتمس كلمة أرضي بها سلطاني ولا أسخط ربي فلا أجد.

أبو العتاهية:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في أكنافهم ظل

ماذا ترجي بقومٍ إن همُ غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

فاستغن بالله عن أبوابهم كرمًا إن الوقوف على أبوابهم ذل

في المثل: صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب.

(٣٣٤) أبا شيبة: بن شبرمة، م ي. نثر الدر في المحاضرات لمنصور الرازى ٧/ ٦٢.

(٣٣٥) مالك: ملك، م ي.

(٣٣٦) أدنيتني: أدبتني، م ي.

وفي المثل: من تحسى[٣٣٧] من مرقة السلطان احترقت شفته ولو بعد حين.

ابن المعتز: أشقى الناس بالسلطان صاحبه، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقًا.

بعض الزهاد: تباعد من باب السلطان ولا تأمن خدع الشيطان.

شعر:

صاحب السلطان لا بد له منه هموم[٣٣٨] يعتريه وغمم[٣٣٩]
والذي يركب بحرًا سيرى قحم الأهوال من بعد قحم

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ فإن كان صاحب دنيا فنرضيه بالمال، وإن كان نبيًا فإنه لا يميل إلى الهدية، قيل: نعم المطية تعجيل الهدية، وقيل: الهدايا تحبب القلوب، وتغطي العيوب، وتسهل المطلوب.

شعر:

هديتي تقصر عن همتي وهمتي تقصر عن مالي
فخالص الود وصدق الوفا أحسن ما يهديه أمثالي

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تهادوا تحابوا».

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ يعني إن كان ملكًا قَبِلَ المال، وإن كان نبيًا لم يقبل، وقيل: إن قنع بمالنا أعطيناه، وإن لم يقنع إلا بنا أطعناه.

مبحث في كتاب بلقيس والهدية

قال وهب: فكتبت إلى سليمان: قد سمعت كتابك وأنا ناظرة في أمري، وعجلت إليك رسلي[٣٤٠] ليعلموني علمك.

قال: وهيأت له هديّة، وقيل: كان في هديتها لبنة من ذهب طولها ثلاثة أذرع وعرضها ذراعان، لفتها في حرير وديباج، وفيها خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة، وحقة فيها لؤلؤ وياقوت.

---

(٣٣٧) تحسى: يخشى، م ي.

(٣٣٨) هموم: مومن، م ي.

(٣٣٩) وغمم: وغم، م ي. انظر اللطائف والظرائف ص٣٣.

(٣٤٠) رسلي: رسولي، ي.

وقيل: كان فيها ألف فرس عربي، مع كل فرس عبد يسوسه، في رأس كل فرس لجام من ذهب مفصص بالجوهر.

وقيل: كان في يد كل وصيفة سوار من ذهب وفي أذنها قرط، وعلى كل وصيف منطقة منظومة باللؤلؤ، وحملت الوصفاء[٣٤١] على كل ذكور الخيل، والوصائف على إناثها، وقالت للوصفاء: كلموه بكلام الرجال، وللوصائف: كلموه بكلام النساء، وأخبر الله تعالى سليمان بالهدايا[٣٤٢]، ويقال: إنه أمر الجن فصاغوا لبنًا كثيرًا، كل لبنة أربعة أذرع في عرض ذراعين، ثم ألقوه على طرقهم تحت أرجل الدواب لتبول عليها وتروث عليها كي يعلموا[٣٤٣] أن ذلك يصغر عندهم.

فلما جاءوا سليمان وعرضوا الهدية قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟ ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي تعجبون بها، ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم بها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ من أرض سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧].

فلما ذهبت الرسل وأخبروها بخبر سليمان، أقبلت إلى سليمان، فلما سمع بإقبالها قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ من الجن والإنس ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ مصالحين فلا يحل أخذ شيء من مالهم.

ويقال: أراد سليمان إظهار معجزاته؛ لأنها لما خرجت من مملكتها تركت سريرها في البيت وأقفلت، ووكلت بالبيت من الحفظة، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي فيه دهاء، وقيل: رئيس، ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قيل: كان لا يقوم حتى يسبح ألف ألف تسبيحة، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل: آصف وزير سليمان، وقيل: سليمان نفسه، وأراد إظهار معجزاته، وقيل: ملك عند سليمان ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروه فجعلوا أعلاه أسفله، وقيل: غير بزيادة ونقصان، وقيل: غير ما عليه من الكسوة، وكان سريرًا مفصصًا بالذهب والفضة والجواهر واللؤلؤ، وحملته الريح في الهواء.

فلما جاءت قيل: هكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، ﴿وَصَدَّهَا﴾ صرفها الشيطان عن الإسلام، ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ وهو القصر، جعل فيه قوارير بيضاء كأنها الماء، ثم جعل سرير

---

(٣٤١) الوصفاء: الوصف، م ي.

(٣٤٢) بالهدايا: بالخداية، م ي.

(٣٤٣) يعلموا: يعلمون، م ي.

سليمان ومجالس أصحابه وسطها، ثم جاء بلقيس، و﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ما ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، فقال: ليس بماء، ولكنه ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أملس، فلما رأت هذه المعجزة وما مرت من المعجزات قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم تزوجها سليمان.

قال محمد بن إسحاق: وكان سليمان قد أصابته فتنة بعد فتنة في ملكه، كان يحسن توبته، ويقبل الله مراجعته، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص:٣٠]، فمنها: حديث عرض الخيل، ومنها: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾.

ونحن نشير [لبعض] ما يصح فيه على مذهب أهل الحق أهل التوحيد والعدل، فأما ما يرويه الحشوية أنه ذهب بملكه شيطان حتى وطئ امرأته، وكان ملكه في خاتمه، فليس شيء من ذلك يصح، وإنما هي من دسيس الملحدة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص:٣١]، العرض في القرآن على وجوه:

عرض آدم على الملائكة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة:٣١].

وعرض في القيامة ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨]، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الكهف:١٠٠].

وعرض سليمان ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾، واختلفوا في تأويله، قيل: عرض عليه الخيل فاشتغل بذلك حتى فاته العصر، فأمر بردها وضرب بالسوق والأعناق.

وقيل: لم يفته العصر ولكن كان يتعاهد الخيل بنفسه حتى توارت بالحجاب ثم قال: ﴿رُدُّوهَا﴾ يعني الخيل، فمسح سوقها وأعناقها.

وقيل: توارت الشمس بالحجاب فتصدق بالخيل كفارة فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ غابت ولم أصلِّ العصر.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه فاته العصر فقال: «ملأ الله قلوبهم وقبورهم نارًا أشغلونا عن صلاة الوسطى صلاة العصر».

قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص:٣٤]، قيل: كان له مائة نسوة، فطاف عليهن فقال: أطوف عليهم ويحدث من كل امرأة غلام فيغزون معي في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فولدت واحدة منهن فقط نصف ولد، فأناب.

وقيل: معناه[٣٤٤]: وألقينا على كرسيه جسده، وما يحكون من حديث الشيطان باطل، ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص:٣٥].

مبحث في وفاة سليمان عليه السلام وحديث المسجد

وأقام سليمان في ملكه ما شاء الله، فلما دنا أجله كان إذا صلى كل غداة ينظر إلى شجرة خضراء نابتة[٣٤٥] يقول إذا سلم: ما أنت يا شجرة؟ تقول: أنا شجرة كذا، وأنا دواء من داء كذا، فيأمر بها فتقطع، ثم يكتب اسم الدواء واسم الداء، ويأمر بها فتوضع في الخزائن، حتى جمع الطب كله، فإذا آخر شجرة تنبت قال لها: ما أنت؟ قالت: أنا الخرنوب، فقال: الآن أذن الله في خراب هذا المسجد وانقطاع هذا الملك، ثم رجع وجلس على كرسيه واعتمد على عصاه، فقبض الله روحه، وكان مهيبًا في سلطانه، فمكث كذلك حولًا لا يعلم الجن والإنس والطير بموته حتى أكلت دابة الأرض منسأته فوقع، فعلمت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين من تلك الأعمال التي تعمل، فقالت الجن لما علمت بموته لأوليائهم من الإنس: إن ملك سليمان كان بسحره[٣٤٦]، وكانت الجن والشياطين عمدوا حين عرفوا موته فكتبوا أصناف السحر[٣٤٧]، وكتبوا أنواعه[٣٤٨] وجعلوه في كتاب، ثم ختموا فيه بخاتمه على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنوه تحت كرسيه، ثم قالت لأوليائهم من الإنس: ألا ندلكم على علم سليمان الذي كان به يقهر الجن والإنس والطير؟ قالوا: بلى، قالوا: فاحفروا موضع مصلاه، فاستخرجه بقايا بني إسرائيل، فلما عثروا عليه قالوا: ما كان ملك سليمان إلا بهذا، فأفشوا السحر وعلموه وتعلموا، فليس في أحد[٣٤٩] ذلك أكثر منه في اليهود، إلا بقية من صلح منهم قالوا: معاذ الله أن يكون هذا [خاتم] سليمان وكتابه.

فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سليمان وعده في المرسلين قال من كان

(٣٤٤) معناه: مرضاه، م ي.

(٣٤٥) نابتة: تأتيه، م ي.

(٣٤٦) بسحره: بشجرة، م ي. تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٩.

(٣٤٧) السحر: الشجر، م ي. تفسير ابن كثير ١/ ٣٤٩.

(٣٤٨) أنواعه: إيوانه، ي.

(٣٤٩) أحد: أخذ، ي.

بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبيا، والله ما كان إلا ساحرًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ يعني بعمل السحر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بما عملوا ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني بتخلية الله بينه وبين ما أراد، عن محمد بن إسحاق وجماعة.

فلما ذكر الله سليمان وحديثه وفرغ منه ذكر حديث أيوب عليه السلام.

فصل في أيوب عليه السلام

هو أيوب بن موص بن رعويل[٣٥٠]، وامرأته ليا[٣٥١] بنت يعقوب.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص:٤١]، النداء في القرآن على ستة أنواع: نداء من الله لعبده، ونداء من العبد لمولاه، ونداء من العبد للعبد، ونداء أهل الجنة وأهل النار، ونداء في النار.

أما نداء العبد: فإنه نداء دعاء وسيلة وتضرع واستغاثة كقوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ [الأنبياء:٧٦]، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٩]، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [الأنبياء:٨٣].

والثانية: نداء الله لعبده، وهو نداء الكرامة ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات:١٠٤]، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه:١١]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص:٤٦].

والثالثة: نداء العبد للعبد، كقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ [هود:٤٢]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:٥٠].

والخامسة: نداء أصحاب الأعراف.

والسادسة: نداؤهم في النار ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف:٧٧].

قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، يقال: إن الله تعالى يحتج بأربعة نفر على أربعة نفر: بسليمان على الأغنياء والملوك، وبيوسف على كل مسجون ومملوك، وبعيسى على الفقراء، وبأيوب على أصحاب البلاء.

---

(٣٥٠) رعويل: دعوبا، ي. البداية والنهاية ١/ ٢٢٠.

(٣٥١) ليا: كـا، ي. تاريخ الطبري ١/ ٣٢٢.

ويقال: إن أيوب كان رجلًا من الروم ولد عيص، عن وهب، ابن إسحاق بن إبراهيم، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا، وكان غنيًا ذا مال، وله أولاد، وكان له من أصناف المال والضرع والزرع ما [لا] يكون لأحد أفضل منه، فكان تقيًا رحيمًا بالمساكين، يطعم المسكين والأرامل، ويكفل الأيتام، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، وكان شاكرًا لنعم الله، مؤديًا حقه، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيب منه ما يصيب من أهل الغنى، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه، وكانوا كهولًا، فأصابه البلاء الذي حكى الله تعالى في كتابه.

مبحث في سبب بلاء أيوب عليه السلام

فقيل: إن إبليس حسده، لأنه كان أعبد أهل زمانه، يجهد[٣٥٢] في صلاته حتى روي أنه قال: لو سلطني الله عليه لعصى ولغير، فسلطه الله عليه علمًا منه بعبده، فجد في إضلاله حتى كان ما كان، ومعنى التسليط التخلية، روي ذلك عن جماعة.

وقيل: إنه استغاث به مسكين على ظالم فلم يغثه ولم يأمر بمعروف ولم ينه[٣٥٣] الظالم عن ظلمه، فابتلاه الله، عن ابن عباس.

وعن الحسن: بلغني أن أيوب كان يصلي بأصحابه، فخرج يومًا ليصلي، فلقيه رجل ملهوف فاستغاث به، فقال: أصلي ثم أخرج إليك، قال: فأطال الصلاة، فأوحى الله إليه: يا أيوب استغاث بك فلم تغثه، إغاثتك إياه كانت أحب إلي من صلاتك، قال: فكان هذا من الأسباب التي ابتلاه الله بها.

وقيل: إنما أراد الله تعالى به الخير فعرضه[٣٥٤] لثواب عظيم على صبر ما ابتلاه، ويعوضه على ذلك البلاء، وفيه عبرة له وللمكلفين، وهذا هو الصحيح؛ إذ لم يكن ذلك البلاء عقوبة حتى يقال: إن سببه ذنب كذا.

مبحث في بلاء أيوب ومدته عليه السلام

كان أيوب من الأغنياء، وكان محسنًا، يعطي السائل، ويطعم الجائع، ويكسو العاري،

(٣٥٢) يجهد: يجد، ي.

(٣٥٣) ينه: ينهى، ي.

(٣٥٤) فعرضه: يعوضه، م ي.

ويكفل اليتيم، ويقري الضيف، ويعود المريض، ويعطي الغارم، ويشيع الجنازة، ويعزي المحزون، ويطيع ربه، وكان له الأولاد، فابتلاه الله بماله حتى لم يبق منه شيء، فرضي بقضاه، فأكثر من ثنائه وقال: الحمد لله الذي أعطى وهو الذي أخذ وابتلى.

ثم ابتلي بأولاده، فلم يبق له ولد، فرضي بقضائه تعالى.

ثم ابتلي في بدنه حتى لم يبق إلا العروق والعظم والعصب والقلب واللسان.

فمما روي في ذلك أن نارًا وقعت في مواشيه إبله وغنمه فأحرقتها، وجاء عدو الله إبليس إليه وقال: يا أيوب أحرقت إبلك وغنمك، وقال وعرفه: الحمد لله هو أعطاها وهو أخذها، فكانت تصيب له مالًا مالًا، فكلما بلغه هلاك ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه، حتى إذا لم يبق له مال هلك أولاده، ثم ابتلاه الله في جسده.

إسماعيل بن أبي خالد بإسناده يرفعه قال: كان لأيوب ثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة، وألف عبد، وسبعة بنين، فلما ذهبوا قال: كان المال يشغلني بالنهار، والولد بالليل، الآن فرغت، منك كنت، ومنك كان مالي، وإليك مصيري، عريانًا ولدت ولم يكن لي مال، وكذلك للتراب أعود.

وهب: ولم يبق من أهله إلا امرأة واحدة تقوم عليه وتكسب له، فيقال: إنه بقي ذلك البلاء فيه سبع سنين، وقيل عن الحسن: سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، عن ابن عباس، وقيل: ثلاث سنين، عن وهب.

وبلاؤه في بدنه أنه تساقط لحمه فلم يبق إلا العروق والعصب والعظم، وعيناه تجولان في رأسه للنظر، وقلبه للسمع، ولسانه للذكر، وخشوا للبطن.

وما روي من نفخ الشيطان فيه باطل، وأما حديث الدود فيجوز أن يكون، وهي كسائر العلل والأمراض، وأما ما يروى أنه كان إذا وقع شيء منه إلى الأرض أعاده مكانه، حديث باطل.

ويروى في حديث أيوب وأصحابه ومناظرته حديث طويل، الله أعلم بصحته.

مبحث في دعاء أيوب عليه السلام

قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]، يقال: إن أيوب صبر صبرًا لم يصبر مثله أحد قط، حتى قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ [ص:٤٤].

وعن ابن مسعود: أيوب رأس الصابرين إلى يوم القيامة.

وعن ابن عباس: لم يكن في زمن أيوب أكثر بكاء من أيوب خوفًا من الله، فلما نزل به البلاء لم يبك قط مخافة الجزع، وهكذا ينبغي للعبد أن يكون في أمر الله.

وعن بعضهم: الصبر ثلاثة أشياء: ترك الشكوى، وصدق الرضا، وقبول القضاء.

روى بعضهم: قف على البساط، وإياك والانبساط، واصبر على ضرب السياط، حتى تجوز على الصراط، وقد ذكرنا في هذه السفينة بابًا في الصبر.

﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ قيل: فيه أقوال:

فيقال: كان له ثلاثة إخوة آمنوا به على ما ذكرنا، فجاءوا إليه وقالوا: لعل فيك خصلة لا تقف عليك عاقبك الله على ذلك فتب، فلما عيروه قال: مسني الضر وأنت أرحم الراحمين.

وعن ابن عباس في حديث طويل: وقيل: كان [قد] اشتهى طعامًا ولم يكن عندهم شيء فذهبت امرأته لتشتري طعامًا فقال صاحب الطعام: أبيعه بشعرك، فاشترته بشعرها وأتته به، فقال: من أين هذا؟ قالت: اشتريته بشعري، فقال: إلهي ابتليتني بذهاب المال والولد ثم بالبلاء في الجسد، والآن مسني الضر.

وقيل: اعترض إبليس عليه اللعنة لامرأته فقال: أتعرفيني؟ فقالت: لا، قال: أنا إله الأرض صنعت بصاحبك ما صنعت لأنه عبد إله السماء، ولو سجد لي سجدة واحدة لرددت عليه ماله وولده، فرجعت إلى أيوب وأخبرته بذلك، فقال: لقد أتاك عدو الله من دينك، ثم أقسم لئن عافاه الله ليضربنها مائة جلدة، ثم قال: مسني الضر، ومسني الشيطان، عن وهب.

وقيل: لما أيس عدو الله من أيوب قال لأوليائه: أين كيدكم الذي تضلون به بني آدم؟ فقالوا: ما بقي إلا أن نأتيه من قبل امرأته، فانطلق إبليس واعترض لها وقال: يا فلانة أين الغنم؟ أين الخدم؟ أين الأولاد؟ فبكت وبكى معها، ثم قال لها: كلميه ما استطعت أن تكلميه أن يشرب شربة من خمر فإن فيها شفاءه ثم يتوب، فانطلقت إلى أيوب وقالت: أين المال، أين الخدم، أين الأولاد، إنما هي شربة ثم تتوب، فنظر إليها وقال: لعن الله من وسوس إليك ومن علمك هذا، والله لئن عوفيت لأجلدنك مائة جلدة، فندمت على ذلك وجعلت تلحسه وهي تقول: يا سيدي هذا مكان العائذ بك من غضبك، فلم تزل به حتى رضي عنها، فنادى: مسني الشيطان، عن ابن عباس.

وقيل: لما أصاب البلاء أيوب أخذ إبليس تابوتًا وقعد على الطريق يداوي الناس، فجاءته امرأة أيوب ووصفت له داء أيوب، قالت: أتداويه؟ قال: نعم، بشرط أني إذا شفيته قال لي: أنت شفيتني، لا أريد منه أجرًا غير هذا، فجاءت إلى أيوب فأخبرته، فقال لها: جاءك الشيطان، والله لئن عوفيت لأضربنك مائة جلدة، ثم قال: مسني الشيطان، عن ابن عباس. وفيه دليل أن الشافي هو الله وهو الممرض.

يروى أن أبا بكر مرض، فقيل له: ألا تدعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب رآني، قالوا: ماذا قال؟ قال: إني فعال لما أريد. فينبغي أن يتوكل على ربه.

وقيل غير هذا مرفوعا رواه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن رجلًا سأله عن معنى قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فبكى وقال: «والذي بعثني بالحق نبيًا ما شكى فقرًا نزل به من ربه، ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات، فلما كان في بعض الساعات وثب ليصلي قائمًا فلم يطق، فجلس وقال: مسني الضر»[٣٥٥].

وقيل مرفوعًا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما بقي من بدنه إلا قلبه ولسانه، فلما قرب الفرج قصد ديدان إليهما فقال: يا رب عضوان لم يبق لي غيرهما أذكرك بهما، مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ﴾ أي بوسوسة، وقيل: ما أصابه في بدنه وعذاب ما أصابه في ماله، ومعنى هذا: مسني الشيطان بما أصاب في بدني ومالي، فيقول: أين الخدم، أين المال، على ما بينا، وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان ألاّ يتلهف على فائت، ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [الحديد:٢٣]، إن الله يعطي للمصلحة ويأخذ لها.

ويقال: كيف صبر مع قوله: مسني الضر؟

قلنا: فيه أوجه:

منها: أنه دخل في حالتين: حالة الصبر لله، والشكوى إلى الله، والشكوى إلى الله غير مذمومة، إنما الشكوى من الله مذمومة.

(٣٥٥) عرائس البيان ٢/ ٥٢١.

روي أن بعض الصالحين مرض، فدعي له طبيب نصراني، فقيل له: صف له داءك، فقال: أشكو من ربي إلى عدوه، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ في حال الصبر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ في حال الصبر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ في حال الشكوى.

وقيل: إنما شكا من وسوسة الشيطان على ما بيّنا.

وقيل: شكا من حديث امرأته على ما بينا.

مبحث في كشف البلاء عن أيوب عليه السلام

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:٨٤]، وقال: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢]، قيل: لما كشف الله عنه قال: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها واغتسل، فأذهب الله بها ما كان به من البلاء، فخرج فجلس، فأقبلت امرأته تلتمسه في مضجعه فلم تجده، وقامت كالوالهة ثم قالت: يا عبد الله، هل رأيت الرجل المبتلى؟ فتبسم أيوب، فعرفته لمضحكه واعتنقته، قال ابن عباس: فوالله ما فارقته من مقامه حتى مر بهما كل ما أولد لهما.

وقيل: إنه دعاها حتى سألت عنه وقال: هل تعرفينه إن رأيته؟ قالت: نعم، قال: فتبسم وقال: أنا هو قد فرج الله عني ما كنت فيه، فعند ذلك اعتنقته.

مبحث في ضربه لامرأته

قال: ولما أراد ضربها قال جبريل: لا تضربها بما يؤلمها فإنها خدمتك طويلًا، قال: كيف أصنع؟ قال: خذ بيدك ضغثًا، فقيل: ضربها بعود فيه تسعة وتسعون عودًا[٣٥٦]، عن قتادة، ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي قد برت يمينك، وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحفظ الحرمة ويقضي حق الخدمة.

---

(٣٥٦) عودًا: عددًا، ي.

فصل في أرميا وعزير ودانيال وخراب بيت المقدس

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء:٤]، وكان حديث خراب بيت المقدس وبخت نصر بعد سليمان بأيام وأعوام كثيرة، وذلك أن بني إسرائيل بعده لبثوا سنين على استقامة من أمرهم، ويقوم بأمرهم إما نبي أو ملك، حتى قام بأمرهم رجل أعرج اسمه صدّيقة[٣٥٧] وكان مؤمنًا، وتراجع أمر بني إسرائيل وضعفوا، فطمع ملوك الأرض في غنيمة بيت المقدس، فقصدوا إليه، وكان الله يدفع عنهم الأعداء لما بقي فيهم من أنبيائهم[٣٥٨] وصلحائهم، وما كانوا يتمسكون به من الدين، فلما دفع سنحاريب الملك قصدهم في ستمائة ألف، فأصبحوا وقد أهلكهم الله، ولم يوجد الملك في القتلى، فبعث في طلبه، فأخذوه وأربعة معهم وهموا بقتلهم، فأوحى الله إلى شعياء[٣٥٩] وهو نبيهم أن خلوا عنهم لينذروا من وراءهم، فهكذا كان حالهم، عن محمد بن إسحاق، حتى انقرض خيارهم وبقي شرارهم، وتغيرت أحوالهم، وفشت فيهم المعاصي، ولم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر، فخلى الله بينهم وبين أعدائهم، فقصدهم بخت نصر، وهكذا يكون حال الناس إذا غيروا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المائدة:١٠٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو يسلط عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»، فكانوا يفعلون الأفاعيل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ [آل عمران:١١٢].

فقصدهم بخت نصر وهو ابن سنحاريب.

قال محمد بن إسحاق: فخرج ومعه ستمائة ألف راية لهلاك بيت المقدس، فنزل بجنوده حولها، فلما رأوا ما لا قبل لهم به وقرب أمر الفتح لبخت نصر تابوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وأظهروا الدعاء والتضرع، فردهم الله عنهم.

ويقال: إن سبب ردهم أنهم كانوا يرمون فتنصرف السهام عليهم فتقتلهم، فخرجوا بعدما دخلوا المدينة، وانطلقوا لا يعرجون على شيء.

(٣٥٧) انظر تفسير البغوي ٣/ ١١٤.

(٣٥٨) أنبيائهم: أجنادهم، م ي.

(٣٥٩) شعياء: شعيب، م ي. تفسير البغوي ٣/ ١١٥.

وقيل: إنه رمي سهم إلى بيت المقدس فرجع إلى جنبي بخت نصر فخرج وجنوده تتبعه حتى أدركهم الليل، وعلموا أن الله أخرجهم منها، ورجعوا إلى مكانهم، فذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ كائنًا ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم﴾ [الإسراء:٦].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الإسراء:٧]، قال وهب بن منبه: فلما صرف الله عنهم بخت نصر وجنوده، وغنمهم عسكرهم، وكفاهم مؤنة عدوهم، وكثرت فيهم الأموال والأولاد، عصوا الله واستحلوا المحارم، وفعلوا الأفاعيل، فبعث إليهم نبيًا يسمى أرميا؛ وهو الخضر على ما يقال، ويسمى بذلك، لأنه جعل على موضع أبيض[٣٦٠] فقام وهو يهتز خضرًا، وقال له: قل لبني إسرائيل فسدتم كلكم، وتركتم طاعتي، أما خياركم ورهبانك اتخذوا عبادي خولًا، يحكمون فيهم بغير كتابي حتى جهلوا أمري، وأنسوهم ذكري، وأما ملوككم فبطروا نعمتي وأمنوا مكري، وأغوتهم الدنيا حتى نسوا عهدي، وأما فقهاؤهم فمنقادون للملوك، يطيعونهم في معصيتي ولا يعملون[٣٦١] شيئًا مما علموا من كتابي، كذلك أمطرت عليكم السماء، وأنبت الأرض، وألبستكم العافية، فلا تزدادون إلا طغيانًا، أما وعزتي لأسلطن عليكم جبارًا فيقتلكم ويخرب مساجدكم، ويسبي ذراريكم. معنى أسلط:[٣٦٢] أخلي بينه وبينكم.

فلما بلّغهم أرميا الرسالة غضبوا عليه وكذبوه وضربوه وقيدوه وسجنوه، فعند ذلك أوكلهم الله إلى أنفسهم، وقصدهم بخت نصر بجنوده، فأقبل حتى نزل بساحتهم[٣٦٣]، ثم حاصرهم، فنزلوا على حكمه، فحكم فيهم بحكم الجاهلية، فمنهم من قتل، ومنهم من صلب، ومنهم من قطع شفتيه وأذنيه حتى أفناهم، وخرب بيت المقدس، وجمع منهم سبايا.

ويقال: كان فيهم سبعون ألف صبي منهم دانيال وعزرائيل وميخائيل وميشائيل[٣٦٤]، كلهم أنبياء، ويقال: إنه لقى التابوت الذي كان مع أرميا في بحيرة الطبرية حتى استخرجه عيسى عليه السلام.

---

(٣٦٠) أبيض: مضا، م ي.
(٣٦١) يعملون: يعلمون، ي.
(٣٦٢) أسلط: أسلك، م ي.
(٣٦٣) بساحتهم: بحاتهم، م ي. قصص الأنبياء لابن كثير ١/ ٣٢٧.
(٣٦٤) كذا في البداية والنهاية ٢/ ٣٧١، وقصص الأنبياء لابن كثير ٢/ ٣٢٧.

فلما رجع بخت نصر إلى أرض بابل أقبل أرميا على حمار ومعه عصير من عنب وسلة من تين حتى أتى إيليا وهي بيت المقدس، فلما وقف عليها ورأى ما بها من الخراب قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ وعنده حماره وعصيره وتينه، فمات حماره معه، وحجب الله عنه السباع والطيور فلم يره أحد، ثم بعثه الله فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فنظر إلى حماره فاتصل بعضه ببعض، ثم كسي العروق والعصب، ثم كسي اللحم والجلد، فلما استوى وجرى فيه الروح فقام ينهق، فنظر إلى تينه وعصيره فإذا هو على هيئته لم يتغير، فلما عاين ذلك قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ﴾. أو قيل له: ﴿اعْلَمْ﴾[٣٦٥] على القراءتين.

فلبث بخت نصر سبع سنين ثم رأى رؤيا لم يكن بأرض بابل أحد يعبرها، فعبرها دانيال، ثم قال له: إن الله يعذبك بأضعف خلقه قبل الموت، فيقال: إن بعوضة دخلت منخره فوصلت إلى دماغه، فمكث فيه لا تفارقه ليلًا ولا نهارًا، فكان أحسن الناس إليه الذي يضرب رأسه، فما زال كذلك حتى مات.

قال وهب: ودعا الله عزير وقد بلغ أربعين سنة بأرض بابل، فبكى وتضرع ليرده الله إلى بيت المقدس، فبعث إليه ملكًا وقال: إن الله شفعك في قومك ومدينتك تعيدها كما كانت، ويعيد كتابك؛ يعني التوراة، فكان عزير يتضرع إلى الله ويدعو، فاتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه، فلما شربه مثلت التوراة في صدره، ورد الله بني إسرائيل إلى أرض بيت المقدس، وبارك فيهم حتى كثروا وصاروا أحسن حالًا مما كانوا عليه.

قال محمد بن إسحاق: ويقال: إن الله أحيا الموتى الذين قتلوهم فلحقوا بهم، ووضع عزير لبني إسرائيل التوراة بعدما كان حرق النسخ ولم يبق منها أثر، فعرفوها بحلالها وحرامها وشرائعها، وعاش عزير بين أظهرهم زمانًا وبعده قبضه الله تعالى عليه السلام.

---

(٣٦٥) وهي قراءة حمزه والكسائي، يقرأونها (اعلم) بفعل الأمر، على معنى أن الله هو الآمر. انظر تفسير البغوي ١/ ٣٢٢.

فصل في يونس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٣٩].

قال الحسن: كان ليونس اسمان: ذو[٣٦٦] النون، ويونس، نحو: المسيح وعيسى، ومحمد وأحمد.

وقيل: له أسماء: يونس، وذو النون، وصاحب الحوت.

قال وهب: وهو ابن متى، وكان من عباد بني إسرائيل قبل النبوة، ثم بعثه الله بعد إلياس، وكان فيه حدة وضيق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨] لما أمره بالصبر في الأمور، [وقد] أرسله الله تعالى إلى قومه وهو من أهل نينوى؛ وهي بلاد الموصل، عن محمد بن إسحاق، فلما أرسله الله إليهم دعاهم إلى الله وطاعته، فكذبوه وردوا قوله إذ ذهب مغاضبًا، اختلفوا فيه، قيل: لما بلغهم الرسالة كذبوه وردوا عليه وعتوا، فخرج مغاضبًا لهم على ما فعلوا، عن الحسن، وهو الصحيح.

وقيل: لما أرسله الله إليهم بعث إليه ملكًا فقال: إن الله أرسلك إلى قومك وجعل لهم أجلًا أربعين يومًا، فقال يونس للملك: ليس في بني إسرائيل أضعف مني ولا أعلم أشد تجبرًا من هؤلاء، فقال الملك: اذهب وبيِّن الرسالة وما جعل الله لهم من المدة، فقال للملك: هل تقدر أن تستعفيني عن هذا الأمر من ربك، فانطلق الملك وأشفق يونس من أمر الله إن لم يبلغ، وأشفق منهم أن يقتلوه إن بلغ، فأجمع على الهرب، وحدث نفسه بأن يركب البحر ويأتي جزيرة يعبد الله حتى يموت، عن وهب وغيره، وهذا لا يصح على الأنبياء بأن يرسلهم الله فيأبوا، وكيف يصح هذا وقومه طلبوه بعد خروجه.

وقيل: خروج يونس مكيدة لقومه رجاء أن يفزعوا من خروجه ويخافوا العذاب فيؤمنوا، عن الحسن وغيره أن يونس لما خرج أتى الساحل فوجد قومًا يشحنون سفينة لهم، فسألهم أن يحملوه، فعظمت فيه رغبتهم ليركبوا بصحبته[٣٦٧]، قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات:١٤٠]، قال: فركب معهم وملئت السفينة بالمال والناس، وذهب بالسفينة ريح طيبة.

---

(٣٦٦) ذو: ذا، م ي.

(٣٦٧) ليركبوا بصحبته: ليركه صحته، م ي.

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، اختلفوا فيه:

قال أكثر أهل التفسير: إنه غضب على قومه فخرج بغير إذن من الله ولم يكن له ذلك حتى يؤذن له، وهو ظن أن[٣٦٨] لن يطيق، وليس للأنبياء أن يفعلوا شيئًا إلا بإذن الله، وهذا كما فعله رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم في الأسارى يوم بدر لما شاور أصحابه فأشار بعضهم بالقتل وهو عمر وعلي، وأشار بعضهم بالفداء، فأخذ بالفداء، وعاتبه الله على ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ [الأنفال:٦٧]، بل يجب أن يفعل كما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الهجرة بأمر ربه، وكما فعل موسى حين قيل له: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [الشعراء:٥٢].

﴿لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نضيق عليه ولا نعاتبه، عن الحسن وجماعة.

فأما ما يقول بعض المفترين على الله وأنبيائه أنه ذهب مغاضبًا لربه لما لم يهلك قومه فظن أنا لا نقدر على عقوبته، فهذا كفرٌ لا يجوز على الأنبياء، وكفر ممن جوز على الأنبياء مثله. وكيف يظن برسول عرف الله حق معرفته أن يظن أنه لن يقدر على شيء.

وقيل: مغاضبًا للملك فظن أن لن نقدر عليه، وهذا أيضًا لا يصح.

قوله تعالى: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال عمرو بن عبيد عن الحسن: لما ركب السفينة جعلت السفينة تميل هكذا مرة وهكذا مرة، وتحركت تحركًا شديدًا، [وكانت قد جرت] بريح طيبة، فقالوا: ما شأنكم، ففطن يونس بالأمر فقال: إنما أتيتم من قِبلي.

وقيل: لما ركب السفينة وجرت بريح طيبة فإذا حوت عظيم قد اعترض وسكنت الريح واضطربت السفينة، فقال: إنما أتيتم مِنْ قِبلي، لأني أمرت بأمر فخالفت فانبذوني، فقالوا: سبحان الله أنت أكرم على الله من ذلك، فقال: إذًا فاقترعوا، فكل من خرجت قرعته ألقي في البحر، فاقترعوا مرارًا كل مرة تخرج قرعته، عن الحسن، وقيل: اقترعوا مائة مرة، وقيل: كتب أسماؤهم في صحف وقالوا: الله من حبستنا لأجله فغرق اسمه من بين أسمائنا، وألقوا الصحف في الماء، فغرق اسم يونس، ففعل ذلك مائة مرة، فذلك قوله: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١]، فلما رأى يونس ذلك تكفن وألقى نفسه في البحر، ومضت السفينة.

قوله: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢]، فالتقمه قبل أن يصل إلى الماء وأهل

(٣٦٨) أن: إذ، م ي.

السفينة ينظرون إليه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قيل: مسيء[٣٦٩] إلى ربه في صنعه، عن الحسن، وقيل: مذموم بما صنعه عند ربه.

وأوحى الله إلى الحوت: إني لم أجعله رزقًا لك، لكن جعلت بطنك له مسجدًا ومحبسًا، لا تخدشن له جلدًا، ولا تكسرن له عظمًا. وهذا يدل على أنه لم يكن عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يعاقبون إنما ذنوبهم صغائر مكفرة، وإنما يفعل بهم مثل هذه الأشياء ابتلاء ومحنة.

قال: فغار به ثلاثة أيام بثلاث ليال فما تداركته الدعوة إلا وقد خالط تخوم الأرض السفلى، فعندها نادى.

وقيل: ركب في السفينة بساحل صور.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء:٨٧]، قيل: نادى يا رب من الجبال أنزلتني، ومن المسكن أخرجتني، وفي البحر صيرتني، وفي بطن الحوت سجنتني، يا رب فنجني، وقيل: نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

وقيل: الظلمات: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

وفي الآية تنبيه على أشياء:

منها: أن الدعاء بالليل والصلوات بالليل أفضل وأقرب إلى الإجابة كقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المزمل:٦].

ومنها: أن تقدم التوحيد والعدل في الدعاء يسرع الإجابة كما فعل بآدم.

ومنها: أن إضافة الذنب إلى العبد مذهب الأنبياء، وأنه لا يضاف إلى الله تعالى.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أراد حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه، فأخذه ثم هوى به مسكنه في البحر، فلما انتهى إلى أسفل البحر سمع حسًّا[٣٧٠] من دواب البحر، فقال في محبسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه: هذا تسبيح دواب البحر».

(٣٦٩) قيل: مسيء: قبل إسلام، ي. كذا في الدر المنثور ٧/ ١٢٥، وتفسير عبدالرازق ٣/ ١٠١.
(٣٧٠) حسًّا: حيًا، ي. كذا في تفسير الطبري ١٨/ ٥١٨.

وفي الآية أيضًا دليل على أن المبتلى يجب أن يفزع إلى الله كما فعل يونس.

قال: وسبح يونس فسمعت الملائكة فقالوا: يا رب إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال: ذاك عبدي يونس حبسته في بطن الحوت في اليم، فقالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم، فشفعوا له عند ذلك، فعند ذلك أمر الحوت فقذفه في الساحل عند نينوى التي بعث إليهم، فسبحان الله يحبس عبدًا في بطن حوت وقومًا في مفازة كما فعل بقوم موسى، ولكن السجن في رضاه هنيء كما قال يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف:٣٣].

شعر:

وشعري مع المحبوب فردوس جنة	وناري مع المحبوب أنوار مهجتي

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ [الصافات:١٤٥]، قال: فجاء الحوت إلى الموضع الذي التقمه [منه] فنبذه بالعراء، ويقال: إنه لبث في بطن الحوت أربعين يومًا وليلة ما يطعم شيئًا. وأمر الله الحوت فصام تلك الأربعين لم يطعم شيئًا، فسبحانه، وليس هذا بأعجب من إحياء الجنين تسعة أشهر في بطن أمه من غير طعام.

قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٞ﴾ فتمعط شعره من حر بطنه، وذهبت قوته، وتغير لونه[٣٧١]، ونظر إليه الناس فعجبوا من أمره، وكلموه فلم يحب كلامهم، فأوجروه اللبن، فلما رجعت إليه نفسه قال: أنا يونس بن متى، وغشيه النعاس، فلما انتبه أنبت الله عليه شجرة من يقطين، وأجرى[٣٧٢] له من أصلها ماء معينًا، واليقطين شجرة لا ساق لها، وقيل: القرع.

وكان يونس لما أرسل إليهم قال لهم: الأجل أربعون يومًا، فلما مضى خمسة وثلاثون يومًا وخرج يونس فإذا[٣٧٣] غيم أسود يدخن منه دخان أسود، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالعذاب، فبرزوا إلى صعيد لهم بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وعجوا إلى ربهم وتضرعوا، فرحمهم الله واستجاب دعاءهم، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾ [يونس:٩٨].

قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]، قيل: ويزيدون؛ لأن الشك لا يجوز عليه لقوله: ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل:٧٧] يعني هو أقرب.

(٣٧١) لونه: لون، م ي.
(٣٧٢) وأجرى: وأنبط، م ي.
(٣٧٣) فإذا: بداء، م ي.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ينبغي لنبي أن يقول: أنا أفضل من يونس بن متّى»، ومائة ألف هم قومه من أهل نينوى، وقيل: كان هذا بعد رجوع يونس أجلهم أربعين يومًا، فكانوا علموا أنه بين الماء واليقطين.

وقيل: لما آمنوا خرج يونس يسيح في الأرض لا يدري أين يذهب وأين هو.

وقيل: إن حزقيل سأل الله أن يرسل إلى أهل نينوى فيذهب ويدعوهم، فأرسل يونس، فذهب مغاضبًا لحزقيل، وهذا أيضًا لا يصح، والصحيح ما ذكرناه وبالله التوفيق.

وقيل: إن يونس ألف تلك الشجرة، فكان يأوي إليها يومًا فجاء وإذا دابة الأرض أكلت عروقها وقد يبست وغار الماء، ففزع يونس، فأوحى الله إليه أتجزع على شجرة لم تغرسها(٣٧٤) فكيف لا أرحم مائة ألف تابوا وآمنوا، عن ابن عباس وغيره.

وقيل: لما غشي قوم يونس ما غشيهم من العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا له: قد غشينا ما ترى، قال: قولوا: يا حي حين لا حي، يا حي يا محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، قال: فكشف الله عنهم العذاب ومتعوا إلى حين.

وقيل: سبحان من حفظ عشرة في عشرة: يونس في بطن الحوت، ويوسف في الجب، وموسى في اليم، ونوح في السفينة، وإبراهيم في النار، وإسماعيل بواد غير ذي زرع، وبني إسرائيل في البحر، ومحمد في الغار، والمؤمن في النار حين المرور ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم:٧١]، والجنين في البطن.

فصل في زكريا ومريم ويحيى وعيسى عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ اسم السورة، وقيل: الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والعين من عليم، والصاد من صادق.

﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ قال محمد بن إسحاق: كان آخر أنبياء بني إسرائيل زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وكان شعياء بن أصفيا(٣٧٥) من أواخر الأنبياء أيضًا، وهو الذي كان [قد] بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام، فقال لأهل إيليا - وهي قرية بيت المقدس واسمها أوري

(٣٧٤) تغرسها: تعرشها، ي.

(٣٧٥) أصفيا: راموص، م ي. تفسير البغوي ٣/ ١١٣.

شلم -: أبشر أوري شلم، الآن يأتيك راكب الحمار؛ يعني عيسى، ثم يأتيك من بعده راكب البعير؛ يعني محمدًا صلى الله عليهما وسلم.

مبحث في زكريا ومريم عليهما السلام

وكان زكريا وعمران تزوجا أختين يقال لأحديهما: إيشاع[٣٧٦]، وهي عند زكريا، والأخرى: حنّة، وهي عند عمران ابنتا فاقود، فهلك عمران وأم مريم حامل بها وهي جنينة في بطنها، وكانت قد أمسك الله عنها الولد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، فبينا هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخًا له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولدًا، فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها جنينًا جعلته لله نذرًا.[٣٧٧]

قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ يعني خادمًا لبيت المقدس يخدمه فيتعاهده ويعبد الله لا ينتفع بشيء من أمر الدنيا، هذا هو النذيرة المحررة، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ والنذير لم يكن في زمنهم إلا الغلمان.

وقيل: إن زوجها عمران قال لها لما حملت[٣٧٨] قبل أن يموت: أرأيت لو كان في بطنك أنثى وقد نذرت كيف يكون؟ فوقعا في هَمٍّ، وهلك عمران، فلما وضعت قالت: رب إني وضعتها أنثى، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وعلى القراءة الأخرى قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل ولد آدم الشيطان نائل منه تلك[٣٧٩] الطعنة [ولها][٣٨٠] يستهل المولود [صارخًا]،[٣٨١] إلا ما كان من مريم بنت عمران وابنها، فإن أمها حين وضعتها استعاذت بالله وقالت: وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم، فضرب دونها بحجاب فطعن فيه».

---

(٣٧٦) إيشاع: أسياع، م ي. تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤.

(٣٧٧) تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤.

(٣٧٨) حملت: ولدت، م ي.

(٣٧٩) تلك: تلط، ي. المستدرك على الصحيحين للحاكم حديث رقم ٤١٥٨.

(٣٨٠) المستدرك على الصحيحين للحاكم حديث رقم ٤١٥٨.

(٣٨١) المستدرك على الصحيحين للحاكم حديث رقم ٤١٥٨.

قال ابن عباس: ثم أخذتها فلفتها في خرقة فوضعتها في المسجد، فتنافست فيها الأحبار أيهم تكون عنده من يخرج سهمه، فقال لهم زكريا: أنا أحقكم بها، ولكن نقترع عليها بأقلامنا، فتكون عند من يخرج سهمه، فكان زكريا والأحبار في بيت المقدس(٣٨٢) كحجبة الكعبة(٣٨٣)، فأخذوا أقلامهم وكانوا تسعة وعشرين رجلًا، فانطلقوا بها إلى نهر جار، فقالوا: نطرح أقلامنا في النهر، فمن صعد قلمه فهو أحق بها، ومن سفل فهو المقروع، قالوا: نعم، فقرهم زكريا، فأخذها وضمها إليه، فذلك قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال محمد بن إسحاق: ضمها زكريا إلى نفسه بعد هلاك أمها؛ لأن خالتها كانت عندهم أولى بها، وكذا يكون في الإسلام، لأن حق الحضانة إلى الخالة، فلما بلغت أدخلها الكنيسة، وكانت الملائكة تقول لها مقبلة ومدبرة: يا مريم اقنتي لربك يا مريم واسجدي واركعي مع الراكعين، ويسمع ذلك زكريا فيقول: إن لابنة عمران لشأنًا.

ثم أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على حالها حتى ضعف زكريا عن حملها، فخرج إلى بني إسرائيل وقال: إني قد ضعفت عن حمل ابنة عمران، قالوا: نحن والله قد جهدنا وأصابنا ضعف من هذه السنة، فتدافعوا بينهم ولا يرون بدًا من حملها، فتقارعوا بالأقلام، فخرج بينهم رجل نجار يقال له جريج، فعرفت مريم في وجهه شدة [مؤنة ذلك عليه]،(٣٨٤) فقالت له: أحسن الظن بالله، قال: فكان ذلك الرجل يرزق بمكانها فيأتيها كل يوم من كسبه، فإذا أدخله الكنيسة أنماه الله وكثره، فيدخل عليها زكريا فيقول: يا مريم أنى لك هذا، فهذا قوله: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤].(٣٨٥)

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ في السنين والشهور، وأمر لها زكريا محرابًا من محاريب المسجد شرقيًا، فلم تزل هي وأمها في ذلك المحراب حتى فطمتها، ثم تركتها ولحقت بأهلها، ويقال: إنها غذيت بثمار الجنة بعد الفطام يأتيها بها الملائكة فذلك قوله: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ الآية فاكهة الشتاء بالصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فقال زكريا: الذي وهب لمريم هذا قادر أن يهب لي ولدًا ويصلح لي زوجي، فرغب حينئذ في الولد وقال: ﴿فَهَبْ﴾، وهو شيخ كبير.

(٣٨٢) المقدس: المدارس، م ي.
(٣٨٣) حجبة الكعبة: يكتبون في مدارسكم، م ي. مرآة الزمان ٢/ ٢٩٤.
(٣٨٤) تفسير الطبري ٦/ ٣٥٧.
(٣٨٥) تفسير الطبري ٦/ ٣٥٧.

مبحث في البشارة بيحيى ومولده عليه السلام

قال وهب: وكان زكريا قد بلغ أربعين سنة ومائة عام، فهنالك دعا زكريا ربه وشكى إليه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ إلى قوله: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ ألا يكون لي ولد يقوم بأمر الدين فيتغير هؤلاء القوم ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيمًا من الولد، و﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وكانوا أخوال يحيى وإنما هو ميراث الدين والعلم لا المال، ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾، وبعث الله الملائكة يبشرونه بالولد وهو قائم يصلي إذ هو برجل عليه ثياب بيض؛ وهو جبريل أتاه فبشره بالولد كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران:٣٩] بشارة بالولد وأنه يحيى، وهو بشارتان [لا] بشارة.

شعر:

وسميته يحيى ليحيى فلم يكن إلى ردِّ أمرِ الله فيه سبيلُ
تفاءلت فيه الخيرَ لما دريتُه ولم أدرِ أن الفأل فيه يفيلُ[٣٨٦]

فالله بشره[٣٨٧] بالولد، وأنه يحيى، وأنه يكون رضيًا، ليكون السرور أكثر، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا أدري أي النعمتين أكثر: فتح خيبر، أم قدوم جعفر».

شعر:

لا تقل بشرى ولكن بشريان عزةُ الداعي ويومُ المهرجان

﴿بِكَلِمَةٍ﴾ قيل: مكونًا بكلمة، وقيل: مصدقًا بالكتب ﴿وَسَيِّدًا﴾ حليما ﴿وَحَصُورًا﴾ لا يأتي النساء ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

عن سعيد بن المسيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا».

فقال زكريا لجبريل: يا سيدي، وقيل: قال: يا رب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ تسع وتسعون سنة، وقيل: مائة وأربعون سنة، عن وهب. وامرأتي عاقرا بنت ثماني وتسعين سنة، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ

---

(٣٨٦) يفيل: ثقيل، ي. كذا في الصناعتين ٣٢٨.

(٣٨٧) بشره: يبشره، ي.

مَا يَشَآءُ﴾، ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ علامة أعرف بها أن امرأتي حملت، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ إشارة بالشفتين والحاجبين والعينين من غير خرس(٣٨٨).

قال وهب: فأمره الله تعالى أن يعتكف ثلاث ليال وأيامهن ويصوم ولا يكلم أحدًا إلا بالرمز بالتسبيح، فلما انقضت تلك الأيام حملت به أمه، وسماه الله يحيى في بطن أمه، فلما حملت به ومضى من حملها ثلاثة أشهر حملت مريم بعيسى، وكانا في عصر واحد، فلما ولد وكبر قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ﴾ النبوة والفقه ﴿وَحَنَانٗا﴾ رحمة وزكيًا طاهرًا، ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ لطيفًا لا يعصي أبيهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا﴾ قتالًا على الغضب ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾، وكان يحيا خائفًا راغبًا فيما عند الله، زاهدًا في الدنيا.

مبحث في يحيى عليه السلام وزهده

قد روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا ذنب له.

وعن الحسن في حديث طويل أن يحيى دخل بيت المقدس فرأى المجتهدين والقسيسين والرهبان قد لبسوا الشعر والصوف، ورأى ما هم فيه، أتى أمه قال: انسجي لي مدرعة من شعر وبرنسا من صوف، ففعلت، فتدرعها(٣٨٩) ولبس البُرْنُس(٣٩٠) ودخل المسجد يتعبد فيه مع المجتهدين، فنزع ذات يوم مدرعته فنظر إلى ما نحل من جسمه فبكى، فأوحى الله إليه: يا يحيى أتبكي ما نحل من جسمك، فوعزتي وجلالي لو اطلعت على أهل النار لتدرعت الحديد ولبكيت الصديد فضلًا عن الدموع. فلم يزل يبكي حتى أكل الدموع لحم خديه، وبدت أنيابه، فقال زكريا يومًا: يا يحيى ما هذا البكاء، إنما سألت ربي أن يهبك لي قرة عين، قال: ألست أنت القائل: إن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار عقبة لا يجاوزها إلا البكاؤون من خشية الله؟ قال: بلى يا بني.

وكان زكريا إذا جلس يعظ بني إسرائيل يلتفت يمينًا وشمالًا يطلب يحيى، ففعل ذلك مرة

---

(٣٨٨) خرس: حرس، م ي. تفسير الطبري ١٨/ ١٥٢.

(٣٨٩) فتدرعها: فتدر عبها، ي.

(٣٩٠) البُرْنُس: البرنوس، م ي.

ويحيى قد لف رأسه في مدرعته وجلس في غمار الناس، فقال زكريا: حدثني جبريل أن في النار جبلًا يقال له سكران[٣٩١] بأصله واد يقال له غضبان يغضب لغضب الرحمن، في ذلك الوادي حيات من نار طول كل حية مسيرة مائة، في تلك الحيات توابيت من نار، في التوابيت أصفاد من نار، في تلك الأصفاد ثياب من نار وسلاسل من نار وقيود من نار، وأغلال من نار، فقام يحيى وهام على وجهه ينادي بأعلى صوته: واغوثاه من غضبان لغضب الرحمن، وقام زكريا إلى أم يحيى فقال: الحقي بيحيى وما أراك تلحقينه حتى تفارقي الدنيا، فخرجت واتبعتها نسوة من بني إسرائيل، فرأت إنسانًا فقالت: هل رأيت شابًا كذا وكذا، فقال: عسى أنك[٣٩٢] تطلبين يحيى؟ قالت: نعم، قال: تركته الساعة على عقبة كذا رافعًا يده وهو يقول: لا شربت بارد الشراب، ولا أكلت طيب الطعام حتى أعلم منزلي في الجنة أم في النار، فأقبلت تناشده الله تأكل هذه القرصة من الشعير بحق ما حملتك في بطني وأرضعتك بثديي لتقوى على طاعة ربك، فقال: يا أمه أتأمرونني بأكل الطعام وملك الموت في طلبي، يا أمه أتأمرونني[٣٩٣] بالقرصة وأنا أخاف أن يكون مصيري إلى النار، فرجعت به إلى المنزل، فقال زكريا: يا يحيى لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تنزع[٣٩٤] هذه المدرعة وتلبس جبة من صوف فإنها ألين على جسدك من الشعر، ففعل، واتخذت أمه مرقة من عدس فأكل، فلما شبع ووجد لين الجبة ذهب به النوم، فقام وهو يقول: ستوردونني المهالك، فقال زكريا: دعوا ابني يعمل ما يشاء لنفسه لعله ينجو من النار.

فلما اشتدت به عبادته ورضي به أبواه أوحى الله إلى زكريا أني قد حرمتكم جميعًا على النار، فسكنوا واطمأنوا إلا أنهم ازدادوا عبادة واجتهادًا، وشكرا لله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قيل له في اجتهاده وقد غفر له: «ألا أكون عبدًا شكورا؟»، وكذلك كان آل زكريا كما قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وكانا يأمران بالمعروف، وينهيان عن المنكر حتى قتلا بسبب ذلك.

مبحث في مقتل زكريا ويحيى عليهما السلام

محمد بن إسحاق: أن بني إسرائيل غدوا على زكريا ليقتلوه، فهرب منهم، فمر بشجرة

(٣٩١) سكران: سكتان، م ي. كتاب كشف الستار ٢/ ٧١.
(٣٩٢) أنك: أن، م ي.
(٣٩٣) أتأمرونني: أتأمريني، ي.
(٣٩٤) تنزع: تنزه، م ي.

فانقلعت له، فدخل فيها فانضمت، فدلهم بعضهم، وقيل: إبليس دلهم عليها، فوضعوا المنشار على وسط الشجرة حتى قطعوه من وسطه في جوفها.

وعن ابن الزبير قال: ما قتل يحيى إلا بأمر بغي من بغايا بني إسرائيل، وقال: كان فيهم ملك [فهمّت ابنة][٣٩٥] الملك بأبيها[٣٩٦]، وقالت: لو تزوجني أبي لاجتمع لي سلطانه دون النساء، فدعته إلى نفسها فقال: يا بنية إن يحيى بن زكريا لا يحل لنا هذا، فقالت: من لي بيحيى ضيق علي أمري، وحال بيني وبين أبي، قال: فأمرت بالحُجّاب فقالت: ادخلوا عليه والعبوا بين يديه حتى إذا فرغتم منه فإنه سيحكُمكم، فإذا حكمكم فقولوا: دم يحيى، فدخلوا ولعبوا بين يديه، فلما كثر عجبه قال: سلوني، وكان الملك فيهم إذا حدث فكذب أو وعد فأخلف استبدل به وخلع، فقالوا[٣٩٧]: دم يحيى، فقال: سلوني ويحكم غير هذا، فقالوا: لا نسألك غيره، فخاف على ملكه إن هو أخلفهم، فبعث إلى يحيى وهو في محرابه، فذبحوه في طست[٣٩٨] وحمل إلى الملك ورأسه يقول: لا يحل لا يحل، فقال بعضهم للملك: هب لي هذا الدم، فقال: أي شيء تصنع به، قال: أطهر منه الأرض فإنه ضيق علينا، قال: أعطوه، فأدخله بيتًا وأقفل الباب، ففار الدم فخرج من تحت الباب فأخرجه إلى فلاة، فجعل يفور حتى قتل على ذلك سبعون ألفًا ثم[٣٩٩] سكن.

قال محمد بن إسحاق: فلما قتل يحيى ورفع عيسى ابن مريم عليهم السلام قصد حردوس[٤٠٠] وهو ملك بيت المقدس وهي الوقعة الأخيرة، فخرب بيت المقدس وسبى، وقيل غير ذلك على ما بينا، والله أعلم.

مبحث في عيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ الآيات، انتبذت: اعتزلت[٤٠١].

---

(٣٩٥) تفسير الطبري ١٧/ ٢٨٤.

(٣٩٦) بأبيها: يأتيها، ي.

(٣٩٧) فقالوا: فقال، م ي.

(٣٩٨) طست: طشت، م ي.

(٣٩٩) ثم: سم، م ي.

(٤٠٠) كذا في تفسير البيضاوي ٣/ ٢٤٩، والفواتح الإلهية ١/ ٤٤٧، والبحر المديد ٣/ ١٨٤.

(٤٠١) اعتزلت: اعتزل، م ي.

قال ابن عباس: لما بلغت مريم مبلغ النساء وحاضت وكانت إذا حاضت خرجت من المسجد وكانت عند خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما اتخذت بينها وبين أهلها ستر التطهر من الحيض كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ في صورة آدمي شاب، فدنا منها فقالت مريم: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ مطيعًا له ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ صالحًا زاهدًا ﴿قَالَتۡ﴾ تعجبًا لجبريل ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ لم يقربني زوج ولم أكن فاجرة، ﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ يسيرٌ خَلْق ولد من غير أب كقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران:٥٩] كون من غير أب، ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ كائنًا لا محالة، فاطمأنت مريم إلى قوله، فدنا منها يمد جيبها بأصبعه، ثم نفخ في جنبها فوصلت النفخة إلى بطنها، فحملت بعيسى، فأدركها الضعف وتغير لونها، فاشتد حزنها لما أصابها، فلما اشتد عليها الحزن أرسل الله الملائكة بالبشرى، فبشروها في المحراب وسلموا وقالوا: يا مريم إن الله اصطفاك، يا مريم إن الله يبشرك بكلمة وحيها في الدنيا عزيزًا إذا أنزل من السماء، وفي الآخرة عزيزًا يكون على ساقه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فطابت نفسها واطمأنت.

قال وهب: وكان في الحجرة معها خال لها يقال له يوسف النجار، وكان يخدمها من وراء الحجاب، فكان أول الناس عثورًا على حملها، فأصابه من ذلك حزن شديد فعرضها وقال: يا مريم هل يكون الزرع بغير بذر؟ قالت: نعم إن الله خلق الزرع الأول بغير(٤٠٢) بذر، والبذر الأول بغير زرع، فقال: هل ينبت الشجر من غير ماء ومطر؟ قالت: خالق الشجر والماء قادر على ما يشاء، فقال: فهل يكون ولد من غير ذكر ولا أنثى؟ قالت: نعم، قال: فأخبريني بخبرك، قالت: بشرني ربي بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، ومثله ﴿عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية.

فلما ثقل حملها أوحى الله إليها: أن ابرزي من المحراب فتبوئي منزلًا تلدين فيه، فتحولت مريم إلى بيت أم يحيى وهي خالتها، فقامت تستقبلها، فعرفه يحيى وهو النذير(٤٠٣) بعيسى فخر ساجدًا وسلم عليه وخرجت إلى [مكان] قصي من الناس.

---

(٤٠٢) بغير: بعير، ي.

(٤٠٣) النذير: النظير، م ي.

وقيل: إن يوسف النجار حملها على حماره فخرجا في سواد الليل.

قال محمد بن إسحاق: فبلغا قرية من إيليا على ستة أميال يقال لها: تخم، فنزلا بها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي بعيدًا.

مطلب في مولد عيسى عليه السلام

قال: ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ يعني تنحت بولادته مكانًا بعيدًا من الناس، ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ اضطرها الطلق ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ وكانت نخلة يابسة منذ سنين، فلما اشتد عليها الطلق ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ قيل: ملقى، وقيل: متروكًا لا يذكر، وكان ميلاد عيسى في الشتاء، فاشتد عليها البرد، فعمد يوسف النجار إلى حطبٍ فجعله حولها وأشعل فيه النار، فأصابها الحر من كل جانب حتى دفيت، وكسر لها سبع جوزات وجدها في خُرْجِه[٤٠٤] فأطعمها، فمن ذلك توقد النصارى ليلة الميلاد وتلعب بالجوز، فولدت عيسى وهي حزينة تبكي على حالها، فأوحى الله إلى عيسى أن عظها، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ يعني عيسى، وقيل: جبريل ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ بولادتك وأمرك بهذا الحديث ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ نهرًا صغيرًا ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾، ﴿فَكُلِي﴾ الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ الماء، ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ بهذا المولود ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ﴾ أشيري بيدك ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ عن الكلام ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

قال وهب: لما ولد عيسى أصبحت الأصنام كلها منكوسة، وفزع إبليس وطاف في أطراف الدنيا لينظر هل حدث أمر، فلما بلغ موضع مولده إذ الملائكة حافون به يحرسونه، فخرج على صورة شيخ، فجعل يقف على خيار بني إسرائيل ويجوز أن يكون شيخًا ليس بإبليس، فوقف على خيارهم وسفهائهم ويقول: ألا إن مريم ولدت ولدًا بالحرام، فخرج الناس في طلبها.

مطلب في حديث مريم مع قومها

قال تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا، يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قيل: كان لها أخ من أبيها يقال له هارون دون أمها، وقيل: كان هارون رجلًا صالحًا، وقيل:

(٤٠٤) خُرْجِه: حرجة، ي.

كان فاجرًا، وقيل: ياشبيهة[٤٠٥] هارون بن عمران أخي موسى في الصلاح ما كان أبوك زانيًا ولا أمك بغية، فكيف هذا؟ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أن كلموه ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ﴾ عيسى ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ردا على النصارى ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ردًا على اليهود ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ في البر والبحر إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ فتكلم بهذا ثم سكت فلم يتكلم حتى كان قدر ما يتكلم الصبيان، فانصرفوا عنه.

قال وهب: ولم تزل مريم في مكانها حتى قدم عليها وفد من عظماء المجوس فقالوا: إنا منجمون، لما ولد ابنك اطلع لمولده نجم من نجوم الملك، فنظرنا فيه فإذا ملكه ملك نبوة يرفع إلى السماء إلى الجنة، ثم وجدنا النجم مصلا عليه من فوقه فبذلك عرفنا موضعه، وانصرفوا. وبالشام يومئذ ملك يقال له هيرودس لما سمع بعيسى وعجائبه هم بقتله، فأوحى الله إلى مريم أن الحقي بمصر، فحملها يوسف النجار على حماره حتى أوردها أرض مصر، ونزلت دار دهقان بمصر، وحملته في المهد أربع سنين، وذبح بسبب عيسى خمسة آلاف صبي، وكان دار هذا الدهقان مأوى المساكين، فبلغ عيسى ثم عشر سنين، فسرقت أمتعته من دار الدهقان، فقال عيسى: ألا أدلكم على من سرقه؟ قالوا: بلى، قال: أعمى ومقعد حمل الأعمى المقعد حتى أخذ المتاع، فقالا: صدقت، فكان ذلك من عجائبه.

فلما بلغ ست عشرة سنة مات هيرودس[٤٠٦] بالشام وأمرهما الله تعالى بالرجوع إلى الشام، فانصرف يوسف النجار بها وبعيسى إلى الشام، ونزلوا قرية يقال لها ناصرة بها سميت النصارى، فلم يزل بها حتى بلغ ثلاثين سنة، فأوحى الله إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى الله، فقال: إني رسول الله إليكم، فكذبوه وقالوا: ما آية نبوتك، قال: أني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائرًا، وأبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى، كل ذلك بإذن الله وأمره، قالوا: فأرنا ذلك، فخلق لهم خفاشًا من الطين، وأتي بأعمى لم يبصر الضوء قط فمسح عليه فأبصر، وأتي بأبرص فمسح عليه فبرئ، وأحيا لهم أربعة: عازر وابنه العاشر[٤٠٧]، وابن العجوز، وسام بن نوح، فخرج سام أبيض الرأس واللحية، فقال له عيسى: هكذا مت؟ قال: لا، ولكن لما سمعت نداك تخوفت القيامة فشمعلت، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين.

---

(٤٠٥) ياشبيهة: تأسية، م ي. تفسير الطبري ١٨/ ١٨٦.

(٤٠٦) هيرودس: هرادوس، مي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤/ ٤٣٦.

(٤٠٧) العاشر: العايش، م ي. تفسير البغوي ٢/ ٤٠.

مطلب في الحواريين ونزول المائدة

قال: ومر عيسى بقوم يصيدون السمك من البحر بالشبكة فقال: إنكم تطلبون المعيشة بهذه الشبكة، لو طلبتم الجنة التي لا زوال لها لكان أولى فاتبعوني أهدكم، فلم يزل بهم حتى آمنوا.

ثم مر بقوم قصارين فقال: إنكم تغسلون الثياب فهلا غسلتم القلوب، وما زال بهم حتى آمنوا، ومنهم الحواريون من كلتا القريتين.

وكان عيسى سيارًا في الأرض والناس يتبعونه بين مستشف به وناظر، وكان يحمل بهم الريف، فمر مرة بقفر من الأرض فجاعوا، فقالوا: يا عيسى بن مريم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ [المائدة:١١٢]، قال عيسى: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة، قال الله: إني منزلها، فقال عيسى للقوم: من كفر بعد ذلك منكم يعذبه الله عذابًا أليمًا، فقالوا: قبلنا.

قال وهب: فأنزل الله المائدة مكتلا فيه ثلاث سمكات[٤٠٨] وثلاثة أرغفة [والملائكة تحمله] حتى وضعوه بين يدي عيسى والناس ينظرون إليه، فأكلوا، فشبع منهم ألف إنسان.

قال الكلبي: لم تنزل المائدة ولكن دعا عيسى شمعون وقال: هل معك من طعام، فقال: بلى، فجاء بسمكتين صغيرتين وأرغفة، فدعا عيسى حتى أكل منها خمسة آلاف نفس، وهذا غير صحيح؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١١٥].[٤٠٩]

وعن الحسن: ما أنزلت المائدة، لأنهم خافوا العذاب فاستعفوا، ثم ساروا وحكوا نزول المائدة فقيل لهم: أنتم سُحرتم على أعينكم، فمنهم من ثبت على إيمانه، ومنهم من كفر، فلعنهم عيسى فأصبحوا خنازير، ثم هلكوا ولم يتوالدوا.

قال وهب: خرج عيسى ومعه صاحبٌ له فجاعا، فبعثه إلى قرية فاشترى ثلاثة أرغفة، وجاء وعيسى يصلي، فأكل واحدًا، فلما فرغ قال: أين الرغيف الثالث؟ قال: ما كان إلا اثنان، فأكلا وانطلقا، فلقيا أعمى فدعا الله فصار بصيرًا، فقال لصاحبه بالذي أراك الأعمى بصيرًا من صاحب الرغيف؟ قال: ما جئت إلا برغيفين، ثم مر بمقعد فدعا الله فبرئ، فقال له: بالذي أراك هذا من صاحب الرغيف؟ قال: ما جئت إلا برغيفين، فانطلقا حتى أتيا إلى ظباء، فدعا عيسى بواحد فذبحه وأكلا، ثم دعا عيسى وقال: قم بإذن الله، فعدا الظبي، فقال الرجل: سبحان الله،

(٤٠٨) سمكات: سمكان، ي.

(٤٠٩) تفسير الثعلبي ٤/ ١٢٨.

فقال عيسى: بالذي أراك هذا من صاحب الرغيف؟ قال: ما جئت إلا باثنين، ثم بلغا مفرق الطريقين فقال عيسى: خذ أي الطريقين شئت، فأخذ واحدًا، فنادى عيسى فرجع، فانتهى إلى قرية خربة فإذا بثلاث لبنات ذهب، فقال عيسى: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف، فقال صاحبه: أنا أكلته وأنت تصلي، فقال عيسى: هي لك، وانطلق عيسى، فلم يستطع الرجل حمل واحدة، فبينا هو عندها إذ مر به ثلاثة نفر، فلما نظروا إليه وما عنده قتلوه، وقال اثنان لواحد: انطلق إلى بعض هذه القرى فجئنا بطعام، فلما ذهب قال أحدهما إذا جاء قتلناه وقسمناه بيننا، وقال الذاهب: أجعل في الطعام سمًا ليموتا ويصير المال لي، ففعلوا وماتوا، ومر بهم عيسى وهم حولها مصروعين فقال: هكذا تصنع الدنيا بأهلها.

شعر:

مذمومـةٌ بالهـمِّ مخطومـةٌ[٤١٠] سـمٌّ[٤١١] زعـاف دَرُّ أخلافِهـا
ولـم تـزلْ تَقتـلُ ألاّفهـا[٤١٢] أفٍ لقتالَـةِ ألافِهـا

مطلب في رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، قيل: رافعك ثم متوفيك لا بد، وقيل: متوفيك ثم راجعك ومحييك.

قالوا: ولبث عيسى في قومه ثلاث سنين، فمر على قوم يهود فقالوا: جاء الساحر ابن الساحرة، الفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه وأمه، فسمع فقال: اللهم العن من سَبَّني وسَبَّ أمي، فمسخ الرهط خنازير، ففزعت اليهود فأجمعوا على قتله، فبعث الله جبريل ليمنعه منهم، فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧]، اجتمعت اليهود حوله وجعلوا يسألونه فقال: يا معشر اليهود إن الله يبغضكم، فغضبوا من ذلك وبادروا له ليقتلوه، فأدخله جبريل خوخة لها رَوْزَنَة[٤١٣] من فوقها، ثم رفعه إلى السماء، فأرسل رأس اليهود واسمه يهودا رجلًا من أصحابه ليدخل عليه الخوخة ويقتله، فأبطأ عليهم ولم ير أحدًا، فظنوا أنه يقاتله، وألقى الله

---

(٤١٠) بالهم مخطومة: بالغي محطومة، م ي. الوافي بالوفيات ٩/ ٢٤٠.

(٤١١) سمٌّ: سمو، ي. الوافي بالوفيات ٩/ ٢٤٠.

(٤١٢) ألافها: إلفالها، م ي. الوافي بالوفيات ٩/ ٢٤٠.

(٤١٣) رَوْزَنَة: رورقة، م ي. تفسير البغوي ٢/ ٤٤.

على صاحبهم شبه عيسى، فلما خرج إلى أصحابه قتلوه وهم يظنون أنه عيسى، وصلبوه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، وكان اسم الرجل ططيانوس، فقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن ططيانوس، فأين عيسى؟ واختلفوا فيه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النساء:١٥٧]، وينزل عند قرب الساعة ثم يموت. واستخلف عليهم شمعون وأمرهم أن يبلغوا الناس عنه ما أمره الله به.

مطلب في حديث حبيب النجار وأنطاكية

قال: وكان الحواريون يدعون الناس، وكان رأسهم شمعون، فآمن بهم جماعة، وممن آمن حبيب النجار من أهل أنطاكية، قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أهل مكة ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أصحاب عيسى ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعني أصابنا القحط من شؤمكم إلى قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهو حبيب، كان في غار يعبد الله، فوعظهم فقالوا: أخرجت من ديننا وتبعت دين عدونا، فضربوه ووطئوه حتى خرجت قصبة من دبره، فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٢٦].

قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ جبريل أخذ بعضادتي الباب ثم صاح بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميتون.

مطلب في اختلاف النصارى

قال: وكان سبب اختلاف النصارى بعد عيسى والحواريين أنهم لما اختلفوا جمع منهم مائة عالم، وقيل: تشاوروا في أمر عيسى فإنكم قد اختلفتم، فقاموا[٤١٤] واختلفوا، فقالوا: هذا [عدد] كبير، فلم يزل ينقص عشرة عشرة حتى بقي ثلاثة نفر: نسطور، ومار[٤١٥] يعقوب، وقسيس، فتشاوروا، فقال يعقوب لهما: ألم تعلما أن عيسى كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، وينبئكم بما تأكلون، ويخلق من الطين كهيئة الطير.. الآية، قالا: بلى، قال: ما نعلم يقدر على هذا إلا الله، فهو الله، فقالا له: كفرنا بما قلت، ثم قال نسطور: قد كان كما وصفت ولكن هو ابن مريم ولا تنكران ذلك، قالا: صدقت، قال: فهو ابن الله، قال قسيسا: كفرت بما

(٤١٤) فقاموا: فقالوا، م ي.

(٤١٥) ومار: ورام، م ي. تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٧.

قلتما، كان يصنع ذلك بإذن الله فهو ابن مريم، وروح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ليجعلها آية للناس، فهو عبد الله ورسوله، فخرجوا إلى الناس، فتبع كل واحد فرقة، فكانت اليعقوبية على دين الملك، وكانت[٤١٦] النسطورية من زعمت[٤١٧] أن عيسى ابن الله، وكانت القسيسة أهل حق واستقامة، عن محمد بن إسحاق.

فصل في حديث ذي القرنين سلام الله عليه

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٨٣]، وقد اختلفوا في ذي القرنين، قيل: كان نبيًّا، وقيل: لم يكن نبيًا وكان عبدًا صالحًا.

واختلفوا في اسمه، قيل: الإسكندر، وقيل: ذو القرنين غيره والله أعلم، وقيل: اسم أبيه فيلفوس[٤١٨]، وقيل: فيلبوس[٤١٩].

وقال محمد بن إسحاق: كان عبدًا صالحًا، أوتي ما لم يؤت غيره، مدت له الأسباب، وأعطي السلطان حتى انتهى إلى مشارق الأرض ومغاربها، فلا يطأ أرضًا إلا سلطه الله على أهلها، وكان رجلا[٤٢٠] من مصر واسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح.

وعن خالد بن معدان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن ذي القرنين فقال: «مَلِكٌ مَسَحَ الأرض بالأسباب كلها».

عن محمد بن إسحاق: وقيل: إنه كان من الروم واسمه الإسكندر[٤٢١] ابن عجوز لا ولد لها غيره.

عن وهب قال: وأرسله الله إلى الخلق، وقيل: كان معه عبد صالح وهو الذي دعاه إلى أن صار من الصالحين، والله أعلم.

---

(٤١٦) كان: كانت، م ي.

(٤١٧) زعم: زعمت، م ي.

(٤١٨) أبيه فيلفوس: أبيخ قيلاسون، م ي. تفسير البغوي ٣/ ٢١٢، والخازن ٣/ ١٧٥، والبحر المحيط ٧/ ٢٢٠.

(٤١٩) فيلبوس: قيلانوس، م ي. تفسير الرازي ٢١/ ٤٩٣، واللباب ١٢/ ٥٥٣.

(٤٢٠) رجٌ: رجلا، م ي. تفسير القرطبي ١١/ ٤٥.

(٤٢١) الإسكندر: الإسكندروس، م ي. التفسير منها الطبري ١٨/ ١٠٥.

فأول ما قصد من الأرضين المغرب، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف:٨٦]، وقيل: إنه سأل الله أن يظفره على أهل الأرض فأجابه، وقيل: سأل ذلك العبد الصالح أن يدعو بذلك فدعا، والله أعلم.

وسمي ذا القرنين، قيل: لأنه رأى في المنام كأنه دنا من الشمس فأخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فلما قص رؤياه على قومه سموه ذا القرنين، وقيل: لأنه بلغ قرني الدنيا، وقيل: لأنه كان له قرنان من ذهب كقرني الظبية، وقيل: كان صفحتا رأسه من نحاس فسمي بذلك، ذكره محمد بن إسحاق، وقيل: كان ذو القرنين قبل عيسى، وقيل: كان بعده، والأول أصح، والله أعلم.(٤٢٢)

وقد اختلفوا في سرد حديثه اختلافًا كثيرًا نقتصر من ذلك على ما قصه الله في كتابه، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف:٨٣]، قيل: اليهود قالوا: سلوا محمدًا عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف والروح، فإن أجابكم عن الجميع فليس بنبي، وإن أجابكم عنها غير الروح فهو نبي، فسألوه، فأنزل الله تعالى في القصتين وقال في الروح: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء:٨٥].

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يغلب كل من قاتله ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ علمًا في الطريق واللغات ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، وقيل: إنه قصد دار ملك الفرس أولًا فقتله وأحرق بيوت النيران وقتل الرجال، ثم قصد ملك الهند ففعل به مثل ذلك، ثم ذكر الموت فخافه، وتذكر عين الحياة(٤٢٣) وأنها في الظلمة فقصدها.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ حارة، وحمئة: منتنة، قال ابن عباس: طينة سوداء منتنة، ووجد عندها قوما مؤمنين وكافرين، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يدل على أنه كان نبيا، ويجوز أن يكون إلهامًا، ويجوز أن يكون على لسان بعض الرسل ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا، قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ شديدًا، وقيل: هم أهل الإفرنجة، ثم سار من عندهم حتى دخل الظلمة، فسار فيها يومًا وليلة، وقيل: سبب دخول الظلمة طلب ماء الحياة على ما تقدم، وكانوا ركبوا الرمكات وخلفوا أمهارها، فلما سار يومًا وليلة لم يدر

(٤٢٢) الكشاف ٢/ ٧٤٣.

(٤٢٣) الحياة: الحيوان، م ي. تفسير البغوي ٣/ ٢١١.

إلى أي موضع يتوجه وهم يسيرون على رضاض من الحجارة، فقال الإسكندر: خذوا من هذه الحجارة ما استطعتم، فأخذوا في مخالي الدواب وانصرفوا، وأسرعت الرمكة[٤٢٤] إلى مهرها، فلما خرجوا إذا هي زمرد أخضر، ويحكى في خروجه إلى جانب المغرب عجائب كثيرة، الله أعلم بالصحيح منها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ طريقًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ وجد قومًا ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ جبالًا ولا [لباسا] حفاة عراة، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ من جانب الشمال ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ من ولد يافث بن نوح لا يموت الرجل منهم حتى يولد لصلبه ألف ذكر، ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ طريق بين الجبلين ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهل يمكنك ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ إلى قوله: ﴿قِطْرًا﴾، ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ قطعا يخرج منها يأجوج ومأجوج لا يمرون على شيء إلا أكلوه وأفنوه حتى البحر، ويفر منهم الناس، فيرسل الله عليهم دودًا فتهلكهم، ويرسل مطرًا فيذهب بالجيف.

فلما فرغ من السد دخل الظلمة ثانيًا ثم كر راجعًا إلى وطنه فمات في بعض الطريق.

ومن حكايات الإسكندر أنه مر بقوم صالحين، قبورهم على أبوابهم، وليس على بيوتهم أبواب ولا بينهم أمير ولا قاض ولا غني ولا فقير، ولا يتفاضلون[٤٢٥] ولا يَفْحَطُون، فعجب منهم فقال: أخبروني بخبركم فما رأيت مثلكم، ما بال قبوركم على أبواب بيوتكم؟

قالوا: عمدًا فعلنا كيلا ننسى الموت.

قال: فما بال بيوتكم ليس لها أبواب؟

قالوا: ليس فينا إلا أمين مؤتمن.

قال: فما بالكم ليس عليكم أمير ولا قاضٍ؟

قالوا: لا نتظالم.

قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟

قالوا: لا نتكاثر.

قال: فما بالكم لا تتفاضلون؟

---

(٤٢٤) الرمكة: الرملة، م ي.

(٤٢٥) يتفاضلون: يتفاظلون، ي. انظر تفسير الطبري ١٨/ ١٠٨.

قالوا: مِنْ قِبل أنا متواصلون متراحمون.

قال: فما بالكم لا تتنازعون؟

قالوا: مِنْ قِبل أُلفة[٤٢٦] قلوبنا.

قال: فما بالكم ليس بينكم فقير؟

قالوا: من قبل أنا نقسم بالسوية.

قال: فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ؟

قالوا: من قبل الذل والتواضع.

قال: فما بالكم أطول الناس أعمارًا؟

قالوا: نتعاطى الحق ونحكم بالعدل.

قال: فما بالكم لا تقحطون؟

قالوا: لا نغفل الاستغفار.

قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات؟

قالوا: لا نتوكل على غير الله، ولا نعمل بالأنواء والنجوم.

فقال: هل وجدتم آباءكم هكذا؟

قالوا: نعم.

قال: لو كنت مقيمًا لأقمت معكم.

والحكايات والعجائب في قصته كثيرة وليس هذا موضعه.

فصل في أصحاب الكهف

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف:٩]، قيل: كان أمر أصحاب الكهف قبل عيسى، وقيل: كان بعد عيسى لما مرج أمر النصارى، والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق: ثم مرج أمر[٤٢٧] أهل الإنجيل وعظمت[٤٢٨] فيهم الخطايا، وطغت

(٤٢٦) أُلفة: الله، م ي. الدر المنثور ٥/ ٤٤٣.

(٤٢٧) تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٦، وتفسير الخازن ٣/ ١٥٣.

(٤٢٨) عظمت: عظفت، م ي. تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٦، وتفسير الخازن ٣/ ١٥٣.

فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام، وفيهم مع ذلك بقايا على أمر عيسى بن مريم متمسكون بعبادة الله وتوحيده حتى كان زمان ملك يفعل تلك الأفاعيل يسمى دقيانوس، وكان يعبد الأصنام، ويذبح للطواغيت، ويقتل من خالفه على ذلك ممن كان على دين عيسى، وكان ينزل قرى الروم فلا يترك في قرية أحدًا ممن يدين بدين عيسى إلا قتله أو فتنه حتى يعبد الأصنام ويدين بدينه، فنزل قرية الفتية.

وقيل: كان [قد] اتخذ صنمًا مثل الفيل وسماه أرطميس، وأمر بالسجود له، وتسمى قرية الفتية أفسوس. وقيل: كان دقيانوس منها، وقيل: من غيرها، فنزلها، فلما رأى أهل الإيمان فيها ما يفعله كبر ذلك عليهم وهربوا واستخْفوا، فأمر أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا له، واتخذ شُرَطًا من الكفار، فكانوا يأتون بأهل الإيمان إليه، فكان يخيرهم بين القتل وعبادة الأوثان، فمنهم من يرغب في الحياة فيفتتن، ومنهم من يأبى إلا الدين فيقتل، فلما رأوا [من] أهل الضلالة ذلك جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب فيقتلون ويقطعون، ثم تعلق أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلها، وعلى كل باب من أبوابها، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فمنهم من صلب، ومنهم من قتل، ومنهم من افتتن، وكذلك ينبغي للمؤمن أن يصبر على كل شر ولا يغير دينه.

روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بآل عمار وهم يعذبون ويقولون: أحد أحد، فقال: «أبشروا آل عمار بالجنة»، ومر أبو بكر ببلال وهو يعذب فاشتراه فأعتقه ولهذا قال عمر لأبي بكر: سيدنا أعتق سيدنا.

فأما إن كفر وعرَّض فيجوز إن لم يخطر بباله شيء، فإن ما أكره عليه لا يؤاخذ به كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، والدرجة العظيمة أن يصبر ولا يغير الدين.

عادت القصة: قوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ قيل: اللوح، وقيل: دراهمهم، وقيل: القرية التي خرجوا منها، وقيل: الكهف الذي كانوا فيه.

فلما نزل دقيانوس بهذه المدينة وفعل بأهلها هذه الأفاعيل حزن أهل الإيمان، فقيل: إنه لما أمر بالسجود للصنم جاء حاجبه وقال: إن ستة نفر من قومك لا يسجدون، واسم الحاجب نارنوس، فدعاهم ما منعكم أن تسجدوا لإلهي؟ قالوا: لا نسجد لأحد لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فأمر بهم إلى السجن، فلبثوا فيه سنة، فتشفع فيهم بنو أعمامهم فأخرجهم وأجل

لهم سبعة أيام وقال: إن سجدتم فيها وإلا أمرت بقتلكم، فخرجوا من عنده وشاوروا في أمرهم ليخرجوا.

وقيل: لما كان يفعل الأفاعيل ورأى أصحاب الكهف حزنوا حزنًا شديدًا حتى تغيرت ألوانهم، فاستغاثوا بالصلاة والصيام[٤٢٩] والصدقة والتسبيح والتهليل والثناء والتضرع إلى الله حتى نحلت أجسامهم وكانوا أحداثًا من أبناء أشراف الروم، عن محمد بن إسحاق.

وعن مجاهد: لقد كان على بعضهم من حداثة أسنانهم وضح الورق؛ يعني قلادة فضة.

فكانوا كذلك من عبادة الله ليلهم ونهارهم، وكانوا ثمانية نفر أسماؤهم: مكسلمينا وهو أكبرهم، وفي بيته كانوا يجتمعون، وهو الذي كان يكلم الملك عنهم، ومخشلمينا[٤٣٠]، وتمليخا، ومرطونس[٤٣١]، وكشطونس[٤٣٢]، وبيرونس، وديموس[٤٣٣]، وبطيوس[٤٣٤]، عن محمد بن إسحاق.

وقيل: كانوا سبعة، وقيل: أسماؤهم: مكسلمينا، وتمليخا، وتكملينا، وأوطاليس، وفاليوس، وتاليوس، ومرطوطوس.

فكانوا يدعون الله ويقولون: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ [الكهف: ١٤]، فبينما هم على ذلك مستخفين حتى ذكروا للملك وهم في مصلى يعبدون الله، فدخل عليهم الكفار وهم سجود يتضرعون، فقالوا: ما خلفكم عن الملك انطلقوا إليه، ثم خرجوا حتى دخلوا على الملك فقالوا: أنت تدعو الناس إلى عبادة إلهك وهؤلاء فتة من أشراف الروم من خواص قومك رأسهم مكسلمينا يسخرون منك، ويعصون أمرك، ويتركون إلهك، ويعبدون إله عيسى في مصلى لهم وهم بين ظهراني سلطانك وهم ثمانية، وقيل: سبعة، فبعث الملك إليهم فأتي بهم من المصلى وأعينهم تفيض من الدمع معفرة وجوههم، فقال لهم: ما منعكم أن

(٤٢٩) بالصلاة والصيام: بالله من الضيعة، م ي. تفسير الطبري ١٧/ ٦٠٧.

(٤٣٠) مخشلمينا: مجسملينا، م ي.

(٤٣١) مرطونس: مرطوبس، م ي.

(٤٣٢) كشطونس: كسوطوبس، م ي.

(٤٣٣) ديموس: بكريوس، م ي.

(٤٣٤) بطيوس: بطنيوس، م ي. تفسير البغوي ٣/ ١٨٠، وقد اختلف المفسرون كثيرا في أسمائهم ولا يمكن ضبطها بهذا الأختلاف.

تشهدوا الذبح لآلهتنا(٤٣٥) وتجعلوا أنفسكم أسوة لسراة أهل مدينتكم، اختاروا: إما أن تعبدوا إلهنا وتذبحوا له وإما أن أقتلكم؟ فقال أكبرهم: إن لنا إلهًا ملأ السماوات والأرض عظمة لن ندعوا من دونه إلهًا، ولا نعرف ما تدعونا إليه، ولكن نعبد الله، ربنا لك الحمد والتكبير والتسبيح، ولسنا نعبد الشيطان فرقًا من عقوبتك، اصنع بنا ما بدا لك، ثم قال أصحابه للملك مثل ما قال، فأمر بهم فنزع عنهم اللبوس التي كانت عليهم من لباس الأشراف وقال: أنتم من أشراف قومي وخواصي، وإني سأؤخركم وأفعل بكم غدًا ما أقول، وإنكم لأحداث ولعلكم ترجعون، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده، فانطلق الملك إلى مدينة أخرى لبعض ما يريده من أمره.

مبحث في خروج الفتية

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠]، اختلفوا في ذلك، قيل: لما خرج الملك قالوا: لا بد من الخروج فإنه غدًا يفعل بنا الأفاعيل، فعمد رجل إلى داره وأخذ نفقة وزادًا وتصدق ببعضها، وانطلقوا بما بقي معهم، ومعهم كلب، حتى أتوا عند مكسلمينا للمشاورة، فقال لهم: يا إخواني(٤٣٦) أتحبون الحياة أم الموت؟ قالوا: الموت، قال أتريدون الدنيا أم الآخرة؟ قالوا: إلا الآخرة، قال: أتحبون النعمة أم الشدة؟ قالوا: الشدة، قال: أتحبون الكفر أم الإيمان والإسلام؟ قالوا: إلا الإسلام، قال: أتحبون أن تخرجوا من المدينة أو تكونوا فيها؟ قالوا: نخرج، قال: فاخرجوا إذًا، فخرج كل واحد ومعه كرة وصولجان، فقال صاحب الدرب: أين تذهبون؟ قالوا: نلعب بالصولجان، ومعهم غلمان لهم، فلما ساروا صرفوا الغلمان نحو المدينة وساروا على الدواب حتى وقفت، ثم نزلوا وغدوا(٤٣٧) حتى ورمت أرجلهم فظنوا الهلاك، فقال كبيرهم: ليحفر كل واحد لنفسه قبرًا فإن مات أحدنا دفنه صاحبه، فحفروا وقعدوا فيه، فجاء راع فرآهم فقال: من أنتم لعلكم الذين لم يسجدوا لصنم الملك؟ قالوا له: أعندك أمان؟ قال: نعم، قالوا: نحن أولئك؟ قال: فأنا أيضًا ما سجدت له وأنا على دينكم، قالوا: أمعك ماء أو لبن؟ قال: لا، ولكن قفوا حتى أرجع إلى القرية وأسلم الأغنام إلى أربابها وآتيكم بماء ولبن، فسار بالأغنام ورجع بالماء واللبن، وقيل: معه كلب أبلق، وقيل: أصفر، قيل:

(٤٣٥) تشهدوا الذبح لآلهتنا: تشعدوا آلهتنا، ي. كذا في تفسير الطبري ١٥/ ١٦٧.

(٤٣٦) يا إخواني: ياخواني، ي.

(٤٣٧) غدوا: غدموا، م ي.

اسمه قطمير، فخرجوا وشربوا الماء وساروا مع الراعي، وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران:٨] ربنا ارحمنا وأرشدنا ونجنا وفرج عنا وارزقنا من عندك[٤٣٨] ثباتًا على الإسلام، ثم قالوا: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٦]، وسار الكلب معهم، فقالوا للراعي: اطرده فإنه يُعلم عنا بصياحه[٤٣٩]، فرجع الراعي وضرب الكلب مرة وثانيًا وثالثًا، فأنطق الله الكلب فقال: أنا قد عرفت الله مثلكم وأجيء معكم فأكون دليلكم وحارسكم، وأين وجهتموني أجئ إليكم بالخبر، فلما سمعوا قول الكلب ازدادوا في دينهم بصيرة، قال تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الآيات، فساروا حتى دخلوا الكهف.

مبحث في دخول الفتية الكهف

فدخلوا الكهف وجعلوا نفقتهم إلى الفتى تمليخا، فكان يأتي المدينة ويأتيهم بقوتهم وأرزاقهم [ويتصدق] على ذي المساكين، ويتحسس لهم الأخبار ويرجع إليهم بالطعام وبما يسمع من الأخبار، فدخل يومًا المدينة وقدم دقيانوس الجبار، وهذا بعد أن لبثوا في الكهف ما لبثوا، فدخل دقيانوس مدينة أفسوس فأمر عظماء أهلها بالذبح للصنم، وفزع أهل الإيمان، فرجع تمليخا إلى أصحابه يبكي وأخبرهم أن دقيانوس رجع وأنهم ذكروا وتفقدهم، ففزعوا فزعًا شديدًا وسجدوا لله وتضرعوا إليه، يتعوذون من الفتنة، قال تمليخا: ارفعوا رؤوسكم وكلوا من هذا الطعام وتوكلوا على الله، ففعلواوأعينهم تفيض من الدمع خوفًا من الفتنة، فطعموا مع غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون مشفقين من الفتنة، فبيناهم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ بباب الكهف، فناموا وهم موقنون مؤمنون، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ ومفتحة عيونهم وهم نيام، قال ابن عباس: لم ينقلبوا ثلاثمائة سنة[٤٤٠] وانقلبوا تسع سنين.

فلما كان الغد فقدهم دقيانوس فطلبهم فلم يجدهم، فقال لعظمائهم: لقد ساءني شأن[٤٤١] هؤلاء الفتية وذهابهم، لقد ظنوا أن بي غضبًا عليهم مما فعلوا وجهلوا، ولقد أجلتهم أجلًا، ولو

(٤٣٨) عندك: عنك، م ي.
(٤٣٩) يُعلم عنا بصياحه: اعلامه معنا بصيح، ي.
(٤٤٠) سنة: سنين، م ي.
(٤٤١) شأن: شأني، م ي.

تابوا لما كنت أعذبهم فلم يندموا على ما فعلوا، فقالوا له: أنت حقيق أن ترجع قومًا فجرة مردة عصاة، ولقد أجلتهم أجلًا لو أرادوا التوبة لتابوا في الأجل، لكنهم لم يفعلوا، وحين[٤٤٢] انطلقت كانوا يبددون أموالهم ثم فروا لما علموا بقدومك، فابعث آباءهم واشدد عليهم ليدلوك عليهم فإنهم محدثوك عنهم[٤٤٣] منك، فغضب وبعث إلى آبائهم وقال لهم بعد ما أتي بهم: أخبروني عن أبنائكم المردة، أخبروني بمكانهم؟ قالوا: نحن لا نعصي أمرك وقد عبدنا إلهك فلِمَ تقتلنا في قوم مردة قد ذهبوا بأموالنا فأهلكوها ثم انطلقوا؟ ويقال إنهم بجبل يقال له بنجلوس[٤٤٤]، هربوا منك، فلما قالوا ذلك خلّى سبيلهم، فركب الملك وخرج إلى الجبل فطلبهم فرآهم قائد من قواده فرجع وأخبره بهم وقال: لا عقوبة أكثر مما عاقبوا به أنفسهم، ثم جعلوا يأتمرون ما يفعل بهم، فألقى الله في نفسه أن يسد عليهم باب الكهف بالحجارة وقال: فليموتوا في الكهف عطشًا وجوعًا، وليكن كهفهم الذي اختاروا قبورًا لهم، وهو يظن أنهم رقود وكلبهم قد غشيه من النوم ما غشيهم، واسم الكلب قطمورا، وقيل: قطمير، وقيل: يقلبون ذات اليمين وذات الشمال.

وكان مع الجبار دقيانوس رجلان مؤمنان، فائتمرا أن يكتبا أسماء الفتية وشأنهم في لوح، ويجعلاه في تابوت، ويقذفاه بباب الكهف لعله يظهر عليهم قوم فيعلموا شأنهم ويُقْرأ[٤٤٥] اللوح ففعلا.

وهلك من بعدُ دقيانوس والقرن الذي كان فيه وقرون كثيرة، وكانت الشمس إذا طلعت بزغت عن يمين الكهف، وإذا غربت غربت عن شماله ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ تميل ﴿تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ تركهم وتتجاوزهم ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ ألقينا النوم عليهم لما أتى عليهم السنون ووقع الجدار المبني، فكانت الشمس تدخل من تلك[٤٤٦] الكوة.

ولما مضت سنون مَلَكَ تلك البلاد رجل صالح يقال له: بيدروس[٤٤٧]، وكان مؤمنًا، وتغير الناس حتى كان أكثرهم ينكر البعث، وهو على إيمانه يعبد الله في بيته ويدعوه ويتضرع لما يرى الناس عليه.

---

(٤٤٢) حين: قد، م ي.

(٤٤٣) محدثوك عنهم: محتون، م ي.

(٤٤٤) تفسير الثعلبي ٦/ ١٤٩.

(٤٤٥) ويُقْرأ: قرا، م ي.

(٤٤٦) من تلك: تكر، ي.

(٤٤٧) بيدروس: بيدوسيس، م ي. تفسير الخازن ٣/ ١٥٨.

ثم أراد الله أن يجعل الفتية علامة وآية للناس، وقيل: إن بعض الناس نقض ذلك الجدار وبنى مربضًا للغنم وهو راعٍ.

قوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف:١٨]، قيل: حجبوا عن الناس بالرعب، وكان لا يمكن لأحد أن يدخل عليهم فيراهم.

مبحث في بعث الفتية ومدة نومهم

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥]، قيل: تسع سنين، وقيل: تسعة أشهر، وقيل: تسعة أيام، وقيل: تسعة أزمنة. فاستيقظوا فرحين، مسفرة وجوههم، فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم المعتادة، ثم قاموا إلى الصلاة كما كانوا يفعلون لا يرون شيئًا في أبدانهم يكرهونه، بل كانوا كهيئة ما رقدوا، وخيل إليهم أنهم ناموا أكثر مما كانوا ينامون، فـ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، قالوا: نمنا والشمس عن يميننا والآن هي عن يسارنا، ثم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾، فبعثوا تمليخا صاحب النفقات ليشتري طعامًا وليتجسس من أخبار دقيانوس، فقال تمليخا: إنه كأنه يريد أن يُؤتى(٤٤٨) بنا اليوم فما شاء [الله] بعد ذلك فعل، قال كبيرهم: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا إذا دعاكم عدو الله، ثم قال لتمليخا انطلق اليوم إلى القرية فاسمع ما يقال لنا اليوم وانطلق ولا تشعرن بك(٤٤٩) أحدًا، ففعل تمليخا كما كان يفعل، ووضع ثيابه وأخذ ثوبه الذي كان يلبسه، وأخذ ورقًا من نفقتهم من ضرب دقيانوس، فلما مر بباب الكهف رأى أمورًا لم يكن رآها، فعجب منها، ثم مر ولم يبال حتى أتى المدينة مستخفيًا خوفًا أن يراه أحد فيدل عليه دقيانوس ولا يشعر بالقصة، فلما أتى باب المدينة رأى علامة أهل الإيمان، فجعل ينظر إليه ويتعجب، ثم تركه وتحول إلى باب آخر حتى أتى جميع أهل الأبواب، وإذا على جميعها علامة أهل الإيمان، فخيل إليه أن المدينة ليست بأفسوس، ثم دخل فرأى بنيانًا وأناسًا لم يكن عهدهم، فجعل يتعجب ويقول: عشية أمس عهدتها على خلاف هذا، ثم سأل فتى عن اسم المدينة فقال: اسمها أفسوس، قال: لعل بي مس أو جنون، ثم قال: أخرج قبل أن ينظرني أحد، فدنا من بائع الطعام وأعطاه الورق الذي كان معه وقال: بعني بهذا طعامًا،

(٤٤٨) تفسير البغوي ٣/ ١٧٨.

(٤٤٩) تشعرن بك: يشعرن بكم، م ي.

فأخذه ونظر فيه ثم رماه إلى رجل آخر فنظر فيه، فجعلوا يتعجبون ويقولون: قد أصاب هذا الفتى كنزًا، ونظروا في وجهه، فهاله ذلك وهو لا يعرف بعض لغاتهم، فقال لهم: ورقي لكم وذهب، فأخذوه وقالوا: من أنت؟ وأين كنزك الذي أصبت؟ فشاركنا فيه، فقال: قد وقعت بما كنت أخافه، فأخذوه وجعلوا يقودونه والناس قد سمعوا وجعلوا في عنقه حبلًا، وفشا الخبر في البلد، واجتمع الناس، فجعلوا ينظرون إليه وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه ويقولون: إن الفتى غريب ما رأيناه قط.

فلما رأى ذلك تمليخا قال: عهدي بهذا البلد وأهلها أمس يعرفونني وأعرفهم، فاليوم لا أعرف أحدًا منهم، وقد تركت أبي وأهل بيتي ولست أرى أحدًا منهم، وجعل يبكي وينتظر أحدًا من أهل بيته يجيء ويخلصه فلا يرى أحدًا، فانطلقوا به إلى رأس المدينة وهم رجلان يدبران أمرها صالحان أحدهما أريوس[٤٥٠]، والآخر طنطيوس[٤٥١]، وظن أنه يُنطلق به إلى دقيانوس، فجعل يلتفت والناس يسخرون منه كما يسخر من المجنون، فرفع رأسه إلى السماء ودمعه يسيل فقال: اللهم رب السماوات والأرض ورب الدنيا والآخرة إذا دخلت على دقيانوس الجبار فأعني حتى لا أزول عن الحق، ثم جعل يندب نفسه وأصحابه ويقول: يا إخوتي هذا فراق بيني وبينكم قد استبطأت رجوعي إليكم يا ليتهم يعلمون ما لقيت وأنهم يذهبون بي إلى دقيانوس، لو علموا لقاموا جميعًا بين يديه فإنا كنا تواثقنا لنكون معا فهذا كان يقول مع نفسه حتى أتى الرجلين الصالحين، فلما رآهما ورأى أنه لا يذهب[٤٥٢] به إلى دقيانوس أفاق وسكن منه البكاء، فأخذا[٤٥٣] الورق ونظرا فيه وتعجبا، وقال أحدهما: أين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال: ما وجدت كنزًا ولكن هذا الورق ورق آبائي ونقش هذه المدينة، ولكن لا أدري ما شأني، فقالا: من أين أنت؟ قال: أنا من أفسوس، فقالا: هذا أفسوس، قال: فأنا من أهل هذه القرية، قالا: فمن أبوك فإن كنا نعرفه نشهد لك بما تقول، فأخبرهما باسمه واسم أبيه، فسألا القوم فلم يعرفهما أحد، فنظروا وهو ناكس رأسه فقالوا: لم تزل[٤٥٤] تزعم أن هذا الورق من بيت أبيك وهو من نقش دقيانوس وقد أتى على ذلك ثلاثمائة سنة، فخر تمليخا ساجدًا ثم رفع

---

(٤٥٠) أريوس: أويوس، م ي. تفسير البغوي ٣/ ١٧٩، وتفسير الخازن ٣/ ١٥٧، وتفسير المراغي ١٥/ ١١٩.

(٤٥١) طنطيوس: أسطيوس، م ي. تفسير البغوي ٣/ ١٧٩، وتفسير الخازن ٣/ ١٥٧، وتفسير المراغي ١٥/ ١١٩.

(٤٥٢) يذهب: يذعب، م ي.

(٤٥٣) فأخذا: وأخذ، م ي.

(٤٥٤) تزل: تكذب، م ي.

رأسه وقال: أخبراني عن أمري أسألكما، قالا: وما هو؟ قال: خبر الجبار دقيانوس عهدي به أمس وهو ملك هذه المدينة ما فعل؟ فقالوا: أتسخر بنا؟ إنه ملك بعده عشرة من الملوك وقد هلك منذ ثلاثمائة سنة، وكان يعبد الأوثان والملك الآن رجل صالح عابد فما الذي تقول؟ اصدق فلا خير في الكذب، قال تمليخا: أنا رجل قد خولط علي فلست أدري ما أقول، ولكن انهضوا بي إلى الملك، فانطلقوا إليه، فأمر الملك فجيء بالقاضي فسأله عن ذلك، فقال: ألك حجة على ما تزعم؟ فقال: نعم، إن لي بيتًا وإن في بيتي أربع أسطوانات من رخام تحت كل إسطوانة كيس به[٤٥٥] مثل هذه الدراهم أنا وضعتها، فخرج القاضي والخلق فدخلوا دارهم فخرج شيخ كبير ابن سبعين سنة، فقال تمليخا: هذه داري، فقال الشيخ: تعرفون بأن هذه داري ورثتها من آبائي وأجدادي تمليخا، قال الغلام: أنا تمليخا، فقال: أنا شيخ وأنت شاب وإنا حفدتك هذا عجب، فقال: هل في دارك شيء من الرخام؟ قال: نعم، فقال: هل فيه إسطوانة من رخام، قال: نعم، قال: فافتح الباب ففتحوا ودخلوا فرأوا الإسطوانات، ورفعوا الدراهم تحت الإسطوانات وأخرجوا طومارًا فيه مكتوب اسم تمليخا، فجاءوا إلى الملك فقال له: كم أنتم؟ قال: سبعة، قال: أين أنتم؟ قال: في جبل كذا على خمسة فراسخ من المدينة، فخرج تمليخا والملك والخلق حتى أتوا الكهف، ودخل تمليخا فقال: أتعرفون مدة كم أنتم في الكهف؟ قالوا: لا، قال: ثلاثمائة سنة وزيادة وقد ذهب دقيانوس وقد جاء بعده [ملك] صالح، وقد جاءكم، فقالوا: أين هو؟ قال تمليخا: على باب الكهف، فدخل القوم، فلما رآهم سجدوا، وقال الملك لهم: إذا نظرت إليكم كأني أنظر إلى عيسى بن مريم وإلى البعث، وقد صحح الله أمري، فآمن [من] قومه أكثر من عشرين ألفًا، فرآهم بعضهم ثلاثة والرابع الكلب، وبعضهم خمسة وسادسهم كلبهم، وقال بعضهم: سبعة وثامنهم كلبهم، ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢]، قال: منذ ثلاثمائة سنة ما أكلتم شيئًا، ما تشتهون؟ قالوا: لا حاجة لنا بالطعام، فإنا نستودعك الله فاعدل أيها الملك، إن الله بعثنا حجة على قومك وتصديقًا لك، ثم وقعوا على أعقابهم والملأ من بني إسرائيل ينظرون إليهم، فخرج الملك واجتمع القسيسون والرهبان يبكون، ثم أمر الملك بهم فكفنوا في الديباج وجعلوا في التوابيت فرأى الملك تلك[٤٥٦] الليلة في المنام الفتيان، قالوا له: إن لك عند الله الأجر العظيم، ولكن اجعلنا في الأرض، وردَّنا إلى الكهف فإنه قبورنا، فلما أصبح من الغد قص ذلك على الناس،

(٤٥٥) كيس به: مجل، م ي.

(٤٥٦) تلك: ملك، ي.

وقالوا: هذا عهد فأخرجوا من التوابيت ودفنوا بفناء الكهف، واتخذ لوحًا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وأسماء آبائهم، وسد باب الكهف وبنى على بابه مسجدًا يتعبد لله فيه.

وقيل: لما سمعوا الجلبة قالوا: هذا رسل الجبار دقيانوس قوموا نأتي أخانا تمليخا، فإنه الآن بين يدي الجبار دقيانوس ينتظر متى نأتيه، وقيل: لما أتى الملك الكهف رأى تابوتًا ففتحه فإذا فيه لوح، وإذا فيه قصة أصحاب الكهف وهو اللوح الذي كتب زمن دقيانوس.

فصل في حديث لقمان

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان:١٢]، قيل: كان لقمان رجلًا أسود غليظ الشفتين، عن مجاهد.

وقيل: كان عبدًا صالحًا آتاه الله الحكمة، ولا ندري من أجناس السود أم اختلجه السواد من قبل ولادة النساء، عن محمد بن إسحاق.

قال وهب: كان لقمان عبدًا لبعض بني إسرائيل فأعتقه وأعطاه مالًا، فبارك الله له فيه فكثر، وكان حبشيًا أسود وكان زمن داود وكان حكيمًا، وكان لا يأتيه سائل إلا أعطاه، ولا ضيف إلا أضافه، وآتاه الله الحكمة، وقيل: كان نبيًا.

وقيل: كان صِدِّيقًا صالحًا ولم يكن نبيًا، وكان أحكم أهل الأرض في زمانه، لا يلقى أحدًا إلا وعظه.

وقيل: إن الملائكة أتته وقالت له: احكم بين الناس، فقال: إن أمرني الله فسمعًا لأمره وطاعةً، وإن عافاني قبلت العافية، قالوا: ولم تكره[٤٥٧] الحكم بين الناس، قال: لأن الحاكم[٤٥٨] بين الناس بأشد[٤٥٩] المنازل، إن أخطأ الحكم أخطأ طريق الجنة، وإن أصاب أصاب طريق الجنة.

وقيل: إنه نام فما[٤٦٠] استيقظ [إلا] وهو أحكم [أهل] الأرض، أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه، وهكذا ينبغي للعالم أن يكره الحكم بين الناس.

(٤٥٧) تكره: تكن، م ي.
(٤٥٨) الحاكم: الحكم، م ي. تفسير الثعلبي ٧/ ٣١٢.
(٤٥٩) تفسير الثعلبي ٧/ ٣١٢.
(٤٦٠) فما: فلما، ي.

ولما ولي شريك القضاء قال سفيان: أي رجل أفسدوه.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «القضاة ثلاثة»، وقد ذكرنا في هذا بابًا في هذه السفينة.

فصل في حديث شمشون

عن وهب بن منبه قال: كان شمسون رجلًا من بني إسرائيل صالحًا مؤمنًا جلدًا، فلما فشا الكفر فيهم جعل يغزوهم، فكان يقتل ويسبي ويصيب المال ويقضي حاجته، وكان الله قد أعطاه من القوة أنه كان لا يوثقه حديد ولا غيره، وكان يجاهدهم ولا يقدرون منه على شيء، فأتمروا في أمره وقالوا: لن يأتوه إلا مِنْ قِبل امرأته، فدخلوا عليها وبذلوا لها جُعْلًا إن أوثقته، ودفعوا إليها حبلًا فأوثقته به وهو نائم، فلما استيقظ جذبه[٤٦١] بيده وقال: لمَ فعلت هذا؟ قالت: اختبرت قوتك فما رأيت مثلك، وقالت لقومه: الحبل لا يغني، فأعطوها جامعة من حديد، فلما نام جعلتها في عنقه، فلما هب جذبها[٤٦٢] بيده وقال: لم فعلت؟ قالت: أجربك ما رأيت مثلك، ما شيء في الدنيا يغلبك، قال: بلى شيء واحد، قالت: وما هو، قال: لا أخبرك، فلم تزل به حتى قال: شعري، فلما نام شدته بشعره وبعثت إلى القوم، فجدعوا أنفه وأذنيه وفقوا عينيه، وقد جمع الملك الناس لينظروا إليه، فلما مُثّل به دعا الله تعالى فرد عليه بصره وأذنيه وأنفه وانهدّت المدينة فهلك جميع من فيها هدمًا.

فصل في حديث جرجيس

قال وهب: كان بالموصل ملك يقال له دازانه[٤٦٣]، وله ملك الشام، وكان جبارًا عاتيًا، وكان جرجيس رجلًا صالحًا من فلسطين، وكان مؤمنًا يكتم إيمانه في عصبة مؤمنين معه، وكانوا [قد] أدركوا بقايا من الحواريين، فسمعوا منهم وأخذوا عنهم، فكان جرجيس كثير المال، عظيم الصدقة، يتلف ماله في الضيف والصدقة، ثم يضرب ضربًا فيصيب مالًا فيصرفه إلى الصدقة، وهكذا كان حاله، وكان يخاف الكفار أن يفتنوه في دينه، فخرج يومًا إلى ملك الموصل ومعه

---

(٤٦١) جذبه: جذمه، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٣، والكامل في التاريخ ١/ ٣٣٥.
(٤٦٢) جذبها: حذمها، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٣، والكامل في التاريخ ١/ ٣٣٥.
(٤٦٣) دازانه: زاذانه، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٤.

مال ليهدي إليه؛ لكيلا يجعل عليه سلطانًا ويأمن جانبه، فدخل عليه فإذا هو قد نصب صنمًا ويأمر الناس بالسجود له، ويعذب من أبى ذلك، فعظم ذلك على جرجيس ووقع في قلبه بغضه وأن يجاهده، فقسم المال الذي كان معه في قومه المؤمنين، ثم دخل على الملك فقال: أيها الملك اسمع، والملك يغضب، فقال: اسمع ولا تعجل ولا تغضب حتى أبلغ ما أريد، قال الملك: أفعل، فقال: اعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئًا ولا لغيرك، وأن فوقك ربًا هو يملكك وغيرك، وهو الذي خلقك ورزقك، ويحييك ويميتك، وأنت عمدت إلى خَلْقٍ من خلقه أصم أبكم لا ينطق، زينته بالذهب والفضة لتجعله فتنة للناس ثم عبدته وسميته إلهًا، وليس لشيء أن يعبد غير الله في كلام طويل من هذا الجنس، فقال له الملك: قد جئت زاريًا علينا ومصغرًا شأننا وشأن آلهتنا، من أنت؟ ومن أين أنت؟ قال جرجيس[٤٦٤]: أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته، من التراب خلقت وفيه أعود، فقال: أما أنت فقد استوجبت مني الغضب والعقوبة.

ثم دار بينهما كلام كثير أطمعه ووعده وأوعده، فلما يئس منه أمر بخشبة فنصبت له وحملت عليه أمشاط الحديد فخدش به لحمه وجسده وعروقه وعصبه حتى سال منه المخ، ثم ينضح[٤٦٥] خلال ذلك بالخل والخردل، فلم يصنع شيئًا، فلما رأى أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد فأحميت فسمر بها رأسه حتى سال دماغه، فلما رأى أن ذلك لم يقتله أمر بحوض[٤٦٦] من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارًا أدخل في جوفه وأطبق عليه، فلم يزل فيه حتى برد حره، فلما لم يقتله دعا به فقال: أما تجد ألم العذاب؟ قال جرجيس: إن ربي وربك يحمل عني ألم العذاب يحتج بي عليك، فلما رأى وسمع ذلك أيقن بالشر[٤٦٧] وخافه على نفسه وملكه، فأجمع رأيه على أن يخلده في السجن، فقال الملأ من قومه: إنك[٤٦٨] إن أطلقته في السجن كلّم[٤٦٩] الناس فلا يؤمن أن يميل بهم عليك، ولكن مر له بالسجن بعذاب يشغله عن الكلام، فأمر به إلى السجن، ووتد في رجليه ويديه أوتادًا من حديد ثم حمل على ظهره حجارة لا يحملها إلا ثمانية عشر، فلما جن الليل بعث الله ملكًا وذلك أول ما أيد بالملائكة،

---

(٤٦٤) جرجيس: جرجيش، م ي.

(٤٦٥) ينضح: يصح، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٨.

(٤٦٦) بحوض: بخوص، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٨.

(٤٦٧) أيقن بالشر: بالبشر، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٨.

(٤٦٨) إنك: غنك، ي.

(٤٦٩) كلّم: تكلم، ي.

وأول ما جاءه الوحي، هكذا قال وهب، ويجوز أن يكون قبله نبيًا، فنزع عنه الحجارة والأوتاد، فلما أصبح أخرجه المَلَكُ من السجن، وكان المَلَكُ يحدثه وقال له: اذهب فجاهد عدوك ومت موت الصابرين وإن ابتلاءك بعدوك يبقى سبع سنين، وإنه يقتلك أربع مرات، في كل مرة يرد عليك روحك، وفي الرابعة أوفيك أجرك ولا أرد روحك، فلم يشعر الملك والناس إلا بجرجيس قائمًا يدعوهم إلى الله، قال: من أخرجك من السجن؟ قال: من سلطانه فوق سلطانك، ثم أمر به فمدوه بين خشبتين ووضعوا السيف على رأسه وقطعوه حتى سقط من بين رجليه، ثم قطعوه إربًا إربًا وألقوه إلى الأسد فلم يأكله الأسد، وظل يومه ملقى كذلك فلما جن عليه الليل رد الله عليه روحه وأرسل الله إليه ملكًا فأخرجه من الجب وأطعمه وسقاه، فلما أصبح قال: يا جرجيس اذهب إلى عدوك فجاهد ومت موت الصابرين، فأقبل والملك مع قومه عكوف على عيد لهم زعموا أن[٤٧٠] ذلك لموت جرجيس، وجعلوا يقولون للملك: إلهك غلب كل إله، أين إله جرجيس الذي كان يوعدنا به؟ ألا حال بيننا وبينه؟ فبينماهم كذلك إذ نظروا إلى جرجيس مقبلًا فقالوا: ما أشبه هذا بجرجيس، قال جرجيس: بل أنا هو حقًا، الله أحياني، ورد إلي روحي، وأطعمني وسقاني، وأمرني أن أرجع إليكم فأدعوكم إلى الله وعبادته، فقالوا: ساحر سحر أعينكم ولم يصل عذابكم إلى نفسه، فاجمعوا له السحرة ليهلكوه، فجمعوا له سحرة أرضهم، فلم يغنوا شيئًا، وجاءت امرأة إلى جرجيس وقالت: كان لي ثور وقد مات فادعو الله يحييه، فدعا الله فأحياه، فقال رجل من قوم الملك: يا قوم إن كلام هذا الرجل ليس بكلام السحرة ولا فعله ولا نطقه وعظته، فاتقوا الله، قالوا: كأنك أصغيت إلى كلامه، قال: بل آمنت به وأشهد الله أني بريء مما تعملون وتعبدون وتقولون، فقاموا إليه بالخناجر فقتلوه وكتموا شأنه، فبرز جرجيس وأظهر شأنه بين الناس، فاتبعه على كلامه أربعة آلاف، فلم يزل الملك يعذبهم ويقتلهم حتى أفناهم، وجعل جرجيس في مرجل وجعل فيه النفط وأوقد[٤٧١] تحته حتى ذاب ومات جرجيس في جوفه، وأرسل الله ظلمة وإعصارًا عليهم وأحيا الله جرجيس، وكانوا يتمنون على جرجيس نحو إحياء ميت ففعل، ونحو أن يحضر المنابر والموائد بالثمار فيفعل ثم يعودون إلى كفرهم.

وحبسوه في بيت عجوز ليقتلوه - زعموا - جوعًا وعطشًا، فأنبت الله شجرًا وأطعمه وسقاه، ثم وتد الملك بأربعة أوتاد وجعله أربع قطع، وأحرقه بالنار وذراه في البحر، فأخرجه الله تعالى

(٤٧٠) أن: أم، ي.
(٤٧١) وأوقد: وأقد، ي.

من البحر، فرجعوا ورجع معهم جرجيس، فلما سمع بذلك الملك دعاه وقال له: لولا يقول الناس غلبتني لآمنت بك ولكن اسجد لإلهي سجدة فاصنع ما تريد، وطمع جرجيس في إهلاك الصنم فقال: نعم أدخلني بيت الصنم، فقام الملك فقبل رأسه وقال: تبيت عندي الليلة ليزيل عنك ألم العذاب، فأدخله بيته.

فلما جن عليه الليل قام يصلي ويقرأ الزبور، وكان أحسن الناس صوتًا، فسمعت صوته امرأة الملك فجاءته تبكي، قال: لم تبكين[٤٧٢]؟ قالت: من حسن كلامك، قال: كيف لو عرفت رب الكلام، قالت: صفه لي، فآمنت وكتمت إيمانها وكانت العجوز التي جعل في بيتها أيضًا آمنت.

فلما أصبح عدل به إلى بيت الصنم والناس يقولون للعجوز عن جرجيس: قد مال إلى الدنيا، فأقبلت وهي تقول: يا جرجيس: إيش تصنع بعد ما فعل لك إلهك ما فعل، ودخل بيت الأصنام وركضه برجله فخسف به الأرض، فقال الملك: خدعتني يا جرجيس، قال: إنما فعلت ذلك عمدًا لتعتبر، فقامت[٤٧٣] امرأة الملك وكشفت إيمانها ووعظت قومها وحذرتهم الخسف بهم وقالت: هي دعوة من هذا الرجل فيخسف بذلك الرجل الأرض، فقال لها الملك: أضلك هذا الساحر سريعًا وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يجد مني شيئًا، ثم أمر بها فصلبت وعذبت، فقالت: ادع لي يا جرجيس، فقال: انظري فوقك، فنظرت وضحكت، فقال: ما يضحكك؟ قالت: رأيت الجنة، وقبض الله روحها، فحينئذ دعا جرجيس عليهم وأمطر الله عليهم النار، فلما أصابهم حر النار عمدوا إليه بالسيوف فقتلوه وصاروا رمادًا في البلد، ثم جعل الله أعاليها أسفلها فكان جميع من آمن بجرجيس سوى امرأة الملك أربعة وثلاثين ألفًا.

وروي أن الله أوحى إليه بأنك نظير يحيى بن زكريا إلا أن يحيى سيد من ولدته النساء.

فصل في حديث العبد الأسود

محمد بن كعب، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث العبد الأسود: «أن الله بعث نبيًا إلى قرية فلم يؤمن أحد إلا عبد أسود، ثم إن أهل القرية عمدوا إلى النبي فألقوه في جب ووضعوا على رأسه حجارة عظيمة، فكان هذا العبد يحتطب كل يوم يبيع ويشتري طعامًا، فيأتي

(٤٧٢) تبكين: تبكي، م ي.
(٤٧٣) فقامت: فقالت، م ي.

الجب ويعينه الله فيزيل الصخرة فيدلي إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت، فلبث كذلك ما شاء الله، ثم إنه يومًا احتطب فوجد سنة فنام سبع سنين ثم هب وانقلب على شماله فنام سبع سنين أخرى، فلما هب حمل الحطب وباع وجاء بالطعام إلى الجب فلم يجد شيئًا، وقد بدا لقومه فيه [بداء] فأخرجوه وآمنوا به وسألهم عن ذلك العبد الأسود فيقولون: ما ندري ما فعل، فلما قبض الله النبي هبّ[٤٧٤] العبد من نومه بعد ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن ذلك العبد لأول من يدخل الجنة»[٤٧٥].

خالد بن سنان: هو من عبس بن معيض، روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ذلك نبي ضيعه قومه».

فصل في حديث جريج الراهب

وأما حديث جريج الراهب: مما يذكر من حديث دعامة الله اعلم بصحته، ولكن كان رجلًا راهبًا، مؤمنًا، فجاءت امرأة بولد وذكرت أنه منه، فهدموا صومعته وجاءوا به إلى الملك فقال: ما شأنك؟ وما تذكر هذه المرأة؟ فقال: أين الولد؟ فجيء به، فقال: أخبرني يا جنين[٤٧٦] من أبوك؟ قال: راعي البقر، فكبر الناس وكبر الملك ثم رجع إلى صومعته.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تكلم في المهد إلا عيسى وصاحب جريج».

فصل في حديث أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤]، وكانوا قومًا من النصارى عذبهم ملك يهودي، وروي أنهم كانوا من نجران، وأنهم ابتداء كانوا عبدة أوثان ثم تنصروا.

واختلف ممن أخذوا النصرانية، فقيل: عن رجل صالح نصراني على دين عيسى يسمى فيميون[٤٧٧].

---

(٤٧٤) هبّ: وهب، م ي.

(٤٧٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٧١.

(٤٧٦) يا جنين: ما جنين، ي.

(٤٧٧) فيميون: فِيميون، م ي. كذا في الروض الأنف ١/ ١٠٦.

عن محمد بن كعب: والذي قصدهم ذو نواس بجنوده من حمير واليمن ودعاهم إلى اليهودية فخيرهم بين القتل والدخول فيها، فاختاروا القتل، فخد لهم الأخدود، فحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم كل مثلة، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا، وأفلت واحد ولحق بالروم، وقيل: قتل عبد الله بن الثامر، وقيل: بل قتل قبله، ووجد مدفونًا زمن عمر ويده على رأسه على جراحة أسيلت[٤٧٨] دمًا، فكتب إلى عمر، فأمر برده ودفنه حيث كان ففعل.

وقيل: لما أوقد النار ليحرقهم وقعت النار فيهم فأحرقتهم ونجا المؤمنون، والله أعلم.

وقيل: لما لحق الناجي بقيصر استنصره على ذي نواس فاعتذر ببعد بلده، وكتب له إلى بلد الحبشة وهو نصراني لينصره، فبعث معه سبعين ألفًا من الحبشة وأمر عليهم أرياط، فخرج وفي جنوده أبرهة الأشرم حتى نزل ساحل اليمن، واجتمع ذو نواس واقتتلوا وانهزم ذو[٤٧٩] نواس، وملك الحبشة اليمن وأميرهم أرياط، ثم نازعه أبرهة وقتل أرياط وملك أبرهة اليمن، وفي ذلك حديث طويل مذكور في التواريخ ليس هذا موضع ذكر جمعه.

فصل في فائدة ذكر القصص في القرآن

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:١٣]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، وقد ذكر العلماء في فائدة ذكر القصص في القرآن وجوهًا:

فمنها: ليعلم عباده[٤٨٠] بما فعلت كل قرية من الطاعة والعصيان، وما جوزيت[٤٨١]، لكي يتقوا[٤٨٢] المعاصي ويسارعوا إلى الطاعات، وإلى هذا أشار الله تعالى في حديث الأنبياء بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨]، [وينذر العصاة بعدهم ولذا جاء قوله عقب القصص]: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر:٤٣]، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

(٤٧٨) أسيلت: أسيحت، ي.

(٤٧٩) ذو: ذي، م ي.

(٤٨٠) عباده: عبارة، ي.

(٤٨١) جوزيت: جوزي، م ي.

(٤٨٢) يتقوا: ينفوا، م ي.

[إبراهيم:٩]، ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤٥]، ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ [هود:٨٩] ونظائرها كثيرة.

وثانيها: لئلا يضيق صدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعصيان قومه فيعلم أن حاله معهم كحال أولئك مع قومهم، وإلى هذا أشار الله تعالى في آيات كقوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر:٤]، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج:٤٢]، وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود:١٢٠]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وثالثها: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، وكان [قد] نشأ بينهم، فلما أنبأهم بأنباء من كان قبله حتى كان يخبرهم بالرؤيا والخفايا لا يخالف في شيء من ذلك كتب الأولين[٤٨٣] علموا أنه نبي، وإليه أشار بقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ [العنكبوت:٤٨].

ورابعها: أنه أخبرهم بالغيب في المستقبل، وعن الأنباء في الماضي، فلما لم يكذب في حرف في الماضي علموا أنه صادق في المستقبل، وإليه أشار بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦،٢٧].

وخامسها: أن كل حديث وخبر إذا كرره كاتب وبليغ وفصيح فإما أن يكون الثاني والأول بلفظ واحد أو يكون الثاني أدون من الأول وملاحته أقل، والله تعالى كرر هذه القصص بألفاظ مختلفة كل واحدة فصيحة عجيبة، ليعلموا أنه كلام رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود:١٤].

وسادسها: أنه أخبر عن الأمم الماضية وما تعبدهم به وشدته، فلما رفع ذلك الإصر عنا قص ذلك ليعلم شرف الرسول ومنته علينا، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت بالحنيفية السمحة»، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

---

(٤٨٣) الأولين: الأولى، م ي.

وسابعها: قص ما نزل بالأمم[٤٨٤] من المثلات نحو المسخ وغيره، ورفع عن هذه الأمة بشرف[٤٨٥] الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣].

وثامنها: أن معجزات الأنبياء وأخبارهم اندرست ولم يبق لها أثر، والقرآن معجز باق إلى يوم القيامة، فذكرهم الله تعالى وذكر معجزاتهم ليُتْلى ذكرهم إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ [الصف:٦].

وتاسعها: أنه بين بهذه القصص أحوال الأنبياء، وأن منهم من بعث إلى قرية، وأن بعضهم نسخ شريعة بعض، ثم جعل رسولنا خاتم الأنبياء إلى سائر الخلق، فعلم بذلك شرفه، وإليه أشار بقوله: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف:٢٩]، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وعاشرها: إنما ذكرهم لما في ذكر الصالحين من البركة ليكون أرغب في الصلاح، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، وعن بعضهم: عند ذكر الصالحين تنزل البركة.

وحادي عشرها: أن الناس فرقوا بين الرسل، فآمنوا ببعضهم دون بعض كاليهود والنصارى والمجوس، فبين أحوالهم وأمروا بالإيمان بهم، قال تعالى: ﴿يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:١٥٢].

وثاني عشرها: أن الله تعالى علم أن مصالحنا ببيان هذه القصص، وكذلك بين البعض دون الكل، وإليه أشار تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، ولهذا قال في قصة الروح لما علم أن المصلحة ترك الجواب: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، وفي كل وجه من الوجوه نظائر[٤٨٦] وحكايات.

فأما حديث قوم تُبَّع فسيأتي في أخبار نبينا صلى الله عليه وآله وسلم.

تمت قصص الأنبياء مختصرًا بحمد الله ومنه.

(٤٨٤) بالأمم: بالمم، م ي.
(٤٨٥) بشرف: بشر، م ي.
(٤٨٦) الوجوه نظائر: وجه نظاير، م ي.

باب في أحوال نبينا
صلى الله عليه وآله وسلم

فصل في جمل أحواله صلى الله عليه وآله وسلم

هو رسول الله، خاتم النبيين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غاب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد صلوات الله عليه وآله وسلم.

ولد عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، وتوفي أبوه وأمه حامل به، عن محمد بن إسحاق. وقيل: ابن ثمانية عشر شهرًا، وقيل: توفي وهو ابن سبعة أشهر، عن الواقدي.

ودفعه جده عبد المطلب إلى بني سعد، وأرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب، فلبث فيهم خمس سنين، ثم ردوه إلى مكة لأسباب ذكروها في التاريخ[1]، فلبث مع آمنة سنة، ثم خرجت به إلى أخواله بالمدينة، وتوفيت بالأبواء، فقيل: توفيت وقت الخروج، وقيل: وقت الرجوع، توفيت بالأبواء، عن محمد بن إسحاق، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن ست سنين.

وتوفي عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين، وأوصى به إلى أبي طالب؛ لأن أبا طالب وعبد الله أخوان لأم، أمهما فاطمة بنت عمرو المخزومي.

ولما هلك عبد المطلب انتهت الرئاسة بمكة إلى ثلاثة: حرب بن أمية، وعبد الله بن جدعان، وهاشم بن المغيرة المخزومي، وابن جدعام تيمي من تيم بن مرة، وكان حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان، وشهد ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وروي عن طلحة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد[2] شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب لي بها حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت».

---

(١) التاريخ: التوريخ، ي.
(٢) لقد: لو، م ي.

وكان الحلف بين خمس قبائل: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم بن مرة، وقيل: إنه حلف المطيبين، وقيل: حلف المطيبين غير(٣) حلف الفضول، والله اعلم.

وسار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أبي طالب إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وفيها كانت قصة بحيرا الراهب، وشهد حرب الفجار بين قيس وكنانة وهو ابن عشرين سنة، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون، وكانت وقعة عكاظ بسبب الفجار، وكان الفجار فجارين الأول والثاني هو المذكور وفيه وقعت الواقعة وهو يوم عكاظ، وهلك حرب بن أمية، ثم عبد الله بن جدعان، ثم هشام بن المغيرة.

وسار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشام ثانيًا وهو ابن خمس وعشرين سنة، وتزوج خديجة بعدها بأشهر وهو ابن خمس وعشرين سنة، ولبثت معه أربعًا وعشرين سنة وأشهرًا، وبنيت الكعبة فرضيت قريش بحكمه وهو ابن خمس وثلاثين سنة، وبعث وهو ابن أربعين سنة، وأسلمت خديجة وعلي وزيد بن حارثة ابتداء ما قام بمكة يدعو الناس، وقام أبو طالب في نصرته، وقيل: أسلم، وقيل: لم يسلم، ورأت قريش النجوم ترمى بها بعد عشرين يومًا من مبعثه، ثم أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وكانت بعثة قريش إلى النجاشي بسببها، والبعثة عمرو بن العاص والمغيرة بن الوليد، ولهما قصة، فلم يروا عنده شيئًا، ثم أسلم عمر بن الخطاب بعده وأظهر الإسلام.

ودعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الناس إلى الإسلام، وبعد إسلام عمر [كانت] هجرة الحبشة، وكانت كتابة الصحيفة، وحديث حصار الشعب، ثم رجع قوم من الحبشة، ونقض(٤) أمر الصحيفة، وقام في نقضها(٥) قوم ذكرناهم في قصة الصحيفة.

وتوفي أبو طالب وهو ابن تسع وأربعين سنة وستة أشهر وأيام، وتوفيت بعده خديجة بثلاثة أيام.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة بعد ثلاثة أشهر من موت خديجة، فأقام بها شهرًا، ثم رجع إلى مكة في جوار مطعم بن عدي.

---

(٣) غير: عن، م ي.

(٤) نقض: نقضت، ي.

(٥) نقضها: بعضها، م ي.

وأسري به إلى بيت المقدس بعد رجوعه من الطائف إلى مكة لسنة ونصف، فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة عند إجابة الأوس والخزرج إلى دعائه، فكانت بيعة العقبة، شهدها الأنصار ورسول الله والعباس وهو يومئذ لم يسلم بعد، فلما وثق الأمر أمر أصحابه بالهجرة، وافترض الجهاد، فخرج أصحابه أرسالًا، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبوبكر ودليلهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعبد(٦) الله بن أرقط، وقيل: ارتد.

وَخَلَّف عليًا على ودائع الناس ثم لحق به بعد ذلك، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وفيه يقول حسان بن ثابت، وقيل: قالها أبو قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكّر(٧) لو يلقى حبيبًا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يُؤْوي ولم ير واعيا(٨)
فلما أتانا واطمأنت به النوى ... وأصبح(٩) مسرورًا بطيبة راضيا

فدخل المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وهو سنة الهجرة فرد إلى المحرم، فنزل بقباء يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم.

ثم خرج يوم الجمعة ونزل المدينة فصلى الجمعة في المسجد الذي ببطن الوادي، ثم نزل على أبي أيوب.

وأقام بالمدينة بعد قدومه إلى صفر من السنة الثانية، وفيما بين ذلك بنى المسجد، وبنى مساكنه.

وفيها بعد شهر وأيام من وقت قدومه إلى صفر من السنة الثانية وفيما بين ذلك تمت له صلاة المقيم، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد خمسة أشهر من وقت تمام الصلاة، وفيه كان الأذان.

وابتنى بعائشة بعد سبعة أشهر من مقدمه المدينة وهي ابنة تسع سنين، وكان [قد] تزوجها بمكة وهي ابنة ست سنين.

---

(٦) عبد: عبيد، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٥.
(٧) يذكّر: فذكر، م ي. المعارف للدينوري ص١٥١.
(٨) واعيا: داعيا، م ي. المعارف للدينوري ص١٥١.
(٩) وأصبح: فأصبح، م ي. المعارف للدينوري ص١٥١.

ثم دخلت سنة اثنتين[١٠] فزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة من علي عليهما السلام في صفر سنة اثنتين[١١].

ثم كانت غزوة ودان لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول سنة اثنتين على رأس سنة من مقدمه المدينة، وهي غزوة الأبواء يريد قريشًا، وفيها موادعة بني ضمرة.

ثم غزا في شهر ربيع الآخر يريد قريشًا حتى بلغ بواك؛ وهي غزوة العسرة، ثم غزوة بدر الأولى، فخرج في جمادى الأولى والآخرة في طلب كرز بن جابر حتى بلغ بدرًا، ثم رجع إلى المدينة فأقام بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان، وبعث عبد الله بن جحش في رجب في سرية يرصد قريشًا.

وحولت القبلة بعد ستة عشر شهرًا من مقدمه المدينة في رجب يوم الاثنين سنة اثنتين، ثم كانت غزوة بدر الكبرى وقتل صناديد قريش وأسرهم لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد بدر إلى المدينة، وتوفي أبو لهب بعد بدر بأيام، وتوفيت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امرأة عثمان بعد بدر، وكان [قد] تزوجها بالمدينة وتوفيت بعد بدر، وبعد سنة وستة أشهر من مقدمه المدينة في أوائل سنة ثلاث من الهجرة، وكانت غزوة السويق[١٢] بعد بدر في ذي الحجة سنة اثنتين من الهجرة.

ثم دخلت سنة ثلاث من الهجرة فتوفيت رقية، وابتنى علي بفاطمة بعد موت رقية بستة عشر يومًا في صفر سنة ثلاث، وكان [قد] تزوجها في صفر سنة اثنتين، وكان بين التزويج والابتناء نحو من سنة.

وتزوج عثمان أم كلثوم ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابتنى بها بعد [أن] ابتنى علي بفاطمة بخمسة أشهر ونصف.

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفصة بنت عمر بعد ذلك بشهرين، ثم تزوج بزينب بنت خزيمة أم المساكين بعد حفصة بعشرين يومًا، وولد الحسن بن علي في شهر رمضان في النصف منه في سنة ثلاث.

---

(١٠) اثنتين: اثنين، م ي.

(١١) اثنتين: اثنتي، م ي.

(١٢) السويق: السويد، م ي.

وغزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجدًا وغطفان في صفر سنة ثلاث، ثم غزا بني سليم وقريشًا في ربيع الآخر سنة ثلاث.

وفي هذه السنة في هذه الشهور كان أمر بني قينقاع، وسرية زيد بن حارثة لما بعثه إلى عير قريش، وقتل كعب بن الأشرف.

ثم كانت غزوة أحد في شوال سنة ثلاث، وكان وقعة الرجيع وخروج عمرو بن أمية الضمري بعد أحد.

ثم دخلت سنة أربع من الهجرة، وكانت وقعة بئر معونة في صفر سنة أربع، وفيه كانت غزوة بني النضير وإجلاؤهم، وكانت غزوة ذات الرقاع في جمادى الأولى سنة أربع، وكانت بدر الآخرة.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لميعاد أبي سفيان في شعبان من هذه السنة، وذكر أن غزوة الخندق كانت في سنة أربع وليس بشيء.

ثم دخلت سنة خمس من الهجرة، وكانت غزوة الخندق وحديث الأحزاب وقتل عمرو بن عبد ود في شوال.

وخرج في ذي القعدة إلى غزوة بني قريظة وحصارهم[١٣]، وتحكيم سعد بن معاذ، ثم توفي سعد بن معاذ بعده من جراحة كانت به أصابته يوم الخندق، وتوفي في ذي الحجة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست من الهجرة، فكانت غزوة بني لحيان، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جمادى الأولى، ثم كانت وقعت بني قرد بعد أمر بني لحيان بأيام، ثم كانت غزوة بني المصطلق في شعبان، وفيها كان حديث الإفك، وأقام رمضان وشوال.

ثم خرج إلى مكة في ذي القعدة معتمرًا إلى مكة، فصده المشركون، وكان حديث الحديبية والمصالحة في ذي القعدة، وفيها كانت بيعة الرضوان والناس يومئذ سبعمائة وقيل أكثر، وقيل: خمس عشرة مائة، عن سعيد بن المسيب، ثم رجع إلى المدينة.

ودخلت سنة سبع من الهجرة، فيها كانت وقعة خيبر، خرج إليها في المحرم، وقدم جعفر

(١٣) حصارهم: إنزالاهم، ي.

بن أبي طالب من الحبشة وهو بخيبر، وفي يوم قدومه افتتح خيبر، وصالحه أهل فدك على النصف من ثمارهم.

وفيها كانت عمرة القضاء، فأقام بعد منصرفه من خيبر بالمدينة يبعث السرايا ويرسل بالكتب إلى ذي القعدة، ثم خرج في ذي القعدة لعمرة القضاء، فكانت عمرته التي صده المشركون عنها عام الحديبية، فخرج إلى مكة معتمرًا، وأقام بها ثلاثة أيام.

وفي هذه السنة تزوج بميمونة بنت الحارث، فلما قدم مكة أراد أن يقيم ثم يبتني بها فأبى أهل مكة إلا الخروج بعد ثلاثة أيام، فخرج وابتنى بها بسرف، وقدم المدينة في ذي الحجة.

ودخلت سنة ثمان من الهجرة، فكانت وقعة مؤتة، وقتل زيد بن حارثة، وجعفر، وعبد الله بن رواحة في جمادى الأولى.

وكان فتح مكة في شهر رمضان لعشر بقين منه في هذه السنة، فأقام بمكة خمسة عشر يومًا يقصر الصلاة والمسلمون معه وهم عشرة آلاف.

وفي إقامته بمكة كان حديث بني جذيمة وما فعله خالد بن الوليد بهم، وبعثه عليًا للدّية.

ثم كانت غزوة حنين سار إليها في شوال في اثني عشر ألفًا، عشرة كانوا معه وألفان من أهل مكة، فلقي جمع هوازن النصف من شوال.

وفيها كان حصار الطائف، ورجع ولم يفتحها، واعتمر من الجعرانة في ذي القعدة، ثم رجع إلى المدينة في ذي الحجة، وأقام إلى رجب من سنة تسع من الهجرة.

ودخلت سنة تسع من الهجرة، فأقام صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة إلى رجب سنة تسع، ثم سار إلى تبوك.

وفيها فتح دومة الجندل، وصالح أكيدر الدومة(١٤) صاحبها على الجزية.

وفي هذه السنة توفي ذو النجادين ودفن ليلًا، ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك في شهر رمضان، وفي حديث تبوك كان استخلاف علي عليه السلام على المدينة وكلام المنافقين فيه، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي».

---

(١٤) الدومة: العزوة، ي. انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١٢/ ٦٧.

ثم قدم عليه بعد رجوعه إلى المدينة وفد ثقيف، فأقام في المدينة إلى وقت الموسم، ثم بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج وهو أول حجة كان في الإسلام، ونزلت براءة فبعث عليًا ليقرأ على الناس، فحج أبو بكر بالناس وقرأ علي سورة براءة ورجعا.

ثم دخلت سنة عشر ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، فجاء وفود العرب من كل أوب، وبعث رسله إلى ملوك الأرض، وبعث خالد بن الوليد في جمادى الأولى إلى الحرث بن كعب فأسلم.

وأقام بالمدينة إلى ذي القعدة ثم خرج لحجة الوداع لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، فأقام للناس حجتهم وعلمهم المناسك، وقدم[١٥] عليه علي محرمًا وهو بمكة من اليمن، وكان [قد] بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قارنًا، وقيل: أفرد، والأول أصح، وخطب خطبة الوداع، وانصرف إلى المدينة في ذي الحجة، وكان حديث غدير خم على ما يقال بين مكة والمدينة في الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر، والله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة، ولما قدم المدينة أقام بها بقية ذي الحجة ومحرم وصفر، ومرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيامًا، وتوفي في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت في ربيع الأول.

وكان مقامه في المدينة إلى أن قبض عشر سنين، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة، وقيل: إنه ولد يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين، وقبض يوم الاثنين، ودخل المدينة مهاجرًا يوم الاثنين.

ودفن يوم الأربعاء في حجرة عائشة، وفيها قبض، وغسله علي والعباس، وبقي غير مدفون ثلاثة أيام، فصلى عليه الناس، وفي هذه الأيام كانت بيعة أبي بكر وحديث سقيفة بني ساعدة.

---

(١٥) قدم: قد، ي.

فصل في ذكر آبائه وأجداده

أما نسبه فقد ذكرناه إلى عدنان بن أدد، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انتسب إلى عدنان بن أدد ثم قال: «كذب النسابون»، قال الله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨].

وروي أنه انتسب إلى إبراهيم، وروي أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تعلموا[١٦] من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، وتعلموا من النجوم ما تستدلون به على الطريق».

وروي عن ابن مسعود في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] أنه قال: كذب النسابون، الله أصدق حيث يقول: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فكيف ينسب إلى آدم من لا يعلمه إلا الله، وروي نحو ذلك مرفوعًا عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن عمرو بن ميمون: كذب النسابون، نحو ما روي عن ابن مسعود.

قال قاضي القضاة أبو الحسن: فإذا كان المراد بالآية أن اتصال الإنسان غير معلوم ولم يمكن القطع عليه لأنه إما أن يكون كاذبًا أو في حكم الكاذب، وعلى هذا لا يمكن القطع على مقدار السنين من لدن آدم.

وقد اختلف فيما بين عدنان بن أدد إلى إبراهيم اختلافًا كثيرًا، تركناه لقلة الفائدة فيه.

مبحث في ولد إسماعيل عليه السلام

كان لإسماعيل عليه السلام اثنا عشر ابنًا، وأمهم السيدة بنت مضاض الجرهمي، فقيل: عدنان من ولد نابت بن إسماعيل، وقيل: من ولد قيدار[١٧] بن إسماعيل، فلما توفي إسماعيل دفن بجنب أمه في الحجر، فولي البيت نابت بن إسماعيل، ثم توفي، فولي البيت مضاض بن عمرو الجرهمي وهو جد نابت أبو أمه، وبنو نابت[١٨] وبنو إسماعيل صغار مع جدهم مضاض وأخوالهم من جرهم، وجرهم وقطوراء هم يومئذ أهل مكة تولاها وهما ابنا عم: على جرهم

(١٦) تعلموا: تعلمون، م ي. انظر تفسير السمرقندي ٢/ ٢٦٩.

(١٧) قيدار: قعدر، م ي. البداية والزيادة ١٠/ ٣٢٥.

(١٨) نابت: ثابت، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١١.

مضاض، وعلى قطوراء السميدع، وكانا من اليمن نزلا مكة، فنزل مضاض مع قومه بأعلى مكة بقعيقعان، ونزل السميدع [بقطوراء أسفل مكة بأجياد، فكان مضاض يعشر من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع][١٩] يعشر من دخل أسفلها ولا يدخل أحد منهم على صاحبه في ملكه، ثم أنهما تنافسا الملك، ووقع بينهما الشر، وبغى بعضهم على بعض، ونشبت الحرب بينهم على ملك مكة، وبنو إسماعيل مع مضاض، فسار بعضهم إلى بعض، فخرج مضاض معه كتيبة عدتها الرماح والدرق والسيوف والخفاف يقعقع بذلك[٢٠] معهم، ويقال: ما سمي قعيقعان إلا بذلك، وخرج السميدع ومعه قطوراء في جياد من الخيل، فيقال: ما سمي أجياد إلا بذلك، فالتقوا بموضع يقال له فاضح، فاقتتلوا، وقتلوا السميدع، وفضحت قطوراء، فيقال: ما سمي فاضح إلا لذلك، ثم تداعوا إلى الصلح فساروا حتى نزلوا شعبًا بأعلى مكة يقال له المطابخ، فاصطلحوا وأسلموا الأمر إلى مضاض بن عمرو، فلما اجتمع له أمر مكة نحر للناس وأطعمهم، ثم يقال: ما سمي المطابخ[٢١] إلا لذلك، وقيل: سمي مطابخ[٢٢]؛ لأن تُبَّعًا نحر بها وأطعم، وكانت منزله، وكان أول ما بقي بمكة.

حديث مضاض: فقال مضاض في قتله السميدع:

ونحـــن قتلنـــا ســـيدَ الحـــيِّ عِنـــوةً	فأصبـــح فيهـــا وهـــو حيـــرانُ موجـــعُ
ومـــا كان يبغـــي أن يكـــون ســـواؤنا	بهـــا ملـــكًا حتـــى أتانـــا الســـميدعُ
فـــذاق وبـــالًا حيـــن حـــاولَ ملكنـــا[٢٣]	وعالـــج منـــا غصـــة تتجـــرعُ
ونحـــن عمرنـــا البيـــتَ مـــن بعـــد نابـــتٍ	نُحامـــي عنـــه مـــن أتانـــا وندفـــعُ
ومـــا كان يبغـــي أن يلـــي ذاك غيرُنـــا	ولـــم يـــك حـــيّ قبلنـــا ثـــم يمنـــعُ
وكنـــا ملـــوكًا فـــي الدهـــور التـــي مضـــت	ورثنـــا ملـــوكًا لا تـــرام فتوضـــعُ

ثم نشر الله[٢٤] ولد إسماعيل وأخوالهم من جرهم الحكام بمكة والعلماء وولاة البيت، فلما

(١٩) +: سيرة ابن هشام ١/ ١١٢.

(٢٠) بذلك: بذنك، ي.

(٢١) المطابخ: المطالح، ي. كذا في سيرة ابن هشام ١/ ١١٣.

(٢٢) مطابخ: مطالح، ي.

(٢٣) ملكنا: مكة، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢١٨.

(٢٤) نشر الله: شراه، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٣.

ضاقت عليهم مكة انتشروا في البلاد، وبكل موضع دخلوا غلبوا على أهله، ونفوا[٢٥] العماليق، وجرهم على ذلك بمكة ولاة البيت لا ينازعهم أحد، فتوالدوا وتناسلوا.

فمن ولد إسماعيل: نزار بن معد، وقنص[٢٦] بن معد، وإياد بن معد، فولد نزار بن معد مضر بن أدد، وقيل: إنه من ولد قيدر، وقد انتهى قصي بن كلاب في بعض شعره إلى قيدر بن إسماعيل، وقيل: ولد ثابت، وقيل: عدنان بن أدد، وقيل: عدنان بن ميدع[٢٧].

مبحث في عدنان

فولد عدنان: عك بن عدنان، ومعد بن عدنان، فولد معد بن عدنان: قضاعة بن معد، ونزار بن معد، وقُنُص[٢٨] بن معد، وإياد بن معد، فولد نزار بن معد: مضر بن نزار، وربيعة بن نزار، وأنمار[٢٩] بن نزار، وولد مضر بن نزار: إلياس بن مضر، وغيلان بن مضر، والعدد في إلياس، وولد غيلان قيسا.

مبحث في إلياس وولده

وولد إلياس بن مضر ثلاثة: مدركة بن إلياس، وطابخة بن إلياس، وقمعة بن إلياس، ويزعم نُسَّاب[٣٠] مضر أن خزاعة من ولد قمعة، وخزاعة تأبى ذلك ويقولون: إنهم من ولد عمرو بن عامر، فلحقوا باليمن، وأم بني إلياس خندف امرأة من اليمن فغلبت على نسب بنيها فقيل: بنو خِنْدَف، واسم مدركة عامر، واسم طابخة عمرو، وزعموا أنهما كانا في إبل لهما يرعيانها، فاقتنصا صيدًا، فقعدا يطبخانه، وعادت عادية على إبلهما فشردت، فقال عامر لعمرو: تدرك الإبل أو تطبخ؟ فقال عمرو: بل أطبخ، فلحق عامر بالإبل فجاء بها، فلما راحا إلى أبيهما إلياس حدثاه بشأنهما، فقال لعامر: أنت مدركة، وقال لعمرو: أنت طابخة، وسميت أمهم خِنْدَف لضرب من المشي كان يمشي.

---

(٢٥) نفوا: فوا، م ي.

(٢٦) قنص: قبص، م ي.

(٢٧) تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٣.

(٢٨) قُنُص: بيص، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠.

(٢٩) سيرة ابن هشام ١/ ٧٣.

(٣٠) تاريخ ابن أبي خيثمة ١/ ١٠١.

ذكر الأثرم أن مدركة وطابخة قد شردت[٣١] إبلهم وأمهم ليلى بنت عمران بن الحاف بن قضاعة، واسم مدركة عمرو، واسم طابخة عامر، واسم قمعة عمير، فخرج عمرو فأدرك الإبل فسمي مدركة، وقعد عامر يطبخ فسمي طابخة، وانقمع عمير في بيته فسمي قمعة، وأقبلت أمهم تمشي ضربًا[٣٢] من المشي فسميت خندف؛ لأنها قيل لها: عَلامَ تخترفين[٣٣]، وقد وُجدت الإبل، فسميت بذلك خندف.

فولد مدركة إلياس بن مضر: هذيل بن مدركة، وخزيمة بن مدركة.

وولد خزيمة بن مدركة: كنانة بن خزيمة، وأسد بن خزيمة، والهون بن خزيمة[٣٤]، أمهم برة بنت مر.

فولد كنانة: النضر بن كنانة، وعبد مناة بن كنانة، وملكان بن كنانة.

مبحث في النضر بن كنانة أبي قريش

هو النضر بن كنانة، أمه برة بنت مر بن أد بن طابخة بن خندف، وكانت برة تحت[٣٥] خزيمة، فخلف كنانة عليها بعد أبيه فولدت له النضر، وكان سائر بنيه لامرأة أخرى، والنضر أبو قريش.

روي قال: من لم يلده النضر فليس بقرشي. فولد النضر بن كنانة: مالك بن النضر وأمه عاتكة بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، ومخلد بن النضر.

فولد مالك بن النضر: فهر بن مالك، وأمه جندلة[٣٦] بنت الحرث بن مضامن بن عمرو الجرهمي.

فولد فهر بن مالك أربعة: غالب بن فهر، ومحارب[٣٧] بن فهر، والحرث بن فهر، وأسد بن فهر، وأمهم ليلى بنت أسعد بن هذيل بن مدركة بن خندف، فمحارب والحرث جماع نسب بني فهر، وأسد بن فهر لا بقية له درج صغيرًا.

---

(٣١) قد شردت: وقعه سددت، م ي.

(٣٢) ضربًا: فرا، م ي.

(٣٣) عَلامَ تخترفين: غلام بخندفين، م ي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٢٣١.

(٣٤) خزيمة: خزينة، م ي.

(٣٥) تحت: تخت، م ي.

(٣٦) جندلة: حدلة، ي. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص٨.

(٣٧) محارب: مخالب، م ي.

فأما غالب بن فهر فولد: لؤي بن غالب، وتيم بن غالب، أمهما سلمى بنت عمرو بن لحي الخزاعي، وقيس بن غالب [وأمه سلمى بنت كعب][٣٨] الخزاعي.

وولد لؤي بن غالب: كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، وسامة بن لؤي، وأمهم ماوية بنت كعب بن القين، وعوف بن لؤي.

مبحث في ولد لؤي

ويقال: وقعت حرب بين [بني كنانة من] قريش [فافترقوا فرقتين: بنو النضر ابن كنانة وعليهم عامر بن لؤي] وبنو[٣٩] بكر بن عبد مناة [وعليهم يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر]، فعظم فيها الشر، ثم اصطلحوا على أن أخرجوا الدّية في قتلاهم من الجانبين، فرهن عامر بن فهيرة [بن] لؤي وكان أكبر بني لؤي ابنًا يقال له سعد، ورهن [يعمر بن عوف ابن] ليث بن بكر وهو أكبر بني بكر ابنًا له يقال له عامر، فحبس[٤٠] عامر عند سامة بن لؤي فسكر سامة، فمر بعامر جفرة[٤١] لسامة فرماها الغلام بحجر فوقذها، فوثب إليه سامة فضربه حتى قتله، ففعلت بنو بكر بسعد بن عامر بن لؤي بن ليث كذلك، فهرب سامة بن لؤي من أخيه عامر بما جر عليه، فلحق بعمان، ويقال: إنه لم يبق منهم كثير بقية.

وتباعدت عند ذلك لؤي بن غالب وبكر بن عبد مناة وتضاغنوا، فلم يزالوا على ذلك إلى يومهم هذا، وعيب عامر بن لؤي بما فعل أخوه[٤٢] سامة فأخافه حتى لحق بعمان، فقال عامر بن لؤي:

أصبحت نفس عامر بن لؤي ... بعد كعب وسامة مشتاقه

جعلت دار سامة بن لؤي ... عوية للشهور فينا محاقه

إن يكن في عمان داري فإني ... غالبي خرجت[٤٣] من غير فاقه

---

(٣٨) البداية والنهاية ٢/ ٢٠٣.

(٣٩) بنو: بني، م ي.

(٤٠) فحبس: فشرب، م ي.

(٤١) وفي الإيناس بعلم الأنساب ص٢٣: مهرة.

(٤٢) أخوه: بأخيه، م ي.

(٤٣) خرجت: نابت، م ي.

القصيدة.

وقال كعب بن لؤي يعاتب عامر بن لؤي في ذلك أبياتًا، وقالت بنو بكر وبنو لؤي في ذلك أشعارًا كثيرة.

وقال أعشى قيس في ذلك تمثل بحديث سامة بن لؤي:

لا تكوني كسامة بن لؤي خاف ضيمًا فمات في الأرض حرا
خاف من عامر أخيه فأمسى قد تقضى بأرض سوء قفرا

ثم لسعت سامة حية فقتلته.

وأما عوف بن لؤي فنسبه في غطفان وهم ينكرون ذلك، ومنهم من ينسب إلى قريش، ولهم في ذلك أشعار كثيرة ليس هذا موضعها.

فولد كعب بن لؤي ثلاثة: عدي بن كعب، ومرة بن كعب، وهصيص بن كعب، وأمهم وحشية[٤٤] بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك بن النضر، ومن عدي كان عمر بن الخطاب.

وولد مرة بن كعب: كلاب بن مرة، ويقظة[٤٥] بن مرة، أم كلاب هند بنت سرير[٤٦] بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن النضر.

وولد كلاب بن مرة: قصي بن كلاب[٤٧]، وزهرة بن كلاب، وأمهما فاطمة بنت سعد.

مبحث في كلاب بن مرة وقصي وزهرة وولاية البيت

فولدت فاطمة بنت سعد بن كلاب بن مرة: زهرة، وقصي، والعدد في قصي.

ولما انتشر ولد إسماعيل تفرقوا في البلاد، فكل من كان يخرج من مكة يحمل معه حجرًا فحيث حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تعظيمًا للحرم حتى خلف الخلوف[٤٨] وتناسلت القرون، فعبدوا ما يستحسنون من الحجارة، ونسوا ما كانوا عليه من دين إبراهيم

(٤٤) وحشية: وحشبة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٣.
(٤٥) يقظة: بقصة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٣.
(٤٦) سرير: سري، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٣.
(٤٧) كلاب: طلاب، ي.
(٤٨) الخلوف: خلوف، م ي.

[و] إسماعيل، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من دين إبراهيم من مناسك الحج وغيره مع إدخالهم فيه ما ليس منه.

وكان أول مَنْ غيّر دين إبراهيم ونصب الأوثان وسن السائبة والوصيلة والحامي عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف جد خزاعة، وخزاعة تنكر إلا أن يكون من ولد عمرو بن عامر.

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأكثم[٤٩] بن جون الخزاعي: «يا أكثم رأيت[٥٠] عمرو بن لحي يجر قُصْبَهُ[٥١] في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك» فقال أكثم: أيضرني[٥٢] شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول مَنْ غَيَّر دين إسماعيل، ونصب الأوثان، وسيب السائبة، وبحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي».

وذكر الهادي عليه السلام أن أول من سن البحيرة والسائبة ونحرها قصي.

وروى أبو سعيد الخدري في حديث طويل أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينا يومًا ببعض الصلوات الظهر أو العصر، فبينا هو يصلي إذ دنا أمامه في قبلته حتى قلنا هو يريد أن يتناول شيئًا، ثم استعاد واستأخر وأعرض بوجهه، ثم انصرف فقيل: يا رسول الله لقد رأينا صنعت في صلاتك اليوم شيئًا ما كنت تصنعه، قال: «أجل، عرضت علي الجنة والنار في مقامي هذا، فتناولت من الجنة قطفًا لأريكموه فحيل بيني وبينه»، فقال له رجل: ما مثل الحبة[٥٣] منه؟ قال: «كأعظم دلوٍ فَرَّتْ[٥٤] أمك، ثم عرضت علي النار فتعوذت بالله منها واستأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي يَجُرُّ قُصْبَهُ فيها، وعمران الغفاري معه محجنه الذي [كان] يسرق به الحاج» وذلك أن عمرو بن لحي خرج إلى الشام وهم يعبدون الأوثان، فقال: ما هذه؟ فقالوا: أصنام نعبدها ونستنصرها، قال: أفلا تعطونني منها صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه هبل، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته، ونصب أساف ونايلة، وقد كان امرأة ورجل فزنيا في الكعبة فمسخا، ونصب الأوثان وعبدوها، وتناسلت القرون على ذلك حتى

(٤٩) لأكثم: لكيم، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٧٦.

(٥٠) يا أكثم رأيت: ما كثم، ي. سيرة ابن هشام ١/ ٧٦.

(٥١) قُصْبَهُ: قصبته، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٧٦.

(٥٢) أيضرني: أصرني، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٧٦.

(٥٣) ما مثل الحبة: مثل ما الجنة، ي.

(٥٤) دلوٍ فَرَّتْ: ولو رمة، م ي. صفة الجنة ٢/ ١٩١ كذا في بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ١٠/ ٧٦٤.

أخذ كل قبيلة وفرقة صنمًا، وهو الذي نصب المناة، وغَيَّر التلبية وزاد فيها: لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. وكان الدفع من عرفات بعد غروب الشمس فجعله عمرو بن لحي قبل غروبها، وأخر الدفع من مزدلفة حتى طلعت الشمس، وأحل البغي لنساء أهل مكة، فأخذن[٥٥] الأجر [على] ذلك، إلى أن جاء الإسلام فرفع جميع ما غيره عمرو بن لحي.

وولاية البيت إلى جرهم كما كان، وهم الحكام، فقال رجل يخاطب عمرًا فيما غيّر وبدّل وهو رجل من جرهم وكان على دين إسماعيل:

يا عمروُ لا تظلمْ بمـ ... ـكةُ إنها بلدٌ حرامْ
سائل بعادٍ[٥٦] أين هم ... وكذاك تخترم[٥٧] الأنامْ
وبني[٥٨] العماليق الذين ... لهم بها كان السوامْ

فأخرج عمرو ذلك الرجل من مكة فنزل بأرض المدينة، فقال يتشوق إلى مكة من أبيات أولها:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... وأهلي معًا بالمأزمين حلولُ
وهل أرين العيس تنفح في البرى ... لها بمنى والمأزمين زميلُ[٥٩]
منازلُ كنا أهلَها لم يحل ... زمان بها فيما أراه[٦٠] يحولُ
غدا أولونا قانعين بشأنهم[٦١] ... وغالت بني سعدٍ بمكّة غولُ

وكان فيما بينهم[٦٢] قصة من أخبار نوح وأسماء تلك الأصنام فسمت[٦٣] بها هذيل صنمهم سواعًا، وكلب ودًا، وطي ومذحج يغوث، وهمدان يعوق، وحمير نسرًا، وكان أعظم الأصنام عند قريش هبل، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل.

---

(٥٥) فأخذن: فأخذت، ي.
(٥٦) بعاد: معدًا، ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٧.
(٥٧) كذاك تخترم: كذلك يحترم، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٧.
(٥٨) بني: بنو، ي.
(٥٩) زميل: ركيل، ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٧.
(٦٠) أراه: أتاه، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٧.
(٦١) أولونا قانعين بشأنهم: أولو نارطين لشأنهم، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٧.
(٦٢) بينهم: بلينهم، م ي.
(٦٣) فسمت: فسموا، م ي.

وتفرقت العرب في التلبية، فكل قبيلة لبت لصنم، وكانت لقريش ومضر وبني كنانة العزى، وكانت مناة للأوس والخزرج، كذلك لكل قبيلة صنم، فعبدوا الأصنام وتناسلوا على ذلك، وولاية البيت لجرهم، وفي زمنهم كانت حديث تبع على ما نذكره من بعد.

ثم إن جرهمًا بقيت[٦٤] بمكة واستحلوا حلالا من الحرمة، فلما ظهر بغيهم ولم يكونوا يُنازَعون من قبل فيما ورثوه من الولاية عن آبائهم فطغوا وأكلوا مال الكعبة، فظلموا عمرو بن الحرث بن مضاض الجرهمي وليس هو الأكبر، ولكنه سمي بأسمائهم يحذرهم ذلك من أبيات فيها:

فأوفـوا بعهـدِ اللهِ كيمـا يُعزَّكـم ويبدلكـم أمنًـا بـه فـي حياتكـم

فلم ينتهوا، فلما رأى بكر بن عبد مناة من كنانة وغبشان[٦٥] من خزاعة ما تصنع جرهم وما زف من أمرها أجمعوا لحربهم وطردهم[٦٦] من مكة، فآذنوا بالحرب وباينوا بالعداوة، فقال عمرو بن الحرث بن مضاض الجرهمي يحذرهم القتال في الحرب من أبيات كثيرة أولها:

نعـوذُ بـربِ النـاسِ مـن كلِّ ظالـمٍ بغى في ملوكِ بني[٦٧] كعبٍ وجرهمِ

فلم يزل بينهم الأمر حتى اقتتلوا، فغلبهم بكر وغبشان[٦٨] ونفوهم عن مكة إلى ما حولها، وولوا البيت عليهم وكل ما كانوا يلون بمكة، فلما أيقن عمرو بن الحرث بن مضاض الجرهمي بغلبة[٦٩] القوم عليهم خرج من مكة وهو يقول ويتشوق إلى الكعبة ويتوب مما صنع جرهم:

لا هـم إن جرهـمَ عبـادُك النـاسُ طـرفٌ وهـم تـلادُك
وهـم قديمًـا عمـروا بـلادَك فـلا نـرومُ رَبنـا بعـادَك
يـا رب أظهرنـا علـى أعـادِك

فلما أيس من دخول الحرم خرج بغزالي[٧٠] الكعبة وبحجر الركن فدفنهما في زمزم ورجع

(٦٤) بقيت: بقت، ي.
(٦٥) غبشان: عيشان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/ ٤٨٦.
(٦٦) لحربهم وطردهم: لجرهم واطرحهم، ي.
(٦٧) بني: بين، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/ ٤٨٦.
(٦٨) غبشان: عيشان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ١/ ٤٨٦.
(٦٩) غلبة: غلبهم، م ي.
(٧٠) بغزالي: إلى، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٤.

مع قومه إلى اليمن، فدخل بينهم وبين مكة وفارقوا أبنيتها وحرمها. انتهى. وفي ذلك قال عمرو يبكي مكة وملكهم بها:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أناس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
ونحن ولاة البيت من عهد نابت ... بعز فما يحظى لدينا المكاثر
وكنا[٧١] ولينا البيت من عهد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ملكنا فأعززنا وعظم ملكنا ... فليس لحي غيرنا ثم فاخر
فأخرجنا منها المليك[٧٢] بقدرة ... كذلك بين الناس تجري المقادر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة ... كذلك عضتنا السنون الغوابر[٧٣]
فسحَّتْ دموع العين تجري لبلدة ... بها حرم أمن وفيها المشاعر

وقد قالوا في ذلك أشعارًا كثيرة.

فلما ولي البيت بكر وغبشان[٧٤]، فولت غبشان[٧٥] البيت دون بني بكر، وكانت بكر عضدًا لهم وناصرًا، وقريش إذ ذاك متفرقون بيوتات في قومهم من كنانة، فأول من ولي البيت من غبشان[٧٦] عمرو بن الحرث بن عمرو بن غبشان[٧٧] فيه يقول:

ونحن ولينا البيت من بعد جرهم ... لنمنعه من كل باغ وظالم
ونمنعه من كل باغ يريده ... فيرجع عنا[٧٨] كيده غير سالم
ونحفظ حق الله فينا بجهدنا ... ونمنعه من كل عات وآثم
ونحن نفينا جرهمًا من بلادنا ... إلى بلد ناءٍ كثير المآثم

إلى أبيات غيرها.

(٧١) كنا: نحن، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٥.
(٧٢) المليك: مليك، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٥.
(٧٣) الغوابر: العواثر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٥.
(٧٤) غبشان: غسان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ٦٢.
(٧٥) غبشان: غسان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ٦٢.
(٧٦) غبشان: غسان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ٦٢.
(٧٧) غبشان: غسان، م ي. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ٦٢.
(٧٨) عنا: منا، م ي.

فوليت خزاعة البيت بعد جرهم، فتوارثوا ذلك كابرًا عن كابر حتى كان آخر من ولي منهم حليل(٧٩) بن حبشية بن سلول الخزاعي، وكانوا بمكة على ما كان جرهم هم الحكام، وإليهم الولاية، وقريش متفرقة في كنانة.

عادت قصة قصي: فقدم في بعض الزمان حاج من قضاعة فيهم ربيعة بن حرام القضاعي، وكان قد هلك كلاب بن مرة وترك زهرة(٨٠) بن كلاب وقصي بن كلاب مع أمهما فاطمة بنت سعد، فتزوج ربيعة بن حرام(٨١) القضاعي بفاطمة بنت أسد أمهما وزهرة رجل قد بلغ، وقصي فطيم، فحملها إلى بلاده من أرض بني عذرة، فاحتملت معها قصيًا واسمه زيد بن كلاب، وقصي فعيل من قصى يقصو، وإنما سمي بذلك لأنه يقصى في الشام عن عشيرته، وكان يقال له مجمع، قال الشاعر:

أبـوك قصـي كان يدعـى مجمعًـا ... بـه جمـع الله القبائـل مـن فهـر

وإنما سمي مجمعًا؛ لأنه جمع قبائل فهر بعد عوده إلى مكة على ما نبينه، فذهبت فاطمة به إلى بلاد زوجها من الشام وهم أشراف الشام، فأولدت لربيعة بن حرام رزاح بن ربيعة فهو أخو قصي لأمه، ولربيعة بن حرام ثلاثة بنين من امرأة أخرى: حن(٨٢) بن ربيعة، ومحمود بن ربيعة، وجلهمة بن ربيعة.

فكبر قصي بأرض قضاعة ونشأ لا ينتمي إلا إلى ربيعة، فوقع بينه وبين رجل قضاعي شيء بعدما بلغ قصي، فعيره القضاعي بالغربة، وقال له: ألا تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا، فرجع قصي إلى أمه وقد وجد في نفسه مما قال القضاعي، فسألها عن ذلك، فقالت: يا بني أنت أكرم منه نفسًا ووالدًا، أنت قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي، وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله، فأجمع قصي [على] الخروج إلى مكة واللحوق بقومه وكره الغربة، فقالت: يا بني لا تعجل بالخروج حتى يدخل الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فإني أخشى عليك [أن] يصيبك بعض الناس، فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام، فخرج حاج قضاعة فخرج قصي فيهم حتى قدم مكة، فلما فرغ

(٧٩) حليل: خليل، ي.
(٨٠) زهرة: زبرة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٤.
(٨١) حرام: حزام، ي. الكامل في التاريخ ١/ ٦٢١.
(٨٢) سيرة ابن هشام ١/ ١١٨.

من الحج أقام بها، وكان رجلًا جلدًا، فخطب إلى حليل بن حبشية[٨٣] ابنته حُبّى[٨٤]، وبحث حليل[٨٥] فيه فعرف نسبه، فزوجه وهو يومئذ يلي مكة وأمر الكعبة، فولد له حُبّى[٨٦] بنت حليل: عبد الدار بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وعبد العزى بن قصي.

فلما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل بن حبشية[٨٧] فرأى قصي أنه أولى بالكعبة ومكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشًا ولد إسماعيل، فكلم رجالًا من قريش وكنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبني بكر من مكة، فلما قبلوا منه ذلك وبايعوه كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد قومه يدعوهم إلى نصرته والقيام معه، فقام رزاح في قضاعة فدعاهم إلى نصر أخيه فأجابوه، فخرج رزاح ومعه إخوته لأبيه حن بن ربيعة ومحموده بن ربيعة وجلهمة بن ربيعة فيمن تبعه من قضاعة في حاج العرب، وهم مجمعون لنصر قصي والقيام معه وخزاعة تزعم[٨٨] أن حليل بن حبشية[٨٩] أوصى بذلك قصيًا ومن معه وأمره بذلك حين انتشر له ما انتشر من الولد وقال: أنت أولى بالكعبة ومكة من خزاعة، فعند ذلك طلب قصي ذلك، فلما أجمع قصي ومن معه على حرب خزاعة فخرجوا للحج، فأتاهم قصي ومن معه وقال: نحن أولى بهذا منكم، فناكروه وناكرهم، فاقتتل الناس فغلبهم قصي، وخرجت بنو خزاعة وبنو بكر، واقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثرت القتلى، ثم تداعوا إلى الصلح وأن يحكموا رجلًا، فحكموا عمرو[٩٠] بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فقضى أن قصيًا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصي منهم هدر، وكل دم أصابوه من قوم قصي ففيه الدية، وأن يخلى بين البيت وبين قصي.

فولي قصي أمر الكعبة وملكهم، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة، فسمي مجمعًا لذلك، فكان قصي أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكًا أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والبدوة واللواء، فحاز سوق مكة، وتيمنت قريش بأمره

(٨٣) حبشية: حبية، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٤) حُبّى: حي، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٥) سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٦) حُبّى: حي، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٧) حبشية: حه، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٨) تزعم: يزعم، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٨٩) حبشية: حسية، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(٩٠) عمرو: بعمرو، ي.

فلا تزوج امرأة إلا في داره، ولا يتشاور إلا فيها، ولا يعقدون لواءً إلا فيها اعترافًا بفضله وتبركًا بأمره، واتخذ قصي دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، وانصرف أخوه رزاح بن ربيعة بمن معه من قضاعة إلا بلاده وهو يقول في ذلك أشعارًا كثيرة منها:

ولما أتى من قصي رسول ... فقال الرسول أجيبوا الخليلا
نهضنا إليه نقود الجياد ... ونطرح عنا الملول الثقيلا
فلما انتهينا إلى مكة ... أبحنا الرجال قبيلا قبيلا[٩١]
قتلنا خزاعة في دارها ... وبكرًا قتلناه وجيلا[٩٢] فجيلا
نفيناهم من بلاد المليك[٩٣] ... كما لا يحلون أرضًا سهولا
فأصبح سبيهم في الحديد ... ومن كل حي شفينا الغليلا[٩٤]

وقال أيضًا من قصيدة:

دعاني فاستجبت له قصي ... فما أبطأت عنه ولا ونيت
وقد علمت خزاعة حين جئنا ... نريد قتالها ماذا أتيت
وبكرًا قد أذقت بها عذابًا ... شديدًا مخزيًا حتى انتهيت

وقال قصي في ذلك:

أنا ابن العاصمين بني لؤي ... بمكة منزلي[٩٥] وبها ربيت
رَزَاحٌ[٩٦] ناصري وبه[٩٧] أسامي ... فلست أخاف ضيمًا ما حييت

فلما كبر قصي وكان أكبر ولده عبد الدار، وكان أضعفهم، وكان عبد مناف وعبد العزى وعبد [بقية] بني قصي قد شرفوا زمن[٩٨] أبيهم، فقال قصي لعبد الدار: لألحقنك بهم، لا يدخل أحد منهم الكعبة حتى أنت تفتحها، ولا يعقد لقريش لواء إلا أنت بيدك، ولا يشرب أحد

(٩١) سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ٢/ ٣٧.
(٩٢) وجيلا: جيلًا، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ٢/ ٣٧.
(٩٣) المليك: الملك، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ٢/ ٣٧.
(٩٤) الغليلا: غليلا، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١١٨، والروض الأنف ٢/ ٣٧.
(٩٥) منزلي: منبتي، م ي.
(٩٦) رَزَاحٌ: قضاعة، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٢٦٦.
(٩٧) به: بهم، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٢٦٦.
(٩٨) زمن: من، ي. البداية والنهاية ٢/ ٢٦٦.

بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمرًا لها إلا في دارك، فأعطاه دار الندوة، والحجابة، واللواء، والسقاية، والرفادة كانت خراجا تخرجه[٩٩] قريش في كل موسم إلى قصي ليصنع طعامًا للحاج، وقصي قد فرض ذلك عليهم، فبقي ذلك في الجاهلية، فلما جاء الإسلام جرى على ذلك، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس.

ثمّ هلك قصي، فقالت برة من قصيدة تبكي أباها:

طرق النعي بُعَيْد نومِ الهُجَّدِ ... فنعى قصيًا ذا الندى والسؤددِ
فنعى المهذبَ من لؤي كلِّها ... فانهلّ[١٠٠] دمعي كالجمان المفردِ
فأرقت من حزن وهَمٍّ داخل ... أرقَ السليبِ لوجده المتفقدِ[١٠١]
من فقد ذي حسبٍ ومجدٍ باسقٍ ... في كل نائبةٍ تنوبُ ومشهدِ
إن السميدع[١٠٢] لا أبا لك فاعلمي ... أمسى صريع الجنب غير موسدِ
ماذا هنالك من ندى وسماحة ... وتكرم وتوسع وتمجدِ
فابكي أباك أخا المكارم والندى ... يا لهف نفسي مثله لم يُفقدِ

وقالت تخمر[١٠٣] بنت قصي:

ما بال عينك لا تنامُ كأنما ... كُحلتْ بصابٍ بعد نومِ الهُجَّدِ
تبكي أباكِ البدر ليس بزملٍ ... في النائبات ولا لئيمِ المحتدِ
تبكي قصيًا ذا المهابةِ والندى ... صافي السجيةِ كالشهابِ الموقدِ

وقالت تماضر[١٠٤] بنت زهرة تبكي عمها قصيًا من قصيدة:

طرقت همومي بعد نومِ الهُجَّدِ ... فانهل دمعي ثم عيل مجلدي
فابكي عقيل بني لؤي كلِّها ... ذا المكرمات وذا الندى والسؤددِ
أبكي الذي ورث المكارم فانتمى ... في ناصحٍ عند السماءِ ممردِ

---

(٩٩) خراجا تخرجه: حرجًا محرجة، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٩.

(١٠٠) فانهلّ: انهل، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٩.

(١٠١) المتفقد: المتردد، م ي. سمط النجوم العوالي ١/ ٢٢٩.

(١٠٢) السميدع: السميد، ي.

(١٠٣) تخمر: لحمى، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٦.

(١٠٤) تماضر: تماطر، ي. المنمق من أخبار قريش ص٥٠.

فلما هلك قصي قام بنوه مقامه من بعده، ثم هلكوا، فقالت برت تبكي أخاها عبد مناف:

ألا يا عين جودي واستهلي لعبدِ منافَ ذي الباعِ الطويلِ
بَسَجْلٍ[١٠٥] من سجالِك مستفيضٍ فقد فارقتِ ذا الخلقِ الجميلِ

وقالت لحمى تبكي عبد مناف:

ألا يا عين وَيْحَكِ[١٠٦] أسعديني لعبدِ منافَ ذي الخلقِ الجميلِ
بدمع من دموعك غيرِ نزرٍ فقد صبحت بالشكلِ العجولِ

من قصيدة.

فلما هلك بنو قصي قام أولادهم مقامهم، فضاقت مكة بالناس، وقلت المياه، فحفروا الآبار، فحفر عبد شمس الطَّوِيّ والمطعم بن عدي سَجْلَه، وحفرت قبائل قريش آبارًا يشربون منها، وقالوا في ذلك أشعارًا كثيرة.

مبحث في عبد مناف بن قصي وولده بعده

فولد عبد مناف بن قصي: هاشم بن عبد مناف، وعبد شمس بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، أمهم عاتكة بنت مرة بن هلال السلمي، ونوفل بن عبد مناف، أمه وافدة بنت عامر المازنية، فاختيرت عبد مناف، وكان العدد فيها من ولد قصي، ولها الفضل على قريش، وقيل: إنما سميت قريش لتجمعها من تفرقها، والتقريش الجمع، وقيل: سميت بذلك لأن قريش دابة في البحر تدب على جميع دواب البحر.

وكان في يد بني عبد الدار بن قصي ما جعل إليه قصي، والشرف والفضل في بني عبد مناف، ثم إن بني عبد مناف أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي مما جعله إليه قصي، ورأوا أنهم أولى بذلك لشرفهم وفضلهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فمنهم طائفة كانت مع بني عبد مناف يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لشرفهم وفضلهم، ومنهم طائفة مع بني عبد الدار يرون ألا ينزع ذلك منهم لأمر قصي، وكان أمره في قريش كالدين المتبع تيمنًا بأمره ومعرفة بفضله، فاجتمع إلى بني عبد مناف - واسم عبد مناف المغيرة - قبائل من قريش

(١٠٥) السَّجْلُ: الدلو العظيمة الضخمة. اللسان (سجل).

(١٠٦) يْحَكِ: يحكم، م ي.

وهم: بنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب بن مرة، وبنو تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، وبنو الحرث بن فهر بن مالك بن النضر، فاجتمعوا مع بني عبد مناف وهم خمس قبائل وصاحب أمرهم عبد شمس بن عبد مناف؛ لأنه كان أسن بني عبد مناف.

واجتمع إلى بني عبد الدار قبائل من قريش وهم: بنو مخزوم، وبنو عدي بن كعب، وبنو جمح، وبنو سهم، اجتمعوا مع بني عبد الدار خمس قبائل، وصاحب أمر بني عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي.

فلما قام كل قوم بأمرهم أبا بنو عبد الدار أن يسلموا ما في أيديهم، وأبى بنو عبد مناف إلا أخذه من أيديهم، فعند ذلك عقد كل قوم على أمرهم حلفًا مؤكدًا ألا يتخاذلوا[١٠٧]، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا فوضعوها لأحلافهم في المسجد فغمس القوم أيديهم فيها وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا فسموا المطيبين، وتعاقدت بنو عبد الدار وتحالفوا وحلفاءهم عند الكعبة، فسموا الأحلاف. المتطيبون خمس رأسهم عبد مناف، والأحلاف خمس أولهم عبد الدار.

ثم عُبِّئ[١٠٨] الناس واجتمعوا للحرب، فبيناهم على ذلك إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء إلى بني عبد الدار كما كانت، فرضي كل واحد من الفريقين به، وتحاجز[١٠٩] الناس عن الحرب، وثبت كل قوم من حالفوا معه، فلم يزالوا كذلك حتى جاء الله بالإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا حلف في الإسلام».

فولي الرفادة والسقاية هاشم بن عبد مناف؛ لأن عبد شمس كان رجلًا سفارًا، وكان مولى ذا ولد كثير، وكان هاشم موسرًا، فكان يقيم الضيافة لأهل الموسم، وتخرج قريش إليه ذلك الخراج، وزعموا أنه أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف، وأول من أطعم الثريد بمكة، واسمه عمرو بن عبد مناف، فسمي هاشمًا لهشمه الخبز، وفي ذلك يقول شاعرهم:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه	ورجال مكة مسنتون عجاف
وإليه كان الرحلتان كلاهما	سفر الشتاء ورحلة الأصياف

(١٠٧) يتخاذلوا: يتجاذلوا، م ي. كذا في السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣١.

(١٠٨) عُبِّئ: عير، م ي.

(١٠٩) تحاجز: تحاجر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٣٢.

ثم هلك هاشم بغزة من أرض الشام، فولي ما كان إليه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من هاشم وعبد شمس، وكان ذا شرف وفضل، ويسمى الفيض لسماحته وفضله.

وكان أول من هلك من بني عبد مناف هاشم بغزة من أرض الشام، ثم عبد شمس بمكة، ثم المطلب باليمن، ثم نوفل بسلمان من أرض العراق.

مبحث في عبد المطلب بن هاشم

وكان هاشم قدم المدينة فتزوج سلمى بنت زيد بن عمرو من بني عدي بن النجار، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح[١١٠] فولدت له عمرو بن أحيحة[١١١]، وكانت لا تنكح إلا لشرفها في قومها، وتشترط لها أن يكون أمرها بيدها إذا كرهت رجلًا فارقته، فلما تزوجها هاشم ولدت له عبد المطلب، ورأوا في رأسه شعرة بيضاء، فسمته - وكان يقال له -: شيبة الحمد، فتركه عندها حتى هلك هاشم، فلم يزل عندها حتى كبر، ثم خرج إليه عمه المطلب بن عبد مناف ليقبضه إليه ويلحقه ببلده، فأبت أمه أن يسير معه، وأبى هو وقال لها: إنه قد بلغ، وإنه غريب، وإن له في قومه شرفًا، وبلده وعشيرته خير له، وأبى شيبة أن يسير معه إلا بالإذن من أمه، فلم يزل بها حتى أذنت له بالخروج مع عمه، فقال المطلب في ذلك أشعارًا منها يذكره وما عرف منه[١١٢]:

عرفت شيبة والنّجّار قد حفلت ... أبناؤها حوله بالنَّبل تنتضل
عرفت إجلاله منا وشيمته[١١٣] ... ففاض منى عليه[١١٤] وابلٌ سبل
من مقلتي كأني قبل رؤيته ... لم ألق ذا رحم مذ حنت الإبل
فقلت يا شيب إن الشوق أرحلني ... من دار قومك إذ شرفي بها مثل
ما زرت يشرب إلا في طلابكم ... صبًا إليك وقد كانت بنا علل
يا شيب إن نذورًا فيك قد وجبت ... مني فشد رحيلًا أيها الرجل
فقال كيف بها تمشي مفجعةً ... أم من إذا ما قطعنا حبلها نصل

(١١٠) أحيحة بن الجلاح: أحيحة بن الخلاج، م ي. أسد الغابة ٤/ ١٧٧.

(١١١) أحيحة: أجيحة، ي. أسد الغابة ٤/ ١٧٧.

(١١٢) طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٦٧.

(١١٣) شيمته: عيبته، ي. طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٦٧.

(١١٤) ففاض منى عليه: وعينه فاض منها، م ي. طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٦٧.

حنت إليك من النجار والـ.....ـدة أدت لقـوم نَجِيبًـا[١١٥] حيـن تفتحـل
جـاءت بـه مثلـه فـي صـورة كملـت حـط المثـال فـلا جبـن ولا بُخْـلُ

ثم احتمله وانطلقا، فدخل به المطلب مردفه على بعيره مكة، فقالت قريش: عبد للمطلب ابتاعه، فقال: ويحكم إنما هو ابني قدمت به من المدينة، فبذلك سمي عبد المطلب، وهلك المطلب بعد ذلك.

وفي زمان المطلب كانت حرب بكر وقريش، فإنها كانت بهم أبدًا تقريش لما فعله قصي بهم، فاجتمعوا لذلك زمن المطلب فاقتتلوا ساعة قتالًا شديدًا وانهزمت بنو بكر، فلم تعد بعد ذلك لحرب قريش.

فلما هلك المطلب بردمان من اليمن ولي بعده السقاية والرفادة عبد المطلب، وأقامها للناس، ولما هلك أعيان بني عبد مناف وصار ما في أيديهم إلى أبنائهم، وكانوا ذوي[١١٦] شرف وفضل بكاهم الناس وقالوا في ذلك أشعارًا كثيرة، منها ما قالت خلدة بنت هاشم تبكي أباها وأعمامها:

بكـت عينـي وحُـقَّ لهـا بكاهـا وعاوَدهـا إذا تُمسـي[١١٧] قذاهـا
أبكـى[١١٨] خيرَ مـن ركـبَ المطايـا ومن لَبِسَ النعـالَ[١١٩] ومـن حذاهـا
أبكـي[١٢٠] هاشـمًا وبنـي أبيـه فَعِيـلَ الصبـرُ إذ منعـت كراهـا[١٢١]
فلـو كانـت نفـوسُ النـاس تُفـدى فديتُهـم وحُـقَّ لهـا فداهـا

وقالت أمية بنت عبد شمس تبكي أباها وعمها:

أبـى ليلـيَّ أن[١٢٢] يذهـبْ ونيـط النجـمُ بالكوكـبْ
لفقـد عشيـرةٍ هلكـوا كـرامِ الخيـمِ والمنصـبْ

(١١٥) نَجِيبًا: مجيبًا، ي.
(١١٦) ذوي: ذا، م ي.
(١١٧) تمسي: يمسي، م ي. بلاغات النساء لابن طيفور ص١٨٦.
(١١٨) أبكى: تبكي، م ي. بلاغات النساء لابن طيفور ص١٨٦.
(١١٩) النعال: النهال، م ي. بلاغات النساء لابن طيفور ص١٨٦.
(١٢٠) أبكي: تبكي، م ي. بلاغات النساء لابن طيفور ص١٨٦.
(١٢١) إذ منعت كراها: وامتنعت غذاها، م ي. بلاغات النساء لابن طيفور ص١٨٦.
(١٢٢) أبى ليلي أن: ألا لليل لا، م ي.

أحـال[١٢٣] عليهـم دهـرٌ حديـدُ[١٢٤] النـابِ والمِخْلـبْ
ومـا منـه إذا مـا حـلَّ مـن منجـى ولا مهـربْ
ولا ملجـأ ولا حـرزٍ ولا مفـدى ولا مذهـبْ
ألا يـا عيـن فابكيهـم بدمـعٍ دائـم مسـكب[١٢٥]
فـإن أبكـي فهـم عـزي وهـم ركنـي[١٢٦] وهـم منكـبْ
[وهـم مجـدي وهـم شـرفي وهـم حصنـي إذا أرهـبْ]
وهـم رمحـي[١٢٧] وهـم قوسـي وهـم نبلـيَّ إذ أغضـبْ[١٢٨]
وإن أبكـي بنـي عبـدِ منـافٍ إنهـم[١٢٩] أقـربْ

وقالت خالدة[١٣٠] في هاشم أبيها:

بكـر النعـي بخيـر مـن وطـئ الحصـى ذي المكرمـاتِ وذي الفعـالِ الفاضـلِ
زيـن العشـيرة كلِّهـا وربيعهـا فـي المطبقـات وفـي الزمـان الماحـلِ
فابكـي عليـه مـا بقيـتِ بعولـةٍ فلقـد رُزِئْـت أخـا نـدًى وفواضـلِ
ولقـد رزئـت قريـعَ[١٣١] فهـرٍ كلِّهـا ورئيسـها فـي كل أمـرٍ شـاملِ

وقالت الشفاء بنت هاشم، تبكي أباها من قصيدة:

عيـنُ جُـدِّي بعبـرةٍ وسـجالِ واندبـي إذا بكيـتِ ميـتَ الجـلالِ
واندبـي هاشـمًا أبـاكِ أخـا الجـودِ وذا العـزِّ والنـدى والفعـالِ

---

(١٢٣) أحال: وحال، م ي.
(١٢٤) حديد: جديد، م ي.
(١٢٥) مسكب: مستغرب، م.
(١٢٦) ركني: ديني، ي.
(١٢٧) رمحي: درهي، ي.
(١٢٨) أغضب: إذ أرهب، ي. انظر هذه الأبيات ما عدا البيت الأخير في الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ١/ ٦٩.
(١٢٩) إنهم: فهم، ي.
(١٣٠) خالدة: خلدة، م ي. طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٨٠.
(١٣١) قريع: عقيل، م ي. طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٨٠.

وقالت الضعيفة بنت هاشم تبكي أباها:

أبتْ عَبَراتَ عَينِك لا تنامُ ... تبكي كلما هجعَ النيامُ
تبكي هاشمًا في كل فجرِ[١٣٢] ... كما تبكي على الفننِ[١٣٣] الحمامُ

وقالت رقية بنت هاشم تبكي أباها:

عينُ جودي من البكا بعويلِ ... واندبي ذا الفضولِ بعد الفضولِ
هاشمَ الخيلِ ذا المهابةِ والحلمِ ... والباعِ في الحياةِ الطويلِ

وقال عبد شمس يبكي أخاه هاشمًا:

يا للرجال بطول ليل سرمد ... أمسى فبات علي حق طويل
أذنان ذو المجد الرفيع وذو العلا ... وتركت مثل متيم متبول
وأرقت وامتنع الرقاد فلم أنم ... من ذكر فياض العطاء جزيل
من ذكر هاشم ذي السماحة والندى ... سهل الخليقة ذي[١٣٤] الكرام وصول
سقت الغوادي قبره بمجلجلٍ ... ذي هادب هزم العشي هطول

فلما ولي عبد المطلب بعد عمه المطلب ما كان إليه وأقامه لقومه شرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم حتى لم يقارن[١٣٥] بهم أحد مثله، ثم كان في أيامه حرب بني عبد مناف بن زهرة جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان [أمية بن عبد شمس بن عبد مناف رجلًا جميلًا وكان طريقه على منزل وهب بن عبد مناف بن زهرة وكان لوهب] قينتان فكره ممره[١٣٦] على بابه فنهاه فلم ينته، فعدا وهب على أميّة بالسيف فجرحه، فاجتمعت بنو عبد مناف على إخراج بني زهرة فمنعهم عدي بن قيس السهمي، ثم تداعوا إلى الصباح وأرضوا أميّة من جرحه وقالوا في ذلك أشعارًا.

---

(١٣٢) فجر: فخر، م ي. زاد المسير ١/ ٢٥٩.
(١٣٣) الفنن: العين، م ي. زاد المسير ١/ ٢٥٩.
(١٣٤) ذي: ذو، م ي.
(١٣٥) يقارن: يقال، م ي.
(١٣٦) ممره: مرة، ي.

مطلب في حفر زمزم

وحفر عبد المطلب بئر زمزم وهو بئر إسماعيل، فازداد بذلك شرفًا في قومه، وعطلت كل سقاية كانت بمكة.

وكان من حديث حفر زمزم على ما حكاه علي بن أبي طالب أن عبد المطلب قال: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ فقال: احفر طيبه، فقلت: وما طيبه؟ فذهب، فلما نمت من الغد أتاني وقال: احفر بره، قلت: وما بره؟ ثم ذهب فلما نمت من الغد جاءني وقال: احفر المضنونة[١٣٧]، ثم ذهب عني، فلما كان من الغد نمت فجاءني وقال: احفر زمزم، قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف ولا تذم،، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعظم، عند قرية النمل.

حاشية: وفي نسخة للثعالبي:

يـا أيهـا المدلـج[١٣٨] احفـر زمـزم	إنـك إن حفرتهـا لـم تنـدم
وهـي تـراث مـن أبيـك الأعظـم	تسقي الحجيـج حافـلا لـم يقسـم

فلما دل على موضعها غدا بمعوله ومعه ابنه الحرث بن عبد المطلب ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر، فلما بدا له الطي[١٣٩] كبر، فعرفت قريش أنه أدرك حاجته، فقاموا إليه وقالوا: إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقًا فأشركنا فيها معك، وقال: خصصت بها دونكم، قالوا: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم، قالوا: كاهنة بني سعد - وكانت بأشراف الشام - قال: نعم، فركب عبد المطلب في نفر من بني أبيه، وركب من كل قبيلة نفر، والأرض يومئذ مفازة، فساروا حتى كانوا ببعض الطريق [فَني ماء][١٤٠] عبد المطلب ومن معه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم، فنزلوا، ثم قال عبد المطلب: إن لبثنا هاهنا نموت عطاشًا ارحلوا، فرحلوا، فركب عبد المطلب راحلته، فلما انبعثت به[١٤١] انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب،

---

(١٣٧) المضنونة: المصنونة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٤٣.

(١٣٨) المدلج: المدح، م ي.

(١٣٩) الحجارة التي طوي بها البئر.

(١٤٠) سيرة ابن هشام ١/ ١٤٤.

(١٤١) انبعثت به: أن يعد بها، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٤٤.

فكبر عبد المطلب وشرب، وشرب أصحابه، ثم دعوا القبائل من قريش فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد قضى الله لك علينا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة سقاك زمزم، ارجع إلى سقايتك راشدًا، فرجعوا.

وقيل: إنه لما أمر بحفر زمزم أتى قومه فقال لهم، فقيل: هل بين الموضع؟ فقال: لا، قالوا: فارجع إلى مضجعك فإن أتاك فاسأله، فأتاه ثانيًا فسأله عن الموضع فدله أنه عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدًا، فلما كان غدًا رأى غرابًا نقرها، فأخذ المعول فحفرها ومعه ابنه الحرث، والحفر بين صنمين لقريش: أساف، ونائلة، فقالوا: لا ندعك تحفر بينهما فإنا ننحر عندهما، فقال لابنه الحرث: ذد عني حتى أحفر، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر، فحفر بيرًا حتى بدا له الطي فكبر، وعرف أنه صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، وهو دفن جرهم، ووجد فيها أسيافًا وأدراعًا، فقالت قريش: لنا معك في هذا شركة، فقال: تضرب الأقداح فمن خرج قدحه كانت له، فجعل قدحين للكعبة وقدحين لعبد المطلب وقدحين لقريش، وضرب الأقداح، فخرج قدح الكعبة على الغزالين وقدح عبد المطلب على السيوف والدروع، فضرب عبد المطلب الأسياف بابًا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين، فكان أول ذهب حليت به الكعبة.

وحفر زمزم فأقامها سقاية للناس، وانصرف الناس إليها، وعطلت الآبار لمكانها من البيت ولفضلها على من سواها، ولأنها بئر إسماعيل.

عن علي: خير واد وادي مكة، وخير بئر بئر زمزم.

ابن عباس: صلوا في مصلى الأخيار، واشربوا من شراب الأبرار، قيل: وما ذاك؟ قال: الصلاة تحت الميزاب، وشرب ماء زمزم.

مطلب في نذر عبد المطلب

وكان عبد المطلب لما لقي من قريش عند حفر زمزم ما لقي نذر لئن ولد له عشرة نفر وبلغوا معه لينحرن أحدهم لله، فلما ولد له عشرة بنين جمعهم [و]أخبرهم نذره فأطاعوا، قالوا: كيف نصنع؟ قال: تضربون[١٤٢] القداح عند الكعبة، وقيل: عند هبل، وقيل: كان عبد المطلب على دين إبراهيم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

(١٤٢) تضربون: يضربوا، م ي.

فضربوا القداح، فخرج على عبد الله؛ وهو أصغرهم وأحبهم إليه، وكان يحب ألا يخرج القداح عليه، فلما خرج أخذ الشفرة وأقبل به إلى المنحر، فقامت قريش من أنديتها[١٤٣] فقالوا: ماذا تصنع؟ فقال: أذبحه

عاهدت ربي وأنا موفٍ [عهدَه] أيامَ [أحفرُ وبني وحدَه][١٤٤]

في أبيات أخر، فقال بنوه وقريش: لا تذبحه فإنك إن فعلت هذا لم يزل الرجل يأتي بولده ويذبحه، وقال المغيرة بن عبد الله المخزومي وكان عبد الله ابن أخت القوم لأن عبد الله والزبير[١٤٥] وأبا طالب لأم واحدة، أمهم فاطمة بنت عمرو بن عامر المخزومي، فعند ذلك قال المغيرة: والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر[١٤٦] فيه فإن كان فداه بأموالنا فديناه بها، وقال فيه شعرًا:

يا عجبا من قتلِ عبدِ المطلبْ وذبحِه ابنًا كتمثالِ الذهبْ
يا شيبُ لا تعجل علينا بالعجبْ ففديةٌ بالمالِ حتى نحتربْ[١٤٧]
فسوف أفديه بمالي والسلبْ[١٤٨] ما ذبحُ عبدِ الله فينا باللعبْ

وقال أبو طالب في ذلك شعرًا ينهاه عن ذبحه، فعند ذلك قال عبد المطلب:

عاهدت ربي وأنا موف نذرَه[١٤٩] أخافُ ربي إن عصيتُ[١٥٠] أمرَه

فقالت قريش: انطلقوا إلى المدينة ففيها عرافة فاسألوها عن قصتك، ثم أنت[١٥١] على رأس أمرك إن أمرتك[١٥٢] أن تذبحه، فخرج إلى المدينة ومعه جماعة، وكانت بخيبر[١٥٣]، [فجاءوها وسألوها وقصوا عليها] خبره، فقالت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، وكان كذلك،

(١٤٣) أنديتها: أبدانها، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٥٣.
(١٤٤) سيرة ابن إسحاق ٣٤.
(١٤٥) الزبير: الوتين، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(١٤٦) تعذر: نقرر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٠٩.
(١٤٧) نحترب: يحترب، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٢٤.
(١٤٨) السلب: مستلب، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٢٤.
(١٤٩) نذره: بنذره، ي. سيرة ابن إسحاق ص٣٦.
(١٥٠) ربي إن عصيت: ذي معقبة، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٣٦.
(١٥١) أنت: أت، م ي.
(١٥٢) أمرتك: أمرك، م ي.
(١٥٣) كانت بخيبر: كانت محبر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٥٤.

فقالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وعشرًا من الإبل واضربوا القداح، فإن ظهر على صاحبكم فزيدوا في الإبل حتى تخرج على الإبل فتذبحوها وقد رضي ربكم ونجا صاحبكم، فخرجوا حتى قدموا مكة، فقام عبد المطلب يدعو وقرب عشرًا من الإبل وضرب بالقداح فخرج على عبد الله، فزاد عشرًا فخرج على عبد الله، فزاد عشرًا فخرج عليه، فلم يزل يزيد عشرًا عشرًا والقداح تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة فخرجت القداح على الإبل، فضربوا ثلاث مرات كل ذلك تخرج على الإبل فنحرت وتركت لا يصد عنها إنسان ولا سبع، ثم انصرف عبد المطلب ومعه عبد الله.

مطلب في عبد الله بن عبد المطلب

فلما انقضى[١٥٤] عن عبد المطلب أمر ابنه عبد الله ذهب به إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بني زهرة نسبًا وشرفًا، فزوجه آمنة بنت وهب، وهي أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، ودخل بها.

وفي أيام عبد المطلب كان حديث الفيل، وسنبينه إن شاء الله من بعد.

فصل في ذكر أمهات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أوسط قومه نسبًا، وأعظمهم شرفًا، من قبل أبيه وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب.

فلما تزوج عبد الله بها وحملت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما ذكرناه، توفي عبد الله وهي حاملة به، فقالت آمنة تبكي زوجها عبد الله شعرًا:

هل للزمانِ وعيشهِ من لذةٍ ... بعد ابنِ هاشمَ ما له في الناسِ
ندٌّ يعادلُه إذا ما فرقتْ ... بين الأنامِ تداوبُ الأعماسِ
أمسى رهينَ التربِ في ملحودةٍ ... في جوفِ مفردةٍ من الأرماسِ

---

(١٥٤) انقضى: برى، ي.

إلى أشعار كثيرة.

ورثاه وهب بن عبد مناف بن زهرة، ثم توفي وهب فقالت آمنة تبكي أباها وتذكر شرفها:

إنـي لباكيـةٌ وهبًـا فمعولـةٌ وهـبُ بـنُ عبـدِ منـافٍ سـيدُ النـاسِ
أبكـي[١٥٥] عليـه [بـكاءَ غيـرِ وانيـةٍ][١٥٦] باللّـدْم][١٥٧] فـي الصدرِ والخديـنِ والراسِ

من أبيات.

وقالت برة بنت عبد العزة أم آمنة تبكي زوجها وهبًا:

منـعَ الرقـادَ بـكاهُ أمّ محمـدِ وهبًـا أباهـا[١٥٨] غيـرَ ذاتِ قـرارِ
فلتـن[١٥٩] بكيـتُ فقـد[١٦٠] فُجعتُ بفارسٍ مـن آل زهـرةَ ماجـدٍ مختـارِ

وأم آمنة برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، ولها تبكي جدها عثمان:

يـا عيـنُ جـودي بدمـع منـك تهتـانِ وابكـي علـى سـيد الحييـن عثمـانِ
وابكـي لـك الويـلُ إمـا كنـت باكيـةً معـه نديـبٌ كريـمٌ غيـرُ منـانِ

القصيدة.

وأمها أم حبيب[١٦١] بنت أسد بن عبد العزى بن كلاب بن مرة، وأمهما برة بنت عوف بن عبيد بن عدي بن كعب بن لؤي وهي جدته الثالثة، ولها تبكي أبوها عوفًا:

يـا عينُ جـودي بدمـعٍ منـك وانهمـري[١٦٢] علـى فتـى ماجـدِ الاعـراقِ منتجـبِ[١٦٣]
علـى فتـى لا يـذمُ الضيـفُ جانبَـه محـضَ الضريبـةِ صافـي الوجـهِ والنسبِ

---

(١٥٥) أبكي: فابكي، م ي.
(١٥٦) وانية: أينة، م ي.
(١٥٧) اللّدْم: ضرب المرأة صدرها. اللسان (لدم).
(١٥٨) أباها: أبوها، م ي.
(١٥٩) فلتن: فلإن، م ي.
(١٦٠) فقد: فلقد، م ي.
(١٦١) حبيب: سفين، م ي.
(١٦٢) انهمري: استكثي، م ي.
(١٦٣) الاعراق منتجب: الأعراف منتخب، م ي.

عوفٍ أبيك[١٦٤] فلا ننساه[١٦٥] ما طلعت — شمسُ النهارِ وما غابت من الحجبِ
أمسى تضمنَه قبرٌ بيلقعةٍ — ماذا[١٦٦] تضمن من عزٍّ ومن حسبِ

وأمها قلابة[١٦٧] بنت الحرث بن صعصعة بن هذيل، وجدة أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أم وهب بن عبد مناف، وأم عبد مناف بن زهرة جمل[١٦٨] بنت مالك بن خزاعة.

وعن قتادة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا ابن العواتك»، قال ابن قتيبة: كان له ثلاث جدات من سليم، وكان إذا افتخر قال: «أنا ابن العواتك».

مبحث في أمهات آبائه

قد ذكرنا بعضه، أم عبد الله: فاطمة بنت عمرو المخزومي.

وأم عبد المطلب: سلمى بنت عمرو من بني عامر بن غنم.

وأم هاشم: عاتكة بنت مرة، من بني سليم.

وأم عبد مناف: عاتكة، من بني سليم.

وأم قصي: وزهرة فاطمة بنت سعد من أزد السراة.

وأم كلاب: نعم[١٦٩] بنت سرير[١٧٠] بن ثعلبة بن مالك، من كنانة.

وأم كعب: سلمى بنت محارب[١٧١] بن فهر.

وأم لؤي: وحشية بنت مرة، من كنانة.

وأم غالب: سلمى بنت سعد.

وأم فهر: جندلة[١٧٢] بنت الحارث[١٧٣].

---

(١٦٤) أبيك: أباك، م ي.

(١٦٥) ننساه: تنسيه، م ي.

(١٦٦) ماذا: ما، م ي.

(١٦٧) قلابة: فلانة، م ي. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص٢٥٧.

(١٦٨) جمل: حمل، م ي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢/ ٢٣٨.

(١٦٩) نعم: نعيم، م ي. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص٢٥٦.

(١٧٠) سرير: سرر، ي.

(١٧١) محارب: الحرث، م ي. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص٢٥٦.

(١٧٢) جندلة: حبدلة، ي.

(١٧٣) الحارث: الحرث، ي. كذا في المواهب اللدنية ١/ ٥٢٢.

وأم مالك: هند، من قيس غيلان.

وأم النضر: برة بنت أخت تميم بن مرة.

وأم خزيمة: سلمى بنت أسد بن ربيعة.

وأم مدركة: خِنْدِف بنت حلوان بن الحاف[١٧٤].

وأم مضر: شقيقة بنت عك بن عدنان

وأم نزار: معانة[١٧٥]، من جرهم.

وأم معد: تيمة بنت يشجب بن يعرب بن قحطان.

وروي عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن أنه كان يقول: أنا ابن الفواطم، فذكروا في جداته من الفواطم خمسًا: أم عبد الله فاطمة بنت الحسين بن علي، وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأم علي فاطمة بنت أسد، وأم عبد الله فاطمة بنت عمرو، وأم قصي فاطمة بنت سعد، ومن الفواطم فاطمة بنت زيادة أم خديجة بنت خويلد وهي سادسة.

فصل في أعمامه وعماته

كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسعة أعمام: الحارث، والزبير، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والغَيداق.

أعقب منهم أربعة: الحارث، والعباس، وأبو طالب، وأبو لهب.

وعماته ست: عاتكة، وأميمة، والبيضاء، وبرة، وصفية، وأروى، بنات عبد المطلب لأمهات شتى.

أسلم من أعمامه العباس، وحمزة، وقيل: وأبو طالب، ومن عماته ثلاث: صفية، وأروى، وعاتكة.

(١٧٤) خِنْدِف بنت حلوان بن الحاف: الحيفا بنت إياد بن معد، م ي. الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٦٦.
(١٧٥) معانة: ناعمة، ي. كذا في طبقات ابن سعد الكبرى ١/ ٦٦.

مبحث في ذكر جمل من أخبارهم

أما الحارث والزبير وضرار والمقوم والغيداق فلم يدركوا الإسلام، والحارث أكبر أولاده، وابنه أبو سفيان بن الحارث الذي كان يعادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم أسلم بعد ذلك.

وأبو لهب: أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان له ابنان: عتبة، وعتيبة، زوّج ابنتين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهما، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليهما ليفارقاهما(١٧٦)، ونصب العداوة له، وفارق جمع بني عبد المطلب، وأنزل الله فيه سورة (تبت)، واسمه يقال: عبد العزى، ويكنى أبا لهب قيل: لحسن وجهه، وقيل: لأن مرجعه إلى النار واللهب، ومات بعد بدر بأيام.

فأما العباس: فإنه أسلم بعد حرب بدر، وكان من المطعمين(١٧٧) فأسر، وفدا نفسه، وأسلم، وسيأتي ذلك في أخبار بدر، وللعباس باب في هذه السفينة في فضائل الصحابة وأهل البيت، وبقي إلى أيام عمر، وكف بصره، وتوفي بعد ذلك.

وأما حمزة: فأسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة، وقتل يوم أحد، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكبر سبعين تكبيرة، ودفنه، وسماه سيد الشهداء، وستأتي أخباره في أخبار أحد.

وأما أبو طالب: فقيل: أسلم، وقيل: لم يسلم، وتوفي قبل الهجرة، وكان حدًّا في نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وله أخبار كثيرة ستأتي بعد هذا في أنباء أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبار علي عليه السلام.

فأما عماته: فصفية أم الزبير بن العوام، والبيضاء؛ هي أم حكيم وهي جدة عثمان بن عفان أم أمه، ولهن أخبار ستأتي في موضعها.

فصل ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خال ولا خالة من النسب، ولم يكن له أخ ولا أخت من النسب، وكانت له خالة من الرضاعة تسمى سلمى، أخت حليمة.

---

(١٧٦) ليفارقاهما: ليفارقانهما، ي.

(١٧٧) المطعمين: المطعم، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٣٨٧.

وله إخوة من الرضاعة: عبد الله، وأنيسة؛ وأبوهما الحارث[١٧٨] بن عبد العزى بن سعد، من هوازن، وأمهما حليمة؛ وهي أمه من الرضاعة[١٧٩]، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر»، ولبث فيهم خمس سنين، ثم رد إلى أمه.

وأبو أمه من الرضاعة أبو ذؤيب عبد الله بن الحارث بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن مضر.

وأبوه من الرضاعة زوج حليمة الحارث بن عبد العزى بن سعد بن بكر بن هوازن.

وأخته من الرضاعة جدامة بنت الحارث[١٨٠] وأمها حليمة؛ وهي الشيماء؛ غلب ذلك على اسمها فلا تعرف إلا به، وذكر أنها كانت تحضنه مع أمه حليمة حين كان عندهم.

فصل في ابتداء خلقه وتنقله في أصلاب آبائه

قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩].

آبائه

روي عن علي ﷺ أنه قال: إن الله تعالى خلق نور محمد قبل خلق السماوات والأرضين وخلق كل شيء بأربعمائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة، وخلق معه اثني عشر حجابًا، ثم أظهر اسمه على اللوح، فكان اللوح منورًا[١٨١] أربعة آلاف سنة، ثم أظهره على العرش، فكان يمشي على ساق العرش سبعة آلاف سنة إلى أن وضعه في صلب آدم، ثم نقله من صلب آدم إلى صلب نوح، ثم من صلب نوح [ثم من صلب] إلى صلب حتى أخرجه من صلب عبد الله بن عبد المطلب.

وعن كعب الأحبار: إن الله لما أراد أن يخلق نور محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر

(١٧٨) الحارث: الحرث، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٦١.

(١٧٩) الرضاعة: لارضاعة، م ي.

(١٨٠) جدامة بنت الحارث: حداة بنت الحرث، م ي. الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٦٢.

(١٨١) اللوح منورًا: عليه ورًا، مي.

جبريل أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي نور الأرض، فهبط جبريل مع الملائكة وقبض قبضة من موضع قبره وهي يومئذ بيضاء نقية فعجنت حتى جعلت كالدرة البيضاء ثم غمست في كل أنهار الجنة، وطيف بها في السماوات والأرضين والبحار، فعرفت الملائكة محمدًا وفضله قبل أن عرفت آدم، فلما خلق الله آدم وضعه في صلبه، وقيل: في جبهته.

قال كعب: فسمع آدم في تخطيط جبهته كنشيش[١٨٢] الذر، فقال: ما هذا؟ قال الله تعالى: هذا تسبيح سيد ولدك محمد، فخذ بعهدي وميثاقي ولا تودعه إلا في أصلاب الطاهرين، فكان نور محمد يُرى في دائرة غرة جبين[١٨٣] آدم كالشمس، ثم انتقل منه إلى شيث، فلما بلغ أخذ آدم بيده وقال: إن الله تعالى أمرني أن آخذ عليك عهدًا، وقال: يا رب إنك أمرتني أن آخذ على شيث عهدًا فأسألك أن تبعث إلي ملائكة يكونون شهودًا عليه، فما استتم آدم الكلمة حتى نزل جبريل في سبعين ألف من الملائكة معهم حريرة بيضاء وقلم من أقلام الجنة وكتب من غير مداد بنور من أنوار الجنة، وشهدت الملائكة، وطويت الحريرة طيًا، وكسي شيث في ذلك المقام حلتين حمراوين من نور الشمس ورقة الماء، ثم انتقل في أصلاب أولاده إلى أن بلغ أخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام، فلما ولد نظر أبوه إلى النور فقال: أوصيك بهذا النور يا بني، فقبل وصيته حتى بلغ إلى نوح، ثم إلى سام، وكل واحد يأخذ العهد ويوحى به، فلما نظر نوح إلى سام سلم إليه التابوت الذي فيه الحريرة، وكان تابوتًا من درة بيضاء لها بابان مغلقان بسلسلة من الذهب الأحمر وعروتان من الزمرد الأخضر، وفيه العهد والديباجة، فكل من[١٨٤] ظهر فيه النور سلم إليه التابوت إلى أن بلغ الأمر إبراهيم، فلما ولد إبراهيم ضرب علم من نور في شرق الأرض وغربها وصارت الدنيا كلها نورًا، فقالت الملائكة: ربنا ما هذا؟ فنودي: هذا نور محمد.

وعن بعضهم: إن الله تعالى بشر إبراهيم بأني مخرج محمدًا من صلبك، وخبر إبراهيم سارة فلم تزل سارة متوقعة لذلك حتى حملت هاجر بإسماعيل فاغتمت سارة حتى بشرها الله بإسحاق، فلما دنت وفاة إبراهيم جمع بنيه وهم ستة، ودعا بالتابوت وفتحه وقال: انظروا إلى هذا التابوت، فنظروا فرأوا في التابوت بيوتًا بعدد الأنبياء، وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلي عن يمينه الكهل المطيع مكتوب

---

(١٨٢) كنشيش: كسش، م ي. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس.

(١٨٣) جبين: حنين. م ي.

(١٨٤) فكل: فكلم، م ي.

على جبهته: هذا أول من يتبعه من المؤمنين، وعن يساره الفاروق مكتوب على جبينه: قرن من حديد لا يأخذه في الله لومة لائم، ومن ورائه ذو النورين آخذ بحجزته مكتوب على جبينه: بارٌّ من البررة[١٨٥]، وبين يديه أمير المؤمنين شاهرًا سيفه على عاتقه مكتوب على جبينه: أخوه وابن عمه والمؤيد بالنصر من عند الله، انظروا فإذا الأنبياء كلهم منقولون من صلب إسحاق إلا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه منقول من صلب إسماعيل، فقال إبراهيم: بخ بخ لك يا إسماعيل فأنا آخذ عليك العهد، فلما أخذ عليه العهد سلم إليه[١٨٦] التابوت وتزوج بابنة الحرث بن مضاض الجرهمي فولدت له قيدار وهو فيه نور النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأوصاه إسماعيل بالنور وسلم إليه التابوت وقال: لا تضيع هذا النور إلا في المطهرات، فظن قيدار أن المطهرات في ولد إسحاق، فتزوج بنساء منهم فلم يحبلن، فبينا هو ذات يوم راجع من الصيد إذ نادته الوحش بلسان طلق: يا قيدار قد مضى عمرك وهمتك اللهو، أما آن لك أن تهتم لنور محمد أين تذع ذلك، فهاب ذلك ولم يدر ما يصنع، فرأى في المنام أن اتبع لنفسك امرأة من العرب اسمها الغاضرة، وكان النور يتلألأ على وجه قيدار، فطلبها فإذا هي امرأة من ولد قحطان، فتزوجها ودخل بها فأصبح والنور مفقود من وجهه وهو في وجه الغاضرة[١٨٧]، فسر بذلك، وكان تابوت آدم عنده، وكان ولد يعقوب يتداعونه، فأراد قيدار أن يفتح بابه [فنادى] مناد: ليس إلى ذلك سبيل، ادفعه إلى ابن عمك يعقوب، فلما سمع قيدار ذلك أقبل إلى أهله الغاضرة وقال: إن ولدت ولدًا فسميه حمد، وذهب بالتابوت إلى أرض كنعان ليدفعه إلى يعقوب، فلما قرب من البلد صر التابوت صرة فسمعها يعقوب فقال لبنيه: جاءكم قيدار فاستقبلوه، فاستقبلوه، فلما دخل ورآه يعقوب قال: أبشرك ببشارة أن الغاضرة ولدت الليلة غلامًا، فقال: وما علمك يابن عم؟ قال: رأيت أبواب السماء قد فتحت ورأيت وقد سطع منها نور كالقمر المنير بين السماء والأرض، ورأيت الملائكة ينزلون بالبركات والرحمة، فعلمت أن ذلك لأجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فسلم قيدار التابوت إلى يعقوب ورجع إلى أهله وقد ولدت الغاضرة غلامًا وسمته حمد، وفيه نور محمد.

ثم انتقل من صلب إلى صلب حتى بلغ عدنان، ثم إلى معد، وكان معد صاحب حروب ونصرة على العدو، فولد له نزار وهو أبو العرب فسمي بذلك؛ لأن أباه لما رأى نور محمد في

---

(١٨٥) بارٌّ من البررة: ما البرية، م ي.

(١٨٦) إليه: عليه، م ي.

(١٨٧) الغاضرة: العاصرة، م ي. تاريخ الخميس ١/ ١٤٦.

جبهته قرب قربانًا وقال: هذا نور في جنب هذا النور، ثم ولد مضر والنور معه فما رآه أحد إلا أحبه، وقيل: كان يسمع أحيانًا من ظهره تلبية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ولد له وانتقل في أصلابهم إلى أن صار إلى النضر واسمه قيس فألبس الله وجهه النضرة فسمي بذلك، وسمي قريش وقد بينا ذلك.

سئل ابن عباس: لم سميت قريش قريشًا؟ فقال: بدابة في البحر تسمى قريشًا تعدو على الجميع، وفيه يقال:

قريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين، ولا تتـ ... ـرك فيه لذي الجناحين[188] ريشا
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلًا كمبشا[189]
ولهم آخر الزمان نبي ... يكثر القتل فيهم والخموشا

ولابن الزبعري:

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمح خالصها لعبد مناف
عمرو العلا هشم الثريد لقومه ... ورجال مكة مستنون عجاف
الخالطون غنيهم بفقيرهم ... حتى يكون فقيرهم كالكافي

ومن كان من نسل النضر فهو قرشي، وقد ذكرنا ذلك.

ثم انتقل من صلب إلى صلب حتى آل الأمر إلى عبد مناف ومعه نور محمد وفي يده لواء نزار وقوس إسماعيل وسقاية الحاج، ثم ولد هاشم والنور على وجهه يتلألأ ويتوقد شعاعه، لا يمر بشيء إلا سجد له، وبعث إليه قيصر[190] بأن يتزوج ابنته لما رأى في الإنجيل من حديث النور فأبى، فرأى في المنام أن يتزوج بسلمى ابنة زيد بن عمرو[191] بن النفيل، فتزوجها، فولدت له عبد المطلب والنور يتلألأ عليه، فلما بلغ نام نومًا في الحجر فانتبه وقد كسي حلة الجمال، فبقي متحيرًا، وسأل بعض أهل البصر فقال: قد أذن لك في التزويج، فتزوج هند بنت عمرو، وكان عبد المطلب رئيس قريش، فكان إذا قحطوا يأخذون بيده ويستسقون بنور محمد فيسقيهم الله تعالى.

(١٨٨) الجناحين: جناحين، م ي. تفسير الواحدى ٤/ ٥٥٦.
(١٨٩) كمبشا: كشيشا، م ي. تفسير الواحدى ٤/ ٥٥٦.
(١٩٠) قيصر: فنظر، م ي. سبل الهدى والرشاد ١/ ٢٧٠.
(١٩١) عمرو: عمر، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٧.

ثم تزوج عبد المطلب نساء ولدن له والنور كما هو، ثم رأى يومًا في المنام كأنه خرج منه سلسلة بيضاء لها أربعة أطراف: طرف بلغ المشرق وبلغ المغرب، وطرف لحق بعنان السماء، وإذا بشيخين مهيبين فقال لأحدهما: من أنت؟ قال: أنا نوح رسول رب العالمين فانتبه(١٩٢) قال عبد المطلب: فسألت الكهنة عن ذلك فقالوا: يخرج من ظهري من يؤمن به أهل السماء وأهل الأرض، قال: ثم رأى(١٩٣) في المنام أن يتزوج بفاطمة بنت عمرو، فتزوجها فولدت له: أبا طالب، والزبير، وأمية، وبرة، وعبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب، فلم يبق أحد من أحبار الشام إلا علم بمولده ذلك أنه كان عنده جبة(١٩٤) من صوف بيضاء مغموسة في دم يحيى بن زكريا، وكانوا يجدون في الكتب: إذا وجدتم [و]رأيتم الدم يقطر عنها فاعلموا أنه قد ولد عبد الله بن عبد المطلب، فعلم أحبار الشام بهذه الصفة، فلما ترعرع قدموا عليه ليقتلوه، فصرف الله كيدهم عنه، ورجع عبد الله وتزوج بآمنة بنت وهب، وقد ذكرنا أن عبد المطلب أباه [أخذه] ليزوجها منه ففعل.

فصل في حمل آمنة به صلى الله عليه وآله وسلم

وقيل: لما ابتنى عبد الله بآمنة مرضت نساء قريش ومنهن من مات أسفًا على عبد الله، وكان نور محمد بين عيني عبد الله، فدخل بآمنة فحملت بمحمدصلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: انتقل النور عنه إليها عشية عرفة ليلة الجمعة.

وقيل: إن عبد الله مر على أم قبال امرأة من بني أسد وهي بنت نوفل بن أسد أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة، فنظرت إلى وجهه والنور يتلألأ، فدعته إلى نفسها وقالت: لك مثل الذي نحرت من الإبل إن وقعت علي الآن، وكان عبد المطلب معه فقال: لا أستطيع فراق أبي، فمضى ودخل بآمنة فوطئها وحملت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم خرج من عندها فأتى المرأة وقال: ما لك لا تعرضين نفسك اليوم؟ فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فلا حاجة لي فيك، وكانت تسمع من أخيها ورقة وكان [قد] تنصر واتبع الكتب أنه كائن لهذه الأمة نبي من بني إسماعيل.

---

(١٩٢) فانتبه: فانتهيت، م ي.

(١٩٣) رأى: رأيت، م ي.

(١٩٤) جبة: حبة، م ي. تاريخ الخميس ١/ ١٨٢.

وقالت: أم قبال في ذلك أشعارًا في شأن عبد الله وذلك النور منها:

عليك بآل زهرة حيث حلوا	وآمنة التي حملت غلاما
يزين المهد حين يرى عليه	ويغلب كل مكس أو غناما
فأنجبت ابن هاشم غير شك	وأدته كريمته تماما
نبيًا مرسلًا يوحى إليه	يسود الناس مهديًا إماما
تضيء به البطاح وحافتاه	إذا ما كان نورًا أو ظلاما
عليه غمامة من صنع رب	ويفرض بعد ذلكم الصياما

وقيل: إن عبد الله دخل على امرأة كانت مع آمنة وقد عمل في الطين، فدعاها إلى نفسه فأبطأت لما رأت من أثر الطين، فخرج واغتسل ثم دخل على آمنة فمر بها ودعته إلى نفسها فأبى، ودخل على آمنة فأصابها فحملت، ثم مر بتلك المرأة فقال: هل لك به؟ قالت: لا، مررت بي وبين عينيك غرة وقد ذهبت بها آمنة، فتلك المرأة كانت تقول: كان بين عينيه غرة مثل غرة الفرس.

وروي أنه لما حملت آمنة به صلى الله عليه وآله وسلم أمر الله خازن الجنة أن يفتح أبواب الجنان، وأصبحت الأصنام في الدنيا منكوسة، وأصبح سرير إبليس منكوسًا، وهرب عدو الله حتى أتى جبل أبي قبيس ورن رنة فاجتمعت إليه الشياطين، فقالوا: يا سيدنا ما دهاك؟ فقال إبليس: أهلكتنا هذه المرأة، قالوا: وما القصة؟ قال: هذا محمد المبعوث بالسيف القاطع، الذي لا حياة بعده، يغير الأديان، ويبطل اللات والعزى، ولا نأتي موضعًا من الدنيا إلا وجدنا ذكر الوحدانية على [علانية][١٩٥]، وهذه الأمة لعنني ربي من أجلها، فقالوا: طب نفسًا فإنا نستوفي منهم، قال: وكيف ذاك وفيهم الخصال الجميلة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟ فقال العفاريت: نأتي العالِم مِنْ عِلْمِه، والجاهل من جهله، وصاحب الدنيا من قبل الدنيا، والزاهد من زهده، وصاحب الرياء من ريائه، فقال إبليس: إنهم يعتصمون بالله وحده، قالوا: حينئذ ندخل بينهم الأهواء الضالة والبخل والظلم فإنهم يهلكون لا محالة، فضحك إبليس وقال: الآن أقررتم عيني وطيبتم نفسي.

وعن ابن عباس: إن من دلالة حمله عليه السلام أن كل دابة قريش نطقت وقالت: حمل بمحمد ورب الكعبة وهو أمان الدنيا، وسراج أهلها، وانتزع علم الكهنة، ولم يبق سرير من

(١٩٥) شرف المصطفى ١/ ٤٧٨.

سرر ملوك الأرض إلا صار منكوسًا، ومرت الوحوش إلى الوحوش بالبشارة، وبقي عليه السلام في بطن أمه تسعة أشهر لا تشكو وجعًا ولا مغصًا(١٩٦) ولا ريحًا، وهلك أبوه وهو في بطن أمه.

وقال الواقدي: مات أبوه وهو ابن سبعة أشهر، وعبد الله ابن خمس وعشرين سنة.

ويقال: إن الملائكة قالت: إلهنا وسيدنا بقي نبيك هذا يتيمًا، فقال تعالى: أنا له ولي وحائط وناصر ومعين.

فصل في مولده صلى الله عليه وآله وسلم

عن محمد بن إسحاق وغيره: زعموا أن آمنة بنت وهب كانت تحدث أنها رأت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل لها: قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع بالأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدًا، ورأت حين حملت به أمه فخرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام، فلما وضعته أرسلت إلى عبد المطلب جده أنه قد ولد لك غلامٌ فأته فانظر إليه.

وروي أنها رأت في منامها بعد ستة أشهر من حملها أتاها آت فوكزها برجله وقال: إنك حملت خير العالمين طرًا، فإذا ولَدْتِهِ فسميه محمدًا، واكتمي شأنك، فلما كانت ليلة الاثنين أخذني الطلق فولدت محمدًا، وإذا هو خر ساجدًا رافعًا أصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل.

وقال عبد المطلب: كنت تلك الليلة في الكعبة فسمعت تكبيرًا من جوف الكعبة ينادي: الله أكبر رب محمد المصطفى، الآن طهرني ربي من أنجاس المشركين، وانفضت الأصنام، وبكأني أنظر إلى هبل وقد انكب في الحجر على وجهه، وسمعت مناديًا ينادي: الآن آمنة قد ولدت محمدًا.

قال عبد المطلب: فقصدت باب آمنة ما لي همة غيرها، فإذا سحابة بيضاء باب حجرتها وما يمكنني أن أدنو من الباب من فيحان المسك ولمعان النور، فدنوت من الباب فدققت دقًا عنيفًا، فأجابتني بصوت ضعيف، فقلت: ويح نفسي افتحي الباب، ففتحت مبادرة ليس بها أثر

---

(١٩٦) مغصًا: ضغطًا، م ي. إمتاع الأسماع ٤/ ٤٧.

النفاس، فأول ما وقع عليه بصري نور محمد، فلم أر أثر النور، فقلت: واغوثاه يا آمنة أنائم أنا أم يقظان؟ قالت: بل يقظان، قلت: فأين النور؟ قالت: وضعته أتم الوضع وأيسره، فقال: فهاتيه أنظر إليه، فقالت: قد حيل بينك وبينه، قال: ولم؟ قالت: أتاني آت لما ولدت كأنه قضيب فضة وقال: يا آمنة لا تخرجي هذا الغلام إلى خلق من أولاد آدم حتى يأتي عليه ثلاثة أيام.

قال محمد بن إسحاق: وذكرت آمنة حديث الرؤيا وما قيل لها وسميه محمدًا، والله أعلم بالصحيح من ذلك.

فقال عبد المطلب: فعمدت إلى سيفي وقلت: لتخرجينه أو لأقتلنك، فقالت: شأنك وإياه في ذلك، البيت مدرج في صوف أبيض، فأردت البيت فبرز رجل كأهول ما يكون شاهرًا سيفه وقال لي: أين تريد؟ قلت: أنظر إلى ابني محمدًا، قال: ارجع وراءك فلا سبيل لأحد من ولد آدم إلى رؤيته حتى تنقضي عنه زيارة الملائكة، فارتعد عبد المطلب وألقى السيف من يده وخرج ليخبرن قريشًا فأخذ الله على لسانه فلم ينطق سبعة أيام.

قالت آمنة: لما ولدت محمدًا بينا أنا كذلك إذ أنا بثلاثة نفر كأن الشمس طلعت من خلال وجوههم، في يد أحدهم[197] إبريق فضة، في داخله ريح كريح المسك، وفي يد الثاني طشت من زمردة خضراء عليها أربع نواحٍ، في كل ناحية لؤلؤة بيضاء، فإذا قائل يقول: هذا الدنيا شرقها وغربها، وبرها وبحرها، فاقبض يا حبيب الله على ما شئت، فسمعت قائلًا يقول: قبض على الكعبة ورب الكعبة، إن الله تعالى خلقها قبلة له، ورأيت في يد الثالث حريرة بيضاء مطوية طيًا شديدًا فنشرها[198] فأخرج منها خاتمًا تحار أبصار الناظرين دونه، فغسله بذلك الماء من الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه ختمًا واحدًا، ولوط الحريرة واستدار عليه بالخيط وهو خيط من الجنة ثم أدخله بين أجنحته ساعة.

قال ابن عباس: كان ذلك رضوان خازن الجنة.

قالت: ثم قال في أذنه كلامًا كثيرًا فلم أفهمه، وقبل بين عينيه ثم قال: أبشر يا محمد فما بقي لنبي علم إلا وقد أعطيته، أنت أكثرهم علمًا، وأشجعهم قلبًا، معك مفاتيح النصر، ألبست الخوف والرعب لا يسمع أحد بذكرك إلا وجل فؤاده وخاف قلبه.

---

(١٩٧) يد أحدهم: أيديهم، م ي.

(١٩٨) نشرها: بشرها، م ي.

قالت آمنة: ثم رأيت رجلًا أقبل يخرقهم حتى وضع فاه في فمه فجعل يزقه كما يزق الحمامة فرخها، وكنت انظر إلى ابني يشير بأصبعه ويقول: زدني زدني، فزقه ساعة ثم قال: أبشر يا حبيبي فما بقي لنبي حلم إلا أعطيتكه، ثم احتمله فغيبه عني، فجزع فؤادي وقلت: ويح قريش الويل لها أنا في ليلتي وولادتي أرى ما أرى ويصنع بولدي ما يصنع لا يقربني أحد من قومي، هذا عجيب.

قالت: فبينا أنا كذلك إذ أنا به رد علي كالبدر، ريحه كالمسك وهو يقول: خذيه فقد طافوا به المشرق والمغرب وعلى مواليد النبيين أجمعين، وكان الساعة عند أبيه آدم فضمه إليه وقبل بين عينيه، ومضى وهو يقول: أبشر يا عز الدنيا والآخرة، وناولنيه ومضى فلم أره بعد ذلك.

وروي أن عبد المطلب لما أتاها أخذه فأدخل جوف الكعبة يدعو الله ويشكر لما أعطاه وهو يقول[199]:

الحمد لله الذي أعطاني ... هذا الغلامَ الطيبَ الأردانِ

قد ساد في المهدِ على الغلمانِ ... أعيذُه بالبيت ذي الأركانِ

حتى أراه بالغَ التبيان ... أعيذُهُ من كل ذي شنآن

من حاسدٍ مضطربِ العنان ... حتى يكون بلغةَ الفتيانِ

فصل في رضاعه وحديث حليمة

قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله عام الفيل، فنحن لدنان.

محمد بن إسحاق: ولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة[200] ليلة مضت من ربيع الأول، والتمس له الرضعاء، فاسترضع من امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب.

قال: وسأل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أخبرنا يا رسول الله عن نفسك، قال: «نعم، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

(١٩٩) البداية والنهاية ٢/ ٣٢٤.

(٢٠٠) اثنتي عشرة: اثني عشر، م ي.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: «أنا أعربكم[٢٠١]، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر».

قال مجاهد: قلت لابن عباس: فسارعت الطير والسحاب في رضاعه؟ قال: نعم وجميع خلق الله الإنس، وذلك أنه لما رد على أمه بقاع المشرق وطباق السماوات نادى منادي الرحمن: معاشر الخلائق هذا محمد بن عبد الله، طوبى لثدي أرضعه، وطوبى ليد كفلته، ثم طوبى لبيت سكنه، فقالت الطير: نحن أحق برضاعه، وقالت الجن: لا بل نحن، وقالت السحاب وضجت: لا بل نحن مسخرات بين السماء والأرض نحمله إلى براري الدنيا وزواياها، ونعرف موضع كل شجرة طيبة الثمر نطعمه منها، وموضع كل عين باردة نسقيه منها، ونوديت كلها: أن كفوا عن رضاع محمد فقد أجرى الله ذلك على أيدي الإنس، قال: فأجرى الله ذلك لحليمة، وكان من نصيبها[٢٠٢] على ما حكى عبد الله بن جعفر وغيره عنها أن الله تعالى أجدب البلاد، وكان الناس في شدة شديدة، وكنا نحن أهل البيت أشد الناس كلهم فقرًا وجهدًا، وكنت أطوف في الجبال والبراري مع نسوة من بني سعد نطلب الحشيش فأجد مثل ما يجدن، وكنت أقنع وأحمد الله تعالى، ثم إني ولدت مولودًا ولم أكن ذقت شبعًا منذ سبعة أيام، فكنت أتلوى من شدة الجهد كما تلتوي الحية، ورأيت ذات ليلة إذ أتاني آت فحملني وقذف بي في البحر، فإذا ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، فقال: أكثري من شرب هذا الماء ليكثر لبنك وخيرك.

قالت: فشربت حتى رويت، ثم قال: انطلقي إلى بطحاء مكة فإن لك بها رزقًا واسعًا، فخرجت وابن لي أرضعه وزوج لي في نسوة من بني سعد نلتمس الرضعاء بمكة، وخرجت على أتان قد بدا عظمها من سوء حالها، والصبي يبكي ليس في ثديي[٢٠٣] ما يقيته، وليس معنا طعام، فكنت لا أمر بشيء إلا استطال إلي، ونادتني الأشياء: هنيئًا لك يا حليمة، فقلت لزوجي: أتسمع ما أسمع وترى ما أرى؟ قال: لا، حتى دخلنا مكة وحتى سبقنني إلى كل رضيع في قريش نساء قومي.

وروي أنها قالت: ما من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(٢٠١) أعربكم: أعركم، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٣٣٧.
(٢٠٢) نصيبها: سيبها، م ي.
(٢٠٣) ثديي: يدي، ي.

فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم؛ لأنا كنا نرجو المعروف من أبيه، فكنا نقول: يتيم ما عسى[٢٠٤] أن تصنع أمه وحدها، فلم يبق أحد إلا ومعه رضيع غيري، فقلت لصاحبي: إني لأكره أن أرجع من بين قومي بغير رضيع، آخذ ذلك اليتيم عسى الله أن يجعل فيه البركة، فقال: لا عليك أن تفعلي، فقصدت البطحاء وإذا أنا بعبد المطلب ينادي بأعلى صوته: معاشر الرضع هل فيكن واحدة، فقصدت قصده وقلت: أنعم صباحًا أيها الملك، قال: من أنت؟ قلت: حليمة امرأة من بني سعد، فقال: بخ بخ سعد وحِلْم[٢٠٥]، هاتان خلتان فيهما عز الأبد، ويحك يا حليمة إن عندي غلامًا صغيرًا يتيمًا يقال له محمد، وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبلنه، يقلن: إنه يتيم، فهل لك أن ترضعيه لعلك[٢٠٦] تسعدين به، وروي أنها قالت: أستأمر صاحبي، فقال لما استأمرته: خذيه، وكان معي ابن أخت لي فقال: يا خالة لا تأخذيه وترجعي من بين النساء بيتيم رضيع، فكدت ألا آخذه، ثم بدا لي أن آخذه، وروي أنه كان قد استأمره[٢٠٧] أولًا، والله أعلم.

قالت: فعزمت على أخذه، فقلت: إن كان يتيمًا فهذا جده عبد المطلب لم أر في الآدميين أجمل منه، والرؤيا التي رأيتها لا تبطل أبدًا، فقلت: هلم الصبي، فاستهل وجهه فرحًا ثم انطلق بين يدي يجر حلته حتى أدخلني بيت آمنة، قالت: فإذا هي امرأة هلالية بدرية، فقالت: أهلًا وسهلًا بك يا حليمة، ثم أخذت بيدي فأدخلتني بيتًا فيه محمد، فإذا أنا به مدرج في ثوب من صوف أشد بياضًا من اللبن يفوح منه ريح المسك، وتحته حريرة خضراء وهو راقد، فنظرت إليه فشفقت عليه لحسنه وجماله وكرهت أن أوقظه من نومه، فدنوت منه ووضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكًا وفتح عينيه ينظر إلي، فقبلت بين عينيه واحتملته وأعطيته ثديي الأيمن يشرب، فحولته إلى الأيسر فأبى أن يشرب.

قال ابن عباس: إنما لم يشرب لأن الله ألهمه العدل في رضاعه، وعلم أن له فيه شريكًا[٢٠٨].

قالت حليمة: فكان الأيمن لمحمد والأيسر لابني.

قالت: فحملته فرجعت به إلى رحلي، وقالت أمه: لا تخرجي من مكة حتى تعلميني فأوصيك بوصايا، فلما رجعت إلى رحلي فجمعته في حجري ورد علي اللبن ما شئت، فشرب

---

(٢٠٤) عسى: حى، ي.

(٢٠٥) حِلْم: حكم، م ي.

(٢٠٦) لعلك: لك، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٤.

(٢٠٧) قد استأمره: استأمر به، ي.

(٢٠٨) انظر شرف المصطفى ١/ ٣٧٥.

حتى روي، وشرب أخوه حتى روي، ثم نام وما كنا ننام معه قبل ذلك، وأقام زوجي إلى شاة لنا عجفاء وإذا بها حافل[٢٠٩]، فحلب منها وشرب وشربنا حتى انتهينا ريًّا وشبعًا، فبتنا[٢١٠] نحيي ليلتنا يقول صاحبي: يا حليمة لقد أخذت بمكة نسمة مباركة، فقلت: إني والله لأرجو ذلك.

قالت حليمة: فبات محمد عندنا ثلاث ليال، فلما كان في الليلة الثالثة انتبهت[٢١١] لقضاء حاجة فإذا برجل عليه ثياب خضر يتألق[٢١٢] نورًا، فأخذه عند رأسه يقبل بين عينيه، فنبهت[٢١٣] صاحبي رويدًا وقلت: انظر إلى العجب، قال: اسكتي واكتمي شأنك، فلما كان اليوم الثالث ودع الناس بعضهم بعضًا، وودعته آمنة ثم ركبت أتاني وحملت محمدًا بين يدي، فروي عنها قالت: رأيت أتاني يسجد عند الكعبة ثلاث سجدات ترفع رأسها إلى السماء، ثم مرت حتى سبقت دواب القوم، فكان النساء يتعجبن ويقلن: يا بنت أبي ذؤيب أليست هذه أتانك التي ركبتها وأنت جائية وكانت ترفعك تارة وتخفضك أخرى؟ فأقول: بلى، فيقلن: إن لها لشأنًا عظيمًا.

روي أن الأتان قالت عند ذلك: إي والله إن لي لشأنًا، بعثني الله بعد موتي فرد علي سمني، يا نساء بني سعد إنكن[٢١٤] في غفلة[٢١٥] أتدرون من علي، عليّ خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، ومرت حتى سبقت الدواب.

ويزعم الناس أن عبد المطلب لما سلمه إلى حليمة وأرادت الخروج قال وشمه وقبله وبرك عليه:

اللهم ربَّ الراكبِ المسافرِ ... محمدٍ فاقلبْ بخيرِ طائرِ
واحفظه من كل شيءٍ ضائرِ ... من كل شيطان وكل فاجرِ
وأحرسه من[٢١٦] كل جِلفٍ كافرِ ... حتى يكون مكرمي وناصري

إلى أبيات غيرها.

قالت حليمة: فلم أنزل منزلًا من منازل بني سعد إلا أنبت الله به عشبًا وخيرًا كثيرًا.

(٢٠٩) يقال: ضرعٌ حافل: إذا كان مملوءًا باللبن. الصحاح (حفل).
(٢١٠) فبتنا: فبينا، م ي. السيرة الحلبية ١/ ١٣٢.
(٢١١) انتبهت: انتهيت، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٦.
(٢١٢) يتألق: تتألف، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٦.
(٢١٣) فنبهت: فانتبه، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٦.
(٢١٤) إنكن: إن، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٧.
(٢١٥) غفلة: لظه، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٧٧.
(٢١٦) أحرسه من: احبس، م ي.

مبحث في رجوعها إلى بلادها

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بني سعد وما أعلم أرضًا أجدب منها، فكانت غنمي تغدو وتروح شباعًا وتدر لبنًا وتحلب وتضع وليس لأحد من قومي ذلك، فجمعت بنو سعد رعيانهم وقالوا: ثكلتكم أمهاتكم ما بال أغنام بنت أبي ذؤيب هكذا، ارعوا في مراعي حليمة، قالت: فكانت رعاة قومي يرعون في مرعى غنمي، فما زلنا نعرف البركات مذ كان محمد بيننا، فألقى الله محبته على كل من رآه، فلما قرب أن يتكلم سمعت منه كلامًا عجيبًا: الله أكبر الله أكبر، الحمد لله رب العالمين، وكنت معه في الرضاع في كل دعة وسرور ما غسلت له بولًا طهارة ونظافة، كان له في كل يوم [وقت واحد][٢١٧] يتوضأ فيه ثم لا يعود، واجتنبت زوجي وهو في الرضاع حتى مضت سنتاه وفصلته.

قالت: وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، لم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا.

قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه لما نرى من بركته، فقلنا لأمه: لو تركته عندنا حتى يغلظ فإنا نخشى عليه بمكة، فلم نزل بها حتى رددناه معنا، فلما ترعرع وخرج إلى الصبيان قال لي يومًا: ما لي لا أرى إخواني بالنهار؟ قلت: فدتك نفسي يرعون غنمًا لنا، فقال: يا أمه ابعثيني معهم، قلت: أوتحب ذلك؟ قال: نعم، فلما أصبح دهنته وكحلته وقمصته وعمدتُ إلى جزعة يمانية فعلقتها في عنقه للعين، وأخذ عصا وخرج مع إخوته، فكان كل يوم يخرج ويرجع مسرورًا، وإذا يومًا من الأيام أتانا أخوه يشتد ويبكي فقال لي ولأبيه: أدركا أخي محمدًا القرشي وما أراكما تلحقانه إلا ميتًا.

مبحث في شق بطنه

قلت: بني[٢١٨] وما قصته؟ قال: أخذه رجلان عليهما ثياب بيض وعليا به ذروة الجبل وأضجعاه وشقا بطنه من صدره إلى عانته وما أدري ما فعلا به، وما أظنكما تلحقانه إلا مقتولًا، فأقبلت أنا وزوجي نحوه نشتد، فوجدناه قائمًا متهللا وجهه[٢١٩] شاخصًا بعينيه إلى السماء

---

(٢١٧) +: شرف المصطفى ١/ ٣٧٨.

(٢١٨) بني: يا نبي الله، م ي.

(٢١٩) متهللا وجهه: يقوا ووجهه، م ي.

ويضحك، فالتزمته والتزمه أبوه وقبلت بين عينيه وقلت: فدتك نفسي ما الذي دهاك؟ قال: خير يا أماه.

قال محمد بن إسحاق: فقال: جاءني رجلان فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو، فرجعنا به إلى بيوتنا.

وقال غيره: أتاني ثلاثة رهط مع أحدهم إبريق فضة، ومع الثاني طست(٢٢٠) من زمردة خضراء، فأخذوني وانطلقوا بي إلى ذروة الجبل، وأضجعني أحدهم إضجاعًا لطيفًا ثم شق من صدري إلى عانتي وأنا أنظر إليه، فلم أجد لذلك حسًا ولا ألمًا، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها فأنعم غسلها ثم أعادها مكانها، وقام الثاني فقال للأول: تنح عنه فقد أنجزت ما أمرت به، فدنا مني وأخرج قلبي من بطني وشقه نصفين وأخرج منه نكتة سوداء فرمى بها، وقال: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله، ثم حشاه بشيء كان معه ورده مكانه، وختمه بخاتم من نور فأنا الساعة أجد برد الخاتم في عروقي، فقام الثالث فأمر يده على بطني حتى التأم ثم قال: زنوه بعشرة من أمته، فوزنوني فرجحتهم، فقال: زنوه بمائة، فرجحتهم، فقال: زنوه بألف، فرجحتهم، فقال: دعوه فلو وزنتموه بأمته لرجحها، ثم أخذ بيدي ونهضني من الأرض إنهاضًا لطيفًا، وقبلوا ما بين عيني وتركوني وطاروا في السماء.

فأتت به منزل بني سعد، فقال الناس: اذهبوا به إلى كاهن يداويه، فقال محمد: ما بي شيء مما تظنون، أرى نفسي سليمة وقلبي صحيحًا، فذهبت إلى الكاهن وقصت القصة، فقال: أريني الغلام أسمع منه، فجئت به إليه وقص محمد القصة، فوثب الكاهن وضمه إلى صدره ونادى: يا للعرب(٢٢١) من شر قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه، فإنه لو بلغ ليسفهن أحلامكم ويدعوكم إلى دين لا تعرفونه، فلما أن سمعت ذلك انتزعته منه وأدخلته منزلي، وما علمنا منزلًا من بني سعد إلا وقد شممنا منه ريح المسك، فقال الناس: رديه على عبد المطلب.

وروي: قال زوجها: لعل هذا الغلام أصيب، رديه على أمه، فعزمت على ذلك.

---

(٢٢٠) طست: طشت، م ي.

(٢٢١) للعرب: آل العرب، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨١.

مبحث في رده إلى مكة

فردته على أمه، قالت: فركبت وحملته وسمعت مناديًا ينادي: هنيئًا لك يا بطحاء مكة اليوم يرد عليك النور والكمال، وأقبلت أسير حتى أتيت[٢٢٢] باب الأعظم من مكة فوضعته لأقضي حاجة، فسمعت بِهَدَّةٍ شديدة فالتفت فلم أره، فقلت: معاشر الناس أين الصبي؟ قالوا: أي صبي؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب اختلس من بين يدي، قالوا: ما رأينا شيئًا، فوضعت يدي على رأسي وقلت: وا محمداه وا ولداه، وبكيت وبكى الناس لبكائي، وضج الناس، وإذا أنا بشيخ يتوكأ على عكاز يقول: ما لك؟ قلت: فقدت ابني محمدًا، قال: أنا أدلك على من يعلم علمه، قلت: فدتك نفسي من هو؟ قال: الصنم الأعظم هبل ادخلي[٢٢٣] عليه واطلبي[٢٢٤] منه، قلت: ثكلتك أمك كأنك لم تر ما نزل بهبل واللات والعزى في الليلة التي ولد فيها محمد، قال: إنك لتهذين[٢٢٥] أنا أدخل عليه وأسأله، فدخل وأنا أنظر، فطاف بهبل أسبوعًا[٢٢٦] ثم قال: يا سيداه لم تزل منتك على قريش وهذه السعدية تزعم أن ابنها محمدًا قد ضل فرده إن شئت، قال: فانكب هبل على وجهه وتساقطت الأصنام، وقالت: إليك عنا إنما هلاكنا على يد محمد، فأقبل الشيخ يرتعد ويقول: يا حليمة إن لابنك ربًا لا يضيعه، فخفت أن يبلغ الخبر عبد المطلب قبلي، فغدوت فلما رآني قال: أسعدٌ نزل أم نحس؟ قلت: نحس، قال: لعل ابنك فقد؟ قلت: نعم، فأخذ سيفه فظن أن بعض قريش اغتاله وكان لا يطاق إذا غضب، فخرج ونادى: يا آل غالب، فأجابه قريش وقالوا: ما بالك؟ قال: فقد ابني محمد، قالوا: اركب نركب معك فإن تسنمت جبلًا تسنمنا، وإن خضت بحرًا خضنا، فركبوا، وآلى ألا يأكل شيئًا[٢٢٧] ولا يشرب شيئًا حتى يظفر بمحمد أو يقتل ألفًا من العرب ومائة من قريش، فطلبوا فلم يجدوا، فأقبل إلى الكعبة وطاف أسبوعًا، وأنشأ يقول:

يا رب رد ولدي محمدا ... اردده[٢٢٨] ربي واتخذ عندي يدا

(٢٢٢) أتيت: حيث، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨١.

(٢٢٣) ادخلي: تدخلي، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٢.

(٢٢٤) اطلبي: تطلبي، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٢.

(٢٢٥) تهذين: تهدي، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٢.

(٢٢٦) قال في تاج العروس: «يقال طاف بالبيت سبعا... وأسبوعا»، فهما بمعنى واحد. انظر مادة (سبع).

(٢٢٧) وآلى ألا يأكل: والان لا نأكل، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٢.

(٢٢٨) اردده: أردد، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٢.

[أنت] الذي جعلته لي عضدا   لا يبعد الدهر به فيبعدا
أنت الذي سميته محمدا   فلا ترينه مجهد أبدا

وأنشأ يقول:

لاهم إن محمدًا لم يوجد   لم يبق في قومي وليد سيد
وجميع[٢٢٩] أمري كله مبدد

زعموا أن ورقة بن نوفل وأبا مسعود الثقفي وجداه.

وقيل: ناداه منادٍ من الهواء ودله عليه، فلما أتاه عبد المطلب أنه بوادي تهامة، وأقبل عبد المطلب راكبًا فتلقاه ورقة به.

وقيل: قال له جده[٢٣٠]: من أنت؟ فرفع رأسه وقال: ابنك، وقال: انسب فانتسب[٢٣١] وهو يومئذ غلام قريب من خمس سنين، فحمله عبد المطلب فجاء به الكعبة فطاف به وهو يقول أبياتًا منها:

أعيذه بالله باري النسم   من شر من يمشي على قدم

ثم أرسل به إلى آمنة، فدخلت به أمه السعدية على آمنة وقالت: ما أقدمك[٢٣٢] وقد كنت حريصة عليه؟ فقلت: بلغ ابني وقضيت الذي علي، وتخوفت عليه الأحداث فآويته إليك كما تحبين، قالت: ما هذا بشأنك اصدقيني، فما زالت بي حتى أخبرتها، قالت: أتخوفين عليه الشيطان فما له إليه سبيل، وإن لابني لشأنًا، أفلا أخبرك عنه؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به كأن نورًا خرج مني أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، وإني وضعته وإنه لواضع يده في الأرض رافع رأسه إلى السماء يشير بأصبعه[٢٣٣]، فانطلقي راشدة، قالت: فجهزني عبد المطلب بأحسن جهاز، وانصرفت إلى قومي وأنا بكل خير.

وقبضت آمنة محمدًا، فقالت تعوذه:

(٢٢٩) جميع: كان، ي.
(٢٣٠) جده: ورقة، م ي. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١/ ٣٩٠.
(٢٣١) انسب فانتسب: انصب فانتصب، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٨٤.
(٢٣٢) أقدمك: أقرك، م ي.
(٢٣٣) يشير بأصبعه: رغبة، م ي. شرف المصطفى ١/ ٣٥٧.

يا رب بارك في الغلام الأقمر[٢٣٤] الهاشمي الأبطحي الأزهر
محمد ابني[٢٣٥] صليب المقشعر[٢٣٦] مبارك الوجه كريم العنصر
إني أرجيه لداء المعْسَرِ[٢٣٧] يكون حرزًا من زمان أغيرِ

وقالت تعوذه:

أعيذه بالله ذي الجلال من شر من مر على الجبال
حتى نراه حامل الكلال أعيذه بالله من خبال
من كل من يمشي على النعال

إلى أبيات غيرها.

وكان[٢٣٨] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أمه وجده عبد المطلب في حفظ الله ينبته الله نباتًا حسنًا.

وجميع ما نظهره في ولادته ورضاعته وأيامه قد اختلفوا فيه، قيل: كان ذلك معجزة له، ويسمى إرهاصًا وتأسيسًا للنبوة، وهو مذهب لأبي القاسم والبغدادية، وهو الصحيح.

وقيل: كان معجزة لنبينا في زمانه، وهو مذهب البصرية، وعلى هذا حديث الفيل، لأنه عليه السلام ولد عام الفيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الآخر.

فصل في حديث الفيل

عن وهب وابن إسحاق وغيرهما من أهل العلم أنه لما فعل ذو نواس اليهودي بأصحاب الأخدود -وهم نصارى وهم من أهل نجران- ما فعل من الحريق والقتل، هرب رجل منهم يقال له دوس بن ثعلبان وأعجزهم هربًا حتى قدم على قيصر واستنصره على ذي نواس وجنوده من حمير، وأخبره بما فعل بهم، فاعتذر قيصر لبعد بلده عنه وعن بلاده وقال: سأكتب لك إلى

(٢٣٤) الأقمر: الأصغر، م ي.
(٢٣٥) ابني: ابن، م ي.
(٢٣٦) المقْشَعَرّ: مكان الشعر المقشعر من الفرس.
(٢٣٧) لداء المعْسَرِ: لدي التعسير، م ي.
(٢٣٨) كان: قال، م ي.

ملك الحبشة - وهو النجاشي - فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك فينصرك ويطلب لك بثارك، ثم كتب معه إلى ملك الحبشة يذكره حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه، وأمره بنصرته وطلب ثاره ممن بغى عليهم، فلما قدم عليه بكتابه بعث معه بسبعين ألفًا من الحبشة وأمّر عليهم أرياطًا وأمره بالقتل والسبي وتخريب البلاد، فخرج بجنوده وفيهم رجل يسمى أبرهة الأشرم، فركبوا البحر ومعهم دوس حتى نزلوا بساحل اليمن، وسمع بهم ذو نواس فجمع حمير ومن أطاعه من اليمن، فاقتتلوا ساعة ثم انهزم ذو نواس واقتحم بفرسه البحر، لما[٢٣٩] رأى ما رأى فغرق.

وملك أرياط اليمن سنتين ثم نازعه أبرهة الأشرم، وانحازت الجنود إليهما، فطائفة مع أرياط وطائفة مع أبرهة، ودنا بعضهم من بعضٍ، فقال أبرهة: يا أرياط لا تفنين الحبشة بيننا، أبرز إلي وأبرز إليك فأينا أصاب صاحبه انصرفت إليه جنوده، فقال: أنصفت، فخرج أبرهة إلى أرياط، وكان أبرهة رجلًا قصيرًا لحيمًا، وكان ذا دين في النصرانية، وكان أرياط رجلًا عظيمًا طويلًا وسيمًا، وخلف أبرهة غلامًا له يسمى عَتَوْدَة وراءه يحفظ ظهره، فحمل أرياط بحربته ليضرب يافوخ أبرهة فوقعت على جبهته شرمت حاجبه وعينه فلذلك سمي الأشرم، وحمل غلامه على أرياط فقتله، وصار معه جنوده.

واجتمعت الحبشة على أبرهة وملك اليمن، وغضب النجاشي من ذلك، فبعث أبرهة إليه من يرضيه وقال: كنا عبيدًا له تنازعنا في طاعته، فما زال به حتى رضي عنه وملكه اليمن.

ثم إن أبرهة بنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها وسماها القليس، وكتب إلى النجاشي كتابًا ذكر فيه: أني قد بنيت لك كنيسة لم ير مثلها، ولست أنتهي حتى أصرف إليها حاج العرب، فلما سمعت بذلك العرب غضب رجل من بني مالك بن كنانة، فأتى الكنيسة فبال فيها وتغوط ثم لحق بأهله، فخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ قيل: رجل من أهل هذا البيت الذي يحج إليه العرب بمكة لما سمعت العرب أنك تصرف إليه الحج جاء وقعد فيها يعني أنها ليست أهلًا لذلك، فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وعنده رجال من العرب قدموا عليه يطلبون خيره منهم محمد بن خزاعي السلمي، فتوجه أبرهة وأكرمه وأمره على مُضر، وأمره أن يسير في العرب يدعوهم[٢٤٠] إلى حج كنيسته فخرج، وسمع به رجل من هذيل فرماه

---

(٢٣٩) لما: فلما، م ي.

(٢٤٠) يدعوهم: يدعيهم، م ي.

بسهم فقتله، فخرج أخوه قيس بن الخزاعي فلحق بأبرهة وأخبره بذلك فازداد غضبًا وحلف ليغزون[٢٤١] بني كنانة وليهدمن الكعبة.[٢٤٢]

ثم إن أبرهة تجهز للمسير وخرج معه بالقبائل، فقال رجل من اليمن يمدحه:

أنبئت أنك قد خرجت فقلت ذكر[٢٤٣] غير خامل
أولاد حبشة حوله متلحفون[٢٤٤] على المراجل
بيض الوجوه وسودها أشعارهم مثل الفلافل

فلما خرج وسمعت به العرب عظم ذلك عليهم فرأوا جهاده حقًا عليهم لما سمعوا أنه يريد هدم الكعبة فخرج رجل من اليمن يقال له ذو نفرٍ فأسره[٢٤٥]، فلما صار أبرهة بأرض خثعم اعترض [له] نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذه أسيرًا ثم خلا سبيله، فلما مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف وقالوا: أيها الملك إنما نحن عبيدك سماعون لك، ونبعث معك من يدلك على البيت، فبعثوا أبا رغال، فخرج بهم أبرهة حتى نزل بهم المغمس، فمات أبو رغال ثَمَّ، فرجمت العرب قبره؛ وهو القبر الذي يرجمه الناس بالمغمس، فلما نزل به بعث رجلًا من الحبشة فساق إليه أموالًا، فأصاب منها مائتي بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش، فهمت قريش وكنانة ومن كان بمكة ليقاتلوه[٢٤٦]، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حناطة[٢٤٧] الحميري إلى مكة وقال: ائتني بسيد القوم وقل له: إنما جئت لهدم هذا البيت ولا حاجة لي في حربكم ودمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به، فجاء وسأل عن سيد قريش فدل على عبد المطلب، فأتاه وبلغ الرسالة، وقال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، هذا بيت الله الحرام، فإن منعه فهو بيته وبيت خليله إبراهيم، وإن خلا بينه وبينهم فما

(٢٤١) ليغزون: ليغرين، م ي.
(٢٤٢) تاريخ الطبري ٢/ ١٣١.
(٢٤٣) المنمق في أخبار قريش ص٧٣.
(٢٤٤) متلحفون: مخلسين، م ي. المنمق في أخبار قريش ص٧٣.
(٢٤٥) نفرٍ فأسره: بقراسار، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٤٦.
(٢٤٦) ليقاتلوه: يقاتلونه، م ي.
(٢٤٧) حناطة: بحاطة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٤٨.

عندنا من دفع أو كما قال، ثم انطلق عبد المطلب معه حتى أتى المعسكر فسأل[٢٤٨] عن ذي نفر[٢٤٩] وكان صديقًا له، فدل عليه، فأتاه فقال: ياذا نفر هل عندك غناء [فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوا أو عشيا، ما عندنا غناء في شيء مما نزل بك][٢٥٠] إلا أن أنيسًا صاحب الفيل صديقي فأوصيه بك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك ويشفع، فقال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس، فجاءه ثم عظم أمر عبد المطلب وأرضاه به، ثم دخل أنيس على أبرهة فقال: هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، فأذن له، وكان عبد المطلب عظيمًا وسيمًا، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ونزل عن سريره وجلس معه على البساط، ثم قال لترجمانه: ما حاجتك؟ فقال: ماتنا[٢٥١] بعير سيقت، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: كنت أعجبتني حين رأيتك وقد زهدت فيك حين تكلمني في مائتي بعير وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك جئت لهدمه فلم تكلمني فيه، فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه، اردد علي إبلي، وكان مع عبد المطلب يعمر بن نفاثة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة وهو سيد هذيل، فعرضوا عليه ثلث مال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى ورد على عبد المطلب ماله، فانصرف إلى قريش وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج والتحرز[٢٥٢] في شعف[٢٥٣] الجبل والشعاب فخرجوا، وأقام عبد المطلب ومعه جماعة من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة، وعبد المطلب آخذ بحلقة الباب يقول:

يا رب لا نرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حِمَاكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

وقال:

لاهم إن العبد يمـ ... ـنع رحلة فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحـ ... ـالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وقبـ ... ـلتنا فأمرٌ ما بدا لك
ولئن فعلت فإنه ... أمر يتم به فعالك

---

(٢٤٨) فسأل: فقال، م ي.

(٢٤٩) نفر: يفر، م ي.

(٢٥٠) سيرة ابن هشام ١/ ٤٩.

(٢٥١) ماتنا: مائتي، م ي.

(٢٥٢) التحرز: التحوز، م ي.

(٢٥٣) شعف: شعب، م ي.

وله من أبيات:

ولم أسمع بأرجس[٢٥٤] من رجالٍ ... أرادوا العز فانتهكوا حرامك
جرّوا[٢٥٥] جميع بلادهم ... والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم ... جهلًا وما رقبوا جلالك

ثم خرج هو وجماعة أهل مكة ينظرون ما يعمل أبرهة بمكة.

فلما أصبح تهيأ للدخول إلى مكة، وهيأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمود، وكان مجمعًا على أن يهدم البيت ويرجع إلى اليمن، فلما وجه الفيل إلى مكة أقبل نوفل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل وقال في أذنه: أبرك محمود وانصرف راشدًا فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل، وخرج نوفل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن[٢٥٦] لهم في مراقه فنزعوها ليقوم فأبى، فوجهوه نحو اليمن فقام يهرول، فوجهوه إلى الشام ففعل كذلك، فوجهوه إلى الكعبة فبرك، فبيناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا يصيب أحدًا فيهم إلا هلك، وليس كلهم أصابت، فخرجوا هاربين يسألون عن نوفل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نوفل حين رأى ما نزل بهم:

أين المفر والإله الطالب[٢٥٧] ... والأشرم المغلوب غير الغالب

وقال نفيل من أبيات:

حمدت الله إذ عاينت طيرًا ... وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نفيل ... كأن علي للأحبوش دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل.

وأصيب أبرهة في جسده، فخرجوا به معهم حتى تساقطت أنامله أنملة أنملة، فقدموا به صنعاء وهو كفرخ الطير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

---

(٢٥٤) أرجس: أحسن، م ي. شرف المصطفى ١/ ١٨٤.
(٢٥٥) جرّوا: خسروا، م ي. شرف المصطفى ١/ ١٨٤.
(٢٥٦) محاجن: محاجين، م ي.
(٢٥٧) الطالب: الطالبي، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٤٠٥.

فلما رد الله الحبشة عن مكة ونزل بهم ما نزل عظمت العرب قريشًا وقالوا: أهل الله فقاتل عنهم فكفاهم مؤنة عدوهم، وجعلوا يذكرون ذلك الأشعار، وقالت قريش في ذلك أشعارًا كثيرة منها قول عبد المطلب:

لما سمعت الأشرم الضليلا ... سار يزجي[٢٥٨] خيله والفيلا
دعوت ربي دعوة مبهولا ... دعوة من قد خاف أن يزولا
يا رب لا تجعل لهم سبيلا ... على بناء لم يزل مأهولا
قد كان بانيه لكم خليلا ... صب على أبرهة السجيلا
والطير صفًا فوقهم مثولا ... فواقعوا صلع الرؤوس ميلا
كالزرع يلقى من غد مأكولا

وله من أبيات:

الحمد لله الأجل الأعظم ... أيدنا بردٌ[٢٥٩] رجف الأشرم
بالنصر والريح وطيرٍ[٢٦٠] حوّم ... ترميهمُ بالجندل المسوّم

وله من أبيات:

حتى التقينا موضعًا معلوما ... وكان ذو العرش بنا رحيما
أيدنا وأهلك الظلوما ... بالطير إذ ترميهم جثوما
بمرسلات سومت تسويما ... فأصبحوا وفيلهم[٢٦١] رميما
تخالهم[٢٦٢] في الملتقى هشيما

وقال من أبيات:

وعُدَّ القوافي ذواتِ الصوابِ ... لجيش أتاك به الأشرمُ
وفيل يُزجُونَه[٢٦٣] للوقاعِ ... إذا ذمروه له همهمُ

---

(٢٥٨) يزجي: ترجي، م ي.

(٢٥٩) بردّ: بقوم، م ي.

(٢٦٠) طيرٍ: قوم، م ي.

(٢٦١) فيلهم: فعلهم، م ي.

(٢٦٢) تخالهم: يحيلهم، م ي.

(٢٦٣) يزجونه: يرجونه، م ي.

بـه زحفـوا[٢٦٤] نحـو بيـتِ الإلـهِ ليتـركَ بنيانَـه يهـدمُ
وبنيـانُ مـن كان فـي دهـره خليـلا بخالقِـه يكـرمُ
فردَّهـم اللهُ عـن هدمِـه وأعياهـمُ الفيـل لا يقـدمُ
بطيـرٍ أبابيـلَ ترميهـمُ كأن مناقيرَهـا العنـدمُ
فأورثنـا اللهُ خيـرَ البـلادِ بـلادًا بهـا حُفـرت زمـزمُ

وقال أبو الصلت الثقفي من قصيدة:

إن آيـاتِ ربِّنـا باقيـاتٌ مـا يمـاري فيهـن إلا الكفـورُ
حَبَـسَ الفيـلَ بالمغمـسِ حتـى ظـلَّ يحبـو كأنـه معقـورُ
وحمـى البيـتَ ربُّـه مـن ذوي الفيـلِ بطيـرٍ لوقعهـا تنكيـرُ
فتولـوا وأيـن أيـن مـعَ الليـلِ تفـر القطـاةُ والعصفـورُ
كل ديـنٍ يـومَ القيامـةِ إلا مـا قضـى الله للحنيفيـةِ[٢٦٥] زورُ

ولعبد المطلب:

إنـا أنـاسٌ ذوو عـزٍّ ومكرمـةٍ كنـا لبيـتِ إلـهِ النـاسِ عمـارا
منعـتُ أبرهـةَ الأرضَ التـي حُرمـت علـى اللئـامِ فلـم يحلـلْ لهـم دارا
حميـتُ مكـةَ منـه إننـي رجـلٌ ذو أسرةٍ[٢٦٦] لم يكن في الحرب خوارا
حتـى إذا مـا التقينـا عنـد موقفنـا كل بـراه لحتـفِ المـوتِ قـد سـارا
سـيقت إلينـا مـن الرحمـن عافيـةٌ فضـلًا وأيدنـا بالطيـر أنصـارا
طيـرًا أبابيـل أجيـالًا محملـةً مـن عـدة الله للأعـداء أوقـارا

وقال الزبير بن عبد المطلب:

أبـي منـعَ الحبشـانَ مكـةَ بعدمـا أتوهـا بجمـعٍ يمـلأُ الأرضَ راجـحِ
فـكان لـه مـن ربِّـه النصـرُ إذ رأى مقـام امـرئ حامـي حـداد الصفائـحِ

من قصيدة طويلة.

---

(٢٦٤) زحفوا: رجفوا، م ي.
(٢٦٥) للحنيفية: الحنيفة، م ي.
(٢٦٦) أسرة: مسرة، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٦٤.

فلما مات أبرهة ملك اليمن يكسوم بن أبرهة، ثم مسروق بن أبرهة، فخرج سيف بن ذي يزن، ويكنى أبا مرة، وكان أبرهة قد نزع منه امرأته ريحانة بنت علقمة وتزوجها فولدت له يكسوم ومسروقًا، وكانت [قد] ولدت لسيف معدي كرب بن أبي مرة، فخرج سيف فأتى قيصر فشكى إليه ما هم فيه من الحبشة، فلم يشكه، فخرج إلى النعمان بن المنذر بالحيرة وهو عامل لكسرى فشكى إليه فقال: إن لي في كل عام وفادة على كسرى فأقم حتى يكون ذلك، فخرج إلى كسرى وشكى إليه وأقام عنده، وله فيه قصيدة طويلة، ثم أشير على كسرى بأن تبعث من في سجونك من الناس، فبعثهم معه وأمّر عليهم وهْرِز(٢٦٧) وكانوا ثمانمائة قصدوا اليمن وغرق ممن في السفينة مائتا رجل، فلما بلغوا اليمن جمع سيف من استطاع، وتأهب مسروق بن أبرهة لهم، ثم قاتلهم، وقتل ابن وهرز(٢٦٨)، ثم رمي وهرز(٢٦٩) بسهم فوقع بين عيني مسروق فقتله، وانهزمت الحبشة وقتلوا، وملك اليمن ونفوا عنه الحبشة، وكتب إلى كسرى، فملك سيف بن ذي يزن وانصرف وهرز(٢٧٠)، فجعل سيف يقتل الحبشة حتى لم يبق منهم إلا بقايا، وكان جماعة يسعون بين يديه بالحراب(٢٧١) فوثبوا عليه وقتلوه، وبعث كسرى وهرز(٢٧٢) إلى اليمن مع أربعة آلاف، فدخل اليمن ولم يترك بها حبشيًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عربيًا من حبشية إلا قتله.

ثم تورث أولاد وهرز(٢٧٣) ملك اليمن، ثم ملك بعدهم باذان، وفي أيامه بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان بين أن ملك أرياط اليمن إلى أن قتل مسروق اثنتان وسبعون سنة، ملك اليمن أربعة: أرياط، وأبرهة(٢٧٤)، ويكسوم(٢٧٥) ومسروق ابنا أبرهة.

---

(٢٦٧) هْرِز: هرر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٦٨) ابن وهرز: أنرلوهرو، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٦٩) هرز: هررحب، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٧٠) هرز: دهرر، م ي.
(٢٧١) الحراب: الجراب، م ي.
(٢٧٢) هرز: برهرد، م ي.
(٢٧٣) هرز: هرر، م ي.
(٢٧٤) أبرهة: أربعة، م ي.
(٢٧٥) يكسوم: مكسوم، م ي.

بـه زحفـوا[٢٦٤] نحـو بيـتِ الإلـهِ ليتـركَ بنيانَـه يهـدمُ
وبنيـانُ مـن كان فـي دهـره خليـلا بخالقِـه يكـرمُ
فردَّهـم اللهُ عـن هدمِـه وأعياهـمُ الفيـلُ لا يقـدمُ
بطيـرٍ أبابيـلَ ترميهـمُ كأن مناقيرَهـا العنـدمُ
فأورثنـا اللهُ خيـرَ البـلادِ بـلادًا بهـا حُفـرت زمـزمُ

وقال أبو الصلت الثقفي من قصيدة:

إن آيـاتِ ربِّنـا باقيـاتٌ مـا يمـاري فيهـن إلا الكفـورُ
حَبَـسَ الفيـلَ بالمغمـسِ حتـى ظـلَّ يحبـو كأنـه معقـورُ
وحمـى البيـتَ ربُّـه مـن ذوي الفيـلِ بطيـرٍ لوقعهـا تنكيـرُ
فتولـوا وأيـن أيـن مـعَ الليـلِ تفـر القطـاةُ والعصفـورُ
كل ديـنٍ يـومَ القيامـةِ إلا مـا قضـى الله للحنيفيـةِ[٢٦٥] زورُ

ولعبد المطلب:

إنـا أنـاسٌ ذوو عـزٍّ ومكرمـةٍ كنـا لبيـتِ إلـهِ النـاسِ عمـارا
منعـتُ أبرهـةَ الأرضَ التـي حُرمـت علـى اللئـامِ فلـم يحلـلْ لهـم دارا
حميـتُ مكـةَ منـه إننـي رجـلٌ ذو أسرةٍ[٢٦٦] لم يكن في الحرب خوارا
حتـى إذا مـا التقينـا عنـد موقفنـا كل يـراه لحتـفِ المـوتِ قـد سـارا
سـيقت إلينـا مـن الرحمـن عافيـةٌ فضـلًا وأيدنـا بالطيـرِ أنصـارا
طيـرًا أبابيـل أجيـالًا محملـةً مـن عـدة الله للأعـداء أوقـارا

وقال الزبير بن عبد المطلب:

أبـي منـعَ الحبشـانَ مكـةَ بعدمـا أتوهـا بجمـعٍ يمـلأُ الأرضَ راجـحِ
فـكان لـه مـن ربِّـه النصـرُ إذ رأى مقـام امـرئ حامـي حـداد الصفائـحِ

من قصيدة طويلة.

---

(٢٦٤) زحفوا: رجفوا، م ي.
(٢٦٥) للحنيفية: الحنيفة، م ي.
(٢٦٦) أسرة: مسرة، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٦٤.

فلما مات أبرهة ملك اليمن يكسوم بن أبرهة، ثم مسروق بن أبرهة، فخرج سيف بن ذي يزن، ويكنى أبا مرة، وكان أبرهة قد نزع منه امرأته ريحانة بنت علقمة وتزوجها فولدت له يكسوم ومسروقًا، وكانت [قد] ولدت لسيف معدي كرب بن أبي مرة، فخرج سيف فأتى قيصر فشكى إليه ما هم فيه من الحبشة، فلم يشكه، فخرج إلى النعمان بن المنذر بالحيرة وهو عامل لكسرى فشكى إليه فقال: إن لي في كل عام وفادة على كسرى فأقم حتى يكون ذلك، فخرج إلى كسرى وشكى إليه وأقام عنده، وله فيه قصيدة طويلة، ثم أشير على كسرى بأن تبعث من في سجونك من الناس، فبعثهم معه وأمَّر عليهم وهْرِز(٢٦٧) وكانوا ثمانمائة قصدوا اليمن وغرق ممن في السفينة مائتا رجل، فلما بلغوا اليمن جمع سيف من استطاع، وتأهب مسروق بن أبرهة لهم، ثم قاتلهم، وقتل ابن وهرز(٢٦٨)، ثم رمي وهرز(٢٦٩) بسهم فوقع بين عيني مسروق فقتله، وانهزمت الحبشة وقتلوا، وملك اليمن ونفوا عنه الحبشة، وكتب إلى كسرى، فملك سيف بن ذي يزن وانصرف وهرز(٢٧٠)، فجعل سيف يقتل الحبشة حتى لم يبق منهم إلا بقايا، وكان جماعة يسعون بين يديه بالحراب(٢٧١) فوثبوا عليه وقتلوه، وبعث كسرى وهرز(٢٧٢) إلى اليمن مع أربعة آلاف، فدخل اليمن ولم يترك بها حبشيًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عربيًا من حبشية إلا قتله.

ثم تورث أولاد وهرز(٢٧٣) ملك اليمن، ثم ملك بعدهم باذان، وفي أيامه بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان بين أن ملك أرياط اليمن إلى أن قتل مسروق اثنتان وسبعون سنة، ملك اليمن أربعة: أرياط، وأبرهة(٢٧٤)، ويكسوم(٢٧٥) ومسروق ابنا أبرهة.

---

(٢٦٧) هْرِز: هرر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٦٨) ابن وهرز: أترلوهرو، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٦٩) هرز: هررحب، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٦٣.
(٢٧٠) هرز: دهرر، م ي.
(٢٧١) الحراب: الجراب، م ي.
(٢٧٢) هرز: برهرد، م ي.
(٢٧٣) هرز: هرر، م ي.
(٢٧٤) أبرهة: أربعة، م ي.
(٢٧٥) يكسوم: مكسوم، م ي.

فصل في موت عبد المطلب

قال محمد بن إسحاق وغيره: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولد عام الفيل، فهلك أبوه كما ذكرنا، فكان مع أمه وجده، ثم ماتت أمه بالأبواء وهو ابن ست سنين.

وقيل: لما وضعته ماتت فاسترضع له جده حليمة، والله أعلم.

فكان بعد هلاك أمه مع جده عبد المطلب، ثم هلك عبد المطلب وهو ابن ثماني سنين، فأوصى به إلى أبي طالب؛ لأن عبد الله وأبا طالب أخوان لأبٍ وأم.

روي أنه قيل له صلى الله عليه وآله وسلم: هل تذكر موت عبد المطلب؟ قال: «نعم وأنا ابن ثماني سنين».

وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، وقيل: ابن اثنتين وثمانين، وقيل: إنه لما حضرته الوفاة دعا أبا طالب وقال: يا بني، قد علمت حبي لمحمد انظر كيف تحفظني فيه، فقال: يا أبت لا توصني[٢٧٦] فيه فإنه ابني وابن أخي، ثم قال لأبي طالب واسمه عبد مناف:

أوصيك يا عبدَ منافٍ بعدي ... بمُوحِدٍ بعد أبيه فردِ
فارقَهُ وهو ضجيعُ المهدِ ... فكنتُ كالأمِ له في الودِ
تدنيه من أحشائها والكبدِ ... قال لي والقول ذو مَرَدِ
ما[٢٧٧] ابنُ أخي ما عشتُ في معدِ ... إلا كأدنى ولدي في الودِ

وقال أيضًا:

أُوصي أبا طالبٍ بعدي بذي رحمٍ ... محمدٍ وهو خيرُ الناسِ محمودُ
هذا[٢٧٨] الذي يزعمُ الأحبارُ أن له ... أمرًا سيظهره نصرٌ[٢٧٩] وتأييدُ
في كتبِ عيسى وموسى منه بينةٌ ... كما تحدثني القومُ العباديدُ
فاحذر عليه شرارَ الناسِ كلهم ... والحاسدين فإن الخيرَ محسودُ

(٢٧٦) توصني: توصاني، م ي.
(٢٧٧) ما: من، ي.
(٢٧٨) هذا: هو، م ي. انظر تاريخ ابن الوردي ١/ ٩٧.
(٢٧٩) سيظهره نصرٌ: سيظهر في فضل، م ي. انظر تاريخ ابن الوردي ١/ ٩٧.

وقال أيضًا:

أوصي من كَنَّيْتُهُ بطالب ... عبدَ منافٍ وهو ذو تجاربِ
بابن الذي قد غابَ غير آيبِ ... بابن أخي والنسوةِ الحبايبِ
بابن الحبيبِ أقربِ الأقاربِ ... فقال لي كشبهِ المعاتبِ
لا توصني إن كنت بالمعاتب ... بثابتِ الحقِ عليٍّ واجبِ
محمدٍ ذو العرفِ والذوائبِ

وروي أن عبد المطلب كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول الفراش حتى يخرج إليهم ليجلس عليه، وكان لا يجلس عليه أحد من أهل بيته إجلالًا له، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأتي وهو غلام جفر فيجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه فيقول عبد المطلب لما رأى ذلك: دعوا ابني فوالله إن له شأنًا، ثم يجلس معه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يصنع.

ثم توفي عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين بعد الفيل بثمان سنين، فلم يبك أحد بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يلق أحد ما لقي فيه.

وولي زمزم والسقاية بعده العباس وهو يومئذ أحدث إخوته، فبقي في يده إلى أن جاء الله بالإسلام فأقرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يده، فهي إلى آل العباس.

وروي أنه لما عرف أنه ميت جمع بناته وهن ست وقال: ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلن فيّ قبل أن أموت، فقالت كل واحدة قصيدة، فمن قول عاتكة شعرًا:

أعينيَّ جُودا ولا تبخلا ... بدمعِكما بعدَ نومِ النيامِ
أعينيَّ واسْحَنْفِرَا[٢٨٠] واسكبا ... وشوبا بكاءكما بالتدامِ[٢٨١]
على الجحفلِ[٢٨٢] الغَمْرِ في النائباتِ ... كريمِ المساعي وفيِّ الذمامِ
وسيفٌ لدى الحربِ صمصامةٌ ... ومردي المخاصمِ عند الخصامِ
على شيبةِ الحمدِ واري الزناد ... وذي مصدقٍ بعد ثبتٍ[٢٨٣] المقامِ

(٢٨٠) بمعنى: استمرًا في البكاء. سيرة ابن هشام ١/ ١٧١.
(٢٨١) الالتدام: ضرب المرأة وجهها للنياحة. سيرة ابن هشام ١/ ١٧١.
(٢٨٢) الجحفل: الحفل، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧١.
(٢٨٣) ثبت: بيت، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧١.

وقالت صفية من قصيدة:

أرقـتُ لصـوتِ نائحـةٍ بليـلِ ... علـى رجـلٍ بقارعـةِ الصعيـدِ
ففاضـت عنـد ذلكـمُ دموعـي ... علـى خـدي كمنحـدرِ الفريـدِ
علـى الفيـاضِ شـيبةَ ذي المعالـي ... أبيـك الخيـر وارث كل جـودِ
رفيـعُ البيـتِ أبلـجُ ذي فضـولٍ ... وغيـثُ الناسِ في الزمنِ الحـرودِ[٢٨٤]
عظيـمُ الحلـمِ مـن نفـرٍ كـرامٍ ... خضارمـةٍ ملاوثـةٍ[٢٨٥] أسـودِ
فلـو خلـد امـرؤٌ بقديـم مجـدٍ ... ولكـن لا سـبيلَ إلـى الخلـودِ
لكنـت مخلـدًا أخـرى الليالـي ... لفضـل المجـدِ والحسـبِ التليـدِ

ومن قصيدة البيضاء أم حكيم:

ألا يـا عيـنُ جـودي واسـتهلي ... وبكّـي ذي النـدى والمكرمـاتِ
ألا يـا عيـنُ ويحَـك أسـعفيني ... بدمـعٍ مـن دموعِـك هاطـلاتِ
وبكّـي خيـرَ مـن ركـبِ المطايـا ... أبـاكِ الخيـرَ تيـارَ الفـراتِ
طويـلِ البـاعِ شـيبةَ ذا[٢٨٦] المعالـي ... كريـمَ الخيـم محمـودَ الهبـاتَ
عقيـل بنـي كنانـةَ والمرجـى ... إذا مـا الدهـر أقبـل بالهنـاتِ
وصـولًا للقرابـةِ هبزريًـا ... وغيثًـا فـي السـنين الممحـلاتِ
وليثـا[٢٨٧] حيـن تشـتجرُ[٢٨٨] العوالـي ... تـروقُ لـه[٢٨٩] عيـونُ الناظـراتِ

وقالت برة من قصيدة:

أعينـيَّ جـودا بدمـعٍ درزْ ... علـى طيـبِ الخيـمِ والمعتصـرْ
علـى ماجـدِ الجـدِّ[٢٩٠] واري الزنـاد ... جميـلِ المحيـا عظيـمِ الخطـرْ
علـى شـيبة الحمـدِ ذي المكرمـاتِ ... وذي المجـدِ والعـز والمفتخـرْ
أتتـه المنايـا فلـم تشـوه ... بصـرفِ الليالـي وريـبِ القـدرْ

(٢٨٤) الحرود: الجريد، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠.

(٢٨٥) ملاوثة: ملوثة، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠.

(٢٨٦) ذا: ذو، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.

(٢٨٧) ليثا: غيثًا، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.

(٢٨٨) تشتجر: تشتحر، ي. كذا في سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.

(٢٨٩) له: أبي، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٢.

(٢٩٠) الجد: الجود، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠.

وقالت أروى من قصيدة:

بكت عيني وحُقَّ لها البكاءُ ... على سمحٍ سجيته الحياءُ
على الفياضِ شيبةَ ذي المعالي ... أبيك الخيرِ ليس له كفاءُ
أبيُّ الضيمِ أبلجُ هبرزيٌّ ... قديمُ المجدِ ليس به جفاءُ
طويلُ الباعِ أملسُ شيظميٌّ ... أغرُّ كأن غرّته ضياءُ
ومعقلُ مالكٍ وربيعَ فهر[٢٩١] ... وفاصلُها إذا التُّمِس[٢٩٢] القضاءُ
وكان هو الفتى كرمًا وجودًا ... وبأسًا حين تنسكبُ الدماءُ

وقالت أميمة من قصيدة:

ألا هلكَ الراعي العشيرةُ ذو الفقدِ ... وساقي الحجيجِ والمحامي عن[٢٩٣] المجدِ
كسبتَ وليدًا خيرَ[٢٩٤] ما يكسب الفتى ... فلم تنفكك تزدادُ يا شيبةَ الحمدِ
أبو الحارثِ[٢٩٥] الفياضِ خلى مكانَه ... فلا تبعُدَن فكلُّ[٢٩٦] حي إلى بُعدِ
سقاك وليُّ الناسِ في القبر ممطرًا ... فسوف أبكيه وإن كان في اللحدِ

قال محمد بن سعيد[٢٩٧] بن المسيب وهو الراوي: أشار عبد المطلب برأسه - وقد أصمت - أن هكذا فابكينني، وتوفي.

وقالت برة مبكية:

ألا يا عينُ ويحَكِ أسعديني ... وأذري الدمعَ سَحلًا بعد سِحْلِ
وجودي بالدموع وأسعفيني ... بدمعٍ واكفٍ من بعدِ وبلِ
فقد فارقتِ أكرمَ من عليها ... وأكرمَ من هدى قدمًا بفعلِ
طويلَ الباعِ شيبةَ ذا المعالي ... أباك الخيرَ وارثَ كلِّ فضلِ

(٢٩١) ربيع فهر: رفيع فخر، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٣.
(٢٩٢) التمس: التبس، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٣.
(٢٩٣) عن: على، ي. سيرة ابن هشام.
(٢٩٤) خير: حين، ي. سيرة ابن هشام.
(٢٩٥) الحارث: الحرث، ي. سيرة ابن هشام.
(٢٩٦) تبعدن فكل: تقعدن إذ كل، ي. سيرة ابن هشام.
(٢٩٧) سعيد: سعد، ي. سيرة ابن هشام.

وقالت رقية بنت هاشم:

ألا يا عينُ ويحك أسعديني ... بدمعٍ واكفٍ هطلٍ غزيرِ
على الفياضِ شيبة ذي المعالي ... أخيك من أعظمِ الحدثِ الكبيرِ
وبكّي هاشمًا وبني أبيه ... ثمالَ الناسِ في الزمنِ النذورِ

وقالت سبيعة بنت عبد شمس تبكي ابن عمها عبد المطلب:

أعينيَّ جودا بالدموعِ السواكبِ ... على خير شخصٍ من لؤي بنِ[٢٩٨] غالبِ
أبي الحرثِ الفياضِ ذي الحلمِ والنهى ... وذي العونِ[٢٩٩] عند المعضلاتِ النوائبِ

وقالت:

أعينيَّ جودا بالدموعِ السواجمِ ... وبكّي بيومِ المجدِ من آلِ هاشمِ

وقالت:

أبو الحرثِ الفياضُ ذو العزِّ والندى ... جميلُ المحيا خيرُه غيرُ غائبِ

وقالت:

أعينيَّ جودا بالدموعِ الهوامرِ ... على خير [بادٍ] من بعيدٍ وحاضرِ
أبو الحرث الفياضُ ذو المجد والعلا ... وذو العزِّ والبهلولُ ابنُ المعاشرِ
نمته قرونٌ من قُصَّي وغالبٍ ... إلى نسبٍ من عِزَّةِ المجد باهرِ

وقالت:

أعينيَّ جودا بالدموعِ الهوامعِ ... على خير كهلٍ من معدٍ ويافعِ
كريمٍ حليمٍ غيرِ نكسٍ مزلحِ ... خطيبِ قريشٍ كلّها في المجامعِ

وقالت:

أعينيَّ جودا بالدموعِ السوافحِ ... على خيرِ غادٍ من بعيدٍ ورائحِ
أعينيَّ قد أبكيتُما إن بكيتما ... بحزن ثوى بين الحشا والجوانحِ
وجودا بدمعٍ منكما ما بقيتَما ... على ماجدِ الأحسابِ زَيْنِ الأباطحِ

---

(٢٩٨) بن: بني، ي.
(٢٩٩) العون: الصيد، ي.

ولرجل من بني عدي بن كعب يبكيه ويذكر فضل قصي وولده على قريش:

أعينيَّ جودا بالدموعِ على الصدرِ ... ولا تسأما أسقيتما سبلَ[٣٠٠] القطرِ

على خير حافٍ من معدٍ وناعلٍ ... كريمِ المساعي طيبِ الخيمِ والنجرِ[٣٠١]

وخيرِهمُ أصلًا وفضلًا ومعدنًا ... وأحظاهم بالمكرمات وبالذكرِ

على شيبةِ الحمدِ الذي كان وجهُهُ ... يضيء سوادَ الليل كالقمرِ البدرِ

وساقي الحجيجِ ثمَّ للخير[٣٠٢] هاشمٌ ... وعبدُ مناف ذلك السيد الفهري

طوى زمزما[٣٠٣] عند المقامِ فأصبحت ... سقايتُه فخرًا على كل ذي فخرِ

فإن يك غالته المنايا وصرفُها ... فقد عاشَ ميمونَ النقيبةِ والأمرِ

وهب: وكان موت وهب بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل أمه بين موت عبد الله وعبد المطلب.

فصل في تكفل أبي طالب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتربيته ونشوؤه وما ظهر من الآيات

فلما مات عبد المطلب بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتيمًا في حجر عمه يؤثره بالنفقة والكسوة على نفسه وجميع أهله، فكان معه إلى أن صار ابن خمس وعشرين سنة وزوجه خديجة بنت خويلد، وكان يحتفظ به لما يقال فيه وما يسمعه.

وكان حديث حلف الفضول وهو مع أبي طالب، وحديث الفجار وهو ابن عشرين سنة، ونذكر الحديثين فيما بعد، ونذكر أخبارًا له مع أبي طالب في مقامه معه:

عن أبي الزبير أن رجلًا من لِهْبٍ كان عارفًا، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف[٣٠٤] لهم فيهم، فأتاه به أبو طالب وهو غلام، فنظر إليه ثم شغله عنه شيء،

(٣٠٠) سبل: سابل، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٥.

(٣٠١) الخيم والنجر: تعني الطبع والأصل والسجية. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٥.

(٣٠٢) للخير: للخبز، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٥.

(٣٠٣) زمزما: زمنًا، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٧٥.

(٣٠٤) يعتاف: يعاف، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٠.

فلما فرغ قال: أين الغلام، علي به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه، فجعل يقول: ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفًا، فوالله ليكونن له شأن، فانطلق أبو طالب.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج يومًا مع الصبيان، فرآه قوم من بني مدلج، فنظروا إلى قدميه فخرجوا في إثره، فجاء إلى عبد المطلب واعتنقه، فقالوا له: ما هذا منك؟ قال: ابني، قالوا: احتفظ به فإنا لم نر قدمًا أشبه منه بالقدم الذي في المقام، فقال عبد المطلب لأبي طالب: تسمع ما يقول هؤلاء، فكان أبو طالب يحتفظ به.

مبحث في حديث بحيرى الراهب

قال: فكانت خزاعة وقريش يختلفون إلى الشام في تجارتهم، فتهيأ أبو طالب للسفر معهم، فركب راحلته فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بزمام ناقته وقال: يا عم إلى من تخلفني بعدك، لا أم لي ولا أب، فرق له أبو طالب وقال: لا أخلفك ورائي ولا أفارقك أبدًا، واحتمله وجعله على مقدمة راحلته، وساروا حتى نزلوا بصرى من أرض الشام، فنزلوا تحت شجرة بقرب دير فيه راهب أعلم أهل النصرانية يسمى بحيرى، وكان ذلك الدير لا يزال فيه راهب يتوارثونه كابرًا عن كابر، وكانوا إذا نزلوا عنده لا يكلمهم قبل تلك السنة، وكان بحيرى يشرف في اليوم ثلاث مرات.

قال: فنظر أقوامًا تحت الشجرة وإذا غمامة قد أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى استظل هو بظلها، قال الراهب: والله لا تظل هذه الغمامة إلا على رأس نبي، ثم دعا غلامه وقال: اذهب إلى عير مكة وقل: يقول لكم بحير الراهب: إني قد وضعت لكم طعامًا وأنا أحب أن تأتوني جميعًا، ونزل عن صومعته وقد أمر بصنع طعام، ثم أرسل إليهم ليحضروا، وقال: ينبغي ألا يتخلف أحد، فأدى الغلام الرسالة، فأقبلوا وخلفوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليحفظ رحالهم، ففتح الراهب لهم بابًا صغيرًا، فدخل رجل رجل، فلما صاروا في الدار أشرف الراهب فإذا الغمامة على ما كانت، فقال: يا قوم أخلفتم أحدًا؟

وقيل: كان بحيرى يعرف صفته، فلما نظر في وجوه القوم لم ير من صفته فيهم شيئًا، فقال: هل خلفتم أحدًا؟ فقالوا: يا بحيرى إن لك شأنًا، كنا نمر بك فلا تكلمنا، فقال: صدقتم ولكنكم ضيف أحب أن يحضروا جميعًا فهل خلفتم أحدًا؟ قالوا: نعم غلامًا حدث السن يحفظ رحالنا، قال: فادعوه إذن.

وقيل: قال رجل من القوم: واللات والعزى إن لؤمًا بنا تخليف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ثم قام إليه وأقبل به فأجلسه معهم.

قال: فلما أقبل [أقبل] والغمامة على رأسه حتى قعد، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه وينظر إلى أشياء من جسده، قال: قد كان يجدها عنده.

فلما فرغ القوم من طعامهم قام إليه وقال حين تفرق القوم: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك، وإنما قال ذلك لأنه سمع قومه يحلفون كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا تسألني باللات والعزى شيئًا فوالله ما أبغض بغضها شيئًا قط، فقال بحيرى: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن حاله ونومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخبره فيوافق صفته ما عنده، فلما فرغ منه أقبل عليهم فسألهم عنه، قالوا: لهذا - يعنون أبا طالب - فقال له: من هذا الغلام؟ قال: ابني، قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفته ليبغنّه[٣٠٥] شرًا، فإنه[٣٠٦] كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، وقيل: قال له: هو نبي من الأنبياء، وهذا خاتم النبوة بين كتفيه، فخرجوا إلى الشام فقضوا أوطارهم ثم أسرع به عمه حتى قدم مكة.

محمد بن إسحاق قال: وزعموا أن زُرَيْرًا وتمّاما ودريسا[٣٠٧] وهم نفر من أهل الكتب قد رأوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما رأى بحيرى، فأرادوه فردهم بحيرى وذكرهم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره، وأنهم إن أجمعوا على قتله لم يخلصوا[٣٠٨] إليه، فانصرفوا عنه، فقال أبو طالب في ذلك شعرًا منه:

إن ابنَ آمنةَ الأمينَ محمدا ... عندي بمثلِ منازلِ الأولادِ
لما تعلَّقَ بالزمامِ رحمتُه ... والعيس قد قلصن بالأزوادِ
راعيت فيه قرابةً موصولةً ... وحَفِظتُ فيه وصيةَ الأجدادِ

(٣٠٥) ليبغنّه: ليسعنه، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٢.

(٣٠٦) فإنه: فإن، ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٢.

(٣٠٧) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٢.

(٣٠٨) يخلصوا: يخلص، م ي.

وأمرتُـه بالسيرِ بيـنَ عمومـةٍ بيـضِ الوجـوهِ مصالـتٍ أنجـادِ
حتـى إذا مـا القـومُ بصرى أبصـروا لاقـوا علـى شَـرَكٍ مـن المرصـادِ
حبـرًا فأخبرهـم حديثًـا صادقًـا عنـه وردَّ معاشـرَ الحسـادِ
قـومٌ يهـودُ قـد رأوا مـا قـد رأى ظِـلَّ الغمـامِ وغُـرةَ الأكبـادِ
سـاروا لقتـلِ محمـدٍ فنهاهـمُ عنـه وأجهـدَ أحسـنَ الإجهـادِ

وقال أيضًا:

ألـم تـرَ أنـي بعـدَ هـمٍّ هممتُـه بفرقـةِ حـرٍّ الوالديـنِ كـرامِ
بأحمـدَ لمـا أن شـددتُ مطيتـي بَرَحلِـي وقـد ودعتُـه بسـلامِ
فلمـا بكـى والعيـسُ قـد فصلـتَ بنـا وقـد مـاسَ بالكفيـن فضـلُ[٣٠٩] زمـامِ
ذكـرتُ أبـاه ثـم رقرقـتُ عبـرةً تجـودُ مـن العينيـن ذاتَ سـجامِ
فقلـت: ترحـل راشـدًا فـي عمومـةٍ مواسـين فـي البأسـاء غيـرِ لئـامِ
فرحنـا مـع العيـر التـي راح ركبُهـا شـآميَ الهـوى والأصـلُ غيـر شـآمي
فجـاد بحيـرى عنـد ذلـك حاشـدا[٣١٠] لنـا بشـرابٍ طيـبٍ وطعـامِ
فقـال: اجمعـوا أصحابَكـم لطعامِنـا فقلنـا جمَعنـا القـوم غيـرَ غـلامِ
يتيـمٍ، فقـال: ادعـوه إن طعامَنـا كثيـرٌ، عليـه اليـوم غيـرُ حـرامِ
فلمـا رآه مقبـلًا فـوقَ رأسِـه توقيـه حـرَّ الشـمسِ ظـلُّ غمـامِ
حنـا طمـرَه شـبهَ السـجودِ وضمَّـه إلـى نحـرِه والصـدرِ أي ضِمـامِ
وأقبـل ركـبٌ يطلبـون الـذي رأى بحيـرى رأيَ العيـنِ وسـطَ خيـامِ
دريسـا وتمامـا[٣١١] وقـد كان فيهـم زبيـرٌ وكلُّ القـومِ غيـرُ نيـامِ
فجـاءوا وقـد همـوا بقتـلِ محمـدٍ فردَّهـم عنـه بحسـنِ خصـامِ
بتأويلِـه التـوراةَ حتـى تيقنـوا وقـال لهـم: مـا أنتـمُ بطغـامِ
فذلـك مـن أعلامِـه وبيانِـه وليـس نهـارٌ واضـح كظـلامِ

---

(٣٠٩) فضل: مني، م ي.

(٣١٠) حاشدا: محاشدًا، م ي. الروض الأنف ٢/ ٣٢٨.

(٣١١) دريسا وتماما: دريس وتمام، م ي. سيرة ابن إسحاق ص٧٧.

وقال من قصيدة:

فرحنا مع العيرِ التي راحَ ركبُها ... يؤمون من غوري أرضَ إيادِ
فما رجعوا حتى رأوا من محمدٍ ... أحاديثَ تجلو غمَّ كلِّ فؤادِ
وحتى رأوا أحبارَ[٣١٢] كلِّ مدينةٍ ... سجودًا له من عصبةٍ وفرادِ
زبيرًا وتمامًا وقد كان شاهدًا ... دريسًا وهموا كلُّهم بفسادِ
فقال لهم قولًا بحيرى وأيقنوا ... له بعدَ تكذيبٍ وطولِ بعادِ
كما قال للرهطِ الذين تهودوا ... وجاهدَهم في الله كلَّ جهادِ

وكانت قصة بحيرى والنبي صلى الله عليه وآله وسلم ابن اثنتي عشرة سنة، وكان حديث الفجار وهو ابن عشرين سنة.

وذكر أبو عثمان عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «شهدتُ الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة، وكنت أسأل عمومتي».

وتزوج خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان مسيره إلى الشام قبل ذلك بأشهر، ونحن نذكر ذلك فصلًا فصلًا.

مبحث في حلف المطيبين وحلف الفضول

قد قيل: إنهما واحد، وقيل: إنهما حلفان.

فأما حلف المطيبين: فهم خمس قبائل: أولهم بنو عبد مناف بن قصي، تحالفوا على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي، فأخرجت لهم جفنة مملوءة طيبًا فغمسوا أيديهم فيها ومسحوا به الكعبة، فسموا المطيبين، ورئيسهم عبد شمس.

وتحالف بنو عبد الدار مع أربع قبائل على المعاونة على أن يقر ما في أيديهم على ما صنع قصي، فسموا الأحلاف، وقد ذكرنا تفصيله في باب حديث عبد مناف وأولاده.

فأما حلف الفضول: فقد اختلفوا فيه، فقيل: لما مات عبد المطلب انتهت الرئاسة بمكة إلى ثلاثة: حرب بن أمية بن عبد شمس، وعبد الله بن جدعان التيمي، وهشام بن المغيرة

(٣١٢) أحبار: أخبار، ي.

المخزومي، فكانوا يفعلون المعروف[٣١٣]، ويطعمون الطعام، وكان حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان، وذلك أن نفرًا من جرهم وقطوراء: الفضل بن الحارث والمفضل بن فضالة الجرهميين، والفضل بن وداعة القطوري، كانوا اجتمعوا فتحالفوا ألا يقروا بمكة ظالمًا لما عظم الله من حقها، فقال عوف بن عمرو الجرهمي:

إن الفضـولَ تحالفـوا وتعاقـدوا ... ألا يقـرَّ ببطـنِ مكـةَ ظالـمُ
أمـرًا عليـه تعاقـدوا وتواثقـوا ... فالجـارُ والمعتَـرُّ فيهـم سـالمُ

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش، ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنِّه[٣١٤]، وكان حلفهم عنده: بنو هاشم وفيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ما يوحى إليه، وأبو طالب، وأسد[٣١٥] بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم[٣١٦] بن مرة، فتعاهدوا ألّا[٣١٧] يجدوا بمكة مظلومًا إلا قاموا معه حتى يردوا عليه مظلمته، فسموا بذلك حلف الفضول؛ لِمَا كان من أولئك النفر من جرهم.

وقيل: إن رجلًا من بني زبيد قدم مكة معتمرًا تاجرًا، فاشترى تجارته العاص بن وائل السهمي[٣١٨] فآذاه، وبقي الزبيدي لا يقدر عليه، فاستعدى[٣١٩] بني سهم[٣٢٠] فأغلظوا له، فعرف أنه لا سبيل إليه، فنادى على [جبل] أبي قبيس بأعلا صوته:

يـا آل[٣٢١] فهـر لمظلـوم بضاعتـه ... ببطـن مكـة نائـي الأهـل والنفـر[٣٢٢]

من أبيات، فاجتمع قوم وتحالفوا ألا يظلم بمكة أحد إلا نصروه، فكان من بني هاشم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الوحي، والمطلب بن عبد مناف، وأسيد بن عبد العزى،

(٣١٣) المعروف: المعرفون، م ي.
(٣١٤) سنِّه: من سنه، م ي.
(٣١٥) أسد: أسيد، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٣٣.
(٣١٦) تيم: تميم، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٣٣.
(٣١٧) ألّا: أن، م ي.
(٣١٨) السهمي: السلمي، م ي. بهجة المحافل ١/ ٤٦.
(٣١٩) استعدى: استأذن، م ي.
(٣٢٠) سهم: سهيم، م ي.
(٣٢١) آل: أهل، م ي. الروض الأنف ٢/ ٤٦.
(٣٢٢) النفر: السفر، م ي. المنمق في أخبار قريش ص٥٢.

وزهرة بن كلاب، والذي مشى فيه فضل وفضال وفضيل وفضالة، فسمي حلف الفضول، ويجوز أن يكون هذا مذكورًا من حديث جرهم ثم بسبب الزبيدي تداعوا إلى ذلك.

طلحة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب لي به حمر النعم، ولو أدعى له في الإسلام أجبت».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «كل حلف كان في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة ولا حلف في الإسلام».

عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: كان بين الحسنين ابني علي عليهما السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال كان بينهما بذي[٣٢٣] المروة، وكان الوليد يتحامل على الحسنين لسلطانه، فقال الحسين: أقسم بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن بسيفي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبد الله بن الزبير وهو حاضر: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن بسيفي ثم لأقومن معه، وبلغ ذلك المسور بن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك، وبلغ عبد الرحمن بن عثمان التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد أنصف حسينًا من نفسه حتى رضي.

محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي قال: قدم محمد بن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف على عبد الملك بن مروان حين قتل ابن الزبير، فلما دخل عليه قال: يا أبا سعيد لم نكن نحن وأنتم – يعني بني عبد شمس وبني نوفل – في حلف الفضول، قال: أمير المؤمنين أعلم، قال: لتخبرني بالحق من ذلك يا أبا سعيد، قال: لا والله يا أمير المؤمنين لقد خرجنا نحن وأنتم منه، قال: صدقت.

مبحث في الفجار مختصر

الفجار على ما روي فجاران: الأول، والثاني، المذكور هو الثاني، وفيه الوقعة، وهو يوم عكاظ، فأما الأول فلم يكن فيه خطاب قتال، وكان الفجاران بين قيس بن عيلان[٣٢٤] وبين قريش ومن والاها[٣٢٥] من كنانة، وسمي فجارًا بما استحل هذان الحيان فيه من المحارم.

(٣٢٣) بذي: بيدي، م ي.

(٣٢٤) عيلان: غيلان، ي. كذا في سيرة ابن هشام ١/ ١٨٤.

(٣٢٥) والاها: إليها، م ي.

فأما الفجار الأول: فقيل: إنه كان لرجل من بني نَصْر بن هوازن دين على رجل من بني كنانة فلم يرده، فأتى النضري بِقِرْدٍ سوق عكاظ فوقفه وقال: من يبيعني مثل هذا بما لي على فلان الكناني تعييرًا لبني كنانة، فضرب رجل من بني كنانة قرده فقتله، فصرخ النضري في قيس والكناني في كنانة، واجتمع الناس، وكاد[٣٢٦] أن يكون بينهم قتال، ثم تداعوا الصلح وتيسر الخطب ولم يكن إلا ذلك.

وقيل: إن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر قد تبرقعت ببرقع فقالوا لها لما رأوا هيئتها: أسفري لنا عن وجهك، فأبت، فقام واحد فأخذ وبر درعها وخاطها إلى ظهرها بشوكات وهي لا تعلم، فلما قامت كشفت عن دبرها فضحكوا وقالوا: منعتنا وجهك وأريتنا دبرك، فصاحت ببني عامر، واجتمع الناس، ثم رأوا أن الأمر دون، ولم يكن قتال.

وقيل: قعد رجل من بني غفار[٣٢٧] من كنانة يقال له أبو معشر وكان منيعًا في نفسه بسوق عكاظ، فمد رجله وقال: أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها، فضربها رجل من قيس يقال له أحمر بن مازن[٣٢٨] فخدشت[٣٢٩] غير كثير، فتحاور الناس وكاد أن يكون قتل ثم تراجعوا ورأوا أن الأمر غير كبير، كل ذلك روي أنه الفجار الأول، والله أعلم، ذكره محمد بن إسحاق.

وأما الفجار الآخر بين قيس وكنانة، فالذي هاجه أن البراض بن قيس الكناني وكان فاتكًا خليعًا قد خلعه قومه لكثرة شره خرج حتى قدم على النعمان بن المنذر، وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة لتجارة إلى عكاظ، وكانت عكاظ وذو المجاز ومجنة أسواقا للعرب يجتمعون إليها ويأمر بعضهم بعضًا، قال النعمان وعنده البراض بن قيس الكناني وعروة بن عتبة: الرجال من قيس غيلان، من يجير لطيمتي هذه [حتى] يقدم بها عكاظ، فقال البراض: أنا أجيرها على كنانة، فقال النعمان: أريد رجلًا يجيرها على قيس وكنانة، فقال عروة: أكلب خليع يجيرها لك أنا أجيرها على أهل الشيح والقيصوم من أهل تهامة وأهل نجد، فغضب البراض وقال: وعلى بني كنانة، فقال عروة: ومن الناس كلهم، فدفع اللطيمة إليه، وخرج عروة بها وخرج البراض

(٣٢٦) كاد: كان، م ي.

(٣٢٧) غفار: عفار، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٥٢٨.

(٣٢٨) أحمر بن مازن: أحمد بن مادن، ي. الكامل في التاريخ ١/ ٥٢٨.

(٣٢٩) فخدشت: فخدشخت، م ي.

يتبع أثره ولا يخاف عروة منه، حتى إذا كان بين قومه من قيس إلى جانب فدك أدركه البراض واجتمعا، فنزلت العير وأخرج البراض قداحه يستقسم في قتل عروة، فمر به عروة فقال: ما تصنع؟ فقال: أستقسم في قتلك أيؤذن لي فيه أم لا، فقال: استك أضيق من ذلك يا براض، فوثب إليه البراض بالسيف فقتله واستاق العير، وتبعه رجلان من قيس غنوي[٣٣٠] وغطفاني، اسم الغنوي[٣٣١] أسد، واسم الغطفاني مساور[٣٣٢]، فلحقاه بخيبر قد سبقهما إلى خيبر، فنزل بالعير فقال: من الرجلان؟ قالا: من قيس غنوي وغطفاني، قالا: ومن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل البلد، قالا: فهل لك علم بالبراض؟ قال: قد سألتما عن رجل خبيث فإن يك دخل علينا طريدًا فليس يؤمنه أحد بخيبر، قالا: فأين يكون؟ قال: وهل لكما به من طاقة؟ قالا: نعم إن دللتنا عليه، قال: فانزلا، فنزلا، فقال: أيكما أجرأ عليه وأجود سيفًا؟ قال الغطفاني: أنا، فقال: انطلق، فجلس الغنوي، ومضى الغطفاني والبراض بين يديه حتى أتى خربة وقال: هو فيها في بيت كذا وكذا، فدخل البراض وخرج وقال: هو نائم، هل عندك من ضربة، فقال: نعم، فقال: أرني سيفك، فأعطاه إياه، فضربه حتى قتله في تلك الخربة، ثم جاء إلى الغنوي وقال: ما رأيت أجْبَنَ[٣٣٣] من صاحبك أريته[٣٣٤] الرجل نائمًا فلم يتقدم إليه ولم[٣٣٥] يتأخر عنه، فانطلق الغنوي أمام البراض حتى إذا دخل الخربة ضربه البراض فقتله، وأخذ سلاحهما وراحلتهما، وقال فيه أشعارًا، ثم خرج البراض حتى لقي رجلًا من بني أسد فجعل له عشرًا من الإبل ليأتي حرب بن أمية وقومه من كنانة فيخبرهم أن البراض قتل عروة الرحال، فأتى الأسدي سوق عكاظ وجماع الناس بها كنانة وقيس، وأتى حرب بن أمية فأخبره بذلك، فبعث حرب بن أمية إلى عبد الله بن جدعان وإلى هشام بن المغيرة وهم يومئذ أشراف قريش، فأخبرهم بذلك، ثم دعوا من كل قبيلة رجلًا من وجوههما، فأخبروه بذلك ودعوا سيد الأحابيش الحليس بن زيد وأخبروه وقالوا: خشينا من قيس أن يطلبوا ثأرهم منا فتشاوروا، ثم قالوا: الرأي أن نأتي أبا براء عامر بن مالك وهو يومئذ بعكاظ فيمن حضره من قيس، وهو سيدهم، فيخبره أنه حدث حدث بين أهل نجد وأهل تهامة ولم يأتنا علمه فأجز بين الناس حتى تعلم ونعلم، فجاؤوه وقالوا له ذلك،

(٣٣٠) قيس غنوي: قريش عنوي، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٥٢٩.

(٣٣١) الغنوي: العنوي، م ي.

(٣٣٢) مساور: مساقه، م ي.

(٣٣٣) أجْبَنَ: أجود، م ي.

(٣٣٤) أريته: أرابته، م ي.

(٣٣٥) لم: لا، ي.

فقام عامر في قومه وقال لهم ذلك وقد أجزت[٣٣٦] بين الناس حتى يأتينا علم ذلك، فلما أجار عامر قام نفر من قريش في أهل عكاظ وقالوا: قد حدث في قومنا بمكة حدث أتانا خبره ولا بد لقومنا منا فلا يروعنكم[٣٣٧] تحملنا عنكم من بين أظهركم، ثم ركبوا الصعب والذلول إلى مكة، ولما كان آخر اليوم بلغ قيسًا ومن بعكاظ وقالوا: قد قتل البراض عروة الرحال، فقام عامر أبو براء وقال: يا لقيس غدرت بي قريش وخدعني حرب بن أمية وأصحابه، والله لا تنزل كنانة عكاظ أبدًا، وركبوا في طلبهم فاقتتلوا وتبادت[٣٣٨] قريش ليدخلوا الحرم فلم يزالوا كذلك حتى دخلوا الحرم وانصرفت قيس، وقالوا: لا يبطل دم عروة، الوعد بيننا وبينكم عكاظ في العام القابل، هذه الليالي وقدم البراض باللطيمة حتى أتى مكة، فلما كان العام القابل في الليالي التي أوعدت فيها سارت قريش بجمعها كل قبيلة مع سيدها، وجمع أمر الناس إلى حرب بن أمية وهو رئيس بني عبد مناف، وفي بني أسد خويلد بن أسد، وفي بني عبد الدار عامر بن هاشم، وفي بني حرب مخزوم بن هاشم بن المغيرة، وفي بني تيم عبد الله بن جدعان، وكذلك كل قبيلة معها رئيسها، فنزلوا عكاظ وقد تقدمهم قيس، ولما نزلوا بعكاظ هبوا للقتال[٣٣٩] وزحف الناس بعضهم إلى بعضهم، فكانت الدائرة أول النهار على قريش وكنانة حتى فر جماعة منهم، وثبت حرب بن أمية وإخوته في بني عبد مناف واقتتلوا وانهزمت ثقيف وبنو عامر وقتل منهم جماعة كثير، فلما رأى أبو السيد عم مالك بن عوف النصري[٣٤٠] الموت الناقع نادى: يا معشر كنانة أسرفتم في القتل، فقال عبد الله بن جدعان: إنا معشر سرف، فلما رأى سبيع[٣٤١] بن ربيعة وهو من رؤساء القوم ما تصنع قيس من الفرار اضطجع[٣٤٢] وقال: يا معشر بني نصْر[٣٤٣] قاتلوا عني، فتعاطف عليه بنو نصر[٣٤٤] وجشم وسعد بن بكر وفهم وعدوان فقاتلوا حتى تنصف النهار، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعدوا القتلى، فأي الفريقيت فضل ودوا[٣٤٥] له فضله، ففضلت قيس

---

(٣٣٦) أجزت: أجرت، ي.

(٣٣٧) يروعنكم: روعنكم، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٥٣٠.

(٣٣٨) تبادت: تابدروا، م ي.

(٣٣٩) هبوا للقتال: هيوا القتال، ي.

(٣٤٠) عوف النصري: عمرو والنظر، م ي.

(٣٤١) سبيع: سبع، ي.

(٣٤٢) اضطجع: اشطجع، ي. الكامل في التاريخ ١/ ٥٣٢.

(٣٤٣) نصْر: نضر، ي. كذا في الكامل في التاريخ ١/ ٥٣٢.

(٣٤٤) نصر: نضر، ي.

(٣٤٥) ودوا: دواء م ي.

بعشرين، فرهن حرب بن أمية عندهم بتلك الديات ابنه أبا سفيان، وكذلك رهن كل رئيس ابنه، ووضعوا الحرب وتعاهدوا ألاّ يؤذي بعضهم بعضًا فيما كان من أمر البراض وعروة، وتفرق الناس وصار كل قوم إلى بلادهم، وتقاولوا في ذلك[٣٤٦] أشعارًا كثيرة، ورجعت قريش إلى مكة وقد زادت شرفًا بيوم عكاظ، ثم هلك حرب بن أمية، لسعته حية، ثم هلك عبد الله بن جدعان، ثم هلك هشام بن المغيرة، فبكوا عليهم ورثوهم بأشعار كثيرة.

مبحث في خديجة

قال: ثم اتصل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخديجة، وقد اختلف في سبب اتصاله بها، فقيل: إن أبا طالب قال له ذات يوم: إن أبويك[٣٤٧] توفيا ولم يتركا مالًا، وإني أحب أن يكون لك مال فأزوجك، فتقر عيني بك قبل فراقي، ولا سبيل إلى ذلك، وهذه خديجة تستأجر الأجراء ويجري الله على يديها خيرًا، فهل لك أن أذهب بك إليها لعلها تستأجرك وترزق رزقًا، قال: بلى أنا لك سامع مطيع، فانطلقا ودخلا عليها وهي على سرير وحولها جوار[٣٤٨] يروحنها[٣٤٩]، فقالت: ما لك يا عم؟ فقال: هذا محمد الأمين ابن أخي أتيتك به لتؤاجريه بما شئت ليصل إليه من فضل نعمك فإنه أولى من غيره، قالت: نعم، فدعت غلامها ميسرة وقالت: إني أريد أن أبعث معك محمدًا فانظر ألا تعصي له أمرًا، قال: نعم، وخرج أبو طالب وتركه عندها.

وقيل: لما بلغها صدقه وأمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه غلامها ميسرة وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ويخرج مع غلامها ميسرة، فقبل منها، فخرج إلى الشام مع ميسرة.

فروي أنه نزل في ظل شجرة قريبًا من دار راهبٍ فقال الراهب لميسرة: من هذا الغلام الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش، فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

---

(٣٤٦) ذلك: ذكل، ي.

(٣٤٧) أبويك: أبواك، م ي.

(٣٤٨) جوار: جواري، م ي.

(٣٤٩) يروحنها: قد روحها، م ي.

وروي أنه لما خرج من المنزل عادت الغمامة إلى رأسه حتى انتهوا إلى باب بحيرى فخرج وقبل رأسه وقال في نفسه: آمنت بك وأشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة وبشر بك عيسى، فإنه قال: لا ينزل تحت هذه الشجرة بعدي إلا النبي الهاشمي العربي المكي، ثم قال: يا غلام احتفظ به من اليهود فإنهم أعداؤه.

ثم مضوا حتى انتهوا إلى الشام فربحوا ربحًا لم يربح مثله قط، ثم رجع قافلًا إلى مكة، فقال ميسرة: اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما رأينا قط ربحًا مثل هذا، هل لك أن تسبقني إليها فتخبرها لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك[٣٥٠].

قال: فركب وسار، وكانت خديجة في علية لها، فنظرت فإذا براكب والغمام تظله قد أقبل ولم تعلم[٣٥١] من هو، فقالت: اللهم إلي وإلى داري، فأقبل إلى دارها، فوثبت مسرعة إلى الباب فإذا هي بمحمد قد نزل عن ناقته، فبشرها بالربح، فقالت [في نفسها]: لعل الذي رأيت ليس هذا، فقالت: أين ميسرة؟ قال: سيقدم عن قريب، فقالت له: عجل إلينا، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأته أم لا، فركب وضرب الناقة وخرج، وصعدت خديجة العلية واستيقنت أنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وذهب هو إلى ميسرة فأقبلوا حتى دخلوا مكة وهي متفكرة في أمره، فخلت بميسرة وقالت: اصدقني قصة محمد، فقال: أخبرني بحيرى الراهب أنه نبي من الأنبياء وقال: احتفظوا به من اليهود، فقالت: اكتم علي وأنت حر ولك عشرة آلاف درهم.

مبحث في تزويج خديجة

ثم بعثت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت: إني رغبت فيك[٣٥٢] لقرابتك وشرفك وأمانتك، ثم عرضت نفسها عليه.

وهي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأمها فاطمة بنت زايدة من ولد عامر بن لؤي، فذكر هو ذلك لأعمامه، فخرج معه حمزة حتى دخل على خويلد فخطبها إليه فزوجها منه.

وقيل: إنها قالت: ادع عمك أبا طالب، فأتاه ودعاه، ففزع أبو طالب وقال: لعلها تردك علي، ثم أتاها فقالت من وراء الستر: أدخل على عمي عمرو وكلمه أن يزوجني من ابن أخيك،

(٣٥٠) بكرة إلى بكرتيك: تكرمة كره، م ي. سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٥٩.

(٣٥١) تعلم: يعلم، م ي.

(٣٥٢) فيك: فيه، م ي.

فدخل عليه جماعة من قومه فزوجها منه، فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ورثة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعل مسكننا بيتًا محجوجا[٣٥٣]، وحرمًا آمنًا، وجعلنا حكامًا على الناس، ثم إن ابن أخي هذا لا يوزن برجل إلا رجح عليه، وإن له لخطبًا جليلًا، وبيتًا عظيمًا، وإن كان مقلًا في المال فإن المال حظ زائل، ورزق حائل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل من الصداق حكمكم عاجله وآجله، والسلام علينا وعليكم.

وأمرت خديجة جواريها فضربن بالدفوف، وأرسلت إلى النبي حلّة يمانية فأخذها وألقاها على عمها، وقالت: قل عند أهلك وأمر عمك ينحر[٣٥٤] للناس ويطعمهم، ففعل.

فمكثت خديجة معه خمسًا وعشرين سنة، وولدت أولادًا: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، والطاهر، والطيب، فأما البنون فهلكوا قبل الوحي، وأما بناته فأدركن الإسلام وأسلمن وهاجرن معه.

وروي أن عمها لامها على ذلك فقالت: يا عم، هل ينكر نسبه وفضله وخَلْقَه وخُلُقَه؟ قال: لا ولكنه معدم، قالت: فإن لي من المال ما يسعني ويسعه ويسعك، فرضي به.

وكانت خديجة تذكر لورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها وكان نصرانيًا ما ترى من أمر محمد وما ذكر لها ميسرة، وروي أن ميسرة قال: لما كان في طريق الشام إذ كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، فقال ورقة وقد كان يتبع الكتب: لئن كان هذا حقًا فإن محمدًا نبي هذه الأمة، وجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول في ذلك أشعارًا.

مبحث في ورقة بن نوفل وأصحابه

قال: وكانت قريش مقيمة ليس بينهم ثائرة، ثم إنهم اجتمعوا في عيد لهم عند صنم يعظمونه وينحرون له كل عام، فلما كان عام من الأعوام وفعلوا مثل ذلك خلص أربعة نفر من قريش نجيا، فقال بعضهم لبعض: تصادقوا واكتموا، وهم: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وزيد بن عمرو بن نفيل

(٣٥٣) محجوجا: محجوبًا، ي. سبل الهدى والرشاد ٢/ ١٦٥.

(٣٥٤) ينحر: ينحير، ي.

بن عدي بن كعب، وعبيد الله بن جحش بن رئاب بن أسد بن خزيمة، وأمه أميمة بنت عبد المطلب، فقالوا: إنكم تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف[٣٥٥] به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، ما أنتم على شيء، فالتمسوا لأنفسكم دينًا، فتفرقوا في البلاد يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.[٣٥٦]

وأما زيد بن عمرو ففارق دين قومه واعتزل الأوثان والميتة والذبائح ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية وعاب دين قومه.

أسماء بنت أبي بكر قالت: رأيت زيدًا شيخًا كبيرًا أسند ظهره إلى الكعبة وقال: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، ثم قال: اللهم لو أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه، ثم سجد على راحته.

وروي أنه إذا استقبل الكعبة كان يقول: لبيك حقًا حقًا، تعبدًا ورقا، عذت بما عاذ به إبراهيم.

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن زيدًا [كان] أول عاب على الأوثان، ونهاني عنها، كنت أقبل من الطائف ومعي زيد بن حارثة حتى مررت بزيد[٣٥٧] بن عمرو وهو بأعلى[٣٥٨] مكة، فقعدت إليه فعاب الأوثان، فوالله ما تحسست بوثن[٣٥٩] بعد ذلك اليوم»[٣٦٠].

وعن سعيد بن زيد قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نستغفر لزيد؟ قال: «نعم فإنه يبعث أمة وحده»، وقد قال زيد في فراقه لقومه أشعارًا كثيرة، وهو ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل.

ثم خرج زيد يطلب الحنيفية حتى أتى الموصل والجزيرة والشام، وسأل الرهبان عن ذلك، فقالوا: ما أنت بواجد أحدًا على ذلك، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج في بلادك، يبعث بدين إبراهيم، فالحق به فإنه مبعوث الآن، فلما سمع ذلك خرج سريعًا يريد مكة، فلما توسط بلاد لخم[٣٦١] عدو عليه فقتلوه، فبكى ورقة بن نوفل بأشعار كثيرة منها:

---

(٣٥٥) نطيف: يطوف، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٣.

(٣٥٦) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٣.

(٣٥٧) بزيد: وزيد، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١١٨.

(٣٥٨) وهو بأعلى: واع لي، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١١٨.

(٣٥٩) ما تحسست بوثن: ما تمسحت وي، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١١٨.

(٣٦٠) سيرة ابن إسحاق ص١١٨.

(٣٦١) لخم: لحي، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١١٩.

جـزاك ابـن عمـرو قـادر الخيـر جنـة ثوابًـا مـن الفـردوس والله فاعـلُ
رحلـت تبغـي الديـن حتـى وجدتـه وذو العلـم فيمـا يرتضـي الله راحـلُ
فكنـت علـى ديـن رشـيد سـبيله وغيـرك لاهٍ يعبـد الـلات غافـلُ
فأبشـر فـإن الله يجزيـك جنـةً بهـا للعبـاد الصالحيـن منـازلُ
بتـركك أوثانًـا وبغضـك معشـرًا لهـم سـبل عـن منهـج الحـق عـادلُ

وله فيه أيضًا:

رشـدت وأنعمـت ابـن عمـرو وإنمـا تجنبـت[٣٦٢] تنـورًا مـن النـار حاميـا
بدينـك ربًـا ليـس رب كمثلـه وتـركك أوثـان الجبـال كمـا هيـا
وإدراكك الديـن الـذي قـد طلبتـه ولـم تـك عـن توحيـد ربـك سـاهيا
فأصبحـت في دار كريـم مقامهـا تعلـل فيهـا بالكرامـة لاهيـا

وأما عبيد الله بن جحش: فأقام على ما هو عليه من الالتماس حتى أدرك الإسلام فأسلم، وهاجر إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام ومات هنالك، وتزوج أم حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، زوجها منه النجاشي بأربعمائة دينار.

وأما عثمان بن الحويرث: فقدم على عمرو بن الحرث الغساني ملك الشام من جهة قيصر وقال: سلطني على قريش فإنهم قادة من وراءهم، فإذا سلطتني عليهم دانت لك العرب وتنصرت، فأبى عليه وقال: إن قريشًا لا تدين لأحد من غيرهم، فخرج إلى قيصر وبعث الغساني خلفه إلى ترجمان الملك بأنه جاءكم سفيه يريد الملك فلا تخلوه، فحالوا بينه وبين الملك، فاحتال عثمان حتى دخل على الملك، فكان ترجمانه يقلب عليه ما[٣٦٣] يقول، واعترض له في الطريق فلما دخل الملك، فقال الملك: ما هذا؟ فقال الترجمان: ذلك، فقال الملك: من هو، فتعلق بالترجمان، فقال: إن له مع هذا الترجمان شأنًا، فجاءوا بغيره فتكلم[٣٦٤] بما أراد، فملكه على قريش وكتب له كتابين، فأتى مكة فلم يتلفت إليه أحد، وعابوه في دينه، فأتى عمرو بن الحرث بالشام فأقام عنده، فقدم من مكة سعيد بن العاص وأبو ذؤيب فأخذهما عثمان وأخرج

---

(٣٦٢) تجنبت: تحنبت، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٢.

(٣٦٣) ما: كما، م ي.

(٣٦٤) فتكلم: فكلم، ي.

صك قيصر فخلى عمرو بن الحرث بينه وبين من يأخذه من أهل مكة لأجل صك الملك، فسجنا، فمات أبو ذؤيب في السجن، ومات عثمان بعد ذلك عند الغساني، ويقال: إنه سمه لما خاف أن يغلبه على الملك؛ إذ كان عظيما عند قيصر، فرثاه ورقة بن نوفل وعاب الغساني، فأمر الغساني بقدر فوضعت على النار، ثم حلف لا ينزل حتى يغلى فيها ورقة بن نوفل، ولئن لم يدفع إليه ليأخذن كل قرشي بالشام فلا يفارق الحديد حتى يؤتى به، فلما سمع ورقة بذلك خاف، فلحق بجبلي طيء، ثم لحق بالبحرين، ثم شاور نصرانيًا في ذلك فقال: عليك أن تقدم عليه وتأخذ بثيابه وتقول: أعوذ ببيت الصلم منك - وهي كنيسة بالحيرة عظيمة - فإنه يجيرك، فخرج حتى قدم الشام وتلطف حتى أخذ بثيابه وقال:

ألا من مبلغ عمرًا رسولًا ... فإني من مخافته مشيحُ
أعوذ ببيت الصلم منه ... وبالرحمن إذ شرق المسيحُ

وهو يرعد، فقال الغساني: قد أجرتك، لعلك ورقة بن نوفل، قال: نعم، فقال: أنزلوا القدر فقد أجرتك، ثم دخل في النصرانية، ومر ورقة وقد كان يلتمس الحنيفية قبل ذلك فتنصر واستحكم في النصرانية وتتبع الكتب حتى علم كثيرًا من علمهم(٣٦٥)، وقدم وفد من قريش على قيصر وكلموه حتى أطلق سعيد بن العاص.

وأما ورقة بن نوفل: فقد ذكرنا أنه تنصر، وكانت خديجة تأتيه وتسأله عما ترى من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وله في ذلك أشعار تذكر عند المبعث لمعانيها.

مبحث في بنيان الكعبة

قال: واجتمع قريش لبناء الكعبة ورفعها وتسقيفها بعد الفجار بخمس عشرة سنة، ورسول الله ابن خمس وثلاثين سنة، وكانوا يخافون من هدمها، فقام أبو وهب بن عمرو بن عايذ المخزومي وأخذ حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك لمعشر قريش: لا تدخلوا في بنيانكم إلا طيبًا، ثم إن الناس هابوا هدمها، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدأ، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربصوا به تلك الليلة فأصبح الوليد ولم يصبه شيء، فعلموا أن لله رضًا، فهدم وهدم الناس معه.

(٣٦٥) علمهم: علمه، م ي.

وروي أن سفينة من البحر رست[٣٦٦] إلى جدة[٣٦٧] فأخذوها بعدما تحطمت وأعدوا خشبها لسقف الكعبة، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فلما اجتمع عندهم الخشب والنجار وهموا بهدمها روي أن حية كانت تخرج من بئر[٣٦٨] الكعبة التي تلقى فيها ما يهدى لها فتشرف على جدار الكعبة، فإذا قرب منها إنسان فتحت فاها، وسمع لها كشيش، فهابها الناس، فبعث الله عليها طائرًا فاختطفها، فعند ذلك قالت قريش: لعل الله رضي ما عزمنا عليه، وأخذوا في الهدم، فهدم الوليد أولًا، فلما بلغ الهدم إلى الأساس أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة[٣٦٩] آخذٌ بعضها ببعض فلم يمكنهم أن يحركوا منها حجرًا، وقيل: إنه حرك منها حجر بعد شدة فتحركت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

وقيل: إنهم وجدوا في الركن كتابًا بالسريانية فإذا فيه: أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وحففتها بسبعة أملاك [حنفاء] لا تزول حتى تزول أخشابها، ووجد في المقام كتاب فيه: مكة الحرام يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحلها أول من أهلها.[٣٧٠]

ثم إن قبائل قريش اجتمعوا لبنائها، وجمعوا الحجارة، ثم بنوا حتى بلغوا موضع الركن، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه حتى تحالفوا وتقاولوا وأعدوا للقتال، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدي بن كعب على الموت، واتخذوا جفنة مملوءة دمًا وأدخلوا أيديهم فيها فسموا لعقة الدم، فمكثوا أربع ليال على ذلك، ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة وهو أسن قريش: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه [إلى] أول داخل من باب المسجد، ففعلوا، فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: هذا الأمين رضينا به، هذا محمد، فلما انتهى إليهم أخبروه، قال: هلم لي ثوبًا، فأوتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية، ففعلوا ورفعوه، فلما بلغ موضعه وضعه بيده ثم بني عليه، وكان قريش يسمون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل الوحي الأمين.

فلما فرغوا من بناء الكعبة وبنوها على ما أرادوا تقاولوا في ذلك أشعارًا كثيرة، وقيل: إن أبا

---

(٣٦٦) رست: ربت، ي.

(٣٦٧) جدة: مكة، م ي.

(٣٦٨) بئر: بين، ي.

(٣٦٩) كالأسنمة: كالأسن، م ي. الروض الأنف ٢/ ١٧٢.

(٣٧٠) سيرة ابن إسحاق ص١٠١.

أمية بن المغيرة هذا هلك بأرض الحبشة بعد ذلك بيسير، وكان النجاشي يكرمه، فدفنه مع أمه بسباسة بنت أبي مكسوم وهو أبرهة بن الأشرم.[٣٧١]

فصل في ما ظهر من الآيات من قبل المبعث ومن أهل الكتاب وحديث الكهنة وما سمع من جوف الأصنام وما يشبه ذلك

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ..﴾ [الجن:٨] الآيات من سورة الجن، وقال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى».

قال محمد بن إسحاق: وكانت قبل مبعثه لما تقارب زمانه، أما اليهود والنصارى فما يجدونه[٣٧٢] في الكتب.

وأما الكهان فكانت الجن تأتيهم بما يسترقون من السمع، فلما منعوا من ذلك عرفت الجن أن ذلك لأمر كما ذكر في سورة الجن.

مبحث في حديث سطيح وشق مختصر

عن ابن عباس في حديث طويل: أن الله لم يخلق مثل سطيح لحمًا على وضم، وكان يُحمل على وضمه فيؤتى به حيث شاء، ولم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والعين والكفين[٣٧٣]، وكان يطوى من رجليه إلى ترقوته كطي الثوب، وإنه أتي به مكة على وضمه، فأتاه عبد شمس وعبد مناف بن قصي والأحوص بن فهر وعقيل بن أبي وقاص، وأهدى إليه عقيل صفيحة هندية، وصعدة ردينية ووضعوها على باب المسجد الحرام لينظروا ما يقول سطيح، فدخلوا فقال: من أين أنتم؟

قالوا: من بني جمح.

(٣٧١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٧١.

(٣٧٢) يجدونه: يجدون، م ي.

(٣٧٣) الكفين: الكتب، م ي.

فأخذ بيد عقيل وقال: والعالم الخفية والذمة الوفية، والكعبة المبنية، إنك لجائي بالهدية، بالصحيفة الهندية، والصعدة الردينية.

قال: صدقت.

فقال: والآتي بالفرح[٣٧٤] وقوس قزح وسائر[٣٧٥] الفرح إن القوم ليسوا من جمح، وإن نسبهم في قريش ذي البطح.

قالوا: صدقت، نحن من البلد جئناك نزورك لما بلغنا من علمك، فأخبرنا عما يكون في زماننا.

قال: صدقتم، خذوا ما ألهمني الله يا معشر العرب في زمان الهرم سواءٌ بصائركم وبصائر العجم، لا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم قوم يطلبون أنواع العلم، ويكسرون الصنم، ويبلغون[٣٧٦] الروم يطلبون الغنم.

قالوا: يا سطيح من يكون أولئك؟

قال: والبيت ذي الأركان، والأمن والسكان، لينشأن من عقبكم ولدان يكسرون الأوثان، وينكرون[٣٧٧] عبادة الشيطان، ويوحدون الرحمن.

قالوا: نسل من يكون؟

قال: وأشرف[٣٧٨] الأشراف، والمحصى[٣٧٩] الإسراف، والمزعزع الأحقاف، والمضعف الأضعاف، لينشأن آلاف من عبد شمس ومناف، نشوءًا يكون فيهم اختلاف.

قالوا: ومن أي بلد يخرج؟

قال: والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من هذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشد[٣٨٠]،

(٣٧٤) الآتي بالفرح: اللات بالقدح، ي. كذا في البداية والنهاية ٢/ ٤٣٤.
(٣٧٥) سائر: سايق، ي. كذا في البداية والنهاية ٢/ ٤٣٤.
(٣٧٦) يبلغون: لعون، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٤٣٤.
(٣٧٧) ينكرون: يتركون، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٧٨) وأشرف: من أشرف، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٧٩) المحصى: المحصن، م ي. الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٥٨.
(٣٨٠) الرشد: الرض، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.

يرفض[٣٨١] يغوث والفند[٣٨٢]، يبرأ من عبادة الضدّ[٣٨٣]، يعبد ربًا انفرد، ثم يتوفاه الله محمودًا، ومن الأرض مفقودًا، وفي السماء مشهودًا، ثم يلي أمره الصديق إذا قضا صدق، ثم يلي أمره الحنيف مجرب غطريف، ثم يلي أمره دارعا، فيجمع له جموعًا، فيقتلونه غضبا[٣٨٤].

مبحث في حديث آخر لسطيح مع النعمان بن المنذر

هو سطيح بن ربيعة الغساني، من عرب الشام.

روي أنه لما كان في الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك ألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك وكتم، ثم رأى أن الإظهار أولى، فجمع وزراءه فقال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا: لا، إلا أن تخبرنا أيها الملك، فبينما هم كذلك إذ أتى الكتاب بخمود النيران، فازداد غمًا، ثم أخبرهم بما هاله، فقال الموبذان: وأنا رأيت كذا، وقص رؤياه، فقال: أي شيء يكون يا موبذان؟ قال: حدث يكون من جهة العرب، فكتب كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يبعث بعالم من أرضه، فبعث بعبد المسيح الغساني، فلما قدم سأله عن الرؤيا، فقال: هذا علم سطيح بن ربيعة آتيه وأسأله، فأتاه عبد المسيح وقد أشفى على الضريح، فقال: فسلم عليه حياه فلم يجر جوابًا، فأنشأ عبد المسيح يقول أبياتًا أولها:

أصـم أم يسـمع غطريـف اليمـن

ومنها:

رسـول قيـل[٣٨٥] العجـم يسـري بالرسـن[٣٨٦]

ففتح سطيح عينه ثم قال: عبد المسيح على جمل مشيح أتى إلى سطيح وقد أوفى على

(٣٨١) يرفض: يروض، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٨٢) والفند: في الفند، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٨٣) الضدّ: الضدد، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٨٤) غضبا: بطوله، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٨٣.
(٣٨٥) قيل: قتل، ي. دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٢٨.
(٣٨٦) الرسن: الوسن، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٢٨.

الضريح، بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلًا صعابًا تقود خيلًا عرابًا، يا عبد المسيح إذا ظهرت(٣٨٧) التلاوة وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادي سماوة، وغاضت(٣٨٨) بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شامًا، يملك(٣٨٩) منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت، ثم قضى سطيح مكانه، فنهض عبد المسيح ينشد أبياتًا، وأخبر كسرى بذلك الحديث.

مبحث في حديث آخر لسطيح وشق

ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن ربيعة بن نصر اللخمي وكان ملك اليمن رأى رؤيا هالته، فبعث إلى أهل مملكته وجمع من بها فلم يدع كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائفًا ولا منجمًا إلا رفع إليه، ثم قال: رأيت رؤيا فمن أخبرني بها أخبرني بتأويلها، ولا يعرف تأويلها إلا من يعرفها، قالوا: فإن هذا من باب سطيح وشق، وسطيح اسمه ربيعة بن عدي الغساني، وشق بن صعب بن يشكر من ولد أنمار، فبعث إليهما.

فلما قدما عليه دعا سطيحًا وحده وقال: يا سطيح، قد رأيت رؤيا هائلة فأخبرني بها، قال: أفعل، قال: رأيت حممة(٣٩٠) أقبلت من ظلمة فوقعت بأرض تهمه، فأكلت كل ذات جمجمة.

قال: صدقت، قال: فما التأويل؟

قال: أحلف بما بين الحرمين من حنش(٣٩١) ليهبطن أرضكم الحبش فيملكن(٣٩٢) ما بين أبين إلى جرش.

قال: يا سطيح إن ذا لنا لغائظ موجع فهل يكن في زماني؟

قال: لا، بعده بحين(٣٩٣) أكثر من سبعين.

قال: فهل يدوم؟

---

(٣٨٧) ظهرت: أكثرت، ي. البداية والنهاية ٢/ ٣٢٨.

(٣٨٨) غاضت: غاض، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٣٢٨.

(٣٨٩) يملك: فملك، م ي. البداية والنهاية ٢/ ٣٢٨.

(٣٩٠) حممة: حميحمة، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٣٨٢.

(٣٩١) حنش: حفش، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٣٨٢.

(٣٩٢) فيملكن: فيهلكن، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٣٨٢.

(٣٩٣) بحين: لحي، م ي. الكامل في التاريخ ١/ ٣٨٢.

قال: لا بل ينقطع، ثم يقتلون بها أجمعين ويخرجون هاربين بعد مضي سنين.

قال: فمن يلي قتلهم؟

قال: ثلاثة: ابن ذي يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدًا منهم في اليمن.

قال: فيدوم سلطانهم؟

قال: لا بل ينقطع.

قال: من يقطعه؟

قال: نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي.

قال: ومن هذا النبي؟

قال: رجل من ولد غالب بن فهر، يبقى الملك في قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر؟

قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون.

قال: أحقًا ما تقول يا سطيح؟

قال: نعم والشفق والغسق، والفلق إذا اتسق إنما نبأتك بالحق.

قال: ثم دعا شقا[٣٩٤] وسأله عن رؤياه كما سأل سطيحًا، فقال: رأيت حممة[٣٩٥] خرجت من ظلمة فوقعت بين روض وأكمة فأكلت كل ذات نسمة.

فقال: قد اتفقتها فما التأويل؟

قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسان لينزلن أرضكم[٣٩٦] السودان، فيغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن من ما بين أبين إلى نجران.

فقال: متى يكون؟ أفي زماني؟

قال: لا، بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شأن ويذيقهم أشد الهوان، قال: غلام من بني يزن.

قال: فهل يدوم؟

قال: لا بل ينقطع برسول لله مرسل، يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل.

---

(٣٩٤) شقا: شصا، م ي.

(٣٩٥) حممة: جمجمة، م ي.

(٣٩٦) أرضكم: عرصكم، م ي.

فوقع في نفس الملك لما اتفقا أن ذلك كائن، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق فأنزلهم كنف سابور ملك الفرس، وعرب العراق منهم، النعمان من ولده.

مبحث في حديث سواد بن قارب

عن سعيد بن جبير قال: أخبرني سواد بن قارب قال: نمت على جبل من جبال السراة، فأتاني آتٍ فضربني برجله فقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤي بن غالب، فاستويت فأدبر وهو يقول:

عجبتُ للجنِ وإرجاسِها ورحلِها العيسَ بأحلاسِها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى ما صالحوها مثلُ أنجاسِها

فعدت فنمت، فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤي بن غالب. فاستويت قاعدًا، فأدبر وهو يقول:

عجبتُ للجنِ وإخبارِها ورحلِها العيسَ بأكوارِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوها مثل كفارِها

قال: فعدت فنمت، فضربني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤي بن غالب. فاستويت قاعدًا، فأدبر وهو يقول:

عجبتُ للجنِ وتطلابِها[٣٩٧] وشدِّها العيسَ بأقتابِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادقوها مثل كذابِها

قال: فأصبحت فقعدت على بعيري حتى أتيت مكة، فإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد ظهر بها، فأخبرته الخبر، وبايعته، وأنشدته:

أتاني نجيّي[٣٩٨] بعد هَدْءٍ[٣٩٩] ورقدةٍ ولم يك فيما قد بلوتُ بكاذبِ
ثلاثَ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ أتاك رسولٌ من لؤي بن غالبِ

(٣٩٧) تطلابها: طلابها، م ي. دلائل النبوة ٢/ ٣٥٤.

(٣٩٨) نجيّي: جن، م ي. عيون الأثر ١/ ٩٠.

(٣٩٩) هَدْءٍ: هدو، م ي. عيون الأثر ١/ ٩٠.

فأشهدُ[٤٠٠] أن الله لا شيءَ غيرُه وأنك مأمونٌ على كلِّ غائبِ
وأنك أدنى المرسلين وسيلةً إلى الله يابنَ الأكرمين الأطايبِ
فمرنا بما يأتيك يا خيرَ من مشى وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائبِ
وكن لي شفيعًا يومَ لا ذو شفاعةٍ سواك بمغنٍ عن سوادِ بن قاربِ

مبحث في حديث الكهنة وغيرهم

عن عثمان بن عفان[٤٠١] قال: كنا بأفواه الشام قبل المبعث وبها كاهنة، فقالت للناس: أتاني صاحبي فوقف فقلت: ألا تدخل؟ فقال: لا سبيل إلى الدخول، خرج أحمد، [و] جاء أمر لا يطاق، فرجعت إلى مكة فوجدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج يدعو الناس.[٤٠٢]

عبد الرحمن بن عوف قال: خرج عبد المطلب إلى اليمن فلقيه رجل من اليهود وله علم، فنظر إليه وقال: أرني شيئين منك، فقال: بلى ما لم يكن عورة، فقال: أريد أن أنظر إلى أنفك وكفك، فنظر إليهما فقال: أما في إحدى كفيك فملك، وأما في أنفك فإن فيها النبوة، ولم يتم ذلك إلا ببني زهرة، فلما رجع هو تزوج بهالة بنت وهب، وتزوج عبد الله بآمنة بنت وهب.

وعن آمنة بنت وهب قالت: هتف بي هاتف: إنك حملت سيد الأمة، فإذا وقع في الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدًا.

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما الحجة على كسرى؟ قال: «بعث الله ملكًا فأخرج يده من سور جدار بيته الذي هو فيه فتلألأ نورًا، فلما رآها فزع، فقال: لم تفزع يا كسرى فإن الله بعث رسولًا وأنزل عليه كتابًا فاتبعه تسلم دينك وآخرتك، قال: سأنظر».

مبحث في الهواتف وما سمع من جوف الأصنام والجن

عن جبير بن مطعم قال: كنا جلوسًا عند الأصنام، فسمعنا من جوف واحد: اسمعوا إلى العجب، ذهب استراق السمع ورمي بالشهب لنبي مكة اسمه أحمد، ومهاجرته إلى يثرب، فعجبنا، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(٤٠٠) فأشهد: وأشهد، م ي. عيون الأثر ١/ ٩٠.
(٤٠١) عفان: نبهان، ي. دلائل النبوة ص١٠٨.
(٤٠٢) دلائل النبوة ص١٠٨.

وحدث الواقدي عن سعيد بن عمر الهذلي عن أبيه أنه كان مع قوم من بني هذيل أتو صنمًا يقال له سواع، قال: فسمعنا صوتًا من جوفه: العجب العاجب خرج نبي من الأحاشب، يحرم الربا، ويحرم الذبائح للأصنام، وحرست السماء ورمينا بالشهب. فتفرقنا وجئنا مكة فلقينا أبا بكر فسألناه: هل خرج أحد اسمه أحمد، وأخبرته بالقصة؟ قال: نعم، ثم أسلمنا بعده بحين.

وعن عبد الله بن ساعدة الهذلي عن أبيه: كنا عند صنمنا سواع فسمعت مناديًا من جوفه ينادي: قد ذهب كيد الجن ورمينا بالشهب بنبي اسمه أحمد، فانصرفت ولقيت رجلًا فأخبرني بخروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن تميم الداري قال: كنت بالشام في حاجة، فنزلت واديًا فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي، فسمعت مناديًا يقول ولا أراه: عذ بالله فإن الجن لا يجير أحدًا، فقلت: لِمَ تقول؟ قال: قد خرج رسول الأميين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلينا خلفه وأسلمنا واتبعناه، وذهبت الجن فرميت بالشهب، فانطلق إلى محمد فأسلم. فلما أصبحت ذهبت إلى دير وسألت راهبًا فقال: صدقوك وهو خير الأنبياء، فجئت النبي عليه السلام وأسلمت.

وسمعت قريش هاتفًا على أبي قبيس ليلًا:

فإن يسلم السعدانِ يصبحْ محمدٌ ... بمكةَ لا يخشى خلافَ المخالفِ(٤٠٣)

فقال أبو سفيان: من السعدان؟ سعد بكر؟ أم سعد تميم؟ أم سعد ذهل؟ فسمعوا في الليلة الثانية:

فيا سعدُ سعدَ الأوس كن أنت ناصرًا ... ويا سعدُ سعدَ الخزرجين الغطارفِ
أجيبا إلى داعي الهدى(٤٠٤) وتمنيا ... على اللهِ في الفردوسِ مُنْيَةَ عارفِ
فإن ثواب الله للطالب الهدى ... جنانٌ من الفردوسِ ذاتُ رفارفِ

فقال أبو سفيان: هذان والله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.(٤٠٥)

---

(٤٠٣) المخالف: مخالف، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٢٨.

(٤٠٤) داعي الهدى: داعيكما، م ي.

(٤٠٥) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٢٨؛ البداية والنهاية ٣/ ٢٠١.

مبحث في عباس بن مرداس وسبب إسلامه

حدث العباس بن مرداس قال: اطلعت على نعامة بيضاء عليها راكب عليه ثياب مثل[٤٠٦] اللبن فقال لي: يا عباس بن مرداس، ألم تر أن السماء قد كفت[٤٠٧] أحراسها، وأن الحرب تجرعت أنفاسها[٤٠٨]، وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذي نزل بالبر والتقى يوم الاثنين ليلة الثلاثاء صاحب الناقة القصوى، فخرجت مرعوبًا وجئت إلى الضمار - وهو صنم كنا نعبده - فتمسحت به، فسمعت من جوفه:

هلك الضمار وكان يعبد مدة[٤٠٩] قبل الصلاة مع النبي محمد

إن الذي جاء البرية بالهدى بعد ابن مريم من قريش مهتد

فخرجت إلى قومي وقصصت عليهم، وجئت أنا وثلاثمائة من قومي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتبسم وقال: «كيف كان إسلامك»؟ فأخبرته به، فسر، وأسلمت أنا وقومي.

مبحث في مازن أبي[٤١٠] حيان

روي أنه كان سبب إسلامه وقدومه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإقطاعه أرض عمان أنه كان بأرض عمان بقرية تدعى سمايل[٤١١]، وكان هناك صنم يقال له: باجر، قال مازن: فذبحت له ذبيحة فسمعت من جوفها: يا مازن أقبل تسمع ما لا يجهل، هذا نبي مرسل، جاء بحق منزل، فآمن به كي تعدل عن حر نار تشتعل، وقودها بالجندل. قال: فعجبت، ثم ذبحت ذبيحة أخرى بعدها بأيام، فسمعت: يا مازن اسمع تسر ظهر خير وبطن شر، بعث نبي من مضر بدين الله الأكبر، فدع نحيتًا من حجر، تسلم من حر سقر. فقلت: هذا خير أريد بي، وسألت الوارد والصادر حتى أخبرت بأن رجلًا من تهامة خرج يقول: أجيبوا داعي الله، فكسرت باجرًا، وأتيت رسول الله وأسلمت، وقلت أبياتًا منها:

---

(٤٠٦) مثل: من، م ي.

(٤٠٧) السماء قد كفت: كعبًا، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ٧١/ ٣٥.

(٤٠٨) تجرعت أنفاسها: خدعت أفلاسها، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ٧١/ ٣٥.

(٤٠٩) مدة: مرة، ي. كذا في الروض الأنف ٧/ ٢٦١.

(٤١٠) أبي: بن، م ي.

(٤١١) تدعى سمايل: يدعى سبابك، م ي.

بالهاشمي هدانا من ضلالتنا ولم يكن دينه منا على بالِ
يا راكبًا بلغا عمرًا وإخوته[٤١٢] أني بما قال: ربي باجر قالِ[٤١٣]

يعني بعمرو: بني الصامت، وإخوته: بني خطامة[٤١٤].

قال: وكنت مستهترًا بالشراب والنساء، فدعا لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأبعد الله عني كل ذلك، وتزوجت أربع حرائر، ووهب الله لي حيّان[٤١٥] بن مازن، فأنشأت أقول:

إليك رسول الله خبّت[٤١٦] مطيتي تجوب الفيافي من[٤١٧] عمان إلى العرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصا فيغفر لي ربي فأرجع بالفلج
إلى معشر خالفت في الله دينهم فلا رأيهم رأيي ولا شرجهم شرجي[٤١٨]
وكنت امرءًا بالخمر واللعب[٤١٩] مولعًا شبابي[٤٢٠] حتى آذن الجسم[٤٢١] بالنهج
فأصبحت همي في جهادٍ ونيتي فلله ما صومي ولله ما حجي

مبحث في حديث خفاف بن نضلة

روي أن آتيًا أتاه وأمره ليأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتاه وأنشد[٤٢٢]:

كم قد تحطمت القلوص بي الدجى في مهمهٍ قفر من الفلوات
فلّ من التوريس[٤٢٣] ليس بقاعةٍ نبتٌ[٤٢٤] من الأسنات والأزمات

(٤١٢) إخوته: إخوتها، م ي. كذا في إمتاع الأسماع ٤/ ٧.
(٤١٣) باجر قالِ: أخذ تالي، ي. المعنى: أني مقاطع وتارك لكل من يقول: (ربي باجر). كذا في إمتاع الأسماع ٤/ ٧.
(٤١٤) إمتاع الأسماع ٤/ ٧.
(٤١٥) حيان: حباب، ي. كذا في إمتاع الأسماع ٤/ ٧.
(٤١٦) خبّت: حنت، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١.
(٤١٧) من: في، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١.
(٤١٨) شرجهم شرجي: سرجهم سرجي، م ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١.
(٤١٩) وفي السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١: العهر.
(٤٢٠) شبابي: أني، ي. السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١.
(٤٢١) السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٣٥١.
(٤٢٢) بي: بنا، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٠.
(٤٢٣) التوريس: النائين، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٠.
(٤٢٤) نبتٌ: بيت، م ي.

إنـي أتانـي فـي المنـام مسـاعدٌ مـن جـن وجـرة كان لـي ومـوات[٤٢٥]
يدعـو إليـك لياليًـا ولياليًـا ثـم احـزألّ[٤٢٦] وقـال ليـس بـآتِ[٤٢٧]
فركبتُ ناجيـةً[٤٢٨] أضـر بنيهـا جمـرُ تخـبُّ بـه[٤٢٩] علـى الأكمـاتِ
حتـى وردت إلـى المدينـةِ جاهـدًا كيمـا أراكَ مفـرجَ الكربـاتِ[٤٣٠]

فاستحسنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة».

مبحث في حديث عمرة

عن عمرو بن جبلة الكلبي قال: كان لنا صنم يقال له عمرة، فذبح له واحد من بني عامر بن عوف يقال له عصام، فسمع صوتًا من جوف صنم يقول: يا عصام يا عصام، جاء الإسلام، وذهبت الأصنام، وحقنت الدماء ووصلت الأرحام. ففزع.

ثم ذبح آخر يسمى بكرًا ذبيحة فسمع: يا بكر بكر ارحل، جاء النبي المرسل، يصدقه المطعمون في المحل أرباب[٤٣١] يثرب ذات النخل، ويكذبه أهل نجد وتهامة وأهل فلج ويمامة. فمضيت أنا وعصام فأسلمنا، وقال فيه عمرو بن جبلة:

أجبْـتَ رسـولَ اللهِ إذ جـاء بالهـدى فأصبحـتَ بعـدَ الجحـدِ بـالله أوجَـرا
وآمنـتَ بـالله العلـيِّ مكانُـه وأصبحـتَ للأوثـانِ مـا عشـت مُنكِـرا

مبحث في حديث صنم بني عذرة

روي أنه كان لبني عذرة صنم يقال له خُمّام[٤٣٢]، وخادمه رجل يقال له طارق من بني هند

(٤٢٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٦٠.
(٤٢٦) احزأل: اجراك، م ي. سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٢٩.
(٤٢٧) بآتِ: بآتي، م ي. سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٢٩.
(٤٢٨) فركبت ناجية: في كنت ناحية، ي. سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٢٩.
(٤٢٩) جمر تخب به: حب بها، ي. سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٢٩.
(٤٣٠) سبل الهدى والرشاد ٦/ ٣٢٩.
(٤٣١) أرباب: أرا في، م ي.
(٤٣٢) خُمّام: حمام، م ي. صاحب السيرة الحلبية ١/ ٢٩٣.

بن حرام من عذرة، فلما ظهر النبي عليه السلام سمع من جوفه: يا بني هند بن حرام، ظهر الحق وأودى خُمّام[٤٣٣]، ورُفع[٤٣٤] الشرك وجاء الإسلام. ففزع.

ثم سمع بعد أيام: يا طارق يا طارق، بعث النبي الصادق، وجاء بوحي ناطق، صدع صادع بتهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع إلى القيامة، ثم وقع الصنم لوجهه فتكسر.

قال رمل بن ربيعة العذري: فجئنا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمنا وأخبرناه فقال: «ذلكم مؤمن الجن»، ثم عقد لرمل لواء، فقال رمل أبياتًا منها:

وأشهد أن اللهَ لا شيءَ غيرُه ... أدينُ له ما نَقَّلت قدمي نعلي

مبحث في حديث قراض

وكان لسعد العشيرة صنم يسمى قِراضًا، فسمع منه: اسمع العجب العجاب، بعث محمد في الكتاب، يدعو بمكة ولا يجاب، اسمع يا ذباب[٤٣٥]. قال ذباب[٤٣٦]: فسمعت بخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسلمت وقلت:

تبعتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى ... وخلَّفْتُ قراضا بدارِ هوانِ
شددتُ عليه شَدَّةً فتركتُه ... كأن لم يكن والدهرُ ذو حدثانِ
ولما رأيتُ اللهَ أظهرَ دينَه ... أجبتُ رسولَ اللهِ حين دعاني
وأصبحتُ للإسلامِ ما عشتُ ناصرًا ... وألقيتُ عني كلكلي وجراني[٤٣٧]
فمن مبلغٌ سعدَ العشيرةِ أنني ... شريتُ الذي يبقى بآخر فانِ[٤٣٨]

---

(٤٣٣) خُمّام: حمام، م ي. صاحب السيرة الحلبية ١/ ٢٩٣.

(٤٣٤) رُفع: دفع، ي.

(٤٣٥) ذباب: دباب، م ي. كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٥٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٢.

(٤٣٦) ذباب: دباب، م ي. كذا في دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٥٩.

(٤٣٧) جراني: حراني، ي. كذا في الطبقات الكبرى لابن سعد ١/ ٣٤٢.

(٤٣٨) فان: فاني، ي.

مبحث في حديث بنت(٤٣٩) النعمان

قال محمد بن إسحاق: كان أول ذكر وقع بالمدينة من مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يتحدثون به ويسمعون أن فاطمة بنت النعمان بن عمرو كانت من بقايا أهل الجاهلية، وكان لها تابع يأتيها ويقتحم البيت اقتحامًا، فجاءها يومًا فوقع على الجدار فقالت له: ما [لك] لا تصنع اليوم ما كنت تصنع؟ قال: بعث نبي يحرم الزنا.(٤٤٠)

مبحث في حديث الرمي بالنجوم

كانت الشياطين يسترقون السمع فيخبرون الناس بخبر السماء بما تسمعه من الملائكة، فلما تقارب زمانه صلى الله عليه وآله وسلم منعوا من ذلك ورموا بالشهب كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩]، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث، وإنما منعوا لكيلا يشاكل الوحي شيء من خبر السماء، فلما سمع الجن القرآن عرفت أنها منعت لأجله.

محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة قال: أول من فزع للرمي بالنجوم ثقيف، فحاول رجل يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج(٤٤١) وكان(٤٤٢) أدهى العرب، وسألوه عن ذلك فقال: انظروا إن كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البحر والبر ويعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق، وإن كانت نجوم غيرها فهذا لأمر حدث أراد الله بخلقه(٤٤٣).

عن ابن عباس عن نفر من الأنصار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما تقولون في هذه النجوم التي يرمى بها»؟ قالوا: يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها مات ملك، ملّكَ مَلِكٌ، وُلد مولود، مات مولود، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس ذلك كذلك، ولكن الله كان إذا قضى في خلقه أمرًا سمعه حملة العرش فسبحوا، فسبح من تحتهم لتسبيحهم، فيسبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحون، ثم يقولون بعضهم

(٤٣٩) بنت: أم، م ي.

(٤٤٠) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

(٤٤١) علاج: علاح، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٦.

(٤٤٢) وكان: فكان، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٦.

(٤٤٣) بخلقه: بحلفه، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٧.

لبعض: مم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا، فيقولون: أفلا تسألون من فوقكم مم[٤٤٤] سبحتم، فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش، فيقال لهم: مم سبحتم؟ فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به، فتسترقه الشياطين على توهمٍ واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون، ثم يحدث به الكهان فيصيبون بعضًا ويخطئون بعضًا».

ويقال: كيف يسترق السمع؟ وإذا هلكوا منه كيف يعودون وهم عقلاء؟

قلنا: أما الأول فإن الملائكة تحدث بين السماء والأرض فيسمعه الجن، ويجوز أن يكون لهم آلة كأن يمكنهم الصعود إلى موضع يستمعون أصوات الملائكة في السماء.

وأما الثاني: فإنهم لا يرمون كل مرة بل يهلكون وينجون فيعودون رجاء للنجاة فيهلكون كراكب البحر منا.

مبحث في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه

عبد الله بن كعب مولى عثمان بن عمر قال: كنا عند صنم في نفر من قريش قد ذبح له رجلٌ عجلًا، فسمعنا صوتًا من جوف العجل وذلك قبيل الإسلام بشهر أو نحوه: يا آل ذريح أمرٌ[٤٤٥] نجيح، ورجل يصيح يقول: لا إله إلا الله.

مبحث في حديث آخر

عن علي بن نافع الجرشي أن بطنًا من اليمن كان لهم كاهن، فلما ذُكر أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالوا له: انظر لنا في أمر هذا الرجل، فاجتمعوا له في أسفل جبل له، فنزل إليهم حين طلعت الشمس، فوقف قائمًا متكئًا على قوس ورفع رأسه إلى السماء ينظر طويلًا وجعل ينزو[٤٤٦] ويقول: إن الله كرم محمدًا واصطفاه، وطهر قلبه واجتباه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل، ثم رجع إلى مكانه. [٤٤٧]

---

(٤٤٤) مم: ممت، ي.

(٤٤٥) أمرٌ: أم، م ي. تاريخ الطبري ٢/ ٢٩٧.

(٤٤٦) ينزو: ين، ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٩.

(٤٤٧) سيرة ابن هشام ١/ ٢٠٩.

مبحث في حديث الاستفتاح واليهود

قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:٨٩].

محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه أنا كنا نسمع من يهود ونحن أهل شرك وأوثان وهم أهل كتاب ولا يزال بيننا وبينهم شر، فإذا نلنا منهم قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك، فلما بعث الله رسوله أجبناه حين[٤٤٨] دعانا، وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا، ففينا وفيهم أنزل الله تعالى الآيات من سورة البقرة ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ [البقرة:٨٩].

محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شيخ من بني قريظة قال لي: هل تدري عم كان إسلام ثعلبة بن شعبة[٤٤٩] وأسد بن شعبة وأسد بن عبيد؟ قلت: لا، قال: فإن رجلًا من يهود الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبل الإسلام بسنين فحَلَّ بين أظهرنا، والله ما رأينا رجلًا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر نقول له: اخرج فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة، فنخرج صاعًا من تمر أو مُدًّا بُرًّا، ويخرج بنا نستسقي فنسقى، فحضرته الوفاة فقال: يا معشر اليهود ما تروني أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إنما قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ[٤٥٠] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلد مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه فلا يسبقنكم[٤٥١] إليه يا معشر اليهود [أحد][٤٥٢] فإنه يبعث بسفك الدماء وسبي الذراري والنساء ممن خالفه.[٤٥٣]

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية وكانوا

(٤٤٨) حين: حتى، م ي.

(٤٤٩) دلائل النبوة ١/ ٨١ (سعنة).

(٤٥٠) أتوكَّفُ: أتوقف، م ي.

(٤٥١) يسبقنكم: يستس، م ي. دلائل النبوة ١/ ٨١.

(٤٥٢) دلائل النبوة ١/ ٨١.

(٤٥٣) دلائل النبوة ١/ ٨١.

أحداثًا: يا بني قريظة إنه والله النبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى، ونزلوا[٤٥٤] وأسلموا فأحرزوا[٤٥٥] مالهم وأهاليهم.

محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري وكان بدريًا قال: كان لنا جار من اليهود في بني عبد الأشهل، خرج علينا يومًا قبل المبعث حتى وقف على بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ غلام أَحْدَثُ مَنْ فيهم سنًا، فذكر البعث والقيامة والميزان والحساب والجنة والنار، يقول ذلك لأهل شرك، فقالوا[٤٥٦]: ويحك يا فلان وهل هذا كائن: أن الناس يبعثون بعد موتهم؟ قال: نعم، قالوا: وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا: ومن يراه؟ فنظر إلي وقال: إن يستنفذ[٤٥٧] هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فما والله ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسولَه وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغيًا وحسدًا، فقلنا له: ويحك يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه[٤٥٨] ما قلت، قال: بلى، ولكن ليس به.

حسان بن ثابت الأنصاري قال: إني والله لغلام ابن سبع سنين أو ثمان سنين أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًا يصرخ على أطمة يثرب: يا معشر اليهود، فاجتمعوا إليه وقالوا: ما لك، قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي يولد به.

قال محمد بن إسحاق: سألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان: ابن كم كان حسان مقدم رسول الله المدينة؟ قال: ابن ستين سنة وقدمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين.

مبحث في حديث أخذ الميثاق

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ..﴾ الآية [آل عمران:٨١].

قال محمد بن إسحاق: وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له، ثم بعثه الله بعد بنيان الكعبة بخمسين سنة وهو ابن أربعين سنة.

---

(٤٥٤) نزلوا: تولوا، م ي. دلائل النبوة ١/ ٨١.

(٤٥٥) أحرزوا: أحروا، م ي. دلائل النبوة ١/ ٨١.

(٤٥٦) فقالوا: فقال، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢١٢.

(٤٥٧) يستنفذ: لم يستفد، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢١٢.

(٤٥٨) فيه: فبين، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢١٢.

عن أم الدرداء قالت: قلت لكعب الأحبار: كيف تجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة؟ قال: نجده محمدًا رسول الله، اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سَخِبٍ[٤٥٩] بالأسواق، أعطي المفاتيح ليبصر الله به أعينًا عميا[٤٦٠]، ويسمع به آذانًا وقرًا، ويقيم به ألسنًا معوجة حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

مبحث في حديث وفد نجران

روى جماعة حديث وفد نجران والمباهلة، رواه الناصر في كتاب الإمامة، وروي في التفاسير، وفيها أنهم جاءوا رئيسهم العاقب عبد المسيح رجل من كندة، والسيد وهو صاحب رحلهم، وأبو الحرث بن علقمة وهو أسقفهم وصاحب مدارسهم[٤٦١] وله في النصارى منزلة عظيمة، قد اتخذوا له الكنائس وأخوه كرز بن علقمة وهما من ربيعة، ففصلوا من[٤٦٢] نجران وكرز على بغلة له، فعثرت به بغلته فقال: تعس الأبعد؛ يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له أخوه أبو الحرث: بل تعست أنت، أتشتم رجلًا من المرسلين، إنه النبي الذي كنا ننتظره، قال: فما يمنعك أن تتبعه وأنت تعلم هذا منه؟ قال: شرفنا القوم وأكرمونا وأبوا علينا إلا خلافه، وإن اتبعته نزعوا كل ما ترى، فأعرض كرز عنه وهو يحلف بالله لا يثني عنانًا حتى يقدم المدينة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال أبو الحرث: مهلًا يا أخي فإنما كنت مازحًا، فقال: وإن مزحت، فقال أبو الحرث وهو يضرب بطن راحلته:

إليك تعدو[٤٦٣] قلقًا وضينُها معترضا في بطنها جنينُها
مخالفًا دينَ النصارى دينُها

وقدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(٤٥٩) سَخِبٍ: يتتح، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٣٧٤.

(٤٦٠) عميا: عوراء، ي

(٤٦١) مدارسهم: مداريهم، ي.

(٤٦٢) من: بين، م ي.

(٤٦٣) تعدوا: اغدوا، م ي.

مبحث في حديث هرقل وأبي سفيان

ذكر محمد بن إسحاق المغازي في كتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديثًا طويلًا جملته: أن أبا سفيان حدث قال: كنت تاجرًا بالشام وكان هرقل لما ورد الصليب من فارس وغلبهم يخرج إلى بيت المقدس ماشيًا شكرًا، فلما قضى نذره خرج مهمومًا، فقيل له في ذلك، أُرِيتُ الليلةَ أن ملك الختان(٤٦٤) ظاهر، فقيل: هم اليهود وهم تحت يدك، فَهَمَّ فيه إذ ورد الخبر بنبي ظهر في العرب وأنه يختتن(٤٦٥)، فطلبوا واحدًا من قومه، فأخذوني، فدخلت عليه، فاستخبرني عن نسبه ودعوته وأصحابه وجميع أحواله، فأخبرته، فقال: لئنْ كنت صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني كنت عنده فأغسل قدميه، انطلقْ لشأنك، فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: أي عباد لله لقد أمرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانه، القصة بطولها.

مبحث في حديث رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ابن أبي ليلى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيت في المنام غنمًا سودًا تتبعها غنم عفر، عبِّر يا أبا بكر»، قلت: هذه العرب تتبعك ثم العجم، قال: «هكذا عبرها الملك».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

حيي بن أخطب عن صفية بنت حيي قالت: كنت أحب ولد [أبي] إليه وإلى عمي أبي ياسر لم يلقني واحد منهما إلا أخذني(٤٦٦)، فلما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة بقباء غدا عليه حيي وأبو ياسر مغلسين فلم يرجعا إلا مع غروب الشمس فرجعا مهمومين، فبششت إليهما فما التفت إلي واحد، ثم سمعت عمي يقول لأبي حيي: أهو هو؟ قال: نعم، قال: فما عندك؟ قال: عداوته ما بقيت(٤٦٧).

---

(٤٦٤) الختان: الجنان، م ي.

(٤٦٥) يختتن: يح، ي.

(٤٦٦) أخذني: أخذا بي، م ي. سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩.

(٤٦٧) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩.

فصل في المبعث

عروة عن عائشة: إن أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في نومه رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، قالت: وحبب إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[٤٦٨].

محمد بن إسحاق بإسناده قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أراد الله كرامته لا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت لا يرى إلا الشجر والحجر، فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان[٤٦٩].

وبإسناده قال: سأل عبد الله بن الزبير عبيد بن عمير الليثي عن بدء المبعث فقال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجاور حراء في كل سنة شهرًا، ويطعم من جاءه من المساكين، وذلك مما تحنث به قريش، والتحنث هو التبرز، وكان إذا انصرف طاف بالبيت سبعًا ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك في شهر رمضان، قيل: بعث يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت منه، وقيل: سنه يومئذ أربعون سنة، عن ابن عباس، وقيل: ثلاث وأربعون، عن ابن عباس وسعيد بن المسيب، والأول أشهر، خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حراء كما كان يخرج إلى جواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أراد الله به فيها ما أراد وإكرامه برسالته جاءه جبريل من الله يأمره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط[٤٧٠] من ديباج فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ، فَغَتَّني[٤٧١] حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني وقال: اقرأ، كذلك فعل ثلاثًا إلى أن قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]، قال: فقرأتها، فهببت[٤٧٢] من نومي وكأنما كتبتُ في قلبي كتابًا»، قال: «ولم يكن أحد أبغض إلي من خلق الله

---

(٤٦٨) بكرامته: كرامته، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٤.

(٤٦٩) أرادته: أراد، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٤.

(٤٧٠) بنمط: بط، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٧.

(٤٧١) فَغَتَّني: فعتني، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٧.

(٤٧٢) فهببت: فهبت، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٧.

من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما»، قال: «قلت: إن الأبعد يعني نفسه لمجنون أو شاعر لا تحدث[٤٧٣] بهذا عني قريش أبدًا، لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي عنه ولأقتلن نفسي ولا يسخر مني، فخرجت أريد ذلك، فسمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت فما أتقدم أمامي ولا أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فما أنظر في ناحية إلا رأيته كذلك، فما زلت كذلك ما أتقدم ولا أرجع إذ بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف وانصرفت راجعًا إلى أهلي حتى أتيت خديجة، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ قال: قلت لها: إن الأبعد لشاعر أو مجنون، قال: قالت[٤٧٤]: أعيذك بالله يا أبا القاسم من ذلك، ما كان الله ليصنع ذلك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك، وما ذلك يابن عم لعلك رأيت شيئًا، قلت: نعم، فحدثها الحديث، فقالت: أبشر يابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر وقرأ الكتب، فأخبرته بما سمع ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال ورقة: قدوس قدوس فوالذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى بن عمران، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، قالت: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بقول ورقة، فسهل عليه بعض ما كان به من الهم، ثم قضى جواره وانصرف، وصنع كما كان يصنع بالكعبة، فطاف بها، فلقيه ورقة وقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، ولَتُكَذَّبَنَّهْ[٤٧٥] ولَتُؤْذَيَنَّهْ ولتُقَاتَلَنَّهْ ولتُخْرَجَنَّهْ، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم قبّل يافوخه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى منزله وقد زاده قول ورقة ثباتًا، وذهب[٤٧٦] بعض ما كان به من الغم».

---

(٤٧٣) تحدث: يحدث، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١٢٢.

(٤٧٤) قالت: قلت، م ي. سيرة ابن إسحاق ص١٢٢.

(٤٧٥) لَتُكَذَّبَنَّهْ: ليكذبنه، م ي.

(٤٧٦) ذهب: حفص، ي.

إسماعيل بن أبي حكيم، عن خديجة قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال: «نعم، قالت: فأخبرني به إذا جاءك، فجاءه جبريل كما كان يأتيه فقال: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني، قالت: نعم يابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام وجلس، قالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فاجلس على فخذي اليمنى، فقام فجلس، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، قالت: فاجلس على حجري، فجلس، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسرت وألقت خمارها، فقالت: هل تراه؟ قال: لا، قالت: يابن عم أبيت الشر(٤٧٧) إن هذا الملك وما هو بشيطان»، وحدث بهذا الحديث عن خديجة عبد الله بن الحسن بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن خديجة.

وروي أنه كان يأتي ثبير ليصعد فكلمه الجبل وقال: لا تصعد إلي فإن في عقارب وحيات، فصعد حراء واتخذ فيه غارًا، فكان لا يمر على شجر ولا حجر إلا ويقول: السلام عليك.

وروي أنه لما هتف به جبريل غشي عليه، فحمله ناس من قريش إلى خديجة وقالوا: دونك قد تزوجت مجنونًا، فوثبت وضمته إلى صدرها وقبلت بين عينيه وقالت: بل تزوجت نبيًا مرسلًا.

ومما قال ورقة بن نوفل فيما ذكر له من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشعار كثيرة منها(٤٧٨):

وإن يك حقًا يا خديجة فاعلمي ... حديثك إيانا فأحمد مرسلُ
وجبريل يأتيه وميكال معهما ... من الله وحي يشرح الصدر مُنْزَل(٤٧٩)
يفوز به من فاز فيها بتوبة(٤٨٠) ... ويشقى به العاتي الغوي المضلل
فريقان منهم فرقة في جنانه ... وأخرى بأفناء الجحيم تَغَلَّل(٤٨١)

وله:

يا للرجال لصرف الدهر والقدر ... وما لشيء قضاه الله من غير

(٤٧٧) عادت العرب أن تقول: أبيت اللعن.
(٤٧٨) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٠.
(٤٧٩) مُنْزَل: مرسلُ، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٠.
(٤٨٠) فيها بتوبة: فيما ينوبه، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٠.
(٤٨١) تَغَلَّل: تعلل، م ي. دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٥٠.

جاءت خديجة تدعوني لأخبرها ... وما لنا بخفي الغيب من خبر
فكان ما سألت عنه لأخبرها ... أمرًا أراه سيأتي الناس عن أخر
فخبرتني بأمر قد سمعتُ به ... فيما مضى من قديم الناس والعُصُر
بأن أحمد يأتيه فيخبره ... جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقال حين أتانا منطقًا عجبًا ... تقف منه أعالي الجلد والشعَر
إني رأيت أمين الله واجهني ... في صورة أكملتْ في أهيب الصور
ثم استمر فكاد[482] الخوف يذعرني ... مما يسلم من حولي من الشجر
فقلت ظني وما أدري أيصدقني ... أن سوف تبعث تتلو[483] منزل السور
وسوف أُنبِيك[484] إن أعلنت دعوتهم ... متى الجهاد بلا منّ[485] ولا كدر
فقلت عل الذي ترجوه ينجزه ... لك الإله فَرَجٌ الخير وانتظر
فأرسليه إلينا كي نسائله ... عن أمره ما يرى في النوم والسهر

ومن قصيدة:

وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصحُ
فخبرنا عن كل خير بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتحُ
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يبعث صادقًا ... كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره ... فإني به مستبشر الود فارحُ

قال محمد بن إسحاق: ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى شق عليه.

وروي أن قومه قالوا: قلاه صاحبه، فجاء جبريل بسورة الضحى. قال محمد بن إسحاق: وافترضت عليه فصلى.

---

(٤٨٢) فكاد: وكان، م ي. دلائل النبوة ٢/ ١٥٠.

(٤٨٣) تبعث تتلو: يبعث يتلو، م ي. دلائل النبوة ٢/ ١٥٠.

(٤٨٤) أُنبِيك: ينبيك، م ي. دلائل النبوة ٢/ ١٥٠.

(٤٨٥) منٍّ: أمن، م ي. دلائل النبوة ٢/ ١٥٠.

وعن عائشة رضي الله عنها: أول ما فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، فزيد في الحضر وأقرّت في السفر.

روي أنه لما افترضت الصلاة أتاه جبريل فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت له عين، فتوضأ منها جبريل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصلاته، ثم انصرف عنه جبريل عليه السلام، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى خديجة فتوضأ لها يريها الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته.

محمد بن إسحاق بإسناده عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي عن أبيه، عن جده عفيف قال: كان العباس صديقًا لي، فقدمت في بعض المواسم مكة، فبينا أنا مع العباس[٤٨٦] بمنى إذ زالت الشمس، فرأيت رجلًا خرج من خبائه فتوضأ ثم قام يصلي، فقلت: ويحك يا عباس ما هذا الذي أرى؟ قال: هذا ابن أخي محمد يزعم أن الله تعالى قد بعثه رسولًا، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد اتبعه على أمره، وهذه امرأته خديجة اتبعته على أمره، فقال عفيف بعدما أسلم: ليتني كنت رابعًا.

أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت على أثر ثمانية آلاف نبي، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل».

سهل بن سعد الساعدي قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صعد ذات يوم الصفا فقال: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم وممسيكم أماكنتم تصدقونني»؟ قالوا: بلى، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقام أبو لهب لعنه الله فقال: تبًا لك ألهذا دعوتنا جميعًا، فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة.[٤٨٧]

---

(٤٨٦) العباس: ابن عباس، م ي. كذا في عيون الأثر ١/ ١١٢.

(٤٨٧) مسند أحمد بن حنبل حديث رقم ٢٥٤٤.

فصل في عصمته صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ..﴾ الآية [الرعد:١٣]. قيل: نزلت في عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، أقبلا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد الحرام وعامر من أجمل الناس أعور إحدى عينيه، فقال: ما لي إن أسلمت أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «ليس لك ذاك ولا لقومك»، قال: فاجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: «لا»، قال: فما تجعل لي؟ قال: «لك أعنة الخيل تغزو»، قال: أوليس[٤٨٨] ذلك لي اليوم، قال: «لا»، قال: قم معي أكلمك، فقام وقد أوصى أربد أن يضربه بالسيف، فلما كلمه عامر أومأ لأربد[٤٨٩] فامتنع اخترط السيف، فقال عليه السلام: «اللهم أهلك[٤٩٠] عامرًا وأغن الإسلام عنه»، ورأى ما يصنع أربد فقال: «اكفنيهما[٤٩١] بما شئت»، وبدر بهما الناس فوليا هاربين، فأرسل الله على أربد صاعقة فاحترق، وطعن عامر في خنصره، فلذلك قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ.﴾ الآية [الرعد:١٣].

وروي أنه لما دخل عامر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: اجعل لي المدر ولك الوبر، قال: «لا»، فولى وهو يقول: يا محمد لأملأنها عليك خيلًا جردًا ورجالًا مردًا، فقال: «اللهم اكفني عامرًا واهد قومه»، فخرج فنزل على سلولية فأخذته غدة في حلقه فوثب على فرسه وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فما زال كذلك حتى سقط عن فرسه ميتًا.

وذكر الأصم حديث أربد وأنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا محمد ربك من نحاس؟ أو فضة؟ أو ذهب؟ أو حديد؟ قال: «سبحانه سبحانه سبحانه»، فجاءت رعدة وصاعقة فأهلكته.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] قيل: فيه ثلاث أقوال:

قيل: إن أعرابيًا هم بقتله صلى الله عليه وآله وسلم فسقط السيف من يده وجعل يضرب رأسه بشجرة حتى انتثر دماغه، عن محمد بن كعب.

---

(٤٨٨) أوليس: أليس، م ي.

(٤٨٩) لأربد: أرد، م ي.

(٤٩٠) أهلك: اهد، م ي.

(٤٩١) اكفنيهما: اكفينهما، م ي.

وقيل: إنه كان يهاب قريشًا فأنزل الله الآية فذهبت تلك الهيبة.

وقيل: إنما ذكر ذلك لإزالة التهم أنه كتم شيئًا من الوحي، عن عائشة، وعنها: من قال ثلاثًا فقد كذب فيها: من زعم أن محمدًا لم يبلغ شيئًا لله كذب، وفي ذلك دليل على بطلان مذهب الرافضة.

وقيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: هل عبدت وثنًا قط؟ قال: «لا»، قيل: هل شربت خمرًا قط؟ قال: «لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان»، رواه علي.

وقال علي: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين عصمني الله منهما، قلت ليلة لفتيان مكة ونحن في رعية غنم أهلنا: انظروا إلى غنمي فأدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان، قالوا: بلى، فدخلت حتى جئت أول دار فسمعت عزفًا بالمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان بفلانة، فجلست لأنظر فضرب الله على أذني فوالله ما أيقضني إلا حر الشمس، فرجعت إلى أصحابي فقالوا[٤٩٢]: ما فعلت؟ قلت: لا شيء، وأخبرتهم الخبر، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فاستقبلني مثله، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني ربي بنبوته»، قال: «فلما نشأت بغض إليّ الأوثان وبغض إلي الشعر».

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما سجدت قط لغير الله، وما ذقت شيئًا ذبح على النصب حتى أكرمني الله بما أكرمني من رسالته تعالى»، فروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا مشى مع أصحابه مشوا أمامه وتركوا ظهره للملائكة.

أبو ذر: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام إلا ونحن حوله مخافة الغوائل حتى نزلت آية العصمة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] أخرج رأسه من القبة فقال: «أيها الناس ارجعوا فقد عصمني الله».

وروي أن أبا طالب كان يرسل معه برجال من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت آية العصمة فقال: «يا عماه إن الله عصمني من الجن والإنس».

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ أقبلت أم جميل ولها

(٤٩٢) فقالوا: فقال، م ي.

ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله جالس مع أبي بكر، فلما رآها قال: يا رسول الله أقبلت فلانة وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني، وقرأ قرآنا اعتصم به»، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: ورب هذا البيت ما هجاك.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كان الله تعالى يصرف عني شتم قريش وذمهم، يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد».

أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساجدًا بمكة، فجاء إبليس فأراد أن يطأ على عنقه، فنفحه جبريل بجناحه فوقع إلى الأردن.

وروي أن الشياطين اجتمعت من الجبال والأودية يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرقه، ففزع منهم، فجاءه جبريل وقال: قل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ، ومن شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها، ومن شر كل طارق إلا طارقًا يطرق بخير، يا رحمن، فطفئت نار الشيطان وقهروا.

قال محمد بن إسحاق: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدث عما كان يحفظه الله في صغره وأمور جاهلية أنه قال: «لقد رأيتني أنقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان وكلنا[٤٩٣] قد تعرى وأخذ إزاره فجعله[٤٩٤] على رقبته يحمل عليها الحجارة، وإني لأقبل معهم كذلك وأدبر[٤٩٥] إذ لكمني لاكم ما أراه[٤٩٦] لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك، فشددته علي ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري علي من بين أصحابي»[٤٩٧].

---

(٤٩٣) كلنا: كنا، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(٤٩٤) جعله: جعلها، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(٤٩٥) أدبر: أبادر، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(٤٩٦) أراه: أراها، م ي. سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

(٤٩٧) سيرة ابن هشام ١/ ١٨٣.

فصل في صفاته

ومما حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رضي الله عنه بإسناده عن البراء قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد البياض، كثير الشعر، يضرب شعره منكبيه.

وحدث بإسناده عن ربيعة بن عبد الرحمن أنه سمع أنسًا يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رَجْلَ الشعر ليس بالسبط ولا الجعد القطط، وكان أزهر ليس بالآدم ولا الأبيض الأمهق، وكان رَبْعَة من القوم ليس بالقصير ولا بالطويل البائن، بعث على رأس أربعين، أقام بمكة عشرًا، وبالمدينة عشرًا، وتوفي على رأس الستين ليس في رأسه ولا لحيته عشرون شعرة بيضاء.

كعب الأحبار قال: أجد في التوراة عندي: أحمد المختار، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، مولده بمكة، ومهاجره المدينة، وملكه بالشام. وأجد: أحمد وأمته المحجلون، يحمدون الله على كل حال، ويوضون أطرافهم ويصلون الصلاة لوقتها.

أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضخم المنكبين والقدمين، كثير العرق، لم أر بعده مثله، قال: كان في مقدم لحية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرون شيبة.

وعن علي وكان ينعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لم يكن بالطويل الممَّغط، ولا بالقصير المتردد، كان ربعة من الرجال، جعد الشعر، ولم يكن بالجعد القطط، ولا السبط، كان جعدا رَجِلا، ولم يكن بالمطهَّم ولا بالمكلْثَم، كان في وجهه تدوير، أبيض [مشرّب] حمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المشاش والكتد[٤٩٨]، دقيق المشربه، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبب، إذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة وهو خاتم النبيِّين، أجود الناس كفًا، وأجرأ الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه وآله وسلم، رواه شيخنا أبو علي رحمه الله في شرح تأويل الأخبار.[٤٩٩]

---

(٤٩٨) الكتد: الكتف، م ي. مصنف أبن شيبة حديث رقم ٣١٨٠٥.

(٤٩٩) مصنف أبن شيبة حديث رقم ٣١٨٠٥.

وعن علي أيضًا قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس بالذهاب طولًا وفوق الربعة، إذا جاء مع قوم غمرهم، أبيض شديد الوضح، ضخم الهامة، أغر أبلج أهدب الأشفار، شثن الكفين، إذا مشى يتقلع كأنما ينحدر في صبب، كأن العرق في وجهه اللؤلؤ، لم أر قبله ولا بعده مثله، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وآله وسلم.

أنس: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس قوامًا، وأحسن الناس وجهًا، وأطيبهم ريحًا، وألينهم كفًا، ما شممت رائحة قط مسكًا ولا عنبرًا أطيب رائحة منه، ولا مسست خزًا ولا حريرًا ألين من كفه عليه السلام(٥٠٠).

فصل في أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

وسئلت عائشة عن أخلاقه فقالت: كان خُلُقه القرآن ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كلمه إنسان في حاجة لم ينصرف حتى يكون الآخر هو الذي ينصرف.

عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله يكثر الذكر ويقلّ اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة ولا يستنكف أن يمشي مع العبد والأرملة حتى يفرغ لهما من حاجتهما(٥٠١).

عائشة: إن محمدًا مكتوب في الإنجيل: ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسوق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويغفر.

جابر قال: ما سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قط فقال لا. ونظيره ما قال حسان:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد لم يسمع له لاءُ

وروي أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاءه ما يحب قال: «الحمد لله رب العالمين»، وإذا جاءه ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال».

---

(٥٠٠) مسند أحمد حديث رقم ١٢٩٩.

(٥٠١) سنن الدارمي حديث رقم ٧٥.

وروي أن أعرابيًا بال في المسجد، فهموا بضربه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقطعوا عليه بوله وارفقوا به»، ثم قال للأعرابي: «يا أعرابي إنما بنيت المساجد للصلاة» فخرج وقال: اللهم اغفر لي ومحمدًا ولا تغفر معنا لأحد[٥٠٢]، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد تحجرت واسعًا».

ابن مسعود قال: رجعت من اليمن وعهدي في الكلام بالصلاة، فرجعت وهم بالصلاة فقلت: كم صليتم؟ فجعلوا ينظرون إلي وغمزوني، فخشيت أن نزل في قرآن، فلما سلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعاني فما ضربني ولا كهرني[٥٠٣] بأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا أحسن تأديبًا منه، وقال: «إنما بنيت الصلاة للتهليل والتسبيح والتحميد».

وروي أنه تلقته امرأة سوداء فرحب بها، فسئل عنها فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حفظ[٥٠٤] العهد من الإيمان».

وروي أنه قال: «لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالى خلقني عبدًا، واتخذني عبدًا، ثم اتخذني نبيا، فأنا نبي الله وعبده».

وروى عكرمة عن أبي هريرة قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستعينه في شيء كان عليه، قال إسحاق بن راهويه: قيل: في دم، والله أعلم، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: أحسنت؟ قال: لا [ولا][٥٠٥] أجملت، فغضب بعض المسلمين وهموا به، فأشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن كفوا، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأعرابي إلى بيته فقال: «إنك جئتنا فأعطينا» ثم زاده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أحسنت»؟ فقال الأعرابي: نعم وأجملت فجزاك الله من أهل وعشيرة عنا خيرًا، فقال: «إنك سألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، وفي نفس أصحابي عليك منها شيء، فإذا جئتنا قلت هذا القول حتى يذهب عن صدورهم ما فيها عليك»، فجاء الأعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إن هذا الرجل جاءنا إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه رضي أفكذلك يا فلان»؟ فقال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة عنا خيرًا، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مثلي

---

(٥٠٢) لأحد: أحدًا، م ي.

(٥٠٣) كهرني: كرهني، م ي.

(٥٠٤) حفظ: كرم، م ي. المعجم الكبير للطبراني ٢٣/ ١٤.

(٥٠٥) +: مسند البزار حديث رقم ٨٧٩٩.

ومثل هذا ومثلكم كمثل رجل له ناقة، فشردت عليه واتبعها الناس فلم يزيدوها[٥٠٦] إلا فرارًا، فقال صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أعلم بها وأرفق، فجاءها من بين يديها وأخذ من ثمام الأرض شيئًا فدعاها، فقال هوى هوى هوى، فاستناخت بين يديه فشد عليها رحله واستوى عليها، وإني[٥٠٧] حين قال هذا ما قال لو قتلته[٥٠٨] وأطعتكم دخل النار»، قال عكرمة: إني أنظر إلى أبي هريرة يقول: هوى هوى هوى، ذكره ابن راهويه في مسنده.

أنس قال: دخلت اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، قال: «وعليكم»، فقالت عائشة: وعليكم السام إخوان القردة، ثم قال: «يا عائشة أما علمت أن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، ولا دخل الحمق في شيء إلا شانه»، فقلت: أما سمعت يا رسول الله ما قالوا؟ فقال: «أوما سمعت كيف قلت، قلت: وعليكم»، فنزل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ..﴾ الآية [المجادلة:٨].

أسامة بن زيد قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حمارًا عليه أكاف تحت قطيفة، وأردف أسامة بن زيد وراءه وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود وفيهم عبد الله بن أبيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر[٥٠٩] عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا[٥١٠] علينا، فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ: أيها المرء ألا أحسن من هذا إن كان ما تقوله حقًا فلا تؤذنا في مجالسنا وارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون حتى همّوا أن يتواثبوا، فلم يزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخفضهم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال: «أي سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا»، [فقال سعد بن عبادة: أي رسول الله، بأبي أنت][٥١١] اعف عنه يا

---

(٥٠٦) يزيدوها: يزدها، ي. تعظيم قدر الصلاة حديث رقم ٩٩٢.

(٥٠٧) إني: رأى، م ي. تعظيم قدر الصلاة حديث رقم ٩٩٢.

(٥٠٨) قتلته: فعلته، م ي. تعظيم قدر الصلاة حديث رقم ٩٩٢.

(٥٠٩) خمّر: حمر، م ي. صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١٠) تغبروا: تقيموا، م ي. صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١١) صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد أصبح أهل هذه البحرة[٥١٢] يريدون أن يتوجوه ويعصبوه[٥١٣] بالعصابة فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق[٥١٤] بذلك وأراك الذي فعل به ما رأيت، فعفا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه.[٥١٥]

أبو رافع قال: أضاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضيفًا فلم يلق عنده بعض ما يصلحه، فأرسلني إلى رجل يهودي فقلت: يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقًا إلى هلال رجب، فقال: لا والله إلا برهنٍ، فأتيته فأخبرته، فقال: «أما والله إني لأمين في أهل الأرض أمين في أهل السماء، ولو أسلفني لأديت إليه، اذهب بدرعي إليه»، فلما خرجت من عنده نزل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [طه:٣١].

أنس: كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ناقة تسمى العضباء، فجاء أعرابي على قعود له فسابقها فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما في وجوههم قال: «إنه حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

وروي أنه جلس غليم من الأنصار على طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلما مر إلى الصلاة تبعه، فلما خلع نعله أخذه الصبي فمسحها بإزاره ونفخها، فلما فرغ من صلاته ناوله الصبي نعله فلبسها، ففعل ذلك أيامًا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنت يا غليم»؟ قال: من أبناء الأنصار، قال: «من أمرك بهذا»؟ قال: ما أمرني أحد غير أني أحب أن أتبع سرور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فرفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يديه وقال: «يا رب إنه يزعم أنه أراد اتباع سرور رسولك فسره في الدنيا وفي الآخرة. يقوله ثلاثًا»[٥١٦].

وروي أنه لما ولد ابن عباس مشى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومج في فيه من ريقه وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فصار غاية في الفقه والمعرفة للتأويل.

وروي أنه عليه السلام أمر أصحابه بذبح شاة في سفر، فقال واحد: عليّ ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر: علي قطعها، وقال آخر: علي طبخها، قال عليه السلام: «وأنا ألتقط لكم

(٥١٢) البحرة: البحيرة، م ي. صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١٣) يتوجوه ويعصبوه: يتوجوا ويعصوا، م ي. صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١٤) شرق: شرف، ي. كذا في صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١٥) في صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٧.

(٥١٦) شرف المصطفى ٤/ ٥٣٦.

الحطب»، فقالوا: بأبائنا وأمهاتنا أنت، نحن نكفيك، قال: «قد عرفت ذلك، ولكن الله يكره من عبده إذا كان مع أصحابه ينفرد من بينهم، وقام يلتقط الحطب لهم»، وكان يعوذ الناس بقوله: «أذهب الباس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك [شفاء] لا يغادر سقمًا».

وقال: «ألست أولى بكم من أنفسكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فمن ترك دينا علينا، ومن ترك كلاء فإلينا، ومن ترك مالًا فلورثته، لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت»، رواه أنس.

أبو هريرة قال: تقاضى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأغلظ له، فهم به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالًا»، ثم قال: «اشتروا له بعيرًا فأدوه إياه»، فقالوا: ما نجد إلا سنا أفضل من سنه، فقال: «اشتروه وأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء».

أبو سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعقل البعير، ويعلف الناضح، ويفتح البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع(٥١٧) الخادم ويطحن معها إذا هي أعيت، وكان لا يحمله الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئًا، وكان لا يستحي إذا دعي، ولا يحقر ما دعي إليه ولو دعي إلى حشف التمر، وكان هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بسامًا من غير ضحك، محزونًا من غير عبوس، متواضعًا من غير مذلة، جوادًا من غير سرف، رقيق القلب، [سائل] الأطراف، رحيمًا بكل مسلم، لم يتجشأ قط من شبع، ولا مد يده(٥١٨) إلى طمع، بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.(٥١٩)

مبحث في قوله تعالى:
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا..﴾

يقال: إن الله تعالى ربّى رسوله بخلال الفضل والنبل، وعلمه طريق السياسة والرئاسة، وجمعها كلها في هذه الآية، لين الجانب مع الأجانب، وحسن الخلق مع الخلق، والعفو عن

(٥١٧) مع: ما، م ي.

(٥١٨) مد يده: مدبره، م ي. الرسالة القشيرية ١/ ٢٧٨.

(٥١٩) شعب الإيمان حديث رقم ١٣٦٢.

صاحب العمد والسهو، والاستغفار لأهل الاستكثار[٥٢٠]، والمشاورة عند المحاورة، هذه خمس خصال أساسات السياسات وأسباب الرئاسات.

أما لين الجانب: فروي عن وهب أنه قال: مكتوب في التوراة: لئن كانت كلمتك طيبة ووجهك منبسطًا تكن أحب الناس ممن يعطيهم الجزيل، ويقال: البر شيء هين: وجه طلق، ولسان لين.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لم تسعوا[٥٢١] الناس في أموالهم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق».

شعر:

الـق بالبشـر مـن لقيـت مـن النـ ـــاس جميعًـا ولاقهـم[٥٢٢] بالطلاقـه
تجـن منهـم بـه جنـاء ثمـار[٥٢٣] طيـبٌ طعمـه لذيـذ مذاقـه
ودع التيـه والعبـوس عـن النـ ـــاس فـإن العبـوس رأس الحماقـه

وقيل: أول المروة: طلاقة الوجه، والثانية: التودد إلى الناس، والثالثة: قضاء حوائج الناس.

وقيل: من ضن ببشره كان بمعروفه أضن.

شعر:

مـن ضـن بالبشـر فـلا ترجـه فإنـه أبخـل[٥٢٤] بالمـال
لا خيـر فـي السـلطان مـا لـم يكـن يدعـو إلـى بـر وإفضـال

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تدرون من يحرم على النار ومن تحرم النار عليه، كل هين لين سهل قريب».

الخصلة الثانية: حسن الخلق، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا..﴾ الآية [آل عمران:١٥٩]، يعني لو كنت سيئ الخلق ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

(٥٢٠) الاستكثار: الاستكبار، م ي. قناطر الخيرات ٢/ ٣٦٧.
(٥٢١) تسعوا: يسعوا، م ي.
(٥٢٢) لاقهم: لاتهم، م ي. الإشراف في منازل الأشراف ص٢٢٥.
(٥٢٣) +: منهم به جناء ثمار، ي م.
(٥٢٤) أبخل: يبخل، ي.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الخلق السيئ يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل».

وعنه: «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق».

شعر:

خالق الناس بخلق حسن ... لا تكن كلبًا على الناس تهر

والقهم منك ببشر ممكنٍ ... للذي تسمع منهم تغتفر

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما الدين؟ فقال: «حسن الخلق».

وقيل: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

الخصلة الثانية: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [النور:٢٢]، ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، كل ذلك ينبئ عن حسن العفو.

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من لم يقبل من معتذر صادقا أو كاذبا لم يرد علي الحوض».

شعر:

فهبني مسيئًا كالذي قلت ظالمًا ... فعفو جميل كي يكون لك الفضل

فإن لم أكن للعفو منك بسوء ما ... أتيت به أهلًا فأنت له أهلُ

وقيل: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة.

شعر:

ذنبي إليك وما أتيت كبير ... وكبيره في العفو منك صغير

إن تعف عن ذنبي فإنك غافر ... أو لا فما لي في العباد مجيرُ

الخصلة الرابعة: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وفيه دليل على فضل الاستغفار، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

وقال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف:٩٢].

وقال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح:٢٨].

وقال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم:٤١].

الخصلة الخامسة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، وفيه دليل على فضل المشاورة، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ قيل: فيما لم يوح إليه، فأما فيما يوحى إليه فلا مشورة.

ولما صالح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان وأهل مكة عام الخندق على ثلث ثمار المدينة قال سعد بن معاذ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أهذا شيء أوحي إليك أم رأيته؟ قال: «بل رأي رأيته»، فقال: والله كنا على شرك فلا يطمع أحد فينا إلا شراء أو قرى، فإذا أكرمنا بك وبالإسلام فلا تطعمهم منا شيئًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جزاك الله خيرًا».

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منزل أدنى ماء من بدر عند خروجه إلى بدر قال الحباب بن المنذر بن الجموح: أوحي إليك النزول هاهنا أم هو رأي ومكيدة؟ فقال: «بل رأي ومكيدة»، فقال: ليس هذا برأي ولكن ننزل أدنى ماء، فأمر القوم بطم الآبار، فقال: هذا هو الرأي، فرحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك المكان ونزل بالمكان الذي أشار به عليه.

وقيل: شاورهم لتستميل به قلوبهم ويكون سنة لمن بعده، وقيل: (شاورهم) يعني أبا بكر وعمر، عن ابن عباس، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لي وزيران في السماء ووزيران في الأرض، أما الذي في السماء فجبريل وميكائيل، وأما اللذان[٥٢٥] في الأرض فأبو بكر وعمر».

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاورهم في أسرى بدر، فقال أبو بكر: أنت أولى بهم، إن تعف أو تقتل، والرأي أن تأخذ الفداء، وقال عمر: هم الذين كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، والرأي أن تقتلهم عن آخرهم، وقال عثمان: إن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فهم أهل لذلك، وقال علي: الرأي أن تقتلهم، فأخذ برأي أبي بكر وفداهم.

أكثم بن صيفي: المشورة مادة الرأي، ويقال: الرأي نائم والهوى يقظان، فمن ثم يغلب الهوى الرأي.

---

(٥٢٥) اللذان: اللذين، ي.

وقيل: الرأي المعروض على الحكماء كالذهب الممتحن بالنار، فشاورهم في الأمر ثم توكل على الله في إمضائها وعواقبها.

وقيل: التوكل: طمأنينة القلب إلى الله ووعده ووعيده، عن أبي تراب النخشي، وقيل: حسن الالتجاء إلى الله وصدق الافتقار إليه.

فصل فيما روي عنه من الآداب

جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كفوا صبيانكم عند فحمة العشاء فإنكم ما تدرون ما يثبت الله من خلقه، كفوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح»(٥٢٦).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «صِلوا الأرحام ولو بالسلام».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من هجر أخاه فوق ثلاث فهو في النار».

وروي أن رجلًا جاء فقال: علمني عملًا أدخل به الجنة، فقال: «لا تغضب».

شعر:

إذا ما شئت أن تحيا حياة طيب المجتنا
فلا تغضب ولا تحقد ودار الناس في الدنيا

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة عاق والديه، ولا منان، ولا مدمن الخمر».

وقال: «رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس، ولن يهلك رجل بعد مشورة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة».

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يركب الحمار، ويجيب دعوة المملوك، وكان يعلف الشاة ويلبس الصوف.

(٥٢٦) مسند الحميدي حديث رقم ١٣١٠.

وعنه: «قصوا الشارب وأعفوا اللحى[٥٢٧]».

وكان يكره القيام، وقال: «من أحب أن يمثل له الرجال صفوفًا فليتبوأ مقعده من النار»، وقال: «لا تقوموا كما يفعل الأعاجم بعضهم لبعض».

وكان يكره النجوم، وقال: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر».

وقال: «بينا رجل يمشي في الطريق إذ مر بكلب عطش على رأس بئر، فنزع خفه وربط بعمامته ودلاه في البئر وسقى الكلب، فغفر له»، فقيل: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: «نعم في كل ذات كبد رطبة[٥٢٨] أجر»[٥٢٩].

وقال: «لما عرج بي إلى السماء ما مررت بسماء إلا قالوا: مر أمتك بالحجامة»[٥٣٠].

وكان يذم الغضب، وكان يأمر بير الوالدين، وحفظ الجار، وكان يحب اصطناع المعروف، وقال: «كل معروف صدقة».

وما ضرب خادمًا ولا امرأة، ولا ضرب شيئًا بيده.

ومما وصف من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كان رؤوف القلب، كثير الحياء، واسع الصدر، دائم البكاء، طويل الحزن، عظيم الرجاء، قليل المن، كثير الوفاء، دائم الذكر، أمين السماء، كاتم السر، جزيل العطاء، لين الجانب، قليل الأذى، زين العلم، سراج الهدى.

وكان حليمًا، ودودًا، رحيمًا، حصيفًا، كريمًا، وفيًا، حكيمًا، قائمًا بأمر الله، موفيًا بعهد الله، مشمرًا في عبادة الله، ملتمسًا رضا الله.

وكان يعظم الكبير، ويقرب الصغير، ويشكر اليسير، ويرحم الأسير.

وكان سهلًا عند مصاحبته، عدلًا عند مقاسمته، سباقًا عند معاملته، شجاعًا عند مقاتلته.

ولم يكن فظًا ولا غليظًا، ولا صخابًا، ولا فحاشًا، ولا سبابًا، ولا طياشًا، ولا مغتابًا، ولا حريصًا، ولا جماعًا، ولا بخيلًا، ولا مناعًا، ولا مكارًا، ولا خداعًا، ولا مكثارًا، ولا ثرثارًا، ولا

---

(٥٢٧) مسند أحمد حديث رقم ٧١٣٢.

(٥٢٨) رطبة: بطنها، ي. مسند أحمد حديث رقم ١٠٦٩٩.

(٥٢٩) مسند أحمد حديث رقم ١٠٦٩٩.

(٥٣٠) مسند البزار حديث رقم ٥٩٧٠.

طماعًا، ولا نمامًا، ولا حقودًا[٥٣١]، ولا منانًا، ولا أكولًا، ولا كسلان، ولا ملولًا، ولا طعانًا، ولا عجولًا، ولا ضرارًا، ولا حسودًا، ولا غدارًا، ولا مهذار، ولا خدوعًا، ولا طيارًا، ولا متكبرًا، ولا همازًا، ولا متجبرًا، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفقد أصحابه ويسأل عنهم، فمن كان مريضًا عاده، ومن كان غائبًا دعا له، ومن مات استرجع فيه وأتبعه بالدعاء، ومن كان يتخوف أن يكون وجد في نفسه قال: لعل فلانًا وجد علينا في شيء انطلقوا بنا إليه، فينطلق حتى يأتيه في منزله.

وكان يتطيب بالمسك، ويستاك ثلاث مرات، وكان يكثر تلاوة القرآن، وكان أرق عباد الله في كتاب الله وأطولهم بكاءً إذ خلا به، وأشدهم توسلًا، وقال: «توسلوا بالقرآن وقفوا على محاسنه، ولا تنثروه نثر الدقل، فإنه تعالى لم يأذن في شيء كإذنه لمن يتغنى بالقرآن، وابكوا في القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا».

وكان أكثر ما يجلس تجاه القبلة، وكان طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، وكان أكثر الناس تبسمًا في مجلسه وضحكًا في وجوه أصحابه، وكان جامعًا لكل خير.

وكان إذا أراد سفرًا صلى ركعتين وقال: «ما استخلف أحد على أهله خليفة إذا سافر مثل ركعتين يصليهما في أهله»، ويحب أن يخرج يوم الخميس.

فصل في ما مازح به صلى الله عليه وآله وسلم

أنس بن مالك قال: كان لأبي طلحة ابن يسمى أبا عمير، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضاحكه، وكان له نُغَر فمات فبكى، ورآه حزينًا فقيل له: مات نُغَرُه، فقال عليه السلام: «أبا عمير ما فعل النُّغَير»،[٥٣٢] فهذا مزاحه، وفيه فوائد جمة، وقد عد العلماء فيه خمس عشرة فائدة، منها إباحة الممازحة مع الصبيان، وتصغير الاسم، وجواز التكنية قبل أن يولد له.

وقال لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز[٥٣٣]» فحزنت فقال: «يجعلهن الله أبكارًا».

وقال له رجل: احملني على جمل، فقال: «أحملك على ولد ناقة»، فقال: لا يطيق، فقالوا: وهل الجمل إلا ولد ناقة.

---

(٥٣١) حقودًا: حيولًا، م ي.

(٥٣٢) سنن أبي داود حديث رقم ٤٩٦٩.

(٥٣٣) المعجم الأوسط رقم ٥٥٤٥.

وعنه: «قصوا الشارب وأعفوا اللحى[٥٢٧]».

وكان يكره القيام، وقال: «من أحب أن يمثل له الرجال صفوفًا فليتبوأ مقعده من النار»، وقال: «لا تقوموا كما يفعل الأعاجم بعضهم لبعض».

وكان يكره النجوم، وقال: «من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر».

وقال: «بينا رجل يمشي في الطريق إذ مر بكلب عطش على رأس بئر، فنزع خفه وربط بعمامته ودلاه في البئر وسقى الكلب، فغفر له»، فقيل: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: «نعم في كل ذات كبد رطبة[٥٢٨] أجر»[٥٢٩].

وقال: «لما عرج بي إلى السماء ما مررت بسماء إلا قالوا: مر أمتك بالحجامة»[٥٣٠].

وكان يذم الغضب، وكان يأمر ببر الوالدين، وحفظ الجار، وكان يحب اصطناع المعروف، وقال: «كل معروف صدقة».

وما ضرب خادمًا ولا امرأة، ولا ضرب شيئًا بيده.

ومما وصف من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كان رؤوف القلب، كثير الحياء، واسع الصدر، دائم البكاء، طويل الحزن، عظيم الرجاء، قليل المن، كثير الوفاء، دائم الذكر، أمين السماء، كاتم السر، جزيل العطاء، لين الجانب، قليل الأذى، زين العلم، سراج الهدى.

وكان حليمًا، ودودًا، رحيمًا، حصيفًا، كريمًا، وفيًا، حكيمًا، قائمًا بأمر الله، موفيًا بعهد الله، مشمرًا في عبادة الله، ملتمسًا رضا الله.

وكان يعظم الكبير، ويقرب الصغير، ويشكر اليسير، ويرحم الأسير.

وكان سهلًا عند مصاحبته، عدلًا عند مقاسمته، سباقًا عند معاملته، شجاعًا عند مقاتلته.

ولم يكن فظًا ولا غليظًا، ولا صخابًا، ولا فحاشًا، ولا سبابًا، ولا طياشًا، ولا مغتابًا، ولا حريصًا، ولا جماعًا، ولا بخيلًا، ولا مناعًا، ولا مكارًا، ولا خداعًا، ولا مكثارًا، ولا ثرثارًا، ولا

---

(٥٢٧) مسند أحمد حديث رقم ٧١٣٢.

(٥٢٨) رطبة: بطنها، ي. مسند أحمد حديث رقم ١٠٦٩٩.

(٥٢٩) مسند أحمد حديث رقم ١٠٦٩٩.

(٥٣٠) مسند البزار حديث رقم ٥٩٧٠.

طماعًا، ولا نمامًا، ولا حقودًا[٥٣١]، ولا منانًا، ولا أكولًا، ولا كسلان، ولا ملولًا، ولا طعانًا، ولا عجولًا، ولا ضرارًا، ولا حسودًا، ولا غدارًا، ولا مهذار، ولا خدوعًا، ولا طيارًا، ولا متكبرًا، ولا همازًا، ولا متجبرًا، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفقد أصحابه ويسأل عنهم، فمن كان مريضًا عاده، ومن كان غائبًا دعا له، ومن مات استرجع فيه وأتبعه بالدعاء، ومن كان يتخوف أن يكون وجد في نفسه قال: لعل فلانًا وجد علينا في شيء انطلقوا بنا إليه، فينطلق حتى يأتيه في منزله.

وكان يتطيب بالمسك، ويستاك ثلاث مرات، وكان يكثر تلاوة القرآن، وكان أرق عباد الله في كتاب الله وأطولهم بكاءً إذ خلا به، وأشدهم توسلًا، وقال: «توسلوا بالقرآن وقفوا على محاسنه، ولا تنثروه نثر الدقل، فإنه تعالى لم يأذن في شيء كإذنه لمن يتغنى بالقرآن، وابكوا في القرآن فإن لم تبكوا فتباكوا».

وكان أكثر ما يجلس تجاه القبلة، وكان طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، وكان أكثر الناس تبسمًا في مجلسه وضحكًا في وجوه أصحابه، وكان جامعًا لكل خير.

وكان إذا أراد سفرًا صلى ركعتين وقال: «ما استخلف أحد على أهله خليفة إذا سافر مثل ركعتين يصليهما في أهله»، ويحب أن يخرج يوم الخميس.

فصل في ما مازح به صلى الله عليه وآله وسلم

أنس بن مالك قال: كان لأبي طلحة ابن يسمى أبا عمير، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يضاحكه، وكان له نُغَر فمات فبكى، ورآه حزينًا فقيل له: مات نُغَرُه، فقال عليه السلام: «أبا عمير ما فعل النُّغَير»،[٥٣٢] فهذا مزاحه، وفيه فوائد جمة، وقد عد العلماء فيه خمس عشرة فائدة، منها إباحة الممازحة مع الصبيان، وتصغير الاسم، وجواز التكنية قبل أن يولد له.

وقال لعجوز: «إن الجنة لا يدخلها عجوز[٥٣٣]» فحزنت فقال: «يجعلهن الله أبكارًا».

وقال له رجل: احملني على جمل، فقال: «أحملك على ولد ناقة»، فقال: لا يطيق، فقالوا: وهل الجمل إلا ولد ناقة.

---

(٥٣١) حقودًا: حيولًا، م ي.

(٥٣٢) سنن أبي داود حديث رقم ٤٩٦٩.

(٥٣٣) المعجم الأوسط رقم ٥٥٤٥.

وروي أنه سابق أبا هريرة، وقال للحسن أو الحسين ورفعه[٥٣٤] ووضع رجله على رجليه وأخذ يده بيده:

حزقّة حزقّة ترق عين بقة «اللهم إني أحبه فأحبه»[٥٣٥].

وكان يمازح بلالًا وأبا هريرة ويقول لهما: «أم حيين».

ورأى حسينًا في السكة فتقدم أمام القوم، فطفق الحسين يقول: هاهنا هاهنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضاحكه حتى أخذه فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى فوق رأسه ثم أخذ فاه فقبله.

ومر بأبي هريرة وهو يشتكي البطن فقال: «أشكمت درد؟»، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «قم فصل، فإن الصلاة شفاء»[٥٣٦].

وقال ﷺ: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا»، وكان يداعب الرجل ليس إلا ليسره، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يبغض المعبس في وجوه إخوانه».

وسمع امرأة تضرب الدف وتقول في وليمة:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر لم نحلل بواديكم

فقال عليه السلام: «ولولا الحنطة السمراء لما سمنت عذاريكم».

فصل في ما روي عنه من الأمثال وما قاله من الحكم والأمثال

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر».

وعنه: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»، «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح وباب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له».

(٥٣٤) رفعه: عليهما، م ي.
(٥٣٥) سبل الهدى والرشاد ٧/ ١١٦.
(٥٣٦) مسند أحمد حديث رقم ٩٠٦٦.

وعنه: «مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن يضل الهداة».

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة بدر مع الأسارى شاور الناس في الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله هم قومك فإن تقتلهم يدخلوا(٥٣٧) النار ولكن فادهم فيكون الذي يؤخذ منهم قوة للمسلمين، ولعل الله يقبل توبتهم فيسلموا، وقال عمر: يا رسول الله اقتلهم فوالله ما أعلم شرًّا منهم لنبيهم، لقد كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، فاقتلهم، وقال عثمان: هم قومك فإن عفوت فأنت بالعفو جدير، وإن قتلت فهم أهل لذلك، وقال علي: اقتلهم فإنهم آذوك وقاتلوك، فأخذ برأي أبي بكر، ثم ضرب لهم مثلًا فقال: «مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم حيث يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦]، وأما مثلك يا عمر فمثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، ومثلك يا عثمان كمثل أخي عيسى حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، وأما مثلك [يا علي] فمثل أخي موسى حيث قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]».

وقال عليه السلام: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

وعنه: «ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سور(٥٣٨) فيه أبواب مفتحة، على الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب رأس الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعًا ولا تتعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والستور حدود الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم».

مبحث في بعض أقواله

الأعمال بالنيات.

المجالس بالأمانة.

---

(٥٣٧) يدخلوا: يدخلون، م ي.

(٥٣٨) سور: ستور، ي.

المستشار مؤتمن.

العدة دين.

الحسب المال.

الدين النصيحة.

الكرم التقوى.

الحزم سوء الظن.

الدَّين شين.

التودد نصف العقل.

الهم نصف الهرم.

قلة العيال إحدى اليسارين.

البركة مع أكابركم.

ملاك العمل خواتمه.

ملاك الدين الورع.

مطل الغني ظلم.

مسألة الغني نار.

الرفق رأس الحكمة.

البر رأس الخلق.

الشباب شعبة من الجنون.

النساء حبائل الشيطان.

الخمر جماع الإثم.

الحمى رائد الموت.

القناعة مال لا ينفد.

الحياء خير كله.

السعيد من وُعظ بغيره.

كفارة الذنب الندامة.

جهاد المرأة حسن التبعل[٥٣٩].

---

(٥٣٩) التبعل: الشغل، م ي. شعب الإيمان حديث رقم ١١٥٢.

الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

الشتاء ربيع المؤمن، والدعاء سلاح المؤمن، والصلاة نور المؤمن.

من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

كل ما هو آت قريب.

الود يتوارث، والبغض يتوارث.

حبك للشيء يعمي ويصم.

دفن البنات من المكرمات.

معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين.

الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن.

للسائل حق ولو جاء على فرس.

نعمتان عظيمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ.

السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله.

مبحث آخر

من اقترب من أبواب السلاطين افتتن.

من اغتر بالعبيد أذله الله.

من غشنا فليس منا.

من تأنى أصاب أو كاد، ومن تعجل أخطأ أو كاد.

من سره أن يسلم فليلزم الصمت.

من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به.

من أدلت إليه نعمة فليشكرها.

من تشبه بقوم فهو منهم.

من أحب دنياه أضر بآخرته.

من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له.

من شاب شيبة في الإسلام كانت له نورًا يوم القيامة.

من أصبح آمنًا في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة.
من طلب الدنيا بعمل الآخرة فما له في الآخرة من نصيب.
من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية.

مبحث آخر

حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات.
رحم الله عبدًا قال فغنم أو سكت فسلم.
كما تكونون يولى عليكم.
رحم الله امرءًا أصلح من لسانه.
كاد الفقر يكون كفرًا.
تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون.
كم من مستقبل يومًا لا يستكمله، ومنتظر غدًا ما لا يبلغه.
عجبت لعامل لا يُغفل عنه، ولمؤمل دنيا والموت يطلبه، وضاحك ملء فمه لا يدري أأرضى الله أم أسخطه.
يا عجبًا كل العجب لمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور.
يهرم ابن آدم ويشيب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر.
جبلت القلوب على حب مَنْ أَحْسَنَ إليها وبغض من أساء إليها.
يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ويدع الجذع في عينه.
أكثر الناس أُخْبُرْ تَقْلِه[٥٤٠].

مبحث آخر

اشفعوا تؤجروا.
سافروا تصحوا.
قاربوا وسددوا.

(٥٤٠) معناه: إن خبرتهم قَلَيْتَهم.

أقلل من الدّين تعش حميدًا، وأقلل من الذنوب يهن[٥٤١] عليك الموت.

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

قل الحق وإن كان مرًا.

صِلوا أرحامكم ولو بالسلام.

تهادوا تزدادوا حبًا.

أقيلوا للكرام عثراتهم.

بلغوا عني ولو آية.

اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله، واتقوا الحرام في البنيان فإنه أساس الخراب، واتقوا النار ولو بشق تمرة، وأحصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا أمراضكم بالصدقة.

أعدوا للبلاء الدعاء.

تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم.

اطلبوا الفضل عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم[٥٤٢].

تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة، واستعينوا على أموركم بالكتمان.

التمسوا الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق.

تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء.

احثوا في وجوه المداحين التراب.

أطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين، واحفظوني[٥٤٣] في أصحابي فإنهم خيار أمتي، واحفظوني[٥٤٤] في عترتي، واستشيروا ذوي العقول ترشدوا ولاتعْصوهم فتندموا[٥٤٥]. كونوا في الدنيا أضيافا[٥٤٦]، واتخذوا المساجد بيوتًا، واتقوا دعوة المظلوم وبكاء اليتيم فإنهما يسريان بالليل والناس نيام، يقول الله: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين.

ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالمًا يلعب به الحمقى والجُهّال[٥٤٧].

---

(٥٤١) يهن: يهون، م ي.

(٥٤٢) أكنافهم: أكتافهم، م ي. مسند الشهاب القضاعي ١/ ٤٠٦.

(٥٤٣) احفظوني: حافظوني، م ي. مسند الشهاب رقم ٧٢٠.

(٥٤٤) احفظوني: حافظوني، م ي. مسند الشهاب رقم ٧٢١.

(٥٤٥) تعْصوهم: تاسوهم، م ي. مسند الشهاب حديث رقم ٧٢٢.

(٥٤٦) أضيافا: أصنامًا، م ي. حلية الأولياء ١/ ٣٥٨.

(٥٤٧) الحمقى والجُهّال: الحمقا والجهل، م ي. مسند الشهاب ١/ ٤٢٧.

عش ما عشت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك تجزى به.

احفظ الله يحفظك.

إذا غضبت فأمسك.

مبحث آخر

ما عال من اقتصد.

ما نزعت الرحمة إلا من شقي.

ما آمن بالقرآن من استحل محارمه.

ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها.

ما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مؤنة الناس عليه.

ما امتلأت دار حَبْرَةً إلا امتلأت عَبْرَةً، وما كانت فرحة إلا تبعتها ترحة.

ما استرعى الله عبدًا رعية فلم يحطها بنصيحة إلا حرم الله عليه الجنة.

ما فتح رجل في نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر منسيًا ومرضًا مفسدًا أو هرمًا مفْنِدًا(٥٤٨)، أو موتًا مُجْهِزًا(٥٤٩).

مبحث آخر

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

لا يشكر الله من لم يشكر الناس.

لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر.

لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة.

لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا عقل كالتدبير، ولا حسب كحسن الخلق، ولا ورع كالكف، ولا إيمان كالحياء.

لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

لا يغني حذر من قدر.

---

(٥٤٨) مفْنِدًا: مقيدًا، م ي. المعجم الأوسط حديث رقم ٣٩٤٥.

(٥٤٩) مُجْهِزًا: مجهدًا، م ي. المعجم الأوسط حديث رقم ٣٩٤٥.

لا يفلح قوم تملكهم امرأة.

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

لا تعفروا أقدامكم إلى من لا يعرف أقداركم.

لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أمينًا عند الله.

لا يصلح التملق إلا للوالدين والإمام العادل.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا.

لا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل الذي ترى له.

لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك.

مبحث آخر

إياك وما يُعتذر منه.

إياكم والمدح فإنه الذم.

إياك ومحقرات الذنوب، فإن[٥٥٠] لها من الله طالبًا.

إياكم وخضراء الدمن.[٥٥١]

إياكم والدَّين فإنه هَمٌّ بالليل ومذلة بالنهار.

إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث.

مبحث آخر

إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة.

إن حسن العهد من الإيمان.

إن العلماء ورثة الأنبياء.

إن أحساب أهل الدنيا هذا المال.

إن لصاحب الحق مقالًا.

---

(٥٥٠) فإن: وإن، م ي. مسند أحمد حديث رقم ٢٥١٧٧.

(٥٥١) مسند الشهاب حديث رقم ٩٥٧.

إن إعطاء هذا المال فتنة[٥٥٢] وإمساكه فتنة[٥٥٣].

إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره.

إن لكل شيء شرفًا، وشرف المجالس ما استقبل به القبلة.

إن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: البطن والفرج.

إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق.

إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر.

إن الله يستحيي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبين.

إن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن من موجبات الجنة إدخال السرور على أخيك المؤمن.

إن المصلي يقرع باب الملك، وإنه مَنْ لزم قرع الباب يوشك أن يفتح له.

إنما الأعمال بالخواتم.

إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكرًا، وصمتي فكرًا، ونظري عبرة.

مبحث آخر

ليس الخبر كالمعاينة.

ليس لفاسق غيبة.

ليس لعِرْقٍ ظالمٍ حقٌّ.

ليس من خلق المؤمن الملق.

ليس بعد الموت مستعتب.

ليس منا من تشبه بغيرنا.

ليس منا من لم يرحم الصغير، ولم يوقر الكبير.

ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس.

ليس شيء خير من ألف مثله إلا المؤمن.

ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت.

---

(٥٥٢) فتنة: فته، ي. مسند أحمد حديث رقم ٢٠٥٨٦.

(٥٥٣) فتنة: فته، ي. مسند أحمد حديث رقم ٢٠٥٨٦.

مبحث آخر

خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي.

خير العلم ما[٥٥٤] نفع.

خير الناس أنفعهم للناس.

خير شبابكم من تشبه بكهولكم، وشر كهولكم من تشبه بشبابكم.

عمل قليل في سُنَّة خير من كثير في بدعة.

مبحث آخر

أفضل الصدقة اللسان.

ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي.

الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

مبحث آخر

شر الأمور محدثاتها.

شر العمى عمى القلب.

شر المعذرة حين يحضر الموت.

شر الندامة يوم القيامة.

شر المأكل مال اليتيم.

شر المكاسب كسب الرِّبا[٥٥٥].

مبحث آخر

كفى بالسلامة داء.

كفى بالموت واعظًا.

---

(٥٥٤) ما: من، م ي. مسند ابن أبي شيبة حديث رقم ٣٤٥٥٢.

(٥٥٥) الرِّبا: الزنا، م ي. مصنف ابن أبي شيبة حديث رقم ٣٤٥٥٢ .

كفى باليقين غناءً.

كفى بالعبادة شغلًا.

كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع.

مبحث آخر

رب شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا.

رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش[٥٥٦].

مبحث آخر

لولا أن السُّؤَّال يكذبون ما قُدِّس مَنْ رَدَّهم.

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا.

لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم سمينًا قط.

لو نظرتم إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره[٥٥٧].

لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.

مبحث من الأدعية

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، أعوذ بك من شر هؤلاء الأربع.

اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبرًا على بليتك، وخروجًا من الدنيا إلى رحمتك.

اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أذِل أو أُذَل، أو أظلِم أو أُظلَم.

اللهم واقية كواقية الوليد.

---

(٥٥٦) سنن ابن ماجد حديث رقم ١٦٩٠.

(٥٥٧) مسند الشهاب حديث رقم ٥٩٣.

فصل في الأعداد

مبحث في عدد الاثنين

منهومان لا يشبعان: طالب العلم، وطالب المال.

نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ.

خلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل، وسوء الخلق.

خصلتان لا تكونان في منافق: حسن سمت، ولا فقه في الدين.

عينان لا تمسهما النار: عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله.

الشيخ شاب في حب اثنتين: طول الحياة، وكثرة المال.

مبحث في عدد الثلاثة

ثلاث من كن فيه فهو منافق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان.

ارحموا ثلاثًا: غني قوم افتقر، وعزيز قوم ذل، وعالم يلعب به الحمقى، نظمه بعضهم فقال:

إنـي مـن النفـر الثلاثـة حقهـم ... أن يرحمـوا لحـوادث الأزمـان
مثـر أقـل وعالـم مسـتجهل ... وعزيـز قـوم ذل للحدثـانِ

ثلاث منجيات وثلاث مهلكات: فالمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، وإنصاف الناس من نفسك. والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

الإيمان ثلاثة: فقه بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالجوارح. شعر:

شـكرك معقـود بإيمانـي ... حكـم فـي سـرّي وإعلانـي
عقـد ضميـر وفـم ناطـق ... وفعـل أعضـاء وأركان

ومرض سلمان فعاده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: «أما إن لك في مرضك ثلاث خلال: ذكر الله لك، وتكفير خطاياك، واستجابة دعائك، فإن المبتلى مجاب».

ثلاث أوقات يستجاب فيها الدعاء: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول المطر.

ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل كانت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهًا قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥]، ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه.

ثلاث ليس على ابن آدم فيهن حساب: ثوب يواري عورته، وطعام يقيم صلبه، وبيت يكنه، فما فوق ذلك فعليه به حساب.

ثلاث لا تؤخر: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت لها كفؤا.

ثلاث في ظلل العرش يوم لا ظل إلا ظله: رجل حيث ما توجه علم أن الله معه، ورجل دعته امرأة إلى نفسها فتركها من خشية الله، ورجل يحب الناس لجلال الله.

ثلاث من حقائق الإيمان: من إذا غضب لم يخرجه غضبه إلى باطل، وإذا رضي لم يخرجه من الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له.

مبحث في عدد الأربعة

أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر على رعيته.

أربع من كن فيه كمل إسلامه ولو كان من قرنه إلى قدمه خطأ: الصدق، والشكر، والحياء، وحسن الخلق.

أربع من كن فيه بنى الله له بيتًا في الجنة: من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، ورفق بمملوكه، وأشفق على والديه.

أربع من علامات النفاق: جمود العين، وقساوة القلب، والإصرار على الذنب، والحرص على الدنيا. الخبر الثلاثة يرويها جعفر بن محمد عن آبائه عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أربع من جمعهن في يوم واحد غفر له ما تقدم من ذنبه: من أصبح صائمًا، وأعطى سائلًا، وعاد مريضًا، وشيع جنازة.

عائشة: كان أحب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أربعة: اثنان يجهدان ماله، واثنان يجهدان بدنه، فاللذان يجهدان ماله: الجهاد، والصدقة، وأما اللذان يجهدان بدنه: فالصيام والصلاة.

مبحث في عدد الخمسة

اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

خمس من قضى في شيء منها فهو شهيد: المقتول في سبيل الله شهيد، والغريق في سبيل الله شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والنفساء شهيد، والذاهبون في سبيل الله شهداء.

خمس لا يعذر بجهلهن أحد: معرفة الله أن تعرف الله فلا تشبه به شيئًا، والحب في الله، والبغض في الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الظلمة.

مبحث في عدد الستة فما فوقها

المروءة ستة: ثلاث في الحضر، وثلاث في السفر، أما اللواتي في الحضر: فتلاوة كتاب الله، وعمارة مساجد الله، واتخاذ الإخوان في الله، وأما اللواتي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، والمزاح في غير معصية.

سبعة من كن فيه فقد استكمل حقيقة الإيمان وأبواب الجنة مفتحة له: من أسبغ وضوءه، وأحسن صلاته، وأدى زكاة ماله، وكف غضبه، وسجن لسانه، واستغفر لذنبه، وأدى النصيحة لأهل بيته.

ينبغي أن يكون في المؤمن ثمان خصال: وقار عند الهزاهز، وصبر عند البلاء، وشكر عند الرضا، وقنوع بما رزق، ولا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة.

فصل في أسمائه ومعاني أسمائه
صلى الله عليه وآله وسلم

من أسمائه ما نطق به القرآن، ومنها ما جاء في الأثر، فمنها: محمد قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠]، ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [الفتح:٢]، ومعناه: الذي بلغ النهاية في الخصال المحمودة وتكاملت فيه المحاسن والمناقب، قال الأعشى:

إليك أبيت اللعن كان كلالها إلى الماجد الفرع الجواد المحمد

شعر:

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه فالله أعلى وأمجد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمدُ

ومنها: أحمد؛ وهو مشتق من الحمد كأحمر من الحمرة، ومعناه قريب من معنى محمد إلا أن أحمد أبلغ، قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

ابن عباس قال: اسمه في التوراة أحمد الضحوك القتال، يركب البعير، ويلبس الشملة، ويجتزي بالكسرة، وسيفه على عاتقه(٥٥٨).

ومنها: النبي، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١]، وقيل في معناه أنه من الإنباء وهو الإخبار، أخذ من النبأ وهو الخبر، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١، ٢]، والأصل يكون فيه النبيء بالهمز فترك همزه، وقيل: يسمى نبيًا لبيان أمره ووضوح خبره أخذ من النبأ وهو عندهم الطريق، قال القطامي:

لما وردن نبيًا واستتب بنا مسحنفر(٥٥٩) كخطوط السيح منسحل

وقال آخر:

لأصبح(٥٦٠) رتمًا دقاق الحصى مكان النبي من الكاثب

(٥٥٨) الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ١٣٣.

(٥٥٩) مسحنفر: مستحقر، م ي. كذا في لسان العرب (نبا).

(٥٦٠) لأصبح: فأصبح، م ي. كذا في لسان العرب (كثب).

قيل: وهو الأصح عن الرفيع الشأن العالي الأمر، أخذ من النبوة وهو ما ارتفع من الأرض، والأصل فيه نَبِيوٌ فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن أبدل من الواو الياء وأدغمت الياء الأولى، واختلفوا فقرأ نافع (نبيء) بالهمز كل القرآن، وقرأ الباقون بغير همز وهو الصحيح؛ لأنه لغة قريش.

وروي أن رجلًا قال: السلام عليك يا نبيء الله، فقال: «لست نبيء الله ولكني نبيّ الله» فأنكر الهمز، ولأن في ترك الهمز تعظيمًا لأنه من الرفعة وليس كذلك المهموز.

ومنها: الرسول، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ومعناه: أن الله اصطفاه بالرسالة وهو رسوله إلى خلقه.

ومنها: الأمي، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾، وقيل: معناه أنه مكي، وتسمى مكة أم القرى، قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧]، وقيل: معناه: أنه لا يكتب، وكان بهذه الصفة، وهي إحدى معجزاته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨].

ومنها: الشاهد، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، وقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل:٨٩]، قيل: معناه يشهد يوم القيامة على الخلائق، قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج:٧٨] قيل: شاهدًا أي مشاهد فسمي شاهدًا لمشاهدة الحال كأن ينظر إليها، وقيل: يشهد للأنبياء بالتبليغ، وعلى الأمم بالتبليغ إليهم.

ومنها: المبشر والبشير، قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ [الأحزاب:٤٥] معناه: يبشر المؤمنين بالثواب ويبشر أهل الجنة.

ومنها: النذير، قال تعالى: ﴿وَنَذِيرًا..﴾ الآية، ينذر الكافرين بالعقاب والنار.

ومنها: الداعي، قال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٦] لأنه دعا إلى الله وطاعته والتقرب بعبادته.

ومنها: السراج، قال تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، يعني مضيئًا، وقيل: شاهدًا لنا، ومبشرًا بنا، ونذيرًا منا، وداعيًا إلينا، وسراجًا منيرًا لعبادنا، وسمي سراجًا لضياء الدنيا بالنور وامحاق الكفر به، قال العباس بن عبد المطلب فيه صلى الله عليه وآله وسلم[٥٦١]:

(٥٦١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٢٦٨.

وأنـت لمـا ولـدت أشـرقت الأر ض وضـاءت بنـورك الأفـق
فنحـن فـي ذلـك الضيـاء وفـي النـور وسـبل الرشـاد نختـرق

وقيل: به يهتدى إلى نور الإيمان كما يهتدى بالسراج.

ويقال: لم شبهه بالسراج مع كثرة الأنوار؟

فجوابنا: لفوائد:

منها: أن السراج هو الشمس قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ[٥٦٢] ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦] فشبهه بالشمس لأنها نور تغلب سائر الأنوار، فكذلك محمد ودين محمد يغلب سائر الأديان.

شعر:

فإنـك شـمس والملـوك كواكـب إذا طلعـت لـم يبـد منهـن كوكـب

فشبه نوره في غلبته بالشمس.

ومنها: أن الشمس لها مقدمات تبشر لسائر النجوم كالصفرة والبياض والحمرة، فكذلك محمد يبشر به الأنبياء [ويترقب] لمجيئه الأصفياء، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى».

ومنها: أن الشمس إشراق وإحراق، كذلك هو رحمة للمؤمنين، ونور للمقرين به، وإحراق للكافرين، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، إذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله».

ومنها: أن الشمس [دليل] على الأوقات والأزمنة والأمكنة، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]، فكذلك محمد بيَّن السّبل وهي دارسة وأظهر الدين وهي طامسة.

ومنها: أن الشمس تنفي الظلمة عن الدنيا، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس:٣]، فكذلك محمد نفى ظلم الكفرة وجميع الملل الباطلة، قال تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، وقال: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩].

---

(٥٦٢) في م ي: وجعلنا. وما أثبتناه من المصحف.

ومنها: أن الشمس يبتغى بطلوعها الفضل، قال تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء:١٢]، فكذلك محمد يبتغى به الكرامات قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧] أكرم وليد وأعز فقيد.

ومنها: أن الشمس علامة التحريم والتحليل في الصوم، إذا طلعت حرم الطعام، وإذا غربت حرم الصيام، كذلك محمد من أقر به حرّم مالُه ودمه، ومن لم يقر به أحل ماله ودمه.

ومنها: أن الشمس إذا طلعت ملأت الأرض نورًا، وكذلك ملئت الأرض بنور محمد وشريعته.

ومنها: أن الشمس إذا طلعت يستوي في منافعها الفقير والغني، والملوك والمملوك، وكذلك نور محمد في الدنيا وشفاعته في الآخرة.

ومنها: قيل: إن المراد بالسراج هو السراج وليس الشمس وفائدته أن للسراج خاصية(٥٦٣) ليست لسائر الأنوار، وهو أن السراج يقتبس منه ألاف السرج وأكثر وهو كما هو، كذلك محمد تقتبس منه الأنوار وهو بحاله بخلاف الشمس والقمر والكواكب.

ومنها: أن الشمس وإن كان نورها جنس نور القمر والنجوم فهو واحد لا يشبهه من ذلك شيء، وكذلك محمد من جنس(٥٦٤) الأنبياء ولكن لا يدانيه في الفضل شيء.

ومن أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم: الخاتم، قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقيل: معناه من قولك: ختمت الشيء، إذا تممته وبلغت آخره، فهو خاتم الأنبياء وآخرهم.

ومنها: المصطفى، قال الله تعالى: ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً﴾ [الحج:٧٥]، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، والاصطفاء الاختيار(٥٦٥)، ومعناه المصطفى، وهذا اسم إذا أطلق فهم منه نبينا عليه السلام وإن كان يجوز أن يوصف به غيره من الأنبياء كقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾.

ومنها: المدثر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١] يعني المتدثر بثيابه.

---

(٥٦٣) خاصية: خاصيته، م ي.

(٥٦٤) جنس: أحسن، ي.

(٥٦٥) الاختيار: الإخبار، ي.

ومنها: المزمل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١] يعني المتزمل بثيابه.

ومنها: عبدًا ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

ومنها: رحمة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً﴾ [الأنبياء:١٠٧] يعني يهتدي بك الخلق فيصيرون إلى رحمة الله.

ومنها: رؤوف رحيم، قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] وهو من الرحمة.

ومنها: نور، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، يعني يهتدى به كما يهتدى بالنور.

ومنها: صاحب، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

ومنها: بشر، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].

ومنها: أولى، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦].

ومنها: بشير، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر:٢٤].

ومنها: كريم، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠].

ومنها: عبد الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن:١٩].

ومنها: منذر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧]، ومعناه النذير.

ومنها: الهادي، ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

مبحث في ما وردت به الأخبار

الماحي: عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله: «إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو [الله] بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي لا نبي بعدي»، ومعنى الماحي أنه محا ظلمة الكفر[٥٦٦].

(٥٦٦) موطأ مالك ٥/ ١٤٦١.

ومنها: الحاشر، ومعناه في الحديث يعني يحشر الناس وهو يتقدمهم وهم[٥٦٧] خلفه، والحشر: الجمع، ومنه: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص:١٩] أي مجموعة، ومعنى الحاشر على هذا: الجامع.

ومنها: العاقب، قيل: آخر الأنبياء، عن سفيان. قال أبو عبيدة: وكذلك كل شيء خلف شيئًا فهو عاقب، ومنه: العقوبة؛ لأنها تكون بعد الذنب.

ومنها: المقفى، روي بفتح الفاء وكسرها، فأما بالكسر فمعناه العاقب، لأنه تبع الأنبياء وكل شيء تبع شيء فقد قفاه، ومنه: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الحديد:٢٧]، ومنه: القافية؛ لأنها تتبع سائر الكلمات[٥٦٨] في البيت، فأما بالفتح فهو مأخوذ من القفي وهو الكريم المكرم للضيف، والقفاوة البر واللطف، قال سلامة بن جندب:

ليس بأَسْفَى ولا أقْنَى ولا سَغِلٍ ... يُسْقَى [دَواءَ قَفِيٍّ][٥٦٩] السَّكْنِ مَرْبُوبِ

فمعنى المقفى: المكرم المتفضل[٥٧٠]، والأول أحسن وأشبه بالرواية.

ومنها: نبي الرحمة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة».

ومنها: نبي الملحمة، والملحمة: الحرب، وسمي بذلك لأنه بعث بالحرب والقتل.

ومنها: الضحوك، ومعناه: طيب النفس.

ومنها: القتال سيفه على عاتقه، سمي بذلك لحرصه على القتال، قال علي عليه السلام: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يكن أحد منا أقرب إلى العدو منه.

ومنها: المتوكل، عن أم سلمة: إنا لنجد صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الكتب، اسمه المتوكل ليس بفظ ولا غليظ، ومعناه: أنه يكل أموره إلى الله.

ومنها: القثم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاني ملك قال: أنت قُثَم، وخُلقك قيِّم[٥٧١]، ونفسك مطمئنة»، وقيل: معناه المعطي؛ لأن القثم الإعطاء، يقال: قثم له؛ أي أعطاه، فسمي

---

(٥٦٧) هم: هو، م ي.

(٥٦٨) الكلمات: الكمالات، م ي.

(٥٦٩) دَواءَ قَفِيٍّ: في، م ي. وما أثبتناه من لسان العرب: ١/ ٣٩٩.

(٥٧٠) المتفضل: المفضل، ي.

(٥٧١) قيِّم: قثم، م ي. سبل الهدى والرشاد ١/ ٤٩٧.

بذلك لأنه كان يعطي ولا ينحل، ويمنح ولا يمنع، وقيل: معناه أنه جامع لكل خير وفضيلة، يقال للرجل الجموع للخير قثوم وقثم.

ومنها: الفاتح، لفتحه أبوابًا من الإيمان كانت منسدة، وأنار به ظلمًا مسودة، وقيل: معناه الحاكم، والفتح: الحكم، ومنه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

ومنها: الأمين، مأخوذ من الأمانة وأدائها، وصدق الوعد، وكان يسمى بذلك قبل البعث لما عاينوا من أمانته وحفظه لها، وقيل: الأمين الذي يؤمن الحلف والكذب، وغير ذلك.

ومنها: الصفوة، ومعناه: المختار.

ومنها: المختار، ومعناه أنه اختاره برسالته.

ومنها: الأول الآخر، روي أنه قال له ملك ليلة المعراج: يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، فقال: «يا جبريل ما معنى هذه التحية؟ فقال: أنت أول في النبوة، آخر في البعثة، ظاهر في الشريعة، باطن في الشفاعة»، وقيل له صلى الله عليه وآله وسلم: متى كنت نبيًا؟ قال: «كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد».

ومنها: الأسماء، عن كعب أنه قال: اسم النبي عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد المجيد، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر، وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفي التوراة موذموذ[٥٧٢]، وفي الإنجيل: طاب طاب، وفي الصحف: عاقب، وفي الزبور: فاروق، وعند المؤمنين[٥٧٣] محمد.

أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا محمد، وأنا أحمد، والمصطفى، ونبي الرحمة والملحمة».

ومنها: ابن الذبيحين، روي عنه أنه قال: «أنا ابن الذبيحين»، يعني إسماعيل وعبد الله.

مبحث في كناه

ويكنى أبا القاسم؛ لأنه يقسم الجنة بين أهلها، وقيل: بابنه المسمى القاسم.

---

(٥٧٢) موذموذ: مور مور، م ي. كذا في المواهب اللدنية ١/ ٤٧٦.

(٥٧٣) عند المؤمنين: عبد المؤمن، م ي. المواهب اللدنية ١/ ٤٧٦.

أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، فإني أبو القاسم، الله يعطي وأنا أقسم»(٥٧٤).

وعن جابر: «تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي، إنما أنا قاسم أقسم بينكم».

ومنها: أبو الأرامل، روي أنه يكنى في التوراة بذلك.

ومنها: أبو الأيتام لرحمته عليكم كما قال أبو طالب:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يروى أنه يكنى بأبنائه الطيب والطاهر وغيرهم.

مبحث فيما أقسم الله به في القرآن وذكر أعضائه في القرآن

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢] يعني بحياتك.

قال ابن عباس: ما خلق الله نفسًا ألزم عليه من محمد، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد [سواه] قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾، وأقسم الله على هدايته فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:١، ٢] الآيات.

وأقسم على رسالته فقال: ﴿يسٓ * وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣].

وأقسم على محبته فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى:١-٣].

وأقسم على شرف أخلاقه فقال: ﴿نٓ...﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١-٤]، فسئلت عائشة عن خلقه فقالت: كان خلقه القرآن ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩].

وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك».

وذكر تعالى وجهه في القرآن فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ [البقرة:١٤٤].

وذكر عينه فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه:٣١].

---

(٥٧٤) لم أقف على رواية تنهى عن التسمية باسم رسول الله إلا في الجامع لابن وهب ص ٩٤، ونص الحديث: «لا تسموا باسمي وتكنوا بكنيتي» وجاء عقبه: «يعني أن يُجمع الاسم والكنية».

وذكر بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

وذكر أذنه فقال: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

وذكر قلبه قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

وذكر صدره فقال: ﴿فَلَا[٥٧٥] يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢].

وذكر فؤاده فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:١١].

وذكر لسانه فقال: ﴿فَإِنَّمَا[٥٧٦] يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم:٩٧].

وذكر ظهره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:١-٣].

وذكر يده فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء:٢٩].

وذكر خُلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ[٥٧٧] لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وذكر حياته فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:٧٢].

فصل في الموازاة وتفضيله على سائر الأنبياء عليهم السلام

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

فيما فضل به عليهم: ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: بعثت إلى الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب من مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي، وأعطيت الشفاعة فإنه[٥٧٨] ليس لنبي إلا وقد سأل شفاعته، وإني ادخرت شفاعتي وجعلتها لمن لا يشرك بالله شيئًا».

ومنها: ما يروى أنه أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا ينفعكم[٥٧٩] إيمانكم بالتوراة وموسى وبالإنجيل وعيسى حتى تقروا بمحمد، وهو من القبيلة المباركة بني هاشم،

(٥٧٥) في م ي: ولم. وما أثبتناه من المصحف.

(٥٧٦) في م ي: إنما. وما أثبتناه من المصحف.

(٥٧٧) في م ي: إنك. وما أثبتناه من المصحف.

(٥٧٨) فإنه: وإنه، م ي. مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣١٦٤٥.

(٥٧٩) ينفعكم: سمعكم، م ي.

وإنه المبعوث في الأمة المرحومة، وإنه خطيب من وافى القيامة، وشفيع من لم يكن له وسيلة، وإن دينه خير الأديان، وشرائعه أسهل الشرائع، وأتباعه خير أتباع المرسلين، وبين كتفيه خاتم النبوة صلى الله عليه وآله وسلم، وإن شعاره البر والصدق، والعدل والإنصاف، ولباسه التقوى، ودار هجرته طيبة وهي يثرب.

ومنها: ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «قال لي جبريل: يقول الله لك يا محمد مننت عليك بسبعة أشياء: أولها: لم أخلق في السماوات والأرضين أكرم علي منك، والثاني: أن مائة ألف وأربعة وعشرين(٥٨٠) ألف نبي كلهم مشتاقون إليك، والثالث: لم أعط أمتك مالًا كثيرًا حتى لا يطول عليهم الحساب، والرابع: لم أطول أعمالهم حتى لا تجتمع عليهم الذنوب كثيرًا، والخامس: لم أعطهم من القوة كما أعطيت من قبلهم حتى لا يدَّعوا الربوبيةَ والسادس: أخرجتهم في آخر الزمان حتى لا يكون مقامهم تحت التراب كثيرًا، والسابع: لا أعاقب أمتك كما عاقبت بني إسرائيل».

ومنها: ما روي أن يهوديا(٥٨١) جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أنت أكرم على الله أم آدم؟ فقال: «أنا ورب الكعبة»، فقال اليهودي: كذبت ورب البيت المقدس، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله أعطاني خمسًا لم يعط آدم وإن آدم أبي، ولكني أعطيت ما لم يعطه وأنا أفضل منه ولا فخر ولا عجب»، قال اليهودي: وما هذه الخمس؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن آدم لما عصى أخرجه الله من الجنة طريدًا عطشانًا عريانًا، ولو عصى من أمتي أحد لم يمنعه الله من المساجد، والثاني: طار عنه الحلي والحلل ولم يسلب عن أمتي، والثالث: فرق بينه وبين امرأته، والرابع: أظهر الله خطيئته، والخامس: لم يقبل توبته حتى بنى البيت المعمور فطاف حوله، وإن من أمتي من ذنوبه أكثر من زبد البحر وقطر المطر فندم عليها واستغفر غفر الله له»، قال: صدقت يا محمد، وأنا(٥٨٢) أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ومنها: ما روي أن موسى سأل ربه: أنا أفضل أم محمد؟ فقال: فضل محمد عليك كفضلك على أمتك.

---

(٥٨٠) عشرين: عشرون، م ي.

(٥٨١) يهوديا: يهود، م ي.

(٥٨٢) أنا: أن، ي.

وقد ذكر العلماء فضله على [الأنبياء] نبي نبي، فمن ذلك: فضله على آدم، وقد ذكرنا الأخبار في ذلك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فضلت على آدم بخصلتين: كان شيطاني كافرًا فأعانني الله عليه حتى أسلم، وكان أزواجي أعوانًا على الطاعة، وكان شيطان آدم كافرًا وزوجه معينة له على خطيئته، وأعطي آدم سجود الملائكة وكان هو قبلة السجود، وأعطي[٥٨٣] محمد مثله فأمر ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا فصلوا خلفه في بيت المقدس ليلة المعراج».

ومنها: فضله على إدريس: عن جابر: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد المنبر وقال: «من أنا؟ قلنا: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

وخص إدريس برفعه إلى السماء، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٧] فرفع محمد إلى الحجب، فشاهد ما لم يشاهده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، ثم هذا أفضل، لأنه رجع إلى قومه وخبرهم بما رأى بخلاف إدريس.

ومنها: فضله على نوح إذ خص بجري السفينة على الماء، وأعطي محمد جري الحجر على الماء، وذلك أعجب.

وروي أنه دعا عكرمة بن أبي جهل[٥٨٤] إلى الإسلام قال: لا حتى تريني آية، وكان بين يديه غدير فيه ماء حوله حجار، فقال له: «ائت ذلك الحجر فقل له: إن محمدًا يدعوك»، فجاء وقال، فجرى على وجه الماء حتى انتصب قائمًا بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها: فضله على إبراهيم إذ سخر النار له في الدنيا[٥٨٥]، وأعطي محمد تسخير نار الأخرى فتؤمر لأن تكون مطواعًا لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكلمته الشاة المسمومة بخبره فسخرها له وفيه زيادة وهو كلامها إياه[٥٨٦]، واتخذ الله إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا حبيبًا وهو أفضل، وقد ذكر العلماء في ذلك أشياء كثيرة.

(٥٨٣) وأعطي: فأعطى، م ي.

(٥٨٤) جهل: جعل، م ي.

(٥٨٥) الدنيا: الطني، م ي.

(٥٨٦) إياه: إيها، م ي.

ومنها: فضله على يوسف: أعطي مُلكًا بعد محن[٥٨٧] كثيرة، وأعطي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ملك الدنيا هنيئا قال: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

ومنها: فضله على موسى: أعطي موسى فلْق البحر بعصاه، وأعطي محمد شق القمر بإشارته وهو من نور السماء، فكان أبلغ، وأعطي موسى انفجار الماء من الحجر في التيه، وأعطي محمد انفجار الماء من بين أصابعه.

عن جابر: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر، فأصابهم عطش، فدعا بتور[٥٨٨] ماء وجعل يده في وسطه، وجعل الماء ينبع من تحت أصابعه حتى استقى العسكر ورويت الدواب، فقيل لجابر: كم كنتم؟ قال: ألف وستمائة.

وأعطي موسى اليد البيضاء في حال دون حال، وأعطي محمد نورا كان يضيء عن يمينه، وأعطي موسى الغمام يظله، وأعطي ذلك محمدًا، ذكرنا ذلك في حديث بحيرى الراهب.

وألقى موسى عصاه فصارت حية، [و]نطقت الشاة المسمومة تخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وخسف الله بقارون بسبب دعاء موسى، وخسف بسراقة بن مالك بسبب دعاء محمد، ثم هلك قارون، وأمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأرض بترك سراقة فتركته، وقد ذكر ذلك في المعجزات.

ومنها: فضله على داود، قتل داود جالوت بحجر رماه، وقتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم صناديد قريش يوم بدر بكف تراب أخذه ورماهم به قال: «شاهت الوجوه»، ولين لداود الحديد، ومسح النبي ضرع الشاة شاة [أم] معبد وهي يابسة فتحلبت لبنًا.

ومنها: فضله على سليمان: أعطي الريح مركبًا، وأعطي محمد البراق فبلغ [في] ساعة سدرة المنتهى.

ومنها: فضله على عيسى، تكلم في المهد، وكلمه الذئب والضب والظبي على ما ذكرنا في المعجزات، وأعطاه المائدة، وأعطى محمدًا مثل ذلك، ذكرناه في أخبار أهل البيت.

---

(٥٨٧) محن: حين، م ي.

(٥٨٨) التَّوْر: إناءٌ يُشرب فيه. انظر الصحاح (تور)، كذا في ينابيع النصيحة ص٣١.

وعن ابن عباس: وأوحى الله إلى عيسى: يا عيسى آمن بمحمد وأمر من[٥٨٩] أدركه من قومك أن يؤمنوا به.

وبما فضله على سائر الأنبياء في الجملة أنه يأتي[٥٩٠] ذنب كل نبي ثم توبته وقبولها كقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا..﴾ إلى قوله: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥] ﴿[قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ][٥٩١] لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص:١٦]، وقدم لمحمد المغفرة على الذنب فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢]، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة:٤٣].

ومنها: دعا كل نبي باسمه، وخاطبهم به، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ [هود:٤٨]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [هود:٧٦]، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود:٨١]، ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾، ﴿يَٰهُودُ﴾ [هود:٥٣]، ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ [هود:٦٢]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١٤٤]، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف:٢٩]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:٥٥]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم:٧]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢]، وذكر محمدًا بالرسالة والنبوة والتعظيم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال:٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة:٤١].

ومنها: أن كل نبي يخاطب كما يخاطب الناس بينهم كما حكى عنهم: ﴿يَٰهُودُ﴾ [هود:٥٣]،، ﴿يَٰنُوحُ﴾ [هود:٣٢]، ونهانا عن ذلك فقال: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] يعني لا تقولوا: يا محمد ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، صفوة الله.

ومنها: أن كل نبي إذا خوطب بما يكره تولى جوابه بنفسه كقول نوح: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف:٦١]، وهود: ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف:٦٧]، فلما رمي محمد بأنه مجنون أو شاعر أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير:٢٢]، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم:١٠].

ومنها: أن الأنبياء والله أعلم مبعوثون إلى قوم دون قوم كقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾

---

(٥٨٩) أمر من: آمن مر، ي.

(٥٩٠) يأتي: تعالى، م ي.

(٥٩١) ما بين المعكوفين في م ي: قال رب اغفر. وما أثبتناه من المصحف.

[نوح:١]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:٧٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥]، وأرسله إلى الخلق كافة فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، وفي الخبر: «بعثت إلى الناس كافة».

ومنها: أنه بعث إلى الجن والإنس من بين سائر الرسل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وقال: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت إلى الأحمر والأسود» يعني الجن والإنس.

وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى ليلة الجن وخلفه ابن مسعود، فجاء اثنان فصليا خلفه وسألاه عن مسألة وذهبا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنهما من جن نصيبين».

ومنها: أن الملائكة نزلت عليه وحاربت بين يديه، ولم يذكر ذلك لنبي قط.

عن بعض الصحابة: كنا نقصد الرجل من المشركين فقبل أن نصل إليه نرى رأسه ملقى عن بدنه فنعلم أنه قتله غيرنا.

ومنها: ما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أعطيت السبع مكان التوراة، والمثاني مكان الإنجيل، والمائين مكان الزبور، وفُضلتُ بالمفصل».

ومنها: ما روي عن مقاتل: وجدت في الزبور: إني أنا الله لا إله إلا أنا، محمد رسولي يقهر العجم، ويفتح مشارق الأرض ومغاربها، وهو خير الأنبياء وسيدهم، وأفضل الخلق وأكرمهم، فطوبى لمن آمن به، وطوبى لمن اتبعه، وطوبى لمن هاجر معه، وطوبى لمن اقتدى به.

وروي أن إبراهيم الخليل عليه السلام قال: يا رب قد أعطيت النبوة والملك ولد إسحاق فماذا أنت صانع إلى ولد إسماعيل، فقال: أخرج من ظهره عدد كواكب السماء ورمال الفلوات، وأبعث من ولده نبيًا أرفع ذكره، فلم يدر ما رفع ذكره حتى بعث محمد وجاء بالأذان فقرن اسمه باسمه وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤].

ومنها: أن إسرافيل هبط إليه ولم يهبط على نبي قط، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فقال له: يا محمد أيما أحب إليك أن تكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا؟ فأومأ إليه جبريل فقال: «نبيًا عبدًا»، وفي ذلك اختيار التواضع، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد، وأجلس على الأرض، ولو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع لقبلت».



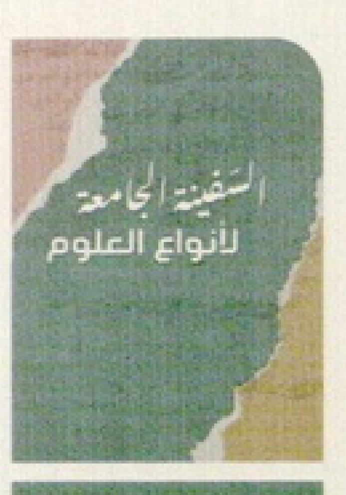
فهرس المحتويات

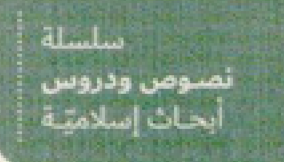
الطباعة: **بيبلوس برينتينغ ش.م.ل.**

٢٠٢٤/٦/٣٠-٠,٣-١٦٨١٩٢



انتهت رئاسة المعتزلة في نيسابور بلا منازع في القرن ١١/٥ للحاكم الجشميّ، فهو يمثّل ثقافة نيسابور آنذاك ويعدُّ أحد شخصيّاتها الموسوعيّة، الجامعة بين علم الكلام والفقه والأخباريّين والمحدّثين والمفسّرين. وحين صنّف الجشميّ كتابه هذا كان في مقتبل العمر، وكان هذا الكتاب من أوائل مصنّفاته. لقد أراد الجشميّ في مسمّاه من كتابه هذا أن يكون بمثابة السفينة في حمولتها؛ أي أن يكون ناقلًا معرفيًّا لكلّ ما لديه من أخبار وقصص ومعارف. ويمكن أن يجمل القول في كتاب السفينة بأنّه مصنَّف الحاضرة أو الإقليم، ليعكس ثقافة الإقليم ونقاشاته وأفكاره، فهو يمثّل ثقافة الوسط الثقافيّ العامّ. ولو تتبّعنا مصنّفات الجشميّ فأعماله تكشف لنا تنوّعها بين علوم التفسير (ضمّت جلّ آراء التفاسير المعتزليّة)، وكذلك في علوم الحديث، وأحاديث الأخباريّين وقصص السير، وهذا كان الشاغل في حوزات نيسابور وجوامعها. وهو في تصنيفه هذا استطاع أن يبرز ثقافة نيسابور بكلّ أطيافها ومدارسها، وقد أوضح من جهة أخرى الآراء الاعتزاليّة في قصص الأخبار والمحدّثين ونحوها.








ISBN 978-2-7214-8188-7
9 782721 481887
Réf: TXTISL000010A